

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



تجليد مكتب
صالح الدقر

5

11

9

2A

201-1930

297.09
R56a2A
v.2

٢١٤
دى اى لورن ٨٨

عصر الملوكة



بقلم

الدكتور

أحمد فرند زفامى

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثانى

(حقوق الطبع محفوظة للـ مؤلف)

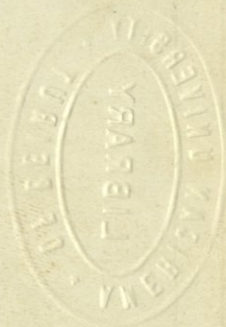
38643

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٧ - ١٣٤٦ م

Handwritten marginal note on the right edge of the page.



فهرست

المجلد الثاني من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول - عصر بني أمية

صفحة	باب المنشور :
١	رسالة أبي بكر على
١٢	كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها
١٤	كلمة أم الخير بنت الحريش
١٧	كلمة الزرقاء بنت عدى
١٨	كلمة عكرشة بنت الأطرش
٢٠	رسالة لعبد الحميد الكاتب كتبها عن مروان بن محمد لبعض من ولاة
٥٣	رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب أوصى فيها الكتاب
٥٧	رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب في الشطرنج
٦٠	رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب وصف بها الصيد

باب المنظوم :

٦٣	أنواع الغزل وزعيم كل نوع
٦٤	الغزل الإباضي - عمر بن أبي ربيعة
١٠٣	الغزل العذري - جميل
١٢٤	الغزل الصناعي - كثير
١٣٨	الغزل القصصي - قيس بن الملقح (المجنون)
١٥٢	قيس بن ذريح
١٦٤	الشعر السياسي - النعمان بن بشير

ملحق الكتاب الثاني - عصر بني العباس

باب المنشور :

١٦٩	مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان
١٨٨	رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشيد الى قسطنطين ملك الروم

صفحة	
٢٣٧	رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشد
٢٤٤	كتب الرشد
٢٤٤	كتاب عهد البيعة
٢٤٧	نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة
٢٤٩	نسخة كتاب الرشد الى العمال

باب المنظوم :

٢٥٢	بشار بن برد
٢٧٧	حماد بن محمد
٢٨٧	مروان بن أبي حفصة
٣٠٠	أبو دلالة
٣١٧	أبان بن عبد الحميد اللاحق
٣٢٦	أخبار حمدان بن أبان
٣٣٣	منصور النمرى
٣٣٩	السيد الحميرى
٣٤٩	سلم بن عمرو الخاسر
٣٥٤	ربيعة الرقى
٣٥٩	الرقاشى
٣٦١	أبو العتاهية
٣٧٤	مسلم بن الوليد
٣٩٣	العباس بن الأحنف
٤٠٠	ابن مناذر
٤٠٣	صالح بن عبد القدوس
٤٠٧	سعيد بن وهب
٤١١	الحسن بن وهب
٤١٩	أشجع السلى
٤٢٣	على بن الجهم
٤٣١	على بن جبلة

مُلْحَقٌ مَرَعٌ الكتاب الأول

باب المنشور

ذكرنا في مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثاني الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعُيننا عناية خاصة الى جانب ذلك بذكر جملةصالحة من آثار كتّاب خاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . وآخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة أنموذجا أمويًا ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن بُرد مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مسعدة وأبي نُوَاس نموذجًا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأُميين والمأمون، الى غير ذلك من النماذج والاثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان — اللهم إلا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة — فهي في وضوحها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .
وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ — رسالتنا أبي بكر وعليّ

قال أبو حيان علي بن محمد التّوحيديّ البغداديّ : سَمَرْنَا لَيْلَةً عند القاضي أبي حامد أحمد بن بَشْرِ المَرورُوديّ ببغداد، فتصرف في الحديث كلّ متصرفٍ، وكان غزير الرواية،

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١

لطيف الدراية، بخرى حديث السقيفة، فركب كلُّ مركبا، وقال قولاً، وعرض بشيء، ونزع الى فنّ. فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصديق^(١)، رضى الله عنه، الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وجواب علىّ عنها، ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة؟ فقال الجماعة: لا والله؛ فقال: هي والله من بنات الحقائق، ومحبّات الصنادق، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا لأبى محمد المهلبىّ فى وزارته، فكاتبها عني بيده. وقال: لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أئين؛ وإنها لتدلّ على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبُعد غور، وشدة غوص. فقال له العبادانى: أيها القاضى، فلواتممت المنّة علينا بروايتها! أسمعناها، فنحن أوعى لك من المهلبىّ، وأوجب ذمّاً عليك؛ فاندفع وقال:

حدّثنا الخزاعى بمكة عن أبى ميسرة، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيْح عن عيسى بن دؤاب بن المتّاح، قال سمعت مولاي أبا عبيدة يقول: لما استقامت الخلافة لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرّها ويسر

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى خنافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة صاحب رسول الله وأول خليفة له فى الإسلام وخطيب يوم السقيفة.

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب. ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستين وبضعة أشهر. ونشأ من أكرم قرين خلقا، وأرجحهم حلما، وأسماهم يدا، وأشدّهم عفة. وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفانها. صحب رسول الله قبل النبوة. وكان أول من آمن به من الرجال وصدّقه فى كل ما جاء به، ولذلك سمى الصديق، وأنفق أمواله فى تأييد دعوته، وهاجر معه الى المدينة مؤثرا صحبته على كل أهله وولده، وشهد معه أكثر الغزوات. وما زال ينفق ماله وقوّته فى معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى. واختلفت العرب، وارتدّت عن الإسلام، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقف بالطائف، بجزد عليهم الجيوش حتى قمعهم، وجمع العرب على الإسلام، وساقهم تورا الى فتح ممالك كسرى وقصر. وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم. وكان رحمه الله فصيحا بليغا، خطيبا مفوّهًا، حاضر البديهة، قوى الحجّة، شديد التأثير، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم؛ فأبت الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم، وأبى المهاجرون من قرينش إلا أن يكون منهم. واشتدّ النزاع حتى كادت تقع الفتنة، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة. وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال.

خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ ^(١) تلَكُؤُ وِشِمَاس ، وتهمّم ونِفَاس ، فكره أن يتمادى الحال فتبدو العورة ، وتشتعل الجمره ، وتفرق ذات الأيّن ، فدعاني بحضرتة في خلوة ، وكان عنده عمر ابن الخطّاب رضى الله عنه وحده ، فقال : يا أبا عبيدة ، ما أيّن ناصيتك ، وأيّن الخير بين عينيك ، وطالم أعزّ الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك ، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحووط ، والمحلّ المغبوط ، ولقد قال فيك في يوم مشهود : "لكل أمة أمينٌ وأميينُ هذه الأمة أبو عبيدة" ، ولم تزل للدين ملتجياً ، وللمؤمنين مُرتجى ، ولأهلك ركناً ، وإخوانك رداء . قد أردتُك لأمرٍ خَطَره مُحَوِّف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لم يندمل جرحه يسارك ورفقك ، ولم تجب حيتّه برقيتك ، وقع اليأس ، وأعضل اليأس ، واحتيج بعد ذلك الى ما هو أمرٌ منه وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامه بك ، ونظامه على يديك . فتأت له أبا عبيدة وتلطّف فيه ، وأنصح لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا العصابة غير آلٍ جهداً ، ولا قالٍ حمداً ، والله كاللئك وناصرك ، وهاديك ومبصرُك ، ان شاء الله . امض الى عليّ واخفِضْ له جناحك ، وأغضُضْ عنده صوتك ، واعلم أنه سُلالة أبي طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانه ، وقل له : البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف ، والليل أغدق ، والسما جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رءوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قداحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة تقوب العداوة ، وهذا الشيطان متكى على شماله ، متحيل يمينه ، نافخ حُصْنِه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ، عناداً لله عز وجل

- (١) الشماس : المعادة والمعادنة . (٢) تههم الشيء : طلبه وتحسسه . (٣) نافس في الشيء : منافسة : رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة . (٤) تجب : تقطع . (٥) تأتي فلان للأمر : تهيأ له وأتاه من وجهه .
(٦) الجوا أكلف : أسود تعلوه حمرة . (٧) الليل أغدق : مرخ سدوله مظلم . (٨) السماء جلواء : مصحبة . (٩) خالية لا شجر فيها . (١٠) أي مستعد لأن يعمل عمله من الشر .

أولاً، ولآدمَ ثانياً، ولنبيه — صلى الله عليه وسلم — ودينه ثالثاً، يوسوس بالفجور، ويدلي بالغرور، ويمتني أهل الشرور . يُوحى الى أوليائه زخرف القول غروراً بالباطل، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وعادة له منذ أهانه الله تعالى في سالف الدهر، لا منتهى منه إلا بعض الناجذ على الحق، وعرض الطرف عن الباطل، ووطء هامة عدو الله بالأشد فالأشد، والآكد فالآكد، وإسلام النفس لله عز وجل في ابتغاء رضاه . ولا بد الآن من قول ينفع إذا ضرت السكوت وخيف غيبه ؛ ولقد أرشدك من أفاء ضالتك^(١)، وصافك من أحيا مودته بعثائك، وأراد لك الخير من أثر البقاء معك ؛ ما هذا الذي تسول لك نفسك، ويدوى به قلبك، و يلتوى عليه رأيك، ويتخاوص دونه طرفك، ويسرى فيه ظعنك، ويتراد معك نفسك، وتكثر عنده صعداؤك، ولا يفيض به لسانك . أعجبة بعد إفصاح ! أتليس بعد إفصاح ! أدين غير دين الله ! أخلق غير خلق القرآن ! أهدى غير هدى النبي صلى الله عليه وسلم ! أمثلي^(٢) "تمشى له الضراء وتدب له الخمر" ! أم مثلك ينقبض عليه الفضاء، ويكسف في عينه القمر ! ما هذه القعقة بالشنان ! وما هذه الريعوة باللسان ! إنك والله جد عارف بأستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، هجرة الى الله عز وجل ، ونصرة لدينه في زمان أنت فيه في كن الصبا ، وخدر الغرارة ، وعنفوان الشبية ، غافل عما يشيب ويريب ، لا تعي ما يراد ويُسَاد، ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه الى غايتك التي اليها عدل بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر ولا مجرود الفضل ؛ ونحن في أثناء ذلك نعانى أحوالاً تُزيل الرواسي ؛ ونُقاسي أهوالاً تُشيب النواصي ، خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، تتجزع صابها ، وتشرح عياها ، ونُحْكِم آساسها ، ونبرم^(٣)

(١) أفاء : أربح . (٢) يتخاوص : يفض من بصره . (٣) الضراء : الاستخفاء . والخمر :

ما وارك من شجر، وهو مثل يضرب لمن يخلدع صاحبه . (٤) الشنان جمع شن وهو القرية الخلق

الصغيرة . والقعقة : الصوت، يريد أنه لا يخوف بمثل هذا . (٥) شرح عياها : نضدها ونضم بعضها

الى بعض . والعياب : جمع عيبة ، وهي زنبيل من آدم تجعل فيه الثياب .

(١) أمر أسنمها، والعيون تَحْدِجُ بالحسد، والأنوفُ تَعْطِسُ بالكِبَرِ، والصدور تَسْتَعْرِ بِالغَيْظِ، والأعناق تتناول بالفخر، والشَّفَارُ تُشْحَذُ بالمَكْرِ، والأرض تَمْسُدُ بالخوف؛ لا تنتظر عند المساء صباحا، ولا عند الصباح مساء، ولا تدفع في تَحْرِ أمر إلا بعد أن نَحْسُو الموتِ دونه، ولا نبغ مُرَادًا إلا بعد الإياس من الحياة عنده؛ فَادِينَ في جميع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأُمِّ، والحال والعَمِّ، والمسال والنَّشَبِ، والسَّبْدِ واللَّبْدِ، والهِلَّةِ والِدَيْبَةِ، بِطِيبِ أَنْفُسِ، وَقِرَّةِ أَعْيُنِ، وَرَحْبِ أَعْطَانِ، وَثَبَاتِ عِزَائِمِ، وَصِحَّةِ عَقُولِ، وَطَلَّاقَةِ أَوْجِهِهِ، وَذَلَّاقَةِ أَلْسِنِهِ؛ هذا مع خَفِيَّاتِ أَسْرَارِهِ، وَمَكْنُونَاتِ أَخْبَارِهِ، كُنْتَ عَنْهَا غَافِلًا، وَلَوْلَا سِنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاقِلًا، كَيْفَ وَفَوَؤُادُكَ مَشْهُومٌ، وَعُودُكَ مَعْجُومٌ! .

والآن قد بلغ الله بك وأنهض الخير لك، وجعل مرادك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع؛ فارتقب زمانك، وقصَّ أردانك، ودع التّعس والتجسس لمن لا يظلع لك اذا خطأ، ولا يترحز عنك اذا عطا؛ فالأمر غَضٌّ، والنفوس فيها مَضٌّ، وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم بلجاجا، وسيفها العَضْبُ، فلا تنبَّ أعوجاجا، وماؤها العَدْبُ فلا تحلُّ أجاجا.

والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر، فقال لي: «يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه، ولن يتضاعل عنه لا لمن يتفجج إليه، هو لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي» .

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصَّهْرِ، فذكر فينا من قريش، فقلت: أين أنت من علي! فقال صلى الله عليه وسلم: إني أكره لفاطمة مِيعَةَ شَبَابِهِ، وحدائة سنه. فقلت له: متى كنفته يدك، ورعته عينك، حقت بهما البركة، وأسغت عليهما النعمة؛ مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك لا حوجاء

- (١) جمع مرس ككف وهو الخبل . (٢) السبد: الشعر. واللبد: الصوف . (٣) يقال: جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أي لم يأتنا بشيء، فاهلة من الفرح والاستهلال، والبله من البلل والخير . (٤) مشهوم (بالشين المعجمة): ذكي متوقد . (٥) عطا: مديك عنقه وأقبل نحوك . (٦) حلم الجلد (من باب فرح): فسدت وتقبب . (٧) أي يظلمه ويدافع عنه . (٨) يتطلع إليه ويفتخر به . (٩) أي ما كنت عرفت منك شيئا .

ولا لوجاء، فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك؛ وكنت إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، فلم يكن معرضاً عن غيرك: وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك؛ وإن تلجأ في نفسك شيء فهلم، فالحك مرضى، والصواب مسموع، والحق مطاع . ولقد نُقل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض، وعليها حذر، يسره ما سرها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسيخه ما أسيخها. أما تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وأقاربه وسُجرائه، إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمزية، وأفرده بحالة! أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدىً بَدداً، عباهل مَباهل، طَلاحي مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا رائد ولا ذائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقى ولا واقى، ولا هادى ولا حادى! كلا! والله ما أشتاق إلى ربه تعالى ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه، إلا بعد أن ضرب المدى، وأوضح الهدى، وأبان الصوى، وأتمن المسالك والمطارح، وسهل المبارك والمهايع، وإلا بعد أن شدخ يافوخ الشرك بإذن الله، وشرم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجدع أنف الفتنة في ذات الله، وتقل في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ودار جامعة، إن استقالوني لك وأشاروا عندى بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحتهم، والفتاح لمغالقتهم، والمرشد لضالتهم، والرادع لغوايتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق . ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن .

(١) سجرائه: أصدقائه . (٢) عباهل مباحل (بالياء الموحدة في الكلمتين): مهملة . (٣) الصوى : الأعلام . (٤) المهايع: الطرق . (٥) اليافوخ (يهمز ولا يهمز) جزء الرأس الذي يتحرك في الطفل . (٦) في صبح الأعشى : «فهذه» .

وبعد، فالتاس ثُمَامَةٌ فارقُ بهم وأحنُ عليهم ولن لهم ، ولا تُشقى نفسك بنا خاصة فيهم ،
وأترك ناجم الحقد حصيدا ، وطائر الشر واقعا ، وباب الفتنة مغلقا ، فلا قال ولا قيل ولا لوم
ولا تبيع ، والله على ما نقول شهيد ، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تأهبت للنهوض ، قال عمر رضى الله عنه : كُنْ لَدَى الْبَابِ
هَنِيئَةً فَلَئِنْ مَعَكَ دُورٌ مِنَ الْقَوْلِ ؛ فَوَقَمْتُ وَمَا أُدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي ، إِلَّا أَنَّهُ لِحِقْنِي بِوَجْهِ
يَنْدَى تَهْلًا ، وَقَالَ لِي : قُلْ لَعَلِّي : الرَّقَادُ مَحْمَلَةٌ ، وَالهُوَى مَقْحَمَةٌ ، وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ
مَعْلُومٌ ، وَحَقٌّ مَشَاعٌ أَوْ مَقْسُومٌ ، وَبِنَا ظَاهِرٌ أَوْ مَكْتُومٌ ؛ وَإِنْ أَكَيْسَ الْكَيْسُ مِنْ مَنَحِ
الشَّارِدِ تَأْلِفًا ، وَقَارِبَ الْبَعِيدِ تَلْفُفًا ، وَوَزَنَ كُلَّ شَيْءٍ بِمِيزَانِهِ ، وَلَمْ يَخْلُطْ خَبْرَهُ بِعِيَانِهِ ،
وَلَمْ يَجْعَلْ فِتْرَةَ مَكَانِ شِبْرِهِ ، دِينًا كَانَ أَوْ دُنْيَا ، ضَلَالًا كَانَ أَوْ هُدًى . وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمِ
مُسْتَعْمَلٍ فِي جَهْلٍ ، وَلَا خَيْرَ فِي مَعْرِفَةٍ مَشُوبَةٍ بِنُكْرٍ . وَلَسْنَا بِجَلْدَةِ رَفْعِ الْبَعِيرِ بَيْنَ الْعِجَانِ
وَالذَّنْبِ . وَكُلُّ صَالٍ فِيْبَارِهِ ، وَكُلُّ سِيلٍ فِإِلَى قَرَارِهِ . وَمَا كَانَ سَكُوتُ هَذِهِ الْعَصَابَةِ إِلَى
هَذِهِ الْعَايَةِ لِعِيٍّ وَشَيْءٍ ، وَلَا كَلَامُهَا الْيَوْمَ لِفَرَقٍ أَوْ رَفَقٍ . وَقَدْ جَدَعَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْفَ كُلِّ ذِي كِبَرٍ ، وَقَصَمَ ظَهْرَ كُلِّ جَبَّارٍ ، وَقَطَعَ لِسَانَ كُلِّ
كَذُوبٍ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ . مَا هَذِهِ الْخِزْوَانَةُ الَّتِي فِي فَرَّاسِ رَأْسِكَ ! مَا هَذَا
الشَّجَا الْمُعْتَرِضَ فِي مَدَارِجِ أَنْفَاسِكَ ! مَا هَذِهِ الْقَدَاةُ الَّتِي تَغَشَّتْ نَاطِرَكَ ! وَمَا هَذِهِ
الْوَحْرَةُ الَّتِي أَكَلَتْ شَرَّاسِيْفَكَ ! وَمَا هَذَا الَّذِي لَيْسَتْ بِسَبَبِهِ جِلْدَ النَّمْرِ ، وَأَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
بِالشَّحْنَاءِ وَالنُّكْرِ ! وَلَسْنَا فِي كِسْرِيَّةٍ كِسْرِيٍّ ، وَلَا فِي قَيْصَرِيَّةٍ قَيْصَرٍ ! تَأْمَلُ لِإِخْوَانِ فَارِسٍ
وَأَبْنَاءِ الْأَصْفَرِ ! قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ جَزْرًا لِسَيْفِنَا ، وَدَرِيئَةً لِرِمَاحِنَا ، وَمَرْمَى لِبَطْنَانَا ، وَتَبَعًا
لِسُلْطَانِنَا ؛ بَلْ نَحْنُ فِي نُورِ نُبُوءَةٍ ، وَضِيَاءِ رِسَالَةٍ ، وَثَمَرَةِ حِكْمَةٍ ، وَأَثَرَةِ رَحْمَةٍ ، وَعُنْوَانِ نِعْمَةٍ ،

(١) الرفع : أصل الفخذ من باطن . والعجان : الاست . يريد أن منزلتهم بين الأحياء والعشائر ليست

حقيرة مهينة . (٢) الشئ بالكسر إتباع للعي . (٣) الخيزوانة : الكبر . (٤) الوحرة

(بالنحر يك) : والحقد العداوة والشراسيف : جمع شرسوف ، والشرسوف مقطع الضلع .

وظلَّ عَصْمَةٌ، بين أمة مهديَّة بالحق والصدق، مأمونةٌ على الرِّقِّ والفتق، لها من الله قلبٌ
أبيٌّ، وساعدٌ قوىٌّ، ويدٌ ناصرةٌ، وعينٌ باصرةٌ . أتظنُّ ظنا ياعلى أن أبا بكرٍ وثبَّ على هذا
الأمر مُقتاتاً على الأمة خادعاً لها أو متسلطاً عليها ! أترأه حلَّ عقودها وأحال عقولها ! أترأه
جعل نهارها ليلاً، ووزنها كيلاً، ويَقَطَّتها رقاداً، وصلاحها فساداً ! لا والله ! سلا عنها فولهت
له، وتطامن لها فاصقت به، ومال عنها فمالت إليه، وأشماز دونها فأشملت عليه، حَبْوَةً
حَبَّاهُ اللهُ بها، وعاقبةٌ بلغه اللهُ إليها، ونعمةٌ سرَّبهُ بجمالها، ويدٌ أوجب اللهُ عليه شكرها،
وأمةٌ نظر اللهُ به إليها . والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة . وإنك
بحيث لا يُجهل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ولا يُجحد حُكُّك فيما آتاك اللهُ،
ولكن لك من يزاحك بمنِّكٍ أضخم من منجك، وقُربٍ أمس من قرابتك، وسنٍّ أعلى من
سنِّك، وشيئةٍ أروع من شديبتك، وسيادةٍ لها أصلٌ في الجاهلية وفرعٌ في الإسلام،
ومواقف ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة، ولا تُدكر منها في مقدمة ولا ساقية، ولا تَضْرِبُ فيها
بذراع ولا إصبع، ولا تخرُج منها بيازٍ ولا هبع^(١) . ولم يزل أبو بكر حبة قلب رسول الله
صلى اللهُ عليه وسلم وعلاقة نفسه، وعيبة سرِّه، ومفزع رأيه ومشورته، وراحة كفه،
ومرْمَقَ طَرْفه . وذلك كله بمحض الصادق والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرته مغنيةٌ
عن الدليل عليه . ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم قرابةً، ولكنه
أقرب منك قربةً، والقربانُ لحمٌ ودم، والقربةُ نفسٌ وروح . وهذا فرق عرْفه المؤمنين،
ولذلك صاروا إليه أجمعون . ومهما شككت في ذلك، فلا تشك أن يدَّ الله مع الجماعة،
ورضوانه لأهل الطاعة . فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع لك غداً، وألفظ من فيك
ما يعاقب بلهاتك، وأنفث سخيمة صدرك عن تقاتك، فإن يك في الأمد طولٌ، وفي الأجل
فُسحةٌ، فستأكله مريثاً أو غير مريء، وستشربه هنيئاً أو غير هنيء، حين لا راداً لقولك إلا
من كان آيساً منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك، يمض إهابك، ويعرك أديمك^(٢)،
ويجرك أديمك^(٣) .

(١) البازل: الجمل القوى الذي دخل في سنته التاسعة . والهبع: الفصيل الذي ينتج في الصيف فيكون ضعيفاً .

(٢) يمض إهابك : يحرق جلديك . (٣) يعرك : يدلك .

ويزري على هديك . هنالك تفرع السن من ندم ، وتجرع الماء ممزوجا بدم ، وحينئذ تأسى
على ما مضى من عمرك ودارج قوتك ، فتود أن لو سقيت بالكأس التي أبيتها ، ورُدِدَتْ
إلى حالتك التي استغويتها . والله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب هو شاهده ، وعاقبة
هو المرجو لسرأها وضراًها ، وهو الولي الحميد ، الغفور الودود .

قال أبو عبيدة : فتمشيت مترملاً أنوء كأنما أخطو على رأسي ، فرقاً من الفرقة ، وشققاً
على الأمة ، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلأ ، فابتمئته بشي كله ، وبرئت إليه منه ،
ورفقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسرت في مفاصله حميها ، قال : "حلت معلوطة ،
وولت مخروطة" ، وأنشأ يقول :
(١)

إحدى لياليك فيهيسي هيسي * لا تتعمى الليلة بالتعريس
(٢)

نعم يا أبا عبيدة ، أكل هذا في أنفس القوم ، ويحسون به ، ويضطغنون علي ! قال
أبو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عندي ، إنما أنا قاض حق الدين ، ورائق فتق المسلمين ،
وساد ثلمة الأمة ، يعلم الله ذلك من جلال قلبي ، وقرارة نفسي .
(٣)

(١) هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب . وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزوج
ابنه . ورايع الخلفاء الراشدين . وإمام الخطباء من المسلمين .

ولد رحمه الله بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان
شجاعاً لا يشق له غبار . أيداً جليداً . شهد الغزوات كلها مع النبي إلا غزوة تبوك . وأبلى في نصرة رسول الله صلى
الله عليه وسلم ما لم يبلاه أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة
بني أمية غضبا منهم لمقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن القتل على حسب اعتقادهم ، فحدث من جراء ذلك
الفتنة العظمى بين المسلمين وافتراقهم إلى طائفتين فتعاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعل أو معاوية حتى قتل
أحد الخوارج علياً غيلة بمسجد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علماً وزهداً
وشدة في الحق : وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوطة : مقتحمة من غير روية . (٣) مخروطة : مسرعة . (٤) هيسي : سيرى أي سير كان .

(٥) أي ينظون على الضغن وهو الحقد . (٦) جاجلان قلبي ، أي حبه .

فقال عليّ رضي الله عنه : والله ما كان قعودي في كِنِّ هذا البيتِ قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للعرف ، ولا زريّةً على مسلم ، بل لما قد وقّدني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقدّه . وذلك أني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدّد عليّ حزناً ، وذكّرني شجناً . وإن الشوق إلى المحاق به كافٍ عن الطمع في غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق ، رجاء ثواب مُعدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومشيئته ، وأمره ونهيه . على أني ما علمت أن التظاهر عليّ واقع ، ولا عن الحق الذي سيق إلى دافع . وإذ قد أفعِم الوادي بي ، وحشد النادي من أجلي ، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين وسرتني . وفي النفس كلامٌ لولا سابق عقد وسالف عهد ، لشقيتُ غيظي بخنصري وبنصري ، وخضتُ لجنته بأنحصى ومفرقي ، ولكنني ملجُمٌ إلى أن ألقى الله ربي ، وعنده أحسب ما نزل بي . وإني غادٍ إلى جماعتكم ، فبايعُ صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسرتكم ، ليَقْضِيَ الله أمراً كان مفعولاً .

قال أبو عبيدة : فعدتُ إلى أبي بكر رضي الله عنه فقصصتُ عليه القول عليّ غره ، ولم أختل شيئاً من حُلوه ومُره ، وبكرتُ غدوةً إلى المسجد ، فلما كان صباح يومئذ وإذا عليّ مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما فبايعه ، وقال خيراً ، ووصف جميلاً ، وجلس زميتاً ، وأستاذن للقيام فضى وتبعه عمر مُكرماً له ، مستأثراً لما عنده .

فقال عليّ رضي الله عنه : ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيتُهُ فرقاً ، ولا أقول ما أقول تعلقةً . وإني لأعرف منتهى طرفي ، ومحطّ قدمي ، ومتزّع قوسي ، وموقع سهمي ؛ ولكن قد أزمْتُ عليّ فأسِي ثِقَةً بربي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضي الله عنه : كَفُفِكَ غَرَبُكَ ، وآستوقف سِرْبَكَ ، ودع العيصيّ بلحائها ، والدلاء على رشائها . فإنّا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أوريّنا ، وإن متحنا أرويّنا ،

(١) عليّ غره ، أي كما هو وكما قص عليّ . (٢) زميتاً : حلياً وقوراً . (٣) يقال :

أزم الفرس على فأس الحمام إذا عضها وقبض عليها . وفأس الحمام : الحديدة المعرضة منه في الخنك . يريد أنه ألجم نفسه ثقة الخ .

وإن قَرَحْنَا أَدْمِينَا . ولقد سمعتُ أمائِكَ التي لَغَزَتَ بها عن صدرِ أكلِ بالحوَى ، ولو شئتُ لقلتُ على مقاتِلِكَ ما إن سمعته نَدِمْتَ على ما قلتَ . وزعمتَ أنك قعدتَ في كِنِّ بيتِكَ لما وَقَدَكَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فِقْدِهِ ، فهو وَقَدَكَ ولم يَقْدُ غيرَكَ ! بل مصابهُ أعظمُ وأعمُّ من ذلك ، وإن من حقِّ مُصابه ألا تَصُدَّعَ شَمْلَ الجماعةِ بِفُرْقَةٍ لا عصامَ لها ، ولا يُؤمَنُ كيدُ الشيطانِ في بقائها . هذه العربُ حولنا ، والله لو تَدَاعَتْ علينا في صبحِ نهارٍ لم نلتقِ في مسائه . وزعمتَ أن الشوقَ إلى اللِّحاقِ به كافٍ عن الطمعِ في غيره ! فمن علامةِ الشوقِ إليه نصرَةٌ دينيه ، ومؤازرةُ أوليائه ومعاونتهم . وزعمتَ أنك عكفتَ على عهدِ الله تجع ما تفرق منه ، فمن العكوفِ على عهدِ الله النصيحةُ لعبادِ الله ، والرأفةُ على خلقِ الله ، وبذل ما يصلحون به ، ويرشدون عليه . وزعمتَ أنك لم تعلم أن التظاهر واقعٌ عليك ، وأى حقٌّ لَطُّ دونك ! . قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأَنْصارُ بالأُمسِ سِرًّا وجهرا ، وتقلبتَ عليه بطنا وظهرا ، فهل ذكرتُ أو أشارتُ بك ، أو وجدتَ رضاهم عنك ؟ هل قال أحدُ منهم بلسانه إنك تصلحُ لهذا الأمرِ ؟ أو أوما بعينه أو هم في نفسه ؟ أنتظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ، وعادوا كفارا زهدا فيك ، وبعوا الله تحاملا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاني عَقيلُ ابنِ زيادِ الخَزْرَجِيِّ في نَفَرٍ من أصحابه ومعهم شَرْحَبِيلُ بنُ يعقوبِ الخَزْرَجِيِّ وقالوا : إن عليا ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، ويُنكر على من يعقد الخِلافةَ ؛ فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ في نَحْرِهِم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحيَ ويتوكَّفُ مناجاةَ الملكِ ؛ فقلتُ : ذلك أمر طواه الله بعد نبيةِ محمد صلى الله عليه وسلم أكان الأمرُ معقودا بأَنْشُوطَةٍ ، أو مشدودا بأطرافِ لِيْطَةٍ ؟ كَلَّا ! والله لا عجا بجمدِ الله إلا أفصحتُ ، ولا شوْكَاءَ إلا وقد تفتَّحتُ . ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشقيتُ غِيْظِي » وهل ترك الدينُ لأهله أن يَسْفُوا غِيْظَهُم بيدٍ أو بلسانٍ ؟ تلك جاهليةٌ وقد استأصل الله شأقتها وأقتلع جُرمَها ، وهور ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الرُّوحَ والريحانَ ، والهدى والبرهانَ .

(١) لط : جمد . (٢) يتوكف : ينتظر . (٣) الأنشوطه : عقده يسهل الاخلاها ،

إذا أخذ بأحد طرفيها افتتحت . (٤) الليطة قشرة القصة التي تليط بها أى تلتق .

وزعمت أنك مُلجَمٌ، ولعمري إن من أتقى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراه .

فقال على رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حفص، والله ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أريد نكثته، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغي حِوَلًا عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله من آثر التفاق، وأحتضن الشقاق، وفي الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل في جميع الحوادث .
ارجع يا أبا حفص الى مجلسك ناقيع القلب، مبرود الغايل، فسيح اللبان^(١)، فصيح اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر، ويحطّ الوزر، ويضع الإصر، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فانصرف على وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .



٢ - ومن كلام عائشة^(٢) رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلت الى أزفلة^(٣) من الناس، فلما حضروا، أسدلت أستارها، وعكّت وسادها، ثم قالت : أبى، وما أيبسه ! أبى والله لا تعطوه الأيدي، ذلك طود منيف، وفرع مديد، هيهات، كذبت الظنون ! أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم، سبق الجواد إذا استولى على الأمس . فتي

(١) اللبان : الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من النبوة، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقتها أربعائة درهم، وكانت أحب نساءه إليه، وكنيتها أم عبد الله، كنيته بابن أختها أسماء، ولها خطب ووقائع . وكانت من أكبر العاملات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام صحبة الزبير وطلحة . وكانت أفصح أهل زمانها وأبينهم منطقاً وأحفظهم للحديث وأفقههم . توفيت سنة سبع وخمسين ودفنت ليلاً بالبيقع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .

(٣) الأزفلة : الجماعة . (٤) لا تعطوه : لا تناله .

قریش ناشئا، وكهفُها كَهْلا، يَفْكُ عَنيها، ويريش مُمَلِّقها، ويرأب شَعبها، ويلم شَعبها، حتى
حَلَيْتَه قلوبها، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ
بِفنائها مسجداً يُحْيِي فيه ما أمات المَبْطُلون . وكان رحمه الله غزير الدمعة، وقيدَ الجوانح،
شَجِي النَّسِيج، فانقضت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهنئون به (الله يُستَهزئُ
بِهِمْ وَيُؤَدِّمُهُم فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) فأكبرت ذلك رجالات من قریش فحنت قسيها، وفوقت
سهامها، وانتشوه غرَضا، فما فُلوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومر على سيسانته (١) حتى
إذا ضرب الدين بجرانه، ورست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا، ومن كل فرقة أرسلوا
وأشتاتا، اختار الله لنبيه ما عنده، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان
رواقه، ومد طنبه، ونصب حباله، وأجلب بجيله ورجله، وأضطرب حبل الإسلام،
ومرج عهدُه وماج أهله، وُغِيَ الغوائل، وظنت رجال أن قد أكثبت أطاعهم نهزها،
ولات حين الذي يرجون، وأنى والصدِّيق بين أظهرهم ! فقام حاسراً مشتماً، بجمع
حاشيته ورفع قُطريه، فرد رسن الإسلام على غرَبه، ولم شعثه بيطبه، وأنتاش الدين
فنعشه، فلما أراح الحق على أهله، وقرر الرؤوس على كواهلها، وحقن الدماء في أهيها،
أنته منيته، فسدت ثمته بنظيره في الرحمة، وشقيقه في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب،
لله دَرَأَم حَمَلَتْ به ودرت عليه ! لقد أوجدت به، ففنعج الكفرة ودَيَّجها، وشرد الشرك
شدر مدرًا، وبجع الأرض وبجعها، فقاعت أكلها، ولتفظت خباها (٢) ترأمة ويصدف عنها،
وتصدى له ويأبها . ثم وزع فيها فيهما وودعها كما صحبها . فأروني ماذا ترتئون، وأى
يومي أتي تتقِمون : أيوم إقامته اذ عدل فيكم، أم يوم طعنه إذ نظر لكم؟ أقول قولي هذا
وأستغفر الله لي ولكم . ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت : أنشدكم الله هل أنكرتم مما
قلتُ شيئاً؟ قالوا : اللهم لا .

(١) على سيسانته، أي على دأبه وعادته . (٢) فنعج : غلب وقهر . (٣) خباها :

ما غاب عنها .



٣ - كلمة أم الخير بنت الحريش^(١)

ومن كلام أم الخير بنت الحريش البارقية يوم صَفَّين في الانتصار لعلي رضي الله عنه :
يُروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أم الخير بنت الحريش البارقية
برحلها ، وأعلمه أنه مُجَازِيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب
اليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أنا أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب ! ولقد كنتُ
أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدرى . فلما شيعيها وأراد مفارقتها قال لها :
يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب اليّ أنه يجازيني بقولك في بالخير خيرا وبالشر شرا ،
فما عندك ؟ قالت : يا هذا لا يُطمعنك بك بي أن أسرك بباطل ، ولا تؤيسك معرفتي بك
أن أقول فيك غير الحق . فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأنزها مع حريمه ثلاثا ،
م أدخلها عليه في اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين
ورحمة الله وبركاته ، قال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، وبالرغم منك دعوتني بهذا الاسم ،
قالت : مه يا أمير المؤمنين ! فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه ولكل أجل كتاب ،
قال : صدقت ، فكيف حالك يا خالة ؟ وكيف كنت في مسيرك ؟ قالت : لم أزل في عافية
وسلامة حتى صرتُ اليك فأنا في مجلس أنيق ، عند ملك رقيق ، قال معاوية : بحسن نيتي
ظفرتُ بكم ، قالت : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دحض المقال وما تُردى عاقبته ،
قال : ليس هذا أردنا ، أخبريني كيف كان كلامك يوم قُتل عمار بن ياسر ؟ قالت :
لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات تفهنت لسانى حين الصدمة ،
فان شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلتُ ، قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى
أصحابه فقال : أيكم يحفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين
كحفظي سورة الحمد ، قال : هاتيه ، قال : نعم كأني بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم عليها

(١) منقولة عن صحح الأعتشى ج ١ ص ٢٤٨ (٢) زور الكلام في نفسه : هياه .

برد زبیدی کثیف الحاشية، وهی علی جمل آرمک وقد اُحيط حولها، وبيدها سوط منتشر
الضفر، وهی كالنحل يهدر في شقشقته تقول :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ))! ان الله قد أوضح الحق، وأبان
الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مهيمه! ولا سوداء مُدْهِمَة، فإلى
أين تريدون رحمكم الله! أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الرّحف، أم رغبةً عن
الاسلام، أم ارتداداً عن الحق! أما سمعتم الله عز وجل يقول: ((وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ
الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)).

ثم رفعت رأسها الى السماء وهی تقول :

قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يا ربّ أزمة القلوب، فاجمع
الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى. هلموا رحمكم الله الى الإمام العادل،
والوصي الوفي، والصدّيق الأكبر! إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أهدية،
وثب بها معاوية حين الغفلة يُدرك بها نارَاتِ بنى عبد شمس.

ثم قالت: قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. صبراً معشر المهاجرين
والأنصار، قاتلوا على بصيرةٍ من ربكم، وثباتٍ من دينكم، وكأني بكم غداً قد لقيتم أهل
الشام حُمرٍ مُستنفرة، فترت من قسورة، لا تدري أين يُسلكُ بها من فجاج الأرض، باعوا
الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعمّا قليل ليُصبحن
نادمين، حين نُحِّلَ بهم الندامة، فيطلبون الإقالة! إنه والله من ضلّ عن الحق وقع في الباطل،
ومن لم يسكن الجنة نزل في النار. أيها الناس، إن الأيكاس استقصروا عمر الدنيا
فرفضوها واستبطأوا مدة الآخرة فسعوا لها. والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتُعطل
الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش
وطيبه، فإلى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم

وزوج ابنته وأبى آبنيه؟ خُلق من طِينته، وتَفَرَّعَ عن نَبْعته، وخصَّه بِسِرِّه، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمضى على سنن استقامته، لا يعرج لراحة اللذات. وهو مُفَلِّقُ الهام، ومكسِّرُ الأصنام، إذ صلَّى والناس مُشْرِكُونَ، وأطاع والناس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قتل مُبارِزِي بَدْر، وأفنى أهلَ أُحد، وفتق جمعَ هوازن، فيلها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً، وريَّة وشقاقاً. وقد آجَتهدُ في القول، وبالغْتُ في النصيحة، وباللَّهِ التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلي! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوعنى يابن هند أن يُجْرِىَ اللهُ ذلك على يدي من يسعدنى الله بشفائه؛ قال: هيات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: أيها يا أم الخير، هذا والله أصلك الذي تبين عليه؛ قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيداً، ما أردتُ بعثمان نقصاً، ولقد كان سبأقا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، اغتيل من مأمته، وأني من حيث لم يحدر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا لا تدعنى كرجيع الصبيغ يعرك في المركن^(١)؛ قال: حقاً لتقولن ذلك وقد عزمت عليك؛ قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سبأقا إلى كل مكرمة في الإسلام. وإني

(١) المركن: الإجانة وهي إناء تغسل فيه الثياب. ويعرك: يحك. والرجيع المردود. أى لا تجعلنى كالثوب المصبوغ يحك في الإناء مرة بعد أخرى لإخراج صبغه منه: تشبه محاوره معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما في نفسها بما يغسل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها.

أسألك بحق الله يا معاوية ، فإن قریشا تحدّث أنك من أحلمها ، أن تَسَعِنِي بفضل حلمك ، وأن تُعَفِّنِي من هذه المسائل ، وأمض لما شئت من غيرها ، قال : نعم وكرامةً ، قد أَعَفَيْتُكَ ، وقد أَعَفَيْتُكَ ، وردّها مكرّمة إلى بلدها .



٣ - كلمة الزرقاء بنت عدى^(١)

ومن كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ما قالته يوم صَفَّين أيضا :

يروى أنها ذُكرت عند معاوية يوما ، فقال لجلسائه : أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين ، قال : فأشيروا عليّ في أمرها ، فأشار بعضهم بقتلها ، فقال : بس الرأي ! أيحسُنُ بمثل أن يقتل امرأة ! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقة من ذوى محرّمها وعدة من فرسان قومها ، وأن يمهد لها وطاءً لنا ، ويستترها بستر خَصِيف ، ويوسع لها في النفقة . فلما دخلت على معاوية ، قال : مرحباً بك وأهلاً ! قَدِمْتِ خيرَ مقدّمٍ قدّمه وافد ، كيف حالكِ ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة ! قال : كيف كنتِ في مسيركِ ؟ قالت : ربيبة بيتٍ أو طفلاً ممهداً ، قال : بذلك أمرناهم . أتدريين فيم بعثتُ إليك ؟ قالت : وأني لى بعلم ما لم أعلم ؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل ، قال : ألسيتِ الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصّفينِ بصفينِ تحضينِ الناس على القتال ، وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبُترَ الذنب ، ولن يعود ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكّر أبصر ، والأمرُ يحدث بعده الأمر ، قال

(١) هي الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس الهمدانية ، كانت من أهل الكوفة ، وكانت ذات شجاعة فائقة ، وبلاغة نادرة ، شهدت مع قومها واقعة صفين . ولها عدة خطب تحرّض الناس فيها على القتال ضد معاوية . وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب الى عامله بالكوفة باستدعائها ، فأحضرت اليه ، وبعد محاوره بينه وبينها سأها حاجتها ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً » ثم انصرفت ، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزة . (٢) خصيف : غليظ .

لها معاوية: أتخفظين كلامي يومئذ؟ قالت: لا والله، ولقد أُنسيتُ به؛ قال: لكني أحفظه،
 لله أبوك حين تقولين:

أيها الناس، إرعووا وأرجعوا! إنكم أصبحتم في فتنَةٍ غَشَّتكم جلايبَ الظلم، وجارت
 بكم عن قصد المحبَّة. فيالها فتنة عمياء، صماء بكماء، لا تسمع لنا عقها، ولا تَسْلُسُ لقائدها.
 إن المصباح لا يضيء في الشمس، والكواكب لا تُشِير مع القمر، ولا يقطع الحديد
 إلا الحديد. ألا من أسترشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها! فصبراً يمعاشر المهاجرين والأنصار
 على الغصص، فكأن قد أندمل شَعْبُ الشَّتات، والتأمت كلمة التقوى، ودمغ الحق باطله!
 فلا يجبهان أحدٌ فيقول: كيف العدلُ وأنتي! ليقضى الله أمراً كان مفعولاً. ألا وإن خضاب
 النساء الحنأ، وخضاب الرجال الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خيرٌ في عواقب
 الأمور. إيها إلى الحرب قُدماً غيرنا كصين ولا مُتَشاكسين.

ثم قال لها: يازرقاء، لقد شَرِكْتِ علياً في كل دم سَفَكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك،
 وأدام سلامتك؛ فمثلك من بشر بخير وسرّ جليسه؛ قال: ويسرك ذلك؟ قالت: نعم سُررتُ
 بالخبر فأنتي لي بتصديق الفعل! فضحك معاوية وقال: لوفأؤكم له بعد موته أعجبُ عندي
 من حُبكم له في حياته! أذكركي حاجتك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، آليتُ على نفسي ألا
 أسأل أميراً أعنتُ عليه أبداً، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلبه؛ قال:
 صدقت، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكساً.

٤ — عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عكرشة بنت الأطرش ما قالته يوم ضفّين أيضاً:
 يروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسأمت عليه بالخلافة ثم جلست؛
 فقال لها معاوية: الآن صرّ عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا علىّ حتى! قال:

ألسيت المتقلدة حمائل السيف بصفين وأنت واقفة بين الصفين تقولين : أيها الناس ، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهديتهم . إن الجنة لا يحزن من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهرين على حقهم ، إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم الى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم الى الدنيا فلبوه . فإله الله عباد الله في دين الله ! وإياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ، ويطفى نور الحق . هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار ، أمضوا على بصيرتكم ، وأصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحجر الناهقة تقصع قصع البعير .^(١)

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكفأ عليك العسكران يقولون هذه عكرشة بنت الأطرش ، فإن كدت لتقلين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ الآية ، وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته ، قال : صدقت ، فاذكري حاجتك ، قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يجبر لنا كبير ، ولا يُنعش لنا فقير ، فإن كان عن رأيك فمثلك من آنتبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استعان بالحوثة ، ولا استعمل الظلمة ، قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبنا من أمور رعيتنا تغور نتفق ، وبحور نتدقق ، قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً يجعل فيه ضرراً لغيرنا وهو علام الغيوب ، قال معاوية : هيات يا أهل العراق ، نهبكم على فلن تطاقوا . ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

(١) يقال : قصع البعير بجزته يقصع قصعا : مضغها .

٦ - رسالة لعبد الحميد الكاتب^(١)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولّاه^(٢) :

أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين - عند ما اعترَم عليه من توجيهك الى عدوّ الله الخلف الجاني الأعرابي ، المتسكع في حيرة الجهالة ، وظلم الفتنة ، ومهاوى الملكة ، ورعايه الذين عاثوا في أرض الله فسادًا ، وأتتهكوا حرمة الإسلام استخفافًا ، وبدلوا نعمة الله كفرًا ، وأستحلوا دماء أهل سنامه جهلا - أحب أن يعهد اليك في لطائف أمورك ، وعوامّ شؤونك ، ودخائل أحوالك ، ومضطرف تنقلك عهدًا يملكك فيه أدبه ، ويشرع لك به

(١) هذه الرسالة منقولة عن صحيح الأعمش ج ١٠ ص ١٩٥ (٢) دو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامريّ ولّاه ، الشامي دارا ، شيخ الكتاب الأوائل ، وأول من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بنى عامر ، وتخرج في البلاغة والكتابة على خنته أبي العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك ، وكتب دولته وأحد بلغاء العالم والنقطة من اليونانية . وكان عبد الحميد في أول أمره معلم صبيان ينتقل في البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليته أرمينية وانتدابه لتسكين فتنتها ، فكتب له مدّة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد مروان لله شكرًا وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال : ولم أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فظرت عنا ! قال : إذا تطير معي ؛ قال : الآن طاب لي السجود وسجد ، فاتخذ مروان كاتب دولته ، فصدر عنه من الرسائل ما صار نموذجًا يحاكيه من بعده من البلغاء .

ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه في كل هذه الشدة ؛ فقال له مروان : قد احتجت أن تصير مع عدوّي وتظهر الغدري ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تحوهم إلى حسن الظن بك ؛ فإن استطعت أن تنفعي في حياتي وإلا لم تعجز عن حنظ حرمي بعد وفاتي ؛ فقال له : إن الذي أشرت به على أرفع الأمرين لك وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غدره * فزلى بعد يوسع الناس ظاهره

وربى معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ ففروا ختبا عند صديقه ابن المقفع ففاجأه الطلب وهو في بيته ، فقال الذين دخلوا عليهم : أيبكا عبد الحميد؟ فقال كل منهما : أنا ، خوفا على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا فإن كلامنا له علامات ، فوكوا بنا بعضكم ويمضي بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي .

عِظَتَهُ ، وَإِنْ كُنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَخِلَافَتِهِ بِحَيْثُ أَصْطَنَعَكَ اللَّهُ لَوْلَايَةِ الْعَهْدِ مَخْتَصِماً
 لَكَ بِذَلِكَ دُونَ لِحْمَتِكَ وَبَنِي أَبِيكَ . وَلَوْلَا مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ دَالِلاً عَلَيْهِ ، وَتَقَدَّمَتْ فِيهِ
 الْحِكْمَةُ أَمْرَيْنِ بِهِ : مِنْ تَقْدِيمِ الْعِظَةِ ، وَالتَّذْكِيرِ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ، وَإِنْ كَانُوا أَوْلَى سَابِقَةً
 فِي الْفَضْلِ وَخِصِّصَاءَ فِي الْعِلْمِ ، لِاعْتِمَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَصْطِنَاعِ اللَّهِ بِإِيَّاكَ وَتَفْضِيلِهِ لَكَ
 بِمَارَاكَ أَهْلَهُ فِي مَحَلِّكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَبْقِكَ إِلَى رَغَائِبِ أَخْلَاقِهِ ، وَاتِّزَاعِكَ مَجْمُودِ شَيْمِهِ ،
 وَأَسْتِيْلَائِكَ عَلَى مَسَائِهِ تَدْبِيرِهِ . وَلَوْ كَانَ الْمُؤَدَّبُونَ أَخَذُوا الْعِلْمَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، أَوْ لَقَنَوْهُ
 إِلهَاماً مِنْ تَلْقَائِهِمْ وَلَمْ نُصَبِّهِمْ تَعَلَّمُوا شَيْئاً مِنْ غَيْرِهِمْ ، لَانْجَلْنَا عَنْ عِلْمِ الْغَيْبِ ، وَوَضَعْنَا هُمْ بِمَنْزِلَةِ
 قَصْرِهَا عَنْهُمْ خَالِقُهُمُ الْمُسْتَأْثَرُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ عَنْهُمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي فِرْدَايَتِهِ وَسَابِقِ لَاهُوتِيَّتِهِ ،
 أَحْتِجَاباً مِنْهُمْ لَتَعَقُّبِ فِي حِكْمِهِ ، وَثُبُوتِ فِي سُلْطَانِهِ وَتَفْضِيلِ إِرَادَتِهِ ، عَلَى سَابِقِ مَشِيئَتِهِ .
 وَلَكِنْ الْعَالِمُ الْمَوْفِقُ لِلْخَيْرِ ، الْمَخْصُوصُ بِالْفَضْلِ ، الْمَحْبُوبُ بِمِزْيَةِ الْعِلْمِ وَصِفَوْتِهِ ، أَدْرَكَهُ مُعَانَةً عَلَيْهِ
 بِالطَّفِّ بِحُثِّهِ ، وَإِذْلالِ كَنَفِهِ ، وَصِحَّةِ فَهْمِهِ ، وَهَجْرِ سَامِيَتِهِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، آخِذاً بِالْحُجَّةِ عَلَيْكَ ، مُؤَدِّياً حَقَّ اللَّهِ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ
 فِي إِرْشَادِكَ وَقَضَاءِ حَقِّكَ ، وَمَا يَنْظُرُ بِهِ الْوَالِدُ الْمَعْنِيُّ الشَّفِيقُ لَوْلَدِهِ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُو أَنْ
 يَنْزَهُكَ اللَّهُ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ يَهْشُرُ لَهُ طَمَعٌ ، وَأَنْ يَعِصَمَكَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ حَاقٍ بِأَحَدٍ ، وَأَنْ
 يَحْصِنَكَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ آسْتَوْلَتْ عَلَى أَمْرِيٍّ فِي دِينٍ أَوْ خُلُقٍ ، وَأَنْ يَبْلِّغَهُ فَيْكَ أَحْسَنَ مَا لَمْ يَزَلْ
 يَعُودُهُ وَيُرِيهِ مِنْ آثَارِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ ، سَامِيَةً بِكَ إِلَى ذِرْوَةِ الشَّرَفِ ، مَتَّبِعِيَّةً بِكَ بِسُلْطَةِ
 الْكِرَامِ ، لِأَمْحَةِ بِكَ فِي أَزْهَرِ مَعَالِي الْأَدَبِ ، مُورِثَةً لَكَ أَنْفَسَ ذَخَائِرِ الْعِزِّ ، وَاللَّهُ يَسْتَخْلِفُ
 عَلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسْأَلُ حِيَاطَتَكَ ، وَأَنْ يَعِصَمَكَ مِنْ زَنْغِ الْهَوَى ، وَيُحْضِرَكَ دَاعِيَ
 التَّوْفِيقِ ، مُعَانَةً عَلَى الْإِرشَادِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُعِينُ عَلَى الْخَيْرِ وَلَا يُوقِفُ لَهُ إِلَّا هُوَ .

إِعْلَمِ أَنَّ لِلْحِكْمَةِ مَسَالِكََ تَقْضِي مَضَائِقَ أَوْثَانِهَا مِنْ أُمَّهَا سَالِكَا ، وَرَكِبَ أخطَارَهَا
 قَاصِداً ، إِلَى سَعَةِ عَاقِبَتِهَا ، وَأَمِنْ سَرَحِهَا ، وَشَرَفِ عِزِّهَا . وَأَنَّهَا لَا تُعَارِ بِسُخْفِ الْحَقِيقَةِ ،
 وَلَا تُنْشَأُ بِتَفْرِيطِ الْغَفْلَةِ ، وَلَا يُتَعَدَّى فِيهَا بِأَمْرِيٍّ حُدُودَهُ . وَرَبِّمَا أَظْهَرَتْ بِسُلْطَةِ الْغَىِّ

مستور العيب . وقد تَلَقَّتْكَ أخلاقُ الحِكْمَةِ من كلِّ جهةٍ بفضلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، ولا مُتَطَوِّلٍ لمنالِ ذِرْوَتِهَا ، بل تأثَّلتَ منها أكرمَ نَبَعَاتِهَا ، وأستخلصتَ منها أعتقَ جواهرها ، ثم سموتَ الى لُبِّابِ مُصَاصِهَا ، وأحرزتَ مُنْفَسَ ذخائرها ، فأقتعدَ ما أحرزتَ ، ونافسَ فيما أصبتَ .

وَأَعْلَمُ أن أحتواءك على ذلك وَسَبَقَكَ إليه بإخلاصِ تقوى الله في جميع أمورك مُؤَثَّرًا لها ، وإضمارِ طاعته منطويًا عليها ، وإعظامِ ما أنعم الله به عليك شاكرًا له ، مرتبطًا فيه للزيد بحسن الحياطة له والذَّبِّ عنه من أن تَدْخُلَكَ منه سامةٌ ملال ، أو غفلة ضياع ، أو سِنَّة تهاون ، أو جَهَالَةٌ معرفية ، فإن ذلك أحقُّ ما يبدئُ به ونظرفيه ، معتمدا عليه بالقوة والآلة والعُدَّة والأفراد به من الأصحاب والحامَّة . فتمسَّكْ به لاجئًا إليه ، وأعتدِ عليه مؤثرًا له ، وآلتجئِ إلى كَنَفِهِ متحيزًا إليه : فإنه أبلغُ ما طُلبَ به رضا الله وأنجحُه مسألة ، وأجزله ثوابا ، وأعوده نفعًا ، وأعمه صلاحًا ، أرشدك اللهُ لحظك ، وفهمك سداده ، وأخذ بقلبك إلى محموده . ثم أجعل اللهُ في كل صباحٍ يُنعمُ عليك ببلوغه ، ويُظهرُ منك السلامة في إشراقه ، من نفسك نصيبًا تجعله له شكرًا على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن ، وسبوغِ نِعَمٍ ، وظهورِ كرامة ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تبارك وتعالى — جزءًا تُرَدِّدُ رأيك في آيه ، وترتل لفظك بقراءته ، وتُحَضِّره عقلك ناظرًا في مُحكمه ، وتُنتفهمه مفكرًا في مُتشابهه : فإن في القرءان شفاء الصدور من أمراضها ، وجلاء وساوس الشيطان وصعاصيعه ، وضيء معالم النُّور ، تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة لقومٍ يؤمنون . ثم تعهدْ نفسك بجاهدة هواك ، فإنه مغلاق الحسَنات ، ومفتاح السيئات ، وخَصَمُ العقل .

وَأَعْلَمُ أن كلَّ أهوائك لك عدوٌّ يحاولُ هلكتك ، ويعتريضُ غفلتك ، لأنها خُدَعُ إبليس ، وخواتيل مكره ، ومصائدُ مكيدته ، فاحذرْها مجانِبًا لها ، وتوقَّها محترسًا منها ، وأستعدْ

(١) المصاص : خالص كل شيء .

(٢) كذا في صبح الأعشى وفي مفتاح الأفكار (ص ٢٨٢) وغيره « وترين » . (٣) الصعاصع :

جمع صعصع وهو طائر أشهب يصيد الجنادب ، شبهه وسوسة الشيطان به . وفي بعض المؤلفات « وسفاسفة » .

بأنه عز وجل من شرها، وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه، وحزم نافذ لا مثنوية لرأيك بعد إصداره، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه؛ ومضاعة صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة شك فيها: فإن ذلك ظهر صدقك لك على ردها عنك، وقمعها دون ما نتطلع إليه منك؛ فهي واقية لك سُخْطة ربك، داعية إليك رضا العامة عنك، ساترة عليك عيب من دونك؛ فازدق بها متحلياً، وأصب بأخلاقك مواضعها الحميدة منها، وتوق عليها الآفة التي تقتطعك عن بلوغها، وتقتصر بك دون شأوها: فإن المؤونة إنما آشتت مستصعبة، وقدحت باهظة أهل الطالب لأخلاق أهل الكرم المتحليين سمو القدر، ببجالة مواضع ذميم الأخلاق ومجودها، حتى فترط أهل التصير في بعض أمورهم، فدخلت عليهم الآفات من جهات أمنوها، فنبسبوا إلى التفريط، ورضوا بذلك المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عمهين عن درج الشرف، ساقطين دون منزلة أهل الحجا. فحاول بلوغ غاياتها محمراً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصنا أعمالك من العجب: فإنه رأس الهوى، وأول الغواية، ومقاد الهلكة؛ حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي الألقاب وذمير تنابزها، من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضياع، ودخل الوهن. فتوق غلوب الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق ستظهر بأماراتها تصديق آرائك عند ذوى الحجا حال الرأي وخص النظر. فاجتلب لنفسك محمود الذكر وباقي لسان الصدق بالحذر لما تقدم إليك فيه أمير المؤمنين، متحزراً من دخول الآفات عليك من حيث أمنك وقلة ثقتك بمحسبكها: من ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتدارى جندك بالإحسان، وتصون سررك بالكتمان، وتداوى حقدك بالإنصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أودك، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردى. وأاناتك فوقها الملال وفوت العمل، ومضاعتك فدرعها روية النظر وأكثفها بأناة الحلم. وخلوتك فأحرسها من الغفلة وأعماد الراحة، وصمتك

فأنف عنه عيَّ اللفظ ، وخَفَّ سوء القالَّة ، وآستماعَكَ فأرعه حُسن التفهَم ، وقوه بإشهاد
الفكر ، وعطاءكَ فأمهده ببيوتاتِ الشرف وذوى الحسب ، وتحرَّز فيه من السرفِ وآستطالة
البذخِ وآمتنانِ الصنِيعَة ، وحياءكَ فأمنه من الخجلِ وبلادِ الحصرِ ؛ وحلمكَ فزعه عن
التهاونِ وأحضره قوه الشكيمة ؛ وعقوبتكَ فقصرها عن الإفراطِ ، وتعمد بها أهل
الآستحقاقِ ؛ وعفوكَ فلا تُدخله تعطيلِ الحقوقِ ، وخذ به واجبَ المفترضِ ، وأقم به أود
الدينِ ؛ وآستئناسكَ فأمنه منه البداءِ وسوء المناقطة ^(١) . وتعهدك أموركَ فُخده أوقاتا ، وقدره
ساعاتٍ لا تستفريغ قوتك ، ولا تستدعي سآمتك ؛ وعزَماتِكَ فأنف عنها عجلة الرأى ،
ولحاجة الإقدامِ ؛ وفرحاتِكَ فأشكُها عن البطرِ ، وقيدَها عن الزهو ؛ وروعَاتِكَ فخطُها من
دهش الرأى وآستسلام الخضوعِ ؛ وحدراتِكَ فأمنعها من الجبنِ ، وآعمد بها الحزمِ ؛
ورجاءكَ فقيده بخوف الفآئتِ ، وآمنه من أمنِ الطلَبِ .

هذه جوامعُ خِلالِ ، دخالُ النقصِ منها واصلُ إلى العقلِ بطائِفِ أبنه ، وتصاريفِ
حويله ، فأحكِها عارفاً بها ، وتقدم في الحِفظِ لها ، معترِما على الأخذِ بمراشدها والآنتهاءِ منها
إلى حيث بلغت بك عِظَّةُ أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله .

ثم آمكن بيطانتك وجلسائك في خلواتك ودخلاؤك في سركِ ، أهلِ الفقه والورع من
خاصةِ أهلِ بيتك ، وعامةِ قوادك ممن قد حنكته السنُّ بتصاريفِ الأمورِ ، وخبطته فِصالحها
بين فراسنِ البزلِ منها ، وقبته الأمورِ في فنونها ، وركبِ أطوارها ، عارفاً بحاسنِ الأمورِ
ومواضعِ الرأى وعينِ المشورةِ ؛ مأمونَ النصيحةِ ، منطويَ الضميرِ على الطاعةِ . ثم أحضرهم
من نفسك وقاراً يستدعي لك منهم الهيبةِ ، وآستئناسا يعطف إليك منهم المودةِ ، وإنصاتا
يقُلُّ إفاضتهم له عندك بما تكره أن يُنشر عنك من سخافةِ الرأى وضياعِ الحزمِ . ولا يغلبن
عليك هواك فيصرفك عن الرأى ويقتطعك دون الفكرِ . وتعلم أنك وإن خلوت بسير

(٢) الحويل : الخدق والقدرة على التصرف .

(١) يقال : ناقت فلان فلانا بالكلام : آذاه .

(٣) الفراسن : واحدها فرسن وهو طرف خيف البعير .

فَأَلْقَيْتَ دُونَهُ سُتُورَكَ ، وَأَغْلَقْتَ عَلَيْهِ أَبْوَابَكَ ، فَذَلِكَ لَا مَحَالَةَ مَكشُوفٌ لِلْعَامَّةِ ، ظَاهِرٌ
عِنكَ وَإِنْ أَسْتَرْتَ بَرِّمَا وَلَعَلَّ وَمَا أَرَى إِذَاعَةَ ذَلِكَ وَأَعْلَمُ ، بِمَا يَرُونَ مِنْ حَالَاتٍ مِنْ
يَنْقَطِعُ بِهِ فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ . فَتَقَدَّمَ فِي إِحْكَامِ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَسَدُّ خَلَلِهِ عِنكَ : فَإِنَّهُ
لَيْسَ أَحَدٌ أَسْرَعُ إِلَيْهِ سِوَا الْقَالَةِ وَلَغَطُ الْعَامَّةِ بِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ مِنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِكَ وَمَكَانِكَ
الَّذِي أَصْبَحْتَ بِهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَالْأَمَلِ الْمَرْجُوعِ الْمُنْتَظَرِ فِيكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ يَغْمَزَ فِيكَ أَحَدٌ
مِنْ حَاقَتِكَ وَبِطَانَةِ خَدَمَتِكَ بَضْعَةً يَجِدُ بِهَا مَسَاغًا إِلَى النَّطْقِ عِنْدَكَ بِمَا لَا يَعْتَرِكَ عَيْبُهُ ،
وَلَا تَخْلُو مِنْ لَأَمْتِهِ ، وَلَا تَأْمَنُ سِوَا الْأَحْدُوثةِ فِيهِ ، وَلَا يَرْخُصُ سِوَا الْقَالَةِ بِهِ إِنْ نَجَّمَ ظَاهِرًا
أَوْ عَلَنَ بَادِيًا ، وَلَنْ يَجْتَرِئُوا عَلَى تِلْكَ عِنْدَكَ إِلَّا أَنْ يَرَوْا مِنْكَ إِصْغَاءً إِلَيْهَا وَقَبُولًا لَهَا
وَتَرْخِيصًا لَهُمْ فِي الْإِفَاضَةِ بِهَا . ثُمَّ إِيَّاكَ وَأَنْ يُفَاضَ عِنْدَكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْفُكَاهَاتِ وَالْحِكَايَاتِ
وَالْمِزَاحِ وَالْمُضَاحِكِ الَّتِي يَسْتَخِفُّ بِهَا أَهْلُ الْبَطَالَةِ ، وَيَتَسَرَّعُ نَحْوَهَا ذُورُ الْجَهَالَةِ ؛ وَيَجِدُ فِيهَا
أَهْلُ الْحَسَدِ مَقَالًا لَعِيبٍ يُدْعُونَ ، وَطَعْنًا فِي حَقِّ يَجْحَدُونَهُ ؛ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الرَّأْيِ ،
وَدَرَنِ الْعِرْضِ ، وَهَدْمِ الشَّرْفِ ، وَتَأْثِيلِ الْغَفْلَةِ ، وَقُوَّةِ طِبَاجِ السُّوءِ الْكَامِنَةِ فِي بَنِي آدَمَ
كَكُؤُنِ النَّارِ فِي الْحَجَرِ الصَّلْدِ ، فَذَا قُدِحَ لِاحِ شَرُّهُ ، وَتَلَهَّبَ وَمِضُّهُ ، وَوَقَدَ تَضْرَمَهُ .
وَلَيْسَتْ فِي أَحَدٍ أَقْوَى سَطْوَةً ، وَأَظْهَرَ تَوْقُدًا ، وَأَعْلَى كُؤُونًا ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ بِالْعَيْبِ وَتَطَرُّقِ
الشَّيْنِ مِنْهَا لَمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ سِنِّكَ : مِنْ أَغْفَالِ الرِّجَالِ وَذَوِي الْعُنُوتَانِ فِي الْحَدَاثَةِ الَّذِينَ
لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِمْ سِمَاتُ الْأُمُورِ ، نَاطِقًا عَلَيْهِمْ لِأَتْحُهَا ، ظَاهِرًا فِيهِمْ وَتَمُّهَا ، وَلَمْ تَمَحُضْهُمْ شَهَامَتُهَا ،
مُظْهِرَةً لِلْعَامَّةِ فَضْلَهُمْ ، مُذِيعَةً حَسَنَ الذِّكْرِ عَنْهُمْ ؛ وَلَمْ يَبْلُغْ بِهِمُ الصَّيِّتُ فِي الْحُنُكَةِ مَسْتَمَاعًا
يُدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ نَوَاطِقَ أَلْسُنِ أَهْلِ الْبَغْيِ ، وَمَوَادَّ أَبْصَارِ أَهْلِ الْحَسَدِ .

ثُمَّ تَعَهَّدَ مِنْ نَفْسِكَ لَطِيفَ عَيْبٍ لَازِمٍ لِكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ : مِنْ
إِبْطَارِ الذَّرْعِ وَنُخُوةِ الشَّرْفِ وَالتَّيِّهِ وَعَيْبِ الصَّلَافِ ؛ فَإِنَّهَا تُسْرِعُ بِهِمْ إِلَى فُسَادٍ وَتَهْجِينٍ ^(٢)

(١) الأغفال جمع غفل وهو الذي لم يجرب الأمور .

(٢) يقال : أبطره ذرعه إذا حمله فوق

ما يطبق . وفي صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٠١) «أبطال الذرع» . وقد توقف فيها مصححه .

عقولهم في مواطنَ جمة ، وأحشاء مُصْطَرِفة ، منها قلةٌ أقتدارهم على ضبط أنفسهم في مواكبتهم
ومسايرتهم العاقمة : فمن مُقلِّل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله ، تزيده الحفظة ،
ويبطره إجلابُ الرجال حوله ؛ ومن مُقْبِل في موكبهِ على مداعبة مسأيره بالمفاكهة له
والتضاحك إليه ، والإيجاف في السير مرّحاً ، وتحريك الجوارح متسرّعا يخال أن ذلك
أسرع له وأحثُّ مطيته . فلتُحَسِّن في ذلك هيئتَكَ ، وتُجَمِّل فيه دَعَتَكَ ؛ وليَقِلَّ على
مُسايرِكَ إقبالَكَ إلا وأت مطرقَ النظر ، غير ملتفتٍ إلى محدث ، ولا مقبل عليه بوجهك
في موكبِكَ لمحدثه ، ولا مُوجِف في السير مُقلِّل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض ؛ فإن
حسنَ مسأيرة الوالى وآتداعه في تلك الحالة دليلٌ على كثير من غيوب أمره ومستتر أحواله .
وَأعلم أن أقواما يتسرعون إليك بالسعاية ، ويأتونك على وجه النصيحة ، ويستميلونك
بإظهار الشفقة ، ويستدعونك بالإغراء والشبهة ، ويوظفونك عشوة الخيرة : ليجعلوك لهم
ذريعة إلى استئكال العاقمة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه
بتهمة ، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظننة ؛ فلا يصلن إلى مشافهتك ساخج بشبهة ،
ولا معروف بتهمة ، ولا منسوب إلى بدعة فيعرضك لإيتاغ دينك ، ويمجلك على رعيته
بما لاحقيقة له عندك ، ويُلججك أعراض قوم لا علم لك بدخلهم ، إلا بما أقدم به عليهم
ساعيا وأظهر لك منهم مُتصِّحا . وليكن صاحبُ شُرطتك المتولى لإنهاء ذلك هو المنصوب
لأولئك ، والمستمع لأقاويلهم ، والمناحص عن نصائحهم ؛ ثم لينه ذلك إليك على ما يُرفع إليه
منه لتأمره بأمرك فيه ، وتقفه على رأيك من غير أن يظهر ذلك للعاقمة : فإن كان صوابا نالتك
خيرته ، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل ، أو قُرطة سعى بها كاذب ، فنالت الساعي
منها أو المظلوم عقوبةً ، أو بدر من واليك إليه عقوبةً ونكال ، لم يعصب ذلك الخطأ بك
ولم تُنسب إلى تفريط ، وخلوت من موضع الذم فيه مُحضرا إليه ذهنك وصواب رأيك .

(١) أوتغ دينه بالإثم : أسده . (٢) ألجه عرض فلان : أمكنه منه يشتمه . (٣) دخل
الرجل (بالفتح والكسر) : نبته ومذهبه . (٤) لم يعصب أى لم يلحق .

وتقدّم الى من تولى ذلك الأمر وتعمد عليه فيه ألا يُقدّم على شيء ناظرًا فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقًا له ، ولا يُعاقب أحداً مُنكلاً به ، ولا يُخَيِّلُ سبيلَ أحدٍ صالحاً عنه لإصحار^(١) براءته وصحة طريقتيه ، حتى يرفع إليك أمره ، ويُهيئ إليك قضيتَه على جهة الصّدق ، ومنحى الحق ، ويقين الخبر ؛ فإن رأيت عليه سبيلاً لمحبس أو مجازاً لعقوبة ، أمرته بتولّي ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشافهة لك منه ؛ فكان المتولّي لذلك ولم يجرِ على يديك مكروه رأى ولا غلظة عقوبة . وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلاً ، أو كان مما قُرف به خلياً ، كنت أنت المتولّي للإنعام عليه بتخليّة سبيله ، والصفح عنه بإطلاق أسرِه ؛ فتولّيت أجزء ذلك واستحقت دُخره ، وأنطقت لسانه بشركك ، وطوّقت قومه حمدك ، وأوجبت عليهم حقك ؛ فقرنت بين خصلتين ، وأحرزت حظوتين : ثواب الله فى الآخرة ، ومحمود الذكر فى الدنيا .

ثم إياك أن يصل إليك أحد من جنّدك وجلسائك وخاصّتك ويطانك بمسألة يكشفها لك ، أو حاجة يبيدهك بطلبها ، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفته لذلك ونصبتَه له ، فيعرضها عليك مُنهيًا لها على جهة الصّدق عنها ، وتكون على معرفة من قدرها : فإن أردت إسعافه بها ونجاح ما سأل منها ، أذنت له فى طلبها ، باسّطاً له كنفك ، مُقبلاً عليه بوجهك ؛ مع ظهور سرورك بما سألك ، وفُسحة رأى وبسّطة ذرع ، وطيب نفس . وإن كرهت قضاء حاجته ، وأحببت رده عن طلبته ؛ وثقل عليك إجابته إليها وإسعافه بها ، أمرت كاتبك فصّحه عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ؛ نخفت عليك فى ذلك المؤونة ، وحسن لك الذكر ، ولم يُنشر عنك تجهّم الرد ، وينلّك سوء القالة فى المنع ، ومحمل على كاتبك فى ذلك لائمة أنت منها برىء الساحة .

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرّسل ، فلا يصلّك إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ما قدّم له عليك ، وجهة ما هو مكلمك

(١) أى لوضوح براءته ، فى حديث على : فأصحّر لعدوك ، أى كن من أمره على أمر واضح .

(٢) صفحه عنها ، رده عنها .

به ، وقَدَّر ما هو سائلُك إياه إذا هو وصل إليك ، فأصدرتَ رأيك في حوائجِه ، وأجلتَ فكرك في أمره ، وأخترتَ معتزماً على إرادتِك في جوابه ، وأنفدتَ مصدرَ رويَّتِك في مرجوع مسألته قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله إليك ؛ فرفعتَ عنك مؤونة البدئية ، وأرختَ عن نفسك خناق الروية ، وأقدمتَ على ردِّ جوابه بعد النظر وإجالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحدٌ منهم فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبتك وطوى عنه حاجته قبلك ، دفعته عنك دفعا جميلا ، ومنعته جوابك منعا وديعا ؛ ثم أمرتَ حاجبك بإظهار الجفوة له والغلظة عليه ، ومنعه من الوصول إليك ؛ فإن ضبَّطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ، صارفاً عنك مؤوتتها ، ومسهلا عليك مُستصعبها .

احذرَ تضییع رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب وأعتوارهما إليك ، فلا يزدھینک إفراطُ عجب تستخفك روائعه ، ويستهبوك منظره ، ولا يسدرك منك ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حلَّ بك ، أو حادثٍ إن طرأ عليك . وليكن لك من نفسك ظهري ملبجا تتخزبه من آفات الردى ، وتستعضده في مهم^(١) نازل ، وتتعقب به أمورك في التدبير . فإن أحتجتَ إلى مادة من عقلك ، وروية من فكرك ، أو أنيساط من منطقتك ؛ كان أنحيازك إلى ظهريك مُزدادا مما أحببتَ الأمتیاح منه والأمتیار ؛ وإن استدبرت من أمورك بوادِر جهل أو مضى زلل أو معاندة حق أو خطلُ تدبير ، كان ما أحتجنتَ إليه من رأيك عذرا لك عند نفسك ، وظهريا قويا على ردِّ ما كرهت ، وتخفيفا لمؤونة الباغين عليك في القالة وانتشار الذكر ، وحصنا من غلُوب الآفات عليك ، وأستعلاها على أخلاقك .

وأمعْ أهلَ بطانتك وخاصةَ خدمك من استلحاح أعراض الناس عندك بالغبية ، والتقريب اليك بالسعاية ، والإغراء من بعض ببعض ؛ أو النيمة اليك بشيء من أحوالهم

(١) في صبح الأعشى : « وتستعضد في موهم النازل » . وفي رسائل البلغاء : « وتستعهده في مهم نازل » .

وأخترنا من العبارتين ما يناسب المقام . (٢) كذا في صبح الأعشى والمفتاح ورسائل البلغاء ، ولعله

وإن ابتدرت ... الخ .

المستتر عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أبلغ بك سموا الى منالة الشرف ، وأعونك لك على محمود الذكر ، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

وأملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانهاق ، وعن القطوب بإظهار الغضب وتخله : فإن ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل ، وخروج من آتجال آسيم الفضل . وليكن ضحكك تبسما أو كسرا في أحيان ذلك وأوقاته ، وعند كل رائع مستخف مطرب ، وقطوبك أطرافا في مواضع ذلك وأحواله ، بلا حجة الى السطوة ، ولا إسراع الى الطيرة ، دون أن تكتنفها روية الحلم ، وتملك عليها بادرة الجهل .

إذا كنت في مجلس ملك ، وحيث حضور العامة مجلسك ، فإياك والرمي بنظرك الى خاص من قوادك ، أو ذى أثره عندك من حشمك . وليكن نظرك مقسوما في الجميع ، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مجتمع ، وقلة تضجر بالمحدث . ثم لا يبرح وجهك الى بعض حرسك وقوادك متوجها بنظر ركين ، وتفقد محض . وإن وجه اليك أحد منهم نظره محذفا ، أو رماك ببصره ملحا ، فاخفض عنه أطرافا جميلا بانداع وسكون . وإياك والتسرع في الإطراق ، والخفة في تصريف النظر ، والإلحاح على من قصد اليك في مخاطبته إياك رامقا بنظره .

واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك وتفقدك مجالس قوادك من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، وذكاء الفطنة ، وأتنباه السنة . فتفقد ذلك عارفا بمن حصرك وغاب عنك ، عالما بمواضعهم من مجلسك ، ثم أعد بهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التي منعهم من حضور مجلسك ، وعاقبتهم بالتخلف عنك .

إن كان أحد من حشمك وأعوانك تثق منه بغييب ضمير ، وتعريف منه لين طاعة ، وتشرّف منه على صحة رأى ، وتأمّنه على مشورتك ، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، وأن تُريه أو أحدا من أهل مجلسك أن

بك حاجةً إليه موحِشة ، أو أن ليس بك عنه غنى في التدبير ، أو أنك لا تقضى دونه رأيا ،
إشراكاً منك له في رويتك ، وإدخالاً منك له في مشورتك ، وأضطرارا منك الى رأيه
في الأمر يعرُوك : فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوءُ القالة عن نظرائك ، فانفها
عن نفسك خائفاً لاعتلاقها ذكرك ، وأحجبها عن رويتك قاطعاً لأطاع أوليائك عن مثلها
عندك ، أو غلوبهم عليها منك .

وأعلم أن للمشورة موضع الخلوّة وأنفراد النظر ، ولكل أمرٍ غاية تُحيط بحدوده ، وتجمع
معالمه . فابغها محمّزا لها ، ورُمها طالباً لنيلها ، وإيّاك والقصور عن غايتها أو العجز عن
دركها ، أو التفريط في طلبها . إن شاء الله تعالى .

إيّاك والإغرام عن حديثٍ ما أعجبك ، أو أمرٍ ما أزهاك بكثرة السؤال ، أو القَطْع
لحديثٍ من أرادك بحديثه حتى تنقضه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس منه : فإن
ذلك عند العامة منسوب الى سوء الفهم وقصر الأدب عن تناول محاسن الأمور والمعرفة
بمساويها ، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك حتى يعلم أن قد فهمت حديثه ، وأحطت
معرفةً بقوله ، فإن أردت إجابته فعن معرفةً بحاجته وبعد علم بطلّيته ، وإلا كنت عند
انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء ، فأجزى عنك الجواب ، وقطع عنك
اللسن العتب .

إيّاك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، أو تضجّر ممن حضرك ، وعليك بالثبّت
عند سورة الغضب ، وحميّة الأنف ، وملاّل الصبر : في الأمر تستعجل به والعمل تأمر
بإنفاذه ، فإن ذلك سُخف شائن ، وخفة مُردية ، وجهالة بادية . وعليك بثبوت المنطق ،
ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرّفض لحشو الكلام ، والتّرك لفضوله والإغرام
بالزيادات في منطقتك ، والترديد للفظك : من نحو أسمع ، وأفهم عني ، ويا هنأه ، وألا ترى ،
أو ما يُلهج به من هذه الفضول المقصّرة بأهل العقل ، الشائنة لذوى الجحاف في المنطق ،
المنسوبة إليهم بالعي ، المُردية لهم بالذّكر . وخِصالٌ من معائب الملوك ، والسوقة عنها غيبة

النظر إلا من عرفها من أهل الأدب ، وقلما حامل لها ، مضطاع بها ، صابر على ثقلها ،
أخذ لنفسه بجوامعها ، فأفنيها عن نفسك بالتحفظ منها ، وأملك عليها أعتيادك إياها معتنيا
بها ، منها كثرة التنخم ، والتبصق ، والتنخع ، والثوباء ، والتمطى ، والجشأء ، وتحريك
القدم ، وتقويض الأصابع ، والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المحصرة أو ذؤابة السيف ،
أو الإيماض بالنظر ، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته ، أو السرار
في مجلسك ، أو الاستعجال في طعمك أو شربك . وليكن طعمك متدعا ، وشربك أنفاسا ،
وجرعك مصا . وإياك والتسرع إلى الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور ، والشتيمة بقول :
يأبن الهنأه ، أو الغميرة لأحد من خاصتك بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك^(٢)
أو دأرك وفناؤك : فان ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوء موقع القول فيه ، وتحمل عليك
مغايبه ، وينالك شينه ، ويتشتر عليك سوء النبا به . فأعرف ذلك متوقيا له ، وأحذره
مجانبا لسوء عاقبته .

أستكثر من فوائد الخير : فانها تنشر المحمدة ، وتقبل العثرة ، وأصبر على كظم الغيظ :
فانه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ، وتعهد العاقمة بمعرفة دخلهم ، وتبطن أحوالهم ،
وأستارة دفائنهم ؛ حتى تكون منها على رأي عين ، ويقين خبرة ، فتنعش عديمهم ، وتجبر
كسيرهم ؛ وتقيم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم : فان ذلك من فلك بهم
يورثك العزة ، ويقدمك في الفضل ؛ ويبقى لك لسان الصدق في العاقبة ، ويبرز لك ثواب
الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المنتحية عنك .

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجج والرأى والعقل والتدبير والصيت
في العاقبة ، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله ، والجمول عند مباحاة
النسب ؛ وأنظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، وتستجمع لك أقاويل العاقمة على
التفضيل ؛ وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك . فاعتمد عليهم مدخلا لهم
في أمرك ، وآثرهم بجالسك لهم مستمعا منهم ؛ وإياك وتضيقهم مفرطا ، وإهمالهم مضيقا .

(١) يقال : أنقض أصابعه : صوت بها وليس في كتب اللغة نقض بالتضعيف . (٢) الغميرة : الملحن .

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً، وجمع لك شواهد مؤلفاً،
وأهداها إليك مرشداً، فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وثبتت في مجامعها،
وخذ بوثائق عمرها، تسلم من معاتب الردى، وتسل أنفوس الحظوظ ورغيب الشرف،
وأعلى درج الذكر، وتأمل سطر العز. والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد،
وتتابع المزيد، وبلوغ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك الى غبطة يسوغك إياها، وعافية
يحللك أكافها، ونعمة يلهمك شكرها: فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد، منه تمام
الصالحات، وهو مؤتي الحسنات، عنده مفاتيح الخير، ويبيده الملك وهو على كل شيء
قدير.

فاذا أفضيت نحو عدوك، وأعترمت على لقاءهم، وأخذت أهبة قتالهم، فاجعل دعائمك
التي تلجأ إليها، وثقتك التي تأمل النجاة بها، وركتك الذي ترتجى منالة الظفر به وتكتشف به
لمعالي الحذر، تقوى الله مستشعراً لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته متبعاً لأمره، مجتنباً
لسخطه، محتدياً سنته، والتوقى لمعاصيه في تعطيل حدوده، أو تعدى شرائعه، متوكلاً عليه
فيما صمدت له، واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه، متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر
وتلقاك من عز، راغباً فيما أهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك اليه
محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين، أكلبهم عليه وأظهره عداوة لهم، وأفدحه
ثقلاً لعاقبتهم، وأخذ به بريقهم، وأعلاه عليهم بغياً، وأظهره عليهم فسقا وجورا، وأشدّه
على فيهم الذي أصاره الله لهم وفتح عليهم مؤونة^(٥) وكلاً. والله المستعان عليهم، والمستنصر
على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوض أمره، وكفى
بالله ولياً وناصرًا ومعيناً، وهو القوى العزيز.

ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرفتهم، ورد مشتعل جهلهم، وإحكام
ضياع عملهم، وضم منتشر قواصيمهم، ولم شعث أطرافهم، وتقييدهم عن مرّوا به من

(١) تأمل: ثبت. (٢) اكتف الكهف: دخله. (٣) أهاب بك: دعاك.

(٤) من قولهم كلب الدهر على أهله إذا اشتد وألح. (٥) الكل: النقل.

أهل ذِمَّتِكَ ومَلَّتِكَ بحُسْنِ السَّيْرِ، وَعِفَافِ الطُّعْمَةِ، وَدَعَةِ الْوَقَارِ، وَهَدَى الدَّعَةَ، وَحِمَامِ
 الْمُسْتَجِمِّ، حَكْمًا ذَلِكَ مِنْهُمْ، مُتَفَقِدًا لَهُمْ تَفَقُّدَكَ إِيَّاهُ مِنْ نَفْسِكَ . ثُمَّ أَحْمَدُ لِعَدْوِكَ الْمُسَمَّى
 بِالْإِسْلَامِ، الْخَارِجِ مِنْ جَمَاعَةِ أَهْلِهِ، الْمُنْتَحِلِ وَايَةَ الدِّينِ مُسْتَحِلًّا لِدِمَائِهِ أَوْلِيَاءَهُ، طَاعِنًا
 عَلَيْهِمْ، رَاغِبًا عَنْ سُنَّتِهِمْ، مُفَارِقًا لَشَرَائِعِهِمْ، يَبْغِيهِمُ الْغَوَائِلَ، وَيَنْصِبُ لَهُمُ الْمَكَائِدَ؛ أَضْرَمَ
 حَقْدًا عَلَيْهِمْ، وَأَرْصَدَ عِدَاوَةً لَهُمْ، وَأَطْلَبَ لِعِزَاتِ فُرْصِهِمْ مِنَ التُّرْكِ وَأَمِّ الشَّرْكِ وَطَوَاغِي
 الْمَلْلِ؛ يَدْعُو إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْفُرْقَةِ، وَالْمُرُوقِ مِنْ دِينِ اللَّهِ إِلَى الْفِتْنَةِ، مُحْتَرِعًا بِهَوَاهُ لِلْأَدْيَانِ
 الْمُنْتَحَلَةِ وَالْبِدْعِ الْمُنْتَفِقَةِ خَسَارًا وَتَخْسِيرًا، وَضَلَالًا وَتَضْلِيلًا، بِغَيْرِ هَدًى مِنْ اللَّهِ وَلَا بَيَانَ .
 سَاءَ مَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاہُ وَمَا اللَّهُ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، وَسَاءَ مَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْأَمْرَةَ بِالسُّوءِ،
 وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِ بِالْمِرْصَادِ: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصَّنُ جُنْدَكَ، وَأَشْكُمُ نَفْسَكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي مَجَاهَدَةِ أَعْدَائِهِ، وَأَرْجُ نَصْرَهُ، وَتَجِزُّ
 مَوْعُودَهُ، مُتَقَدِّمًا فِي طَلْبِ ثَوَابِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ، مُعْتَرِمًا فِي آبِتْغَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ عَلَى لِقَائِهِمْ :
 فَإِنْ طَاعَتِكَ إِيَّاهُ فِيهِمْ، وَمَرَّاقَبَتِكَ لَهُ وَرَجَاءَكَ نَصْرَهُ مَسْهَلٌ لَكَ وَعُورَةٌ، وَعَاصِمُكَ مِنْ كُلِّ
 سُبَّةٍ، وَمُنْجِيكَ مِنْ كُلِّ هُوَّةٍ، وَنَاعِشُكَ مِنْ كُلِّ صَرَعَةٍ، وَمُقْبِلُكَ مِنْ كُلِّ كَبُوءَةٍ، وَدَارِيٌّ
 عَنْكَ كُلِّ شِبْهَةٍ، وَمُدْهِبُ عَنْكَ لَطْخَةَ كُلِّ شَكٍّ، وَمُقَوِّبُكَ بِكُلِّ أَيْدٍ وَمَكِيدَةٍ، وَمُعِزُّكَ
 فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ قِتَالٍ، وَمُوَيْدُكَ فِي كُلِّ تَجْمَعٍ لِقَاءٍ، وَكَالِثُكَ عِنْدَ كُلِّ فِتْنَةٍ مُغْشِيَةٍ، وَحَائِطُكَ
 مِنْ كُلِّ شِبْهَةٍ مُرْدِيَةٍ؛ وَاللَّهُ وَلِيُّكَ وَوَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكَ، وَالْمُسْتَخَلَفُ عَلَى جُنْدِكَ
 وَمِنْ مَعِكَ .

اعلم أن الظفر ظفران: أحدهما — وهو أعم منفعته، وأبلغ في حسن الذكر قائله، وأحوطه
 سلامة، وأتمه عافية، وأحسنه في الأمور وأعلاه في الفضل شرفًا، وأصححه في الروية حرماً،
 وأسلمه عند العاقبة مصدرًا — ما نبيل بسلامة الجنود، وحسن الحيلة، ولطف المكيدة
 ويمن النقيبة، وأستنزال طاعة ذوي الصدوف بغير إخطار الجيوش في وقدة بحجرة الحرب،

(١) الأيد: القوة . (٢) أي مدلهمة سوداء، من قرلم: أغشى الليل إذا أظلم .

ومبارزة الفرسان في معتك الموت؛ وإن ساعدتك طلوق الظفر، وذلك مزيد السعادة في الشرف، فني مخاطرة التلّف مكروه المصائب، وعِضاضُ السيوف وألم الجراح، وقصاص الحروب وسبجها بمغاورة^(١) أبطالها. على أنك لا تدري لأيّ يكون الظفر في البديهة، ومن المغلوب بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوب بالتحيص. فحاول إصابة أبلغهما في سلامة جندك ورعيّتك، وأشهرهما صيتاً في بدو تديريك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك، وأعونهما على صلاح رعيّتك وأهل ملّتك، وأقواهما شكيمةً في حزمك، وأبعدهما من وضم عزمك، وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك، وأجزلها ثوابا عند ربك.

وأبدأ بالإعذار إلى عدوك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعز الألفة، أخذاً بالحنة عليهم، متقدماً بالإندار لهم، باسطاً أمانك لمن لجأ إليك منهم، داعياً لهم إليه بالين لفظك وألطف حيلك، متعطفاً برأفتك عليهم، مترقفاً بهم في دعائك، مشفقاً عليهم من غلبة الغواية لهم وإحاطة الهلكة بهم، منفذاً رسلك إليهم بعد الإنذار: تعدّهم إعطاء كلّ رغبة يهش إليها طمّعهم في موافقة الحق، وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم؛ موطناً نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك؛ قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة، ومراجعة مسيئهم إلى الطاعة؛ مرصداً للفتنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم إجابةً إلى مادعوته إليه وبصرته إياه من حَقك وطاعتك، بفضل المنزلة، وإكرام المشوى، وتشريف الجاه. وليظهر من أترك عليه وإحسانك إليه ما يرغب في مثله الصادق عنك، المصّر على خلافك ومعصيتك؛^(٢) ويدعو إلى اعتلاق جبل النجاة وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً، وأنجي له من العقاب آجلاً، وأحوطه على دينه ومهجته بدءاً وعاقبةً؛ فإن ذلك مما يستدعى به من الله نصره عليهم، ويعتضد به في تقديمه الحجّة إليهم، معذراً أو مُنذراً، إن شاء الله.

(١) المغاورة : المقاتلة . (٢) كذا في صبح الأعشى ويظهر أن السياق يقتضى معمولاً لهذا الفعل

أما ضميراً أو اسماً ظاهراً .

ثم أذكَ عيونك على عدوك متطلعا لعلم أحوالهم التي يتقبلون فيها، ومنازلهم التي هم بها، ومطامعهم التي قد مدوا أعناقهم نحوها، وأى الأمور أدرعى لهم إلى الصلح، وأقودها لرضاهم إلى العافية، وأسملها لاسْتِنزال طاعتهم، ومن أى الوجوه مأتاهم : أمن قبل الشدة والمنافرة والمكيدة والمباعدة والإرهاب والإيعاد، أم الترغيب والإطاع، أم مثبتنا في أمرك، أم متخييرا في رويتك، أم مستمكا من رأيك، أم مستشيرا لذوى النصيحة الذين قد حنكتهم السن، وخبطتهم التجربة، ونجذتهم الحروب، أم متشزنا^(١) في حربك، أم آخذا بالحزم في سوء الظن، أم معدا للحذر، أم محترسا من الغرة، أم كأنك في مسيرك كله ونزولك أجمع مواقف لعدوك رأى عين تنتظر حملاتهم، وتتحوف كراتهم، أم معدا أقوى مكائيدك، وأرهب عتادك، وأنكأ جندك، وأجدت تسميرك، أم معظما أمر عدوك لأعظم مما بلغك، أم حذرا يكاد يفريط : لتعد له من الاحتراس عظيما، ومن المكيدة قويا، أم من غير أن يفشاك ذلك عن إحكام أمورك، وتدبير رأيك، وإصدار رويتك، والتأهب لما يحزبك، أم مصغرا له بعد استشعار الحذر، أم اضطار الحزم، وإعمال التزوية، وإعداد الأهبة . فإن ألفت عدوك كليل الحد، وقم الحزم، ونضض^(٢) الوفر، لم يضرك^(٣) ما اعتدت له من قوة وأخذت له من حزم، ولم يزدك ذلك إلا جراءة عليه، وتسرعاً إلى لقائه . وإن ألفتته متوقفاً الحرب، مستكفياً الجمع، قوى التبع، مستعلي سورة الجهل، معه من أعوان الفتنة وتبع إبليس من يؤقد لهب الفتنة مسعرا، ويتقدم إلى لقاء أبطالها متسرعاً، كنت لأخذك بالحزم، وأستعدادك بالقوة، غير مهين الجند، ولا مفرط في الرأى، ولا متلهف على إضاعة تدبير، ولا محتاج إلى الإعداد وعجلة التأهب بمبادرة تدهشك، وخوفاً يقلبك . ومتى تغتر بتريق المرفقين، وتأخذ بالهويناء في أمر عدوك لتصغير المصغرين، ينتشر عليك رأيك، ويكون فيه انتقاض أمرك ووهن تدبيرك، وإهمال الحزم في جندك،

(١) تشزنا للامر : استعد له .

(٢) يفشاك (بالفاء والثاء المثلثة) أى يكسرك ويؤخرك .

(٣) كذا في صبح الأعشى . ولعلها

موقوم الحزم أى مقهورة أو لعلها محرفة عن كلمة أخرى بمعنى الضعف أو القلة .

(٤) نضض : قليل .

والوفر : المال .

وتضييع له وهو مُمكن الإصحار، رَحْبِ الْمَطْلَبِ، قَوِي الْعِصْمَةِ، فسيح المضطرب؛ مع ما يدخل رعيّتك من الاعتزاز والغفلة عن إحكام أحراسهم، وضبط مراكرهم، لما يرون فيه من استنابته إلى الغزاة، وركونك إلى الأمن، وتهاونك بالتدبير، فيعود ذلك عليك في أنتشار الأطراف، وضياع الأحكام، ودخول الوهن بما لا يستقال محذوره، ولا يُدفع مخوفه.

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك. وإياك ومعاقبة أحد منهم على خبر إن أتاك به آثمته فيه أو سُوتَ به ظناً وأتاك غيره بخلافه، أو أن تكذبه فيه فترده عليه، ولعله أن يكون قد محضك النصيحة وصدق الخبر وكذبك الأوّل، أو خرج جاسوسك الأوّل متقدماً قبل وصول هذا من عند عدوك، وقد أبرموا لك أمراً، وحاولوا لك مكيده وأرادوا منك غيرة فازدلفوا إليك في الأهبة، ثم أنتقض بهم رأيهم وأختلف عنه جماعتهم، فأرادوا رأياً، وأحدثوا مكيده، وأظهروا قوّة، وضرّبوا موعداً، وأموا مسلّكاً لمدد أتاها، أو قوّة حدثت لهم، أو بصيرة في ضلالة شغلهم؛ فالأحوال بهم متنقلة في الساعات، وطوارق الحادثات. ولكن ألبسهم جميعاً على الانتصاح، وأرضخ لهم بالمطامع، فإنك لن تستعبدهم بمثلها. وعدّهم جزالة المثاوب، في غير ما استنابته منك إلى ترفيقهم أمر عدوك، والاعتزاز إلى ما يأتونك به دون أن تعمل رويتك في الأخذ بالحزم، والاستكثار من العدة. وأجعلهم أوثق من تقدّر عليه، وآمن من تسكن إلى ناحيته، ليكون ما يبرم عدوك في كل يوم و ليلة عندك إن استطعت ذلك، فتنتقض عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرموا، وتأيتهم من حيث أمنوا، وتأخذ لهم أهبة ما عليه أقدموا، وتستعدّ لهم بمثل ما حذروا.

وَأَعْلَمُ أَنَّ جِوَاوِيسِيكَ وَعِيُونَكَ رُبَّمَا صَدَّقُوكَ وَرُبَّمَا غَشَّوْكَ، وَرُبَّمَا كَانُوا لَكَ وَعَيْكَ : فَنَصَحُوا لَكَ وَغَشَّوْا عَدُوَّكَ، وَغَشَّوْكَ وَنَصَحُوا عَدُوَّكَ؛ وَكَثِيرًا مَا يَصْدُقُونَكَ وَيَصْدُقُونَهُ . فَلَا تَبْدُرَنَّ مِنْكَ فَرَطَةَ عَقُوبَةٍ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا تَعْجَلْ بِسُوءِ الظَّنِّ إِلَى مَنْ آتَمَّتَهُ عَلَيَّ

ذلك ، وأستنزِل نِصائِحَهُم بِالْمِيَاحَةِ وَالْمَنَالَةِ ، وَأَبْسَطَ مِنْ آمَالِهِمْ فِيكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنَّكَ أَخَذْتَ مِنْ قَوْلِهِ أَخْذَ الْعَامِلِ بِهِ وَالْمَتَّبِعِ لَهُ ، أَوْ عَمِلْتَ عَلَى رَأْيِهِ عَمَلِ الصَّادِرِ عَنْهُ ، أَوْ رَدَدْتَهُ عَلَيْهِ رَدَّ الْمَكْذُوبِ بِهِ ، الْمَتَّهِمِ لَهُ ، الْمُسْتِخَفِّ بِمَا أَتَاكَ مِنْهُ ، فَتُفْسِدَ بِذَلِكَ نِصِيحَتَهُ ، وَتُسْتَدْعَى غِيْشَهُ ، وَتَجْتَرَّ عِدَاوَتَهُ . وَأَحْذَرُ أَنْ يُعْرَفُوا فِي عَسْكَرِكَ أَوْ يُسَارَإِلِيَهُمْ بِالْأَصَابِعِ . وَلِيَكُنْ مَنْزِلُهُمْ عَلَى كَاتِبِ رِسَائِلِكَ وَأَمِينِ سِرِّكَ ، وَيَكُونُ هُوَ الْمَوْجَّهَ لَهُمْ ، وَالْمُدْخِلَ عَلَيْكَ مِنْ أَرْدَتِ مَشَافَهَتِهِ مِنْهُمْ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِعَدُوِّكَ فِي عَسْكَرِكَ عِيُونًَا رَاصِدَةً ، وَجَوَاسِيْسَ مَتَجَسِّسَةً ، وَأَنَّهُ لَنْ يَقَعَ رَأْيُهُ عَنْ مَكِيدَتِكَ بِمِثْلِ مَا تُكَيِّدُهُ بِهِ ، وَسِيحْتَالُ لَكَ كَأَحْتِيَالِكَ لَهُ ، وَيُعَدُّ لَكَ كَأَعْدَادِكَ فِيمَا تُرَاوِلُهُ مِنْهُ ، وَيُجَاوِلُكَ كَمَا جَاوَلْتِكَ إِيَّاهُ فِيمَا تَقَارِعُهُ عَنْهُ ، فَاحْذَرُ أَنْ يُشْهَرَ رَجُلٌ مِنْ جَوَاسِيْسِكَ فِي عَسْكَرِكَ فَيُلَغَّ ذَلِكَ عِدُوُّكَ وَيَعْرِفُ مَوْضِعَهُ ، فَيُعَدُّ لَهُ الْمَرَاصِدَ ، وَيَحْتَالُ لَهُ بِالْمَكَايِدِ . فَإِنْ ظَفَرَ بِهِ فَأَظْهَرَ عَقُوبَتَهُ ، كَسَرَ ذَلِكَ ثِقَاتِ عِيُونِكَ ، وَخَذَلَهُمْ عَنْ تَطَلُّبِ الْأَخْبَارِ مِنْ مَعَادِنِهَا ، وَأَسْتَقْصَابِهَا مِنْ عِيُونِهَا ، وَأَسْتِعْذَابِ اجْتِنَائِهَا مِنْ بِنَائِعِهَا ، حَتَّى يَصِيرُوا إِلَى أَخْذِهَا مِمَّا عَرَّضَ مِنْ غَيْرِ الثَّقَةِ وَلَا الْمُعَامِيَةِ ، لَقَطَّهَا بِالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ الْمُرْجُفَةِ . وَأَحْذَرُ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضُ عِيُونِكَ بَعْضًا : فَإِنَّكَ لَا تَأْمَنُ تَوَاطُؤَهُمْ عَلَيْكَ ، وَمُمَالَئَتَهُمْ عِدُوَّكَ ، وَاجْتِمَاعَهُمْ عَلَى غِيْشِكَ ، وَتَطَابُقَهُمْ عَلَى كَذْبِكَ ، وَإِصْفَاقَهُمْ عَلَى خِيَانَتِكَ ، وَأَنْ يُوَرِّطَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ عِدُوِّكَ . فَأَحْكِمْ أَمْرَهُمْ فَإِنَّهُمْ رَأْسُ مَكِيدَتِكَ ، وَقِيَامُ تَدْيِيرِكَ ، وَعَلَيْهِمْ مَدَارُ حَرْبِكَ ، وَهُوَ أَوَّلُ ظَفَرِكَ . فَاعْمَلْ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ وَحَيْثُ رَجَاؤُكَ بِهِ ، تَسَلَّ أَمْلَكَ مِنْ عِدُوِّكَ ، وَقَوَّتَكَ عَلَى قِتَالِهِ ، وَأَحْتِيَالَكَ لِإِصَابَةِ غِرَّائِهِ وَأَتَهَازِ فُرْصِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَإِذَا أَحْكَمْتَ ذَلِكَ وَتَقَدَّمْتَ فِي إِتْقَانِهِ ، وَأَسْتَظْهَرْتَ بِاللَّهِ وَعَوْنِهِ ، فَوَلَّ شُرْطَتَكَ وَأَمَرَ عَسْكَرِكَ أَوْثَقَ قَوَادِكَ عِنْدَكَ ، وَأَظْهَرَهُمْ نِصِيحَةً لَكَ ، وَأَنْفَذَهُمْ بِصِيْرَةٍ فِي طَاعَتِكَ ، وَأَقْوَاهُمْ

(١) المياحة : الإغواء .

(٢) في مفتاح الأفكار ورسائل البلغاء : « كامنة » . (٣) في رسائل البلغاء : « وأن رأيه

في مكيديتك مثل ما تكليده به » . (٤) إصفاقهم : اجتماعهم .

(١) شكيمية في أمرك ، وأمضاهم صريمة ، وأصدقهم عفافا ، وأجزأهم غناء ، وأكفاهم أمانة ، وأصحهم ضميرا ، وأرضاهم في العاقبة ديناً ، وأحمدهم عند الجماعة خلقاً ، وأعطفهم على كافيتهم رافةً ، وأحسنهم لهم نظراً ، وأشدّهم في دين الله وحقه صلابةً . ثم فوض إليهم مقويا له ، وأبسّط من أماله مظهرها عنه الرضا ، حامداً منه الأبتلاء . وليكن عالماً بمراكز الجنود ، بصيرا بتقدم المنازل ، مجرباً ، ذا رأى وحزم في المكيّدة ، له نباهة في الذكر ، وصيت في الولاية ، معروف البيت ، مشهور الحسب . وتقدّم إليه في ضبط معسكره ، وإذكاء أحراره في آناء ليله ونهاره ؛ ثم حدّره أن يكون منه إذن لجنوده في الانتشار والاضطراب ، والتقدّم لطلائعك ، فتصّاب لهم غزوة يجترى بها عدوك عليك ، ويسرع إقداما إليك ، ويكسر من إيراد جنديك ويوهن من قوتهم : فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد (٢) من جنديك أو عبيدهم مطمع لهم فيك ، مقو لهم على تتخذ أتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك ، وتوهينهم تدبيرك . فحدّره ذلك وتقدّم إليه فيه ؛ ولا يكون منه إفراط في التضيق عليهم ، والخصر لهم ، فيعمّم أزله ، ويشملهم صنك ، وتسوء عليهم حاله ، وتشدّ به المؤونة عليهم ، وتخبّث له ظنونهم . وليكن موضع إنزاله إليهم ضاماً لجماعتهم ، مستديراً بهم جامعاً لهم ؛ ولا يكون منبسّطاً منتشرًا متبّداً ، فيشقى ذلك على أصحاب الأحراس ، وتكون فيه التهزّة للعدو ، والبعد من المادّة إن طرقت طارق في جحان الليل وبغباته . وأوعز إليه في أحراره ، وتقدّم إليه فيهم كأشدّ التقدّم وأبلغ الإيعاز . ومره فليولّ عليهم رجلا ركيناً مجرباً جرى الإقدام ، ذاك الصرامة ، جلد الجوارح ، بصيراً بمواضع أحراره ، غير مصانع ولا مشفّع للناس في التنجى إلى الرفاهية والسعة ، وتقدّم العسكر والتأخر عنه ، فإن ذلك مما يضعف الوالى ويؤهنه لاستنمامته إني من ولّاه ذلك وأمنه به على جيشه .

وأعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك ، ومكانها من جنديك ، بحيث الغناء عنهم والردّ عليهم ، والحفظ لهم ، والكلاءة لمن بغتهم طارقاً ، أو أرادهم خاتلاً ، ومراصدّها المنسل

(١) الصريمة : العزيمة . (٢) في مفتاح الأفكار وغيره : « أفئدة » . وإياد كل شئ . : ما يقوى به من جانبه ومنه إيادا العسكر وهما ميمته وميسرته . (٣) الصوت : كالصيت والصات : الذكر والشهرة . (٤) الأزل : الضيق والشدة . (٥) المادّة : كل مدد تستعين به في حرب أو غيره .

منها والآتيق من أرفائهم وأعبدهم؛ وحفظها من العيون والجواسيس من عدوهم. وأحذر أن تضرب على يديه أو تشككه عن الصرامة بمؤامرتك في كل أمر حادثٍ وطارئٍ إلا في المهم النازل والحدث العام: فإنك إذا فعلت ذلك به، دعوته إلى نصحك، وأستوليت على محصول ضميره في طاعتك؛ وأجهد نفسه في ترتيبك، وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانتك؛ وكان ثقتك وردأك وقوتك ودعامتك، وتفزع أنت لمكيدة عدوك، مريحا لنفسك من هم ذلك والعناية به، ملقيا عنك مؤونة باهظة وكلفة فادحة.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ لَيْسَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَلَا بِمَثَلٍ مَحَلَّهُ أَحَدٌ مِنَ الْوَلَاةِ: لِمَا يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ مِنْ مَغَالِيبِ الْأَحْكَامِ وَمَجَارِي الْحُدُودِ. فليكن من تُوَلِّيه الْقَضَاءَ فِي عَسْكَرِكَ [من ذوى] ^(١) الْحَيْرِ وَالْقَنَاعَةِ وَالْعَفَافِ وَالتَّرَاهَةِ وَالنَّهْمِ وَالْوَقَارِ وَالْعِصْمَةَ وَالْوَرَعَ، وَالبَصْرَ بِوَجْهِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِهَا، قَدْ حَنَّكَتَهُ السَّنُّ وَأَيَّدَتَهُ التَّجْرِبَةُ وَأَحْكَمَتَهُ الْأُمُورَ، مِمَّنْ لَا يَتَصَنَّعُ لِلْوَلَايَةِ وَيَسْتَعِدُّ لِلنُّهْزَةِ، وَيَجْتَرِي عَلَى الْمُحَابَاةِ فِي الْحُكْمِ، وَالْمُدَاهَنَةِ فِي الْقَضَاءِ، عَدْلَ الْأَمَانَةِ، عَفِيفَ الطُّعْمَةِ، حَسَنَ الْإِنْصَافِ، فَهَمَ الْقَلْبَ، وَرَعَ الضَّمِيرَ، مَتَخَشِّعَ السَّمْتِ، بَادِيَ الْوَقَارِ، مُحْتَسِبًا لِلْحَيْرِ. ثُمَّ أَجْرَعَلِيهِ مَا يَكْفِيهِ وَيَسَعُهُ وَيُصْلِحُهُ، وَفَرَّغَهُ لِمَا حَمَلْتَهُ، وَأَعْنَهُ عَلَى مَا وَلَّيْتَهُ: فَإِنَّكَ قَدْ عَرَضْتَهُ لَهْلِكَةِ الدُّنْيَا وَبَوَارِ الْآخِرَةِ، أَوْ شَرَّفَ الدُّنْيَا وَحُظْوَةَ الْآخِلَةِ، إِنْ حَسُنَتْ نَيْبَتُهُ، وَصَدَقَتْ رَوِيَّتُهُ، وَصَحَّتْ سِرِّيَّتُهُ، وَسَلَّطَ حَكْمَ اللَّهِ عَلَى رَعِيَّتِهِ، مُطْلِقًا عِنَانَهُ، مَنْفَعًا قَضَاءَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، عَامِلًا بِسُنَّتِهِ فِي شَرَائِعِهِ، آخِذًا بِحُدُودِهِ وَفَرَائِضِهِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ جَنْدِكَ بِحَيْثُ وَلَايَتِكَ، الْجَارِيَةُ أَحْكَامُهُ عَلَيْهِمْ، النَّافِذَةُ أَقْضِيَّتُهُ فِيهِمْ؛ فَاعْرِفْ مِنْ تُوَلِّيهِ ذَلِكَ وَتُسْنِدِهِ إِلَيْهِ. ثُمَّ تَقَدَّمْ فِي طَلَانِعِكَ فَإِنَّهَا أَوَّلُ مَكِيدَتِكَ، وَرَأْسُ حَرْبِكَ، وَدِعَامَةُ أَمْرِكَ، فَاتَّخِذْ لَهَا مِنْ كُلِّ قَادَةٍ وَصْحَابَةٍ رَجَالًا ذَوِي نَجْدَةٍ وَبَأْسٍ، وَصَرَامَةَ وَخِبْرَةَ، حُمَاةَ كُفَاةٍ، قَدْ صَلُّوا بِالْحَرْبِ وَذَاقُوا سِجَالَهَا، وَشَرِبُوا مِرَارَ كُؤُوسِهَا، وَتَجَرَّعُوا

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره . (٢) الطعمة بالضم والكسر وجه الكسب

الطيب أو الخبيث . (٣) في مفتاح الأفكار وغيره: «بحيث ولايتك وفي الموضع الجارية» الخ .

غُصَصَ دِرَّتِيهَا ؛ وَزَبَنَتْهُمْ بِتَكَرُّرِ عَوَاطِفِهَا ، وَحَمَلَتْهُمْ عَلَى أَصْعَبِ مَرَاجِبِهَا ، وَذَلَّتْهُمْ بِثِقَافِ
 أَوْدِهَا . ثُمَّ أَنْتَقَهُمْ عَلَى عَيْنِكَ ، وَأَعْرِضْ كُرَاعَهُمْ بِنَفْسِكَ ؛ وَتَوَخَّ فِي أَنْتِقَائِكَ ظُهُورَ الْجَلَدِ ،
 وَشِهَامَةَ الْخُلُقِ ، وَكَيْالَ الْآلَةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِّهِمْ إِلَّا الْإِنَاثَ مِنَ الْخَيْلِ الْمَهْلُوبَةِ ،
 فَإِنَّهُنَّ أَسْرَعُ طَلِبَا ، وَأَنْجَى مَهْرَبَا ، وَأَلْيَنَ مَعْطَفَا ، وَأَبْعَدُ فِي الْمُحْوِقِ غَايَةَ ، وَأَصْبَرُ فِي مَعْتَرِكِ
 الْأَبْطَالِ إِقْدَامَا . وَخُدُّهُمْ مِنَ السَّلَاحِ بِأَبْدَانِ الدَّرُوعِ ، مَازِيَةَ الْحَدِيدِ ، شَاكَّةَ النَّسْجِ ، مُتَقَارِبَةَ
 الْحَلِاقِ ، مُتَلَاحِمَةَ الْمَسَامِيرِ وَأَسْوُقِ الْحَدِيدِ ، مُمَوَّهَةَ الرِّكْبِ ، مُحْكَمَةَ الطَّيْعِ خَفِيفَةَ الصَّوْغِ ؛
 وَسَوَاعِدَ طَبْعِهَا هِنْدِيَّةً ، وَصَوُغُهَا فَارِسِيَّةً ؛ رِقَاقِ الْمَعَاطِفِ بِأَكْفِّ وَاقِيَةِ وَعَمَلِ مُحْكَمِ .
 وَيَلْمِقِ الْبَيْضَ مُذْهَبَةً وَمَجْرَدَةً ، فَارِسِيَّةَ الصَّوْغِ ، خَالِصَةَ الْجَوْهَرِ ، سَابِغَةَ الْمَلْبَسِ ، وَاقِيَةَ
 الْجُنِّ ، مُسْتَدِيرَةَ الطَّيْعِ ، مُبْهَمَةَ السَّرْدِ ، وَاقِيَةَ الْوِزْنِ كَثْرِيكَ النِّعَامِ فِي الصَّنْعَةِ وَأَسْتَدَارَةَ
 التَّقْبِيبِ ، وَأَسْتَوَاءَ الصَّوْغِ ، مُعَلِّمَةَ أَبْصَانِ الْحَرِيرِ وَأَلْوَانِ الصَّبْغِ ؛ فَإِنَّهَا أَهْيَبُ لِعَدُوِّهِمْ ،
 وَأَفْتَى لِأَعْضَادِ مَنْ لَقِيَهُمْ ، وَالْمَعْلَمُ مُحَشِيٌّ مَحْذُورٌ ، لَهُ بَيْدِيَّةٌ رَادِعَةٌ ، وَهَيْبَةٌ هَائِلَةٌ ؛ مَعَهُمْ
 السِّيُوفُ الْهِنْدِيَّةُ ، وَذُكُورُ الْبَيْضِ الْيَمَانِيَّةُ ؛ رِقَاقُ الشَّفَرَاتِ ، مَسْنُونَةُ الشَّحْدِ ، مُشْطَبَةُ
 الضَّرَائِبِ . مَعْتَدِلَةُ الْجَوَاهِرِ ، صَافِيَةُ الصَّفَاحِ ؛ لَمْ يَدْخُلْهَا وَهْنُ الطَّيْعِ ، وَلَا عَابَهَا أَمْتُ
 الصَّوْغِ ، وَلَا شَانَهَا خِفَّةُ الْوِزْنِ ، وَلَا فَدَحَ حَامِلِهَا بَهْرُ الثَّقَلِ ؛ قَدْ أَشْرَعُوا لُدْنَ الْقَنَا ،
 طَوَالَ الْهُوَادِي ، مُقَوِّمَاتِ الْأَوْدِ ، زُرُقِ الْأَسِنَّةِ ، مُسْتَوِيَّةِ التَّعَالِبِ ؛ وَمِيضُهَا مُتَوَقِّدٌ ،
 وَسِنْخُهَا مُتَلَهَّبٌ ، مَعَاقِصُ عَقْدِهَا مَنُجُوتَةٌ ، وَوُصُومُ أَوْدِهَا مُقَوِّمَةٌ ، وَأَجْنَاسُهَا مُخْتَلِفَةٌ ،
 وَكُعُوبُهَا جَعْدَةٌ ، وَعُقْدُهَا حَبْكَةٌ ؛ شَطْبَةُ الْأَسْنَانِ ، مُمَوَّهَةُ الْأَطْرَافِ ، مُسْتَحِدَّةُ الْجَنَابَاتِ ،
 دِقَاقُ الْأَطْرَافِ ، لَيْسَ فِيهَا آتِوَاءُ أَوْدٍ ، وَلَا أَمْتُ وَصْمٍ ، وَلَا بَهَا مَسْقَطُ عَيْبٍ ، وَلَا عِنَّا

(١) المهلوبة : المتوفة الهلب ، وهو شعر الذنب أو الشعر كله . (٢) أى خالصة وحيدته .

(٣) اليلق : القباء المحشو . (٤) التريك : بيضة النعام خاصة ، ومنه قوله :

* وتلقى بها بيض النعام ترائكا *

(٥) سيف شطب : ذو شطب وهي طرائقه التي في منته . (٦) الأمت : العوج والاختلاف .

(٧) الثعلب : طرف الرمح الداخل في جبة السنان . (٨) في مفتاح الأفكار وغيره : « وشحذها متلهب »

وسنخ النصل : الحديدية التي تدخل في رأس السهم . (٩) المعاقص : السهام المعوجة .

وقوع أمنية ؛ مُسْتَحْقِبِي كَثَائِنِ النَّبْلِ وَوَقِيبِي الشَّوْحَطِ^(١) وَالنَّبَعِ ؛ أَعْرَابِيَّةِ التَّعْقِيبِ ، رُومِيَّةِ النَّصُولِ ، مَسْمُومَةِ الصَّوْعِ ؛ وَلِتَكُنْ سِهَامَهَا عَلَى نَحْمِيسِ قَبَضَاتِ سَوَى النَّصُولِ ، فَإِنهَا أَبْلُغُ فِي الْغَايَةِ ، وَأَنْفَذُ فِي الدَّرُوعِ ، وَأَشْكُ فِي الْحَدِيدِ ؛ سَامِطِينَ^(٢) حَقَائِمَهُمْ عَلَى مُتُونِ خِيُولِهِمْ ، مُسْتَحْفِينَ مِنَ الْآلَةِ وَالْأَمْتِيَّةِ وَالزَّادِ ، [إِلَّا مَا لَا غَنَاءَ بِهِمْ عَنْهُ] .

وَأَحْذَرُ أَنْ تَكِلَ مَبَاشِرَةَ عَرَضِهِمْ وَأَنْتَخِبَهُمْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَعْوَانِكَ وَكُنَّابِكَ : فَإِنَّكَ إِنْ وَكَلْتَهُ إِلَيْهِمْ أَضَعْتَ مَوَاضِعَ الْحَزْمِ ، وَفَرَطْتَ حَيْثُ الرَّأْيِ ، وَوَقَفْتَ دُونَ عِزِّمِ الرُّوِيَّةِ ، وَدَخَلَ عَمَلُكَ ضِيَاعُ الْوَهْنِ ، وَخَلَصَ إِلَيْكَ عَيْبُ الْمَحَابَةِ ، وَنَالَهُ فَسَادُ الْمُدَاهَنَةِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ طَلِيعَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا عُدَّةً وَلَا حِصْنَ يَدْرُونَ بِهِ ، وَيَكْتَهِفُونَ بِمَوْضِعِهِ . وَالطَّلَائِعُ حِصُونِ الْمُسْلِمِينَ وَعِيُونُهُمْ ، وَهَمَّ أَوَّلُ مَكِيدَتِكَ ، وَعُرُوءَةُ أَمْرِكَ ، وَزِمَامُ حَرْبِكَ . فَيَلِكُنْ آعْتِنَاؤُكَ بِهِمْ ، وَأَنْتَقَاؤُكَ إِيَّاهُمْ بِحَيْثُ هَمَّ مِنْ مُهْمٍ عَمَلِكَ ، وَمَكِيدَةِ حَرْبِكَ ؛ ثُمَّ أَنْتَجِبْ لِلْوِلَايَةِ عَلَيْهِمْ رَجُلًا بَعِيدَ الصَّوْتِ ، مَشْهُورَ الْإِسْمِ ، طَاهِرَ الْفَضْلِ ، نَبِيهَ الذِّكْرِ ؛ لَهُ فِي الْعَدُوِّ وَقَعَاتٌ مَعْرُوفَاتٌ ، وَأَيَّامٌ طَوَالٌ وَصَوْلَاتٌ مُتَقَدِّمَاتٌ ؛ قَدْ عُرِفَتْ نَكَائِثُهُ ، وَحُدِرَتْ شَوْكَتُهُ ، وَهَيْبَ صَوْتِهِ ، وَتَشَكَّبَ لِقَاؤُهُ ؛ أَمِينَ السَّرِيرَةِ ، نَاصِحَ الْجَيْبِ ؛ قَدْ بَلُوتَ مِنْهُ مَا يُسَكِّتُكَ إِلَى نَاحِيَّتِهِ : مِنْ لَيْنِ الطَّاعَةِ ، وَخَالِصِ الْمَوَدَّةِ ، وَرَكَانَةِ الصَّرَامَةِ ، وَغُلُوبِ الشَّهَامَةِ ، وَاسْتِجَاعِ الْقُوَّةِ ، وَحَصَافَةِ التَّدْيِيرِ . ثُمَّ تَقَدَّمْ إِلَيْهِ فِي حَسَنِ سِيَاسَتِهِمْ ، وَاسْتِنزَالِ طَاعَتِهِمْ ، وَاجْتِلَابِ مَوَدَّاتِهِمْ وَاسْتِعْدَابِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَأَجْرِ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ أَرْزَاقًا تَسْعُهُمْ ، وَتُمَدُّ مِنْ أَطْعَامِهِمْ سِوَى أَرْزَاقِهِمْ فِي الْعَامَّةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَّةِ لَكَ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِسْتِنَامَةِ إِلَى مَا قَبْلَهُمْ .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُمْ فِي أَحَمِّ الْأَمَاكِنِ لَكَ ، وَأَعْظَمُهَا غَنَاءً عَنْكَ وَعَمَّنْ مَعَكَ ، وَأَقْمَعَهَا كَبْتَنَا مُحَادِّدَكَ ، وَأَشْجَاهَا غِيظًا لِعَدُوِّكَ : وَمَنْ يَكُنْ فِي الثَّقَةِ ، وَالْجَلَدِ ، وَالْبَاسِ ، وَالطَّاعَةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالنَّصِيحَةِ وَالْعُدَّةِ ، وَالنَّجْدَةِ حَيْثُ وَصَفَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرَكَ بِهِ ، يَضَعُ عَنْكَ مَوْنَةَ الْهَمِّ ؛ وَيُرِيحُ

(١) الشوحت : شجر تتخذ منه القسي . (٢) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥١) .

(٣) يقال : فلان ناصح الجيب يراد بذلك قلبه وصدوره أي أمين .

من خناقك روع الخوف ، وتلتجئ إلى أمرٍ مَنِيعٍ ، وظَّهر قوَى ، ورأى حازم ، تأمن به
بِحَاتِ عدوك ، وغرَّاتِ بغتاتهم ، وطوارقِ أحداثهم ، ويصير إليك علم أحوالهم ، ومتقدِّماتِ
خيولهم ، فانتخبهم رأى عَيْنٍ ، وقوَّهم بما يُصالحهم من المنالِ والأطعاع والأرزاق ، وأجعلهم
منك بالمنزل الذي هم به من محارزِ علاقتك ، وحصانةِ كهوفتك ، وقوَّةِ سِيَّارةِ عسكريك .
وإياك أن تُدخِلَ فيهم أحداً بشفاعة ، أو تحتمله على هَوَّادة ، أو تقدمه لأثرة ؛ أو أن يكون
مع أحدٍ منهم بَعْلٌ نَفْلٍ ، أو فضلٌ من الظَّهر ، أو ثقلٌ فادِحٌ ، فتشدت عليهم مؤونة أنفسهم ،
ويدخلهم كلالُ السامةِ فيما يعالجون من أُنْقالمٍ ، ويشتغلون به عن عدوِّهم إن دهمهم منه
رائعٌ ، أو جفَّاهم منه طليعةٌ . فتفقَّد ذلك محكِّمًا له ، وتقدِّم فيه آخذاً بالحزم في إِمضاءه ؛
أرشدك الله لإصابة الحظِّ ، ووفَّقك ليمن التديير ، وقصدك بك لأسهل الرأى وأعوذ نفعاً
في العاجل والآجل ، وأكتبه لعدوك وأشجاء لهم ، وأردعه لعاديَّتهم .

ولِّ دراجةَ عسكريك وإخراجِ أهله إلى مصافهم ومرِّ إكرهم رجلاً من أهل بيوتات
الشرف ، محمودِ الخبرة ، معروفاً بالتجدة ، ذا سنٍّ وتجربة ، لينَّ الطاعة ، قديمِ النصيحة ،
مأمونِ السرية ، له بصيرةٌ بالحق نافذة تقدمه ، ونية صادقة عن الإدهان تحجزه . وأصمِّم
إليه عدَّة نَفَرٍ من ثقات جنديك وذوي أسنانهم يكونون شُرطةً معه ؛ ثم تقدِّم إليه في إخراجِ
المصافِّ ، وإقامة الأحراس وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ، وشدة الحذر ، ومُره
فليضع القوَّاد بأنفسهم مع أصحابهم في مصافهم ، كلُّ قائدٍ بإزاء مكانه ، وحيثُ منزله ،
قد سُدَّ ما بينه وبين صاحبه بالرَّماحِ شارعةً ، والترسةِ موضونةً ، والرجالِ راصدةً ، ذاكيةً
الأحراس ، وجلةِ الرُّوع ، خائفة طوارقِ العدو وبيَّاته . ثم مره فليخرج كلَّ ليلة قائداً
في أصحابه أو عدَّة منهم إن كانوا كثيراً ، على غلوة أو اثنتين من عسكريك ، متبيداً عنك مُحيطاً
بمنزلك ، ذاكيةً أحرأسه ، قَلقةً التردد ، مُفْرِطة الحذر ، مُعدَّة للزُّوع ، متأهبةً للقتال ، آخذةً
على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرِّقين في آختلافهم كُردوساً كُردوساً ؛ يستقبل بعضهم بعضاً

(١) النفل محرَّكة : الغنيمه والهبة . (٢) الثقل : متاع المسافرين . (٣) الإدهان : المداهنه وهى أن يظهر

الانسان خلاف ما يبطن . (٤) الترسه موضونه ، أى منسوجه حلقتين حلقتين . (٥) أى كتيبة كتيبة .

[في الاختلاف ^(١)] وَيَكْسَع تَالٍ مَتَقَدِّمًا فِي التَّرَدِّدِ ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ بَيْنَ قُوَادِكِ وَأَهْلِ عَسْكَرِكَ نُوْبًا مَعْرُوفَةً ، وَحِصَصًا مَفْرُوضَةً ، لَا تُعْرِ مِنْهَا مُزْدَلِفًا مِنْكَ بِمُودَةٍ ، وَلَا تَحْمَلْ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ بِمُوجِدَةٍ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَوَضَّ إِلَى أَمْرَاءِ أَجْنَادِكَ وَقُوَادِ خَيْلِكَ أُمُورَ أَحْصَائِهِمْ ، وَالْأَخَذَ عَلَى قَافِيَةِ أَيْدِيهِمْ ، رِيَاضَةً مِنْكَ لَهُمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرَائِهِمْ ، وَالْإِتِّبَاعِ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ نَهْيِهِمْ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى أَمْرَاءِ الْأَجْنَادِ فِي النُّوَابِ الَّتِي أَلْزَمْتَهُمْ بِهَا ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي اسْتَجَدَّتْهُمْ لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةِ وَالْكِرَاعِ الَّتِي كَسَبَتْهَا عَلَيْهِمْ ، وَاحْدَرَ اعْتِلَالَ أَحَدٍ مِنْ قُوَادِكَ عَلَيْكَ بِمَا يَحْوِلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جُنْدِكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لَطَاعَتِكَ ، وَقَمَعَهُمْ عَنِ الْإِخْلَالِ بِمَرَاكِرِهِمْ لِشَيْءٍ مِمَّا وَكَلُوا بِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَفْسُدَةٌ لِلْجُنْدِ ، مَفْتَأَةٌ لِلْقُوَادِ ^(٢) عَنِ الْحِدِّ وَالْإِيثَارِ لِلْمُنَاصِحَةِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي اسْتِخْفَافِهِمْ بِقُوَادِهِمْ وَتَضْيِيعِهِمْ أَمْرَ رُؤَسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضِّيَاعِ عَلَى أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْتَمِرُونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْتَبِي . وَأَوْعِزْ إِلَى الْقُوَادِ أَلَّا يُقَدِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عَقُوبَةِ أَحَدٍ مِنْ أَحْصَائِهِ ، إِلَّا عَقُوبَةَ تَأْدِيبٍ فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ، وَتَشْتِيفِ أَوْدٍ ، فَأَمَّا عَقُوبَةُ تَبْلُغُ تَلْفِ الْمُهْجَةِ ، وَإِقَامَةُ حَدٍّ فِي قَطْعٍ ، أَوْ إِفْرَاطٍ فِي ضَرْبٍ ، أَوْ أَخْذُ مَالٍ ، أَوْ عَقُوبَةُ فِي شَعَرٍ ، فَلَا يَلِيَنَّ ذَلِكَ مِنْ جُنْدِكَ أَحَدٌ غَيْرُكَ ، أَوْ صَاحِبُ شُرْطَتِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنْ رَأْيِكَ وَإِذْنِكَ ، وَمَتَى لَمْ تُدَلِّ الْجُنْدَ لِقُوَادِهِمْ ، وَتَضْرِعَهُمْ لِأَمْرَائِهِمْ ، تُوجِبْ لَهُمْ عَلَيْكَ الْحِجَّةَ بِتَضْيِيعِ — إِنْ كَانَ مِنْهُمْ — لِأَمْرِكَ ، أَوْ خَلَلِ — إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ — مِنْ عَمَلِكَ ، أَوْ عَجَزِ — إِنْ فَرَطَ مِنْهُمْ — فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَلْتَهُمْ بِهِ أَوْ أَسْنَدْتَهُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا تَجِدْ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ بِاللُّومِ وَعَضِّ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ مَجَازًا تَصِلُ بِهِ إِلَى تَعْنِيهِمْ ، بِتَفْرِيطِكَ فِي تَذَلِيلِ أَحْصَائِهِمْ لَهُمْ ، وَإِسَادِكَ إِلَيْهِمْ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ . فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدِّمُ

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٢) . (٢) أي يقعد بهم عن الجدل الخ .

فيه برفقك تقدماً بليغاً، وإياك أن يدخل حزمك وهن، أو يشوب عزمك إثارة، أو يخالط رأيك ضياع؛ والله يستودع أمير المؤمنين نفسه ودينك .

إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصراً، وكان من عسكرك مقترباً قد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته، فتأهب أهبة المناجز، وخذ أعتداد الحذر، وكتب^(١) خيولك، وعب جندك . وإياك والمسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقية، قد شهرت الأسلحة، ونشروا البنود والأعلام . وعرف جندك مراكزهم سائر تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال، وأستعدوا للقاء؛ ملتجئين إلى موافقهم، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم . وليكن تحلهم وتنظم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكزهم، قد عرف كل قائد منهم أصحابه مواضعهم : من الميمنة والميسرة والقلب والساقية والطبيعة، لازمين لها، غير مخلين بما أستجدوا له، ولا متهاونين فيما أهب بهم إليه؛ حتى تكون عساكرك في منهل تصل إليه، ومسافة تختارها، كأنها عسكر واحد في اجتماعها على العدو، وأخذها بالحزم، ومسيرها على راياتها، ونزولها في مراكزها، ومعرفة بمواضعها : إن ضلت دابة من موضعها، عرف أهل العسكر من أي المراكز هي، ومن صاحبها، وفي أي المحل حلوله منها، فردت إليه، هداية معروفة بسمت صاحب قيادتها؛ فان تقدمك في ذلك وإحكامك له طارح عن جندك مؤونة الطلب، وعناية المعرفة، وأبتغاء الضالة .

ثم اجعل على ساقنتك أوثق أهل عسكرك في نفسك صرامة ونفاذا ورضاً في العاقبة، وإنصافاً من نفسه للرعية، وأخذاً بالحق في المعدلة، مستشعراً تقوى الله وطاعته؛ أخذا بهديك وأدبك، واقفاً عند أمرك ونهيك، معتزماً على مناصحتك وتزيتك، نظيراً لك في الحال، وشيهاً بك في الشرف، وعديلاً في الموضع، ومقاربا في النسب؛ ثم أكثف معه الجمع، وأيدّه بالقوة، وقوه بالظهر، وأعنه بالأموال، وأعمده بالسلاح، ومره بالتعطف على ذوي الضعف من جندك ومن أزحفت به دابته وأصابته نكبة : من مرض أو رجلة أو آفة^(٢)،

(١) كتب الجيش أو الخيل : جعلها كتاب . (٢) في مفتاح الأفكار وغيره : « في الصيت » .

(٣) الرجلة بالضم : أن يسكو رجله وقد رجل كفرح أصابه في رجله ما يكره .

من غير أن يأذن لأحدٍ منهم في التنجّي عن عسكره، أو التخلّف بعد ترحّله، إلا للمجهودِ سَقَبًا، أو لمطروقٍ بأفّةٍ جائحةٍ . ثم تقدّم إليه محذرا، ومُرّه زاجرا، وأنهه مُغِلّا في الشدّة على من مرّ به منصرفًا عن معسكرك من جنّدك بغير جوازك، شادًّا لهم أسرًا، وموقرهم حديدًا، ومعاقبهم موجعا، وموجههم إليك فتمنّكهم عقوبةً، وتجعلهم لغيرهم من جنّدك عِظة .

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقا بنصيحتته قد بلوت منه أمانةٌ تُسكّك إليه، وصرامةٌ تُؤمّنك مهانته، ونفاذاً في أمرك يُرّجى عنك خنّاق الخوف في إضاعته — لم يأمن أمير المؤمنين تسأل الجند عنك لوأذا^(١)، ورفضهم مراكرهم، وإخلاقهم بمواضعهم، وتخلّفهم عن أعمالهم، آمين تغيّر ذلك عليهم، والشدّة على من آجترمه منهم، فأوشك ذلك في وهنك، وخذل من قوتك، وقلل من كثرتك .

اجعل خلف ساقبتك رجلا من وجوه قوادك، جليداً، ماضياً، عفيفاً، صارماً، شهيم الرأي، شديد الحذر، شيكيم القوة، غير مُداهن في عقوبة، ولا مهين في قوّة، في خمسين فارسا يحشُر إليك جنّدك، ويلحق بك من تخلّف عنك بعد الإبلاغ في عقوبتهم، والنهك لهم، والتنكيل بهم . وليكن بعقوتك في المنزل الذي ترحل عنه، والمنهل الذي تتقوض منه، مُفْرِطاً في النّفِض له، والتتبّع لمن تخلّف عنك به، مشتتداً في أهل المنزل وساكبه بالتقدّم، موعزاً إليهم في إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكائهم، وإبعاد العقوبة الموجهة والنكال المُبْسِل في الأشعار والأبشار، وأسْتِصْفَاءِ الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً أو ستر موضعه، أو أخفى محله . وحدّره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والمحابة لذي قرابة، والأختصاص بذلك لذي أثرة وهوادة . ولتكن فرسانه مستخين في القوّة، معروفين بالنجدة، عليهم سوايغ الدروع دونها شعار الحشو وجبب الاستيجنان، متقلّدين سيوفهم، سامطين كائنهم، مستعدين لهيج إن بدّهم [أو كمين إن يظهر لهم]^(٤) . وإياك

(١) لوأذا : مراوغة أى مستحقين يستربعضهم ببعض . (٢) العقوبة : ما حول الدار أو ساحته .

(٣) سامطين : معلقين . (٤) الزيادة عن مفتاح الأفكار وغيره .

أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرسا قويا أو بردونا وثيجا^(١) : فإن ذلك من أقوى القوة لهم ، وأعون الظهري على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إباناً واحداً ، ووقتاً معلوماً : لتخف المؤونة بذلك على جنديك ، ويعلموا أن رحيلهم ، فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ، ويطمئن ذوو الرأي الى إبان الرحيل . ومتى يكن رحيلك مختلفاً ، تعظم المؤونة عليك وعلى جنديك ولا يزال ذوو السفه [والترق] يترحلون بالإرجاف ويتزلون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .

إياك أن تظهر استقلاً ، أو تُنادى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب تعبئتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك أخذاً بجنبتي فوهته ، بأسلحتهم عدة لأمرٍ إن حضر أو مفاجأة من طليعة العدو إن رأت منكم نهزة ، أو تحت عندكم غرة . ثم أمر الناس بالرحيل وخيلك واقفة ، وأهبتك معدة ، وجنتك واقفة ، حتى إذا استقلتم من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سرتتم على تعبئكم بسكون ريح ، وهدو حمله ، وحسن دعة . فإذا انتهيت الى منزل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به ، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمراقفه ؛ وممر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستشيرك علم دفينه ، ويستيطن علم أموره ثم ينهبها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتماله لعسكرك ، وكيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك — إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة عدوك أو مكيدته فيه — قوة تحملك ومدد يأتيه ؛ فإنك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع مآذيه ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو احتجت من أمورهم الى مطاولة ، فإن ارتحلت منه كنت غرضاً لعدوك ، ولم تجد الى المحاربة والإخطار سبيلاً ؛ وإن أقتت به أقتت على مشقة وحصر وفي أزل

(١) بردونا وثيجا : كثير اللحم .

(٢) كذا في صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفاً صوابه : قوة تصلك ومدد يأتيك .

وَضِيقٌ ، فَأَعْرِفْ ذَلِكَ وَتَقَدَّمْ فِيهِ . فَإِنْ أُرِدْتَ نَزْوَلًا أَمَرْتَ صَاحِبَ الْخَيْلِ الَّتِي وَكَلْتَ
بِالنَّاسِ فَوَقَفْتَ خَيْلَهُ مَتَّحِيَةً مِنْ مَعْسُوكِ ، عُدَّةً لِأَمْرٍ إِنْ غَالِكَ ، وَمَقْرَعًا لِبِدِيهَةِ إِنْ رَاعَتْكَ ،
فَقَدْ أَمِنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ بِجَاةِ عَدُوِّكَ ، وَعَرَفْتَ مَوْجِعَهَا مِنْ حَزْرِكَ ، حَتَّى يَأْخُذَ النَّاسُ
مَنَازِلَهُمْ ، وَتُوضَعَ الْأَثْقَالُ مَوَاضِعَهَا ، وَيَأْتِيكَ خَبْرُ طَلَائِعِكَ ، وَتُخْرَجُ دَبَابَتُكَ مِنْ مَعْسُوكِ
دَرَاجَةً وَدَبَابًا يُحِيطِينَ بِعَسْكَرِكَ ، وَعُدَّةً إِنْ أَحْتَجْتَ إِلَيْهَا . وَلَتَكُنْ دَبَابَاتُ جُنْدِكَ أَهْلَ جَلَدٍ
وَقُوَّةٍ ، قَائِدًا أَوْ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً بِأَصْحَابِهِمْ ، فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ نَوْبًا بَيْنَهُمْ . فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ
وَوَجِبَ نُورُهَا ، أَنْحَرِجِ إِلَيْهِمْ صَاحِبَ تَعْيِيَتِكَ أَبْدَاهُمْ ، عَسَسًا بِاللَّيْلِ فِي أَقْرَبِ مِنْ مَوَاضِعِ
دَبَابِي النَّهَارِ ، يَتَعَاوَرُ ذَلِكَ قَوَادِكُ جَمِيعًا بِلَا مَحَابَاةٍ لِأَحَدٍ فِيهِ وَلَا إِدْهَانَ .

إِيَّاكَ وَأَنْ يَكُونَ مِثْرَكَ إِلَّا فِي خَنْدَقٍ وَحِصْنٍ تَأْمَنُ بِهِ بَيَاتِ عَدُوِّكَ وَتَسْتَنِيْمٌ فِيهِ
إِلَى الْحَزْمِ مِنْ مَكِيدَتِكَ . إِذَا وُضِعَتِ الْأَثْقَالُ وَحَطَّتْ أُبْنِيَةُ أَهْلِ الْعَسْكَرِ ، لَمْ يُمَدِّدْ
طَنْبُ ، وَلَمْ يُرْفَعْ خِباءٌ ، وَلَمْ يُنْصَبْ بِنَاءٌ حَتَّى تَقْطَعَ لِكُلِّ قَائِدٍ ذَرْعًا مَعْلُومًا مِنَ الْأَرْضِ بِقَدْرِ
أَصْحَابِهِ ، فَيَحْفِرُوهُ عَلَيْهِمْ خَنْدَقًا يُطِيفُونَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَنْدَاقِ الْحَسَكِ ، طَارِحِينَ لَهَا دُونَ
أَشْتِجَارِ الرِّمَاحِ ، وَنَصَبِ التَّرْسَةِ ، لَهَا بَابَانِ قَدْ وَكَلْتَ بِحِفْظِ كُلِّ بَابٍ مِنْهُمَا رَجُلًا مِنْ قَوَادِكِ
فِي مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَإِذَا فُرِغَ مِنَ الْخَنْدَقِ كَانَ ذَانِكَ الرَّجُلَانِ الْقَائِدَانِ بَيْنَ مَعْمَهُمَا مِنْ
أَصْحَابِهِمَا أَهْلَ ذَلِكَ الْمَرْكَزِ ، وَمَوْضِعِ تِلْكَ الْخَيْلِ ، وَكَانُوا هُمُ الْبَوَائِيْنِ وَالْأَحْرَاسِ لِذَيْتِكَ
الْمَوْضِعِينَ ، قَدْ كَفَّوْهُمَا وَضَبَطُوهُمَا وَأَعْفَوْا مِنْ أَعْمَالِ الْعَسْكَرِ وَمَكْرُوهِهِ غَيْرَهُمَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ فِي خَنْدَقٍ ، أَمِنْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ طَوَارِقَ عَدُوِّكَ وَبَغْتَاتِهِمْ ، فَإِنْ
رَامُوا تِلْكَ مِنْكَ ، كُنْتَ قَدْ أَحْكَمْتَ ذَلِكَ وَأَخَذْتَ بِالْحَزْمِ فِيهِ ، وَتَقَدَّمْتَ فِي الْإِعْدَادِ لَهُ ،
وَرَتَقْتَ مَخَوَفَ الْفَتْقِ مِنْهُ ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْعَافِيَةُ أَسْتَحَقَّقْتَ حَمْدَ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَارْتَبَطَتْ شُكْرَهُ
بِهَا ، وَلَمْ يَضُرَّكَ أَخْذُكَ بِالْحَزْمِ : لِأَنَّ كُلَّ كُفْةٍ وَنَصَبٍ وَمُؤْنَةٍ إِنْفَاقٍ وَمَشَقَّةٍ عَمَلٍ مَعَ

(١) أَى ذَهَبٍ وَغَابٍ . (٢) الْحَسَكُ : أَسْلَاكُ كَالشُّوْكِ تَعْمَلُ مِنَ الْحَدِيدِ تَلْقَى حَوْلَ الْمَعْسُوكِ لِتَنْشِبَ

فِي رِجْلِ مَنْ يَدُومُهَا مِنَ الْخَيْلِ وَالنَّاسِ الطَّارِقِينَ لَهُ ، وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ الْآنَ : « بِالْأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ » .

"Barbed wires"

السلامة غمٌ وغير خطرٍ بالعاقبة، إن شاء الله . فإن أبتليت ببيات عدوك أو طرقت رايها في ليك، فليُلفك حذراً مشمراً عن ساقك، حاسراً عن ذراعك، متشزناً^(١) لحربك؛ قد تقدمت دزاجتك إلى مواضعها على ما وصفه لك أمير المؤمنين، ودبابتك في أوقاتها التي قدر لك، وطلائعك حيث أمرك، وجندك على ما عبأ لك، قد خطرت عليهم بنفسك؛ وتقدمت إلى جندك، إن طرقتهم طارق أو فاجأهم عدو، ألا يتكلم منهم أحد رافعا صوته بالتكبير مغرقاً في الإجلاب، مُعلنا بالإرهاب لأهل الناحية التي يقع بها العدو طارقاً، وليشرعوا رماحهم ناشيين بها في وجوههم، ويرشقوهم بالنبل مكنتين بترسهم، لازمين لمراكزهم، غير مُزيلي قدم عن موضعها، ولا متجاوزين إلى غير مراكزهم، وليكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون، لتعرف موضع عدوك من معسكرك، فتمد أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك، ومن أنتخبت قبل ذلك عدداً للشدائد بحضرتك، وتُدس إليهم النشاب والرماح .

وإياك وأن يشهروا سيفاً يتجالدون به، وتقدم إليهم ألا يكون قتالهم في تلك المواضع لمن طرفهم إلا بالرماح مُسندين لها إلى صدورهم، والنشاب راشقين به وجوههم؛ قد ألبدوا بالأتريسة، وأستجنوا بالبيض، وألقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب الحشو . فإن صد العدو عنهم حاملين على جهة أخرى، كبر أهل تلك الناحية التي يقع فيها كفعل الناحية الأولى، وبقية العسكر سكوتاً والناحية التي صد عنها العدو لازمةً مراكرهم منتطقة الهدو ساكنة الريح، ثم عملت في تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك في إخوانهم .

وإياك أن تُجد نار رواقك؛ وإذا وقع العدو في معسكرك فأججها ساعراً لها وأوقدها حطباً جراً يعرف به أهل العسكر مكانك وموضع رواقك، فيسكن نافر قلوبهم، ويقوى واهي قوتهم، ويستند منخذل ظهورهم، ولا يربحون بك الظنون، ويعلمون لك آراء

(١) متشزناً : متجهزاً .

السوء، وَيُرْجِفُونَ بِكَ آتَاءَ الْخَوْفِ؛ وَذَلِكَ مِنْ فِعْلِكَ رَأْدُ عَدُوِّكَ بَغِيْظُهُ لَمْ يَسْتَفْلِلْ مِنْكَ ظُفْرًا، وَلَمْ يَيْلُغْ مِنْ نِكَالِكَ سرورا . وَإِنْ أَنْصَرَفَ عَنْكَ عَدُوُّكَ وَنَكَلَ عَنِ الْإِصَابَةِ مِنْ جَنْدِكَ وَكَانَتْ بِجَيْلِكَ قُوَّةٌ عَلَى طَلْبِهِ أَوْ كَانَتْ لَكَ مِنْ فُرْسَانِكَ خَيْلٌ مَعْدَّةٌ وَكُتَيْبَةٌ مَسْتَخْبَةٌ، [و] قَدَرْتَ عَلَى أَنْ تَرْكَبَ بِهِمْ أَكْسَاءَهُمْ^(١)، وَتَحْمِلَهُمْ عَلَى سَنَنِهِمْ؛ فَأَتْبَعَهُمْ جَرِيدَةَ خَيْلِهَا مِنْ الثَّقَاتِ مِنْ فُرْسَانِكَ وَأُولُو النَجْدَةِ مِنْ حِمَاتِكَ؛ فَإِنَّكَ تَرْهَقُ عَدُوَّكَ وَقَدْ أَمِنَ مِنْ بَيَاتِكَ، وَشُغِلَ بِكَلَالِهِ عَنِ التَّحَرُّزِ مِنْكَ وَالْأَخْذِ بِأَبْوَابِ مَعْسَكَرِهِ وَالضَّبْطِ لِمَحَارِسِهِ عَلَيْكَ، مُوهِنَةً حِمَاتِهِمْ لَغَيْبَةِ أَبْطَالِهِمْ: لَمَّا أَلْفَوْكُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّشْمِيرِ وَالْجِدِّ، قَدْ عَقَرَ اللَّهُ فِيهِمْ، وَأَصَابَ مِنْهُمْ، وَجَرَحَ مِنْ مَقَاتِلَتِهِمْ، وَكَسَرَ مِنْ أَمَانِي ضَلَالِهِمْ، وَرَدَّ مِنْ مَسْتَعْلِي حِمَا حِمَاهُمْ .

وَتَقَدَّمَ إِلَى مَنْ تُوجِّهُهُ فِي طَلْبِهِمْ، وَتُنْبَعُهُ أَكْسَاءَهُمْ: فِي سَكُونِ الرِّيحِ، وَقِيْلَةَ الرَّفْتِ، وَكَثْرَةَ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ، وَأَسْتِنْصَارِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلِّ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ سِرًّا وَجَهْرًا، بِبَلَابَجِبِ صِحَّةٍ، وَلَا أَرْتِفَاعِ ضَوْضَاءٍ، دُونَ أَنْ يَرْتَدُّوا عَلَى مَطْلَبِهِمْ، وَيَتَهَيَّزُوا فُرْصَتَهُمْ . ثُمَّ لِيَشْهَرُوا السَّلَاحَ، وَيَنْتَضُوا السِّيَوفَ، فَإِنَّ لَهَا هَيْبَةً رَائِعَةً، وَبِدْيَةً مَخُوفَةً، لَا يَقُومُ لَهَا فِي هُبْمَةِ اللَّيْلِ وَحِنْدِسِهِ إِلَّا الْبَطْلُ الْمَحَارِبِ، وَذُو الْبَصِيرَةِ الْحَامِي، وَالْمَسْتَمِيتُ الْمَقَاتِلِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ عِنْدَ تِلْكَ الْحِمِيَّةِ وَفِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ .

لِيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَتَقَدَّمُ بِهِ فِي التَّهَيُّؤِ لِعَدُوِّكَ، وَالْأَسْتِعْدَادِ لِلِقَائِهِ، أَنْتَخِبْكَ مِنْ فُرْسَانِ عَسْكَرِكَ وَحُمَاةِ جَنْدِكَ ذَوِي الْبَأْسِ وَالْحُنُكَةِ وَالْجَلْدِ وَالصَّرَامَةِ، مِمَّنْ قَدْ أَعْتَادَ طِرَادَ الْكُجَّةِ، وَكَشَّرَ عَنِ نَاجِزِهِ فِي الْحَرْبِ، وَقَامَ عَلَى سَاقٍ فِي مَنَازِلَةِ الْأَقْرَانِ، تَقَفَّ الْفُرُوسِيَّةَ، مَجْتَمِعَ الْقُوَّةَ، مَسْتَحْصِدَ الْمَرِيرَةَ، صَبُورًا عَلَى هَوْلِ اللَّيْلِ، عَارِفًا بِمَنَاهِزَةِ الْفُرُصِ، لَمْ تَمَهَّنْهُ الْحُنُكَةُ ضَعْفًا، وَلَا بَلَغَتْ بِهِ السَّنَّ كَلَالًا، وَلَا أَسْكَرْتَهُ غَمْرَةُ الْحَدَاثَةِ جَهْلًا، وَلَا أَبْطَرْتَهُ نَجْدَةُ الْأَغْمَارِ صَلْفًا، جَرِيئًا عَلَى مَخَاطِرَةِ التَّلَفِ، مُقَدِّمًا عَلَى أَدْرَاعِ الْمَوْتِ، مَكَارًا لِمَهْيَبِ الْهَوْلِ، مُتَقَحِّمًا مَخْشِيَّ الْحَتُوفِ، خَائِضًا غَمْرَاتِ الْمَهَالِكِ؛ بِرَأْيِ يُؤَيِّدُهُ الْحَزْمُ، وَنِيَّةٍ لَا يُجَالِحُهَا الشُّكُّ،

(١) الأكساء: الأبار، واحدها كس. (٢) ترهق عدوك: تعناه. (٣) (١٢-٤)

وأهواء مجتمعة، وقلوب مؤتلفة؛ عارفين بفضل الطاعة وعزها وشرها، وحيث محل أهلها من التأييد والظفر والتسكين؛ ثم أعرضهم رأى عين على كراعهم وأسلحتهم. ولتكن دوابهم إناث عتاق الخيل، وأسلحتهم سوابغ الدروع وكال آلة المحارب، متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافي الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس، هندية الحديد يمانية الطبع، رفاق المضارب، مسمومة الشحذ، مشطبة الضريبة؛ ملبدين بالترسة الفارسية، صينية التعقيب، معلمة المقايض بحلق الحديد، أنحاؤها مربعة، ومخارزها بالتجلد مضاعفة، محملها مستخف؛ وكائن النبل وجعاب القيسي قد استحقبوها، وقيسي الشريان والنبع أعرابية الصنعة، مختلفة الأجناس، مُحكَّمة العمل، مقومة التتيف؛ ونصول النبل مسمومة، وعملها مضيضي، وتركيبها عراقي، وتريشها بدوي؛ مختلفة الصوغ في الطبع، شتى الأعمال في التشطيب والتجنيح والإستدارة. ولتكن الفارسية مقبوبة المقايض، منبسطة السية، سهلة الإعطاف، مقربة الأجناس، ممكنة المرعى، واسعة الأسمم؛ فرضها سهلة الورد، ومعاطفها غير مقتربة المواتاة. ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلاً من أهل خاصتك وثقاتك ونصحاءك، له صيت في الرياسة، وقدم في السابقة، وأولية في المشايعة. وتقدم إليه في ضبطهم، وكف معرتهم، وأستنزال نصائحهم، وأستعداد طاعتهم، وأستخلاص ضمائهم، وتعاهد كراعهم وأسلحتهم: معفيًا لهم من النوائب التي تلزم أهل عسرك وعامة جندك؛ وأجعلهم عُدَّةً لأمر إن حربك، أو طارق إن أتاك؛ ومرهم أن يكونوا على أهبة معدة، وحدد نافي لِسنة الغفلة عنهم؛ فإنك لا تدري أي الساعات من ليك ونهارك تكون إليهم حاجتك. فليكونوا كرجل واحد في التشمير والترادف وسرعة الإجابة؛ فإنك عسييت ألا تجد عند جماعة جندك في مثل تلك الروعة والمباغنة — إن أحتجت إلى ذلك منهم — معونة كافية، ولا أهبة معدة. بل ذلك كذلك فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عدتك وقوتك، بعوناً قد وظفتها على القواد الذين وليتهم أمورهم، فسميت أولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً؛ فإن أكتفيت فيما يطرقك ويهدك

ببَعثِ واحد، كان مُعدًّا لم تَحْتَجِ إلى آتِحَابِهِمْ فِي سَاعَتِكَ تَلِكْ، فَفَطَّعَ البَعَثَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَا يَرَهَّقُكَ . وَإِنْ أَحْتَجَجْتَ إِلَى آتِحِينَ أَوْ ثَلَاثَةٍ ، وَجَّهْتَ مِنْهُمْ إِرَادَتَكَ أَوْ مَا تَرَى قُوَّتَكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

وَكُلُّ بَخْرَائِكَ وَدَوَاوِينِكَ رَجُلًا نَاصِحًا أَمِينًا، ذَا وَرَعٍ حَاجِرٍ، وَدِينٍ فَاصِلٍ، وَطَاعَةٍ خَالِصَةٍ، وَأَمَانَةٍ صَادِقَةٍ؛ وَأَجْعَلْ مَعَهُ خِيَلًا يَكُونُ مَسِيرَهَا وَمَنْزِلَهَا وَمَرْحَلَهَا مَعَ خِرَاتِكَ وَحَوْلَهَا . وَتَقَدَّمْ إِلَيْهِ فِي حِفْظِهَا، وَالتَّوَقُّعِ عَلَيْهَا، وَأَتِهَامِ كُلِّ مَنْ تُسْنِدُ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا عَلَى إِضَاعَتِهِ وَالتَّهَاوُنِ بِهِ، وَالشَّدَّةِ عَلَى مَنْ دَنَا مِنْهَا فِي مَسِيرِ، أَوْ ضَامَّهَا فِي مَنْزِلٍ، أَوْ خَالَطَهَا فِي مَنْهَلٍ . وَلِيَكُنْ عَاقِمَةُ الجُنْدِ وَالجَيْشِ — إِلَّا مَنْ اسْتَخْلَصْتَ لِلسَّيْرِ مَعَهَا — مُتَحَيِّنٌ عِنْدَهَا، مَجَانِبِينَ لَهَا فِي المَسِيرِ وَالمَنْزِلِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَتْ الجَوْلَةُ وَحَدَّثَتِ الفَرْعَةَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلخِرَاتِ مَنْ يُوَكِّلُ بِهَا أَهْلَ حِفْظِهَا وَذَبَّ عَنْهَا، وَحِيَاظَةَ دُونِهَا، وَقُوَّةَ عَلَى مَنْ أَرَادَ اتِّهَابَهَا، أَسْرَعَ الجُنْدُ إِلَيْهَا وَتَدَاعَوْا نَحْوَهَا، حَتَّى يَكَادُ يَتَرَامَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَتِهَابِ العَسْكَرِ وَأَضْطِرَابِ الفِتْنَةِ؛ فَإِنْ أَهَلَ الفِتْنِ وَسُوءِ السَّيْرِ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا هَمَّتْهُمُ الشَّرْبُ؛ فَيَأْكُ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي خِرَاتِكَ وَدَوَاوِينِكَ وَبُيُوتِ أَمْوَالِكَ مَطْمَعٌ، أَوْ يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى آغْتِيَالِهَا وَمَرْزَأَتِهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَحْسَنَ مَكِيدَتِكَ أَثْرًا فِي العَامَةِ، وَأَبْعَدَهَا صَيْنًا فِي حَسَنِ القَالَةِ؛ مَا نَلَّتِ الظَّفَرَ فِيهِ بِجَزْمِ الرُّوِيَّةِ، وَحَسَنِ السَّيْرِ، وَلَطْفِ الحِيلَةِ . فَلْتَكُنْ رَوِيَّتُكَ فِي ذَلِكَ وَحِرْصُكَ عَلَى إِصَابَتِهِ بِالْحِيلِ لَا بِالْقِتَالِ وَأَخْطَارِ التَّانِفِ؛ وَأَدْسُسْ إِلَى عَدُوِّكَ، وَكَاتِبْ رُؤْسَاءَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَعِدْمَهُمُ المَنَالَاتِ، وَمَنْبِهِمُ الوِلَايَاتِ، وَسَوْغَهُمُ التُّرَاثِ، وَضَعْ عَنْهُمْ الإِحْنَ، وَأَقْطَعْ أَعْنَاقَهُمْ بِالمَطَامِعِ، وَأَسْتَدْعِهِمْ بِالمَتَّوَابِ؛ وَأَمَلْ قُلُوبَهُمْ بِالتَّرْهِيْبِ إِنْ أَمَكَّتْكَ مِنْهُمْ الدَّوَابِرُ، وَأَصَارْتَهُمْ إِلَيْكَ الرُّوَاجِعِ؛ وَأَدْعُهُمْ إِلَى الوَثُوبِ بِصَاحِبِهِمْ أَوْ أَعْتَرَالِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْوَثُوبِ عَلَيْهِ طَاقَةٌ؛ وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرَحَ إِلَى بَعْضِهِمْ كِتَابًا كَأَنَّهَا جَوَابُ كِتَابٍ لَهُمْ إِلَيْكَ، وَتَكْتُبُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كِتَابًا إِلَيْكَ تَدْفَعُهَا إِلَيْهِمْ وَتَحْمِلُ بِهَا صَاحِبَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتُزَلِّمُهُمْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ التَّهْمَةِ وَمَحَلِّ

الظَّنة ، ففعل مَكِيدَتِكَ في ذلك أن يكون فيها أَفْرَاقُ كلمتهم ، وتَشَيَّبَتْ جماعتهم ، وإحْنُ قلوبهم ، وسوءُ الظنِّ من واليهم بهم ، فيوحشهم منه خوفهم إِيَّاهُ على أنفسهم إذا أيقنوا بآتِهامه إِيَّاهم ، فان بَسَطَ يده فقتلهم ، وأولغ سيفه في دِمَائِهِمْ ، وأسرع الوثوبَ بهم ، أشعرهم جميعاً الخوف ، وشَمِلَهُم الرُّعب ، ودعاهم إليك الهَرَبُ ، فتهافُتُوا نَحْوَكِ بالنصيحة وأموك بالطلب . وإن كان متأنياً محتملاً رجوت أن يستميل إليك بعضهم ، ويستدعى الطمع ذوى الشره منهم ، وتنال بذلك ما تُحِبُّ من أخبارهم ، إن شاء الله .

إذا تَدَانَى الصَّفَانُ ، وتواقَفَ الجمعان ، وأحضرَت الحرب ، وعبأت أصحابك لقتال عدوهم ، فأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، والتوكل على الله عز وجل والتفويض إليه ، ومسألته توفيقك وإرشادك ، وأن يعزِمَ لك على الرِّشْدِ المُتَجَيِّ ، والعِصْمَةِ الكائِنة ، والحِياظَةِ الشاملة . ومُرْ جنسك بالضمِّت وقلَّةِ التلقُت عند المصاولة ، وكثرة التكبير في أنفسهم والتسبيح بضمائرهم ، ولا يُظهِرُوا تكبيراً إلا في الكرات والحملات ، وعند كل رُفْعَةٍ يذلفونها ، فأقما وهم وقوفٌ فان ذلك من الفشل والخبث ، وليذكروا الله في أنفسهم ويسألوه نصرهم وإعزازهم ، وليكثرُوا من قول : "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم أنصُرنا على عدوك وعدونا الباغي ، وأكفنا شوكتَه المستحْدَةَ ، وأيدنا بملائكتك الغالبين ، وأعصمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين" .

وليكن في معسكرك المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة ، وقومٌ موقوفون يحضونهم على القتال ويحرضونهم على عدوهم ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم أهلها وسكانها ، ويقولون : أذكروا الله يذكركم ، وأستنصروه ينصركم ، وألتجئوا إليه يمتنعكم . وإن استطعت أن تكون أنت المباشرة لتعبية جنك ووضعهم مواضعهم من رأيك ، ومعك رجالٌ من ثقات فرسانك ذوو سنٍّ وتجربة ونجدة على التعبئة التي أمير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابك فافعل ، إن شاء الله تعالى .

أيك الله بالنصر، وغلب لك على القوة ، وأعانك على الرشد، وعصمك من الزيف،
وأوجب لمن آستشهد معك ثواب الشهداء ومنازل الأصفياء، والسلام عليك ورحمة الله
وبركاته .

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة .

٧ - رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكاتب^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووقفكم وأرشدكم؛ فإن الله عز
وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك
المكرمين أصفاء، وإن كانوا في الحقيقة سواء؛ وصرفهم في صنوف الصناعات، وضروب
المحاولات، إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكُتاب في أشرف
الجهات، أهل الأدب والمروءات والعلم والرزانة؛ بكم تنتظم الخلافة محاسنها، وتستقيم
أمورها؛ وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلدانهم؛ لا يستغنى الملك عنكم،
ولا يوجد كاف إلا منكم؛ فموقعكم من الملوك موقع أئمتهم التي بها يسمعون، وأبصارهم
التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبتطشون؛ فأمتعكم الله بما خصكم
من فضل صناعتكم، ولا تزغ عنكم ما أضفاه^(٢) من النعمة عليكم؛ وليس أحد من أهل
الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة
منكم . أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم، فإن الكتاب يحتاج
في نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره، أن يكون حليماً في موضع
الحلم، فهيماً في موضع الحكم، مقدماً في موضع الإقدام، محجماً في موضع الإحجام، مؤثراً

(١) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاق) . (٢) أضفاه : آتمه .

للعفاف والعدل والإنصاف ، كُتُوما للأسرار ، وفيأ عند الشدائد ، عالم بما يأتي من النوازل ؛
يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا ، وَالطَّوَارِقَ فِي أَمَا كُنْهَا ؛ قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ العِلْمِ فَأَحْكَمَهَا ،
وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْهُ أَخَذَ مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ ؛ يَعْرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ ، وَحُسْنِ أَدَبِهِ ، وَفَضْلِ
تَجْرِبَتِهِ ، مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ وُرُودِهِ ، وَعَاقِبَةَ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ ؛ فَيُعَدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ
وَعَتَادَهُ ، وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ . فَتَنَافَسُوا يَا مَعْشَرَ الكُتَّابِ فِي صُنُوفِ الآدَابِ ،
وَتَفَهَّمُوا فِي الدِّينِ ، وَأَبْدَأُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِضِ ، ثُمَّ العَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا ثِقَافُ
أَسَدَتِكُمْ ، ثُمَّ أَجِيدُوا الخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُتُبِكُمْ ، وَأَرْوُوا الأشْعَارَ وَأَعْرَفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا ،
وَأَيَّامَ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تُسْمَوُ إِلَيْهِ هَمَمُكُمْ ،
وَلَا تُضَيِّعُوا النَظَرَ فِي الحِسَابِ ، فَإِنَّهُ قَوَامُ كُتَابِ الخِرَاجِ ، وَأَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ المَطَامِعِ سَنِيهَا
وَدَنِيهَا ، وَسَفَسَافِ الأُمُورِ وَمَحَاقِرِهَا ؛ فَإِنَّهَا مَدَلَّةٌ لِلرَّقَابِ ، مَفْسَدَةٌ لِّلْكُتَّابِ ، وَزَهْوٌ صَنَاعَتِكُمْ
عَنِ الدَّنَاءَةِ ، وَأَرْبُؤُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالتَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الجَهَالَاتِ .

وَإِيَّاكُمْ وَالكِبَرَ وَالسُّخْفَ وَالعَظْمَةَ ، فَإِنَّهَا عَدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ ؛ وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ فِي صَنَاعَتِكُمْ ، وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقٌ لِأَهْلِ الفَضْلِ وَالعَدْلِ وَالتَّوْبَلِ مِنْ
سَلَفِكُمْ ؛ وَإِنْ نَبَأَ الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ ، فَأَعْطَفُوا عَلَيْهِ وَوَأَسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالُهُ ، وَيَثُوبَ إِلَيْهِ
أَمْرُهُ ، وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الكِبَرَ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ ، فَزُورُوا وَعَظَّمُوا وَشَاوَرُوا ؛
وَاسْتَظْهَرُوا بِفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ ، وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ ؛ وَلْيَسْكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ أَصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ
بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْوِطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ ، فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشَّعْلِ مَحْمَدَةٌ فَلَا يَصْرِفُهَا
إِلَّا إِلَى صَاحِبِهَا ، وَإِنْ عَرَضَتْ مَدْمَةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ ؛ وَلْيَحْذَرِ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالمَلَّلَ
عِنْدَ تَغْيِيرِ الحَالِ ، فَإِنَّ العَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الكُتَّابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الفِرَاءِ ، وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ
لَهَا ؛ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْدُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ ؛
فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ ، وَأَحْتِمَالِهِ وَنُصِيحَتِهِ ، وَكَمْتَانِ سِرِّهِ وَتَدْيِيرِ أَمْرِهِ ،

ما هو جزءٌ لحقّه ، ويصدق ذلك فعله عند الحاجة إليه ، والأضرار إلى ما لديه ، فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم في حالة الرّخاء ، والشدة والحُرمان والمُواساة والإحسان والسَّراء والضراء ، فنعمت الشيمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، وإذا ولى الرجلُ منكم أو صير إليه من أمرٍ خَلق الله وعيا أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقا ، ولظالم مُنصفا ، فإن الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكما ، وللأشراف مُكُما ، ولتُنى مؤفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعيّة مُتألّفا ، وعن أذاهم متخلفا ، وليكن في مجلسه متواضعا حليما ، وفي سجلات حراجه وأستقضاء حقوقه دقيقا ، وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلاقته ، فاذا عرّف حسنها وقبيحها أعانها على ما يوافقها من الحسّن ، وأحتال على صرفه عمّا يهواه من القبيح بالطف حيلة وأجمل وسيلة .

وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحا لم يهجمها إذا ركبها ، وإن كانت شبوبا آتقها من بين يديها ، وإن خاف منها شُرودا تواقها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرونا قمع برفق هواها في طرُقها ، فإن آستمرت عطفها يسيرا ، فيسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن سائس الناس وعاملهم وجرهم ودخلهم .

والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده ، من سائس البهيمة التي لا تُحير جوابا ، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا ، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها ، ألا فارقوا رحمكم الله في النظر ، وأعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله من صحبتموه النبوة والأستئقال والجفوة ، و يصير منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله ، ولا يُجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه ، وملبسه ومركبه ، ومطعمه ومشربه وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعكم ، خدمة لا تُجملون في خدمتكم على التقصير ، وحفظة

لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى أَعْمَالِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ، وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَأَحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرْفِ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِّ، فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ، وَيُدْلَانِ الرَّقَابَ وَيَفْضِحَانِ أَهْلَهُمَا، وَلَا سِيَّمَا الْكُتَّابَ وَأَرْبَابَ الْآدَابِ. وَالْأُمُورُ أَشْبَاهُ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ؛ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مُؤْتَفِّ أَعْمَالِكُمْ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتُكُمْ، ثُمَّ أَسْأَلُكُمْ مِنْ مَسَالِكِ التَّدْبِيرِ أَوْصَحَّهَا مَحَبَّةً، وَأَصْدَقُهَا حُجَّةً، وَأَحْمَدُهَا عَاقِبَةً.

وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتَلَفَةً، وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ، عَنْ إِنْغَازِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ؛ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ، قَصْدَ الْكَافِي فِي مَنْطِقِهِ؛ وَلْيُوجِزْ فِي أَبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ، وَلْيَأْخُذْ بِجَمَاعٍ مُحَجِّجَةٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلِحَةٌ لِفَعْلِهِ، وَمَدْفَعَةٌ لِلشَّاعِلِ مِنْ إِكْثَارِهِ؛ وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيقِهِ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْهِيدِهِ؛ مَخَافَةَ وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضْرِبِ بِيَدِهِ، وَعَقْلَهُ وَأَدْبَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَائِلًا: إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ؛ فَقَدْ تَعَرَّضَ بِحُسْنِ ظَنِّهِ أَوْ مَقَاتِلَتِهِ إِلَى أَنْ يَكَلِّهَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَصِيرُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ؛ وَلَا يَقِلُّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذْ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ، وَأَحْمَلَ لِأَعْيَابِ التَّدْبِيرِ؛ مِنْ مُرَاقِقَتِهِ فِي صِنَاعَتِهِ، وَمُصَاحِبَتِهِ فِي خِدْمَتِهِ؛ فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَجْمَلُ فِي طَرِيقَتِهِ؛ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعْمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْؤُهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ، وَلَا تَرْكِيَّةٍ لِنَفْسِهِ؛ وَلَا يُكَاثِرْ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرَتِهِ؛ وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ.

وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّذَلُّ لِعِزَّتِهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ؛ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ: "مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ يَلْزَمَهُ الْعَمَلُ" وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَ وَنَمَّتَهُ بِهِ. تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَبِيدُهُ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

٨ - رسالة الثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة في الشطرنج^(١) :

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سبيله ، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه ، وبعث رساله الى خلقه دلالة لهم على ربوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، ومقدماً اليهم بإنذاره ووعيده ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، ثم حتم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيه ، وقفى به رساله ، وأبتغته لإحياء دينه الدارس مرتضياً له على حين انظمت الأعلام^(٢) مخفية ، وتشتت السبل متفرقة ، وعقت آثار الدين دراسة ، وسطح ربح الفتن ، وأعتلى قنأم الظلم ، وأستهد الشرك ، وأسدف^(٣) الكفر ، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل بسككته الحق ، وأستطرق الجور وأستنكح الصدوف عن الحق ، وأقطر^(٤) سلهب الفتنة ، وأستصرم لقاحها ، وطبقت الأرض ظلمة كفرة وغياية فساد ، فصدع بالحق مأمورا ، وأبلغ الرسالة معصوما ، ونصح الإسلام وأهله ، دالاً لهم على المرآشد ، وقائداً لهم الى الهداية ، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية ، مرشداً لهم الى أستفتاح باب الرحمة وإعلاق عروة النجاة ،^(٥) موضحاً لهم سبل الغواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم الهلكة ، مؤعزاً اليهم فى التقديمة ، ضارياً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ، صابراً نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ، حريصاً عليهم ، متحنناً على كآبتهم ،

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لأبن طيفور المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى منه محفوظة برقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الجملة فى رسائل البلغاء هكذا : « على حين انظمت له الأعلام ... » بزيادة "له" .

وليس لها محل من السياق فلعلها من زيادات النساخ .

(٣) أسدف الكفر : أظلم وعم النواحي والأرجاء كالليل . (٤) أقطر : اشتد .

(٥) الغياية ، ما أظل الانسان من فوق كالسحابة والغبرة ونحوهما .

(٦) فى رسائل البلغاء وإعلان بالنون بدل القاف ، وهو بحر ينف :

عزى إليه عنهم ، رءوفاً بهم رحيمًا ، تقدمه شفقتة عليهم وعنايته برشدتهم الى تجريد
الطلب الى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم ، وسلامة أديانهم ، وتخفيف آصار الأوزار عنهم ،
حتى قبضه الله اليه - صلى الله عليه وسلم - ناصحاً متصصحاً ، أميناً مأموناً ، قد بلغ الرسالة ، وأدى
النصيحة ، وقام بالحق ، وعدل عمود الدين ، حتى اعتدل ميله ، وأذل الشرك وأهله ، وأنجز
الله له وعده ، وأراه صدق أنبائه في إكمالهِ للمسلمين دينه ، وأستقامة سنته فيهم ، وظهور
شرائعه عليهم . ^(٢) قد أبان لهم موبقات الأعمال ، ومفطعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ،
وظلم الشبهات ، وما يدعو اليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به الغوايات ؛ وأوضح لهم أعلام
الحق ، ومنازل المرشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالق العصمة ، غير مدخر لهم
نصحا ولا مبنع في إرشادهم غمًا . فكان مما قدم اليهم فيه نبيه ، وأعلمهم سوء عاقبته ،
وحذرهم إصره ، وأوعز اليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً ، الأعتكاف على هذه التماثيل من
الشطرنج والمواصله عليها ، لما في ذلك من عظيم الإثم ، وموبق الوزر ، مع مشغلتها
عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ، ومنعها من حضور الصلوات في مواعيقتها مع جميع
المسلمين .

وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ، ممن قبلك من أهل الإسلام ، قد ألهجهم الشيطان
بها ، وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم الى
مُسَاهم ، مُلهية لهم عن الصلوات ، شاغلة لهم عما أمرُوا به من القيام بسُنن دينهم ،
وأفترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها . وإن ذلك من
نعلمهم ظاهرٌ في الأندية والمجالس ، غير منكّر ولا معيب ولا مُستفزع عند أهل الفقه ،
وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ؛ فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكرهه

(١) آصار : جمع إصر وهو النقل . وفي رسائل البناء ، واختيار المنظوم والمشور لابن طيفور « أواصر » بدل

آصار ، وهو تحريف . (٢) في رسائل البناء ، واختيار المنظوم والمشور لابن طيفور « أسبابه » وهو تحريف ،

وأستكبره ، وعلم أن الشيطان عندما يئس منه من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل ، بمصر المسلمين وجمَّعهم صُراحاً وجهاراً ، أقدم بهم على شُبْهة مُهلِكة ، وزَيَّن لهم وَرْطَةً مُوبِقة ، وغرَّهم بمكيدة حيله ، إرادةً لآسئوائهم بالخُدْع ، وأجْتياهم بالشُبْهة والمراسد الخفية المشكلة . وكلُّ مقيمٍ على معصية الله ، صغرت أو كبرت ، مستحلاً لها مُشيداً بها ، مظهرًا لآرتكابه إيَّها ، غير حذيرٍ من عقاب الله عز وجل عليها ، ولا خائفٍ مكرهاً فيها ، ولا راعيٍّ من حلول سَطوته عليها ، حتى تالحقه المنية ، فتختلجه وهو مُصرَّ عليها ، غير تائب الى الله منها ، ولا مستغفرٍ من آرتكابه إيَّها ، فكم من أقام على موبقات الآثام وكبائر الذنوب ، حتى مدته ومُحرم أيامه .

وقد أحبَّ أمير المؤمنين أن يتقدم اليهم ، فيما بلغه عنهم ، وأن يُنذرهم ويوعزَّ إليهم ، ويُعلمهم ما في أعناقهم عليها ، وما لهم في قبول ذلك من الخط ، وعليهم في تركه من الوزر ، فأذن بذلك فيهم ، وأشدّه في أسواقهم وجميع أنديةهم ، وأوعزَّ اليهم فيه . وتقدّم الى عامل شُرطتك في إنهاك العقوبة لمن رُفِع اليه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها ، وإطالة حبسه في ضيق وذنك ، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين . وأفطمهم عما لهجوا به من ذلك . وأتمسَّ بشدتك عليهم فيه وإنهاكك بالعقوبة عليه ، ثواب الله وجزاءه ، وآتباع أمير المؤمنين ورأيه . ولا يجِدك أحد عندك هوادةً في التقصير في حق الله عز وجل ، والتعدى لأحكامه ، فتُحلَّ بنفسك ما يسوءك عاقبةً مغبته ، وتُعترض به لغير الله عز وجل ونكاله . وأكتب الى أمير المؤمنين ما يكون منك ، إن شاء الله والسلام .

(١) اجتالهم : حوّلهم عن طريق قصدهم ويحتمل أن يكون : واحتياهم ، والاحتبال : الاصطيد .

(٢) آذنه الأمر وبه : أعلمه .

رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب

٩ - ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي وصف بها الصيد :^(١)

أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، ممتعاً بالنعمة، إنه لم يلق^(٢) أحد من المقتنصين، ولا منح متطرف من المتصيدين، إلا دون ما لقانا الله به من^(٣) اليمن والبركة، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتنص، وتمكين الجاسة، وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القدورة، إلا ما كان من محاولة^(٤) الطاب، وشدة النصب، لنافر الصيد، وقائد الطريدة التي أمعنا في الطاب لها، وأعجزنا^(٥) البهر عن اللحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرق سبلها، ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفر، وتناوب الأرب، ونهاية الطرب .

وإني أخبر أمير المؤمنين أنا نخرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري؛ أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاء، قد ثقفت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف، وخبرت المجاثم، مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت . ومعنا من نفائس الخيل المحبورة الفراهة،^(٦) من الشهيرة الموصوفة بالنجابة، والجرى والصلابة . فلم نزل بأخفض سير، وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً، فربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار^(٧) السنايك، ومتشعبات الأعاصير، مهلة أن سرنا غلوات، ثم برزت الشمس طالعة، وأنكشفت [من] السحاب مسفرة، فتلاأت الأشجار، وضحك التوار، وأنجلت الأبصار، فلم نر منظراً أحسن حسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من آبتسام نور الشمس عن أخضرار

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمثور » لابن طيفور .

(٢) في الأصل : " يلف " . (٣) في الأصل : " الفانا " . (٤) كذا في الأصل ولعلها

محرقة عن الحباله . (٥) القدورة : القدرة، وفي الأصل : " المقدورة " . (٦) الفراهة :

النشاط في السير . (٧) الشهيرة : البراذين . (٨) في الأصل : هكذا " مسا " .

(٩) في الأصل " متسعات " .

زهرة الرياض . والخيل تمرح بنا نشاطا ، وتجذبنا أعنتها أنبساطا ؛ ثم لم نلبث أن علتنا ضبابه^(١) تقصّر طرف الناظر ، وتُخفي سبل السلام^(٢) ، تغشانا تارةً وتتكشف أخرى ، ونحن بأرضٍ دميثة التراب ، أشبه الأطراف ، مُغدقة الفجاج ، مملوءة صيدا من الطباء والشعالب والأرانب ؛ فأدانا المسير إلى غابةٍ دونها مألّف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب معنون ، وبكلّ حرة جونة متفرقون^(٤) ، فرجع بنا العود على البدء ، وقد أنجلت الضبابه ، وأمتد البصر ، وأمكن النظر ، فاذا نحن برحلة من طباء^(٦) ، وخلفة آرايم يرتعن أنسات ، قد أحالتهن الضبابه عن شخصنا ، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسنا ، فلم نعج إلا والضواري لأحثة هنّ من بعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ؛ ثم مدّت الجوارح أجنحتها ، وأجذبت الضواري مقاودها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فترت تحف حفيف الريح عند هبوبها ، تُسف الأرض سقا ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ؛ فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلب بأسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ؛ وراكض تحت مفره ، وخافق يطلبه الريح ، وطاح يمنعه ، وساخ قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى آمتلت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهاب .

ثم ملنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب ، وخبر أعلام المذانب ، إلى غدير أفيح ، وروضة خصرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفة بصنوف الخمر^(٨) ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يدعروهن صائد ، ولا اقتنصهن قانص ، نحقق لها بطبول ، وصفر بنفير الحنف ، فثار منها ما مالا الأفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها ؛ ثم أنبرت البراة

(١) في الأصل : "تقتصر" . (٢) في الأصل : "ويجي" .

(٣) الأشبه : المتنفة الشجر . وفي الأصل «آسه» . (٤) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود ،

وفي الأصل «حر» . (٥) الجونة : السوداء ، وفي الأصل هكذا : «حويه» . (٦) رحلة : جماعة

متفرقة . (٧) في الأصل : «يفح» . (٨) الخمر : الشجر .

لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفضن الظفر بها،
حتى سمننا من الذبح، وأمتلأنا من النضيج؛ كأننا كنيبة ظفرت ببغيتها، وسرية نصرت على
عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وغلبت محسنها بمسيئها، لا نملك أنفسنا مرحا،
ولا نستفيق من الجدال بها فرحا، بقیة یومنا، والله المنعم الوهاب .

ثم غدونا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالنزهة،
فزّل واصفها عن الطريقة، وأعمد بنا على غير الحقيقة؛ فأتيناه فلم نر صيدا ولا عُشبا،
ولا نزهة ولا حسنا، فجعلنا نسلك منها حزونا ووعورا، وجدوبا وقفرا، حتى قصر بنا اليأس
عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النَّصب . فبينما نحن كذلك، إذ بدا لنا جاب قد أوفى^(٣)
بنا على حائل دلّ على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة، فأممناها، فلما تطرفنا مشيا وتقريبا^(٤)
الى عاناته، توالى نهيقه، وكثر شهيقه، فالتفتن إليه، فرمقن بأعينن منا ما استكثرن شخصه،
وآستهلون أمره، حتى اذا كنا بمرأى ومسمع أنجذبن مؤليات، وهربن مسيبات، فأجهدنا
الركض في طلبن، نتبع آثارهن، ونستشِف بلاء بين أحفار ودكادك^(٧) وخناذيد^(٨)، حتى أشفى^(٩)
بنا الطلب لها على وإد هائل سائل، بجنبتيه غابة أشبهت قد سبقن اليها، وآستخفين فيها،
فنظمتها بالخيال نظم الخرز، ثم أوغلت عدة فرسان في نفضها ومعرفة أحوالها، والطلب
خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال .

(١) النضيج : العرق .

(٢) في الأصل : "قلب" . (٣) الجاب : الغليظ من حمر الوحش . (٤) في الأصل :

"مسيبا" . (٥) التقريب : ضرب من العدو . (٦) العانة : القطيع من حمر الوحش .

(٧) الأحفار جمع حفرة وهو التراب الخارج من الحفيرة . (٨) الدكادك : جمع دكك ودكادك وهو أرض فيها

غظظ . (٩) الخنازيد : جمع خنذيد وهو رأس الجبل المشرف ، والذي يتفق والسياق "أخاديد" ،

وهي جمع أخدود : الحفرة المستطيلة في الأرض .

أصح لك انتم نصر
والله صوف
فراها به الجوه بالما

باب المنظوم

الغزل

ذكرنا في المجلد الأول حالة الغزل في العصر الأموي، وكثرة ما نجد فيه من لواعج الحب ولفحاته، وشكائيات الصب وأناته، وزفرات العاشق وعبراته. وبيدنا أنواعه المتباينة التي قسمناها الى أربعة أقسام:

(أ) غزل إباحي: ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبي ربيعة زعيماً لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني العيب والاستمتاع باللذة المادية مما ينفّر منه الأدب الجاهلي، ومما حظّره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمة. وقد كانت مكة والمدينة مسرحاً لهذا النوع في العصر الأموي. وقد شرحنا سبب ذلك في المجلد الأول فراجعه ثمة.

(ب) غزل عذري: وهو غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألّمة المعناة، تلك النفس التي تجد لذتها في الكلف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة في الفناء في حباها، حباً يملك عليه لبه ويعذب روحه ويفنى جسمه، كغزل جميل زعيم هذا النوع. وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغاني إذ حاول أبوه أن يصرّفه عن حبه وحاجّه في ذلك أجمل مُحاجّة، فكان من جميل ما كان مما تجده مفصّلاً في هذا الباب.

(ج) غزل صناعي: بين هذا وذاك، همّة الإجابة في الشعر من حيث هو شعراً، لا في الحب من حيث هو حباً، ولنا في كثيرٍ عزة زعيم لهذا النوع الثالث.

(د) غزل قصصي: خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصف وما يتبع حياة القصف، فنظّموا قصائد نحلّوها لشعراء لا نستطيع أن نحتّمَل تبعه

القول بوجودهم في الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعياً هذا النوع : قيس بن الملوّح وليلاه ، وقيس بن ذريح ولبناه .

وإفاء بما وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(١) الغزل الاباحي

(١)
عمر بن أبي ربيعة

« راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعههم بسهولة الشعر وشدة الأمر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، وأستنطاق الربع ، وإنطاق

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي ، أشعر قرين وأرق أصحاب الغزل ، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وكانت أمه نصرانية ، وكان أبوه تاجراً موسراً ، وعاملاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولخلفاء الثلاثة من بعده ، فشب في نعيم وترف ، وقال الشعر صغيراً ، وسلك فيه طريق الغزل ، ووصف أحوال النساء وتزاورهن ومداعبته بعضهن لبعض ، وما يعتدّن قوله من الكلام ، مما يتوقر الشعراء الفحول عن الخوض فيه ، ولذلك لم يحفلوا بشعره وعدوه من هذيان خلعاء المدينة ، فما زال يعالج الشعر والشعر ينقاد له ، حتى ملك ناصيته ، وقبض على زمامه ، وبز الشعراء ، وقال رأيت المشهورة على طريقته المبتكرة وهي التي أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فيكر * غداة غد أم راحم فهجر

والتي قال فيها جريحين سمعها : ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر .

ثم استطار شره في التشبيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها ، وتعرض لأحصنات المتعففات من نساء قومه ومن غيرهن ، فوقعن منه في بلاء عظيم وصرن يخفن الخروج الى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة ، ويترقبن خروجهن للطواف والسعي ويصفهن وهن محرمات . وحملت عليه رجالات قرين لمكانة نسبه منهم ولترقب توبته وإفلاعه ، فلها تمداد في أمره وشبب بنات السادات والخلفاء ، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه الى دهلك : (وهي جزيرة أمام مدينة مصووع) ، ثم رأى ابن ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد ففزا في البحر فاحترقت السفينة التي كان فيها واحترق هو أيضاً سنة ٩٣ هـ وقد اقتبسنا تصدير بحثنا عنه عن أبي الفرج الأصفهاني وتجد ترجمته مطولة في الأغاني ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٣٧٨) والدميري (ج ١ ص ٣٢٦) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع في ليزج سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ ومنه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية .

القلب، وحسن الغزاء، ومخاطبة النساء، وعمّة المقال، وقلة الانتقال، وإثبات الحجّة، وترجيح الشك في موضع اليقين، وطلاوة الاعتذار، وفتح الغزل، ونهج العِلل . وعطف المساءة على العُدال، وحسن التفجع، وبُخُل المنازل، واختصار الخبر، وصدق الصّفاء، وإن قَدَح أَوْرى، وإن اعتذر أبرأ، وإن تَسَكَّى أَشجى، وأقدم عن خبرة، ولم يعتذر بغرة، وأسّر النوم، وغمّ الطير، وأغدّ السير، وحيّر ماء الشّبَاب، وسهّل وقول، وقاس الموى فأرّبى، وعصى وأخلى، وحالف بسمعِهِ وطرفِهِ، وأبرم نعت الرُّسل وحدّر، وأعلن الحبّ وأسّر، وبطن به وأظهر، وألحّ وأسفّ، وأنكح النوم، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه، وأذلّ صعبه، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلى قاتله، وأستبكي عاذله، ونفضّ النوم، وأغلق رهن مَنى وأهدر قتلاه، وكان بعد هذا كله فصيحاً .

فمن سهولة شعره وشدة أسرهِ قوله^(١) :

فلما توافقنا وسامتُ أشرقَتْ * وجوهُ زهاها الحسنُ أن نتقنعا

تَبَاهنَ بالعرفان لما رأيتني * وقلنَ امرؤُ باغٍ أكلَ وأوضعا^(٢)

ومن حُسن وصفهِ قوله :

لها من الرِّيمِ عيناه ولفنته * ونحوهُ السابقُ المُختالِ إذ صهلا^(٣)

ومن دقة معناه وصوابِ مصدره قوله :

عوجاً نحى الطللَ المحولاً^(٤) * والرَّبعَ من أسماءِ والمنزلاً^(٥)

بسايغِ البوابةِ لم يعده^(٦) * تقادمِ العهدِ بأن يؤهلا

(١) المراد من شدة الأسر هنا إحكام النسيج ومناة التركيب . (٢) أكل : أعيأ وأوضع : أسرع

في السير . (٣) الرِّيم : الظبي . (٤) عرجا : قفا . (٥) المحول والمحيل : الذى أت

عليه أحوال كثيرة فغيرته . (٦) البوابة : الفسلاة واسم لصحراء بأرض تهامة اذا خرجت من أعلى

وادي النخلة اليمانية وهى بلاد بنى سعد بن بكر بن هوازن . (معجم البلدان لياقوت) .

ومن قصده للحاجة قوله :

أيها المنكح الثريا سهيلاً^(١) * عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت * وسهيل إذا استقل يمانى

ومن استنطاقه الربع قوله :

سائلاً الربع بالبلى^(٢) وقولا * هجت شوقاً إلى الغداة طويلاً
أين حتى حلوك إذ أنت محفو * ف بهم أهل أراك جميلاً
قال ساروا فأمعنوا وأستقلوا^(٣) * وبرغمي ولو وجدت سيلاً
سمنونا وما سمننا جوراً * وأحبوا دمانه^(٤) وسهولا

قال إسحاق : أشد جري هذه الأبيات فقال : إن هذا الذى كما تدور عليه فأخطأناه .
ومن إنطاقه القلب قوله :

قال لى فيها عتيق مقالا * بخرت مما يقول الدموع
قال لى ودع سليمى ودعها * فأجاب القلب : لا أستطيع

ومن حسن عزائه قوله :

ألحقت إن دار الرباب تباعدت * أو أنبت جبل أن قلبك طائر^(٥)
أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا^(٦) * هوى وأستمرت بالرجال المرائر^(٦)
زغ النفس واستبق الحياء فيما * تباعد أو تُدني الرباب المقادر^(٧)
أمت حبها وأجعل قديم وصالها * وعشمتها كمشل من لا تعاشر

(١) هي الثريا أبتة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية . تزوجها سهيل ابن عبد الرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه ونقلها الى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) البلى — بضم وفتح وياء مشددة — : تل قصير أسفل حاذة بينها وبين ذات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا : واصلوا السير وجدوا فى الأرتحال . (٤) يقال : دمت الأرض دمانه : سهلت ولانت . (٥) انبت : انقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهو يريد أن يسلو سلوهم . (٧) زغ النفس ، أى أزجرها وكفها عن هواها .

وهبها كشيء لم يكن أو كإزج * به الدار أو من غيبته المقابر
وكالناس علقَت الرِّابَ فلا تكن * أحاديث من يبدو ومن هو حاضر^(١)

وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكثير، ويرويها الكوفيون للكثير بن معروف
الأسدي، وذكروا بعضها الزبير بن بكار عن ابن عبيدة لكثير في أخباره .

ومن حسن غزله في مخاطبة النساء — قال مصعب الزبيري: وقد أجمع أهل بلدنا
من له علم بالشعر أن هذه الأبيات أغزل ما سمعوا — قوله :

تقولُ غداةَ التَّقِينَا الرَّابَّ * أيَاذَا أَفَلَتَ أَفْوَلاَ السَّمَكَ
وكفَّتْ سِوَابِقَ مَنْ عَبْرَةٍ * كما أَرْفَضَ نَظْمَ ضَعِيفِ السَّلَاكِ
فقلتُ لها مَنْ يُطْعِ فِي الصَّدِيْقِ أَعدَاءَهُ يَحْتَنِبُهُ كَذَاكَ
أغرِّكَ أتَى عَصِيْتُ المَلَا * مَ فَيْكَ وَأَنْ هِوَانَا هِوَاكَ
وَأَنْ لا أرى لَذَّةَ فِي الحَيَاةِ * تَقَرُّ بِهَا العَيْنُ حَتَّى أَرَكَ
فكان من الذنب لي عندكم * مكارمتي وأتباعي رضاك
فليت الذي لآم في حُبِّكم * وفي أن تُرَارِي بَقْرِيْنَ وَقَاكَ^(٢)
هموم الحياة وأسقامها * وإن كان حَتْفٌ جَهِيْزٌ فَدَاكَ^(٣)
ومن عفة مقالته قوله :

طال ليلى وأعتادني اليوم سقمٌ * وأصابت مَقَاتِلَ القَلْبِ نَعْمُ
حرة الوجه والشمائل والجو * هير تكليمها لمن نال غمُّ
وحديث بمثله تُنزلُ العَصِ^(٤) * مَ رَخِيْمٌ يَسُوبُ ذلِكَ حِلْمُ
هكذا وصف ما بدا لي منها * ليس لي بالذي تغيب علمُ
إن تجودِي أو تجسلي فبحمدٍ * لست يا نعم فيهما من يدمُّ

(١) أي من يقيم في البدو والحضر . (٢) المراد به قرن المنازل ، وكثيرا ما يذكره في شعره .
(٣) جهيز : سريع . (٤) العصم : جمع أعصم وهو من الفباء والوعول مافي ذراعيه بياض ،
وهي تعصم غالبا بقن الجبال .

ومن قلة أنتقاله قوله :

أيها القائل غير الصواب * أمسك النصح وأقل عتاي
 وأجتنبني وأعلمن أن ستعصى * وخير لك طول أجتاني
 إن تقل نصحا فغن ظهر غش * دائم الغمر بعيد الذهب^(١)
 ليس بي عي بما قلت إني * عالم أفقه رجع الجواب
 إنما قرة عيني هواها * فدع اللوم وكفي لماني
 لا تمنني في الرباب وأمست * عدلت للنفس برد الشراب^(٢)
 هي والله الذي هو ربي * صادقاً أحلف غير الكذاب
 أكرم الأحياء طراً علينا * عند قرب منهم واجتنب
 خاطبني ساعة وهي تبكي * ثم عزت خلتني في الخطاب^(٣)
 وكفي بي مدرهاً لخصوم * لسواها عند حد تباني^(٤)

ومن إثباته الحجة قوله :

خليلى بعض اللوم لا ترحلا به^(٥) * رفيقاً حتى تقولاً على علم
 خليلى من يكف بأخر كالذى * كلفت به يدمل فواداً على سقيم^(٦)
 خليلى ما كانت تصاب مقاتلي * ولا غرتني حتى وقعت على نعم
 خليلى حتى لف حبل بخادع^(٧) * موقى إذا يرعى صيود إذا يرعى^(٨)
 خليلى لو يرقى خليل من الهوى * رقيت بما يذني النوار من العضم^(٩)
 خليلى إن باعدت لانت وإن أن * تباعد فلم أنبل بحرب ولا سلم^(٩)

- (١) الغمر (بكسر الغين) : الحقد والغل . والغمر (بفتح الغين) : الماء الكثير ، وكلا المعنيين يحتمله البيت .
 (٢) عدلت : ساوت . (٣) أى غلبتني صديقتي فى الخطاب قال تعالى : (وعزني فى الخطاب) .
 (٤) يريد : حسبي غالباً لكل خصم سواها الى حد هلاكى . (٥) يقال : رجل فلان فلانا بما يكره ، والمراد أنه يتفلسه باسماعه إياه . (٦) يدمل : يطوى . قال فى اللسان : ويقال : آدمل القوم ، أى أطوهم على ما فهم . (٧) يكنى بهذا عن الوقوع فى شركها . (٨) النوار : النافرة من الظباء .
 (٩) لم أنبل : لم أصب ، أو لم أحسن الرمي .

ومن ترجيحه الشك في موضع اليقين قوله :

نظرتُ إليها بالمحصَّب من منى * ولى نظراً لسولا التحرُّج عارِم^(١)
 فقلت : أشمسُ أم مصابيحُ بيعة * بدتُ لك خلف السَّجْفِ أم أنتِ حالم^(٢)
 بعيدة مهوى القُرطِ إقما لنوفل^(٣) * أبسوها وإما عبدُ شمسٍ وهاشم^(٤)
 ومدَّ عليها السَّجْفَ يومَ لقيتها * على عَجَلٍ تباَعها والحِوادمُ
 فلم أستطعها غيرَ أن قد بدا لنا * عشيةً راحتُ وجهها والمعاصم^(٥)
 معاصم لم تضرب على البهم بالضحي^(٦) * عصاها ووجهه لم تلحه السَّام^(٧)
 نُضار ترى فيه أساريع مائه * صبيح تَغاديه الأكَف النَّواعم^(٨)
 إذا مادعتُ أترابها فأكتنفها * تمايلن أو مالت بهن المائم^(٩)
 طلبت الصِّبا حتى إذا ما أصبته * نزعن وهن المسلماتُ الظوالم

ومن طلاوة اعتذاره قوله :

عادد القلب بعض ما قد شجَاه * من حبيب أمسى هوانا هَوَاهُ
 يالقومى فكيف أصبرُ عمَّن * لا ترى النفس طيبَ عيشٍ سِوَاهُ
 أرسلتُ إذ رأيتُ بعادى ألا * يقبلن بي محرشاً إن أتاه^(١٠)
 دون أن يسمع المقالة منَّا * وليطغني فإن عندى رِضاه
 لا تطع بي فدتك نفسي عدوا * لحديث على هواه أفتراه
 لا تطع بي من لو رأتى وإيا * لك أسيرى ضرورة ما عناه
 ما ضرارى نفسي بهجرى من يد * سس مسيئاً ولا بعيداً ثراه^(١١)
 وأجتنبى بيت الحبيب وما الخلد * مد بأشهى إلى من أن أراه

(١) عارم : حاد . (٢) السجف : الستر . (٣) كناية عن طول العنق ، وبه فسر في المثل
 السائر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) البهم : جمع بهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن والمعز والبقر .
 (٥) لم تلحه : لم تغيره . (٦) أساريع الماء : طرائقه . والمراد أنه يترقق فيه ماء الشباب .
 (٧) المائم : جمع ما كمة وهى العجيزة . (٨) المحرش : المغرى ، من التحريش وهو الاغراء والافساد .
 (٩) الثرى : الخير .

ومن نهجه العَلَلُ قولُهُ :

وآيَةُ ذَلِكَ أَنْ تَسْمَعِي * إِذَا جِئْتُكُمْ نَاشِدًا يَنْشُدُ
فَرُحْنَا سِرَاعًا وَرَاحَ الْهَوَى * دَلِيلًا إِلَيْهَا بِنَا يَقْصِدُ
فَلَمَّا دَنَوْنَا لِجَرَسِ النَّبَا^(١) * حِ وَالصَّوْتِ ، وَالْحَى لَمْ يَرَقُدُوا
بِعَثْنَا لَهَا بَاغِيًا نَاشِدَا * وَفِي الْحَى بَغِيَّةً مِنْ يَنْشُدُ

ومن فَتَحَهُ الْغَزَلَ قولُهُ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْتَشِقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا أَهْوَى * فَكُنْ حَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَمَدًا
وَمِنْ عَطْفِهِ الْمَسَاءَةَ عَلَى الْعُدَّالِ قولُهُ :

لَا تُلْمِنِي عَتِيقُ حَسْبِي الَّذِي بِي * إِيَّا بِي يَاعْتِيقُ مَا قَدْ كَفَانِي
لَا تُلْمِنِي وَأَنْتَ زَيْتَنَاهَا لِي * أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

وَمِنْ حُسْنِ تَفْجِئِهِ قولُهُ :

هَجَرْتَ الْحَبِيبَ الْيَوْمَ مِنْ غَيْرِ مَا آجَرْتُمْ * وَقَطَّعْتَ مِنْ ذِي وَدَّكَ الْحَبْلَ فَاَنْصَرْمُ
أَطَعْتَ الْوَشَاةَ الْكَاشِحِينَ وَمَنْ يُطِيعُ * مَقَالَةَ وَاشٍ يَقْرَعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمِ
أَتَانِي رَسُولٌ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهُ * شَفِيقٌ عَلَيْنَا نَاصِحٌ كَالَّذِي زَعَمُ
فَلَمَّا تَبَأْتُنَا الْحَدِيثَ وَصَرَّحَتْ^(٢) * سَرَّأَتْهُ عَنْ بَعْضِ مَا كَانَ قَدْ كَتَمْتُ
تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْمُحَرَّشَ كَاذِبٌ^(٣) * فَعِنْدِي لِكِ الْعُتْبَى عَلَى رَغْمٍ مِنْ رَغْمِ
فِي إِنْ لَمْ تُنْفَسْ بَعْدَ الَّذِي مَضَى * وَبَعْدَ الَّذِي آلَتْ وَأَلَيْتُ مِنْ قَسَمِ
ظَلَمْتَ وَلَمْ تُعْتَبْ وَكَانَ رَسُولُهَا * إِلَيْكَ سَرِيعًا بِالرِّضَا لَكَ إِذْ ظَلَمْتَ

(١) الجرس : الصوت . (٢) بث الحديث : إفتاؤه . (٣) المحرّش : المغرّى ، يقال :

حرّش بين القوم : أفسد بينهم .

ومن تجيله المنازل قوله :

ألم تسأل الأطلالَ والمتربعا * بيطن حليات دوارس بلقعا^(١)
 إلى السرح من وادي المغمس بدلت * معالمها وبلا ونكباء زعزعا^(٢)
 فيخزن أو يخبرن بالعلم بعدما * نكان فؤادا كان قداما مفعجا^(٣)

ومن اختصاره الخبر قوله :

أمن آل نعيم أنت غاد فمبكر * غداة غد أم راع فمهجرجر^(٤)
 بحاجة نفس لم تقل في جوابها * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر^(٥)
 أشارت بمذراها وقالت لترها * أهذا المغيرى الذى كان يدكر^(٦)
 لئن كان إياه لقد حال بعدنا * عن العهد والإنسان قد يتغير^(٧)

قال الزبير حدثني إسحاق الموصلي قال : قلت لأعرابي : ما معنى قول ابن أبي ربيعة :

بحاجة نفس لم تقل في جوابها^(٨) * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر

فقال : قام كما جلس .

ومن صدقه الصفاء قوله :

كل وصل أمسى لديك لأنثى * غيرها وصلها إليها أداء^(٩)
 كل أنثى وإن دنت لوصول * أو نأت فهى للرباب الفداء^(١٠)

- (١) حليات (بضم الحاء المهملة وفتح اللام وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره اليربى وياقوت ولم يبيناه ، ولعله موضع قرب مكة بقريفة ذكره مع المغمس الوارد في البيت بعده .
 (٢) السرح : موضع .
 (٣) المغمس (بتشديد الميم وفتحها كما في ياقوت ، وضبطه اليربى في معجمه بكسر الميم وتشديدها) : موضع قرب مكة في طريق الطائف ، مات فيه أبو رغال وقبره يرجح لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل . (٤) النكباء : الريح التي تنكب عن مهاب الرياح . (٥) يقال : ربح زرع ، أى شديدة ، وكذلك زرعاع وزعزوع .
 (٦) يقال : نكأ الجرح : قشره قبل أن يلتئم . (٧) المدرى والمدرة : حديدة يحك بها الرأس .
 (٨) أى هى في غاية من السر لا يجاب عنها إذا سئلت عنها ، والإعذار : نفي العذر .

وقوله :

أَحِبُّ لِحَبِّكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ * صَفِيًّا لِنَفْسِي وَلَا صَاحِبًا
وَأَبْذُلُ مَا لِي لِمَرْضَاتِكُمْ * وَأُعْتَبُ^(١) مِنْ جَاءِكُمْ عَاتِبًا
وَأَرْغَبُ فِي وُدِّ مَنْ لَمْ أَكُنْ * إِلَى وُدِّهِ قَبْلَكُمْ رَاغِبًا
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي جَانِبِ * مِنَ الْأَرْضِ وَأَعْتَرَلَتْ جَانِبًا
لَيَمَّتْ طِيَّتِهَا^(٢) إِنَّنِي * أَرَى قُرْبَهَا الْعَجَبَ الْعَاجِبًا

ومما قدح فيه فأورى قوله .

طَالَ لَيْسِي وَتَعْنَانِي الطَّرْبُ^(٣) * وَأَعْتَرَانِي طَوْلٌ هَمٌّ وَوَصَبٌ^(٤)
أَرْسَلَتْ أَسْمَاءُ فِي مَعْتَبَةٍ * عَتَبَتْهَا وَهِيَ أَحْلَى مِنْ عَتَبِ
أَنْ أَلَى مِنْهَا رَسُولٌ مُوَهِنًا^(٥) * وَجَدَ الْحَى نِيَامًا فَانْقَلَبُ
ضَرَبَ الْبَابَ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ * أَحَدٌ يَفْتَسِحُ بَابًا إِذَا ضَرَبَ
قَالَ : أَيَقَاطُ، وَلَكِنْ حَاجَةٌ * عَرَضَتْ تُكْتَمُ مِنَّا فَاحْتَجِبُ
وَلَعَمْرَدًا رَدَّنِي، فَاجْتَهَدْتُ * بِيَمِينِ حَلْفَةٍ عِنْدَ الْغَضَبِ
يَشْهَدُ الرَّحْمَنُ لَا يَجْعُنَا * سَقَفُ بَيْتِ رَجَبًا بَعْدَ رَجَبِ
قُلْتُ حِلًّا فَاقْبَلِي مَعْذِرَتِي * مَا كَذَا يَجْزِي حُبُّ مَنْ أَحَبُّ
إِنَّ كَفَى لِكَ رَهْنٌ بِالرِّضَا * فَاقْبَلِي يَا هِنْدُ، قَالَتْ قَدُوجِبُ

قالوا : ومن شعره الذي آعتذر فيه فأبرأ قوله :

فالتقينا فرحبت حين سلم * ست وكفبت دمعاً من العين ماراً^(٦)
ثم قالت عند العتاب رأينا * منك عنا تجلداً وأزوراراً^(٧)

(١) يقال : أعته إذا أعطاه العتي وأرضاه . (٢) طيتها : ناحيتها وقصدها . (٣) تعناني : أوقعتني في العناء . (٤) الطرب : خفة تعترى الانسان عند شدة الفرح أو الحزن والهم . (٥) الموهن : نحو من نصف الليل . (٦) مار : جرى وسال . (٧) الأزورار : الإعراض .

قلتُ كَلَّا لِأَنَّهُ أَنْبُؤُكُمْ بِخَفِّهِ * بنا أمورًا كَمَا بهَا أَعْمَارًا^(٢)
 بفعلنا الصدودَ لما حَشِينَا * قَالَةَ النَّاسِ لِلهُوَى أَسْتَارَا
 ليس كالعهدِ إِذْ عَهَدْتِ وَلَكِنْ^(٣) * أوقَدَ النَّاسُ بِالنِّيمَةِ نَارَا
 فلذلكِ الإِعْرَاضُ عَنكَ وَمَا آ * ثَرَقَلِي عَلَيْكَ أُخْرَى آخْتِيَارَا
 مَا أَبَالِي إِذَا النَّوَى قَرَّبْتِكُمْ * فدنوتُمْ مَن حَلَّ أومَن سَارَا
 فالليالي إِذَا نَأَيْتِ طَوَالَ * وَأَرَاهَا إِذَا قُرْبِتِ قِصَارَا

ومن تَشَكِّيهِ الذي أُشْجِي فِيهِ قَوْلُهُ :

لَعَمْرُكَ مَا جَاوَرْتُ غُمْدَانَ طَائِعًا * وَقَصَرَ شَعُوبٍ أَنْ أَكُونَ بِهِ صَبَّأً^(٥)
 وَلَكِنْ حَمِي أَضْرَعْتَنِي ثَلَاثَةَ * مُجْرِمَةٍ ثُمَّ أَسْتَمَرَّتْ بِنَا غَيْبًا^(٨)
 وَحَقِي لَوْ أَنَّ الْخُلْدَ يَعْزُضُ إِنْ مَشَتْ * إِلَى الْبَابِ رِجْلِي مَا نَقَلْتُ لَهَا إِرْبَا^(٩)
 فَإِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ يَوْمَ سَوَيْقَةَ^(١٠) * مَنَاحِي وَحَبْسِي الْعَيْسِ دَامِيَةَ حَدْبَا^(١١)
 وَمَصْرَعِ إِخْوَانٍ كَأَنَّ أَيْنَهُمْ * أَنْيُنُ مَكَاكِي فَارَقْتُ بِلْدَا خُصْبَا^(١٢)
 إِذَا لَأَقْشَعِرَّ الْخُلْدُ مِنْكَ صَبَابَةً * وَلَا سْتَفْرَعْتُ عَيْنَاكَ مِنْ عِبْرَةِ سَجْبَا

ومن إِقْدَامِهِ عَن خِبْرَةٍ وَلَمْ يَعْتَدِرْ بِغَرَّةٍ قَوْلُهُ :

صَرَمْتُ وَوَاصَلْتُ حَتَّى عَرَفْتُ * سَتُ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَسُورِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَاكَ حَتَّى عَرَفْتُ * سَتُ مَا أَتَوَّقِي وَمَا أَعْمَدُ

(١) لاه بمعنى لله . (٢) الغمر (بضم الغين وفتحها مع سكون الميم ، وفتحتين ، وفتح فكسر) :
 الغر الجاهل الذي لم يجرب الأمور . (٣) أى ليس الأمر كما تعهدين من قبل .
 (٤) غمدان : قصر باليمن بناه « يشرخ بن يحصب » . (٥) قصر شعوب : قصر عال مرتفع باليمن .
 (٦) أضرعتنى : أضعفتنى وأذللتنى . (٧) مجرمة كعظمة : تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .
 (٨) الغب من الحمى : ما تأخذ يوماً وتدع يوماً . (٩) أى ما حرّكت له عضواً . (١٠) سويقته :
 موضع . (١١) حدبا جمع حدباء ، وأصل الحدب : ما ارتفع من الأرض ، يريد أنه أعيها السير فهى دامية
 متقوسة الظهور هز الـ . (١٢) المكاكى : جمع مكاء ، وهو طير يشبه القبرة إلا أن فى جناحيه بلقا ، وهو حسيل
 الصوت فى تغريده .

ومن أسره النوم قوله :

نام صَّحبي وبات نومي أسيرا * أرقب النجم موهنا أن يغورا

ومن غمه الطير قوله :

فرحنا وقلنا للغلام أقض حاجة * لنا ثم أدركنا ولا نتغبر

سراعاً نغم الطير إن سنحت لنا * وإن تلقنا الرُّكبان لا نتخبر^(٢)

نتغبر من قولهم : غبر فلان، أى لبث .

ومن إغذاه السير قوله^(٣) :

قلت سيرا ولا تقيما بصرى^(٤) * وحفير^(٥) فما أحب حفيراً

وإذا ما مررتما بمعان^(٦) * فأقلاً به الثواء وسيراً

إنما قصرنا إذا حسر السير^(٧) * رُبعيراً أن نستجدَّ بغيراً^(٨)

ومن تحيره ماء الشباب قوله :

أبرزوها مثل المهامة تهادى * بين خميس كواعب أتراب

ثم قالوا تحبها قلت بهراً * عدد القطر والحصى والتراب

وهى مكنونة تحير منها * فى أديم الخدين ماء الشباب

ومن تقويله وتسميئه قوله :

قالت على رقيقة يوماً لجارتها * ما تأخرين فإن القلب قد تبال^(٩)

وهل لى اليوم من أخت مواخية * منكن أشكو إليها بعض ما فعلا

(١) لعله يريد : نخزنها بالسبق، أو نهرها ونغلبها، من قولهم : غم القمر النجوم : بهرها وكاد يستر ضوءها .

(٢) التخبر : السؤال عن الخبر . (٣) أغذ السير وأغذ فيه : أسرع . (٤) بصرى : بلد بالشام .

(٥) حفير : نهر بالأردن ببلاد الشام . (٦) معان : مدينة فى طرف بادية الشام لتقاء الحجاز من نواحي

اللقاء . (٧) قصرنا، أى قصارانا وغايتنا . (٨) حسر السير بغيرا : أجهده وأعياه .

(٩) المتبول : من أسقمه الهوى وغلبه الحب على أمره .

فراجعتها حصاناً غير فاحشية^(١) * برجع قولٍ ولُبٍّ لم يكن خطلاً^(٢)
 لا تذكري حبه حتى أراجعه * إني سأكفيناك إن لم أمت عجلاً
 فأقني حياك في سترٍ وفي كرمٍ * فليست أول أنثى علقت رجلاً^(٣)

وأما ما قاس فيه الهوى فقوله :

وقربن أسباب الهوى لتسيم * يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا

ومن عصيانه وإخلائه قوله :

وأنص المطي يتبعن بالركب^(٤) * يب سراً نواعم الأظعان

فنصيد الغرير من بقر الوحـ^(٥) * ش وتلهو بلذة الفتيان

في زمان لو كنت فيه صجيبي * غير شك عرفت لي عصياني

وتقلبت في الفراش ولا تد * رين إلا الظنون أين مكاني

ومن مخالفته بسمعته وطرفه قوله :

سمعي وطرفي حليفاها على جسدي * فكيف أصبر عن سمعي وعن بصري

لو طواعاني على ألا أكلمها * إذا لقضيت من أوطارها وطري

ومن إبرامه نعت الرسل قوله :

فبعثت كاتمة الحديد * بث رقيقة بجوابها

وحشية إنسية * نخرجة من بابها

فرقت فسملت المعـ * رض من سبيل قلبها

ومن تحذيره قوله :

لقد أرسلت جاريتي * وقلت لها خذي حذرَكَ

وقولي في ملاطفة * لزئيب نولي عمرك

(١) حصان : عفيفة . (٢) الخطل : الفاسد المضطرب . (٣) اقني حياك : الزميه .

(٤) نص المطي : استخراج أقصى ما عندها من السير . (٥) الغرير : الغافل .

فإن داويتِ ذا سَقِيمٍ * فأخرى الله من كَفَرَكَ

فَهَزَّتْ رَأْسَهَا عَجْبًا * وقالتُ مَنْ بَدَأَ أَمْرَكَ

أَهَذَا يَمُورُكَ النَّسْوَا * نَ، قد خَبَرَنِي خَبْرَكَ

وَقُنَّ إِذَا قَضَى وَطَرًا * وأَدْرَكَ حَاجَةَ هَجَرَكَ

ومن إعلانه الحب وإسرايه قوله :

شكوتُ إليها الحبُّ أَعْلَنُ بَعْضَهُ * وأخفيتُ منه في الفؤادِ غَيْلًا

ومما أبطن فيه وأظهر قوله :

حُبِّكُمْ يَا آلَ لَيْلَى قَاتِلِي * ظهرَ الحبُّ بِجَسْمِي وَبَطْنِ

لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أَحْبَبْتُمْ * غَيْرَ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي أَوْ أُجَنِّ

ومما أَلَحَّ فيه وَأَسَفَّ قوله :

لَيْتَ حَضَى كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا * وكثيرٌ منها القليلُ المَهَنَّا

أَوْ حَدِيثٌ عَلَى خَلَاءٍ يُسَلِّي * ما يُجِيشُ الفؤادُ منها وَمِنَّا

كَبُرَتْ رَبِّ نِعْمَةٌ مِنْكَ يَوْمًا * أَنْ أَرَاهَا قَبْلَ الْمَمَاتِ وَمِنَّا

ومن إنكاحه النومَ قوله :

حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ ظِلَامُهُ * ونظرتُ غَفْلَةً كاشحَ أَنْ يَعْقَلَا

وَاسْتَنَجَحَ النَّوْمُ الَّذِينَ تَخَافُهُمْ * وَسَقَى الْكُرَى بِوَأِهِمْ فَاسْتَنَقَلَا ^(١)

خَرَجَتْ تَأَطَّرُ فِي الثِّيَابِ كَأَنَّهَا * أَيْمٌ يَسِيبُ عَلَى كَثِيبٍ أَهْيَلَا ^(٢)

ومن جنِّه الحديثَ قوله :

وَجَوَارٍ مُسَاعِفَاتٍ عَلَى اللَّهِ- * وَوَسِيرَاتٍ بَاطِنِ الْأَضْغَانِ

صُيِّدٍ لِلرِّجَالِ يَرشُقْنَ بِالطَّرِّ * فِي حِسَانٍ تَحْدَلُ الْغَزْلَانِ ^(٣)

(١) يقال : أنقله النوم فهو مستنقل بصيغة المفعول . (٢) تأطر أصله نتأطر فخذفت إحدى تاءيه ومعناه

تنتفى . والأيم : الأفعى . ويسيب : يمشى . والكثيب الأهيل : الرمل المنهال . (٣) الخذل : جمع

خاذل وهي الظبية تختلف عن صواحباتها أو أولادها .

قد دَعَانِي وقد دَعَاهُنَّ لِلَّهِ * وَشُجُونٌ مُهِمَّةٌ الْأَشْجَانِ^(١)

فَأَجْتَيْنَا مِنَ الْحَدِيثِ ثَمَارًا * مَا جَنَى مِثْلَهَا لِعَمْرِكَ جَانِي

ومن ضربه الحديث ظهره لبطنه قوله :

فِي خَلَاءٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَمِنِ * فَبَثْنَا غَلِيلَنَا وَأَشْتَفَيْنَا

وَضَرْبَنَا الْحَدِيثَ ظَهْرًا لِبَطْنِ * وَأَتَيْنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا أَشْتَهَيْنَا

فَمَكَّنْنَا بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ * فَفَضَيْنَا دِيُونَنَا وَأَقْضَيْنَا

ومن إذلاله صعب الحديث قوله :

فَلَمَّا أَفْضَيْنَا فِي الْهَوَى نَسْتَبِينَهُ * وَعَادَ لَنَا صَعْبُ الْحَدِيثِ ذُلُّوَلَا

شَكُوْتُ إِلَيْهَا الْحَبُّ أَظْهَرُ بَعْضَهُ * وَأَخْفَيْتُ مِنْهُ فِي الْفَرَوَادِ غَلِيلًا

ومن قناعته بالرجاء من الوفاء قوله :

فَعِدَى نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُنْبِلِي * إِنَّهُ يَنْفَعُ الْحَبَّ الرَّجَاءُ

قال الزبير : هذا أحسن من قول كثير :

وَلَسْتُ بَرِاضٍ مِنْ خَلِيلِ بَنَائِلٍ * قَلِيلٍ وَلَا أَرْضَى لَهُ بِقَلِيلٍ

ومن إعلانه قاتله قوله :

فَبِعَثْتُ جَارِيَّتِي وَقُلْتُ لَهَا أَذْهَبِي * فَأَشْكِي إِلَيْهَا مَا عَلِمْتِ وَسَلْمِي

قَوْلِي يَقُولُ تَحْرِيجِي فِي عَاشِقٍ^(٢) * كَلِّفَ بِكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ مُتِمِّمٌ

وَيَقُولُ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتِ بِأَنْكُمْ * أَصْبَحْتُمْ يَا بَشْرُ أَوْجَهَ ذِي دَمِ^(٣)

فَكَيْ رَهَيْتَهُ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلِي * فَأَعْلِي عَلَى قَتْلِ ابْنِ عَمِّكَ وَأَسْلَمِي

فَتَضَاحَكْتَ عَجَبًا وَقَالَتْ حَقُّهُ * أَلَّا يَعْلَمُنَا بِمَا لَمْ نَعْلَمِ

(١) أى مثيرة الأشجان . (٢) أى كفى عن الحرج والاثم .

(٣) أى أحق إنسان أخذ منه بدمى .

علمى به والله يغفرُ ذنبه * فيما بدا لى ذوهوى متقسّم
 طرِفٌ يَنازِعُهُ الى الأَدنى الهوى * ويبتُ حَلَّةَ ذى الوِصالِ الأَقدمِ

ومن تنفيذه النومَ قوله :

فلما فَقدتُ الصوتَ منهم وأُطفئتُ * مَصاييحُ شُبَّتْ بالعِشاءِ وأنورُ
 وغابَ مُسِيرُكُنْتُ أرجو غيوبه * وروحَ رُعيانٍ ونومَ سمرِ
 ونقضتُ عني النومَ أقبَلتُ مِشيَةَ الـ * حِجابِ ورُكني خَشيةَ القومِ أزورُ

ومن إغلاقه رهنَ مَنى وإهداره قتلاه قوله :

فِيكم من قَتيلٍ ما يَباءُ به دمٌ * ومن غَليقٍ رَهنا إذا لَقَّه مَنى
 ومن مالٍ عَينيه من شىءٍ غيرِه * إذا راح نحو الجُمرةِ البِيضِ كالدمى
 وكان بعد هذا كَلِّه فصيحًا شاعرا مِقولا .

ومن شعره المشهور قوله :

أَمِنْ آلِ نَعيمٍ أنتِ غادٍ مُبِكرُ * غداةَ غَدٍ أم رَأحٍ فمُهَجِّرُ
 لحاجةِ نَفيسٍ لم تُقَلِّ في جَوايها * فتُبَلِّغُ عُذراً والمقالَةَ تُعَدِرُ
 أشارتُ بِمِدرَهاها وقالتُ لأخِمتها * أهذا المُعِيرِيُّ الذى كان يَدُكُرُ
 فقالتُ نَعْمَ لا شَكَّ غَيرَ لونه * سَرى الليلِ يَطْوِي نَصه والتمَجُّرُ
 رأتُ رجلاً أَمَّا إذا الشمسُ عارَضتُ * فيضِحِي وأما بالعِشى فيخَصُرُ

(١) الطرف: من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) روح من الرواح وهو وقت العشي . والرعيان :

جمع راع كالرعاة والرعاء . ونوم الرجل تنويماً : مبالغة في نام . (٣) الحجاب : الحية . وأزور

كأحسن : مائل من زور يزور إذا مال . (٤) يقال : أباء القاتل بالقتيل : قتله به ، والمراد هنا : فكم

من قتيل يطل دمه ولا يؤخذ له بثأر . (٥) يقال : غلق الرهن في يد المرتهن يغلِق غلقاً : لم يقدر

الراهن على أفتكاكه في الوقت المشروط . يريد : وكَم من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على أفتكاكها .

(٦) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقّشة من العاج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول المفصح المبين .

(٨) نص السرى : إسرعه ، وأصله حث الدابة واستخراج أقصى ما عندها من السير .

أخا سفر جَوَّابَ أَرْضٍ تَقَاذِفْتُ * به فَلَوَاتٌ فَهُوَ أَشَعْتُ أَخْبِرُ
 قَلِيلًا عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيَّةِ ظِلُّهُ * سَوَى مَا نَفَى عَنْهُ الرِّدَاءُ الْمُحْبِرُ^(١)
 وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ * وَرِيَانٌ مُلْتَفٌ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ
 وَوَالٍ كَفَّاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهْمُهَا * فَلَيْسَتْ لَشَيْءٍ آخَرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ
 وَلَيْلَةَ ذِي دَوْرَانَ جَشَمْتِنِي السَّرَى * وَقَدْ يَجْشِمُ الْهَوْلَ الْمُحِبُّ الْمَغْرَرُ^(٢)^(٣)

ومن شعره قوله في فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكنديّة :

تَشِطُّ^(٤) غَدًا دَارُ جَيْرَانَا * وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَبْعَدُ
 إِذَا سَلَكَتْ غَمْرُذَى كِنْدَةَ * مَعَ الرَّكْبِ قَصْدُهَا الْفَرْقَدُ^(٥)^(٦)^(٧)
 وَحَثَّ الْحُدَاةُ بِهَا عَيْرَهَا * سِرَاعًا إِذَا مَا وَنَتْ تُطْرَدُ^(٨)
 هِنَالِكَ إِمَّا تُعَزَّى الْفُؤَادُ * وَإِمَّا عَلَى إِثْرِهَا تَكْمَدُ
 وَلَيْسَتْ بِسِدْعٍ إِذَا دَارُهَا * نَأَتْ وَالْعَزَاءُ إِذَا أَجْلَدُ
 صَرَمْتُ وَوَأَصَلْتُ حَتَّى عَلِمْتُ * سِتُّ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمُورِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى عَرَفْتُ * سِتُّ مَا أَتَوَّقِي وَمَا أَحْمَدُ
 فَلَمَّا دَوَّنَا لِحَرَسِ النَّبَا * حَجَّ وَالضُّوْءِ وَالْحَيُّ لَمْ يَرْقِدُوا^(٩)
 نَأَيْنَا عَنِ الْحَيِّ حَتَّى إِذَا * تَوَدَّعَ مِنْ نَارِهَا الْمَوْقِدُ^(١٠)
 وَنَامُوا بَعَثْنَا لَهَا نَاشِدًا * وَفِي الْحَيِّ بَغِيَّةٌ مِنْ يَنْشُدُ

- (١) المحبر : المزين الحسن . (٢) ذودوران — بفتح أوّله وبعد الواو راء مهملة وآخره نون — موضع بين قديد والجنفة (ياقوت) . (٣) أى كلفتنى السير ليلا . (٤) تشط : تبعد . (٥) غمرذى كندة : موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين . (٦) كذا في ديوانه ، وفي الأغاني « الصبح » . (٧) الفرقد : نجمان في السماء من نجوم الدب الأصغر وهي في الشمال ، ويقال لها : الفرقد بالإفراد ، والفرقدان بالثنية . ولعله يريد أنها تسير جهته ، لأن العراق التي تقصده في الشمال الشرقي من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المعنى اللابل لتنشط في السير ، وقد يراد به الزايجر والسائق . والعير : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . وونت : ضعفت وتباطأت . وتطرد : تساق . (٩) الحرس : الصوت . (١٠) تودع : سكنت ناره وأنطفأت .

أَتْنَتْ تَهَادَى عَلَى رِقْبَةٍ ^(٢) * من الخوف أحشأؤها ^{ترعد}
 تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَجْدًا بِنَا ^(٣) * وَوَجْدِي وَإِنْ أَظْهَرْتُ أَوْجِدُ
 لَمَّا شَقَائِي تَعَلَّقْتُكُمْ * وَقَدْ كَانَ لِي عَنْكُمْ مَقْعَدُ ^(٤)
 وَكَفَّتْ سَوَائِقَ مِنْ عَبْرَةٍ * عَلَى الْخَدِّ جَالٍ بِهَا الْإِمْدُ ^(٥)
 فَإِنَّ التِّي شَيِّعَتْنَا الْغَدَاةَ * مَعَ الْفَجْرِ قَلْبِي بِهَا مُقْصَدُ ^(٦)

وَسَبَّ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ بَزِينَةَ بِنْتِ مُوسَى الْجَحِيحَةِ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

يَا خَلِيلِي مَنْ مَلَامٍ دَعَانِي * وَأَلْمَا الْغَدَاةَ بِالْأَطْعَانِ
 لَا تَلُومَا فِي آلِ زَيْنَبَ إِنْ أَلَا * قَلْبَ رَهْنٍ بَالِ زَيْنَبَ عَانِي
 مَا أَرَى مَا بَقِيَتْ أَنْ أَذْكَرَ الْمَوَ * قَفَّ مِنْهَا بِالْخَيْفِ إِلَّا شَجَانِي ^(٧)
 لَمْ تَدْعَ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي حَفًّا * غَيْرَ مَا قَلْتُ مَارِحًا بِلِسَانِي
 هِيَ أَهْلُ الصَّفَاءِ وَالْوَدِّ مَنِي * وَإِلَيْهَا الْهَوَى فَلَ تَعُدُّلَانِي
 حِينَ قَالَتْ لِأَخْتِهَا لِأُخْرَى * مِنْ قَطِينٍ ^(٨) مُؤَلَّدٍ : حَدَّثَانِي
 كَيْفَ لِي الْيَوْمَ أَنْ أَرَى عُمَرَ الْمُرَّ * سِئَلٍ سِرًّا فِي الْقَوْلِ أَنْ يَلْقَانِي
 قَالَتَا : نَبْتَنِي رَسُولًا إِلَيْهِ * وَنَمِيْتُ الْحَدِيثَ بِالْعِكْتَانِ
 إِنَّ قَلْبِي بَعْدَ الَّذِي نَلْتُ مِنْهَا * كَالْمَعْمَى ^(٩) عَنِ سَائِرِ النَّسْوَانِ

(١) تهادى : تمشى في تمايل وسكون . (٢) الرقبة : التحفظ والفرق . (٣) الوجد : الشغف والشوق الشديد . (٤) المراد : قد كان لي غنى عن حبيكم . (٥) الإمد : حجر للكحل وأجوده بأصهبان . (٦) أقصده : رماه بسهم فقتله . (٧) الخيف : ما أرتفع عن مجرى السيل وأتحدر عن غلط الجبل . قال ابن سيدة : وخيف مكة موضع فيها عند منى ، سمي بذلك لأن تحدره عن الغلط وأرتفاه عن السيل . (٨) القطين : الخدم والأتباع والحشم ، والمولد من العبيد والإماء : من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم . (٩) كذا في الأغاني . وفي ديوانه " كالمعنى " أى المأسور المحبوس عن غيرها .

وكان سبب ذكره لها أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ووصف من عقابها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها ، فقال فيها الشعر وشبب بها ، فبلغ ذلك ابن أبي عتيق ، فلامه فيه وقال له : أتتطق الشعر في ابنة عمي ؟ فقال عمر :

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي * إن بي يا عتيق ما قد كفاني
لا تلمني وأنت زيتها لي * أنت مثل الشيطان للإنسان
إن بي داخلاً من الحب قد أب * بلى عظامي مكنونه وبراني
لو بعينيك يا عتيق نظرنا * ليلة السّفح قوت العينان
إذ بدا الكشْحُ والوشاح من الد * وفَصْلٌ فيه من المرجان^(١)
وقلى قباي النساء سواها * بعد ما كان مغرماً بالغواني
لم تدع للنساء عندي نصيباً * غير ما قلت مازحاً بلساني

وأشد ابن أبي عتيق قول عمر :

من لسقم يكتم الناس ما به^(٢) * لزينب نجوى صدره والوساوس
أقول لمن يبغى الشفاء متى نجى * بزينب تدرك بعض ما أنت لايس
فإنك إن لم تشف من سقمي بها * فإني من طب الأطباء آيس^(٣)
ولست بناس ليلة الدار مجلسا * لزينب حتى يعلو الرأس رامس
خلاء بدت قراؤه وتكشفت * دجته وغاب من هو حارس^(٤)
وما نلت منها محرماً غير أننا * كلانا من الثوب الموردي لايس^(٤)
نجين تقضى الهوى في غير ما تم * وإن رغمت من الكاشحين المعاطس

(١) الكشح : ما بين الحجة — وهي رأس الورك الذي يشرف على الخاصرة — إلى الإبط . والوشاح :

شبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الحرم وهو حذف الفاء من فعولن . (٣) الرامس : الدافن في الرمس وهو القبر .

(٤) المورّد : الذي صبغ على ون الورد .

قال : فقال **أَبْنُ أَبِي عَتِيقٍ** : **أَمِنَّا يَسْحَرُ** **أَبْنُ أَبِي رَيْبِعَةَ** ؟ **فَأَيُّ مُحْرَمٍ بَقِيَ !** ثم أتى عمرَ فقال له : **يا عمرُ ، أَلَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّكَ مَا أَتَيْتَ حَرَامًا قَطُّ ؟** قال : **بَلَى ،** قال : **فَأَخْبِرْنِي** عن قولك :

* **كَلَّانَا مِنَ الثَّوْبِ الْمُرْدِّ لَا بُسَ** *

ما معناه؟ قال : **وَاللَّهِ لِأَخْبَرْتُكَ** : **خَرَجْتُ أُرِيدُ الْمَسْجِدَ وَخَرَجْتُ زَيْنَبُ تَرِيدُهُ ، فَالْتَقِينَا** **فَاتَّعَدْنَا لِبَعْضِ الشَّعَابِ ، فَلَمَّا تَوَسَّطْنَا الشَّعْبَ أَخَذْتُمَا السَّمَاءَ ، فَكْرِهْتُ أَنْ يُرَى بَيَاطُهَا بَلَلُ** **الْمَطَرِ ، فَيَقَالُ لَهَا : أَلَا أَسْتَتِرُ بِسَقَائِفِ الْمَسْجِدِ إِنْ كُنْتِ فِيهِ ! فَأَمَرْتُ غُلَمَانِي فَسَتَرُونَا** **بِكِسَاءٍ نَحْرُكَانَ عَلَيَّ ، فَذَلِكَ حِينَ أَقُولُ :**

* **كَلَّانَا مِنْ أَثْوَابِ الْمَطَارِفِ لَا بُسَ** *

فقال له : **أَبْنُ أَبِي عَتِيقٍ : يَا عَاهِرُ ! هَذَا الْبَيْتُ يَحْتَاجُ إِلَى حَاضِنَةٍ !**

ومن جيد شعره قوله في زينب بنت موسى :

يَا مَنْ لَقِيْتُ مَتَمِّمَ كَلْفِ * يَهْدِي بِجُودِ مَرِيضَةِ النَّظْرِ^(١)
 تَمْسِي الْهُوَيْنَا إِذَا مَشَتْ فُضْلًا * وَهِيَ كَمَثَلِ الْعُسْلُوجِ فِي الشَّجَرِ^(٢)
 مَا زَالَ طَرْفِي يَجَارُ إِذْ بَرَزْتَ * حَتَّى رَأَيْتُ النَّقْصَانَ فِي بَصْرِي
 أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنَسَوْتُهَا * يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْمَجْرِ
 مَا إِنْ طَمِعْنَا بِهَا وَلَا طَمِعْتَ * حَتَّى الْتَقِينَا لَيْلًا عَلَى قَدْرِ^(٤)
 يَبِضًا حَسَانًا حَرَانِدًا قُطْفًا * يَمْشِينَ هَوْنَا كِمَشِيَةِ الْبَقْرِ
 قَدْ فُزْنَ بِالْحَسَنِ وَالْجَمَالَ مَعًا * وَفُزْنَ رِسَالًا بِالذَّلِّ وَالْخَفْرِ^(٦)

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة مالم تصر نصفًا ، والنصف : المرأة بين الحدة والمستة .

(٢) الفضل بضمين : المختالة التي تفضل من ذيلها . ويروى : « قطفًا » والمراد به تقارب الخطو .

(٣) العسلوج : الغصن اللين الأخضر . (٤) على قدر : على غير موعد . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه

مقدَّر في الأزل لا علم له به ولا سعى إليه كما قيل :

جاء الخِلافة أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا * كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدْرِ

(٥) جمع قطوف وهي البطيئة في السير . (٦) الرسل بالكسر : الرفق والتؤدة . والخفر : شدة الاستحياء .

يُنصِتَنَ يَوْمًا لَهَا إِذَا نَطَقَتْ * كَمَا يُشْرِفُهَا عَلَى الْبَشَرِ
 قَالَتْ لَتُرِبَ لَهَا نُحْدُثُهَا * لِنَفْسِ دَنِّ الطَّوَافِ فِي عُمَرِ
 قَوْمِي تَصَادَى لَهُ لِيَعْرِفَنَا * ثُمَّ أَعْمِزِيهِ يَا أُخْتِ فِي خَفِيرِ
 قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبِي * ثُمَّ أَسْبَطْتُ^(١) تَسَعَى عَلَى آثَرِي
 مِنْ يُسْقَ بَعْدَ الْمَنَامِ رِيْقَتَهَا * يُسْقَ بِمَسْكِ وَبَارِدِ خَصِرِ^(٢)

وقوله فيها أيضا :

أَلَمْ بَزِينَبَ إِنْ الْبَيْنَ قَدْ أَفِدَا^(٣) * قَلَّ التَّوَاءَ لَيْنُ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا
 قَدْ حَلَقَتْ لَيْلَةَ الصَّوْرَيْنِ جَاهِدَةً^(٤) * وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْحِلْفُ مَجْتَهِدَا
 لِأُخْتِهَا وَلَا أُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِهَا^(٥) * لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدَا
 لَوْ جَمَعَ النَّاسُ ثُمَّ آخْتِيرَ صَفْوَهُمْ * شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أَعْدِلْ بِهِ أَحَدَا

ومن شعر عمر في تشوقه الى مكة بعد أن خرج منها الى اليمن قوله :

هِيَاةَ مِنْ أَمَةِ الْوَهَّابِ مَنَزَلْنَا * إِذَا حَلَلْنَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ عَدَنِ^(٦)
 وَأَحْتَلَّ أَهْلُكَ أَجْيَادًا وَلَيْسَ لَنَا * إِلَّا التَّدَكُّرُ أَوْ حِطُّ مِنَ الْحَزَنِ
 لَوْ أَنَّهُ أَبْصَرْتُ بِالْجَزْعِ عَبْرَتَهُ * مِنْ أَنْ يُغَرِّدَ قُمْرِيٌّ عَلَى فَنَنِ
 إِذَا رَأَتْ غَيْرَ مَا ظَنَنْتَ بِصَاحِبِهَا * وَأَيَقِنْتُ أَنْ تَجْمَأَ لَيْسَ مِنْ وَطَنِي
 مَا أُنْسَ لَا أُنْسَ يَوْمَ الْخَيْفِ مَوْقِفَهَا^(٨) * وَمَوْقِفِي وَكَلَانَا ثُمَّ ذُو شَيْبَنِ
 وَقَوْلَهَا لِلشُّرْيَا وَهِيَ بَاكِيَةٌ * وَالدمْعُ مِنْهَا عَلَى الْخَدَيْنِ ذُو سُنَنِ^(٩)

(١) اسبطرت : أسرع . (٢) انحصر : البارد . (٣) أفد كفرح : مجل وأسرع .

(٤) الصوران : موضع بالمدينة بالبقيع ، وقد ذكره ياقوت وأستشهد بالبيت . (٥) المنصف كمنبر

ومقعد : الخادم ، والأنثى بالهاء ، جمعه مناصف .

(٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أجياد : موضع بمكة ، سمي بذلك لأن تبعها لما قدم مكة ربط

خيله فيه فسمى بذلك ، وهما موضعان : أجياد الكبير وأجياد الصغير . (٨) الخيف : موضع بمنى وبه

سمى مسجد الخيف . (٩) ذو سنن : ذوطرائق .

بالله قولى له فى غير معتبة * ماذا أردت بطول المكث فى اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها * فما أخذت بترك الحج من ثمن

وقال أيضا :

خيلى ما بأل المطايا كأمما * نراها على الأدبار بالقوم تنكص^(١)
وقد قطعت أعناقهن صباية * فأنفسنا مما يلاقين شخص^٢
وقد أتعب الحادى سراهن^٣ وأنتهى * بهن فما يالو عجول مقلص^(٢)
يزدن بنا قربا فيزداد شوقنا * إذا زاد طول العهد والبعد ينقص^٤

ومن شعره قوله :

جرى ناصح بالود بينى وبينها * فقربنى يوم الحصاب إلى قتلى^(٣)
فطارت بحد من فؤادى وقارنت * قرينتها جبل الصفاء إلى حبلى
فلما توافقنا عرفت الذى بها * كمثل الذى بى حدوك النعل بالنعل
فقلن لها هذا عشاء وأهلنا * قريب الما تسامى مراكب البغل
فقاتل فما شئت قلن لها أنزلى * فللأرض خير من وقوف على رحل
نجوم درارى تكفن صورة^(٤) * من البدر وافت غير هوج ولا مجل^(٥)
فسأمت وأستأنست خيفة أن يرى * عدو مقامى أو يرى كاشح فعلى
فقاتل وأرخت جانب الستارنما * معى فتكلم غير ذى رقبته أهلى
فقلت لها ما بى لهم من ترقب * ولكن سرى ليس يجمله مثلى
فلما أقتصرنا دونهن حديثنا * وهن طبيبات بجاجة ذى الشكى
عرفن الذى تهوى فقلن أنذنى لنا * نطف ساعة فى برد ليل وفى سهل

(١) تنكص : ترجع وتولى وتحجم . (٢) مقلص : مشمر جاد فى السير . (٣) الحصاب : كالخصب : موضع رى الجمار . (٤) درارى : ممنوعة من الصرف وتؤنت لضرورة الشعر . (٥) هوج : جمع هوجاء وهى المتعجلة فى السير كأن بها هوجا وحقا .

فقلت فلا تلبثن فَنَ تَحَدِّي * أَيْنَاكَ ، وَأَنْسَبَنَّ أَنْسِيَابَ مَهَارِمِلِ
فَقَمَنَّ وَقَدْ أَفْهَمَنَّ ذَا اللَّبِّ أَمَّا * آتَيْنَ الذِّي يَأْتِيَنَّ مِنْ ذَاكَ مِنْ أَجْلِ

وقد كان عمر حين أسنَّ حلف ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبةً ، فانصرف عمرُ
إلى منزله يحدث نفسه ، فجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جواباً ، فقالت له : إن لك
لأمراً ، وأراك تريد أن تقول شعراً ، فقال :

تقول وليدتي لما رأيتي * طَرِبْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينَا
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً * وَهَاجَ لَكَ الْمَوَى دَاءً دَفِينَا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء * إِذَا مَا شِئْتَ فَارَقْتَ الْقَرِينَا
بربك هل أتاك لها رسولٌ * فَشَاقَكَ أَمْ لَقَيْتَ لَهَا حَدِيْنَا^(١)
فقلت شكاً إلى أخٍ محبٌ * كَبَعْضِ زَمَانِنَا إِذْ تَعَلَّمِينَا
فقص علي ما يلقي بهند * فَذَكَرَ بَعْضَ مَا كُنَّا نَسِينَا
وذو الشوق القديم وإن تعزى * مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَا
وكم من خلةٍ أعرضت عنها * لِغَيْرِ قَلِيٍّ وَكُنْتُ بِهَا ضَمِينَا^(٢)
أردت إعادها فصددت عنها * وَلَوْ جُنَّ الْفَوَادُ بِهَا جُنُونَا
ثم دعا تسعةً من رقيقه فأعتقهم بكل بيتٍ واحداً .

وله :

يقولون : إني لست أصدقك الهوى * وَإِنِّي لَا أَرَاكَ حِينَ أُغِيبُ
فأبال طرفي عَفَّ عما تَسَاقَطُ * لَهُ أَعْيُنٌ مِنْ مَعْشَرٍ وَقُلُوبُ
عشيّة لا يَسْتَنْكِفُ الْقَوْمُ أَنْ يَرَوْا * سَفَاهَ أَمْرِيٍّ مِمَّنْ يُقَالُ لَيْبُ

(١) الخدين : الصديق الذي يخادك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن ، ومنه خدن الجارية : محبتها ،
وكان العرب في الجاهلية لا يمتنعون من خدن يحدث الجارية بغاء الاسلام بهدمه . وفي التنزيل العزيز : (اليوم أحل
لكم الطيبات) الى قوله : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتوهن أجورهن محصنين غير مسافحين
ولا متخذين أهدان) الآية . (٢) الخلة : الخلية .

ولا فتنة من ناسكٍ أو مضت له ^(١) * بعين الصبا كسلى القيام لعوب
 تروح يرجوان تحط ذنوبه * فآب وقد زيدت عليه ذنوب
 وما أنسك أسلاني ولكن للهوى * على العين منى والفؤاد رقيب
 وله :

ألم تسأل المنزل المُقْفِرَا * بياناً فيكمم أو يُجْبِرَا
 ذكرت به بعض ما قد شجأك * وحق لذي الشجوان أن يذكُرَا
 مييت الحبيبين قد ظاهرا ^(٢) * كساءً وبردين أن يُمْطَرَا
 وممسي الثلاث به موهناً * خرجن إلى زائر زورَا
 إلى مجلس من وراء القبا * ب سهل الربى طيب أعفرا ^(٣)
 غفلن عن الليل حتى بدت * تباشير من واضح أسفرا
 فقمم يعقبن آثارنا * بأكسية الحزان تقفرا ^(٤)
 مهاتان شيعتا جؤذرا ^(٥) * أسيلاً مقلده أخورا ^(٦)
 وفن وقن لو انت لها * رمد له الليل فاستأخرا
 قضينا به بعض أشجاننا * وكان الحديث به أجدرَا

وله :

أفي رسم دار دمُعك المتفرق ^(٧) * سفاهاً! وما استنطاق ما ليس ينطق!
 بحيث التقي ووجع ^(٨) وأقصى ^(٩) "ومحسّر"
 ذكرت به ما قد مضى من زماننا * وذكرك رسم الدار مما يسوق

(١) أو مضت له : سارقتة النظر .

- (٢) يقال : ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر . (٣) أعفر : ذى رمل أحمر .
 (٤) يقال : قفر الأثر فقفر : اقتفاه وتبعه . (٥) الجؤذر (بضم أوله وضم الذال وفتحها) : ولد البقرة .
 والربرب : القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء ، ولا واحد له من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة
 ويراد به الجريد . (٧) ترقق الدمع : سال . (٨) جمع ، هي المزدلفة . (٩) محسر : موضع
 بين منى والمزدلفة .

ليالى من دهرٍ إذ الحى جيرة * وإذ هو مأهول الخيالة مؤنق
 مقاماً لنا عند العشاء ومجلسا * به لم يكدره علينا معوق^(١)
 ومشى فتاة بالكساء تكنتنا * به تحت عين برقها يتألق^(٢)
 يبل أعلى الثوب قطر وتحتة * شعاع بدأ يعشى العيون ويشرق
 فأحسن شىء بدء أول ليلنا * وآخره حزن إذا نتفرق

وروى أن ليلي كانت جالسة في المسجد الحرام، فرأت عمر بن أبي ربيعة فوجّهت
 إليه مولى لها بغاءها به، فقالت له: يابن أبي ربيعة، حتى متى لا تزال سادراً في حرم الله
 تُسبب بالنساء وتُشيد بذكرهن! أما تخاف الله! قال: دعيني من ذلك وأسمعي ما قلت،
 قالت: وما قلت؟ فأنشدتها الأبيات المذكورة، فقالت له القول الذى تقدم أنها أجابته به.
 قال: وقال لها: أسمعي أيضاً ما قلت فيك، ثم أنشدتها قوله:

أمن الرسم وأطلال الدمن * عادلى وجدى وعاودت الحزن
 إن حبي آل ليلي قاتلى * ظهر الحب يجسمى وبطن
 يا أبا الحارث قلبى طائر * فأتمر أمر رشيد مؤتمن
 التمس للقلب وصلاً عندها * إن خير الوصل ما ليس يمين^(٤)
 علق القلب، وقد كان صحاً، * من بنى بكر غزالاً قد شدن^(٥)
 أحوار المقلّة كالبدر، إذا * قلد الدرّ قلبي ممنحن^(٦)
 ليس حب فوق ما أحببتكم * غير أن أقتل نفسى أو أجن
 خلقت للقلب منى فتنة * هكذا يخلق معروض الفتن

(١) معوق: عائق ومانع . (٢) العين: السحاب .

(٣) السادر: الذى لا يهتم ولا يبالي ما صنع .

(٤) كذا فى الديوان، ومعناه ما ليس يقطع، ومنه قوله تعالى: (وإن لك لأجراً غير ممنون) .

(٥) شدن: شب وترعرع . (٦) ممنحن: واقع فى محنة .

وفيها يقول :

إِنَّ لَيْلِي وَقَدْ بَلَغْتُ الْمَشِيئَا * لَمْ تَدْعُ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي نَصِيئَا
هَاجِرٌ بَيْتَهَا لِأَنْفِي عَنْهَا * قَوْلَ ذِي الْعَيْبِ إِنْ أَرَادَ عِيوبَا

وله في النَّوَارِ وَقَدْ شَغَلَتْ قَلْبَهُ :

عَلِقَ النَّوَارَ فَوَادَهُ جَهَلَا * وَصَبَا فَلَمْ تَتْرِكْ لَهُ عَقَلَا
وَتَعَرَّضْتُ لِي فِي الْمَسِيرِ فَمَا * أَمْسَى الْفَوَادُ يَرَى لَهَا مِثْلَا
مَا نَعَجَةٌ مِنْ وَحْشٍ ذِي بَقْرِ^(١) * تَعْدُو بِسَقَطِ صَرِيمَةٍ طِفْلَا^(٢)
بِأَلَدِّ مِنْهَا إِذْ تَقُولُ لَنَا * وَأَرَدْتُ كَشَفَ قِنَاعِهَا مَهَلَا
دَعْنَا فَإِنَّكَ لَا مُكَارِمَةَ * تَجْزِي وَلَسْتَ بِوَأَصِلِ حَبْلَا
وَعَلَيْكَ مَنْ تَبَلَّ الْفَوَادَ وَإِنْ * أَمْسَى لِقَلْبِكَ ذِكْرُهُ شُغْلَا
فَأَجْبَتْهَا إِنْ الْحَبِّ مَكْلَفٌ^(٣) * فَدَعِيَ الْعِتَابَ وَأَحْدِثِي بَدْلَا

اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظهره وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه ، فقالت سكينه بنت الحسين عليهما السلام : أنا لكنن به ، فأرسلت إليه رسولا وواعدته الصورين ، وسمت له الليلة والوقت وواعدت صواحباتها ، فوافاهن عمر على راحلته ، فحدثهن حتى أضاء الفجر وحان أنصرفهن ، فقال لهن : والله إنى محتاج إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ولكن لا أخاطب بزيارتكن شيئا ، ثم أنصرف إلى مكة وقال :

(١) ذوبقر : موضع . (٢) سقط الصريمة : منتهاها . والصريمة : الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر . (٣) مكلف : لهج بالحب ، يقال : كلف بالشي كلفا ، أى لهج به فهو كلف ومكلف ، والأبيات من الكامل الأحد ، وهو ما حذف من عروضه وضربه الوند المجموع «علن» من «متفاعلن» . وقد جاء عروض هذا البيت تاما على خلاف بقية الأبيات ، وظاهر أن حذف الوند في اصطلاح علماء العروض علة ، والعلة إذا لحقت بعروض أو ضرب لزم استعمالها في سائر الأبيات ولو قال : * فأجبتها إنى بكم كلف * نخلت القصيدة من هذا العيب .

قالت سَكِينَةُ وَالدَّمُوعُ ذَوَارِفٌ * منها على الخدين والجلباب^(١)
 ليت المَغِيرَى الذى لم أجزه * فيما أطال تصيدي وطلابي
 كانت تردُّ لنا المني أماننا * إذ لا نلأم على هوى وتصابي
 خبرت ما قالت فبت كأئما * رُمي الحشا بنوافذ النشاب^(٢)
 أسكين ما ماء الفرات وطيبه * منى على ظميا وفقد شرابي
 بالذم منك وإن نأيت وقلمنا * ترعى النساء أمانة الغياب

وقال فيها :

أحبُّ لحبِّك من لم يكن * صفيًا لنفسى ولا صاحبًا
 وأبدلُ نفسى لمرضاةكم * وأعتب^(٣) من جاءكم عاتبًا
 وأرغب في ودِّ من لم أكن * الى وده قبلكم راغبًا
 ولو سلكت الناس في جانبٍ * من الأرض وأعتلت جانبًا
 ليَمَّمْتُ طيبتها ، إنسى * أرى قريبا العجب العاجبا
 فما ظبية من ظباء الأرا * لك تقرو دميث الربى عاشبا^(٤)
 بأحسن منها غداة الغميم * وقد أبدت الخدَّ والحاجبا^(٥)
 غداة تقول على رقبته * لخادمها : يا أحسبى الراكبا^(٦)
 فقالت لها : فيم هذا الكلام * وأبدت لها عابسا قاطبا^(٧)
 فقالت كريم أتى زائرا * يمرُّ بكم هكذا جانبا
 شريف أتى ربعا زائرا * فأكره رجعتَه خائبا^(٨)

- (١) الجلباب : القميص أو هو الخمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . (٢) النشاب : النبل .
 (٣) أعتب : أزال سبب العتب ، فاهمزة للسلب . والمعنى أعذر . (٤) قراه يقروه : تتبعه .
 (٥) دميث الربى : سهلها وليتها . (٦) الغميم كأمير : موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادما :
 واحد الخدم غلاما كان أو جارية . (٨) قاطبا من القطوب : وهو تزوى ما بين العينين من العبوس .

وقال في جاريته بغموم :

صرمت حبلك البغوم وصدت * عنك في غير ريبة أسماء
والغواني اذا رأينك كهلًا * كان فيهن عن هواك التواء
جبدًا أنت يا بغموم وأسماء * وعيص يكتننا وخلاء
ولقد قلت ليلة الجزل لما * أخضت ريطتي على السماء^(١)
ليت شعري - وهل يردن ليت - * هل لهذا عند الرباب جزاء
كل وصل أمسى لدى لأثني * غيرها وصلها إليها أداء
كل خلق وإن دنا لوصال * أو نأى فهو للرباب الفداء
فعدى نائلا وإن لم تُنبلي * إنما ينفع المحب الرجاء

وكان يهوى حميدة جارية ابن تفاعبة، وفيها يقول :

حمل القلب من حميدة ثقلاً * إن في ذاك للفؤاد لشغلاً
إن فعلت الذي سألت فقولي * حمد خيراً وأتبعي القول فعلاً
وصليبي وأشهد الله آتى * لست أصفى سواك ما عشت وصلًا

وفيها يقول :

يا قلب هل لك عن حميدة زاجر * أم أنت مدكر الحياء فصابر
فالقلب من ذكري حميدة موجه * والدمع منحدر وعظمي فاتر
قد كنت أحسب أنني قبل الذي * فعلت على ما عند حمدة قادر
حتى بدا لي من حميدة خلتي * بين وكنت من الفسراق أحاذر

(١) الجزل : موضع قرب مكة . وأخضل : يل . والريطة : ملاءة كلها نسج واحد وقطعة

وله في هند :

أَرَبْتُ إِلَى هِنْدٍ وَتَرَبِينَ مَرَّةً * لها إِذ تَوَاقَفْنَا بَفَرْعِ الْمُقَطَّعِ
 لَتَعْرِيشِ يَوْمٍ أَوْ لَتَعْرِيشِ لَيْلَةٍ * علينا بِجَمْعِ الشَّمْلِ قَبْلَ التَّصَدُّعِ
 فَقُلْنَا لَهَا لَوْلَا آرْتِقَابُ صَحَابَةٍ * لنا خَلَفْنَا عَجْنَا وَلَمْ نَتَوَرَّعِ
 فَقَالَتْ فِتْنَةٌ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهَا * مَغْفَلَةٌ فِي مَثَرٍ لَمْ تَدْرِعِ
 لَهْنٌ - وَمَا شَاوَرْنَا - لَيْسَ مَا أَرَى * بِحُسْنِ جَزَاءٍ لِلحَبِيبِ المَوَدِّعِ
 فَقُلْنَا لَهَا لَا شَبَّ قَرْنُكَ فَافْتَحِي * لنا بَابَ مَا يَخْفَى مِنَ الأَمْرِ نَسْمَعِ

- (١) يقال : أرب بكذا : كلف به ، وأرب إلى كذا : احتاج إليه . ولعل المراد : دعاني الشوق اليهن .
 (٢) التعريس : قيل هو نزول القوم في السفر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو النزول
 أوّل الليل . وقيل : النزول في أي وقت كان من ليل أو نهار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليلة .
 (٣) لم تدرع : لم تلبس الدرع ، يقال : درعت الصبية إذا ألبست الدرع ، والدرع : جبة مشقوقة المقدم .
 (٤) قال الأصمى : يقال أشبهه الله وأشبه الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب ويكبر) ، والقرن
 زيادة في الكلام اه . والقرن : الضفيرة . والمراد التعجب من حديثها كما يقال في هذا المقام : فأتاك الله .
 (٥) البابة : الوجه والطريق ، قال تميم بن مقبل :

بني عامر ما تأمرون بشاعر * تخير بابات الكتاب هجائيا

أي تخير هجائيا من وجوه الكتاب ، كما فسره صاحب اللسان . وللبابة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهي : القبيل
 والنوع - كما قال الجاحظ في « كتاب الحيوان » ج ٢ ص ٤٥ : « فليس الديك من بابة الكلب لأنه إن ساوره قتله
 قتلا ذريعا » وقال أيضا في ج ٧ ص ٤٣ : « وقد أيقنا أنهما ليسا من بابه » . وقال في كتاب البجلاء ص ٤٥ ،
 ١٤٣ : « أنت من ذى البابة ... وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه البابة » . ومثل ذلك في نفع الطيب
 ج ١ ص ٥٥٩ طبع ليدن ، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضي محمد بن بشير الأندلسي :

إنما أزرى بقدرى أننى * لست من بابة أهل البلد

وإذا قال الناس : « من بابتي » فعناه من الوجه الذي أريده ويصلح لي .

والشرط - ومثله ما في « تاج العروس » : هذا بابته أي شرطه .

والغاية - ويستعمل ذلك في الحساب والحدود . وفي « شفاء الغليل » أنهم يقولون لعب خيال الظل بابة
 فيقولون : بابات خيال الظل ، وعلى ذلك قول ابن إياس المؤرخ المصري : فكانوا مثل بابات خيال الظل فشيء ينجي .
 وشيء يروح (بدايع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ٣٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية . (انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٣٨

وله :

(١) لَيْتَ هِنْدًا أُجِزَّتْنَا مَا تَعِدُ * وَشَقَّتْ أَنْسَنَا مَا تَجِدُ
 وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً * إِنَّمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبِدُّ
 وَلَقَدْ قَالَتْ بِحَارَاتٍ لَهَا * ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَبْتَرِدُ^(٢)
 أَكَّا يَنْعَتِي تَبْصِرَتِي * عَمَّرَكُنَّ اللَّهُ أُمَّ لَا يَقْتَصِدُ
 فَمَهَانَتُنَّ وَقَسَدَ قُنَّ لَهَا * حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِنْ تَوَدُّ^(٣)
 حَسَدًا حَمَلَنَهُ مِنْ أَجْلِهَا * وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ

وله :

(٤) يَأْمَنْ لِقَلْبٍ دَنِيفٍ مُغْرَمٍ * هَامٌ إِلَى هِنْدٍ وَلَمْ يَظْلِمِ
 هَامٌ إِلَى رِيمٍ هَضِيمِ الْحَشَى * عَذِبِ الثَّنَائِيَا طَيْبِ الْمَبْسَمِ^(٥)
 لَمْ أَحْسِبِ الشَّمْسِ بَلِيلًا بَدَّتْ * قَبْلِي لِذِي لَحْمٍ وَلَا ذِي دَمِ^(٦)

(١) وجد به يجرد وجدا : أحبه جدا شديدا ، ووجد عليه يوجد وجدا : حزن . (٢) تبترد :
 تغتسل بالماء البارد . (٣) كذا في الكامل للبرد طبع ليبرز ص ٥٩٤ وهي رواية جيدة . والتأنيف كالأهناف
 والمهانة : ضحك فيه فتور كضحك المستهزئ . وفي الأغاني والديوان : «فتضاحكن» . وقد رجحنا الرواية الأولى
 لأنها تؤدي تمام المعنى المراد . (٤) هام تتعدى بالباء وقد ضمنت هنا معنى صبا ولهذا تعدت بالي .
 (٥) كذا في الأغاني ، وفي ديوانه : «رثم» بالحمز . والرثم : الظبي الأبيض الخالص البياض ، وقيل ولد الظبي ،
 يهز ولا يهزم . (٦) كذا في الأغاني ، وبين هذا البيت والذي قبله في ديوانه :

كالشمس بالأسعد إذ أشرقت * في يوم دجر بارد مقتم

يريد بالأسعد هنا صعود النجوم ، وهي عشرة : أربعة منها في برج الجدي والدلو يترها القمر وهي سعد الدابج وسعد
 بلع وسعد الأخبية وسعد السعود وهو كوكب منفرد نير . وأما السبعة التي ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك
 وسعد الهام وسعد الحمام وسعد البارح وسعد مطر . وكل سعد من هذه السبعة كوكبان بين كل كوكبين في رأي العين قدر
 ذراع وهي متناسقة . وأما سعد الأخبية فتلاثة أنجم كأنها أثنان في ورابع تحت واحد منهم . أنظر المرتضى والمقاصد
 النحوية في شرح شواهد الألفية للإمام العيني المطبوع بها مش الخزانة ج ١ ص ٨٠ في الكلام على البيت :

إذا دبران منك يوما لقيته * أو قل أن ألقاك غدوا بأسعد

وقال في اللسان في مادة «سعد» بعد أن ذكر هذه السعود : فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم في أيامها
 لأنك لا ترى فيها غبرة ، وقد ذكرها النابغة الذبياني فقال :

قامت تراءى بين سبغى كلة * كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقد ضبط خطأ في اللسان بفتح العين . وقال :

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار

قالت ألا إنك ذو مَلَّةٍ * يَصْرِفُكَ الأَدْنَى عن الأَقْدَمِ
قلت لها بل أنتِ معتَلَّةٌ * في الوَصْلِ يَاهِنْدُ لِكِي تَصْرِمِي

بينما عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ،
وكانت من أجل أهل دهرها ، وهي تريد الركن تستلمه ، فبهت لما رآها ورأته ، وعلمت
أنها قد وقعت في نفسه ، فبعثت إليه بجارية لها وقالت : قولى له : أتق الله ولا تقل هجراً ،
فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت ، فقال للجارية : أقرئها السلام وقولى لها : ابن عمك
لا يقول إلا خيراً ، وقال فيها :

لعائشة ابنة التيمي عندي * حمي في القلب ، لا يرعى حماها
يدكرني ابنة التيمي ظبي * يرود بروضة سهل رباه
فقلت له وكاد يراع قلبي * فلم أرقط كالיום اشتياها
سوى حمش يساقك مستبين^(١) * وأن شواك لم يشبه شواها
وأنت عاطل عارٍ وليست * بعارية ولا عطيل يداها
وأنت غير أفرع وهي تدلي^(٢) * على المتنين^(٣) استحم قد كساها
ولو قعدت ولم تكلف بود^(٤) * سوى ما قد كلفت به كفاها
أطل إذا أكلها كاني * أكلم حية غلبت رفاها
تبيت إلى بعد النوم تسرى * وقد أمسيت لأخشى سراها

وله :

إني وأول ما كلفت بحبها * عجب وهل في الحب من متعجب
نعت النساء فقلت لست بمبصر * شهباً لها أبداً ولا بمقرب

(١) الحمش : دقة الساقين . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأفرع : طويل شعر الرأس .

(٤) الأستحم : الأسود ، يريد به الشعر .

فمَكَثَنَ حِينًا ثُمَّ قُلْنَ تَوَجَّهَتْ * لِلْحَجِّ ، موعِدُهَا لِقَاءَ الْأَخْشَبِ^(١)
 أَقْبَلْتُ أَنْظُرَ مَا زَعَمَنَ وَقُلْنَ لِي * وَالْقَلْبُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ
 فَلَقِيْتُهَا تَمْشِي بِهَا بَغْلَاتِهَا * تَرِيحِي الْجِمَارَ عَشِيَّةً فِي مَوَكِبِ
 غَرَآءَ يُعْشَى النَّاطِرِينَ بِيَاضِهَا * حَوْرَاءَ فِي غُلُوَاءِ عَيْشٍ مُعْجِبِ^(٢)
 إِنِ التِّي مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَايَا * جُلِبَتْ لِحَيْنِكَ لَيْتَهَا لَمْ تُجَلَّبِ

وكان عمر بن أبي ربيعة يهوى كَلمَ بنتِ سَعْدِ الخَزْزَمِيَّةِ ، فأرسلَ إليها رسولا فضربتُها
 وحلقَتُها وأحلقَتُها ألا تُعَاوِدَ ؛ ثم أعادها ثانية ففعلتُ بها مثلَ ذلك ، فتَحَامَاهَا رُسُلُهُ ؛ فآبَتَاعَ
 أُمَّةً سَوْدَاءَ لَطِيفَةً رَقِيقَةً وَأَتَى بِهَا مَنْزِلَهُ فَأَحْسَنَ إِلَيْهَا وَكَسَاهَا وَأَنَسَهَا وَعَرَّفَهَا خَبْرَهُ وَقَالَ لَهَا :
 إِنِ أَوْصَلْتَ لِي رُقْعَةً إِلَى كَلِّمَ فَقَرَأْتُهَا فَأَنْتِ حَرَّةٌ وَلِكِ مَعِيشَتِكَ مَا بَقِيَتْ ؛ فقالت : اكَتُبْ لِي
 مَكْتَابَةً^(٣) وَأَكْتُبْ حَاجَتَكَ فِي آخِرِهَا ، ففعل ذلك ، فأخذتها ومضتُ بها إلى بابِ كَلِّمَ
 فَاسْتَأذِنَتْ فَخَرَجَتْ إِلَيْهَا أُمَّةٌ لَهَا فَسَأَلَتْهَا عَنْ أَمْرِهَا ؛ فقالت : مَكْتَابَةٌ لِبَعْضِ أَهْلِ مَوْلَانِكَ
 جِئْتُ أُسْتَعِينُهَا فِي مَكَاتِبِي ، وَحَادِثُهَا وَنَاشِدُهَا حَتَّى مَلَأْتُ قَلْبَهَا ، فَدَخَلْتُ إِلَى كَلِّمَ وَقَالَتْ :
 إِنِ بِالْبَابِ مَكْتَابَةٌ لَمْ أَرَقُطُ أَجْمَلَ مِنْهَا وَلَا أَكَلَ وَلَا آدَبَ ؛ فقالت : ائْذِنِي لَهَا ، فَدَخَلَتْ ،
 فقالت : مَنْ كَاتِبِكَ ؟ قالت : عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْفَاسِقُ ! فَاقْرَأْنِي مَكَاتِبِي ، فَدَتَتْ يَدَهَا
 لِتَأْخُذَهَا فقالت لَهَا : لِي عَلَيْكَ عَهْدُ اللَّهِ أَنْ تَقْرَأِيهَا ، فَإِنْ كَانَ مِنْكَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا أُحِبُّهُ وَإِلَّا
 لَمْ يَلْحَقْنِي مِنْكَ مَكْرُوهٌ ؛ فَعَاهَدْتُهَا وَفَطِنْتُ وَأَعْطَيْتُهَا الْكِتَابَ ، فَإِذَا أَوْلُهُ :

مِنْ عَاشِقٍ صَبَّ يُسِرُّ الْهُوَى * قَدْ شَفَّهَ الْوَجْدُ إِلَى كَلِّمَ
 رَأَتْكَ عَيْنِي فِدَاعِي الْهُوَى * إِلَيْكَ لِلْحَيْنِ وَلَمْ أَعْلَمَ

(١) الأخشب : مفرد الأخشين وهما جبلان بمكة أحدهما أبوقبیس والآخر قعيقعان ، ويقال : هما أبوقبیس
 والجبل الأحمر المشرف هنالك ، وقد تفرد هذه التثنية فيقال لكل واحد منهما : الأخشب ، قال ساعدة بن جؤية .
 ومقامهن إذا حبسن بمأزم * ضيق ألف وصدهن الأخشب
 (٢) في غلواء عيش : في أنضره وأرغده . (٣) المكاتبه : أن يكتب الرجل عبده على مال يؤدیه إليه منجما
 (مقسطا) فإذا آذاه صار حرا ، وسميت كذلك لأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ، ومولاه يكتب له عليه عتقه .

قَتَلْتِنَا ، يَا حَبِّذَا أَنْتُمْ * فِي غَيْرِ مَا جُرِّمَ وَلَا مَأْتُمْ
 وَاللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي وَحْيِهِ * مَبِينًا فِي آيَةِ الْمُحْكَمِ
 مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَذَا ظَالِمًا * وَلَمْ يَقْدَحْهَا نَفْسَهُ يَظْلَمُ
 وَأَنْتِ ثَأْرِي فَتَلَاقِي دَمِي * ثُمَّ أَجْعَلِيهِ نِعْمَةً تُنْعِمِي
 وَحَكْمِي عَدْلًا يَكُنْ بَيْنَنَا * أَوْ أَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا فَأَحْكُمِي
 وَجَالِسِي مَجْلِسًا وَاحِدًا * مِنْ غَيْرِ مَا عَارٍ وَلَا مُحَرَّمِ
 وَخَبْرِي مَا الَّذِي عِنْدَكُمْ * بِاللَّهِ فِي قَتْلِ أَمْرِي مُسَلِّمِ
 فلما قرأت الشعر قالت لها : إنه خداع مَلَقٌ وليس لما شكاه أصل ؛ قالت : يا مولاتي ،
 فما عليك من أمتحانه ؟ قالت : قد أدنيتُ له وما زال حتى ظفر بيغيته ! فقولي له : إذا كان
 المساء فليجلس في موضع كذا وكذا حتى يأتيه رسولي ؛ فأنصرفت الجارية فأخبرته فتأهب لها ،
 فلما جاء رسولها مضى معه حتى دخل إليها وقد تهيأت أجمل هيئة ، وزينت نفسها ومجلسها
 وجاست له من وراء ستر ، فسلم وجلس ، فتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني عنك
 يا فاسق ! ألسنت القائل :

هَلَّا أَرْعَوَيْتِ فَرَحِي صَبَا * صَدِيانَ لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبًا
 جَسَمَ الزَّيَارَةِ فِي مَوَدَّتِكُمْ * وَأَرَادَ أَلَّا تُرْهِقِي ذَنْبًا
 وَرَجَا مُصَالِحَةً فَكَانَ لَكُمْ * سَلَمًا وَكُنْتَ تَرِيْنَهُ حَرْبًا
 يَا أَيُّهَا الْمُصْفِي مَوَدَّتِهِ * مَنْ لَا يَرَاكَ مُسَامِيًا خُطْبًا^(١)
 لَا تَجْعَلَنَّ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا * أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَبًّا
 وَصِلِ الْحَبِيبَ إِذَا شُغِفْتَ بِهِ * وَأَطْوِ الزَّيَارَةَ دُونَهُ غَيْبًا
 فَلِذَلِكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاطَبَةٍ * لَيْسَتْ تَزِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبًا
 لَا بِلِ يَمْلُكَ عِنْدَ دَعْوَتِهِ * فَيَقُولُ هَاهُ وَطَالَمَا لَبِي^(٢)

(١) الخطب : الخاطب . (٢) وهاه : كلمة وعيد ، وحرك لضرورة الشعر وقد روى البيت في ديوانه :

لا بل يملك ثم تدعو باسمه * فيقول هاه وطالما لبي

ورأى عمرُ لُبَّابَةَ بنتَ عبدِ الله بنِ العباسِ امرأةَ الوليدِ بنِ عُتبَةَ بنِ أبي سفيانٍ تطوفُ بالبيتِ فرأى أحسنَ خلقِ الله ، فكاد عقله يذهب ، فسأل عنها فأخبر بنسبها ، فنسب بها وقال فيها :

وَدَعُ لُبَّابَةَ قَبْلَ أَنْ تَتَرَحَّلَا * وَاسْأَلْ فَإِنَّ قُلَّالَهُ أَنْ تَسْأَلَا
إِلْبَثَ بَعْمَرِكَ سَاعَةً وَتَأَنَّىهَا * فَعَلَلَّ مَا بَجَلَتْ بِهِ أَنْ يُسَدَّلَا
قَالَ أَتَمَّرَ مَا شَتَّتَ غَيْرَ مُخَالِفٍ * فِيهَا هَوَيْتَ فَإِنَّا لَنْ نَعْجَلَا
لَسْنَا نُبَالِي حِينَ تَقْضِي حَاجَةً * مَا بَاتَ أَوْ ظَلَّ الْمِطْيَ مُعَقَّلَا
حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ ظَلَامُهُ * وَرَقَبْتُ غَفْلَةَ كَأَشِيحٍ أَنْ يَحْجَلَا
خَرَجْتُ تَأْطُرُ فِي الثِّيَابِ كَأَنَّهَا * أَيْمٌ يَسِيبُ عَلَى كَثِيبٍ أَهْيَلَا
رَحَبْتُ حِينَ رَأَيْتَهَا فَتَبَسَّمَتْ * لَتَحْتِي لَمَّا رَأَيْتَنِي مُقْبِلَا
وَجَلَّ الْفِنَاعُ سَحَابَةً مَشْهُورَةً * غَرَاءَ تُعْشِي الطَّرْفَ أَنْ يَتَأَمَّلَا
فَلَبْتُ أَرْقِيهَا بِمَا لَوْ عَاقِلٌ * يُرْقِي بِهِ مَا أَسْطَاعَ إِلَّا يَنْزَلَا

وَحَجَّتْ رَمْلَةً بَدَتْ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ خَلِيفِ الْخَزَاعِيَّةِ فَقَالَ فِيهَا :

أَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي الْجِبَالِ رَهِينًا * مُقْصَدًا يَوْمَ فَارَقَ الظَّاعِنِينَ
عَجَلْتُ حَمَّةَ الْفِرَاقِ عَلَيْنَا * بَرَحِيلٍ وَلَمْ نَخْفِ أَنْ تَبِينَا
لَمْ يَرْعُنِي إِلَّا الْفِتَاءُ وَإِلَّا * دَمْعُهَا فِي الرِّدَاءِ سَحَابًا سَنِينًا
وَلَقَدْ قَلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا * قَبْلَ وَشِكِّ مِنْ بَيْنِكُمْ نَوَلِينَا
أَنْتِ أَهْوَى الْعِبَادِ قُرْبًا وَدَلًّا * لَوْ تُنِيلِينَ عَاشِقًا مَحْزُونًا
قَادَهُ الطَّرْفُ يَوْمَ مَرَّ إِلَى الْحِيَا * مِنْ جِهَارًا وَلَمْ يَخْفِ أَنْ يَحِينَا

(١) القلال كغراب وسحاب : القليل . (٢) اتمر ما شئت : افعل ما شئت فإننا لانعصى لك أمرا .
(٣) تأطر : محذوفة إحدى تاءيه ، أى تنثني . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الوعل
يعقل عقولا : امتنع في الجبل ، وبه سمي الوعل عاقلا على حد التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إنما هو كجارح
الأرؤى قليلا ما يرى » . والأرؤى : جمع أروية وهي تيوس الجبل البرية .

فاذا نعمةً تراعى نِعاباً * ومهًا بهج المناظر عيناً
 قلتُ من أتمُّ فصدت وقالت * أميدٌ سؤالك العالمينا
 قلتُ بالله ذى الجلالة لما * أن تبلى الفؤاد أن تصدقينا
 أى من تجمع المواسم قولى * وأبني لنا ولا تكتمينا
 نحن من ساكنى العراق وكما * قبيله قاطنين مكة حيناً
 قد صدقناك إذ سألت فمن أن * ست عسى أن يجر شأن شؤونا
 ونرى أننا عرفناك بالنعم * يت بطن وما قتلنا يقينا
 بسمواد الثيبين ونعت * قد نراه لناظرٍ مستبيناً

وقال فى الثريا وقد صرّمته :

من رسولى إلى الثريا فإنى * ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب
 سلبتى مجاجة المسك عقلى * فسألوها ماذا أحلّ اغتصابى
 وهى مكنونةٌ تحير منها * فى أديم الخدين ماء الشباب
 أبرزوها مثل المهامة تهادى * بين خميس كواعب أتراب
 ثم قالوا تُجها قلت بهراً * عدد القطر والحصى والتراب
 أزهدت أم نوفل إذ دعته * مهجتي ، ما لِقائى من متاب
 حين قالت لها أجيبي فقالت * من دعاني قالت أبو الخطّاب
 فاستجابت عند الدعاء كما لى * رجالٌ يرجون حسن الثواب

(١) قال فى اللسان مادة بذب بعد أن أورد هذا الشطر : « معناه أمقسم أنت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى تعمهم » . من البداد وهو أن يبد المال القوم فيقسم بينهم ، وأبدهم المال والعتاء : فرقه فيهم ، والمراد : لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : « أنت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك منه بذب » ، والمراد : أنت ملزمتنا الإجابة عن سؤالك ! إننا لانجيبك . (٢) مجاجة المسك ، يريد بذلك وصفها بطيب ريقها وبأنه كالمسك . (٣) تهادى ، يريد يهدى بعضها بعضا فى مثنيتها (الكامل للبرد طبع لبيزج ص ٣٧٩) . (٤) فى الكامل للبرد طبع لبيزج ص ٣٧٩ : أزهدت : أبطلت وأذهبت قال الله عز وجل : (فيدمغه فإذا هو زاهق) هـ . يريد : أذهبت أم نوفل نفسى إذ دعت الثريا لوصالى فلم تجبها .

ومن شعره :

كُتِبَتْ إِلَيْكَ مِنْ بَلَدِي * كِتَابٌ مُؤَلَّهٌ كَمِيدٍ
 كَيْبٍ وَأَكْفِ الْعَيْنِ (١) * مِنْ بِالْحَمَرَاتِ مَنْفَرِدِ
 يُورِقُهُ لَهَيْبُ الشَّو * قِي بَيْنَ السَّحْرِ وَالْكَدِ (٢)
 فِيمَسِكَ قَلْبَهُ بِيَدٍ * وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدٍ

لما تزوج سهيل بن عبد العزيز الثريا ونقلها الى الشام، بلغ عمر بن أبي ربيعة الخبر، فأتى المنزل الذي كانت الثريا تنزله، فوجدها قد رحلت منه يومئذ، فخرج في أثرها فلحقها على مرحلتين، وكانت قبل ذلك مهاجرة لأمر أنكرته عليه، فلما أدركهم نزل عن فرسه ودفعه الى غلامه ومشي متنكرا حتى مر بالخيمة، فعرفته الثريا وأثبتت حركته ومشيته، فقالت لحاضنتها: كلميه، فسلمت عليه وسأته عن حاله وعاتبته على ما بلغ الثريا عنه، فاعتذر وبكى، فبكت الثريا، فقالت: ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل، فحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودعها وبكى طويلا، وقام فركب فرسه ووقف ينظر اليهم وهم يرحلون، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا، وأثنا يقول:

يا صاحبي فقا نسخت خير الطللا * عن حال من حاله بالأيس ما فعلا
 فقال لي الرقع لما أن وقفت به * إن الخليط أجده بين فاحتملا (٣)
 وخادعتك النوى حتى رأيتهم * في الفجر يحث حادي عيسهم زجلا (٤)

- (١) يقال: وكفت العين: سالت دموعها. (٢) السحر: الرثة.
 (٣) أى عرفتهما حق المعرفة. (٤) لحاضنتها: لمربتها. (٥) يرحلون يشدون على إبلهم
 الرحال. (٦) أجده بين: اعترهه. (٧) احتمل: ارتحل. (٨) النوى: الفراق
 والبعده. ويحث: يسوق. وزجلا: رافعا صوته في حذاء الإبل لتسرع في السير، وأصل الزجل الجلبة ورفع
 الصوت وخص به التطريب، وأشد سبويه في وصف حمار وحش:

له زجل كأنه صوت حاد * اذا طلب الوسيقة أو زمير

وذكره في باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة، وهى هنا حذف الواو المبدية لحركة الهاء في قوله: كأنه.
 والوسيقة: أثناء التي يضمها ويجمعها، من وسقت الشيء: جمعته.

لما وقفنا نحيمهم وقد صرخت * هواتف البين وأستوات بهم أصلا^(١)
 صددت بعدا وقالتي لتي معها * بالله لومييه في بعض الذي فعلا
 وحديثيه بما حدثت وأسمعي * ماذا يقول ولا تعبي به جدلا^(٢)
 حتى يرى أنت ما قال الوشاة له * فينا لديه إلينا كله نقلا
 وعرفيه به كالهزل وأحتفظي * في بعض معتبة أن تغضبي الرجال
 فإن عهدي به والله يحفظه * وإن أتى الذنب ممن يكره العدا
 لو عندنا أغيب أو نيت نقيصته * ما أب معتابه من عندنا جدلا
 قلت اسمعي فلقد أبلغت في لطف^(٣) * وليس يخفى على ذى اللب من هزلا
 هذا أرادت به مجالا لأعزرها * وقد أرى أنها لن تعدم العلالا
 ما سمي القلب إلا من تقلبه * ولا الفؤاد فؤادا غير أن عقلا^(٤)
 أما الحديث الذي قالت أتيت به * فما عبات به إذ جاءني حولا
 ما إن أطعت بها بالغيب قد علمت * مقالة الكاشع الواشي إذا محلا
 إنى لأرجعه فيها بسخطته * وقد يرى أنه قد غرني زلا
 وهي قصيدة طويلة مذكورة في شعره .

(١) في ديوانه :

لما وقفنا نحيمهم وقد شحطت * نعامه البين فاستولت بهم أصلا
 وشحطت نعامه البين : ارتحلوا وترفهم البين ، وفي اللسان مادة نعم وشال : يقال للقوم إذا ارتحلوا عن منزلهم
 أو تفرقوا : قد خفت نعامتهم وشالت نعامتهم ، والأصل : جمع أصيل وهو العشي وقيل هو مفرد ، أشد ثعلب :
 وتمذرت نفسى لذلك ولم أزل * بدلا نهاري كله حتى الأصل
 فقوله : بدلا نهاري له ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تعبي به جدلا : لا تعجزى في مجادلتك .
 (٣) اللطف لغة في اللطف . (٤) قال في اللسان : والتفؤد : التوقد ، والفؤاد : القلب لتفؤده
 وتوقده . وقال في القاموس وشرحه : والتفؤد : التحرق والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب ، لأن عقل الفؤاد للعلومات
 نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وجولته فيها حتى يحصها ، ويميز الصحيح من الفاسد والحق من الباطل .

وله :

هل تعرف الدار والأطلال والدمنا * زدت الفؤاد على علاته حزنا^(١)
 دار لأسماء قد كانت تحل بها * وأنت إذ ذاك قد كانت لكم وطنا
 لم يحب القلب شيئا مثل حبكم * ولم تر العين شيئا بعدكم حسنا
 ما إن أبالي أدام الله قربكم * من كان شط من الأحياء أو طعنا
 فإن نأيتهم أصاب القلب نأيتكم * وإن دنت داركم كنتم لنا سكنا
 إن تجللى لا يسئل القلب بجلكم * وإن تجودى فقد عنتني زما
 أمسى الفؤاد بكم ياهند مرتهنا * وأنت كذت الهوى والهّم والوسنا
 إذ تستيبك بمصقول عوارضه * ومقلتي جؤذري لم يعد أن شدنا

وقال :

أعبد ما ينسى مودتك القلب * ولا هو يسليه رخاء ولا كرب
 ولا قول وإش كاشح ذى عداوة * ولا بعد دار إن نأيت ولا قرب
 وما ذاك من نعمي لديك أصابها * وليكن حبا ما يقاربه حب
 فإن تقبلي يا عبد توبة تائب * يتب ثم لا يوجد له أبدا ذنب
 أذل لكم يا عبد فيما هويتهم * وإني إذا ما رامني غيركم صعب
 وأعدل نفسي في الهوى فتعوقني * ويأصرنى قلب بكم كلف صب
 وفي الصبر عمن لا يؤاتيك راحة * ولكنّه لا صبر عندي ولا لب
 وعبد بيضاء المحار طفلة * منعمة تصبي الحليم وما تصبو
 قطوف من الحور الأوانس بالضحى * متى تمش قيس الباع من بهرها ترو
 فلست بناس يوم قالت لأربع * نواعم غم كلهن لها ترب
 ألا ليت شعري فيم كان صدوده * أعلق أخرى ! أم على به عتب

(١) كذا في ديوانه وفي الأغانى ج ١ ص ٢٧٩ « على ما عنده » .

وقال :

إِنَّ طَيْفَ الْخَيْالِ حِينَ الْمَنَّا * هَاجَ لِي ذُكْرَةٌ وَأَحَدَتْ هَمًّا
 جَدِّدِي الْوَصْلَ بِاسْكِينٍ وَجُودِي * لِحُبِّ رَحِيلِهِ قَدْ أَحَمَّا
 لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا * أَنْ يَرُدُّوا حِمْلَهُمْ فَنَتَمَّا
 وَلَقَدْ قَلْتُ مُحْفِيًّا لَغَرِيضٍ * هَلْ تَرَى ذَلِكَ الْغَزَالَ الْأَحَمَّا
 هَلْ تَرَى فَوْقَهُ مِنَ النَّاسِ شَخْصًا * أَحْسَنَ الْيَوْمِ صُورَةً وَأَمَمَّا
 إِنْ تَيْسَلِي أَعْشَ بِجَيْرٍ وَإِنْ لَمْ * تَبْدُلِي الْوَدَّ مَتَّ بِالْهَمِّ غَمًّا

وله أيضا :

أَيَا مَنْ كَانَ لِي بَصْرًا وَسَمْعًا * وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنْ بَصْرِي وَسَمْعِي
 وَعَمَّنْ حِينَ يَذْكُرُهُ فُؤَادِي * يَفِيضُ كَمَا يَفِيضُ الْغَرْبُ دَمْعِي
 يَقُولُ الْعَادِلُونَ نَأَتْ فَدَعَهَا * وَذَلِكَ حِينَ تَهَيَّأِي وَوَلَّعِي
 أَا أَهْجَرَهَا فَأَقْعُدَ لَا أَرَاهَا * وَأَقْطَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِقَطْعِي
 وَأَصْرِمُ حَبْلَهَا لِمَقَالٍ وَأَشِ * وَأَجْعَلُهَا وَمَا هَمَّتْ بِفَجْعِي
 وَأَقْسِمُ لَوْ خَلَوْتُ بِهِجْرٍ هِنْدٍ * لَصَاقَ بِهِجْرِهَا فِي النَّوْمِ دَرْعِي

وهو القائل :

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مَدَّ عَرَفْتَكُمْ * أَنْ الْمَضَاجِعَ تُسَمِّي تَنْبِتُ الْإِبْرَا
 لَقَدْ شَقِيْتُ وَكَانَ الْحَيْنُ لِي سَبَبًا * أَنْ عَلَّقَ الْقَلْبَ قَلْبًا يُسْبِهُ الْمَجْرَا
 قَدْ لَمْتُ قَلْبِي فَأَعْيَانِي بِوَاحِدَةٍ * وَقَالَ لِي لَا تَلْمَنِي وَأَدْفَعِ الْقَدْرَا
 إِنْ أَكْرَهَ الطَّرْفُ يَحْسَرُ دُونَ غَيْرِكُمْ * وَلَسْتُ أَحْسِنُ إِلَّا نَحْوَكِ النَّظْرَا
 قَالُوا صَبَوْتَ فَلَمْ أَكْذِبْ مَقَالَتَهُمْ * وَلَيْسَ يَنْسَى الصَّبَا إِنْ وَالَهُ كَبْرَا

(١) الحين : المحنة .

وقال أيضا :

أَلَا لَيْتَ قَبْرِي يَوْمَ تُقْضَى مَنِّي * بتاك التي من بين عَيْنَيْكَ والقم
وَلَيْتَ طَهُورِي كَانَ رِيْقِكَ كُفَّةً * وليت حَنُوطِي من مُشَاشِكَ والدم
أَلَا لَيْتَ أُمُّ الْفَضْلِ كَانَتْ قَرِينَتِي * هُنَا أَوْ هُنَا فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمَ

نظر عمر بن أبي ربيعة في الطواف الى امرأة شريفة فرأى أحسن خلق الله صورةً،
فذهب عقله عليها وكلّمها فلم يُجِبْه، فقال فيها :

الرَّيْحُ تَسْحَبُ أَذْيَالًا وَتَشْرَهُهَا * ياليتني كنت ممن تَسْحَبُ الرِّيحُ
كَمَا تَجْرُبُنَا ذِيلاً فَطَرَحْنَا * على التي دونها مغبرة سوح^(٢) (٣)
أَنِّي بَقْسِرِيكُمْ أُمُّ كَيْفَ لِي بِكُمْ * هِيَهَاتَ ذَلِكَ مَا أَمَسَّتْ لَنَا رُوحُ
فَلَيْتَ ضِعْفَ الَّذِي أَلْقَى يَكُونُ بِهَا * بل لَيْتَ ضِعْفَ الَّذِي أَلْقَى تَبَارِيحُ^(٤)
إِحْدَى بُنْيَاتٍ عَمِّي دُونَ مَنزِلِهَا * أَرْضُ بَقِيَعَاتِهَا الْقَيْصُومُ وَالشَّيْحُ^(٥)

فبلغها شعره فجَزَعَتْ منه، فقيل لها: اذكريه لزوجهك، فإنه سينكر عليه قوله، فقالت:
كَلَّا وَاللَّهِ لَا أَشْكُوهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ، ثم قالت: اللهم إن كان نوه باسمي ظالمًا فاجعله طعامًا
للريح، فضرب الدهر من ضربه؛ ثم إنه غدا يوماً على فرس فهبت ريح فتزل فاستتر
بِسَامَةِ، فعصفت الريح فخدشه غصن منها، فدعى وورم به ومات من ذلك .

(١) هذا أحد الوجهين في الفعل الواقع بعد كذا: الرفع على أن ما كافة لها عن العمل، والنصب على أن
ما زائدة وكى عاملة فيما بعدها، وقد روى بالوجهين:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْفَعِ فَضْرًا فَإِنَّمَا * يرجى الفتى كما يضر وينفع

(٢) مغبرة، يريد بها الغلاة المجذبة . (٣) سوح: جمع ساحة وهي الفضاء . (٤) تباريح
الشوق: توجهه، قال السيد محمد مرتضى: قال شيخنا وهو من الجموع التي لا مفرد لها وقيل: مفردة تبريح
وأستعمله المحذوثون وليس بثبت . (٥) قال في اللسان: القيصوم: ما طال من العشب، ثم قال:
والقيصوم من نبات السهل قال أبو حنيفة: القيصوم من الذكور ومن الأمراء وهو طيب الرائحة من رياحين البر
وورقه هذب وله نورة صفراء وهي تنهض على ساق وتطول .

(ب) الغزل العذري

(١)
جميـل

قال نُصَيْبُ مولى عبد العزيز بن مروان: قَدِمْتُ المَدِينَةَ فسألتُ عن أهلها بالشعر، فقيل لي: الوليد بن سعيد الأشجعي، فوجدته بسُعب سَلَع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر، فإنا جلوس إذ طلع علينا رجل طويل بين المتكئين يقود راحلةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة، وكان شاعرا فصيحاً مقدّماً جامعاً للشعر والرواية. اشتهر بحبه بشيئة ابنة عمه، ولذلك عرف بجميل بشيئة، وكانا بعيان في وادي القرى، وكان أول عهده بها وهي صغيرة. ومن أوائل نظمها فيها قوله:

وأول ما قاد المودّة بيننا * بوادي بغيض يا بشين سباب

وقلت لها قولاً بجاهت بمثله * لكل كلام يا بشين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. وأتفق مرة أن توبة بن الحمير صاحب ليلي مر ببنى عذرة فرأته بشيئة فجعلت تنظر إليه وجميل حاضر فنارت الغيرة في قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحمير، قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك، فأعطته بشيئة ملاءة حراء فأتررها، ثم صارعه فصرعه جميل. ثم قال: هل لك في النضال؟ قال: نعم، ففاضله فضله جميل. ثم قال: هل لك في السباق؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تفعل ذلك بريح الجلوسة، ولكن اهبط بنا الوادي، فهبط، فصرعه توبة ونضله وسبقه.

وكان عند بشيئة مثل ما عند جميل، ولما رأت مناضلته عنها زادت شغفا به، ولكنهما لم يكونا يجتمعان إلا خلسة على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رميه بريية. وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، ففتر إلى اليمن حتى عزل العامل. وانجبع أهل بشيئة الشام، فرحل جميل إليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فعنفه أهله وهددوه، فانقطع عنها، وأخيراً لجأ إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته، ومرض هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المتكئين جميل الخلق حسن البزة، توفي سنة ٨٢ هـ.

وجميل ديوان شعر كبير كان مشهوراً في أيام ابن خلكان ولم تقف على خبره، ولكن منه أشعاراً مجموعة في كتاب

منه نسخة خطية في مكتبة برلين.

أنظر الكلام على جميل في الأغاني ج ٧ ص ٧٧ وج ١ ص ٨٠ وابن خلكان ج ١ ص ١١٥ ونزارة

الأدب ج ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها بزة حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزره: يا أبا حَبْرَة، هذا جميل فادعه لعله يُنشدنا؛ فصاح به عبد الرحمن: هيا جميل؛ فالتفت فقال: من هذا؟ فقال: أنا عبد الرحمن بن أزره؛ فقال: قد علمت أنه لا يجترئ على إلا مثلك، فأتاه، فقال له: أنشدنا؛ فأشدهم:

ونحن منعنا يوم أول نساءنا * ويوم أفي والأسنة ترعف^(١)
يحب الغواني البيض ظل لوائنا * إذا ما أتانا الصارخ المتلهف
نسير أمام الناس والناس خلفنا * فإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
فأي معد كان في رماحه * كما قد أفأنا والمنفاخر يئصف
وكنا إذا ما معشر نصبوا لنا * ومررت جوارى طيرهم وتعيفوا^(٢)
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة * بما سوف نوفيها إذا الناس طففوا^(٣)
إذا استبق الأقبام مجدا وجدنا * لنا معرفا مجدا وللناس معرف

ثم قال له: أنشدنا هزجا؛ قال: وما الهزج؟ لعله القصير! قال: نعم، فأشده:

رسم دارٍ وقفت في طلله * كدت أفضى الحياة من جلله^(٤)
موحشا ما ترى به أحدا * تنسج الريح ترب معتدله
وصريعا بين الثمام ترقى * عازفات المدب في أسله
بين علياء رائش فبلى * فالغميم الذي إلى جبهه
واقفا في ديار أم جسير * من ضحى يومه إلى أصله
يا خليلي إن أم جسير * حين يدنو الضجيج من غلله^(٥)
روضة ذات حنوة وخرامى * جاد فيها الربيع من سبله^(٦)
بيننا نحن بالأراك معا * إذ بدا راكب على جماله

(١) ترعف: تقطر دما . (٢) تعيفوا: من العيافة، وهي زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فيسعد أو يتشاءم . . (٣) التطفف: نقص الكيل . (٤) من أجله .
(٥) الغلال: جمع غلة، وهي ما يتوارى فيه أو شعار تحت الثوب . (٦) السبل: المطر .

فَتَأَطَّرْتُ ثُمَّ قَلْتُ لَهَا * أَكْرَمِيهِ حَيْثُ فِي نَزْلِهِ
 فَظَلَمْنَا بِنِعْمَةٍ وَأَتَّكْنَا * وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَّةِ
 قَدْ أَصَوْنُ الْحَدِيثَ دُونَ أُحْج * لَا أَخَافُ الْأَذَاةَ مِنْ قِبَلِهِ
 غَيْرَ بَغِضٍ لَهُ وَلَا مَلِيقٍ * غَيْرَ أَنِّي أَتَّخْتُ مِنْ وَجْهِهِ
 وَخَلِيلَ صَافِيَتُ مَرْضِيَا * وَخَلِيلَ فَارَقْتُ مِنْ مَلَّةِ

ثم اقتاد راحلته موليا؛ فقال ابن الأزهري: هذا أشعر أهل الإسلام؛ فقال ابن حسان:
 نعم والله وأشعر أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه؛ فقال عبد الرحمن
 ابن الأزهري: صدقت.

قال محمد بن سَلَام: كان لكثير في النسب حظا وافر، وجميل مقدّم عليه وعلى
 أصحاب النسب في النسب، وكان جميل صادق الصّباة والعشق، ولم يكن كثير بعاشق
 ولكنه كان يتقول، وكان الناس يستحسنون بيت كثير في النسب؛ وهو:

أُرِيدُ لِأَنِّي ذَكَرَهَا فَكُنَّا نَمَّا * تَمَثَّلُ لِي لِيَسْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ

ورأيت من يفضل عليه بيت جميل:

خَلِيلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا * قَتِيلًا بَكِي مِنْ حَبِّ قَاتَلِهِ قَبْلِي

قيل إن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا في بعض المواضع، فأتى لوعدها، وجاء أعرابي
 يستضيف القوم، فأنزاه وقرّوه، فقال لهم: قد رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين
 متوارين في الشجر وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إلبكم، فعرفوا أنه جميل وصاحباه،
 فخرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده، فلما أسفر له الصبح انصرف كئيبا سيئ الظن بها
 ورجع إلى أهله؛ فجعل نساء الحى يقرّعنه بذلك ويقولن له: إنما حصلت منها على الباطل
 والكذب والغدر، وغيرها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظى بها؛ فقال في ذلك:

فَأَجِبْهَا بِالْقَوْلِ بَعْدَ تَسْتُرٍ * حَتَّى بَيِّنَةَ عَنْ وِصَالِكَ شَاغِلِي
 أُبَيِّنُ إِنَّكَ قَدْ مَلَكَتِ فَأَسْبِغِي ^(١) * وَخُذِي بِحِطِّكَ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلِ
 فَلَرَبِّ عَارِضَةٍ عَلَيْنَا وَصَلْهَا * بِالْحَدِّ تَحِطُّهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ
 لَوْ كَانَ فِي صَدْرِي كَقَدْرِ قُلَامَةٍ * فَضْلًا وَصَلَّتِكَ أَوْ أَنْتِكَ رَسَائِلِي
 وَيَقْلُنُ إِنَّكَ قَدْ رَضَيْتَ بِبَاطِلٍ * مِنْهَا فَهَلْ لَكَ فِي اجْتِنَابِ الْبَاطِلِ
 لِيُرْزَنَ عَنْكَ هَوَايَ ثُمَّ يَصِلْنِي * وَإِذَا هَوَيْتُ فَمَا هَوَايَ بَزَائِلِ
 صَادَتْ فَوَادِي يَا بُتَيْنِ جِبَالِكُمْ * يَوْمَ الْمُجُونِ وَأَخْطَأْتِكِ جِبَائِلِي
 مَتَيْتَنِي فَلَوَيْتَ مَا مَتَيْتَنِي * وَجَعَلْتِ عَاجِلَ مَا وَعَدْتِ كَاجِلِ
 وَتَفَاقَلْتُ لَمَّا رَأَتْ كَلْفِي بِهَا * أَحْبَبْتُ إِلَيَّ بِذَلِكَ مِنْ مَتَفَاقِلِ
 وَأَطَعْتِ فِي عَوَازِلًا فَهَجَرْتَنِي * وَعَصَيْتُ فَيْكَ وَقَدْ جَهَدْتِ عَوَازِلِي
 حَاوَلْتَنِي لِأُبْتُ حَبْلَ وَصَالِكُمْ * مَنِي وَلَسْتُ وَإِنْ جَهَدْتِ بِفَاعِلِ
 فَرَدَدْتُهُنَّ وَقَدْ سَعَيْنَ بِهَجْرِكُمْ * لَمَّا سَعَيْنَ لَهُ بِأَفُوقِ نَاصِلِ ^(٢)
 يَعْضَضُنْ مِنْ غِيْظِ عَلِيٍّ أَنَامَلًا * وَوَدِدْتُ لَوْ يَعْضَضُنْ صَمَّ جَنَادِلِ
 وَيَقْلُنُ إِنَّكَ يَا بُتَيْنِ بِخَيْلَةٍ * نَفْسِي فِدَاؤِكَ مِنْ ضَمِينِ بَاخِلِ

وقال جميل في وعد بئينة بالتلاقي وتأخرها قصيدة أولها :

يَا صَاحِبَ عَنِ بَعْضِ الْمَلَامَةِ أَفْصِرُ * إِنْ الْمُنَى لِلِقَاءِ أُمَّ الْمِسُورِ

ومنها :

وَكَأَنَّ طَارِقَهَا عَلَى عِلَلِ الْكَرَى * وَالنَّجْمُ وَهَنًا قَدْ دَنَا لِمَتَغَوَّرِ
 يَسْتَأْفُ رِيحَ مَدَامَةٍ مَعْجُونَةٍ * بِذِكْرِ مَسَاكِ أَوْ سَحِيْقِ الْعَنْبَرِ ^(٣)

(١) أسبغى : أحسن العفو . (٢) الأفوق : السهم الذي كسر فوقه ، وهو مشق رأس السهم حيث

يقع الوتر . وناصل : لا نصل فيه . (٣) يستاف : يشم .

ومنها :

إِنِّي لِأَحْفَظُ غَيْبَكُمْ وَيُسْرَتِي * اذ تذكركم بصالح أن تذكري
ويكون يومٌ لا أرى لكِ مُرْسَلًا * أو نلتقي فيه على كاشهر
يا ليتني ألقى المنيةَ بعتةً * إن كان يومٌ لقائكم لم يُقَدِّر
أو أستطيع تجلُّداً عن ذكركم * فيفنيق بعض صبابتي وتفكرى

وفيه يقول :

لو قد نُجِّنَ كما أُجِّنَ من الهوى * لعذرت أو لظلمت إن لم تعذر
والله ما للقلب من علمٍ بها * غير الظنون وغير قول المخبر
لا تحسبي أني هجرتك طائعاً * حدث لعمرِك رائع أن تُهجري
فلتبكين البايات وإن أُجِّعُ * يوما بسرِّك مُعلِّنا لم أُعذر
يهواك ما عشتُ الفؤادُ فإن أمت * يتبع صدأى صدك بين الأقبُر
إني إليك بما وعدت لناظرٌ * نظَّر الفقير إلى الغنى المُكثِر
يعد الديونَ وليس يُنجز موعداً * هذا الغريمُ لنا وليس بمعسر
ما أنتِ والوعد الذي تعدينتي * إلا كبرقٍ سخابةٍ لم تُمطر
قلبي نصحتُ له فردّ نصيحتي * فتى هجرتيه فإنه تكثري

وقال في إخلافها إياه هذا الموعد :

ألا ليت ريعانَ الشبابِ جديداً * ودهراً تولى يا بُشَيْن يعودُ
فَنَغْنَى كما كنا نكونُ وأنتمُ * قريبٌ واذ ما تبدُّلين زهيدُ
وما أنسَ مِلاشياءٍ لا أنسَ قولها * وقد قربتِ نِضوى أمصرَ تريدُ
ولا قولها لولا العيونُ التي ترى * أتيتُك فاعذرني فدتك جودُ
خيلتي ما أخفي من الوجدِ ظاهرٌ * ودمعي بما قلتُ الغداةَ شهيدُ

(١) النضو : المهزول من الابل وغيرها .

أَلَا قَدْ أَرَىٰ وَاللَّهِ أَنَّ رَبَّ عِبْرَةٍ * إذا الدار شَطَّتْ بَيْنَنَا سَتْرِيَد
 إذا قَلْتُ مَا بِي يَا بَشِينَةَ قَاتِلِي * من الحَبِّ قَالَتْ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
 وَإِنْ قَلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ * مع النَّاسِ قَالَتْ ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
 فَلَا أَنَا مُرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا * وَلَا حُبُّهَا فِيهَا يَدِيدُ وَيَدِيدُ
 جَرَّتِكَ الْجَوَازِي يَا بَشِينَ مَلَامَةً * إذا مَا خَلِيلٌ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
 وَقَلْتُ لَهَا بِنْتِي وَبَيْنِكَ فَاعْلَمِي * من اللَّهِ مِيثَاقٌ لَهُ وَعَهْدُودُ
 وَقَدْ كَانَ حَيْكِمٌ طَرِيفًا وَتَالِدًا * وَمَا الحَبُّ إِلَّا طَارِفٌ وَتَلِيدُ
 وَإِنْ عَرَوْضُ الوَصْلِ بِنْتِي وَبَيْنَهَا * وَإِنْ سَهَلْتَهُ بِالْمَنَى لَصَعُودُ
 فَأَفْنَيْتُ عَيْشِي بِاتْتِظَارِي نَوَاهَا * وَأَبْلَيْتُ ذَاكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ
 فَلَيْتَ وُشَاةَ النَّاسِ بِنْتِي وَبَيْنَهَا * يَدُوفٌ لَهُمْ سَمًّا طَاطِمٌ سُودُ (٢)
 وَلَيْتَ لَهُمْ فِي كُلِّ مُسَى وَشَارِقٍ * تَضَاعَفُ أَكْبَالُ لَهُمْ وَقِيُودُ
 وَيَحْسَبُ نَسْوَانٌ مِنَ الجَهْلِ أَنِّي * إذا جِئْتُ إِيَّاهُنَّ كُنْتُ أُرِيدُ
 فَأَقْسِمُ طَرْفِي بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِي * وَفِي الصَّدْرِ بَوْتُ بِنْتِنِ بَعِيدُ
 أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً * بُوَادِي القُرَى إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ (٣)
 وَهَلْ أَهْيَطُنْ أَرْضًا تَنْظُلُ رِيَا حُهَا * لَهَا بِالثَّنَايَا القَاوِيَاتُ وَئِيدُ (٤)
 وَهَلْ أَلْقَيْنَ سَعْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً * وَمَا رَثَّ مِنْ حَبْلِ الصَّفَاءِ جَدِيدُ
 وَقَدْ تَلْتَقَى الأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَأْسَةٍ * وَقَدْ تَطَلَّبُ الحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ (٥)
 وَهَلْ أَزْجُرُنَّ حَرْفًا عِلَاةً شِمْلَةً * بِحَرْقِ تَبَارِيهَا سَوَاهِمُ قُودُ
 عَلَى ظَهْرِ مَرْهُوبٍ كَأَنَّ نَشُورَهُ * إذا جَازَ هَلَاكُ الطَّرِيقِ رُقُودُ

(١) العروض : الطريق في عرض الجبل في مضيق ، يريد الطريق الى وصلها . (٢) يدوف :

يخلط . وطاطم : جمع ططم وهو من في لسانه بحمة ، وأراد بالطاطم هنا : المولى . (٣) القاويات :

الخاليات . (٤) الوئيد : الصوت العالى الشديد . (٥) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة . والعلادة :

المشرفة الصلبة . والشملة : السريعة . والحرق : الأرض الواسعة . والساهمة : الناقة الضامرة .

سَبَّتَنِي بِعَيْنِي جُوذِرٍ وَسَطَ رَبِّبٍ * وصدر كفاثور اللجين وجميد^(٢)
 تَرِيفٌ كَمَا زَاغَتْ إِلَى سَلِيفَاتِهَا * مُبَاهِيَةً طَيًّا الْوِشَاحِ مِيُودِ^(٣)
 إِذَا جَمَّهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا * تَعَرَّضَ مَنقُوضُ الْيَدَيْنِ صَدُودُ
 يَصْدُ وَيُغْضِي عَنْ هَوَايَ وَيَجْتَنِي * ذُنُوبًا عَلَيْهَا إِنَّهُ لَعُنُودُ
 فَأَصْرُمُهَا خَوْفًا كَأَنِّي مُجَانِبٌ * وَيَغْفُلُ عَنَّا مَرَّةً فَنَعُودُ
 فَمَنْ يُعْطَى فِي الدُّنْيَا قَرِينًا كَمَثَلِهَا * فَذَلِكَ فِي عَيْشِ الْحَيَاةِ رَشِيدُ
 يَمُوتُ الْهَوَى مَتَى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا * وَيَحْيَا إِذَا فَارَقَتْهَا فَيَعُودُ
 يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَعَزُوةً * وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
 لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ * وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ
 وَمَنْ كَانَ فِي حَبِيٍّ بَشِينَةً يَمْتَرِي * فَبِرَفَاءِ ذِي ضَالٍ عَلَى شَهِيدِ
 أَلَمْ تَعْلَمْ يَا أُمَّ ذِي الْوَدْعِ أَنِّي * أَضَاحِكُ ذَكَرًا كَمْ وَأَنْتِ صَالِدُ

بعثت أمة لبشينة الى أبيها وأخيها وقالت لهما: إن جميلا عندها الليلة، فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياه جالسا منها حجرة يحدتها^(٤) ويشكو لها بئنه، ثم قال لها: يا بشينة، أرايت ودي إياك وشغفي بك ألا تجزينيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحابين، فقالت له: يا جميل، أهذا تبغي! والله لقد كنت عندي بعيداً منه، ولئن عاودت تعريضا برية لا رأيت وجهي أبدا! فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمت أنك تجيبيني لعلمت أنك تجيبين غيري، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي، ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد، أو ما سمعت قولي:

وَإِنِّي لِأَرْضَى مِنْ بَشِينَةٍ بِالذِي * لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَاشِي لَقَرَّتْ بِلَائِلِهِ
 بَلَا وَبِأَلَا أَسْتَطِيعَ وَبِالْمُنَى * وَبِالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ قَدْ خَابَ أَمَلُهُ
 وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى وَبِالْحَوْلِ يَتَقَضَى * أَوْ أَوْأَاهُ لَا نَلْتَقَى وَأَوْأَاهُ

(١) الفائور: الخوان من رخام أوفضة أو ذهب . (٢) في البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروي

بالرفع والاسم . (٣) زاف: يتختر . (٤) أي ناحية .

فقال أبوها لأخيها : قم بنا ، فما ينبغي لنا بعد اليوم أن تمنع هذا الرجل من لقاءها ،
فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إنَّ المنازلَ هَيَّجَتْ أَطْرَابِي * وَأَسْتَعَجَمْتُ آيَاتَهَا بِجَوَابِي
قَفَرًا تَلُوحُ بِدِي الْجُبَيْنِ كَأَنَّهَا * أَنْضَاءُ رَسِيمٍ أَوْ سَطُورِ كِتَابِ
لَمَّا وَقَفْتُ بِهَا التَّلُوصَ تَبَادَرْتُ * مَنِي الدَّمُوعُ لِفُرْقَةِ الْأَحْبَابِ
وَذَكَرْتُ عَصْرًا يَا بَشِينَةَ شَاقِنِي * وَذَكَرْتُ أَيَّامِي وَشَرَخَ شَبَابِي

لما نذر أهل بئينة دم جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل ، فكان يصعد
بالليل على قوز رمل يتنسم الريح من نحو حى بئينة ويقول :

أَيَا رِيحِ الشَّمَالِ أَمَا تَرَيْنِي * أَهْمِيمٌ وَأُنْبَى بِأَدَى النِّحُولِ
هَبِي لِي نَسَمَةً مِنْ رِيحِ بَنِي * وَمَنِّي بِالْهَبُوبِ إِلَى جَمِيلِ
وَقَوْلِي يَا بَشِينَةَ حَسْبُ نَفْسِي * قَلِيلُكَ أَوْ أَقْلُ مِنْ الْقَلِيلِ

ومن قوله :

يَقِيكَ جَمِيلٌ كُلُّ سَوْءٍ أَمَّا لَهُ * لَدَيْكَ حَدِيثٌ أَوْ إِلَيْكَ رَسُولُ
وَقَدْ قُلْتُ فِي حُبِّي لَكُمْ وَصَبَابِي * مُحَاسِنَ شَعْرٍ ذَكَرْهُنَّ يَطُولُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِضَاكَ فَعَامِي * هَبُوبَ الصَّبَا يَابُنُّ كَيْفَ أَقُولُ
فَمَا غَابَ عَنِ عَيْنِي خِيَالُكَ لِحِظَةً * وَلَا زَالَ عَنْهَا وَالْخِيَالُ يَزُولُ

ومنه :

خَلِيلِي عُوَجَا الْيَوْمَ حَتَّى نُسَلِّمًا * عَلَى عَدْبَةِ الْأَنْيَابِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
أَلِمَّا بِهَا ثُمَّ اشْفَعَا لِي وَسَلِّمًا * عَلَيْهَا سَقَاهَا اللَّهُ مِنْ سَائِعِ الْقَطْرِ

(١) القوز : المستدير من الرمل ، وقال الأزهري : إنه الكتيب المشرف .

إذا مادنت زدتُ اشتياقاً وان نأتُ * جَزَعْتُ لِنَأَى الدارِ مِنْهَا وللبعد
أبى القلب إلا حَبَّ بثنة لم يرد * سواها وحبَّ القلب بثنة لا يجدى

وفيها يقول :

سلى الركب هل نُجِنَا لَمَغْنَاكِ مَرَّةً * صُدُورَ المَطَايَا وهى مُوقِرَةٌ تُحْدِي (١)
وهل فاضتِ العينُ الشُّرُوقُ بمائها * مِنْ أَجْلِكَ حَتَّى أَخْضَلَ مِنْ دَمْعِهَا بُرْدِي
وإني لَأَسْتَجِرِي لِكَ الطيرِ جَاهِدًا * لِتَجْرِي بِيَمِينِ مَنْ لِقَائِكَ أَوْ سَعْدِ
وإني لَأَسْتَبْكِي إِذَا الركبُ غَرَّدُوا * بِذِكْرِكَ أَنْ يَحْيَا بِكَ الركبُ إِذْ يُحْدِي
قهل تجرِي نِيَّ أُمَّ عَمْرٍو بَوْدَهَا * فَاتَّ الَّذِي أُخْفِيَ بِهَا فَوْقَ مَا أَبْدِي
وكلَّ محبٍّ لَمْ يَزِدْ فَوْقَ عَهْدِهِ * وَقَدْ زِدْتَهَا فِي الحَبِّ مَنِي عَلَى العَهْدِ

ومن قوله فيها :

لها في سواد القلب حبٌّ ومنعَةٌ * هِيَ المَوْتُ أَوْ كَادَتْ عَلَى المَوْتِ تُشْرِفُ
وما ذكركِ النفسُ يَا بِنْتُ مَرَّةً * مِنْ الدَّهْرِ إِلا كَادَتْ النَفْسُ تَتَلَفُ
وإلا اعترتني زَفْرَةٌ وَأَسْتَكَانَةٌ * وَجَادَ لَهَا سَجَلٌ مِنَ العَيْنِ يَدْرِفُ
وما استطرفت نفسي حديثاً نَحْلَةً * أُسْرُّ بِهِ إِلا حَدِيثُكَ أَطْرَفُ

وأول هذه القصيدة :

أَمِنْ مَنزِلٍ قَفَرٍ تَعَفَّتْ رِسُومُهُ * شَمَّالٌ تُغَادِيهِ وَنَجَاءٌ حَرْجَفُ (٢)
فأصبح قفراً بعد ما كان أهلاً * وَجَمَلٌ المُنَى تَشْتَوِي بِهِ وَتَصَيِّفُ
ظَلَمْتُ وَمُسْتَنٌّ مِنَ الدَّمْعِ هَامِلٌ * مِنْ العَيْنِ لَمَّا حُجْتُ بِالدارِ يَتْرِفُ
أُمْنِصْفِي جَمَلٌ فَتَعْدِلُ بَيْنَنَا * إِذَا حَكَمْتَ وَالْحَاكِمُ العَدْلُ يُنْصَفُ
تَعَلَّقْتُهَا وَالجِسْمُ مَنِي مَصْحَحٌ * فَمَا زَالَ يَنْمِي حَبُّ جَمَلٍ وَأَضْعَفُ

(١) موقرة : محملة الوقر وهو الحمل . وخدى البعير يخدى : أسرع وزج بقوامه .

(٢) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سَلَّ جسمي وشَفَّنِي * وأنكرتُ من نفسي الذي كنتُ أعرفُ
 قَنَاءَةً من المِزَانِ ما فوقَ حَقْوِهَا * وما تحتَه منها نَقًّا يتَقَصَّفُ^(٢)
 لها مُقَلَّتَا رِيمٍ وَجِيدُ جَدَايَةٍ * وكَشَحُّ كِطْيِ السَابِرِيَّةِ أَهْيَفُ^(٣)
 ولستُ بناسِ أهلِهَا حينَ أَقبَلُوا * وجالُوا علينا بالسيوفِ وطَوَّفُوا
 وقالوا جَمِيلٌ باتَ في الحَيِّ عِنْدَهَا * وقد جَرَدُوا أسيافَهُمْ ثم وَقَفُوا
 وفي البيتِ لَيْثُ الغَابِ لولا مَخَافَةٌ * على نفسِ جَمِيلٍ والإِلَهَ لَأرْعَفُوا
 هَمَمْتُ وقد كادتُ مراراً تَطَلَعْتُ * الى حربِهِم نفسِي وفي الكفِّ مُرْهَفُ
 وما سَرَّتْني غيرُ الذي كانَ مِنْهُمُ * ومَنى وقد جاءوا اليّ وأوجفوا
 فكم مُرْتَجٍ أمراً أُتِيحَ له الرَّدَى * ومن خائِفٍ لم يَنْتَقِصْهُ التَّخَوُّفُ
 ومنها :

أَأَنْ هَتَفْتُ ورِقاءُ ظَلَّتْ سَفَاهَةً * تُبَكِّي على جَمِيلٍ لورِقاءِ تَهْتِفُ
 فلو كانَ لي بالصرْمِ يَاصِحُ طاقَةٌ * صَرَمْتُ ولكني عن الصرْمِ أضعفُ

قيل : إن مروان طلب الى جميل أن ينزل فيرجز به ، وهو يريد أن يمدحه ، فنزل

جميل فقال :

أنا جميلٌ في السَّنامِ الأعْظَمِ * الفارِعِ الناسِ الأعزَّ الأَكْرَمِ
 أحمي ذِمَّارِي ووجدتُ أقرْمِي * كانوا على غارِبِ طَوْدِ خِضْرَمِ^(٦)
 * أعياءُ على الناسِ فلم يَهْتَمِ *

فقال : عدَّ عن هذا ؛ فقال جميل :

لُفِّعاً على البيتِ المَعْدِي لُهْنًا * من بعد ما كانَ قد استكفأ
 ولو دعا اللهَ ومدَّ الكفَّا * لرجفتُ منه البلادُ رجفاً

(١) الحقو : الحصر . (٢) يتقصف : يهبل ويتقطع بعضه عن بعض . (٣) الجداية :

الغزاة . والسابرية : ثوب من أجود الثياب منسوب الى سابور على غير قياس . (٤) يرجزه : ينشده

أرجوزة . (٥) أقرم : جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) خضرم : عظيم .

وطلب ذلك اليه الوليد فقال :

أنا جميل في السنام من معدد * في الذروة العليا والركن الأشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد * ما يتسغي الأعداء مني ، ولقد
أضري بالشتم لساني ومرد * أقود من شدت وصعب لم أقد

فقال له الوليد : اركب لاحملك الله ! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل في مَراجرة جَواس بن قُطبة ، وكان ذلك بوادي القرى :

يا أم عبد الملك أصرميني * فييني صرمي أو صلييني
أبكي وما يدريك ما يبييني * أبكي حذار أن تفارقيني
وتجعلي أبعده مني دوني * إن بني عمك أوعدونني
أن يقطعوا رأسي إذا لقوني * ويقتلونني ثم لا يدوني^(١)
كلا ورب البيت لو لقوني * شفعا ووترًا لتواكلوني^(٢)
قد علم الأعداء أن دوني * ضربًا كإزاع المخاض الجون^(٣)
ألا أسب القوم إذ سبوني * بلى وما مرّ على دفين
وسابحات بلوى المحجون * قد جربوني ثم جربوني
حتى إذا شابوا وشيبيوني * أخزاهم الله ولا يخزوني
أشباه أعيار على معين * أحسن حس أسد حرون
فهن يضرن من اليقين * أنا جميل فتعرفوني
وما تقنعت فتذكروني * وما أعنيكم لتسألوني

(١) يدوني : من الدية وهي ما يعطى لولي القاتل من المال بدل النفس . (٢) تواكلوني : تركوني .

(٣) أوزغت الناقة ببوها : رمت به دفعة دفعة . ومنه الطعنة توزغ بالدم أي ترمي به كذلك .

أَتَى إِلَى عَادِيَّةٍ طَحُونٌ * يَنْشَقُّ عَنْهَا السَّيْلُ ذُو الشُّؤُونِ
 غَمْرٌ يَزِفُ رُجْحَ السَّفِينِ * ذُو حَدَبٍ إِذَا يَرَى حُجُونِ (١) (٢) (٣)
 * تَحَلَّلَ أَحْقَادُ الرِّجَالِ دُونِي *

ومن قوله يمدح أخواله من جذام :

جُذَامُ سَيُوفُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * إِذَا أَزِمْتَ يَوْمَ اللِّقَاءِ أَزَامِ (٤)
 هُمُ مَنْعُوا مَا بَيْنَ مِصْرَ فِذَى الْقُرَى * إِنِّي الشَّامُ مِنْ حِلٍّ بِهِ وَحَرَامِ
 بَضْرِبُ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ سَكَاتِهِ * وَطَعْنٌ كَيْزَاغِ الْخَاضِ تُؤَامِ
 إِذَا قَصُرَتْ يَوْمًا أَكُفُّ قَبِيلَةٍ * عَنْ الْمَجْدِ نَالَتْهُ أَكُفُّ جُذَامِ

اجتمع جميل وعمر بن أبي ربيعة بالأبطح ، فالشده جميل قصيدته :

لَقَدْ فَرِحَ الْوَأَشُونَ أَنْ صَرَمَتْ حَبْلِي * بَشِينَةً أَوْ أَبَدَتْ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ
 يَقُولُونَ مَهَلًا يَا جَمِيلَ وَإِنِّي * لِأَقْسِمُ مَا بِي عَنْ بَشِينَةٍ مِنْ مَهَلِ
 أَحَلَمَّا فَقَبَّلَ الْيَوْمَ كَانَ أُوَانُهُ * أَمْ أَحْشَى فِقْبَلِ الْيَوْمِ أُوَعِدْتُ بِالْقَتْلِ
 لَقَدْ أَنْكَحُوا حَرْبِي نُبَيْهَا طَعِينَةً * لَطِيفَةَ طَىِّ الْبَطْنِ ذَاتِ شَوَى جَزَلِ
 وَكَمْ قَدْ رَأَيْتَا سَاعِيًا بَنِيمَةً * لِأَخْرَمَ يَعْمَدُ بِكَفِّ وَلَا رَجَلِ
 إِذَا مَا تَرَا جَعْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بَشِينَةً بِالْكُحْلِ
 كَلَانَا بَكِي أَوْ كَادَ يَبْكِي صَبَابَةً * إِلَى الْفِيهِ وَأَسْتَعَجَلَتْ عَبْرَةً قَبْلِي
 فَلَوْ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِيَ مَا طَلَبْتُهَا * وَلَكِنْ طَلَا بِهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي
 فَيَا وَيْحَ نَفْسِي حَسْبَ نَفْسِي الَّذِي بَهَا * وَيَا وَيْحَ أَهْلِي مَا أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي
 وَقَالَتْ لِأَتْرَابٍ لَهَا لَا زَعَانِفَ * قِصَارَ وَلَا كُؤُسَ الثَّنَايَا وَلَا تُعْلِلِ (٥)

(١) يزف : يجعلها تسرع . (٢) ذو حدب : ذو موج . (٣) حجوت : معوج .

(٤) أزمت : اشتدت . (٥) الكسس محرقة : قصر الأسنان أو صفرها أو لصوقها بسنوخها .

وعلت سنه ولثته فهي ثعلاء : تراكبت أسنانها .

إذا حَمِيَتْ شَمْسُ النَّهَارِ أَتَقِيْتَهَا * بأَكْسِيَةِ الدِّيْبَاجِ وَالخَزْدَى الخَمَلِ
 تَدَاعَيْنِ فَاسْتَعْجَمْنَ مَشِيًّا بَدَى الغَضَى * دَيْبِ القَطَا الكُدْرَى فِي الدَّمْتِ السَّهْلِ
 إِذَا آرْتَعْنَ أَوْ فُزِعْنَ فَمَنْ حَوَاهَا * قِيَامَ بِنَاتِ المَاءِ فِي جَانِبِ الضَّحْلِ^(٢)
 أَجِدْكَ لَا أَلْقَى بُثَيْنَةَ مَرَّةً * مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا خَائِفًا أَوْ عَلَى رِجْلِ
 خَيْلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتَا * قَتِيلًا بَكَى مِنْ حَبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي
 أَيْدُتْ مَعَ المُهْلَاكِ ضَيْفًا لِأَهْلَاهَا * وَأَهْلِي قَرِيبِ مُوسِعُونَ ذُو وَفَضْلِ
 أَلَا أَيُّهَا البَيْتُ الذِي حِيلَ دُونَهُ * بِنَا أَنْتَ مِنْ بَيْتِي وَأَهْلِكَ مِنْ أَهْلِي
 ثَلَاثَةُ أَيْبَاتٍ فَبَيْتُ أَحَبَّهُ * وَبَيْتَانِ لَيْسَا مِنْ هَوَايَ وَلَا شَكْلِي

وقال في هجرة هجرته إياها بثينة :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ القَوَاءَ فَيَنْطِقُ * وَهَلْ تُخْبِرُنِي اليَوْمَ يَبْدَأُ سَمَلِقُ^(٤)
 وَفَقْتُ بِهَا حَتَّى تَجَّتْ عَمَائِي * وَمَلَّ الوُقُوفَ الأَرْحَجِيَّ المَنُوقَ^(٥)
 تَعَزَّ وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَرِيمَةً * لَعَلَّكَ مِنْ رِقِّ لَبْنَتِنَا تُعَمَّقُ
 لَعَمْرُكَ إِنْ البِعَادَ لَشَائِقِي * وَبَعْضُ بَعَادِ البَيْنِ وَالنَّأَى أَشُوقُ
 لَعَلَّكَ مَحْزُونٌ وَمُبْدٍ صَبَابَةٌ * وَمُظْهَرُ شَكْوَى مِنْ أَنَاسٍ تَفَرَّقُوا
 وَبِيضُ غَرِيْرَاتٍ تُثَبِّتِي خُصُورَهَا * إِذَا فَمَنْ أَعْجَازُ تُقَالُ وَأَسُوقُ
 عَزَائِرٌ لَمْ يَلْقَيْنِ بؤْسَ مَعِيشَةٍ * يُجِنُّ بِهِنَّ النَّاضِرُ المَتَمُوقُ
 وَغَلَعْتُ مِنْ وَجَدِ إِيهِنَّ بَعْدَ مَا * سَرَيْتُ وَأَحْشَأْتُ مِنَ الخُوفِ تَحْفُوقُ
 مَعِيَ صَارِمٌ قَدْ أَحَاصَ القَيْنِ صَقْلَهُ * لَهُ حِينَ أَغْشِيهِ الضَّرِيْمَةَ رَوْنُقُ
 فَوَلَا أَحْتِيَالِي ضِقْنُ ذَرْعًا بِنَائِرٍ * بِهِ مِنْ صَبَابَاتِ إِيهِنَّ أَوْلُقُ^(٦)

(١) بنات الماء : ما يألف الماء من السمك والطيور والضفادع (أنظر المضاف والمضاف إليه) .

(٢) الضحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له . (٣) المهلاك : الصعاليك . (٤) السملق :

القاع الصفصيف . (٥) الأرحجي : الفجل النجيب نسبة إلى أرحب وهي قبيلة من همدان تشب

بها النجائب الأرحبية . والمتوق : المحسن المزين . (٦) أولق : جنون .

تَسُوكُ بِقُضْبَانِ الْأُرَاكِ مُفْلَجًا * يُشَعِّعُ فِيهِ الْفَارِسِيُّ الْمُرُوقُ
أَبْنَثَةٌ لِلْوَصْلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * نَضًا مِثْلَ مَا يَنْضُو الْخِضَابُ فِي خَلْقِ
أَبْنَثَةٍ مَا تَتَأَيَّنَ إِلَّا كَأَنِّي * بِنَجْمِ الشَّرِيَا مَا نَأَيْتَ مُعَاقُ

قال الرشيد لإسحاق الموصلي: أنشدني أحسن ما تحب في عتاب محب وهو ظالم

متعجب، فأنشدته قول جميل:

رِدِّ الْمَاءَ مَا جَادَتْ بِصَفْوِ ذَنَابِهِ * وَدَعَهُ إِذَا خِيضَتْ بِطَرَقِ مَشَارِبِهِ^(١)
اعْتَبْ مِنْ يَحْلُو لَدَى عَتَابِهِ * وَأَتْرِكْ مَنْ لَا أَشْتَهِي وَأَجَانِبِهِ
وَمَنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ كُنْتَ ظَالِمًا * عِنَاقُكَ مَظْلُومًا وَأَنْتَ تَعَاتِبُهُ

ومن قوله في زيارة له:

زُورًا بِبَيْتِنَا فَالْحَبِيبُ مَزُورٌ * إِنْ الزِّيَارَةَ لِلْحَبِيبِ يَسِيرُ
إِنْ التَّرْحَلُ أَنْ تَلْبَسَ أَمْرُنَا * وَأَعْتَاقُنَا قَدْرُ أَحْمُ بِكُورِ
إِنِّي عَشِيَّةٌ رَحْتُ وَهِيَ حَزِينَةٌ * تَشْكُو إِلَى صَبَابَةٍ لَصَبُورِ
وَتَقُولُ بِي عِنْدِي فَدَيْتُكَ لَيْلَةٌ * أَشْكُو إِلَيْكَ فَإِنْ ذَلِكَ يَسِيرُ
غَرَاءُ مَيْسَامٍ كَأَنْ حَدِيثُهَا * دُرٌّ تَحْدَرُ نَظْمُهُ مَنثورِ
مُخْطُوطَةُ الْمُتَنِينِ مُضْمَرَةُ الْحَشَى^(٢) * رِيًّا الرَّوَادِفِ خَلَقَهَا مَمْكُورِ
لَا حُسْنَهَا حُسْنٌ وَلَا كَدَالُهَا * دَلٌّ وَلَا كَوَقَارِهَا تَوْقِيرِ
إِنْ اللِّسَانَ بَذَرَهَا لَمَوْكَلٌ * وَالقَلْبُ صَادٍ وَالخَوَاطِرُ صُورِ
وَلَيْنَ جَزِيَّتِ الْوَدَّ مَنَى مِثْلَهُ * إِنِّي بِذَلِكَ يَا بُيْتِنَ جَدِيرِ

وعذله فيها ابن عمه روق، فقال:

لَقَسِدٌ لَأَمْنِي فِيهَا أَخٌ ذُو قَرَابَةٍ * حَبِيبٌ إِلَيْهِ فِي مَلَامَتِهِ رُشْدِي
وَقَالَ أَفِقْ حَتَّى مَتَى أَنْتَ هَائِمٌ * بَيْتِنَا فِيهَا قَدْ تُعِيدُ وَقَدْ تُبْسِدِي

(١) الطرق: الماء الذي خوضته الأبل وبوت فيه وبعرت.

(٢) مخطوطة المتنين: ومدودتهما. والمكورة: المطوية الخلق.

فقلتُ له فيها قضي اللهُ ما ترى * علىَّ وهل فيما قضى اللهُ من ردِّ
 فإنَّ يَكُ رُشْدًا حَبَّهَا أَوْ غَوَايَةً * فقد جئتهُ، ما كان مَتَى على عَمْدٍ
 لقد جَلَّ مِيثَاقُكَ مِنَ اللهِ بَيْنَنَا * وليس لمن لم يُوفِّ اللهُ من عَهْدٍ
 فلا وأبيها الخَيْرُ ما خنتُ عَهْدَهَا * ولا لي عِلْمٌ بالذي فعلتُ بعدى
 وما زادها الواشُونَ إِلا كَرَامَةً * علىَّ وما زالت مَوَدَّتُهَا عِنْدِي
 أفي النَّاسِ أَمْثَالِي أَحَبُّ فَخَالَهُمْ * كحَالِي أَمْ أَحَبَّتْ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدِي
 وهل هَكَذَا يَلْقَى الْمُحِبُّونَ مِثْلَ مَا * لَقِيتُ بِهَا أَمْ لَمْ يَجِدْ أَحَدٌ وَجَدِي

وقال فيها :

خَلِيلِي عُوْجَا الْيَوْمِ حَتَّى تُسَامِنَا * على عَدْبَةِ الْأَنْيَابِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
 أَلِمَّا بِهَا ثُمَّ أَشْفَعَا لِي وَسَامِنَا * عليها سَقَاها اللهُ مِنْ سَائِغِ الْقَطْرِ
 وَبُوحَا بَذَكَرِي عِنْدَ بَثْنَةٍ وَأَنْظُرَا * أترتاح يوماً أم تَهَشُّ إلى ذَكَرِي
 فَإِنَّ تَكْ لَمْ تَقْطَعْ قُوَى الْوَدِّ بَيْنَنَا * ولم تَنْسِ مَا سَلَفَتْ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ
 فَكَيْفَ يَرَى مِنْهَا أَشْتِيَاقٌ وَلَوْعَةٌ * بَيْنِي وَغَرْبٍ مِنْ مَدَامِعِهَا يَجْرِي
 وَإِنْ تَكُ قَدْ حَالَتْ عَنِ الْعَهْدِ بَعْدَنَا * وَأَصْغَتْ إِلَى الْقَوْلِ الْمُؤَنَّبِ وَالْمُزْرِي
 فَسَوْفَ يَرَى مِنْهَا صُدُودٌ وَلَمْ تَكُنْ * - بِنَفْسِي - مِنْ أَهْلِ الْخِيَانَةِ وَالغَدْرِ
 أَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَسْحَطَ النَّوَى * بَبَثْنَةٍ فِي أَدْنَى حَيَاتِي وَلَا حَشْرِي
 وَجَاوِرٌ إِذَا مَا مِتُّ بِنِي وَبِنَهَا * فَيَا حَبْدًا مَوْتِي إِذَا جَاوَرْتُ قَبْرِي
 عَدِمْتِكَ مِنْ حَبِّ أَمَّا مِنْكَ رَاحَةٌ * وما بك عَنِّي مِنْ تَوَانٍ وَلَا فِتْرٍ
 أَلَا أَيُّهَا الْحُبُّ الْمَبْرُحُ هَلْ تَرَى * أَخَا كَلْفٍ يُغْرِي بِحَبِّ كَمَا أُغْرِي
 أَجِدْكَ لَا يَبْلَى وَقَدْ بَلَى الْهَوَى * وَلَا يَنْتَهِي حَتَّى بَشِينَةَ اللَّزْجَرِ

(١) هكذا وردت « فكيف » ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

فَفِي تَسْلُ عَنْكَ النَّفْسُ بِالْخُطَّةِ الَّتِي * تُطِيلِينَ تَخْوِيفِي بِهَا وَوَعِيدِي
فَقَدْ طَالَ مَا مِنْ غَيْرِ شَكْوَى قَبِيحَةٍ * رَضِينَا بِحُكْمِ مَنْكَ غَيْرِ سَدِيدِ

ومنه :

بُشَيْنَ سَلِينِي بَعْضَ مَالِي فَإِنَّمَا * يَبِينُ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ بِخَيْلِ
فَأِنِّي وَتَكَرَّرَ الزِّيَارَةَ نَحْوَكُمْ * لَبِينُ يَدِي هَجْرَ بُشَيْنَ طَوِيلِ
فِيَالَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَقُولِينَ بَعْدَنَا * إِذَا نَحْنُ أَرْزَمْنَا غَدًا لِرَحِيلِ
أَلَا لَيْتَ أَيَا مَا مَضَيْنَ رَوَاجِعُ * وَلَيْتَ النَّوَى قَدْ سَاعَدَتْ بِجَمِيلِ

ومنه :

أَتَعْجَبُ أَنْ طَرِبْتُ لَصَوْتِ حَادٍ * حَادًا بَزْلًا يَسْرُنُ بِبَطْنِ وَادٍ
فَلَا تَعْجَبُ فَإِنَّ الْحَبَّ أَمْسَى * لَبَثْنَةُ فِي السَّوَادِ مِنَ الْفَوَادِ

ومنه :

خَلِيلِي عَوْجًا بِالْحَمَلَةِ مِنْ جُمَلِ * وَأَتْرَاهِيَا بَيْنَ الْأَصْفَرِ وَالْخَبَلِ
نَقِفْ بِمَعَانٍ قَدْ مَحَا رَسْمَهَا الْبِلَى * تُعَاقِبُهَا الْأَيَّامُ بِالزَّرِيحِ وَالْوَبَلِ
فَلَوْ دَرَجَ النَّمْلُ الصِّغَارُ بِجِلْدِهَا * لِأَنْدَبِ أَعْلَى جِلْدِهَا مَدْرَجُ النَّمْلِ
وَأَحْسَنُ خَلْقِ اللَّهِ جِيدًا وَمُقَلَّةً * تُسَبِّهُ فِي النَّسْوَانِ بِالشَّادِنِ الطَّفْلِ^(١)

ومن قوله :

أَمِنْكَ سَرَى يَا بَشَنَ طَيْفٍ تَأْوِبَا * هُدُوءًا فَهَاجَ الْقَلْبَ شَوْقًا وَأَنْصَبَا
عَجِبْتُ لَهُ أَنْ زَارَ فِي النَّوْمِ مَضْجَعِي * وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَقِيمًا كَانَتْ أَعْجَابَا

لما قدم جميل من الشام بلغ بشينة خبره ، فراسلته مع بعض نساء الحى تذكر شوقها
اليه ووجدتها به ، وطلبها للخيلة في لقائه ، ووعدته لموضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدثها

(١) الطفل : الرخص الناعم من كل شيء .

طويلاً وأخبرها خبره بعدها ، وقد كان أهلها رصّدها ، فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجا عليهما ، فوثب جميل فانتضى سيفه وشدّ عليهما ، فأتقياه بالحرب ، وناشدته بثينة الله إلا أنصرف ، وقالت له : إن أقيمت فضحتني ، ولعلّ الحى يَلْحَقونك ، فأبى وقال : أنا مقيم وأمضى أنت وليصنعوا ما أحبوا ، فلم تزل تناشده حتى أنصرف وقال في ذلك ، وقد هجرته وأنقطع التلاقي بينهما مدّة :

هي البدرُ حسناً والنساءُ كواكبُ * وشَتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلتُ حسناً على الناس مثل ما * على ألف شهرٍ فضّلت ليلةً القدر

وقال :

لقد خفتُ أن يغتالني الموتُ عنوّة * وفي النفس حاجاتُ اليك كما هيأ
وإني لتُنينني الحفيظةُ كلّما * لقيتُك يوماً أن أبثك ما يبأ
ألم تعلمي يا عدبّة الرّيق أني * أظّل إذا لم أسق ريقك صادياً

ورحل الى مصر فأدركته بها منيته ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صدع النعي وما كنى بجميل * وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجرّ الذيل في وادي القرى * نشوان بين مزارع ونخيل
قومي بثينة فاندبى بعويل * وأبكي خليلك دون كل خليل

ولما أنشدت بثينة قول جميل قالت :

وإن سلوى عن جميل لساعة * من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءً علينا يا جميل بن معمر * إذا متّ بأساء الحياة ولينها

وقال :

رحل الخليلطُ جهالم بسواد * وحداً على أثر البيخيلة حادى
ما إن شعرت ولا سمعت بينهم * حتى سمعت به الغراب ينادى

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَيْنَ قَلْتُ لِصَاحِبِي * صَدَعَتْ مُصَدَّعَةُ الْقُلُوبِ فَوَادِي
بَانُوا وَغُودِرَ فِي الدِّيَارِ مَتِيمٌ * كَلَّفَ بِذِكْرِكَ يَا بَشِيئَةَ صَادِي

وقال أيضا :

خَلِيلِي هَلْ فِي نَظْرَةِ بَعْدِ تَوْبَةٍ * أَدَاوِي بِهَا قَلْبِي عَلَى بَحُورِ
إِلَى رُجْحِ الْأَكْفَالِ هَيْفِ خُصُورِهَا * عَذَابِ النَّشَايَا رِيقُهُنَّ طُهُورِ
تَدَكَّرْتُ مَنْ أَصَحَّتْ قَرَى اللَّدْدِ دُونَهُ * وَهَضْبُ لَتِيَا وَالْهَضَابُ وَعُورِ
فَطَلَّتْ لِعَيْنَيْكَ الْجُوجِينَ عِبْرَةً * يَهِيجُهَا بَرِحَ الْهَوَى فَتَمُورِ
عَلَى أُنْبَى بِالْبَرْقِ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهَا * إِذَا قَصَّرَتْ عَنْهُ الْعَيُونَ بِصِيرِ
وَإِنِّي إِذَا مَا الرِّيحُ يَوْمًا تَنَسَّمْتُ * شَامِيَةً عَادَ الْعِظَامَ فُتُورِ
أَلَا يَا غَرَابَ الْبَيْنِ لَوْنُكَ شَاحِبٌ * وَأَنْتَ بَرُوعَاتِ الْفِرَاقِ جَدِيرِ
فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ فَأَصْبَحْتُ * هُمُومِكَ شَتَّى وَالْجَنَاحُ كَسِيرِ
وُدُرْتُ بِأَعْدَاءِ حَبِيبِكَ فِيهِمْ * كَمَا قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورِ
وَكَيفَ بِأَعْدَاءِ كَأَنَّ عَيُونَهُمْ * إِذَا حَانَ إِثْيَانِي بَشِيئَةَ عُورِ
فَإِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ بِالْحَبِّ عَالِمًا * عَلَى مَا بَعَيْنِي مِنْ قَدَى تَحْيِيرِ

وله أيضا :

فَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا بَشِيئَةَ تَبْتَغِي * يَمِينِي وَلَوْ عَزَّتْ عَلَى يَمِينِي
لَأَعْطَيْتُهَا مَا جَاءَ يَبْغِي رَسُولُهَا * وَقَلْتُ لَهَا بَعْدَ الْيَمِينِ سَلِينِي
سَلِينِي مَالِي يَا بَشِيئَةَ فَإِنَّمَا * يَبِينُ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ ضَمِينِ
فَمَا لَكَ لَمَّا خَبَرَ النَّاسُ أُنْبَى * أَسَأْتُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لَمْ تَسَلِينِي
فَأَبْلَى عُدْرًا أَوْ أَجَىءَ بِشَاهِدِ * مِنَ النَّاسِ عَدَلٍ أَنَّهُمْ ظَاهِمُونِي
وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَى بَقَائِلِ * لَهَا بَعْدَ صَرِيمِ يَا بَشِيئَةَ صَلِينِي

(١) اللد بالضم والتشديد : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين .

وَبُنَيْتُ قَوْمًا فِيكَ قَدْ نَدَرُوا دِي * فليت الرجال الموعدين لقونى
إذا ما رأوني مقبلاً عن جنابة * يقولون من هذا وقد عرفوني

وله أيضا :

تَنَادَى آلُ بَنِيهِ بِالرَّوَّاحِ * وقد تركوا فؤادك غير صَاح
فِيَالِكَ مَنْظَرًا وَمَسِيرَ رَكِبِ * شجاني حين أمعن في الفياح
وَيَالِكَ خُلَّةً ظَفِرْتُ بِعَقْلِي * كما ظفر المقامر بالقيحاح
أريد صلاحها وتريد قتلي * فشئت بين قتلي والصلاح
لَعَمْرُ أَيْبِكَ لَا تَجِدِينَ عَهْدِي * كعهديك في المودة والسماح
ولو أرسلت تستهدين نفسي * أتاك بها رسولك في سراح

وله أيضا :

فَإِنْ يَكُ جُثْمَانِي بَارِضٍ سِوَاكُمْ * فإن فؤادي عندك الدهر أجمع
إِذَا قَلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو وَأَجْتَرِي * على صرمها ظلت لها النفس تسقع
وَإِنْ رُمْتُ نَفْسِي كَيْفَ آتَى لَصْرْمِهَا * ورمت صدودا ظلت العين تدمع

وله أيضا :

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَدْبَةَ الْمَاءِ أَنِّي * أظل إذا لم أسق ماءك صاديا
وَمَا زَلْتِ بِي يَا بَنُّنُ حَتَّى لَوْ أَنِّي * من الوجد استبكي الحمام بكى ليا
وَدِدْتُ عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ لَوْ أَنَّهَا * يزد لها في عمرها من حياتيا

وله أيضا :

وَقَلْتُ لَهَا أَعْتَلَّتْ بِغَيْرِ ذَنْبِ * وشر الناس ذو العلل البخيل
فَفَاتِنِي إِلَى حَكَمٍ مِنْ أَهْلِي * وأهلك لا يحيف ولا يميل
فَقَالَتْ أَبْتَعِي حَكَمَا مِنْ أَهْلِي * ولا يدرى بنا ألواشى المحول
فَوَلَّيْنَا الْحُكُومَةَ ذَا سُبُحُوفِ * أحا دنيا له طرف كليل

فقلنا ما قَضَيْتَ به رَضِينَا * وَأَنْتَ بِمَا قَضَيْتَ به كَفِيلٌ
 قَضَاؤُكَ نَافِذٌ فَاحْكُمْ عَلَيْنَا * بِمَا تَهْوَى وَرَأْيُكَ لَا يَفِيلُ
 فَقُلْتُ لَهُ قُتِلْتُ بِغَيْرِ جُرْمٍ * وَغِبُّ الظلمَ مَرْتَعَهُ وَبَيْلُ
 فَسَلْ هَذِي مَتَى تَقْضِي دُونِي * وَهَلْ يَقْضِيكَ ذُو الْعِلَالِ الْمُطُولُ
 فَقَالَتْ إِنْ ذَا كَذِبٌ وَبَطْلٌ * وَشَرٌّ مِنْ خُصُومَتِهِ طَوِيلُ
 أَأَقْتُلُهُ وَمَالِي مِنْ سِلَاحٍ * وَمَا بِي لَوْ أَقَاتَلَهُ حَوِيلُ ^(١)
 وَلَمْ أَخُذْ لَهُ مَا لَا فِيلُنِي * لَهُ دِينَ عَلَى كَمَا يَقُولُ
 وَعِنْدَ أَمِيرِنَا حُكْمٌ وَعَدْلٌ * وَرَأْيٌ بَعْدَ ذَلِكَ أُصِيلُ
 فَقَالَ أَمِيرُنَا هَاتُوا شَهُودَا * فَقُلْتُ شَهِدْنَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ
 فَقَالَ يَمِينَهَا وَبِذَلِكَ أَقْضَى * وَكُلُّ قَضَائِهِ حَسَنٌ جَمِيلُ
 فَبَيَّنْتُ حَلْفَةَ مَالِي لَدِيهَا * نَقِيرَ أَدْعِيهِ وَلَا فَتِيلُ
 فَقُلْتُ لَهَا وَقَدْ غَلِبَ التَّعَزَّى * أَمَا يَقْضِي لَنَا يَا بَنُ سُوْلُ
 فَقَالَتْ ثُمَّ زَجَّتْ حَاجِبِيهَا * أَطَلَّتْ وَلَسْتَ فِي شَيْءٍ تُطِيلُ
 فَلَا يَجِدَنَّكَ الْأَعْدَاءُ عِنْدِي * فَتَشْكَلْنِي وَإِيَّاكَ التَّيْكُولُ

وله أيضا :

حَلَفْتُ يَمِينًا يَا بَشِينَةَ صَادِقَا * فَإِنْ كُنْتُ فِيهَا كَاذِبًا فَعَمِيْتُ
 إِذَا كَانَ جِلْدٌ غَيْرَ جِلْدِكَ مَسْنِي * وَبَاشَرَنِي دُونَ الشُّعَارِ شَرِيْتُ ^(٢)
 وَلَوْ أَنَّ رَاقِي المَوْتِ يَرِي جَنَازَتِي * بَمَنْطِقِهَا فِي النَّاطِقِينَ حَيَّتِ

وقال أيضا :

فَقَدْ لَانَ أَيَّامُ الصَّبَا ثُمَّ لَمْ يَكَدْ * مِنْ الدَّهْرِ شَيْءٌ بَعْدَهُنَّ يَلَانُ
 ظِعَائِنٌ مَا فِي قُرْبِهِنَّ لَذِي هَوَى * مِنْ النَّاسِ إِلَّا شِقْوَةٌ وَفَتُونُ

(١) الحويل : القوة والحذق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شرى جلده : خرج عليه الشرى ،

وهو بشور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث دفعة واحدة غالبا وتشد ليلا لبخار حار يثور في البدن دفعة .

وواكلته والهَمَّ ثم تركته * وفي القلب من وجد بهن رهين
 فواحسرتا إن حيل بني وبينها * وياحين نفسي كيف فيك تحين
 فشيب روعات الفراق مفارقي * وأنشزن نفسي فوق حيث تكون
 شهدت بأني لم تغير مودتي * وأنى بكم حتى المات ضنين
 وأن فؤادي لا يلين الى هوى * سواك وإن قالوا بلى سيلين
 وإنى لأستغشى وما بى نعمة * لعل لقاء فى المنام يكون
 ولما علوت الألبتين تشوقت * قلوب الى وادى القرى وعيون
 كأن دموع العين يوم تحملت * بشينة يسقيها الرشاش معين
 ورحن وقد ودعن عندى لبانه * لبانة سر فى الفؤاد كمين
 كسر الترى لم يعلم الناس أنه * نوى فى قرار الأرض وهو دفين
 فإن دام هذا الصرم منك فإننى * لأعبر هارى الجانين رهين
 لكيا يقول الناس مات ولم آهن * عليك ولم تثبت منك قرون

(ج) الغزل الصناعي

(١)
كثير

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قصّد القصيدة ولا نعت الملوكة مثل كثير.
وقال إبراهيم بن سعد: إني لأروى لكثير ثلاثين قصيدة أو رُقِي بها مجنون لأفاق، وكان
بعض أصحاب الحديث يأتونه، وهو خبيث النفس، فيسألونه عن شعر كثير فتطيب نفسه
ويحدثهم. وقال عبد الله بن أبي عبيدة: من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع
شعره. وكان ابن أبي عبيدة يملئ شعره بثلاثين ديناراً. وسئل مُصعب: من أشعر الناس؟
فقال: كثير بن أبي جمة، وقال: هو أشعر من جرير والفرزدق والرأعي وعامتهم، يعني الشعراء.
ولم يدرك أحد في مديح الملوكة ما أدرك كثير. وقال محمد بن سلام: كان كثير شاعر أهل
الحجاز، وهو شاعر فحل ولكنه منقوص حظّه بالعراق. وقال يونس النحوي: كثير أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من خزاعة، ويعرف بكثير عزة، نسبة إلى عشيقته التي كان يشبها. وكان يدخل
على عبد الملك ويشده، وكان رافضياً شديداً التعصب لآل أبي طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره،
فاذا أراد أن يصدقه بشيء حلفه بعلي. وكان له صديق اسمه خندق الأسدي، شديد التشيع مثله، وبلغ من جرأة خندق
هذا أنه وقف مرة في الموسم والناس مزدحون وقال: «أيها الناس، إنكم على غير حق، قد تركتم بيت نبيكم والحق
لهم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس، فضر بود ورموه حتى قتلوه، ودفن خندق بقنونا، فقال إذ ذاك كثير يرثيه.

أصادرة حجاج كعب ومالك * على كل عجلي ضامر البطن محقق

بمريثة فيها ثناء محبر * لأزهر من أولاد مرة معرق

والقصيدة طويلة. أما معشوقته عزة فهي بنت حميد بن وقاص من ضمرة، وكانت من أجمل النساء وأدهن
وأعقلهن. ويقال إنه لم ير لها وجهاً إلا أنه استهم بها قلبه لما ذكر له عنها. وعاتبه بعض أهلها فقالوا: «قد شهرت
نفسك وشهرت صاحبنا فأكفف نفسك» فقال: «إني لا أذكرها بما تكرهون».

وأتفق خروجهم إلى مصر في عام الجلاء، فتبعهم على راحلته فزجروه فأبى إلا أن يلحقهم، فبرص له بعضهم
في بعض الطريق وقبضوا عليه وجعلوه في جيفة حمار وربطوها عليه فتر به صديقه خندق فأطلقه وألحقه ببلاد. وكان
كثير دميماً قليلاً أحرأقياً شراً عظيماً الهامة قبيحاً. وأكثر أشماره في عزة هذه. توفي سنة ١٠٥ هـ، وأخباره كثيرة
تجدها في الأغاني (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن
خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) والعقد الفريد (ج ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان
شرحه أبو عبد الله الرشيدى منه نسخة خطية في الاسكوريال.

أهل الإسلام، وكان ابن أبي حفصة يعجبه مذهبه في المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديح، وكان فيه مع جودة شعره خطل وعجب. وقال المسور بن عبد الملك: ما ضرَّ من يروى شعر كثير وجميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان .

وكان قصيرا، قال الوقاصي: رأيت كثيرا يطوف بالبيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبه. وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول: طأطئ رأسك لا يصبه السقف. وقال كثير: في أي شيء أعطى هؤلاء الأحوص عشرة آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهم:

وما كان مالى طارفاً من تجارة * وما كان ميرانا من المال مُسلداً

ولكن عطايا من إمام مبارك * مالا الأرض معروفا وجودا وسوددا

فقال كثير: إنه لضرع قبجه الله! ألا قال كما قلت:

دع عنك سلمى إذ فات مطلبها * وأذكر خليليك من بني الحكم

ما أعطيتني ولا سألتهما * ألا وإني لحاجزى كرمي

إني متى لا يكن نواهما * عندي بما قد فعلت أحتمم

مبدي الرضا عنهما ومنصرف * عن بعض ما لو فعلت لم ألم

لا أنزر النائل الخليل إذا * ما أعتل نزر الظؤور لم ترم

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضا له يقال لها: غرب، وقدم بين

يدي طلبه تلك الأبيات:

جرتك الجوازي عن صديقك نصره * وأدناك ربي في الرفيق المقرب

فإنك لا يعطى عليك ظلامه * عدو ولا تنأى عن المتقرب

وإنك ما تمنع فإنك مانع * بحق وما أعطيت لم تتعقب

فقال له: أترغب غربا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: آكتبوها له، ففعلوا.

(١) يقول: لا ألح عليه بالمسألة، يقال: نزرته أنزره إذا ألحت عليه. والظؤور: العاطفة على أولاد

غيرها. ولم ترم: لم ترام.

وُسِبَ كثيرٌ لكثرة نسيبه بعزة الضمريّة إليها، وعُرف بها فليل : كثير عزة، وهي عزة ابنة حميد بن وقاص. وكان ابتداء عشقه إياها أنه مرّ بنسوة من بنى ضمرة ومعه جَلَبَ غنم، فأرسلن إليه عزة وهي صغيرة، فقالت : يقن لك النسوة : بعنا كبشًا من هذه الغنم وأنسنا بئنه الى أن ترجع، فأعطاها كبشًا، وأعجبته، فلما رجع جاءت امرأة منهن بدراهمه؛ فقال : وأين الصبيّة التي أخذت مني الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها وهذه دراهمك ؟ قال : لا آخذ دراهمي إلا من دفعت الكبش إليها، وخرج وهو يقول :

قَضَى كُلُّ ذِي دِينَ فَوْقِي غَرِيمَهُ * وَعِزَّةٌ مَمْلُوءٌ مَعْنَى غَرِيمِهَا

فكان أول لقاءه إياها . ثم قال فيها :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً وَهِيَ عَاتِقٌ * عَلَى حِينِ أَنْ شَبَّتْ وَبَانَ نُهُودُهَا
 وَقَدْ دَرَعُوهَا وَهِيَ ذَاتُ مَوْصِدٍ * ^(١) مَجُوبٌ وَلَمَّا يَلْبَسُ الدَّرْعَ رِيْدُهَا
 مِنَ الخَفِرَاتِ البِيضِ وَدَّ جَلِيسُهَا * إِذَا مَا أَنْقَضَتْ أَحْدُوْتَهُ لَوْ تَعِيْدُهَا
 نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً مَا يَسْرُنِي * بِهَا حُمُرُ أَنْعَامِ البِلَادِ وَسُودُهَا
 وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ سَعْدِي بِأَرْضِهَا * أَرَى الأَرْضَ تُطَوِّي لِي وَيَدْنُو بَعِيْدُهَا

ثم أحبته بعد ذلك عزة أشد من حبه إياها .

قال محمد بن صالح الأَسَلَمِيُّ : دخلت عزة على عبد الملك بن مروان وقد عجزت ؛ فقال لها : أنت عزة كثير؟ فقالت : أنا عزة بنت حميد؛ قال : أنت التي يقول لك كثير:

لَعَزَّةٌ نَارٌ مَا تَبُوخُ كَأَنَّهَا * إِذَا مَا رَمَقْنَاهَا مِنَ البَعْدِ كَوَكْبٌ ^(٢)

فما الذي أعجبه منك ؟ قالت : كلا يا أمير المؤمنين، لقد كنت في عهده أحسن من النار في الليلة القرة . ويروى أنها قالت له : أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين صيروك خليفة، وكانت له سنٌ سوداء يخفيها، فضحك حتى بدت، فقالت له : هذا الذي أردت أن أبعده؛ فقال لها : هل ترؤين قوله :

(١) مؤصد : ألبس الأصداء (بالضم) وهي قميص صغير يلبس تحت الثوب . والمجوب : القميص ذو الجيب .

والرؤد (يهمز ولا يهمز) : الترب . (٢) تبوخ : نحمد .

وقد زعمتُ أنى تغيرت بعدها * ومن ذا الذى يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر جسمى والخليفة كالتى * عهدي ولم يُخبر بسرك مُخبر

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قوله :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضت * من الصّم لو تمشى بها العُصم زلت
صَفُوحًا فما تلقاك إلا بجيلةً * فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت

فأمر بها ، فأدخلت على عاتكة بنت يزيد؛ فقالت لها : أرايت قول كثير :

قضى كل ذى دين فوقى غريمه * وعزّة ممّطول معنى غريمها

ما هذا الذى ذكره؟ قالت : قبلة وعده إياها؛ قالت : أنجزها وعلى إثمها .

ومما قال فيها :

خيلى هذا رسمُ عزّة فأعقلا * قلوَصيكا ثم أبكيا حيث حلّت
وما كنتُ أدرى قبل عزّة ما البكا * ولا موجعاتِ القلب حتى تولّت
فقد حلقتُ جهداً بما نَحرتُ له * قريشٌ غداة المأزمين^(١) وصلت
أناديك ما حجّ الحجيجُ وكبرت * بفيفا^(٢) غزالٍ رفقةً وأهلت
وكانت لقطعِ الحبل بينى وبينها * ككناذرة نذراً وفّت فأحلت
فقلت لها يا عزّ كل مصيبة * اذا وُطئت يوماً لها النفسُ ذلت
ولم يلق إنسانٌ من الحب ميعّة * تعمُّ ولا غمّاء إلا تجلّت
كأنى أنادى صخرةً حين أعرضت * من الصّم لو تمشى بها العُصم زلت
صَفُوحًا^(٣) فما تلقاك إلا بجيلةً * فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت
أباحت حِمى لم يرعه الناس قبلها * وحلّت تلاعا لم تكن قبلُ حلّت

(١) المأزمان : بين عرفة والمزدلفة . (٢) فيفا غزال : بمكة حيث ينزل الناس فيها

الى الأبطح . وأناديك : أجالسك ، مأخوذ من الندى والادى جميعا وهما المجلس .

(٣) الصفوح : المعرصة .

فليت قلوبى عند عزة قيّدت * بحبل ضعيف عزّ منها فضلت
 وغودر في الحى المقيمين رحلها * وكان لها باغ سواى قبلى^(١)
 وكنت كذى رجلين رجلٍ صحيحة * ورجل رمى فيها الزمان فشكلت
 وكنت كذات الظلع لما تحاملت * على ظلعها بعد العثار استقلت
 أريد الشواء عندها وأظنها * اذا ما أطلنا عندها المكث ملت
 فما أنصفت، أما النساء فبغضت * الى وأما بالنوال فضنت
 يكلفها الغيران شتى وما بها * هوانى ولكن ليك استدللت
 هنيئا مريئا غير داء محامر * لعزة من أعراضنا ما استحللت
 فوالله ما قاربت إلا تباعدت * بصرم ولا أكرثت إلا أقلت
 فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا * وحققت لها العتبى لدينا وقلت
 وإن تكن الأخرى فإن وراءنا * منادح لو سارت بها العيس كلت^(٣)
 خليلي إن الحاجية طلحت * قلوبينا وناقى قد أكلت^(٤)
 فلا يبعدن وصل لعزة أصبحت * بعاقبة أسبابه قد تولت
 أسيتى بنا أو أحسنى لا ملومة * لدينا ولا مقلية إن تقلت
 ولكن أنيلى وأذكرى من مودة * لنا خلة كانت لديكم فطلت^(٥)
 فإنى وإن صدت لمئن وصادق * عليها بما كانت إلينا أزلت^(٦)
 فما أنا بالداعى لعزة بالجوی * ولا شامت إن نعل عزة زلت
 فلا يحسب الواشون أن صبابتى * بعزة كانت عمرة فتجلت
 فأصبحت قد أبليت من دنف بها * كما أدنفت هيماء ثم استبلت^(٧)

(١) بلى : ذهب . (٢) العتبى : الإعتاب ، يقال : عاتبى فلان فأعتبه اذا نعتت عماء عاتبك عليه ،
 والعتبى الاسم والإعتاب المصدر (٣) المنادح : المناوز . (٤) الطليح : المعى الذى سقط من الأهواء .
 (٥) طلت : هدرت . (٦) أزلت : اصطفت . (٧) يقال : بل من مرضه وأبل واستبل اذا
 برأ . والهيماء : التى أصابها داء الهيام ، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعا فتهيم فى الأرض لاترعى .

فوالله ثم الله ما حلَّ قبلها * ولا بعدها من حُلَّةٍ حيث حَلَّتْ
وما مرَّ من يومٍ على كيومها * وإن عَظُمَتْ أَيامٌ أُخرى وجَلَّتْ
وأصحت بأعلى شاهقٍ من فؤاده * فلا القلبُ يسألاها ولا العين مَلَّتْ
فياعجبا للقلب كيف أَعْتَرَفَهُ^(١) * وللنفس لما وُطِنَتْ كيف ذَلَّتْ
وإني وتيممي بعزة بعد ما * تخليت مما بيننا وتَحَلَّتْ
لكالمُرَجِّي ظِلَّ الغمامة كلها * تَبَوَّأَ منها لِلْقَيْلِ أَصْحَمَتْ
كأني وإياها سحابة مُجْحَل * رَجَّأَهَا فلما جاوزته أَسْتَهَلَّتْ
فإن سأل الوأشون فيم هَجَرَتَهَا * فَقُلْ نَفْسُ حَرِّ سُلَيْتِ فَتَسَلَّتْ

قال ابن سلام : كان كثير مدعيا ولم يكن عاشقا، وكان جميل صادق الصباية والعشق .
وأخبرته عزة ذات مرة فوجدت علامة ذلك ، وكانت متقبلة فأسفرت ، فأبلس ولم ينطق
وبُهِتَ ، فلما مضت أنسا يقول :

ألا ليتني قبل الذي قلت شيب لي * من السم خَضْخاض بماء الذراح^(٣)
فمُتُّ ولم تعلم عليَّ خيانه * وكم طالبٍ للريح ليس براح
أبوءُ بذنبي ، إنني قد ظلمتها * وإني بيباقِي سرها غير بأح

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

وليت فلم تشتم عالياً ولم تخف * برياً ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي * فعلت فأضحى راضياً كلُّ مُسَلِّم
ألا إنما يكفي الفتى بعد زيفه * من الأود الباقى ثِقَافُ المَقُومِ
لقد لست لبس الملوك بابها * ترأى لك الدنيا يكف ومِعْصَمِ
وتومض أحيانا بعين مريضه * وتبسم عن مثل الجمان المنظم

(١) اعترافه : اصطباره ، يقال : نزلت به مصيبة فوجد عروفا ، أى صبورا .

(٢) أبلس : انكسر وزن . (٣) الذراح : دويرة حمراء منقطة بسواد تطير ، وهى من السموم

القائلة ، والذراح جمعه . والخضخاض : نقط أسود لا خنورة فيه تنهأ به الإبل الجربى .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مُشْمِئًا كَأْتَمًا * سَقَّتْكَ مَدُوفًا^(١) مِنْ سِمَامٍ وَعَلَقَمَ
 وَقَدْ كُنْتَ مِنْ أَجْبَاهِهَا فِي مُنْتَعٍ * وَمَنْ بَحْرَهَا فِي مُزِيدِ الْجُودِ مُفْعَمَ
 وَمَا زِلْتَ سَبَاقًا إِلَى كُلِّ غَايَةٍ * صَعِدْتَ بِهَا أَعْلَى الْبِنَاءِ الْمَقْدَمِ
 فَلَمَّا أَتَاكَ الْمَلِكُ عَفَّوَا وَلَمْ يَكُنْ * لِطَالِبِ دُنْيَا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمِ
 تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مُوْتَقَاً * وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَمِّمِ
 فَأَضْرَبْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلذَى * أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمِ
 وَمَالِكَ أَنْ كُنْتَ الْخَلِيفَةَ مَانِعٌ * سِوَى اللَّهِ مِنْ مَالٍ رَغِيبٍ وَلَا دَمِ
 سَمَا لَكَ هَمٌّ فِي الْفُؤَادِ مُؤَرَّقٌ * صَعِدْتَ بِهِ أَعْلَى الْمَعَالِي لِسُلْمِ
 فَمَا بَيْنَ شَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ كُلِّهَا * مُنَادٍ يَنَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
 يَقُولُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَلَمْتَنِي * بِأَخْذِ لَدِينَارٍ وَأَخْذِ لِدِرْهَمِ
 وَلَا بَسِطَ كَفِّ لِأَمْرِيءَ ظَالِمٍ لَهُ * وَلَا السَّفِكِ مِنْهُ ظَالِمًا لَمْ يَحْجِمِ
 فَلَوْ يَسْتَطِيعُ الْمُسْلِمُونَ تَقَسَّمُوا * لَكَ الشَّطْرُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ غَيْرَ نَدَمِ
 فَعِشْتَ بِهِ مَا حَجَّ اللَّهُ رَاكِبٌ * مَغْدُومٌ^(٢) بِمِطِيفٍ بِالْمَقَامِ وَزَمْزَمِ
 فَأَرْبَحُ بِهَا مِنْ صَفْقَةٍ لِبُيَاعِ * وَأَعْظَمُ بِهَا أَعْظَمَ بِهَا ثُمَّ أَعْظَمِ
 وَمَنْ نَسِيهِ بَعْرَةٌ لَمَّا أُخْرِجَتْ إِلَى مِصْرِ :

لِعِزَّةٍ مِنْ أَيَّامِ ذِي الْغَضَنِ شَاقِفِي * بِيضَاحِي قِرَارِ الرَّوْضَيْنِ رِسُومِ
 هِيَ الدَّارُ وَحَشَا غَيْرَ أَنْ قَدْ يَحْلَاهَا * وَيَعْنِي بِهَا شَخْصٌ عَلَى كَرِيمِ
 فَمَا بِرِسُومِ الدَّارِ لَوْ كُنْتَ عَالِمًا * وَلَا بِالتَّلَاعِ الْمُقْوِيَاتِ أَهْمِ^(٣)
 سَأَلْتَ حَكِيمًا أَيْنَ شَطَّتْ بِهَا النَّوَى * نَحْبِرْنِي مَا لَا أَحَبَّ حَكِيمِ^(٤)
 أَجَدُّوْا فَمَا أَلْ عِزَّةٌ عُذْوَةٌ * فَبَانُوا وَأَمَا وَاسِطُ فُتَيْمِ
 لِعَمْرِي لئن كَانَ الْفُؤَادُ مِنَ الْهَوَى * بَعَى سَقَمًا إِنِّي إِذَا لَسَقِيمِ

(١) مدوفا : مخلوطا ، داف الدواء والزعفران يدوفه : خلطه . (٢) مغد : مسرع .

(٣) أقوت الدار : خلت من ساكنها . (٤) هو أبو السائب بن حكيم .

ومنها :

ولست برأى نحو مصر سخابة * وإن بعدت إلا قعدت أشيم
 فقد يقعد النكس الدني عن الهوى * عزوفاً ويصبو المرء وهو كريم
 وقال خيلي ما لها إذ لقيتها * غداة السنأ فيها عليك وجوم^(١)
 فقلت له إن المودة بيننا * على غير فحش والصفاء قديم
 وإني وإن أعرضت عنها تجلدا * على العهد فيما بيننا لمقيم
 وإن زمانا فترق الدهر بيننا * وبينكم في صرفه لمشوم
 أفي الحق هذا أن قلبك سالم * صحيح وقلبي في هواك سقيم
 وأن يجسمى منك داءً مخامرا * وجسمك موفور عليك سليم
 لعمرك ما أنصفتني في مودتي * ولكني يا عز عنك حلیم
 فإما تريني اليوم أبدى جلادة * فإني لعمرى تحت ذاك كليم
 ولست أبنة الضمري منك بناقم * ذنوب العدى إني إذا لظلوم
 وإني لنو وجد إذا عاد وصلها * وإني على ربي إذا لكریم

ومن نسبته بها :

لعزة أطلال أبت أن تكلمها * تهبج مغايبها الفؤاد المكلمها
 وكنت إذا ما جئت أجلان مجلسي * وأظهرن مني هيبة لا تجهما
 يحاذرن مني غيرة قد عرفها * قديماً فما يضحكن إلا تبسما

ومنه :

خيلي عوجاً منكما ساعة معي * على الربيع نقض ساعة ونودع
 ولا تعجلاني أن ألم يدمنة * لعزة لاحت لي ببيداء بلقع
 وقولا لقلب قد سلا راجع الهوى * وللعين أذرى من دموعك أودعي
 فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا * مصيفاً أقننا فيه من بعد مريع

(١) وجم : سكت على غيظ .

ومنه :

بيللى وجارات ليلى كأنها * نِعَاجُ الفِلا تُحَدِّى بهن الأباعرُ
أَمْتَقَطِعُ يَعَزُّ ما كان بيننا * وشاجرني يعزُّ فيك الشواجر
إذا قيل هذا بيتُ عَزَّةٍ قاذى * اليه الهوى وأستعجلتني البوادر
أصدَّوبى مثل الجنون لى يرى * رُؤاةً الخنَّ أنى لبيتك هاجر
ألا ليت حظى منك يعزُّ أنى * إذا بنتِ باع الصبر لى عنك تاجر

ومنه :

ومازلتُ من ليلى لَدُنَّ طَرَّ شاربى * الى اليوم أُخفى حبَّها وأداجنُ
وأحمل فى ليلى ضغائنَ معشر * وتحمَّل فى ليلى على الضغائن

ومنه :

وإنى لأرعى قومها من جلالها * وان أظهر واغشا نصحتُ لهم جهدى
ولو حاربوا قومى لكنتُ لقومها * صديقاً ولم أحمل على حربها حقدى

ومنه :

هلا سألت معام الأطلال * بالجزع من حُرْضٍ وهنَّ بوال^(١)
سَقِيًّا لعزَّةٍ خُلَّةً سَقِيًّا لها * اذ نحن بالهَضَبات من أمال^(٢)
إذ لا تكلمنا وكان كلامها * نفلاً نؤمِّله من الأنفال

ومنه :

ألا حياً ليلى أجدَّ رَحِيلى * وأذن أصحابى غداً بقول^(٣)
تبدت له ليلى لتذهب عقله * وشاقتك أم الصلت بعد دُهل
أريد لأنسى ذكراها فكأنما * تمثَّل لى ليلى بكل سبيل
إذا ذكرت ليلى تغشَّتكَ عبرة^{ديرة} * تعلَّ بها العينان بعد مهول

(١) حرض : واد من وادى قناة ، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد ملل ، وهو منزل على طريق المدينة من مكة . (٣) قفول : رجوع .

- وكم من خليل قال لي هل سألتها * فقلت له ليس لي أضن خليل
 وأبعده نيلًا وأوشكه قلى^(١) * وإن سئلت عرفًا فشر مسؤل
 حلفت رب الرافصات الى منى^(٢) * خلال الملا يمددن كل جديل
 تراها رفاقًا بينهم تفاوت^(٣) * ويمددن بالإهلال كل أصيل
 توأهقن بالحمج من بطن نخلة^(٤) * ومن عزورٍ والخبث خبت طفيل
 بكل حرام خاشع متوجه^(٥) * الى الله يدعوه بكل ثقيل
 على كل مدعان الرواح معيدة^(٦) * ومحشية ألا تعيد هزيل
 شوامد قد أرتجن دون أجنة^(٧) * وهوج تبارى فى الأزقة حول
 يمين امرئ مستغليظ من الآلة^(٨) * ليكذب قبالا قد ألح بقليل
 لقد كذب الواشون ما بحت عندهم * بليل ولا أرسأتمهم برسول^(٩)
 فإن جاءك الواشون عنى بكذبة * فروها ولم يأتوا لها بجويل
 فلا تعجلى ياليل أن تتفهمنى * بنصح أنى الواشون أم يجبول^(١٠)
 فإن طببت نفسا بالعاء فأجرلى * وخير العطا ياليل كل جزيل
 وإلا فإجمال إلى فإننى * أحب من الأخلاق كل جميل
 وإن تبدلى لى منك يوما مودة * فقديما تتخذت القرص عند بدول
 وإن تجلى ياليل عنى فإننى * توكلنى نفسى بكل بجيل
 ولست براض من خليل بنائل * قليل ولا راض له بقليل

(١) أوشكه : أسرعه . والقل : البغض . (٢) الرافصات : الأبل ، والملا : الفضاء ، والجديل : زمام مجدول أى مضمور . (٣) الأصيل : العشى . (٤) توأهقن : تبارين ، وبطن نخلة : بستان بنى عامر ، وعزور : ثنية الجففة . والخبث ، المطمئن من الأرض . وطفيل : موضع . (٥) الثقيل : الطريق . (٦) المدعان : المذلة . ومعيدة : قداودت السفر . (٧) الشوامد : الشائلات الأذنان ، وأرتجن : أغلقن أرحامهن على أولادهن . والحول : جمع حائل وهى التى لا تلتحق . (٨) الآلة : اليمين . (٩) فروها من الفرية ، يقال فرى يفرى . والحويل : المحاولة . (١٠) الحبول : الدواهى .

وليس خيلى بالملول ولا الذى * اذا غبت عنه باعنى بخيل
 ولكن خيلى من يديم وصاله * ويحفظ سرى عند كل دخيل^(١)
 ولم أر من ليلي نوالا أعدده * ألا ربما طالبت غير منيل
 يلومك فى ليلي وعقلك عندها * رجال ولم تذهب لهم بعقول
 يقولون ودع عنك ليلي ولا تهم^(٢) * بقاطعة الأقران ذات حليل
 فما تقعت نفسى بما أمروا به * ولا عجت من أقوالهم بفتيل^(٣)
 تذكرت أترابا لعزة كلمها * حين يليط ناعم وقبول
 وكنت اذا لاقيتهم كأننى * محاطة على سلاف شمول
 تأطرت حتى قلت لسن بوارحا * رجاء الأمانى أن يقلن مقيل^(٤)
 فأبدى لى من بينن تجهما * وأخلفن ظنى إذ ظننت وقيل
 فالأيا بلاي ما قضين لبانة^(٥) * من الدار وأستقلان بعد طويل
 فلما رأى وأستيقن البين صاحبي * دعا دعوة يا حتر بن سؤل
 فقلت وأسررت الندامة لىنى * وكنت أمراً أغتش كل عدول
 سلكت سبيل الرأحات عشية^(٦) * مخارم نضع أو سلكن سبيل
 فأسعدت نفسا بالهوى قبل أن أرى * عوادى ناي بيننا وشغول^(٧)
 ندمت على ما فاتنى يوم بنتم^(٨) * فياحسرتا ألا يرين عويل
 كأن دموع العين واهية الكلى^(٨) * وعت ماء غرب يوم ذاك سجيل

- (١) الدخيل : الذى ينسب الى قوم وليس منهم . (٢) أى مارويت . (٣) الأتراب : الأقران . والليط : اللون وهو الجلد أيضا . (٤) تأطرن : تلبثن ، وأصل التأطرن : التعطف . (٥) اللاي : البطء . واللبانة : الحاجة . (٦) المخارم : جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل . ونضع : جبل أسود بين الصغراء . وينبع . (٧) العوادى : الصوارف . (٨) الكلى : جمع كاية وهى الرقعة تكون فى أصل عروة المزاد . والغرب : الدلو العظيمة . وسجيل : ضخم .

تَكْنَفَهَا حُرْقٌ تَوَاكَلْنَ خَرَزَهَا * فَأَجَانَنَهُ وَالسَّيرُ غَيْرُ بَحْمِيلِ (١)
 أَقِيمِي فَإِنَّ الْغُورَ يَاعَزُ بَعْدَكُمْ * إِلَىٰ إِذَا مَا بِنْتٌ غَيْرُ بَحْمِيلِ
 كَفَىٰ حَزْنَ لِلْعَيْنِ أَنْ رَدَّ طَرْفَهَا * لَعِزَّةَ عَيْرٍ آذَنْتُ بِرَحِيلِ
 وَقَالُوا نَأَتْ فَأَخْتَرْتُ مِنَ الصَّبْرِ وَالْبُكََا * فَقُلْتُ الْبُكََا أَشْفَىٰ إِذَا الْغَلِيلِي
 تَوَلَّيْتُ مَحْزُونًا وَقُلْتُ لِصَاحِبِي * أَقَاتِلْتِي لَيْلِي بَغَيْرِ قَتِيلِ
 لَعِزَّةَ إِذِ يُحْتَمَلُ بِالْحَيْفِ أَهْلُهَا * فَأَوْحَشَ مِنْهَا الْخَيْفُ بَعْدَ حُلُولِ
 وَبَدَّلَ مِنْهَا بَعْدَ طَوْلِ إِقَامَةٍ * تَبَعْتُ نَكَبَاءَ الْعَيْشِيِّ جَفُولِ (٢)
 لَقَدْ أَكْثَرَ الْوَأَشُونَ فِينَا وَفِيكُمْ * وَمَالَ بَنَى الْوَأَشُونَ كُلِّ مِمِيلِ
 وَمَا زَلْتُ مِنْ لَيْلٍ لُدُنٌ طَرَّ شَارِبِي (٣) * إِلَىٰ الْيَوْمِ كَأَلْقَصَىٰ بِكُلِّ سَبِيلِ
 وله :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوَ لَمْ تَنْهَ هَمَّهُ * حَصَانَ عَلَيْهَا نَظْمٌ دَرَّ زَيْنُهَا
 نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ * بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا شَجَّهَا قَطِينُهَا (٤)
 وَلَمْ يَنْتَهِهِ يَوْمَ الصَّابِإَةِ بَيْتُهَا * غَدَاةً أَسْتَهَّتْ بِالْدمُوعِ شُؤُونُهَا
 وَلَكِنْ مَضَىٰ ذُو مِرَّةٍ مُتَثَبٌ * لِسُنَّةٍ حَقٌّ وَاضِحٌ مُسْتَبِينُهَا (٥)
 وله في مدح عبد الملك بن مروان :

أَحَاطَتْ يَدَاهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ مَا * أَرَادَ رِجَالُ آخَرُونَ اغْتِيَابَهَا
 فَمَا أَسْلَمُوهَا عَنُودًا عَنْ مَوَدَّةٍ * وَلَكِنْ بِحَدِّ الْمَشْرِفِي اسْتَقَابَهَا
 وَكُنْتُ إِذَا نَابَتْكَ يَوْمًا مَأْمَةً * نَبَلْتُ لَهَا أَبَا الْوَلِيدِ نِيَابَهَا (٥)
 سَمَوْتُ فَأَدْرَكْتُ الْعِلَاءَ وَإِنَّمَا * يُلْقَىٰ عَالِيَاتِ الْعُلَا مِنْ سَمَا لَهَا
 وَصَلَّتْ فَنَالَتْ كَفْكَ الْمَجْدَ كُلَّهُ * وَلَمْ تَبْلُغِ الْأَيْدِي السَّوَامِي مَصَالَهَا

(١) خرق : جمع خرقاء . وهي التي لا تحسن العمل . وأجانبته : أوسعته . والبجبل الغليظ : يريد أنهم أغلظان الإشبني وأدققن السير . (٢) النكباء : الرياح التي تهب بين مهدي ريحين . والجفول : التي تذهب التراب . (٣) طورر الشارب : نياته . (٤) القطين : الخدم . (٥) نبلت : أعددت .

وله أيضا :

أَهَاجَكَ بَرْقَ آخِرِ اللَّيْلِ وَاصْبُ * تَضَمَّنَهُ فَرْشُ الْجَبَا فَاَلْمَسَارِبُ
يَجْرُ وَيَسْتَأْتِي نَشَاصًا كَأَنَّهُ ^(١) * بَغِيْقَةً حَادٍ جَلَجَلَ الصَّوْتِ جَالِبُ
تَأَلَّقَ وَأَهْمَوَى وَخَمِيَ بِالرُّبَا * أَحْمُ الذَّرَى ذُو هَيْدَبٍ مُتْرَاكِبُ
إِذَا حَرَكْتَهُ الرِّيحُ أَرْزَمَ جَانِبُ ^(٢) * بَلَا هَزَقٍ مِنْهُ وَأَوْمَضَ جَانِبُ
كَأَنَّ أَوْمَضَتْ بِالْعَيْنِ ثُمَّ تَبَسَّمَتْ ^(٤) * خَرِيْعٌ بَدَا مِنْهَا جَبِيْنٌ وَحَاجِبُ
يَمِجُّ النَّسْدَى لَا يَذْكُرُ السَّيْرَ أَهْلُهُ * وَلَا يَرْجِعُ الْمَاشِيَّ بِهِ وَهُوَ جَادِبُ

وله أيضا :

سَيِّهَكَ فِي الدُّنْيَا شَفِيقٌ عَلَيْكَ * إِذَا غَالَهُ مِنْ حَادِثِ الْدَّهْرِ غَائِلُهُ
وَيُخْفِي لَكُمْ حُبًّا شَدِيدًا وَرَهْبَةً * وَلِلنَّاسِ أَشْغَالٌ وَحُبٌّ شَاغِلُهُ
وَحُبٌّ يُنْسِنِي مِنَ الشَّيْءِ فِي يَدِي * وَيُدْهِلُنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَزْوَئِلُهُ
كَرِيمٌ يُمِيتُ السَّرَّ حَتَّى كَأَنَّهُ * إِذَا اسْتَبَحَّثُوهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ
يَوَدُّ بَانَ يُمِيسِي سَقِيًّا لَعَلَّهَا * إِذَا سَمِعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسِلُهُ
وَيُرَاتِحُ لِلْعُرُوفِ فِي طَلَبِ الْعِلَا * لِتُحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلٍ شِمَائِلُهُ
فَلَوْ كُنْتُ فِي كَبَلٍ وَبُحْتُ بِلَوْعَتِي ^(٥) * إِلَيْهِ لِأَنَّتَ رَحْمَةً لِي سَلَا سِلَّهُ

وله أيضا :

أَقُولُ لِمَاءِ الْعَيْنِ أَمَعِنَ لَعَلَّهُ * بَمَا لَا يَرَى مِنْ غَائِبِ الْوَجْدِ يَشْهَدُ
فَلَمْ أَدْرُ أَنْ أَلْعَيْنَ قَبْلَ فِرَاقِهَا * غَدَاةَ الشَّبَابِ مِنْ لَاجِجِ الْوَجْدِ تَجْمَدُ
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْعَيْنِ صَنَّتْ بِمِثْلِهَا * عَلَيَّ وَلَا مِثْلِي عَلَى الدَّمْعِ يُجَسَّدُ

(١) النشاص : السحاب المرتفع بغضه فوق بعض . (٢) أرزم : صوت . (٣) الهزق :
شدة صوت الرعد . (٤) خريع : امرأة حسناء . (٥) كبل : قيد شديد .

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرَّعْدَ فِي الْمُحِيلَةِ مِنْهَا * مِثْلَ هَزْمِ الْقُرُومِ فِي الْأَشْوَالِ (٢)
 وَتَرَى الْبَرْقَ عَارِضًا مُسْتَطِيرًا * مَرَحَ الْبَلْقِ جُلْنَ فِي الْأَجْلَالِ (١)
 أَوْ مَصَابِيحَ رَاهِبٍ فِي يَفَاعٍ * سَغَمَ الزَّيْتِ سَاطِعَاتِ الذُّبَالِ

وله أيضا :

فِيَاعِزَّ إِنَّ وَاشٍ وَشَى بِي عِنْدَكُمْ * فَلَا تُكْرِمِيهِ أَنْ تَقُولِي لَهُ أَهْلَا
 كَمَا لَوْ وَشَى وَاشٍ بَعْرَةً عِنْدَنَا * لَقُلْنَا تَرَحَّحَ لَا قَرِيبًا وَلَا سَهْلًا

(١) القروم : الفحول التي أعفيت من الحمل عليها وتركت للفحلة .

(٢) الأشوال : الإبل التي مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لها .

(د) الغزل القصصي

١ - أخبار قيس بن الملوّح (المجنون)^(١)

قال الأصفهاني عن محدثيه عن ابن دأب قال : قلت لرجل من بني عامر : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين ! إنهم لكثيرٌ ! فقلت : ليس هؤلاء أعني ، إنما أعني مجنونَ بني عامر الشاعر الذي قتله العشق ، فقال : هيهات ! بنو عامر أغلظُ أكباداً من ذلك ، إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعافِ قلوبها ، السخيفة عقولها ، الصعلة^(٢) رؤوسها ، فأما نزارُ فلا .

وقال الرّياشي سمعت الأصمعي يقول : رجلا ن ما عرّفنا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنونُ بني عامر ، وابنُ القرية^(٣) ، وإنما وضعهما الرواة .

وقال المدائني : المجنون المشهور بالشعر عند الناس صاحبُ ليلى قيس بن معاذ من بني عامر ، ثم من بني عقيل ، أحد بني مُيمر بن عامر بن عُقيل ، قال : ومنهم رجل آخر يقال له : مهدي بن الملوّح من بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

وقال ابن الكلبي : حدثت أن حديثَ المجنون وشعره وضعه قتي من بني أمية كان يهوى أبنّة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون ونسبها إليه .

(١) هو قيس بن الملوّح ، ويقال : ابن معاذ بن مزاحم من بني عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون ليلى ، نسبة إلى ليلى التي كان يتعشقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهل النقد من علماء الشعر يرون أن قصته موضوعة ، وضعها رجل من بني أمية كان يحب أبنّة عم له ويكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقال الأشعار التي يظنها الناس للمجنون ، وقد زاد الناس فيه بعدئذ . ويؤيد ذلك أن كثيراً مما ينسب إليه من الأشعار رويت لغيره ، فقصته إذا من قبيل الشعر التمثيلي (درام) الذي يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهي تمثل العشق مع التعفف ، أو لعل لها أصلاً قليلاً وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التي تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فإن بين الأشعار المنسوبة إلى المجنون طائفة تمثل شعائر المحبين كما هي على طبيعتها . وأخبار المجنون في الأغاني (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعراء (ص ٣٥٥) وخرزانه الأدب (ج ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصعلة : صغر الرأس . (٣) هو أبو يربوع ابن زيد بن قيس والقرية أمه قتله الهجاج لانتهاجه بالليل لابن الأشعث .

وعن حماد بن طالوت بن عباد : أنه سأل الأصمعي عنه ، فقال : لم يكن مجنوناً ، بل كانت به لؤنةٌ أحدها العشقُ فيه ، كان يهوى امرأةً من قومه يقال لها ليلى ، وأسمه قيسُ ابنُ معاذ .

وذكر عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه أن اسمه قيسُ بن معاذ .
وذكر شعيبُ بن السكِّين عن يونس النحوي أن اسمه قيسُ بن الملوِّح ، قال أبو عمرو الشيباني : وحدثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقيته وسأله عن اسمه ونسبه ، فذكر أنه قيسُ بن الملوِّح .

وذكر هشام بن محمد الكلبي أنه قيسُ بن الملوِّح ، وحدث أن أباه مات قبل اختلاطه ،^(١)
فمقر على قبره ناقته وقال في ذلك :

عقرتُ على قبر الملوِّح ناقتي * بذى السرح لما أن جفاه الأقاربُ
وقلتُ لها كوني عقيراً فإني * غداً راجلاً أمشى وبالأمس ركبُ
فلا يُبعدنك الله يا بن مزاحم * فكلُّ بكأس الموت لاشكَّ شاربُ

وقال الأصمعي : سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العامري فقال :
عن أيهم تسألني ؟ فقد كان فينا جماعةٌ رموا بالجنون ، فعن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذي
كان يُسبب بليلى ، فقال : كلُّهم كان يُسبب بليلى ، قلت : فأُنشدني لبعضهم ، فأُنشدني
لمزاحم بن الحارث المجنون :

ألا أيها القلبُ الذي لجَّ هائماً * بليلى وليداً لم تقطعْ تائبه
أفنى قد أفاق العاشقون وقد أنى * لك اليوم أن تلقى طيباً تلاميهُ^(٢)
أجدك لا تُنسيك ليلى ملبسةً * تلم ولا عهد يطول تقادمه

(١) يقال : اختلط عقله إذا تغير وفسد . (٢) ذوالسرح : واد بارض نجد .
(٣) عقيراً ، أى معقورة ، وأصل العقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى النحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أى يخرونها ويقولون : إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فنكاته بمثل صنعه بعد وفاته . وإنما أطلق العقر على النحر لأنهم كانوا إذا أرادوا نحر البعير عقروه لتلا يشرده عنقه
النحر اه من اللسان مادة عقر . (٤) أنى : حاذ وقرب .

قلت : فَأَنْشِدُنِي لغيره منهم ، فَأَنْشِدُنِي لِمُعَاذِ بْنِ كَلْبٍ المَجْنُونِ :

أَلَا طَلَمَا لَاعَبْتُ لَيْلِي وَقَادَنِي * إِلَى اللَّهِو قَلْبٌ لِلْحِسَانِ تَبُوعُ
وطلال أمراء الشوقِ عينيَ كَلَّمَا * نَزَفْتُ دُمُوعًا تَسْتَجِدُّ دُمُوعُ
فقد طال إمساكي على الكبدِ التي * بها من هوى ليلي الغداة صدوعُ

قلتُ : فَأَنْشِدُنِي لغير هذين ممن ذكرت ، فَأَنْشِدُنِي لِمَهْدِيِّ بْنِ المَلُوحِ :

لو آت لك الدنيا وما عُدَّتْ به * سِوَاهَا وَلَيْلِي بَأْسٌ عِنْدَكَ بَيْنَهَا ^(٢)
لكنت إلى ليلى فقيرا وإنما * يقود إليها ودَّ نَفْسِكَ حَيْثُهَا

قلتُ له : فَأَنْشِدُنِي لِمَنْ يَبْقَى مِنْ هؤُلاءِ ، فقال : حَسْبُكَ ! فوالله إنَّ في واحد من هؤُلاءِ
لِمَنْ يُوزَنُ بِعُقُلَانِكُمْ اليَوْمَ .

وقال الجاحظُ : ما ترك الناسُ شعرا مجهولَ القائلِ قِيلَ في لَيْلَى إِلَّا نَسَبُوهُ إِلَى المَجْنُونِ ،
ولا شعرا هذه سبيلُه قِيلَ في لَيْلَى إِلَّا نَسَبُوهُ إِلَى قَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ .

قال أبو الفرج : وأنا أذكر ما وقع إلى من أخباره جملاً مستحسنةً ، مُتَبَرِّئًا مِنَ العَهْدَةِ
فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخباره يَنسُبُهَا بِعُضِّ الرِّوَاةِ إِلَى غيرِه وَيَنسُبُهَا مِنْ
حِكْمِيَّتِ عَنْهُ إِلَيْهِ ، وَإِذَا قَدِّمْتُ هَذِهِ الشَّرِيطَةَ بَرُّتُ مِنْ عَيْبِ طَاعِنٍ وَمُتَّبِعِ العَيْوَبِ .

أخبرني بجزءه في شغفه بليلى جماعة من الرواة ، ونسخت ما لم أسمع من الروايات
وجمعت ذلك في سياقة خبره ما اتسق ولم يختلف ، فاذا اختلفت نسبت كل رواية
إلى راويها .

فمن أخبرني بجزءه أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ وحبيب بن نصر المهلبيّ ، قالوا :
حدثنا عمر بن شبة عن رجاله وإبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة ، ونسخت أخباره من
رواية خالد بن كلثوم وأبي عمرو الشيبانيّ وآبن دأب وهشام بن محمد الكلبيّ وإسحاق بن
الخصاص وغيرهم من الرواة .

(١) الامتراء : الاستدرار . (٢) بينها هنا معناه وصلها لأنه من أسماء الأضداد ، يطلق على الوصل والفراق .

قال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة: كان المجنون يهوى ليلي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحرّيش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك، وهما حينئذ صبيان، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلها، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه، قال: ويدل على ذلك قوله:

تعلقت ليلي وهي ذات ذؤابة^(١) * ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى بهم ياليت أننا * إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر بهم

وقال ابن الكلبي: كان سبب عشق المجنون ليلي، أنه أقبل ذات يوم على ناقه له كريمة وعليه حلتان من حلال الملوكة، فمتر بأمرأة من قومه يقال لها: كريمة، وعندها جماعة نسوة يتحدثن، فيهن ليلي، فأعجبهن جماله وكأله، فدعوته إلى التزول والحديث، فنزل وجعل يتحدثن وأمر عبداً له كان معه فعقرهن ناقته، وظل يتحدثن بقية يومه، فبينما هو كذلك، إذ طلع عليهم قتي عليه بردة من برد الأعراب يقال له: "منازل" يسوق معزى له، فلما رأيته أقبلن عليه وتركن المجنون، فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول:

أعقر من جراً كريمة ناقتي * ووصلي مفروش لوصول منازل^(٢)
إذا جاء قعقن الحلي ولم أكن * إذا جئت أرضى صوت تلك الخلال
متى ما أنتضلنا بالسهم فضلت^(٣) * وإن نرّم رشقاً عندها فهو ناضلي^(٤)

قال: فلما أصبح ليس حلتها وركب ناقه له أخرى ومضى متعرضاً لهن، فالتقى ليلي قاعدةً بفناء بيتها وقد علق حبه بقلها وهو يته، وعندها جويريات يتحدثن معها، فوقف بهن وسلم، فدعوته إلى التزول وقلن له: هل لك في مُحادثته من لا يسغله عنك منازل ولا غيره؟ فقال:

(١) الذؤابة: شعر الناصية.

(٢) أي من أجل، يقال: فعلت ذلك من جزاك أي من أجلك ومما أنشد على هذا:

أمن جراً بنى أسد غضبتم * ولو شتمت لكان لكم جوار

(٣) أي ترامينا بالسهم، ونضلت: غلبته.

(٤) الرشق: رمى أهل النضال ما معهم من السهام في جهة واحدة.

إلى لعمري ، فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم ، هل لها عنده مثل ما له عندها ، فجعلت تُعرض عن حديثه ساعةً بعد ساعةٍ وتحدث غيره ، وقد كان عاقب قلبه مثل حبابها إياه وشغفته وأستلحها ، فيينا هي تُحدثه ، إذ أقبل فتى من الحى فدعته وسارته سرارا طويلا ، ثم قالت له : انصرف ، ونظرت إلى وجه المجنون قد تغير وأنتقع لونه وشق عليه فعلها ، فأنشأت تقول :

كلانا مظهر للناس بغضا * وكل عند صاحبه مكيّن

تبلغنا العيون بما أردنا * وفي القلبين ثم هوى دفين

فلما سمع البيتين شق شفقةً شديدة وأغمى عليه ، فكث على ذلك ساعة ، ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ .

وعن أبي الهيثم العقيلي قال : لما شهر أمر المجنون ولبى وتناشد الناس شعره فيها ، خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء ، وخطبها ورد بن محمد العقيلي وبذل لها عشرين من الإبل وراعيها ، فقال أهلها : نحن محيروها بينكما ، فمن آخترت تزوجته ، ودخلوا إليها فقالوا : والله لئن لم تختاري وردا لثمتن بك ، فقال المجنون :

ألا يا ليل إن ملكت فينا * خيارك فانظري لمن الخيار

ولا تستبدلي مني دنيا * ولا برما إذا حث القطار^(١)

يهرول في الصغير إذا رآه * وتعجزه ملبات بكار

فشل تأييم منه نكاح * ومثل تموي منه أفتقار

فاختارت وردا فزوجته على كره منها .

وقال :

أيا ويخ من أمسى تحلس^(٢) عقله * فأصبح مذهوبا به كل مذهب

خليا من الخلان إلا معدرا^(٤) * يضا حكني من كان يسوى تجني

(١) البرم : التجميل . (٢) القطار : ربح اللحم المشوى . (٣) تحلس : سلب .
(٤) هو المقصر الذي لا عذر له ولكنه يتكلف العذر ، ومنه قوله تعالى : (وجاء العذرون من الأعراب ليؤذن لهم) .

إِذَا ذُكِرْتُ لِيْ عَقَلْتُ وَرَاجَعْتُ * رَوَائِعُ عَقْلِيْ مِنْ هَوَى مُتَشَعِّبٍ^(١)
 وَقَالُوا صَحِيحٌ مَا بِهِ طَيْفٌ جِنَّةٍ * وَلَا أَلْهَمٌ إِلَّا بِافْتِرَاءِ التَّكْذِيبِ
 وَشَاهِدُ وَجْدِي دَمْعُ عَيْنِي وَحُبُّهَا * بَرَى اللَّحْمَ عَنْ أَحْنَاءِ عَظْمِي وَمَنْكِبِي^(٢)
 تَجَنَّبَتْ لَيْلِي أَنْ يَلْبِجَ بِكَ الْهَوَى * وَهِيَهَاتَ كَانَ الْحُبُّ قَبْلَ التَّجَنُّبِ
 أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ * صَدَى أَيْمَانًا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ^(٣)
 فَلَمْ أَرِ لَيْلِي بَعْدَ مَوْقِفِ سَاعَةٍ * بِحَيْفٍ مِّنِّي تَرْمِي جِمَارَ الْمُحْصَبِ
 وَيُدِي الْحَصَى مِنْهَا إِذَا قَذَفْتُ بِهِ * مِنَ الْبُرْدِ أَطْرَافَ الْبِنَانِ الْمُخْضَبِ
 فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلِي الْغَدَاةَ كَأَطْرِي * مَعَ الصَّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُّغْرَبٍ

قال أبو الفرج : أنشدني الأخفش عن أبي سعيد السُّكْرِيّ عن محمد بن حبيب

للجنون :

فَوَاللَّهِ ثُمَّ اللَّهُ إِنِّي لِدَائِبُ * أَفَكَّرَ مَا ذَنِبِي إِلَيْهَا وَأَعْجَبُ
 وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي عِلَامَ قَتَلْتَنِي * وَأَيَّ أُمُورِي فِيكَ يَا لَيْلِ أَرْكَبُ
 أَأَقْطَعُ حَبْلَ الْوَصْلِ فَاَلْمُوتُ دُونَهُ * أَمْ أَشْرَبُ رَنْقًا مِنْكُمْ لَيْسَ يُشْرَبُ
 أَمْ أَهْرُبُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مَجَاوِرًا * أَمْ أَصْنَعُ مَاذَا أَمْ أَبُوحُ فَأُغْلَبُ
 فَأَيُّهُمَا يَا لَيْلِ مَا تَرْتَضِينَهُ * فَإِنِّي لِمُظْلُومٌ وَإِنِّي لِمُعْتَبُ

وقال :

عَرَضْتُ عَلَى قَلْبِي الْعَزَاءَ فَقَالَ لِي * مِنْ آلَانَ فَيَأْسُ لَا أَعْرُكَ مِنْ صَبْرِي
 إِذَا بَانَ مِنْ تَهْوَى وَأَصْبَحَ نَائِبًا * فَلَا شَيْءَ أَجْدَى مِنْ حُلُوكَ فِي الْقَبْرِ

(١) الروائع : جمع رائعة ، أى مرتاعة . (٢) الأحناء : جمع حنو وهو كل شئ فيه أعوجاج كهضم
 الحجاج (العظم الذى ينبت عليه الحاجب) والحمى والصلع . (٣) الصدى : الجسد من الأذى بعد موته ،
 ويطلق على الرجل التحيف الجسد ، كما أنه يطلق على الصوت الذى يسمعه المصوت عقب صياحه راجعا إليه من
 نحو الجبل والبناء المرتفع .

وداعِ دعا إذ نحن بالْحَيْفِ مِنْ مَنَى * فَهَيَّجَ أَطْرَابَ الْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِى
دعا باسم لَيْلى غَيْرَهَا فَكَأَنَّهَا * أَطَارَ بِلَيْلى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِى
دعا باسم لَيْلى ضَلَّ اللهُ سَعِيهَ * وَلَيْلى بِأَرْضٍ عَنْهُ نَازِحَةٌ قَفَرِ

وقال :

أَيَا جَبَلِيَّ نَعَانِ بِاللَّهِ خَلِيًّا * سَبِيلَ الصَّبَا يَخْلُصُ إِلَى نَسِيمِهَا
أَجْدُ بَرْدَهَا أَوْ تَشْفِي مَنَى حَرَارَةً * عَلَى كَبِدِي لَمْ يَبِقَ إِلَّا صِيمِهَا^(٢)
فَاكَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَسَمَّتْ * عَلَى نَفْسٍ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُهَا

وقال :

أَيَا حَرَجَاتِ الْحَيِّ حَيْثُ تَحْمَلُوا * بِيذِي سَلِمَ لَا جَادُكُنَّ رِبْعُ^(٤)
وَحَيَاتِكِ اللَّاتِي بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى * بَلِينِ بَلِيٍّ لَمْ تَبْلَهَنَّ رُبُوعُ
نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنِّي نَدَامَةً * كَمَا يَنْدَمُ الْمَغْبُوتُ حِينَ يَلِيعُ^(٦)
فَقَدْتُكَ مِنْ نَفْسِ شِعَاعٍ فَإِنِّي^(٥) * نَهَيْتُكَ عَنْ هَذَا وَأَنْتِ جَمِيعُ
فَقَرَّبْتِ لِي غَيْرَ الْقَرِيبِ وَأَشْرَفْتُ^(٧) * إِلَيْكَ شَايَا مَا لَهْنُ طُلُوعُ^(٨)

وله :

يَا صَاحِبِي الْمَاءِ بِي بِمَنْزِلَةٍ * قَدْ مَرَّ حِينَ عَلَيْهَا أَيَّمَا حِينِ
إِنِّي أَرَى رَجَعَاتِ الْحَبِّ تَقْتُلُنِي * وَكَانَ فِي بَدْنِهَا مَا كَانَ يَكْفِينِي^(٩)
لَا خَيْرَ فِي الْحَبِّ لَيْسَتْ فِيهِ قَارِعَةٌ * كَأَنَّ صَاحِبَهَا فِي نَزْعِ مَوْتُونَ

- (١) الأَطْرَابُ: جمع طرب وهو خفة تعترى الشخص من شدة الفرح أو الحزن. (٢) صِيمِهَا: أصلها .
(٣) الحَرَجَاتُ: جمع حرجة وهي الغيضة ، وسميت بذلك لضيقها ، وقيل : الشجر الملتف ، وهي أيضا الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة وهي مارعى من المال . (٤) ذُو سَلِمَ: موضع بالحجاز .
(٥) يقال : نفس شعاع إذا انتشر رأيا فلم تنجحه لأمر جزم . (٦) الجميع : ضد المتفرق .
(٧) أشرفت : ظهرت وأرتفعت . (٨) الشايات : جمع ثية وهي الطريقة في الجبل ، وقيل : هي العقبة ، وقيل : هي الطريق العالى فيه ، يريد أن الوصول الى ليل صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المضروب على الوتين ، وهو عرق معلق بنياط القلب .

إن قال عدُّهُ مهلاً فلانَ لهم * قال الهوى غير هذا القولِ يعنيني
ألقى من اليأس تاراتٍ فتقتلني * وللرجاء بشاشاتٍ فتُحِينِي

وله :

أُستَقِيلِي نَفْحَ الصَّبَا ثم شائقٍ * يبردُ شأيا أم حسانَ شائقٍ
كأنَّ على أنيابها انجمرَ شَيْخَهَا^(١) * بماء الندى من آخرِ الليلِ عَاتِقٍ^(٢)
وما شئتُهُ إلا بعيني تفرسًا * كما شيم في أعلى السحابةِ بَارِقُ

وروى الأصمعي له قوله :

أخذتُ محاسنَ كلِّ ما * ضنَّتُ محاسنُهُ بحُسْنِهِ
كاد الغزالُ يكونُها * لولا الشوى ونُسُوزُ قرْنِهِ

قال : وهو القائل :

ولم أرَ ليليَ بعدَ موقِفِ ساعةٍ * بخيفٍ مِنِّي ترمي جِمارَ المحصَّبِ
ويُبدِي آلِصِي منها إذا قَدَّفتُ به * من البُردِ أطرافَ البنانِ المخضَّبِ
فأصبحتُ من ليليَ الغدَاةَ ككاظِرٍ * مع الصبحِ في أعقابِ نجمٍ مغربٍ
ألا إتما غادرتِ يا أمَّ مالكٍ * صدَى أيما تذهبُ به الريحُ يذهبِ

وقال :

يقول أناسٌ علَّ مجنونَ عامرٍ * يرومُ سُلوًا قلتُ أتى ليأبياً
وقد لامني في حبِّ ليليَ أقاربي * أحي وأبنُ عمي وأبنُ خالي وخاليأ
يقولون ليليَ أهلُ بيتِ عداوةٍ * بنفسِي ليليَ من عدوٍّ وماليأ
ولو كان في ليليَ شداً من خصومةٍ * للويتُ أعناقَ المَطَى المِلاويأ^(٣)

(١) شيخها : مزجها . (٢) العاتق : البكر التي لم تبن عن أهلها، والظاهر أنها ليست مرادة

هنا وأن كلمة «عاتق» محرفة عن «غابق» وهو الساق في الغبوق أى العشى .

(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ميمى من لوى بمعنى خلف .

وقال :

ألا ما ليلى لا تُرى عند مَضْجَعِي * بليلى ولا يَجْرِي بِذَلِكَ طَائِرُ
 بَلَى إِنَّ عَجْمَ الطَّيْرِ تَجْرِي إِذَا جَرَتْ * بليلى ولكن ليس للطير زاجرُ
 أزالَتْ عن العهد الذى كان بيننا * بِذِي الأَثَلِ أم قد غيرتْها المقادِرُ
 فوالله ما فى القرب لى منك راحةٌ * ولا البعد يُسَلِّبُنِي ولا أنا صابرُ
 ووالله ما أدري بأية حيلةٍ * وأى مرَامٍ أو خِطَابٍ أَخْطِرُ^(١)
 وتالله إنَّ الدهرَ فى ذاتِ بيننا * على لها فى كلِّ حالٍ لجائرُ
 فلو كنتِ إذ أزعمتِ هجرى تركتِني * جميع القوى والعقلُ منى وافرُ^(٢)
 ولكنَّ أيامي بِحَقْلِ عَنزِيَةٍ * وبالرَّضْمِ أيامُ جناها التجاورُ^(٣)
 وقد أصبح الودُّ الذى كان بيننا * أمانى نفسٍ والمؤمِّلُ حائرُ
 لعمري لقد رنقتِ يا أتم مالكِ * حياتي وسأقتني إليك المقادِرُ^(٤)

وقال :

يا للرجالِ لهمَّ باتِ يَعْرُونِي * مُسْتَطَرِّفٍ وقديم كان يَعْنِينِي
 على غريمٍ ملىء غيرِ ذى عَدَمٍ * يَأبَى فِيمَطْلِي دِينِي وَيَلْوِينِي^(٥)
 لا يذكر البعض من ديني فينكره * ولا يُحَدِّثُنِي أن سوف يَقْضِينِي^(٦)
 وما كَشْكْرِي شُكْرُ لو يُواقِفُنِي * ولا مَنِي كَمَنَاهُ إِذ يُمَنِينِي^(٧)

(١) الخطار : مصدر من خاطر بمعنى راهن .

(٢) جميع : مجتمع . (٣) الحقل : المزرعة ويطلق على الموضع البكر الذى لم يزرع فيه قط .
 وعنزة : موضع بين البصرة ومكة . والرَّضْم : موضع على ستة أميال من زُبالة ، وزبالة : منزل معروف بطريق
 مكة من الكوفة . (٤) رنقت : كدرت ، والترنيق كما يطلق على التكدير يطلق على صدّه الذى هو التصفية .
 (٥) ملىء بالهمز أى ثقته غنى . قال صاحب اللسان : وقد أولع فيه الناس بترك أظمز وتشديد الياء .
 (٦) عدم أى فقر ومثله عدم بضم العين وسكون الدال . قال صاحب اللسان : اذا ضمت أوله خففت فقلت :
 عدم واذا فتحت أوله ثقلت فقلت : عدم . (٧) يلوينى : يطلنى ، يقال : لواه دينه وبدينه : مطله .

أطعته وعصيتُ الناسَ كُلَّهُمْ * في أمره ثم يَأْبَى فهو يَعْصِبُنِي
خَيْرِي لمن يبتغي خيري ويأمله * من دون شرّي وشرّي غيرُ مأمون
وما أُشَارِكُ في رأيي أخوا ضَعِيفٍ * ولا أقولُ أُنحَى من لا يُوَاتِبُنِي^(٢)

وله :

ألا أيها البيتُ الذي لا أزوره * وإن حلّه شخصٌ إلى حبيبُ
هجرتك إشفاقًا وزرتك خائفًا * وفيك على الدهر منك رقيبُ
سأستعيبُ الأيامَ فيك لعلها * بيومٍ سرورٍ في الزمانِ تَووبُ

وبلغ المجنون أن أهل ليلي يريدون نقلها إلى التَّقْفِيّ فقال :

كأن القلبَ ليلةً قيل يُغْدَى * بليلى العامرية أو يَرَاخُ
قطاةً عزّها شركٌ فباتت * تُجاذبه وقد علقَ الجناحُ

فلما نُقِلَتْ ليلي إلى التَّقْفِيّ قال :

طربتَ وشاقتكَ الجمولُ^(٣) الدوافعُ * غداة دعا بالبين أسْفَعُ^(٤) نازعُ
شحا فاهُ نعبًا بالفراقِ كأنه * حريب سَلِيبٍ^(٧) نازحُ الدارِ جازعُ
فقلتُ ألا قد بين الأمرُ فأنصرف * فقد راعنا بالبين قبلك رائعُ
سُقِيتَ سُمومًا من غرابٍ فإنتى * تبيئتُ ما خبرتَ مد أنت واقعُ

(١) الضعف هكذا بالتحريك : لغة في الضعف بالفتح والسكون . ويستعمل في ضعف الرأي والعقل ،
وأشد عليه ابن الأعرابي هذا البيت . ويستعمل في ضعف الجسم وأشد عليه :
ومن يلق خيرا يغمز الدهر عظمه * على ضعف من حاله وفتور

(٢) يواتبني : يتأعدني .

(٣) الجمول في الأصل : الموادج واحدها حل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل في الإبل التي عليها الموادج .
والدوافع : المتدفعة في السير . (٤) كذا في أغلب النسخ وترين الأسواق . وفي ب ، س :
« أستمح » والأسفع والأستمح معناهما واحد وهو الأسود . والنازع : المسرع . والمراد بالأسفع النازع « الغراب » .
(٥) شحافه يشحوه ويشحاه : فتحه . (٦) نعبا : صياحا وتصويتا . (٧) الحريب : من
سلب حريته وهي ماله الذي يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تبين ، ومنه المثل : « قد بين الصبح لذي عينين » .

ألم تَرَ أَنِّي لَا مَحِبَّ أَلَوْمُهُ * وَلَا بِيَدِيْلٍ بَعْدَهُمْ أَنَا قَانِعٌ
 أَلَمْ تَرِدَارَ الْحَيِّ فِي رَوْنِقِ الضَّحَى * بِحَيْثُ أَنْخَسْتُ لِلهَضْبَتَيْنِ الْأَجَارِعُ^(١)
 وَقَدْ يَتَنَاءَى الْإِلْفُ مِنْ بَعْدِ الْفَقَةِ * وَيَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْخَلِيظَيْنِ صَادِعُ
 وَكَمْ مِنْ هَوَى أَوْ جِرَةٍ قَدْ أَلْفَتْهُمُ * زَمَانًا فَلَمْ يَمْنَعَهُمُ الْبَيْنَ مَانِعُ^(٢)
 كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ مَيِّتٌ جَوْبَةٌ * أَخُو ظَمًا سُدَّتْ عَلَيْهِ الْمَشَارِعُ^(٣)
 تَحَلَّسَ مِنْ أَوْشَالٍ مَاءٍ صَبَابَةٌ * فَلَا الشَّرْبُ مَبْذُولٌ وَلَا هُوَ نَاقِعُ^(٤)
 وَبِيضٌ تَطَلَّى بِالْعَبِيرِ كَأَنَّهَا * نِعَاجُ الْمَلَا جَبِيَّتْ عَلَيْهَا السَّبْرَاقُ^(٥)
 تَحْمَلَنَّ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ فَأَوْمَضَتْ * لَهَنَ بِأَطْرَافِ الْعَيُونِ الْمَدَامِعُ^(٦)
 فَمَا رَمَنْ رِبْعِ الدَّارِ حَتَّى تَشَابَهَتْ * هِجَائِنَهَا وَالْجُونُ مِنْهَا الْخَوَاضِعُ^(٧)
 وَحَتَّى حَمَلَنَّ الْحَوْرَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَخَاضَتْ سُدُولَ الرَّقْمِ مِنْهَا الْأَكَارِعُ^(٨)^(٩)^(١٠)^(١١)^(١٢)^(١٣)^(١٤)^(١٥)

(١) الهضبتان : مثنى هضبة وهى الرابية أو الجبل المنبسط على الأرض أو الجبل المخلوق من صخرة واحدة ، والأجارع : جمع أجرع ، والأجرع كالجرعاء : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تنبت شيئاً (انظر اللسان فى مادق هضب وجرع) . (٢) الهوى بمعنى المهوى وهو المحبوب ، ومنه قول الشاعر :

هَوَاىَ مَعَ الرِّكْبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدٌ * جَنِيْبٌ وَجُنَانِيْ بِمَكَّةَ مُوْتِقٌ

(٣) الجوبة : فضاء أملس سهل بين أرضين . (٤) تحلس الشيء : اتبته وأخذته خلسة . (٥) الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والصبابة : بقية الماء تبقى فى الأناة والسقاء . (٦) هو من تقع بمعنى روى . (٧) الملا : الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة . (١٠) معناه ما برحن . يقال : مارام المكان أى ما برحه . (١١) الهجائن : الأبل البيضاء الكريمة واحدها هجان . والجون : جمع جون بفتح الجيم وهو الأسود المشرب بحمرة ، ويطلق على الأسود الجحومى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد . (١٢) الخواضع : الأبل وإنما يقال لها خواضع لأنها تخضع أعناقها حين يجذبها السير ، قال جرير :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْمَطَى خَوَاضِعٌ * وَكَأَنَّهِنَّ قَطَا فَلَآةٌ مَجْهَلٌ

(١٣) الحور : جمع حوراء وهى البيضاء أو من فى عينها حور وهو شدة سواد المقلة فى شدة بياضها . (١٤) السدول : جمع سدبل وهو ما يجلل به الهودج من الثياب . (١٥) الأكارع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع ، أو الأكارع كما يقول سيبويه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الإنسان : مادون الركبة الى الكعب ، ومن الدابة قوائمها مطلقاً .

فلما آستوت تحت الحدور وقد جرى * عيسير ومسك بالعرانين رادع^(١)
 أشرن بأن حثوا الجمال فقد بدا * من الصيف يوم لافح الحر ماتع^(٢)
 فلما لحقنا بالحمول تباشرت * بنا مقصرات غاب عنها المطامع^(٣)
 يعرض بالدل المليح وإن يرد * جناهن مشغوف فهن موانع^(٤)
 فقلت لأصحابي ودمعي مسبل * وقد صدع الشمل المشتت صادع^(٥)
 أليلى بأبواب الحدور تعرضت * لعيني أم قرن من الشمس طالع^(٦)

وروى أن أبا المجنون حج به ليدعو الله عز وجل في الموقف أن يعافيه، فسار ومعه ابن عمه زياد بن كعب بن مناحم، فمض بجمامة تدعو على أيكة فوقف يبكي، فقال له زياد: أي شيء هذا؟ ما يبكيك أيضا؟ سر بنا نلحق الرفقة، فقال:

أأن هتفت يوما بواد حمامة * بكيت ولم يعنك بالجهل عاذر^(٧)
 دعيت ساق حربعد ما علت الضحى * فهاج لك الأحران أن ناح طائر^(٨)
 تغني الضحى والصبح في مرجحة * كفاف الأعلى تحتها الماء حائر^(٩)
 كأن لم يكن بالغيل أو بطن أيكة * أو الجزع من تول الأشاء حاضر^(١٠)

(١) المراد بالرادع هنا المردوع به الجسد أو الثوب وهو العبير والمسك. وأصل الردع اللطخ بالطيب والزعفران، يقال: قبض رادع ومردوع أي فيه أثر الطيب والزعفران، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «لم ينه عن شيء من الأدوية إلا عن المرعرة التي تردع الجلد» أي تنفض صبغها عليه. (٢) الماتع: الطويل. (٣) مقصرات: جمع مقصرة أي داخله في القصر وهو العشى، يقال: أتته قصرنا أي عشيا، وأقصرنا أي دخلنا في قصر العشى، كما تقول أمسينا من المساء من أعصرت الجارية إذا بلغت عصر شبابه، أو من أعصرت أي دخلت في العصر (انظر لسان العرب مادة قصر). (٤) تدعو: تصوت وتوح. (٥) ساق حر: أصله صوت القمارى ويطلق على الذكر من القمارى تسمية له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر لسان مادتي سوق وحر). (٦) المرجحة: المهترئة المتمايلة. (٧) حائر: متردد. (٨) الغيل: اسم لعدة مواضع والظاهر أن المراد هنا واد لبني جعدة وهم قوم المجنون. (٩) الأيكة: الغيضة المتلفة الأشجار ولم نجد في الكتب التي بأيدينا «أيكة» ولا «بطن أيكة» اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق. (١٠) الجزع: منعطف الوادى ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جزع بنى جواز وهو واد باليمامة. (١١) الأشاء: موضع باليمامة فيه نخيل. ولعل كلمة «تول» محرفة عن «تال» والتال: صغار النخل واحده تالة.

يقول زيادٌ إذ رأى الحمى هَجَرُوا^(١) * أرى الحمى قد ساروا فهل أنت سائرٌ
وإني وإن غال التقادمُ حاجتي * مُلِمٌّ على أوطانٍ لَيْلَى فَنَاطِرُ^(٢)

كان المحنونُ وليلى وهما صبيانِ يرعيانِ غنما لأهلهما عند جبلٍ في بلادهما يقال له
التوباد، فلما ذهب عقله وتوحش، كان يجيء إلى ذلك الجبل فيقيمُ به، فإذا تذكر أيام
كان يُطيف هو وليلى به جَزَع جزعا شديدا وأستوحش فهم على وجهه حتى يأتي نواحي
الشام، فإذا تاب إليه عقله رأى بلدا لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم: بأبي أتم، أين
التوباد من أرض بني عامر؟ فيقال له: وأين أنت من أرض بني عامر! أنت بالشام
عليك بنجم كذا فأمة، فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلادا
يُنكرها وقوما لا يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بني عامر، فيقولون: وأين أنت من
أرض بني عامر! عليك بنجم كذا وكذا، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه
قال في ذلك:

وأجهشتُ للتوبادِ حين رأيته^(٤) * وكبرَ للرحمن حين رآني
وأذريتُ دمعَ العين لما عرفته * ونادى بأعلى صوتِه فدعاني
فقلتُ له قد كان حولك جيرةٌ * وعهدى بذاك الصرم منذ زمانٍ
فقال مَضُوا وأستودعوني بلادهم * ومن ذا الذي يبقى على الحدَثانِ
وإني لأبكي اليومَ من حدرى غدا * فراقكَ والحَيانِ مُجتمِعانِ
سَجَّالًا وتَهْتانًا ووبلا وديمَةً * وسجَّا وتسجاما إلى همَلانِ^(٦)^(٧)

- (١) هجروا: ساروا في وقت الهجرة . (٢) غال الشيء: ذهب به . (٣) التوباد (بالدال
المهمله) وهو الموافق لما في معجم ما أستعجم للبكري إذ قال في ضبطه: هو بفتح أوله وباء معجمة بواحدة ودال
مهمله وأنشد عليه: * وأجهشت للتوباد حين رأيته * البيت .
وضبطه ياقوت بالدال المعجمة فقال في معجمه: «توباد» بالفتح ثم السكون والباء موحدة وآخره ذال معجمة:
جبل بنجد . (٤) أجهشت: تهأت للبكاء . (٥) يقال: هنت السماء تهتن هتنا وتهتنا أى صبت .
(٦) يقال: سجت السحابة مطرها تسجيا وتسجاما إذا صبت . (٧) هملان: قبض العين بالدموع .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صاحبها يصيح : يا ليلي في ليلةٍ ظلماءٍ أو توهم ذلك ، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت ؟ فقال : ما سمعت شيئاً ، قال : بلى ، والله هاتف يهتف بليلى ، ثم أنشأ يقول :

أقولُ لأدنى صاحبِي كَلِمَةً * أُسِرَّتْ من الأَفْصَى أَجْبُ ذَا المِنَادِيَا
إِذَا سِرْتُ فِي الأَرْضِ الفَضَاءِ رَأَيْتُنِي * أَصَانِعُ رَحِي (١) أَنْ يَمِيسَلَ حِيَالِيَا
يَمِينًا إِذَا كَانَتْ يَمِينًا وَإِن تَكُن * شِمَالًا يُنَازِعُنِي الهَوَى عَنْ شِمَالِيَا

خطب ليلى صاحبة المجنون جماعةً من قومها فكبرتهم ، فخطبها رجلٌ من ثقيف مؤسّر فرضيته ، وكان جميلًا فترّوجها وخرج بها ، فقال المجنونُ في ذلك :

ألا إن ليلى كالمُنِيحَةِ أَصْبَحَتْ * تَقَطَّعُ إِلا مِنْ ثَقِيفِ حِبَالِهَا (٢)
فقد حبسوها بحبسِ البَدَنِ وَابْتَغَى * بِهَا الرِّيحَ أَقْوَامٌ تَسَاحَتْ مَاهَا (٣)
خَالِيَتِي هَل مِنْ حِيلَةٍ تَعْلَمَانِيَا * يُدَنِّي لَنَا تَكْلِيمَ لَيْلَى أَحْتِيَالِيَا
فإن أنتم لم تعلمأها فلسماً * بأولِ بَاغِ حَاجَةٍ لا يِنَالُهَا
كَأَنَّ مَعَ الرِّكْبِ الَّذِينَ أَغْتَدَوْا بِهَا * غَمَامَةٌ صَيْفٍ زَعَزَعَتْهَا شَمَالُهَا
نَظَرْتُ بِمُقْضَى سَبِيلِ جَوْشَنِ إِذْ غَدَوْا (٤) * تَحُبُّ بِأَطْرَافِ المَخَارِمِ أَهْلَا (٥)
بشافية الأحران هيج شوقها * مُجَامَعَةُ الأَلَافِ ثُمَّ زِيَالُهَا
إِذَا أَلْتَفْتَتْ مِنْ خَلْفِهَا وَهِيَ تَعْتَلِي * بِهَا العَيْسُ جَلَى عِبْرَةَ العَيْنِ حَالُهَا

(١) الرجل : ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به عن البعير .

(٢) المنيحة في الأصل : الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها ثم يردّها إذا انقطع اللبن ، ثم كثيراً استعمالها في كل موهوب . (٣) يقال أسحت ماله : استأصله وأفسده ، ومال مسحوت ومسحت أى مذهب . وأسحت تجارته : خبثت وحرمت ، ولم نجد في كتب اللغة « تساحت » على وزن تفاعل من هذه المادة

(٤) لم نجد في بلاد العرب ما يسمى جوشن الا جبلا في غربي حلب . (٥) المخارم (بالراء المهملة) : جمع مخرم وهو الطريق في الجبل أو الرمل .

وله :

وَأَحْسُ عَنْكَ النَّفْسَ وَالنَّفْسَ صَبَةً * بِذِكْرِكَ وَالْمَشَى إِلَيْكَ قَرِيبُ
 مَخَافَةَ أَنْ تَسْعَى الْوُشَاةُ بِظَنَّةٍ * وَأَحْرَسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ
 فَقَدْ جَعَلْتَ نَفْسِي - وَأَنْتِ أَجْرَمْتِهِ * وَكُنْتِ أَعَزَّ النَّاسِ - عَنْكَ تَطِيبُ
 فَلَوْ شَدَّتْ لَمْ أَغْضَبْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَزَلْ * لَكَ الدَّهْرَ مَنَى مَا حَيْثُ نَصِيبُ
 أَمَا وَالَّذِي يَبْلُو السَّرَائِرَ كُلَّهَا * وَيَعْلَمُ مَا تُبْدِي بِهِ وَتَغِيبُ
 لَقَدْ كُنْتِ مِنْ تَصْطَفِي النَّفْسَ خُلَّةً * لَهَا دُونَ خُلَانِ الصَّفَاءِ مُجُوبُ

٢ - قيس بن ذريح^(١)

من شعر قيس :

يَقُولُونَ لُبْنَى فِتْنَةٌ كُنْتُ قَبْلَهَا * بَخِيرٍ فَلَا تَسَدَّمُ عَلَيْهَا وَطَلَّقَ
 فِطَاوَعْتُ أَعْدَائِي وَعَاصَيْتُ نَاصِحِي * وَأَقْرَرْتُ عَيْنَ الشَّامِتِ الْمُتَخَلِّقِ
 وَدَدْتُ وَبَيْتِ اللَّهِ أَنِي عَصَيْتُهُمْ * وَحَمَلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلَّ مُوَبِقِ
 وَكُلِّفْتُ خَوْضَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ زَاخِرٌ * أَيْدِي عَلَى أَثْبَاجِ مَوْجٍ مَغْرَقِ

(١) هو قيس بن ذريح الكعبي من ليث بن بكر كان منزله قومه بظاهر المدينة . مر لبعض حاجته بخيام بني كعب بن خزاعة فرأى لبني بنت الحباب الكعبية ، وكانت فتاة جميلة ، فعاقها ، فطلبها من أبيه فنفعه إياها لمكانه من الثروة ، وكان يريد أن يزوجه من بنات عمومته حتى يحفظ تراثه في أهله ، فطارب قيس وتقسمت نفسه وذهب ، فاستشفع بأخيه من الرضاع ، الحسين بن علي ، فوجد ما أحب وترزجها ومكأ زمنا ولم يعقبا ، وشغل قيسا حب لبني عن مواصلة أمه فاضطغت على زوجها وسعت بها عند أبيه متخذة عدم الولد سلما ترقى به إلى شرها ، فطلب إليه أبوه أن يطلقها فأبى ، فما زال به بالوعد والوعيد حتى أجابه إلى طلبته ، وكان في ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حظ وعقل في هذه الحياة ولم ينتفع بتر ويجه غيرها ، وطارت نفسه شعاعا وذهب على وجهه يتنسم أخبار لبني ويمرغ خده في آثارها ، وبقى طول حياته يساقط من نفسه على شعره غير عابئ بشقاء بدنه وإهدار دمه حتى لفظ النفس الأخير . وأخبار قيس كثيرة في الأغانى (ج ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومنه نسخة في مكتبة الاسكوريال وغيرها في برلين .

كأنى أرى الناس المحبين بعدها * عصارة ماء الحنظل المتفلق
فنتكر عيني بعدها كل منظر * ويكره سمى بعدها كل منطبق

وخرج قيس في فتية من قومه واعتل على أبيه بالصيد ، فأتى بلاد لبني ، فجعل يتوقع
أن يراها أو يرى من يرسل إليها ، فأشغل الفتيان بالصيد ، فلما قضاوا وطّروهم منه رجعوا إليه
وهو واقف ، فقالوا له : قد عرفنا ما أردت بإخراجنا معك وأنت لم ترد الصيد وإنما أردت
لقاء لبني وقد تعذّر عليك ، فانصرف الآن ، فقال :

وما حائمت حمن يوماً وليلة * على الماء يغشين العصى حوانى
عوائى لا يصدرن عنه لوجهة * ولا هن من برد الحياض دوانى
يرين حباب الماء والموت دونه * فهن لأصوات السقاة روانى
بأجهد منى حر شوق ولوعة * عليك ولكن العدو عدانى
خيلى إني ميت أو مكلم * لبيني بسرى فأمضيا وذرانى
أنل حاجتى وحدى وبارب حاجة * قضيت على هول وخوف جنان
فإنى أحق الناس الأثحورا * وتطرحا من لو يشاء شفانى
ومن قادنى للموت حتى إذا صفت * مشاربه السم الذعاف سقانى
فأقاموا معه حتى لقيها .

لما ألح ذريح على ابنه قيس فى طلاق لبني فأبى ذلك قيس ، طرح ذريح نفسه
فى الرمضاء وقال : لا والله لا أريم هذا الموضع حتى أموت أو يُحايها ، فجاءه قومه من كل
ناحية فعظّموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك ! إن مات شيخك
على هذه الحال كنت مُعينا عليه وشريكا فى قتله ، ففارق لبني على رغم أنه وقلة صبره
وبكاء منه حتى بكى لهما من حضرهما ، وأنشأ يقول :

أقول خلّيتى فى غير جرم * ألا لبني ، بنفسى أنت ، لبني
فوالله العظيم لتزع نفسى * وقطع الرجل منى واليمين

أحبُّ إلىَّ يا بُنَيَّ فِرَاقًا * فَبِكِّي للفراقِ وأسعديني
ظلمتِكَ بالطلاقِ بغيرِ جُرمٍ * فقد أذهبتِ آخرتي ودينِي

قال : فلما سمعت بذلك لبني بكت بكاء شديدا ، وأنشأت تقول :

رحلتُ إليه من بلدي وأهلي * بخازاني جزاء الخائنين
فمن رآني فلا يعترِّ بعدى * بجُلُو القولِ أو يئلو الدِّفين

فلما آنقضت عدتها وأرادت الشخوص إلى أهلها أتيت براحلة لتحمّل عليها ، فلما رأى ذلك قيسٌ داخله أمر عظيم واشتد لهفه ، وأنشأ يقول :

بانتُ لبني فانت اليوم متبولٌ * وإنك اليوم بعد الحزم محبولٌ
فأصبحتُ عنك لبني اليوم نازحةً * ودلُّ لبني - لها الخيرات - معسولٌ
هل ترجعن نوى لبني بعاقبةٍ * كما عهدتُ ليالي العشق مقبولٌ
وقد أراني بلبني حقَّ مقتنعٍ * والشملُ مجتمعٌ والحبلُ موصولٌ
فصرتُ من حبِّ لبني حين أذكرها * القلبُ مرتين والعقلُ مدخولٌ
أصبحت من حبِّ لبني بل تذكراها * في كربةٍ ففؤادي اليوم مشغولٌ
والجسمُ مني منهوكٌ لفرقتها * يبريه طولُ سقامٍ فهو منحولٌ
كأنني يوم ولت ما تكلمني * أخو هيامٍ مصابُّ القلبِ مسلولٌ
أسودع الله لبني إذ تفارقني * عن غير طوعٍ وأمر الشيخ مفعولٌ

ثم ارتحلت لبني ، فجعل قيس يقبل موضع رجلها من الأرض وحول خبائها ، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعدل واللوم ، فقال ذريح لما رأى حاله تلك : قد جنيتُ عليك يا بُنَيَّ ، فقال له قيس : قد كنتُ أخبرك أني مجنون بها فلم ترص إلا بقتلي ، فإله حسبك وحسبُ أمي . وأقبل قومه يعدلونه في تقبيل التراب ، فأنشأ يقول :

فما حبي لطيبِ ترابِ أرضٍ * ولكن حبَّ من وطئ التراب
فهذا فعل شيخينا جميعاً * أرادا لي البلية والعذاب

وله قصيدة طويلة في تطليقه لبني يقول فيها :

فَوَاكِبِدِي وَعَاوَدَنِي رُدَايِ * وَكَانَ رَأْفُ لَبْنِي كَالْجَدَاعِ (٢)
 تَكُنْفَنِي الْوُشَاةُ فَأَزْعَجُونِي * فَيَا لَيْلَةَ اللِّوَاشِي الْمَطَاعِ
 فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ أَلُومُ نَفْسِي * عَلَى شَيْءٍ وَليْسَ بِمُسْتَطَاعِ
 كَمَغْبُوبٍ يَعْصُ عَلَى يَدِيهِ * تَبَيَّنَ غَبْنَهُ بَعْدَ الْبِيَاعِ
 بَدَارَ مَضِيغَةٍ تَرَكُّكَ لُبْنِي * كَذَلِكَ الْحَيْنُ يُهْدِي لِلْمَضَاعِ
 وَقَدْ عَشْنَا نَلْدَ الْعَيْشِ حِينًا * لَوْ آتَ الدَّهْرَ لِلْإِنْسَانِ وَعَايِ
 وَلَكِنَّ الْجَمِيعَ إِلَى آفْتِرَاقٍ * وَأَسْبَابَ الْحَتُوفِ لَهَا دَوَايِ

واجتمع إليه نسوة فأطانَ الجلوسَ عنده وحادثته وهو ساهٍ عنهنّ، ثم نادى : يا لبني،
 فقلن له : ما لك ويحك ؟ فقال : خَدَرْتُ رجلى « ويقال : إن دعاء الانسان باسم أحبّ
 الناس إليه يُذهب خَدَرَ الرجل ، فناديتها لذلك . وقال :

إِذَا خَدَرْتُ رَجْلِي تَذَكَّرْتُ مِنْهَا * فَنَادَيْتُ لُبْنِي بِأَسْمِهَا وَدَعَوْتُ
 دَعْوَتِ التِّي لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي * لِفَارِقَتِهَا مِنْ حَبِّهَا وَقَضَيْتُ
 بَرَّتْ نَبْلَهَا لِلصَّيْدِ لُبْنِي وَرَيْثُ * وَرَيْثُ أُخْرَى مِثْلَهَا وَبَرِيْتُ
 فَلَمَّا رَمْتَنِي أَقْصَدْتَنِي بِسَهْمِهَا * وَأَخْطَأْتُهَا بِالسَّهْمِ حِينَ رَمَيْتُ
 وَفَارَقْتُ لُبْنِي ضَالَّةً فَكَأَنِّي * قَرَبْتُ إِلَى الْعَيْوُقِ ثُمَّ هَوَيْتُ (٣)
 فَيَالَيْتَ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ فِرَاقِهَا * وَهَلْ تَرْجِعُنْ فَوْتَ الْقَضِيَّةِ لَيْتُ
 فَصُرْتُ وَشِيخِي كَالَّذِي عَثَرْتُ بِهِ * غَدَاةَ الْوَعَى بَيْنَ الْعُدَاةِ كُمَيْتُ
 فَتَمَامْتُ وَلَمْ تَضُرُّهُنَّ إِلَّا سَوِيَّةً * وَفَارَسُهَا تَحْتَ السَّنَابِكِ مَيْتُ
 فَانْ يَكْ تَهْيَامِي بُلْبُسِي غَوَايَةً * فَقَدْ يَأْذِرُيْحُ بَنَ الْحَبَابِ غَوَيْتُ

(١) الرذاع : الكس، وهو رجوع المرض . (٢) الجداع : الموت . (٣) هو نجم أحمر مضيئ

في طرف الحجر الأيمن يتلو الرثا لا يتقدمها .

فلا أنت ما أملت في رأيتَه * ولا أنا لبني والحياة حويتُ
 فوطنٌ لهلكي منك نفساً فإني * كأنتك بي قد يا ذريحُ قضيتُ
 ومرض قيسٌ ، فسأل أبوه فتياتِ الحى أن يعدنه ويحدثه أو يعلق بعضن ، ففعلان
 ذلك ، ودخل إليه طبيب ليداويه والفتيات معه ، فلما اجتمعن عنده جعل يحدثه وأطن
 السؤال عن سبب علته ، فقال :

تعلق رُوحى روحها قبل خلقنا * ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهدي
 فزاد كما زدنا فأصبح نامياً * وليس اذا متنا بمنصرم العهد
 ولكنه باق على كل حادثٍ * وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوى والمعائب ،
 فان النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخف ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فاعله يسلو بها
 عن لبني ، فدعاه الى ذلك فأباه وقال :

لقد خفتُ ألا تقنع النفس بعدها * بشيء من الدنيا وإن كان مقنعاً
 وأزجر عنها النفس اذ حيل دونها * وتأبى اليها النفس إلا تطأعا

ولما تزوجت لبني بأخر أتى موضع خباؤها فنزل عن راحته وجعل يتمك موضعها^(١)
 ويتمرغ حده على ترابها ويبيكي أحرّ بكاء ثم قال :

الى الله أشكو فقد لبني كما شكا * الى الله فقد الوالدين يتيم
 يتيم جفاه الأقربون بجسمه * نحيل وعهد الوالدين قديم
 بكت دأرهم من نأيهم فتهللت * دموعي فأبى الجازعين ألوم
 أمستعربىكي من الشوق والهوى * أم آخرى بيكى شجوه ويهيم
 تهبضني من حب لبينى علائق * وأصناف حب هوطن عظيم

(١) يتمك : يتمرغ في التراب .

ومن يتعلّق حبُّ بُنَى فؤادِهِ * يمتُّ أو يعيش ما عاش وهو كليمٌ
فإني وإن أجمعتُ عنك تجلداً * على العهد فيما بيننا لمقيمٌ
وإن زمانا شتتَ الشملَ بيننا * وبينكم فيه العدا لمشومٌ
أفي الحق هذا أن قلبك فارغٌ * صحيحٌ وقلبي في هواك سقيمٌ

وقال في رحيل بُنَى عن وطنها وانتقالها الى زوجها بالمدينة وهو مقيم في حياها :

بانت لبُنَى فهاج القلب من بانا * وكان ما وعدتُ مطلاً ولياناً^(١)
وأخلفتك مني قد كنت تأملها * فأصبح القلبُ بعد البين حيرانا
الله يدرى وما يدرى به أحدٌ * ماذا أجمجم من ذكراك أحياناً
يا أكل الناس من قرنٍ الى قدمٍ * وأحسن الناس ذا ثوب وعريانا
نعم الضجيج بعيد النوم تجلبه * اليك ممتلئاً نوما ويقظانا
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم * إلا على العهد حتى كان ما كانا
حتى استفتقت أخيراً بعد ما نكحت * فبت للشوق أذرى الدمع تهتاناً
إن تصرى الحبل أو تمسى مفارقةً * فالدهر يُحدث للإنسان ألواناً
وما أرى مثلكم في الناس من بشرٍ * فقد رأيتُ به حياً ونسواناً

وشكا أبو لبني معاوية تعرّض قيس لأبنته بعد طلاقها، فكتب معاوية الى الأمير
يهدر دمه إن ألم بها، وأن يشتد في ذلك، فكتب مروان في ذلك الى صاحب الماء الذي
ينزله أبو لبني كتاباً وكيداً، ووجهت لبني رسولا الى قيس تعلمه ما جرى وتحذّره، وبلغ أباه
الخبر، فعاتبه وتجهّمه، وقال له : انتهى بك الأمر الى أن يهدر السلطان دمك، فقال :

فان يجبوها أو يحل دون وصلها * مقالةً وائش أو وعيدٌ أمير
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا * ولن يذهبوا ما قد أجر ضميري
الى الله أشكو ما ألاقى من الهوى * ومن حرق تعادني وزفير

(١) الليان : اللى والمطل ، قال أبو الهيثم : لم يجئ من المصادر على فعلان إلا ليان .

ومن حرقٍ للحبِّ في باطن الحشى * وليلٍ طويلٍ الحزن غير قصيرٍ
 سأبكي على نفسى بعينٍ غزيرةٍ * بكاءً حزينٍ في الوثاق أسيرٍ
 وكنا جميعاً قبل أن يظهر الهوى * بأنعم حالى غبطةٍ وسرورٍ
 فما برح الواشون حتى بدت لهم * بطونُ الهوى مقلوبةً لظهورٍ
 لقد كنتِ حسب النفس لودام وصلنا * ولكننا الدنيا متاعُ غرورٍ
 وقال في إهدار معاوية دمه إن هو زارها :

إن تك لُبني قد أتى دون قربها * حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
 فإن نسيمَ الجوّ يجمع بيننا * ونُبصر قرنَ الشمس حين تزولُ
 وأرواحنا بالليل في الحى تلتقى * ونعلم أياً بالنهار نقيلاً
 وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا * سماءٌ نرى فيها النجوم تجولُ
 إلى أن يعود الدهرُ سائماً وتتقضى * تراتٌ بغاها عندنا وذحولُ^(١)

ولما أنصرف الناس من الحج مرض قيس مرضاً شديداً فلم يأته رسولها عائداً، فقال :

ألبني لقد حلت عليك مصيبتى * غداة غدي إذ حل ما أتوقعُ
 ثمّنيني نيلاً وتلوينني قلى * فنفسى شوقاً كل يوم تقطعُ
 وقبلك قط لا يلين لما يرى * فواكيدى قد طال هذا التضرعُ
 ألومك في شأني وأنت مليمةٌ * لعمرى وأجنى للحب وأقطعُ
 أخبرت أنى فيك ميتٌ حسرتى * فما فاض من عينيك للوجد مدمعُ
 ولكن لعمرى قد بكيتك جاهداً * وإن كان دأى كله منك أجمعُ
 صبيحةً جاء العائداتُ يعدننى * فظلت على العائداتُ تفجعُ
 فقائلةً جئنا إليه وقد قضى * وقائلةً لا بل تركناه ينزعُ
 فما غشيت عينيك من ذاك عبرةٌ * وعينى على ما بى بذكراك تدمعُ
 إذا أنت لم تبكى على جنازةٍ * لديك فلا تبكى غدا حين أرفعُ

(١) ذحول : جمع ذحل وهو التآر .

ومن شعره قوله :

أتبكي على لُبْنِي وَأَنْتِ تَرَكْتَهَا * وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِالْمَلَأِ أَنْتِ أَقْدَرُ^(١)
فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا بِلُبْنِي تَقَلَّبْتُ * عَلَيَّ فَلِلدُنْيَا بَطُونٌ وَأَظْهَرُ
لَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلْأَمَانَةِ مَوْضِعٌ * وَلِلْكَفِّ مَرْتَادٌ وَلِلْعَيْنِ مَنْظَرُ
وَلِلْحَائِمِ الْعَطْشَانِ رِيٌّ بِرَيْقِهَا * وَلِلرَّيحِ الْمَخْتَالِ نَحْمَرٌ وَمُسْكِرُ
كَأَنِّي لَهَا أَرْجُو حَيَاةً بَيْنَ أَحْبَلٍ * إِذَا ذُكِرَتْ مِنْهَا عَلَى الْقَلْبِ تَحْطَرُ

وقوله :

لَقَدْ عَدَّ بَتِّي يَا حَبَّ لُبْنِي * فَفَقَعَ إِمَّا بِمَوْتِ أَوْ حَيَاةِ
فَإِنَّ الْمَوْتَ أَرْوَحُ مِنْ حَيَاةِ * تَدُومُ عَلَى التَّبَاعِدِ وَالشَّتَاتِ
وَقَالَ الْأَقْرَبُونَ تَعَزَّ عَنْهَا * فَقُلْتُ لَهُمْ إِذَا حَانَتْ وَقَاتِي

وقالت له لبني : أنشدني ما قلت في علتك ، فأنشدها قوله :

أَعَالَجُ مِنْ نَفْسِي بَقَايَا حُشَاشَةٍ * عَلَى رَمَقٍ وَالْعَائِدَاتُ تَعُودُ
فَإِنْ ذُكِرْتُ لِبْنِي هَشَشْتُ لَذِكْرِهَا * كَمَا هَشَّ لِلشَّدَى الدَّرُورُ وَلِيَدُ
أَجِيبُ لِبْنِي مِنْ دَعَائِي تَجَلُّدًا * وَبِي زَفَرَاتٌ نَجَلِي وَتَعُودُ
تُعِيدُ إِلَى رُوحِي الْحَيَاةَ وَإِنِّي * بِنَفْسِي لَوْ عَايَنْتَنِي لِأَجُودُ

وفيها يقول :

أَلَا لَيْتَ أَيَّامًا مَضَيْنَ تَعُودُ * فَإِنْ عُدْنَ يَوْمًا إِنِّي لَسَعِيدُ
سَقَى دَارَ لُبْنِي حَيْثُ حَلَّتْ وَخِيَمَتْ * مِنْ الْأَرْضِ مِنْهُلُّ الْغَامِ رَعِيدُ
عَلَى كُلِّ حَالٍ إِنْ دَنْتُ أَوْ تَبَاعَدْتُ * فَإِنْ تَدُنْ مِنْهَا فَالْدَنُ مَزِيدُ
فَلَا يَأْسُ يُسَلِّبُنِي وَلَا الْقُرْبُ نَافِعِي * وَلِبْنِي مَنْرُوعٌ مَا تَكَادُ تَجُودُ
كَأَنِّي مِنْ لِبْنِي سَلِيمٌ مَسْهَدٌ * يَظَلُّ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ يَمِيدُ
رَمْتَنِي لُبْنِي فِي الْفَوَادِ بِسَهْمِهَا * وَسَهْمُ لِبْنِي لِلْفَوَادِ صَيُودُ

(١) الملا : موضع .

سلا كل ذي شجوة علمت مكانه * وقلبي للبنى ما حبيت ودود
وقائلة قد مات أو هو ميت * وللنفس منى أن تفيض رصيذ

وعاتبته على تزوجه، خلف أنه لم ينظر إليها ملء عينيه، ثم قال :

ولقد أردت الصبر عنك فعاقني * علق بقلبي من هوائك قديم
يبقى على حدّ الزمان ورّيبه * وعلى جفائك إنه لكريم
فصرمته وصححت وهو يدائه * شتان بين مصحح وسقيم
وأريته زمنًا فعاد بجلمه * إن المحبّ عن الحبيب حلیم

فلم يزل معها يحدثها ويشكو إليها حتى أمسى، فانصرفت ووعده الرجوع إليه من غد

فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولاً، فكتب هذين البيتين :

بنفسي من قلبي له الدهر ذاكر * ومن هو عني معرض القلب صابر
ومن حبه يزداد عندي جدّة * وحيّ لديه مخلّق العهد دائر

وقال ابن أبي عتيق لقيس يوماً : أنشدني أحراً ما قلت في لبي، فأنشده :

وإني لأهوى النوم في غير حينه * لعل لقاء في المنام يكون
تحدثني الأحلام أنى أراكم * فياليت أحلام المنام يقين
شهدت بأني لم أحل عن مودة * وأنى بكم لو تعلمين ضمير
وأن فؤادي لا يابن إلى هوى * سواك وإن قالوا بلى سيلين

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدت أبا السائب المخزومي قول قيس :

أحبك أصنافاً من الحب لم أجد * لها مثلاً في سائر الناس يوصف
فمنهن حبّ للبيب ورحمة * بمعرفتي منه بما يتكلف
ومنهن ألا يعرض الدهر ذكرها * على القلب إلا كادت النفس تتلف
وحبّ بدا بالجسم واللون ظاهر * وحبّ لدى نفسي من الروح أطف

(١) وقصيدة قيس العينية من جيد شعره وهى :

عَفَا سِرْفٌ مِنْ أَهْلِهِ فِسْرَاوِعٌ * بَجْنَبَا أَرِيكَ فَالتَّلَاعُ الدُّوَاغُ^(٢)
 فَعِيقَةُ فَالْأَخْيَافُ أَخْيَافُ طَبِيئَةٍ * بِهَا مِنْ لَبِينِي مَحْرَفٌ وَمَرَابِعٌ^(٣)
 لَعَلَّ لَبِينِي أَنْ يُجَمَّ لِقَاؤُهَا * بِبَعْضِ الْبِلَادِ إِنْ مَا حَمَّ وَاقِعٌ^(٤)
 بِجَزَعٍ مِنَ الْوَادِي خَلَاءَ أَنْيُسِهِ * عَفَا وَتَحَطَّتْ الْعَيُونُ الْخَوَادِعُ^(٥)
 وَلَمَّا بَدَأَ مِنْهَا الْفِرَاقُ كَمَا بَدَأَ * بَطَّهَرَ الصَّفَا الصَّلْدَ الشَّقُوقُ الشَّوَانِعُ^(٦)
 تَمَنَيْتَ أَنْ تَلْقَى لَبِينَاكَ ، وَالْمُنَى * تُعَاصِيكَ أحيانًا وَحِينًا تُطَاوِعُ
 وَمَا مِنْ حَبِيبٍ وَامِقٍ لِحَبِيبِهِ * وَلَا ذِي هَوَىٰ إِلَّا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعٌ
 وَطَارَ غِرَابُ الْبَيْنِ وَأَنْشَقَّتْ الْعَصَا^(٧) * بَيِّنٌ كَمَا شَقَّ الْأَدِيمَ الصَّوَانِعُ
 أَلَا يَا غِرَابَ الْبَيْنِ قَدِ طَرَبْتَ بِالذِي * أَحَازِرُ مِنْ لَبْنِي فَهَلْ أَنْتَ وَاقِعٌ
 وَإِنَّكَ لَوْ أَبْلَغْتَهَا قَيْلِكَ اسْمِي * طَوْتُ حَزَنًا وَأَرَفَضُ مِنْهَا الْمَدَامِعُ^(٨)
 أَتَبْكِي عَلَى لَبْنِي وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا * وَكُنْتَ كَأَنَّ غَيْبَهُ وَهُوَ طَائِعٌ
 فَلَا تَبْكِينَ فِي إِثْرِيءِ نَدَامَةٍ * إِذَا نَزَعْتَهُ مِنْ يَدَيْكَ النِّوَازِعُ
 فَيْلِسْ لِأَمْرٍ حَاوَلَ اللَّهُ جَمْعَهُ * مُشِتٌ وَلَا مَا فَزَقَ اللَّهُ جَامِعُ^(٩)
 كَأَنَّكَ لَمْ تَغْنَهُ إِذَا لَمْ تَلَا قِيهَا * وَإِنْ تَلَقَّهَا فَالْقَلْبُ رَاضٍ وَقَانِعٌ

- (١) وردت هذه القصيدة برمتها في كتاب الأمل لأبي على القسالى (ج ٢ ص ٣١٤ - ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) . (٢) سرف وسراوع وأريك : مواضع . والتلاع واحدها تلاة وهى مسيل ما ارتفع من الأرض الى بطن الوادى . والدوابع : جمع دافعة وهى التى تدفع الماء . (٣) أخفاف طيبة : موضع . والمحرف : المنزل الذى يقام فيه فى الخريف . والمرابع : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الربيع . (٤) حم : قدر . (٥) جزع الوادى : منعطفه . وعفا : درس . والخوادم واحدها خادعة وهى التى لا تنام ، يقال : خدعت عينه تخدع اذا لم تنم ، وأتيناهم بعد ما خدعت العين . (٦) الصفا : الصخر . والصلد : الصلب الذى اذا أصابه شئ صلد أى صوت . والشوانع : جمع شائعة وهى الظاهرة . (٧) أى تفرقت الجماعة . (٨) ارفض : سال ولا يكون إلا سيال مع تفرق . (٩) مشت : مفرق .

فيا قلبُ خبْرني، اذا شَطَطَ النوى ^(١) * بلْبني وصَدتْ عنك، ما أنت صانع
 أتصبر للبين المِشْت مع الجوى * أم أنت أمرؤ ناسي الحياء بفازعُ
 فما أنا إن بانت لبيني بهاجع * اذا ما استقَلت بالنيام المَضاجعُ
 وكيف ينام المرءُ مستشعرَ الجوى * ضجيجَ الأسي فيه نكاسٌ رَوادعُ
 فلا خير في الدنيا اذا لم تُؤانسا * لبيني ولم يجمع لنا الشَّمْلُ جامعُ
 أليست لبيني تحت سَقْفٍ يُكِنُّها * وإياي هذا إن نأت لي نافع
 ويلبَسنا الليلَ البهيمُ اذا دجا ^(٢) * ونُبصرُ ضوءَ الصبحِ والفيجرُ ساطع
 تَطأُ تحتَ رجليها بساطاً وبعضه ^(٣) * أطاهُ برِجلى ليس يطويه مانع ^(٤)
 وأفرح إن تُمسي بخيرٍ وإن يكن * بها الحدُّثُ العادي ترعنى الروائعُ
 كأنك يدعُ لم تر الناسُ قبلها * ولم يطالعك الدهرُ فيمن يطالع
 فقد كنتُ أبكى والنوى مطمئنةٌ * بنا وبكم من علم ما بينُ صانعُ
 وأهجرُكم هجرَ البغيضِ وحبكم * على كبدى منه كلومٌ صوادعُ
 وأعجلُ للإشفاق حتى يسُقني * مخافةُ شحطِ الدار والشَّمْلُ جامعُ
 وأعمدُ للأرض التي من ورائكم * ليرجعني يوماً عليك الروائعُ
 فيا قلبُ صبراً وأعتافاً لما ترى ^(٥) * وياحبها قع بالذي أنت واقعُ
 لعمري لمن أَمسى وأنت ضجيجُه * من الناس ما اختيرت عليه المضاجعُ
 ألا تلك لبني قد ترأخى مزارها * وللبين غمٌ ما يزال ينازعُ
 اذا لم يكن إلا الجوى فكفني به * جوى حرقٍ قد ضُمَّتْها الأضالعُ
 أبائنةً لبني ولم تقطع المَدَى * بوصولٍ ولا صرِمٍ فييأس طامعُ

(١) شططت : بعدت . (٢) المستشعر : الذى لبس الشعار وهو الثوب الذى بلى الجسد . والجوى :
 الهوى الباطن . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس بالضم . وروادع : جمع رادعة وهى التى تردعه عن الحركة
 والتصرف . (٣) دجا : ألبس بظلمته كل شئ . (٤) البساط : ما بسط من الفرش .
 (٥) ترعنى : تفرغنى . (٦) اعترف : ذل وانقاد .

يَظَلُّ نَهَارَ الْوَالِهَيْنِ نَهَارُهُ * وَتَهْدِيهِ^(١) فِي النَّائِمِينَ الْمُضَاجِعُ
سِوَايَ فَلَيْلِي مِنْ نَهَارِي وَإِنَّمَا * تُقَسِّمُ^(٢) بَيْنَ الْهَالِكِينَ الْمَصَارِعُ
وَلَوْلَا رَجَاءُ الْقَلْبِ أَنْ تَعْطِفَ النَّوَى * لَمَا حَمَلْتَهُ بَيْنَهُنَّ الْأَضَالِعُ
لَهُ وَجَبَاتٌ^(٢) إِثْرُ لُبِّي كَأَنَّهَا * شَقَائِقُ بَرْقٍ فِي السَّحَابِ لَوَاعِعُ
نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا دَجَا * لَيْلِي اللَّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ الْمُضَاجِعُ
أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمَنَى * وَيَجْمَعُنِي بِاللَّيْلِ وَالْمَهْمُ جَامِعُ
وَقَدْ نَشَأْتُ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَوْدَةً * كَمَا نَشَأْتُ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
أَبَى اللَّهُ أَنْ يَلْقَى الرَّشَادَ مَتِيمٌ * أَلَّا كُلُّ أَمْرٍ حُمٌّ لَا بَدَّ وَاقِعُ
هِيَ بَرَحًا بِي مُعْوَلَيْنِ كِلَاهِمَا * فَوَادٌّ وَعَيْنٌ مَاقِيهَا الدَّهْرَ دَامِعُ
إِذَا نَحْنُ أَنْفَدْنَا الْبِكَاءَ عَشِيَّةً * فَمُوعِدُنَا قَرْنٌ مِنَ الشَّمْسِ طَالِعُ
وَلِلْجِبِ آيَاتٌ تَتَبَّنُ بِالْفَسْتَى * شُحُوبٌ وَتَعْرَى مِنْ يَدَيْهِ الْأَشَاجِعُ^(٤)
وَمَا كَلَّ مَا مَتَّكَ نَفْسُكَ خَالِيًا * تَلَاقِي وَلَا كُلَّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ^(٥)
تَدَاعَتْ لَهُ الْأَحْزَانُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ * فِخْنٌ كَمَا حَنَّ الطُّؤَارُ السَّوَابِعُ
وَجَانِبَ قُرْبِ النَّاسِ يَخْلُو بِهِمَهُ * وَعَاوَدَهُ فِيهَا هَيْأَمٌ مُرَاجِعُ
أَرَاكَ اجْتَنَبْتَ الْحَيَّ مِنْ غَيْرِ بَعْضَةٍ * وَلَوْ شِئْتَ لَمْ تَجْنَحِ إِلَيْكَ الْأَصَابِعُ
كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا * وَإِنْ كَانَ فِيهَا الْخَلْقُ قَفَرًا بِلَاقِعُ
أَلَا إِنَّمَا أَبْكَى لِمَا هُوَ وَاقِعٌ * وَهَلْ جَزَعٌ مِنْ وَشَكٍ بَيْنَكَ نَافِعُ
أَحَالَ عَلَى الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَدَامَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ عَلَى الْفَوَاجِعُ
فَمَنْ كَانَ مَحْزُونًا غَدًّا لِفِرَاقِنَا * فَمَلَّانَ فَلَيبْكِي لِمَا هُوَ وَاقِعُ

(١) تهدي : تسكنه . (٢) وجبات : خفقات . (٣) الماق من العين : الجانب الذي يلي الأنف . (٤) الأشجاع : عروق ظاهر الكف . (٥) الطوار : جمع طء وهي التي عطفت على ولد غيرها . والسواجع : جمع ساجعة وهي التي تمد حنيتها على جهة واحدة .

الشعر السياسي

أوضحنا لك في المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثرٍ في كثير من الحركات السياسية وأستحداث العزّات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وبتنا مَيّزَة أَسْتعمال الشعر في الأغراض السياسية في عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدّة أمثلة تبيّن ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووجدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير في هذا الباب . وها هي ذى :

(١) النُّعْمَانُ بنُ بَشِيرٍ

قال أبو الفرج الأصفهاني :

لما كثرت الهجاء بين عبد الرحمن بن حسن وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي وتفاحشاً، كتب معاوية إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة، أن يجلد كل واحد منهما مائة سوط، وكان ابن حسن صديقاً لسعيد وما مدح أحداً غيره قط، فكره أن يضربه أو يضرب ابن عمه، فأمسك عنهما؛ ثم ولي مروان، فلما قدم أخذ ابن حسن فضربه مائة سوط ولم يضرب أخاه، فكتب ابن حسن إلى النعمان بن بشير وهو بالشام، وكان كبيراً أثيراً مكيّاً عند معاوية، قال :

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، من الخزرج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه في واقعة صفين، ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الأنصار سواه . وقد اجتذبه بسخائه ودهائه وكان يراعى جانبه، وكثيراً ما سمع توسطه للأنصار عنده . وعاش النعمان المذكور إلى خلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حصص، فلما أفضت الخلافة إلى مروان دعا إلى ابن الزبير وخالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يجبه أهل حصص إلى ذلك، فهرب منهم فتهبوه وأدركوه وقتلوه . وكان على مسابرة بنى أمية شديد التعصب للأنصار، ولذلك عند ما علم بقصيدة الأخطل في الطعن عليهم رد عليه . والنعمان بن بشير من العريقين في الشعر خلفاً عن سلف فإن جده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء . وهو أول مولود ولد في الإسلام من الأنصار، وآخر من ولي الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان . وله ديوان مطبوع في الهند . توفي سنة ٦٥ هـ . وترى أخبار النعمان بن بشير في الأغاني (ج ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالى (ج ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفي سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها . (٢) أثيراً : مكرماً .

لیت شعری أغائبك أنت بالشا * م خلیلی أم راقدٌ نغماتُ
 أیةً ما یکن فقد یرجع الغا * تب یوما ویوقظ الوستانُ
 إن عمراً وعامراً أبوینا * وحرماً قدماً علی العهد كانوا
 أفهم ما نعوك أم قلةُ الكتَّاب * أم أنت عاتب غضبان
 أم جفأ أم أعوزتک القراطیة * س أم امری به علیک هوان
 یوم أنبتت أن ساقی رُضت * وأنتکم بذک الرُبان
 ثم قالوا إن ابن عمک فی بئ * سوی أمورٍ أتى بها الحدّان
 فنسیت الأرحامَ والودَّ والصُّحبة * فیما أتت به الأزمان
 إنما الریحُ فاعلمن قنأة * أو کبعض العیدان لولا السنان

قال أبو الفرج الأصبهانی :

دخل النعمان بن بشیر علی معاویة لما هجا الأخطل الأنصار ، فلما مثل بین یدیه

أنشأ یقول :

معاویَ إلا تُعطينا الحقَّ تعترف * لحي الأزد مشدوداً علیها العمامُ
 أیتسمننا عبداً الأرقام ضالةً ^(١) * وماذا الذی تُجدي علیک الأرقام
 فما لی نأر دُونَ قطع لسانه * فدونک من یرضیه عنک الدرهم
 وراع رويداً لا تسمننا دنیةً * لعلک فی غبّ الحوادث نادم
 متى تلق منا عصابةً خزرجیةً * أو الأوس يوماً تخترمک المخارم
 وتلقاك خیلٌ کالقطا مستطیره ^(٢) * شماطیط ^(٣) أرسل علیها الشکائم
 یسومها العمران : عمرو بن عامر * وعمرانُ حتی تُستباح المحارم
 ویبدو من الخود العزیزة مجلها * وتبصّ من هول السیوف المقادم
 فتطلب شعب الصّدع بعد التئامه * فتغریه فالآن والأمر سالم

(١) الأرقام : حی من بنی تغلب . (٢) شماطیط : متفرقة و (٣) الشکائم : جمع

شکیمة وهی الحدیدة المعترضة فی فم الفرس .

وَإِلَّا فَتَوْبِي لَأَمَّةٌ تُبْعِيَةٌ * تَوَارِيثُ آبَائِي وَأَبْيَضُ صَارِمِ
 وَأَسْمَرُ خَطِّي كَأَنَّ كُؤُوبَهُ * نَوَى الْقَسْبَ فِيهَا لَهْدِي خُثَارِمِ
 فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَشْهَدْ بِبَدْرِ وَقِيعَةٍ * أَذَلَّتْ قُرَيْشًا وَالْأَسُوفُ رَوَاغِمِ
 فَسَائِلُ بِنَا حَيِّ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ * وَأَنْتَ بِمَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ عَالِمِ
 أَلَمْ تَنْبَدِرْ يَوْمَ بَدْرِ سَيُوفُنَا * وَلَيْلِكَ عَمَّا نَابَ قَوْمَكَ قَاتِمِ
 ضَرَبْنَاكُمْ حَتَّى تَفْتَرَّقَ جُعْمُكُمْ * وَطَارَتْ أَكُفٌّ مِنْكُمْ وَجَمَاعِمِ
 وَعَادَتْ عَلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَرَّاسُ * وَأَنْتَ عَلَى خَوْفٍ عَلَيْكَ التَّمَّامِ
 وَعَضَّتْ قُرَيْشٌ بِالْأَنَامِلِ بَغْضَةً * وَمِنْ قَبْلِ مَا عَضَّتْ عَلَيْكَ الْأَدَاهِمِ
 فَكَيْفَ لَهَا فِي كُلِّ أَمْرٍ نَبْكَيدُهُ * مَكَانَ الشَّجَا وَالْأَمْرِ فِيهِ تَفَاقُمِ
 فَمَا إِنْ رَمَى رَامٍ فَأَوْهَى صَفَاتِنَا * وَلَا ضَامِنًا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ ضَائِمِ
 وَإِنِّي لِأَغْضَى عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ * سَتَرْتَنِي بِهَا يَوْمًا إِلَيْكَ السَّلَامِ
 أَصَانِعَ فِيهَا عَبْدَ شَمْسٍ وَإِنِّي * لِتِلْكَ الَّتِي فِي النَّفْسِ مِنْي أُكَاتِمِ
 فَمَا أَنْتَ وَالْأَمْرَ الَّذِي لَسْتَ أَهْلُهُ * وَلَكِنْ وَلِيُّ الْحَقِّ وَالْأَمْرِ هَاشِمِ
 إِلَيْهِمْ يَصِيرُ الْأَمْرُ بَعْدَ شَتَاتِهِ * فَمَنْ لَكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ لَازِمِ
 بِهِمْ شَرَعَ اللَّهُ الْهُدَى فَأَهْتَدَى بِهِمْ * وَمِنْهُمْ لَهُ هَادٍ إِمَامٌ وَخَاتِمِ

فلما بلغت القصيدة معاوية أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه، فاستجار يزيد

ابن معاوية، فمنعه منه، وأرضى النعمان حتى كف عنه .

وقال عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه : لما ضرب مروان بن الحكم عبد الرحمن

ابن حسان الحداد ، ولم يضرب أخاه حين تهاجبا وتقاذفا ، كتب عبد الرحمن الى النعمان

ابن بشير يشكو اليه ، فدخل الى معاوية ، وأنشأ يقول :

يَا بَنَ أَبِي سُفْيَانَ مَا مِثْلُنَا * جَارَ عَلَيْهِ مَلِكٌ أَوْ أَمِيرِ

أَذْكَرُ بِنَا مُقَدَّمِ أَفْرَاسِنَا * بِالْحِنُوِ إِذْ أَنْتَ الْيَنَا فَقِيرِ

واذا كر غداة الساعدي الذي * آثركم بالأمر فيها بشير
 فاحذر عليهم مثل بدر وقد * مرّ بكم يوم بيدر عمير
 إن ابن حسان له نائر * فأعطه الحق تصح الصدور
 ومثل أيام لنا شئت * ملكا لكم أمرك فيها صغير
 أما ترى الأزد وأشياعها * تجول خزرا كاظمات تزيير
 يصول حولي منهم معشر * إن صلت صالوا وهم لي نصير
 يأبى لنا الضيم فلا يعتلى * عن منيع وعدي كثير
 وعنصر في عز جرثومية * عادية تنقل عنها الصخور

مُلْحَقُهُمْ

الكتاب الثاني

باب المنشور

شرحنا لك في المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة في عصر العباسيين من جودة اللفظ، ومثانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته. ووعدناك بذكر طرف من رسائل القوم في ذلك العصر الزاهي الزاهر، وإليك ما وعدناك به :

١ - مُشَاوَرَةُ المَهْدِيِّ لِأَهْلِ بَيْتِهِ فِي حَرْبِ خُرَّاسَانَ

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد :

هذا ما تراجع فيه المهدي ووزرائه وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان أيام تحاملت عليهم العمال وأعتفت، وخملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكنانة على أن نكثوا بيعتهم، وتقضوا موثقتهم، وطردوا العمال، والتووا بما عليهم من الخراج، وحمل المهدي ما يجب من مصالحهم ويكره من عنتهم على أن أقال عشرتهم، وأعتقر زلتهم، وأحتمل دالتهم، تطولا بالفضل وأتساعا بالعضو، وأخذنا بالحجة ورفقا بالسياسة، ولذلك لم يزل مدحمله الله أعباء الخلافة وقلده أمور الرعية ريفقا بمدار سلطانه، بصيرا بأهل زمانه، باسطا للمعدلة في رعيته، تسكن الى كنفه وتأس بعفوه وتمق بحلمه، فإذا وقعت الأقضية اللازمة والحقوق الواجبة، فليس عنده

هَوَادَةٌ وَلَا إِغْضَاءَ وَلَا مُدَاهَنَةَ ، أَثَرَةً لِلْحَقِّ وَقِيَامًا بِالْعَدْلِ وَأَخْذًا بِالْحَزْمِ ؛ فِدْعَا أَهْلَ خِرَاسَانَ
 الْأَعْتَزَارُ بِجَلْمِهِ وَالثَّقَّةَ بِعَفْوِهِ أَنْ كَسَرُوا الْخِرَاجَ وَطَرَدُوا الْعَمَالَ وَسَأَلُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ،
 ثُمَّ خَلَطُوا أَحْتِجَاجًا بِاعْتِدَارِ ، وَخِصُومَةً بِإِقْرَارِ ، وَتَنَصُّلاً بِاعْتِلَالِ ؛ فَلَمَّا آتَيْتَنِي ذَلِكَ إِلَى الْمَهْدِيِّ
 خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِ خَلَائِهِ وَبَعَثَ إِلَى نَفَرٍ مِنْ مُجْتَمِعِهِ وَوُزَرَائِهِ ، فَأَعْلَمَهُمُ الْحَالَ وَأَسْتَنْصَحَهُمُ
 لِلرَّعِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَوَالِي بِالْأَبْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيَّ عَمٍّ ! تَعَقَّبَ قَوْلَنَا وَكُنْ حَكِيمًا
 بَيْنَنَا ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ ، فَأَحْضَرَهُمَا الْأَمْرَ وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ ، وَأَمَرَ
 مُحَمَّدَ بْنَ الْإِثْبَتِ بِحِفْظِ مَرَاجِعِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ مَقَالَتِهِمْ فِي كِتَابٍ .

فَقَالَ سَلَامٌ صَاحِبُ الْمِظَالِ :^(٣)

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ غَايَةَ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ صِنَاعَةً ؛ أَسْتَفْرَعْتَ رَأْيَهُمْ ، وَأَسْتَفْرَعْتَ
 أَشْغَالَهُمْ ، وَأَسْتَفْنَدْتَ أَعْمَارَهُمْ ، وَذَهَبُوا بِهَا وَذَهَبَتْ بِهِمْ ، وَعَمَّرُوا بِهَا وَعُمِّرَتْ بِهِمْ ؛ وَلِهَذِهِ
 الْأُمُورَ الَّتِي جَعَلْتَنَا فِيهَا غَايَةَ ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَقْوَامٌ مِنْ أُنْبَاءِ الْحَرْبِ وَسِيَاسَةِ الْأُمُورِ
 وَقَادَةِ الْجُنُودِ وَفُرْسَانِ الْهَزَاهِرِ^(٤) وَإِخْوَانِ التِّجَارِبِ ، وَأَبْطَالِ الْوَقَائِعِ ؛ الَّذِينَ رَشَّحْتَهُمْ سَبْجَالَهَا ،
 وَفِيَّائِهِمْ ظِلَالَهَا ، وَعَضَّيْتَهُمْ شِدَائِدُهَا ، وَقَرَّمْتَهُمْ نَوَاجِدُهَا ؛ فَلَوْ تَعَجَّمْتَ مَا قَبْلَهُمْ ، وَكَشَفْتَ
 مَا عِنْدَهُمْ ؛ لَوَجَدْتَ نِظَارًا تَوْيِّدُ أَمْرَكَ ، وَتِجَارِبَ تُوَافِقُ نَظْرَكَ ، وَأَحَادِيثَ تَقْوِي قَلْبَكَ ؛
 فَأَمَّا نَحْنُ مَعَاشِرُ عُمَّالِكَ ، وَأَصْحَابُ دَوَاوِينِكَ ، فَحَسَنُ بِنَا وَكَثِيرٌ مِمَّنْ أَنْ نَقُومَ بِثِقَلِ مَا حَمَلْتَنَا
 مِنْ عَمَلِكَ ، وَأَسْتَوْدِعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَغَلْتَنَا بِهِ مِنْ إِمْضَاءِ عَدْلِكَ ، وَإِنْفَازِ حُكْمِكَ ،
 وَإِظْهَارِ حَقِّكَ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْبِيرًا
 يَبْطُلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِزَمَانِنَا وَتَدْبِيرِ سُلْطَانِنَا .

(١) كَسَرُوا الْخِرَاجَ أَيَّ كَفَّوْا عَنْ أَدَائِهِ . (٢) هُوَ ابْنُ الْإِثْبَتِ بْنِ نَصْرِ بْنِ سِيَارٍ . وَكَانَ أَرْسَلَ
 الْمَهْدِيَّ أَبَاهُ الْإِثْبَتَ لِمُحَارَبَةِ الْمُتَقَعِّعِ فَلَمْ يَمُكِّنْ مِنْهُ . وَكَانَ أَبْنُوهُ مُحَمَّدٌ هَذَا مِنْ كِتَابِ الْمَهْدِيِّ وَلَمْ تَعْرِفْ سَنَةَ وَفَاتِهِ .
 (٣) هُوَ سَلَامُ بْنُ الْأَبْرَشِ ، أَسْتَعْمَلَهُ الْمَنْصُورُ ثُمَّ تَوَلَّى الْعُقُوبَاتَ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ . (٤) الْهَزَاهِرُ :
 تَحْرِيكُ الْبَلَايَا وَالْحُرُوبِ فِي النَّاسِ .

قال : نعم أيها المهديّ ، أنت مُتَّبِعُ الرَّأْيِ ، وَثِيْقُ الْعُقْدَةِ ، قَوِيّ الْمُنَّةِ ^(١) ، بَلِيغُ الْفِطْنَةِ ، مَعْصُومُ النَّيَّةِ ، مَحْضُورُ الرَّوْيَةِ ، مُؤَيَّدُ الْبَدِيْهِةِ ، مُوَفَّقُ الْعَزِيْمَةِ ، مُعَانٌ بِالظَّفَرِ ، مَهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ ؛ إِنْ هَمَمْتَ نَفِي عَزْمِكَ مَوَاقِعَ الظَّنِّ ، وَإِنْ أَجْتَمَعْتَ صَدَعَ فَعَلِّكَ مُلْتَبِسَ الشُّكِّ ؛ فَاعْزِمِ يَهْدِيَّ اللهُ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ ، وَقُلْ يُنْطِقِ اللهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ ؛ فَإِنَّ جَنُودَكَ جَمَّةٌ ، وَخِزَانَتَكَ عَامِرَةٌ ، وَنَفْسَكَ سَخِيَّةٌ ، وَأَمْرَكَ نَافِذٌ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ الْمَشَاوِرَةَ وَالْمُنَازِرَةَ بَابَا رَحْمَةٍ ، وَمِفْتَاحَا بَرَكَةٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِمَا رَأْيٌ ، وَلَا يَتَّغِيلُ ^(٢) مَعَهُمَا حَزْمٌ ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ ، وَقُولُوا بِمَا يَخْضُرُكُمْ ؛ فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَتَوْفِيقُ اللهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ .

قال الربيع :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ تَصَارِيْفَ وَجُوهِ الرَّأْيِ كَثِيْرَةٌ ، وَإِنَّ الْإِشَارَةَ بِبَعْضِ مَعَارِيضِ الْقَوْلِ يَسِيْرَةٌ ؛ وَلَكِنْ خِرَاسَانُ أَرْضٍ بَعِيْدَةٌ الْمَسَافَةِ ، مُتَرَاخِيَةٌ الشُّقَّةِ ، مُتَّفَاوِتَةٌ السَّبِيْلِ ؛ فَإِذَا أَرْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْيِيْرِ ، وَمُبْرَمِ التَّقْدِيْرِ ، وَبَابِ الصَّوَابِ ، رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ نَظْرُكَ ، وَقَلَّبَهُ تَدْيِيْرَكَ ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ ، وَلَا دُونَهُ مَعْلَقٌ لَخِصُومَةٍ عَائِبٌ ؛ ثُمَّ أَجَبْتَ الْبُرْدَ بِهِ ، وَأَنْطَوْتَ الرَّسْلَ عَلَيْهِ ، كَانَ بِالْحَرَى الْأَيُّ يَصِلُ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُهُ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا يَنْقُضُهُ ؛ فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرَّسْلَ ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِحَقَائِقِ أَخْبَارِهِمْ ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ ، وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ ؛ فَتُحَدِّثَ رَأْيَا غَيْرَهُ وَتَبْتَدِعَ تَدْيِيْرًا سِوَاهُ ؛ وَقَدْ أَنْفَرَجْتَ الْحَلْقَ ، وَتَحَلَّلْتَ الْعُقْدَةَ ، وَأَسْتَرَخِي الْحِقَابَ ، وَأَمْتَدَّ الزَّمَانُ ، ثُمَّ لَعَلَّمَا مَوْقِعَ الْآخِرَةِ كَمَصْدَرِ الْأُولَى ؛ وَلَكِنْ الرَّأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّكَ اللهُ — أَنْ تَصْرِفَ إِجَالَةَ النَّظْرِ ، وَتَقْلِبَ الْفِكْرَ ، فِيمَا جَمَعْتَنَا لَهُ ، وَأَسْتَشْرَتْنَا فِيهِ مِنَ التَّدْيِيْرِ لِحَرْبِهِمْ ، وَالْحَيْلِ فِي أَمْرِهِمْ ، إِلَى الطَّلَبِ لِرَجُلٍ ذِي دِيْنٍ

(١) المنّة : القوّة . (٢) لا يتغيل : لا يضعف . (٣) معاريض الكلام ما عترض يد ولم يصرح وهي التورية بالشيء عن الشيء . (٤) الحقاب : شيء يتخذ المرأة تعلق به معاليق الخيل تشده على وسطها .

فاضل ، وعقل كامل ، وورع واسع ، ليس موصوفاً بهوى في سواك ، ولا متهماً في أثره عليك ، ولا ظنيناً على دُخْلَةٍ مَكْرُوهَةٍ ، ولا منسوباً الى بدعة محدورة ، فَيَقْدَحَ في مُلْكِكَ ، وَيُرْبِضُ الْأُمُورَ لِغَيْرِكَ ، ثم تُسْنِدُ اليه أُمُورَهُمْ ، وتفوض اليه حربهم ، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم ، وخلاف نهيك اذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور ، وأشداد الأحوال التي يَنْقُضُ أمر الغائب عنها ، ويثبت رأي الشاهد لها ، فإنه اذا فعل ذلك فوائب أمرهم من قريب ، وسقط عنه ما يأتي من بعيد ، تمت الحيلة وقويت المكيده ، ونفذ العمل وأحد النظر ، إن شاء الله .

قال الفضل بن العباس :

أيها المهدي ، إن وليّ الأمور وسائس الحروب ربما نَحَى جنوده ، وفترق أمواله في غير ماضيق أمر حربه ، ولا ضَغْطَةِ حال اضطرتته ، فيقعد عند الحاجة إليها ، وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقدًا لها ، لا يثق بقوة ، ولا يصول بعدة ، ولا يفزع الى ثقة ، فالرأي لك أيها المهدي — وفقك الله — أن تُعْفِي خرائتك من الإنفاق للاموال ، وجنودك من مكابدة الأسفار ، ومقارعة الأخطار ، وتغريير القتال ، ولا تُسْرِعَ للقوم في الإجابة الى ما يطلبون ، والعطاء لما يسألون ، فيفسد عليك أديهم ، وتُجْرِي من رعيّتك غيرهم ، ولكن اغزهم بالحيلة ، وقتلهم بالمكيده ، وصارعهم باللين ، وخاتلهم بالرفق ، وأبرق لهم بالقول ، وأرعد نحوهم بالفعل ، وأبعث البعث ، وجند الجنود ، وكتب الكتاب ، وأعقد الأولوية ، وأنصب الرايات ، وأظهر أنك موجه اليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم ، وأسويهم أثراً فيهم ، ثم أدسس الرسل ، وأبث الكتب ، وضع بعضهم على طمع من وعدك ، وبعضاً على خوف

(١) ظنينا : متهما . ودخلة مكرهه : أي نية سيئة . (٢) ربه أي أثبته .

(٣) أبرق وأرعد بمعنى تهدد وتوعد . (٤) البعث : الجيوش .

من وعيدك؛ وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم ، وأغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتنطوى الصدور على البغضة ، ويدخل كلاً من كل الحذر والهيبه ، فإن مرام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة بالكتب ، والمكايده بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ، القوي الموقع من النفوس ، المعقود بالتحجج ، الموصول بالحيل ، المبني على اللين الذي يستميل القلوب ، ويستترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة ، أنفد من القتال بظبات السيوف وأسنة الرماح ، كما أن الوالى الذى يستنزى طاعة رعيته بالحيل ، ويفرق كلمة عدوه بالمكايده ، أحكم عملاً وأطف منظرًا وأحسن سياسة من الذى لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال والتفريخ والخطار^(١) .

وليعلم المهدي أنه إن وجه لقتالهم رجلا لم يسر لقتالهم إلا بجنود كشيعة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم على أسفار ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقواد غششة ؛ إن أتمهم أستنفدوا ماله ، وإن استنص بهم كانوا عليه لاله .

قال المهدي : هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ، ومجد حقه في القلوب ، ولكن فوق كل ذى علم عليهم ؛ ثم نظر الى ابنه على فقال : ما تقول ؟ قال على :

أيها المهدي ، إن أهل خراسان لم يخالعوا عن طاعتك ، ولم ينصبوا من دونك أحداً يقدح في تغيير ملكك ، ويربض الأمور لفساد دولتك ؛ ولو فعلوا لكان الخطب أيسر ، والشأن أصغر والحال أدل ، لأن الله مع حقه الذى لا يخذله ، وعند مواعده الذى لا يخلفه ، ولكنهم قوم من رعيته ، وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبت الى دعوتهم ونفست عنهم^(٢)

(١) الخطار : الاشراف على هلكة .

(٢) نفست عنهم : فرجت عنهم .

(١) قبل أن يتَلاحمَ منهم حال ، أو يحدث من عندهم فتق ، أظفأت نائرة الحرب ، ووقرت خزائن المال ، وطرحت تغير القتال ، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك ، وسجية حلمك ، وإسباح خليقتك ، ومعادلة نظرك ، فأمنت أن تُنسب إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَة ؛ وإن منعتهم ما طلبوا ولم تُجِبهم إلى ما سألوا ، اعتدلت بك وبهم الحال ، وساويتهم في ميدان الخطاب ؛ فما أرب المهدي أن يعبد إلى طائفة من رعيتيه ، مقرين بمملكته ، مدعين لطاعته ، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يبرئونها من عبوديته ، فيملكهم أنفسهم ويخلع نفسه عنهم ، ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم سوء في حد المنازعة ومضمار المخاطرة ؛ أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال ؟ فلمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها ، مما يطلب منهم وأضعاف ما يدعى قبلهم ، ولو نالها فحملت إليه ، أو وضعت بخرايطها بين يديه ، ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها ، لكان مما إليه يُنسب وبه يُعرف من الجود الذي طبعه الله عليه ، وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه ؛ فإن قال المهدي : هذا رأى مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا ، وتحامل ولاتنا ؛ فأما الجنود الذين تقضوا موثيق اليهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف وفتحوا باب المعصية ، وكسروا قيد الفتنة ، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم ؛ فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد ، مقرنين في الأصفاد ؛ ثم اتسع لحقن دماءهم عفو ، وإقالة عثرتهم صفة ، وأستبقاهم لما هم فيه من حزبه ، أو لمن بإزائهم من عدوه ، لما كان بدعا من رأيه ، ولا مُستنكرا من نظره ، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفو ، وأشدّها وقعا ، وأصدقها صولة ؛ وأنه لا يتعاضمه عفو ،

(١) نائرة الحرب : ما اشتعل واتقد منها .

(٢) الإسباح : مصدر أسبح الوالى . اذا أحسن العفو .

(٣) الخريطة : وعاء من آدم وغيره .

(٤) الارجاف : مصدر أرجف القوم اذا خاضوا في أخبار الفتن على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن

(١) ولا يتكأده صفح ، وإن عظم الذنب وجل الخطب ، فالرأى للمهدى — وفقه الله تعالى — أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم ، وأن يذكر أولى حالاتهم وضعفة عيالاتهم ، برأ بهم وتوسعاً لهم ؛ فإنهم إخوان دولته ، وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبججتهم يقول ؛ وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مسأخطة ، وتعرضوا له من معاصيه ، وأنطوا فيه عن إجابته ، ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم ، أو ثقل من حاله لهم ، أو تغير من نعمته بهم ، كمثل رجلين أخوين متناصرين متآزرين ، أصاب أحدهما خبيل عارض ، وهو حادث ، فهض إلى أخيه بالأذى ، وتحمّل عليه بالمكروه ، فلم يزد أخوه إلا رقة له ولطفاً به ، واحتيالاً لمداواة مرضه ومراجعة حاله ؛ عطفاً عليه وبراً به ومرحمة له .

فقال المهديّ : أما عليّ فقد كوى سمّت اللبان ، وفضّ القلوب في أهل خراسان ، ولكل نبأ مستقر ، ثم قال : ما ترى يا أبا محمد ؟ يعني موسى ابنه .

فقال موسى :

أيها المهديّ ، لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم ، وأنت ترى الدماء تسيل من خال فعلهم ؛ الحال من القوم ينادي بمضمرة شرّ ، وخفية حقد ؛ قد جعلوا المعاذير عليها سترًا ، واتخذوا العلل من دونها حجاباً ؛ رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير ، والأموار بالتطويل ؛ فيكسروا حيل المهديّ فيهم ، ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مادتهم ، وتستفحل حربهم ، وتستمر الأمور بهم ؛ والمهديّ من قولهم في حال غيرة ولباس أمنيّة ، قد فترها وأنس بها وسكن إليها ؛ ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وبردت عليه جلودهم من المناصبة بالقتال ، والإضمار للقراع عن داعية ضلال ، أو شيطان فساد ، لرهبوا عواقب أخبار الولاة ، وغبّ سكون الأمور ؛ فليشدّ المهديّ — وفقه الله —

(١) لا يتكأده : لا يشق عليه .

أَزَّرَهُ لَمْ وَيَكْتُبْ كِتَابَهُ نَحْوَهُمْ ، وَلِيَضَعَ الْأَمْرَ عَلَى أَشَدِّ مَا يُحْضِرُهُ فِيهِمْ ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ لَا يُعْطِيهِمْ خُطَّةً يَرِيدُ بِهَا صَلَاحَهُمْ إِلَّا كَانَتْ دُرْبَةً إِلَى فِسَادِهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ ، وَدَاعِيَةً إِلَى عَوْدَتِهِمْ ؛ وَسَبَبًا لِفِسَادِ مَنْ بِحَضْرَتِهِ مِنَ الْجُنُودِ ، وَمَنْ بَابِهِ مِنَ الْوَفُودِ ، الَّذِينَ إِنْ أَقْرَبَهُمْ تِلْكَ الْعَادَةُ ، وَأَجْرَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْأَرْبِ ، وَلَمْ يَبْرَحْ فِي فَتْحِ حَادِثٍ وَخِلَافِ حَاضِرٍ ؛ لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ دِينَ ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ دُنْيَا ؛ وَإِنْ طَلَبَ تَغْيِيرَهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ الدُّرْبَةِ ، لَمْ يَصِلْ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْعُقُوبَةِ الْمَفْرُطَةِ ، وَالْمُؤُونَةِ الشَّدِيدَةِ ، وَالرَّأْيِ لِلْمَهْدِيِّ وَفَقَهُ اللَّهِ — أَلَّا يُقْبَلَ عَثْرَتُهُمْ ، وَلَا يُقْبَلَ مَعْدِرَتُهُمْ ، حَتَّى تَطَّاهُمُ الْجِيُوشُ ، وَتَأْخُذَهُمُ السُّيُوفُ ، وَيَسْتَحِرَّ^(١) بِهِمُ الْقَتْلُ ، وَيُحْدِقَ بِهِمُ الْمَوْتُ ، وَيُحِيطُ بِهِمُ الْبَلَاءُ ، وَيُطَبِّقُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّ ؛ فَإِنْ فَعَلَ الْمَهْدِيُّ بِهِمْ ذَلِكَ ، كَانَ مَقْطَعَةً لِكُلِّ عَادَةٍ سَوْءٍ فِيهِمْ ، وَهَزِيمَةً لِكُلِّ بَادِرَةٍ شَرٍّ مِنْهُمْ ، وَأَحْتِمَالٌ لِلْمَهْدِيِّ مُؤُونَةَ غَزْوَتِهِمْ هَذِهِ يَضَعُ عَنْهُ غَزَوَاتٍ كَثِيرَةً ، وَنَفَقَاتٍ عَظِيمَةً .

قال المهديّ : قد قال القوم فأحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهديّ :

أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلَكوا جنّبات الصواب ، وتعدّوا أمورا قصر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجار بهم عليها .

وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تُتَفَقَّ ، والجنود ألا تفرّق ، وبألا يعطى القوم ما طلبوا ، ولا يبدّل لهم ما سألوا ، وجاء بأمرٍ بين ذلك استصغاراً لأمرهم واستهانته بجرهم ؛ وإنما يبيح جسيمات الأمور صغارها .

(١) يستحزّ : يشنّد ويقوى .

وأما عليّ فأشار باللين وإفراط الرِّفق ، وإذا جرّد الوالى لمن تَحَمَّط أمره وسفه حقه ،
 اللين بحتاً والخير محضاً ، لم يخطِئهما بشدة تعطف القلوب عن لينه ، ولا يشرّ يحبسهم إلى
 خيره ، فقد ملكهم الخلع لعدوهم^(٢) وسع لهم الفرجة لئنى أعناقهم ، فإن أجابوا دعوته وقبلوا
 لينه من غير خوفٍ اضطهرهم ولا شدة ، فنزوة^(٣) في رءوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم ،
 ويستصرخون بها رأى المهديّ فيهم ، وإن لم يقبلوا دعوته ويُسرعوا لإجابته باللين المحض
 والخير الصراح ، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم ، وما قد يُشبهه أن يكون من مثلهم ،
 لأن الله تعالى خالق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يخطر على قلب
 بشر ولا تدركه الفكر ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها ، فلولا أنه خلق ناراً
 جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة ، لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا بشدة لا لين فيها ، وأن يرموا بشرّاً خير معه ، وإذا
 أضمر الوالى لمن فارق طاعته ، وخالف جماعته ، الخوف مفرداً ، والشر مجزئاً ، ليس معهما
 طمع ولا لين يثنيهم ، آشتت الأمور بهم ، وأنقطعت الحلال منهم إلى أحد أمرين : إما أن
 تدخلهم الحمية من الشدة ، والأنفة من الدلة ، والأمتعاض من القهر ، فيدعوهم ذلك إلى
 التمادى في الخلاف ، والاستبسال في القتال ، والاستسلام لموت ، وإما أن يتقادوا بالكروه ،
 ويُدعِنوا بالقهر على بغضة لازمة ، وعداوة باقية ، تُورث النفاق وتُعقب الشقاق ، فإذا
 أمكنتهم فرصة ، أو ثابت لهم قدرة ، أو قويت لهم حال ، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ
 وأشدّ مما كان .

(١) غمط الأمر : ازدراه . وسفه حقه : أمتهه وبخسه .

(٢) الخلع : الثوب الذي يخلع به العبد على سيده .

(٣) النزوة : العذر جمع عذار .

(٤) الرءوس : الرؤس جمع رؤس .

(٥) النفاق : الخلق الذي يظاهر بالدين والحق ، ويبطن بالكفر والباطل .

(٦) الشقاق : التفرقة والخصام .

(٧) الغلظ : العسر والشد .

وقال في قول الفضل :

أيها المهديّ، أكفني دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان، قد أجمع رأيه وحرّم نظره
على الإرشاد ببعثة الجيوش اليهم، وتوجيه البعث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق،
وإجابتهم الى ما سألوه من العدل .

قال المهديّ : ذلك رأي .

قال هارون :

ما خلطت الشدّة أيها المهديّ باللين، وانتظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدّة أمر^(١)
فطام لما تكره، وعاد اللين أهدي قائد الى ما تُحِبُّ، ولكن أرى غير ذلك .

قال المهديّ :

لقد قلت قولاً بديعاً، خالفت فيه أهل بيتك جميعاً، والمرء مؤتمن بما قال، وظنين^(٢)
بما ادعى حتى يأتي بيينة عادلة، وحجة ظاهرة، فأخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهديّ، إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكرّة، وربما اعتدلت الحال بهم،
وأتفقت الأهواء منهم، فكان باطن ما يُسرون على ظاهر ما يُعلنون، وربما آفرت
الحالان، وخالف القلب اللسان، فأنطوى القلب على محجوبة تُبطن، وأستسر بمدخولة^(٣)
لا تُعلن، والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدم يده وموضع ميسمه، لا يتعجل^(٣)
بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء، فالرأي للمهديّ — وفقه الله — أن يفتر باطن أمرهم
فتر المسنة، ويخصّ ظاهر حالهم محض السقاء بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاتة^(٤)

(١) الفطام هنا : القطع والاستئصال .

(٢) ظنين بما ادعى : متهم بدعواه .

(٣) الميسم : المكواة يوسم بها الحيوان .

(٤) فتر الدابة : فتح فاهها وكشف عن أسنانها ينظر ما سنها . والمسّن من الدواب ما دخل في التامة .

العيون ، حتى تُهتِك حجب عيونهم ، وتُكشَف أَعْطِيَة أمورهم ، فإن أنفِرجَتِ الحال ، وأفضتِ الأمور به الى تغيير حال أو دَاعِيَة ضلال ، أشتمت الأهواء عليه ، وأنقاد الرجال اليه ، وأمتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه ، وإثم يَسْتَحِلُّونَه ، عَصَبَهُمْ بِشِدَّة لا إين فيها ، ورماهم بعقوبة لا عفو معها ، وإن أنفِرجت العيون ، وأهتِصرت الستور ، ورُفِعَتِ الحُجُب ، والحال فيهم مَرِيعة ، والأُمُورُ بهم معتدلة في أرزاقٍ يَطْلُبُونَهَا ، وأعمال يُنكرونها ، وظُلَامات يَدْعُونَهَا ، وحقوق يَسْأَلُونَهَا ، بِمَاتَه سَابِقَتَهُمْ ، ودَالَّةٌ مَنَاصِحَتَهُمْ ؛ فالرأى للمهدى — وفقه الله — أن يتسع لهم بما طلبوا ، ويتجافى لهم عما كرهوا ، ويشعب من أمرهم ما صدعوا ، ويرتق من فتقهم ما قطعوا ، ويولّى عليهم من أحبوا ، ويداوى بذلك مرض قلوبهم ، وفساد أمورهم ؛ فإنما المهدي وأمته ، وسواد أهل مملكته ، بمنزلة الطبيب الرفيق ، والوالد الشفيق ، والراعي المحزب الذي يَحْتَالُ لمرابض غنمه ، وضوّال رعيتِه ، حتى يبرئ المريضة من داء علتها ويرد الصحيحة الى أنس جماعتها ؛ ثم إن حراسان بخاصة الدين لهم دالة محمولة ، وماتة مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوق واجبة ؛ لأنهم أيدي دولته ، وسيوف دعوته ، وأنصار حقّه ، وأعوان عدله ؛ فليس من شأن المهدي الأضطغان عليهم ، ولا المؤاخدة لهم ، ولا التوغير بهم ، ولا المكافأة بإساءتهم ، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى ، ومحاوله قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ ، أحرّم في الرأى ، وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها ، حتى يَلْتَمَّ قَلِيلُهَا بكثيرها ، وتجتمع أطرافها الى جمهورها .

قال المهدي : ما زال هارون يقع وقع الحيا حتى خرج خروج القدح من الماء ، وأنسل أنسلال السيف فيما ادعى ، فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأى ، وثنى بعده هارون ، ولكن من لأعنة الخليل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم الجباج ، وأفرطت بهم الدالة ؟ .

(١) الماتة : الحرمة والوسيلة .

(٢) التوغير بهم : التشديد عليهم .

قال صالح :

لسنا نبغ أيها المهديّ بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِرَاسَة رأيك ، وبعضَ لحظّات نظرك ؛ وليس يَنفُضُ عنك من بيوتات العرب ورجال العجم ذو دين فاضل ، ورأى كامل ، وتدبير قوى ؛ تفلّده حربك ، وتستودعه جندك ، من يَحْتَمِلُ الأمانةَ العظيمة ، ويضطّلع بالأعباء الثقيلة ؛ وأنت بحمد الله ميمونٌ النقيبة ، مبارك الغزيمة ، محبور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم ؛ فليس يقع اختيارك ، ولا يقف نظرك على أحدٍ تولّيه أمرك ، وتُسند إليه ثغرُك ، إلا أراك الله ما تحب ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهديّ : إني لأرجو ذلك لتقديم عادة الله فيه ، وحسن معونته عليه ؛ ولكن أحبّ الموافقة على الرأي ، والأعتبار للشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن الليث :

أهل خراسان أيها المهديّ ، قوم ذوو عزة ومنعة ، وشياطين خدعة ؛ زروع الحمية فيهم نابتة ، وملايس الأنفة عليهم ظاهرة ؛ فالروية عنهم عازبة ، والعجلة فيهم حاضرة ؛ تسبق سيولهم مطرهم ، وسيوفهم عدلهم ، لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم ، وبين رؤساء لا يلجمون إلا بشدة ، ولا يفظمون إلا بالمتز ؛ وإن ولّى المهديّ عليهم وضيعا لم تنقد له العطاء ، وإن ولّى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ؛ وإن أحرّ المهديّ أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يُصيب لنفسه من حشمة ومواليه ، أو بنى عمه أو بنى أبيه ؛ ناصحا يتفق عليه أمرهم ، وثقةً تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ، ولا حمية تدخلهم ، ولا مصيبة تنفرهم ؛ تنفست الأيام بهم ، وتراخت الحال بأمرهم ؛ فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ، ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جدّ ، ولا يستصاحه وإن جهّد ،

(١) ميمون النقيبة : أي مبارك النفس ينجح فيما يحاول . ومحبور التجارب : خير بها .

(٢) العازب : الغائب .

(٣) العذل : اسم مصدر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل "سبق السيف العذل" يضرب لما قد فات .

إلا بعد دهر طويل وشركبير؛ وليس المهديّ — وفقه الله — فاطماً عاداتهم، ولا قارعا صفاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما . ولا عدل في ذلك بهما :

أحدهما لسانٌ ناطقٌ موصولٌ بسمعك ، ويدٌ ممثلةٌ لعينك ، وصخرةٌ لا تزغزع ، وبهمةٌ لا يُثنى ؛ وبازلٌ لا يُفزعُه صوتُ الجُلجل ، نقيّ العِرض ، نزيه النفس ، جليل الخطر ، قد اتّضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمته ، فجعل العِرض الأقصى لعينه نُصباً ، والغرض الأدنى لقدمه مؤطناً ؛ فليس يقبل عملاً ، ولا يتعدى أملاً ؛ وهو رأس مواليك ، وأنصح بنى أبيك ؛ رجلٌ قد غدّى بلطيف كرامتك ، ونبت في ظل دولتك ، ونشأ على قوائم أدبك ؛ فإن قلّده أمرهم ، وحملته ثقلهم ، وأسندت إليه ثغرهم ؛ كان قفلاً فتّحه أمرُك ، وباباً أغلقه نهيك ؛ فجعل العدل عليه وعليم أميرا ، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً ؛ وإذا حكم النصفَةَ وسلك المعدلة ، فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم ، غرس في الذي لك بين صدورهم ، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم ، طاعةً راسخةً العروق ، بأسقة الفروع ، متائلةً في حواشي عوامهم ، متمكنة من قلوب خواصهم ؛ فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه ، ولا يلزمهم حقٌ إلا أدوه ؛ وهذا أحدهما .

والآخر عودٌ من غيظتك ؛ ونبعةٌ من أرومتك ، فقي السن كهل الحِلْم راجح العقل مجود الصرامة مأمون الخلاف ؛ يجرد فيهم سيفه ، ويبسط عليهم خيره بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب ما يستوجبون ؛ وهو فلان أيها المهديّ ، فسَلطه — أعزك الله — عليهم ، ووجهه بالجوش اليهم ، ولا تمنع ضراعة سنه ، وحدائث مولده ؛ فإن الحلم والثقة مع الحدائث ، خير من الشك والجهل مع الكهولة ؛ وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصكم به من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصرامة الأنفُس ؛ كفراخ عناق الطير المحكّمة^(٢) لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة

(١) ضراعة سنه : شبابه وحدائث سنه .

(٢) عناق الطير : كرام الطير .

لوجوه النَّفْع بلا تأديب؛ فالحلم والعلم والعزم والحزم والجلود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم،
مزروع في قلوبكم، مستحکم لكم، متكامل عندكم، بطابع لازمة، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

إفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر . وأهل خراسان في حال عز على
ما وُصِف، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود، ولا بنبيه
الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمر، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة
في الأعداء؛ دخل ذلك أمران عظيمان وخطران مهولان، أحدهما : أن الأعداء يَعتَمِزونها
منه ويَحْتَقِرُونَهَا فيه ، ويحترثون بها عليه في النهوض به والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل
الاختبار لأمره ، والتكشُّف لحاله والعلم بطباعه . والأمر الآخر : أن الجنود التي يقود
والجيوش التي يسوس إذا لم يحترثوا منه البأس والنجدة ، ولم يعرفوه بالصمت والهيبة ،
أنكسرت شجاعتهم ، وماتت نجاتهم ، وأستأخرت طاعتهم الى حين اختبارهم ، ووقوع
معرفتهم ؛ وربما وقع البوار قبل الاختبار؛ وبياب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب
نبيه حنيك صيت ؛ له نسب زالك وصوت عالٍ ، قد قاد الجيوش وساس الحروب ، وتألف
أهل خراسان ، واجتمعوا عليه بالحقبة ، ووثقوا به كل الثقة ؛ فلولاه المهدي أمرهم ،
لكفاه الله شرهم .

قال المهدي : جانبت قُصْد الرِّمِيَّة ، وأبَيْتَ إِلَّا عَصِيْبَةً ؛ إذ رأى الحَدَث من أهل
بيتنا ، كراى عشرة حُامَاء من غيرنا ؛ ولكن أين تركتم ولي العهد .

قالوا :

لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده ، ونسيج وحده ؛ ومن الدين وأهله ، بحيث يقصُر
القول عن أدنى فضله ؛ ولكن وجدنا الله عز وجل حَجَب عن خلقه ، وستر من دون عباده
علم ما تختلف به الأيام ، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير ، من حوادث الأمور ورئيب المنون

الْمُخْتَرِمَةَ لِحَوَالِي الْقُرُونِ وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ ، فَكَرِهْنَا شِسُوعَهُ عَنْ مَحَلَّةِ الْمَلِكِ وَدَارِ السَّلْطَانِ وَمَقَرِّ
 الْإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَمَوْضِعِ الْمَدَائِنِ وَالخَزَائِنِ ، وَمَسْتَقَرِّ الْجُنُودِ وَمَعْدِنِ الْجُودِ ؛ وَجَمَعَ الْأَمْوَالَ
 الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُطْبًا لِدَارِ الْمَلِكِ وَمِصِيدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ وَمَثَابَةً لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَتَوَارِ الْفِتَنِ ،
 وَدَوَاعِيَ الْبِدَعِ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ وَأَبْنَاءَ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدِيُّ وَلِيَّ عَهْدِهِ فَحَدَّثَ
 فِي جَيْوشِهِ وَجُنُودِهِ مَا قَدْ حَدَّثَ بِجُنُودِ الرَّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُعْقِبَهُمْ
 بغيره إِلَّا أَنْ يَنْهَدَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ؛ وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَنَفَّسَتْ الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ،
 وَأَسْتَدَارَتْ الْحَالِ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عَوْضٌ لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ ، أَوْ يَحْدُثَ أَمْرٌ لَا بَدَّ مِنْهُ ،
 صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوْلًا وَأَجَلٌ خَطَرًا لَهُ تَبَعًا وَبِهِ مُتَّصِلًا .

قال المهدي :

الْخَطْبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ؛ نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ
 نَجْرِي مِنْ أَسْبَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِ مِنَ الْعِلْمِ وَمَحْتَمٍ مِنَ الْأَمْرِ ؛ قَدْ
 أَنْبَأَتْ بِهِ الْكُتُبُ ، وَنَبَأَتْ عَلَيْهِ الرَّسُلُ ؛ وَقَدْ تَنَاهَى ذَلِكَ بِأَجْمَعِ الْبِنَاءِ وَتَكَامَلَ بِحِذَافِيرِهِ
 عِنْدَنَا ؛ فِيهِ نُدَبَّرُ وَعَلَى اللَّهِ تَتَوَكَّلُ . إِنَّهُ لَا بَدَّ لَوْلَى عَهْدِي وَوَلِيِّ عَهْدِي عَقِبِي بَعْدِي أَنْ يَقُودَ
 إِلَى خِرَاسَانَ الْبُعُوثِ ، وَيَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُعْمَلُ فِيهِمْ حَيْلَهُ ؛ ثُمَّ يُخْرِجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَتِيقًا
 عَلَيْهِمْ ، يُرِيدُ أَلَّا يَدَعَ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِيَ الْبِدَعِ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ ، إِلَّا تَوَطَّأَهُ
 بِحَرِّ الْقَتْلِ ، وَأَلْبَسَهُ قِنَاعَ الْقَهْرِ ، وَقَلَّدَهُ طَوْقَ الذَّلِّ ؛ وَلَا أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي قِصِّ
 جَنَاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِنْجَادِ نَارِ الْبِدْعَةِ ، وَنُصْرَةِ وِلَاةِ الْحَقِّ ، إِلَّا أَجْرَى عَلَيْهِمْ دِيمَ فَضْلِهِ ، وَجَدَاوَلَ
 نَهْلِهِ ؛ فَإِذَا خَرَجَ مِنْ مَعَا بِهْ جُمُعًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ عَمِلَتْ حَيْلُهُ ،
 وَكَدَحَتْ كُتْبُهُ وَنَفَذَتْ مَكَايِدَهُ ؛ فَهَدَّاتُ نَافِرَةَ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ، وَأَجْتَمَعَ

(١) شسوعه : ابتعاده .

(٢) سعت ودأبت حتى أثرت .

(٣) وقعت طائرة الأهواء : نهد غضبها وسكن روعها .

عليه المختلِفون بالرضا ، فيميل نظرًا لهم ، ويرأبهم ، وتعطفًا عليهم ، الى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومنع حُجاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تُجارهم رِزق الله الحلال .

وأما الآخر فانه يوجه اليهم ، ثم تعتقد له الحجَّة عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يسألون ، فاذا سمحت الفرق بقراباتها له ، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ، فأصغت اليه الأفتدة ، واجتمعت له الكلمة ، وقدمت عليه الوفودُ قصدًا لأول ناحية نجعت بطاعتها وألفت بأزمتها ، فألبسها جناح نعمته ، وأنزلها ظل كرامته ، وخصَّصها بعظيم حباتها ، ثم عم الجماعة بالمعدلة ، وتعطف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها بركته ، ووصلت اليها منفعته ، فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضعيها ، وزاد رفيعها ما خلا ناحيتين ، ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتسميهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وتبطن عن إجابته ، وتتناقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه ، فيضطل عليها موجدة ويتنحى لها علة ، لا يلبث أن يبد بحق يزمهم وأمر يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحتر بهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويفنيهم التتبع ، حتى يخرّب البلاد ، ويؤتم الأولاد ، وناحية لا يسط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يجعل لهم ذمة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتدرع جلباب الفتنة ، وربض في شق العصا ، ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ، ويطلب هربهم في لجج البحار ، وقُلل الجبال ، ونحمل الأودية ، وبطون الأرض ، تقتيلا وتغليلا وتنجيلا ، حتى يدع الديار خرابا ، والنساء أياحى ، وهذا أمر لا نعرف له في كُتبتنا وقتا ، ولا نصصح منه غير ما قلنا تفسيرا .

وأما موسى ولى عهدى فهذا أوان توجهه الى خراسان ، وحلوله بجرجان ، وما قضى الله له من الشخوص اليها ، والمقام فيها ، خير للساكنين مغبة ، وله بإذن الله عاقبة من المقام ، بحيث يغمر في لجج بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم فضله ،

ويَتَدَأَبُ^(١) مشرق نوره، ويتقلل كثير ما هو كائن منه؛ فمن يَصْحَبُه من الوزراء ويُخْتَارُه من الناس .

قال محمد بن الليث :

أيها المهديّ : إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علمًا ، قد تَشَتَّت نحوه أعناقها ، ومدّت سمّته أبصارها ؛ وقد كان لقرب داره منك ، ومحل جواره لك ، عَطَل الحال غُفَلَ الأمر واسع العُدْر ؛ فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار الى تدييره ، فإن من شأن العامة أن تَتَفَقَد مَحَارِج رأيه ، وتَسْتَنْصِت لمواقع آثاره ، وتَسْأَل عن حوادث أحواله في ربه ومرحمته وإقساطه ومعدّلته وتدييره وسياسته ووزرائه وأصحابه ؛ ثم يكون ما سيق اليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك الأمور بهم وأزّمها لقلوبهم ، وأشدّها أسئلةً لرأيهم وعطفًا لأهوائهم ؛ فلا يفتأ المهديّ — وفقه الله — ناظرًا له فيما يقوى عمده مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ، ويستجمع رضا أمته بأمرٍ هو أزين لحاله وأظهر لجماله ، وأفضل مغبةً لأمره ؛ وأجل موقعًا في قلوب رعيته ، وأحمد حالًا في نفوس أهل ملته ؛ ولا أدفع مع ذلك باستجاع الأهواء له ، وأبلغ في استعطاف القلوب عليه ، من مرحمة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أثره ومحبة للخير وأهله ، وأن يختار المهديّ — وفقه الله — من خيار أهل كل بلدة ، وفقهاء أهل كل مضرب ؛ أقوامًا تسكن اليهم العاقمة إذا ذكروا ، وتأنس الرعية بهم إذا وُصفوا ؛ ثم تُسهّل لهم عمارة سُبُل الإحسان وفتح باب المعروف ، كما قد كان فُتِح له وسُهّل عليه .

قال المهديّ : صدقت ونصحت ، ثم بعث في ابنه موسى فقال :

أى بُنَيّ ، إنك قد أصبحت لَسَمْت^(٤) وجوه العاقمة نُصْبًا ، وَلِمَتْنِي^(٥) أعطف الرعية غاية ؛ فَسَنَتُكَ شاملة ، وإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر ؛ فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل

(١) يتدأب: يخبث . (٢) تفتقد مخرج رأيه : أى تفحص عن وجوه رأيه وتدييره . (٣) أملك

الأمور : أضبها . (٤) سمت : المذهب والقصد . (٥) الأعطف : جمع عطف وهو الجانب .

سُخِّطَ النَّاسَ فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبُ رِضَاهُمَا بِخِلَافِهِمَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَافِيكَ مَنْ أَسَخَّطَهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَاهُ ، وَلَيْسَ بِكَافِيكَ مَنْ يُسَخِّطُهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَا مَنْ سِوَاهُ . ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ فِتْرَةً مِنْ رُسُلِهِ ، وَبَقَايَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ وَخَبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَجْتَدِدُ حِجْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ، وَيَسَيِّدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنُصْرَتِهِمْ ؛ وَيَتَّخِذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى إِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَانًا ؛ يَسُدُّونَ انْحِلَالَ وَيَقِيمُونَ الْمَيْلَ ، وَيُدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفَسَادَ ؛ وَإِنَّ أَهْلَ خِرَاسَانَ أَصْبَحُوا أَيْدِي دَوْلَتِنَا ، وَسَيْوُفُ دَعْوَتِنَا الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارِهِ بِطَاعَتِهِمْ ، وَنَسْتَصْرِيفُ نَزُولِ الْعِظَائِمِ بِمَنَاصِحَتِهِمْ ؛ وَنُدَافِعُ رَيْبَ الزَّمَانِ بِعِزَائِمِهِمْ ، وَنُزَاحِمُ رُكْنَ الدَّهْرِ بِبِصَائِرِهِمْ ؛ فَهَمَّ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أُرْجِفَتْ كُنْفُهَا ^(١) ، وَخَوْفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْحَتُهَا ، وَحِصُونُ الرَّعِيَّةِ إِذَا تَضَايَقَتْ الْحَالَ بِهَا ؛ قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ؛ أَنْحَدْتُ نِيرَانَ الْفِتَنِ ، وَقَسَمْتُ دَوَاعِيَ الْبِدْعِ ، وَأَذَلْتُ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَلِكَ مَا جَرَوْا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِحِجْلِ طَاعَتِنَا ؛ الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا ذَلَّتْهُمْ وَرَفَعَ بِهَا ضَعَّتْهُمْ ؛ وَجَعَلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمَلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ بَعْدَ لِبَاسِ الدَّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ الْبِسَاءِ وَمُحَالَفَةِ الْأَسَى ، وَجَهْدِ الْبَأْسِ وَالضَّرِّ ؛ فَظَاهَرُوا عَلَيْهِمْ لِبَاسَ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزَلَهُمْ فِي حُدَائِقِ نِعْمَتِكَ ؛ ثُمَّ أَعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ دَالَّتِهِمْ ، وَمِائَةَ سَابِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مَنَاصِحَتِهِمْ ؛ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِثَابَةِ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِقَالَةَ لِمُسِيئَتِهِمْ .

أَيُّ بُخْيٍ ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَاقِبَةُ فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ لَهَا ؛ وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَاجْعَلْ عَمَالَ الْعُدْرِ وَوَلَاةَ الْحُجَّجِ مَقْدَمَةً بَيْنَ عَمَلِكَ ، وَنَصْفَةً مِنْكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ كُلِّ بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَلَّيَهُ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ؛ فَإِنْ أَحْسَنَ حُدُوتَ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذْرَتَ . هَؤُلَاءِ عَمَالَ الْعُدْرِ وَوَلَاةَ الْحُجَّجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ

(١) الكنف : جمع كنف وهو الجانب . وأرجفت : زلزلت .

ما في ذلك اذا أنتشر في الآفاق ، وسبق الى الأسماع ، من انعقاد ألسنة المرّجفين ، وكبت
 قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ؛ ولا ينفكّن في ظلّ
 كرامتك نازلا ، وبِعراً حبلك متعلّقاً رجلاًن : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب ،
 وأعلام بيوتات الشرف ؛ له أدب فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دين غير
 مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأخفاء العرب ووضع
 الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب ؛ يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية ، من
 محاسنك وتحسين أمرك وتحليله ذكرك ؛ فتستشيرهُ في حربك ، وتُدخِله في أمرك ؛ فرجل
 أصبته كذلك فهو يأوى الى محلتى ، ويرعى في خُصرة جنانى ؛ ولا تدع أن تختار لك من
 فقهاء البلدان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جيرانك وسُمارك ، وأهل مُشاورتك فيما
 تُورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصدر . فسِر على بركة الله ، أصحبك الله من عونه وتوفيقه
 دليلاً يهْدى الى الصواب قلبك ، وهادياً يُنطق بالخير لسانك . وكتب في شهر ربيع الآخر
 سنة سبعين ومائة ببغداد .

(١) الكريمة : صاحب الكرم . وكرائم الرجال : أخير رجال العرب وأحسنهم . (٢) غير مغموز :
 غير مطعون : وغير مدخول : لا يداخله فساد .

٢ - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشيد

الى قُسطنطين ملك الروم

من عبد الله هارون أمير المؤمنين الى قسطنطين عظيم الروم: سلام على من أتبع الهدى ،
فإني أحمد الله الذي لا شريك معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذي تعالى عن شبه
المحدودين بهظمته ، واحتجب دون المخلوقين بعزته ، فليست الأبصار بمدركة له ، ولا
الأوهام بواقعة عليه ، انفراداً عن الأشياء أن يُشبهها ، وتعالى أن يشبهه شيء منها ، وهو
الواحد القهار ، الذي ارتفع عن مبالغ صفات القائلين ، ومذاهب لغات العالمين ، وفكر
الملائكة المقربين ، فليس كمثله شيء ، وله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

أما بعد ، فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل
من آيات الوحي اليه : ﴿ اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . فرأى
أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل فعله ، أن يكون الى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله
صلى الله عليه وسلم متأسياً ، ولقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقاً . وكنت من كتب الله المنزلة ، وآياته المفصرة ، وخلقه الكثير
بحيث رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظته ، وانتفاعك بمجادلته انتفاع بشركه كثير وخلق
عظيم قد بُوت بأوزارهم مع وزيرك ، واحتملت من آناهم الى إثمك ، فأحب أن يدعوك
ومن رجا أن يتفع بدعوته معك ، الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نُشرك به
شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه ،
أو تركتموه زهادة فيه ، فأشهدوا بأننا مسلمون . واستمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم ،
ومحتج به إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهدة وأذان واعية ، ثم آتبعوا أحسن ما تسمعون .
ولا قوة إلا بالله .

فان الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه وأفتص على عباده : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ . إن الله
تبارك اسمه وتعالى جده ، وصنّف فيما أنزل من آياته ، وشرح من بيناته ، الأمم الماضية ،
والقرون الخالية ، والملل المنقرضة ، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا برهان لهم بها ،
ولا حجة لهم فيها ، فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا إِنَّ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا
لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة وأهل الكتاب الذين يقولون ثالث ثلاثة بأئمتنا
آية يا محمد تزعم أن الله إله واحد ، فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد لها العقول ،
وتؤمن بها القلوب ، وتعرفها الألباب ، فلا تستطيع لها ردا ، ولا تطيق لها سجدا ، ذكر
فيها اتصال خلقه واتفق صنعه ، ليوقن الجاهلون من العرب ، والضالون من أهل الكتاب ،
أن إله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخلق ، واحد لا شريك له ، خالق لا شيء
معه ، فقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي
فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ ﴾ . فتفكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل ، وما أوضح
فيها من بيان الخلق ، فإنه ما من مفكر ينظر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض ، إلا رأى
من اتصال بعض ذلك ببعض ، مثل ما رأى في تدييره نفسه ، وعرف من اتصال خلقه ،
فيما بين ذوائب شؤون رأسه الى أطراف أنامل قدمه . وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة ،
على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه ، ولا من شيء ابتدعه ، ولا على مثال صنعه .
قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خلق للانام الأرض ، وجعلها
موصولة بالخلق ، فليس يدحوها إلا لهم ، ولا يديمها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلا

بِالنَّبْتِ ، لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِ ، وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِ . وَجَعَلَ ذَلِكَ النَّبْتَ الَّذِي جَعَلَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَمَعَاشًا لِأَعْنَامِكُمْ ، مُتَّصِلًا بِالمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ، لِمَعَاشٍ مُقْسُومٍ ، فَلَيْسَ يَنْجُمُ النَّبْتُ إِلَّا بِهِ وَلَا يَحْيَا إِلَّا عَنْهُ . وَجَعَلَ السَّحَابَ الَّذِي يُسْطِطُهُ كَيْفَ يَشَاءُ مُتَّصِلًا بِالرِّيحِ الْمُسَخَّرَةِ فِي جَوْ السَّمَاءِ تُبَيِّرُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ ، وَتَسْوِقُهُ وَأَتَمُّ تَنْظُرُونَ ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبَيِّرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدِيٍّ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ . وَوَصَلَ الرِّيحَ الَّتِي يَصْرِفُهَا فِي جَوْ السَّمَاءِ بِمَا يُؤَثِّرُ فِي خَلْقِ الهَوَاءِ مِنَ الْأَزْمِنَةِ الَّتِي لَا تَثْبُتُ الهَوَاجِرُ إِلَّا بِنَبَاتِهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهُ بَرْدٌ إِلَّا بِزَوَالِهَا ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَظَلَّ رَاكِدًا بِالْحَرِّ الْمُحْمِيَّتِ ، أَوْ مَائِلًا بِالْبَرْدِ الْقَاتِلِ . وَوَصَلَ الْأَزْمِنَةَ الَّتِي جَعَلَهَا مُتَصَرِّفَةً مُتَلَوَّنَةً بِمَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الدَّائِبِينَ لَكُمْ الْمُخْتَلِفِينَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْكُمْ . وَجَعَلَ مَسِيرَهُمَا الَّذِي لَا تَعْرِفُونَ عَدَدَ السَّنِينَ إِلَّا بِهِ ، وَلَا مَوَاقِعَ الْحِسَابِ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِ ، مُتَّصِلًا بِدَوْرَانِ الْفَلَكَ الَّذِي فِيهِ يَسْبَحَانُ ، وَبِهِ يَأْفَلَانُ ؛ وَوَصَلَ مَسِيرَ الْفَلَكَ بِالسَّمَاءِ لِلنَّاطِرِينَ سِوَاهُ . فَهَذَا خَلْقُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مَا فِيهِ تَبَايُنٌ وَلَا تَرَائِيلٌ وَلَا تَفَاوُتٌ ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ . وَلَوْ كَانَ اللَّهُ شَرِيكًا أَوْ مَعَهُ ظَهِيرٌ عَلَيْهِ ، يُمَسِّكُ مِنْهُ مَا يُرْسِلُ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُ مَا يُمْسِكُ ، أَوْ يُؤَخِّرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَنْ وَقْتِ زَمَانِهِ ، أَوْ يَعَجِّلُهُ قَبْلَ مَجِيءِ آيَاتِهِ ، لَتَفَاوَتَ الْخَلْقُ ، وَلَتَبَايَنَ الصَّنْعُ ، وَلَتَفْسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَلَتَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ — وَكَذَّبَ الْمُبْطِلِينَ — : ﴿ بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ .

وَالْعَجَبُ : كَيْفَ يَصِفُ مَخْلُوقَ رَبِّهِ ، أَوْ يُجْعَلُ مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ ، وَهُوَ يَرَى فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ صَنْعَةً ظَاهِرَةً ، وَحِكْمَةً بَالِغَةً ، وَتَأْلِيمًا مُتَّفِقًا ، وَتَدْبِيرًا مُتَّصِلًا ، مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَقُومُ بَعْضُهُ إِلَّا بِبَعْضٍ ، مُتَّجِلًّا بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَائِلًا نُصِبَ عَيْنِهِ ، يَنَادِيهِ إِلَى صَانِعِهِ ، وَيَدُلُّهُ عَلَى خَالِقِهِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى رَبُّوبِيَّتِهِ ، ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ

عَمَّا يُشْرِكُونَ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١﴾ . حقاً ما كرر هؤلاء الجاهلون
بربهم الضالّون عن أنفسهم ، في خلق الله النظر ، ولا رجّعوا كما قال الله عز وجل
الفكر . ولو أعمّـلوا فكّرهم وأجهدوا نظرهم ، فيما تسمع آذانهم وترى أبصارهم ، من
حوادثِ حالاتِ الخلق ، وعجائبِ طبقاتِ الصنع ، لوجدوا في أقرب ما يرون بأعينهم :
من التأليفِ لتكوينِ خلقهم ، والأثرِ في التدبيرِ بصنعهم ، ما يدلّهم على توحيدِ ربهم ،
ويقف بهم على انفرادِهِ بخلقهم . فانهم يرون في أنفسهم بأعينهم ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة
صنعةً بعد صنعة ، ومحوّلةً طبقةً عن طبقة ، ومنقولةً حالاً إلى حال : سلالَةً من طين ، ثم
نُظفَةً من ماء مهين ، ثم علقَةٌ ، ثم مُضغَةٌ ، ثم عظامٌ ، كساه الله عز وجل لحمًا ، ونفخ فيه روحًا ،
فإذا هو خلقٌ آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، الذي خلق في قرارِ مكينٍ ، من ماءٍ قليلٍ
ضعيفٍ ذليلٍ ، خلقاً صورهُ بتخطيطٍ ، وقدرهُ بتكوينٍ ، وألفه بأجزاءٍ متفكّقة ، وأعضاءٍ
متصلة ، من قديمٍ إلى ساقٍ إلى نخدٍ إلى ما فوق ذلك : من مفاصلٍ ما يُعِين أو عجائبٍ
ما يُبَيِّن ، ليعلم الجاهلون ويوقن الجاحدون ، أن الذي صنع ذلك وخلقهُ ودبرهُ وقدرهُ
وهيأ ظاهرهُ وباطنهُ إلهٌ واحد لا شريك معه . فلا يذهبن ذكر هذا صفحاً عنكم ، ولا تسقط
حكمتهُ جهلاً به عليكم ، وفكروا في آياتِ الرسلِ وبيّناتِ النُّذرِ ، فإن في ذلك فكراً للُبصيرين ،
وبصراً للمعتبرين ، وذِكْرى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصِفٌ لَكُمْ ، وَمَقْتَصٌ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، مَا فِيهِ شَهَادَاتٌ
وَاضِحَاتٌ ، وَعَلَامَاتٌ بَيِّنَاتٌ ؛ وَمَبْتَدِئٌ بِذِكْرِ آيَاتِ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنهَا فِي الْوَحْيِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مَا أَحَدٌ يَقْرَعُ آيَاتِ النَّبُوَّةِ قَلْبَهُ ، وَيَحْصُنُ بَيِّنَاتِ الْهُدَى عَقْلَهُ ، إِلَّا
قَادَتْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا يَجِدُ إِلَى الْإِنْكَارِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ سَبِيلاً .
فَأَرَدْتُ أَنْ تَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَيَقِينٍ وَثِقَةٍ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّهِ ،
وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَأَحْضِرْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهَمَّكَ ، وَاتَّقِ إِلَى مَا هُوَ وَاصِفٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَمْعَكَ . إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ لِنَفْسِهِ ، وَأَخْتَارَ لَهُ رُسُلًا مِنْ خَلْقِهِ ،
وَأَبْتَعَتْ كُلَّ رَسُولٍ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، لِيَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّبِعُونَ ، وَيَعْلَمَهُمْ مَا يَجْهَلُونَ : مِنْ تَوْحِيدِ

الرب وشرائع الحق ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .
 فلم تزل رسل الله قائمة بأمره ، متواليه على حقه ، في مواضي الدهور ، وخوالي القرون ،
 وطبقات الزمان ، يصدق آخرهم بنبوته أولهم ، ويصدق أولهم قول آخرهم ؛ ومفاتح دعوتهم
 واحدة لا تختلف ، ومجامع ملتهم ملتزمة لا تفترق ، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى
 عيسى عليه السلام عليها ، وبشرها ، الى النبي الأُمِّي الذي انتخبه الله لوحيه ، واختاره بعلمه ؛
 فلم يزل ينقله بالآباء الأخيار ، والأمهات الطواهر ، أمة فامة ، وقرنا فقرنا ، حتى استخرجه
 الله في خير أوان ، وأفضل زمان ، من أثبت محادث أرومات البرية أصلا ، وأعلى ذوايب نبعات
 العرب فرعا ، وأطيب منابت أعياص قريش مغرسا ، وأرفع ذرى مجد بنى هاشم سَمَكًا :
 محمد صلى الله عليه وسلم خيرها عند الله وخلقها نفسا ، على حين أوحشت الأرض من أهل
 الإسلام والإيمان ، وأمتلات الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان ، وأشتعلت البدع في الدين ،
 وأطبقت الظلم على الناس أجمعين ؛ وصار الحق رسما عافيا ، خلقا باليا ، ميتا وسط أموات ،
 ما إن يحسون للهدى صوتا يسمعونه ، ولا للدين أثرا يتبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم
 قائما بأمر الله الذي أنزل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويحذرهم عقوبات
 الشرك ، ويجادهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسلام ، صابرا على الأذى ،
 محتملا للمكروه ؛ قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهر دينه ، ومِعزُّ تمكينه ، وعاصمه ومستخلفه
 في الأرض ، فليس يئنه ريب ، ولا يلويه هيب ، ولا يعنيه أذى ؛ حتى اذا قهرت البيئات
 ألبابهم ، وبهرت الآيات أبصارهم ، وخضم نور الحق حججهم ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة
 بدون صدقه ، ولم تجد العقول سبيلا الى دفع حقه . وهم على ذلك مكذبون بأفواههم ،
 وجاحدون بأقوالهم ؛ كما قال الله عز وجل العليم بما يسرون ، الخابر بما يعلنون : ﴿ فإتهم
 لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ بغيا وعداوة ، وحسدا ولحاجة ، افترض

(١) محادث : جمع محمد ، وهو الأصل . (٢) أرومات : جمع أرومة ، وهي الأصل .
 (٣) نبعات : أصول كريمة . (٤) أعياص قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم : العاص
 وأبو العاص والعبص وأبو العيص والعبوص . (٥) في الأصل : "فلا" .

الله عليه قتالهم ، وأمره أن يجرد السيف لهم ، وهم في عصابة يسيرة ، وعدة قليلة ، مستضعفين مستذلين ، يخافون أن يتخطفهم العرب ، وتداعى عليهم الأمم ، ^(١) وتستحملهم ^(٢) الحروب ، فأوهم في كنفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقتلهم ، وغلب قوة الجنود بضعفهم ، إنجازا لوعده ، وتصديقا لقوله : **(وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)** فأحسن النظر وقلب الفكر في حالات النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قائما لله ، لتجد لمذاهب فكره وتصاريف نظرك ، مضطربا واسعا ، ومعتمدا نافعا ، وشعوبا جمة ، كلها خير يدعوك الى نفسه ، وبيان يتكشف لك عن محضه . وأخير أمير المؤمنين ما كنت قائلا لو لم تكن البعثة للنبي — صلى الله عليه وسلم — بلغتك ، ولم تكن الأنبياء بأموره تقررت قبلك ، ثم قامت المحجة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نجم بين ظهرائي مثل هذه الضلالات المستأصلة ، والجماعات المستأسدة ، التي ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجماهير الأمم ، وصناديد الملوك ، ناجم قد نصب لها وغرى بها ، يجهل أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق الأفهام ، ويلعن آباءها ، ويصلل أديانها ، وينادي بشهاب الحق بينها ، ويجهز بكلمة الإخلاص الى من تراخى عنها ، حتى حميت العرب ، وأنفت العجم ، وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يحفل بهم غضبا ، ولا يرهب عنتا ، يقول الله عز وجل : **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)** أكنت تقول فيما تجرى الأفاويل به وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دعا الحنف الى نفسه ، وأذن الله لقومه في قتله ، فليست الأيام بمادة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلجمه أسبابهم ^(٤) ، وينهض به حملاتهم ، غضبا لرهبهم ، وأنفة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ، وحسدا من عند أنفسهم . وإما صادق

(١) أصله تداعى لخذف إحدى تاءيه ، ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة .

(٢) تستحملهم : تلقى عليهم حملها وعباها . (٣) المستأسدة : القوية . (٤) تستلجمه :

تعلق به وتشب .

بصير بموضع قدمه ومرمى نبهه ، قد تكفل الله عز وجل بحفظه ، وصحبه بعزه ، وجعله في حرزه ، وعصمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله اليه ، ولا الهيبة بدخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوف الأعداء بمأذون لها فيه . ثم إن آيتكم يا أهل الكتاب لوقيل لكم : إن الرجل الذي يدعى العصمة وينتحل المنعة ، قد نجت الأمور به على ما قال ، وسلمت الحال له فيما ادعى ، حتى نصب لعمارات العرب ، وجماعات الأمم ، يقاتل بمن طأوعه من خالفه ، وبمن تابعه من عانده ، جادا مشمرا ، محتسبا واثقا بموعد الله ونصره ، لا تأخذه لومة لائم في ربه ، ولا يوجد لديه غميرة^(٣) في دينه ، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه ، حتى أعز الله دينه ، وأظهر تمكينه ، وأنقادت الأهواء له ، واجتمعت الفرق عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقينا عندكم ، ودعوته ثبوتا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حاملاتكم وأهل الحنكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ، إذ كان وحيدا فريدا قليلا ضعيفا ذليلا معروفا بالعقل منسوبا الى الفضل ، ليجترأ أن يقول : إن الله عز وجل أوحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعا ويمنعه من الأمم طرا ، حتى يبلغ رسالات ربه ، ويظهره على الدين كله ، ويدخل الناس أفواجا في دينه ، إلا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

فسبحان الله ! يا أهل الكتاب ما آيين حق النبي صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأسئله لمن قصد له . وأستعملوا في طلبه ألبابكم ، وأرفعوا ... أبصاركم ، تنظروا بعون الله اليه ، وتقفوا ان شاء الله عليه ؛ فإن علامات نبوته وآيات رسالته ، ظاهرة لا تخفى على من طلبها ، جملة لا يحصي عددها ، منها خواص تعرفها العرب ، وعوام لا تدفعها الأمم ، فأما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومة عندنا ، التي أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقيلها الأتباع عن الأسلاف ، فأمر قد كثرت البيئات فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأينا عيانا ، وقيلناه إيقانا ؛ فهي أظهر فينا من الشمس ،

(١) كذا في الأصل . (٢) عمارات العرب : أحيائها العظيمة . (٣) غميرة : مطعن . (٤) بياض في الأصل بمقدار كلة .

وأين لدينا من النهار؛ ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها، ولم ينقل الآباء اليكم علمها، وما لا يدرك إلا بالسمع موضوع الحجّة عن العقل، فليس أمير المؤمنين مُجَاجٍ لكم، ولا قاصد اليكم من قبلها. وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين، القاطعة مُجَجِّج المُبْطِلين، التي لا تترك عقول الأمم وجوب حقها، ولا تدفع أبواب الأعداء صحة أمرها، فسؤجلها أمير المؤمنين مسالك أسماكم، ويُعيد بها حجّة الله في أعناقكم، من وجوه جمّة وأبواب كثيرة، إن شاء الله: منها أنه لم تزل الشياطين، فيما خلا من فترات الرسل وندرات النذر، تصعد إلى سماء الدنيا، وتُنصت للملأ الأعلى فستترق السمع وتحتفظ العلم، وتزل به إلى كل أفك أئيم، يبنون أكاذيبهم على واضح صدقهِ، ويتفقون بأبطلهم بحسب حقهِ، خلطاً للباطل فيه، وسوما للعباد عليه. فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل آيات القرآن إليه، حُرست السماء بالنجوم، ورُميت الشياطين بالشهب، وأنقطعت الأباطيل، وأضحمت الأكاذيب، وخلص الوحي، فبطلت الكهّان، وضلت السحّار، وكذبت الأحلام، وتحيرت الشياطين، فكانت آية بينة، وعلامة واضحة، وحجة بالغة، تهرق قرائح العقول، وتخرق حجب الغيوب، فلا يقوم مع ضيائها ظلمة، ولا يثبت عند مُحْكَمها شبهة، ولا يُقيم معها في محمداً صلى الله عليه وسلم شك، لا من أصحابه خاصة ولا ممن جاء بعده عامة. وإنما جعلها الله عز وجل آية باقية في الغارين، وحِرَاسَةً ثابتة من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل نبينا صلى الله عليه وسلم آخر النبيين؛ فليس باعثاً بعده نبياً يكذب أفاويل الكهنة، ويقطع أخاير الجنة.

وستقول، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي، أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملك: هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بينة قائمة، مستعيلة لأمرها، مستغنية بنفسها، لا تحتاج إلى ما قبلها، ولا يُتكل على ما بعدها، إن أقرت العقول بما تقول، أو قامت البينة على ما تدعى، بلى؛ ثم تقول: وأنى لك بالبينة، ولسنا نقر بكابك، ولا تؤمن برسولك،

ولا نقبل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه ، وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه ، فأرجع اليكم
إن قلتم ذلك ، فإن وجدنا القضاة قبل طلب البيئات .

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما ينازعك ويحاجك فيه حاكما غير عقلك ، ولا قاضيا سوى
نفسك ، ولكنه يذكرك الله الذي اليه معادك وعليه حسابك ، لما جعلت التفهم
لمسألته من بالك ، وركبت حدودها في جوابك ، عادلا بالقسط ، قاضيا بالحق ، قائلا
بالصدق ولو على نفسك ، ناظرا بالاثرة لدينك ، فلقد وفق الله لك آية ، وأهدى اليك بينة ،
لا تستطيع دفعها لحجبها عن عقلك ، ولا حجابا لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك ،
والبينة بلسانك ، بحمدا بقطع وصول الحجج اليك ، ويد تغلق أبواب الفهم عنك ، فإن
اللسان لك مداول حيث شئت ، ومنقاد تصرفه فيما هويت ، ولكن أنصب نفسك للفهم
وأنت شهيد ، وأرد الحق وقبوله فيما تريد . فاذا تصورت البيئات مجسدة في قلبك ،
وتبينت الحجج ممثلة لنظرك ، قد أضاء صوابها لك وقرع حقائق قلبك ، فاجعل القول
بها شعارا للسان به متصلا . وأفهم المسئلة فهماك الله الحق ، وجنبك الحمد ، ما تقول أنت
ومن قبلك في رجل كان يتيما ضعيفا أجيرا ساهيا لاهيا عائلا خاملا ، لم يتل كتابا ، ولم يتعلم
خطا ، ولم يك في محالة علم ، ولا يرث ملك ، ولا معدن أدب ، ولا بيت نبوة ، فتراقبت
الأيام به ، واتصلت الحال بأمره ، حتى خرج الى العرب عامة والقبائل كافة ، وحيدا
طريدا شريدا ، مخذولا مجهولا ، محفوا مرميا بالعقوق لآهتهم ، مقذوبا بالكذب على
أصنامهم ، منسوبا الى الهجر لأديانهم ، وهم مجمعون على دعوة العصبية ، وحمية الجاهلية ،
متعادون متباعون ، مختلفه أهواؤهم ، متفرقة أملاؤهم ، يتسافكون الدماء ، ويتناوحن
النساء ، ويستحلون الحرم ، لا تمنعهم الفسة ، ولا تعصمهم دعوة ، [ولا] يحجزهم رب ،
فألف قلوبها ، وجمع شتىها ، حتى تناصرت القلوب ، وتواصلت النفوس ، وترافدت الأيدي ،
ثم اجتمعت الكلمة ، واتفقت الافئدة ، حتى صار غاية الملقى رحالم ، ونهاية المستجع

(١) لعله : ولا تغلق . (٢) في الأصل : لا .

أسفارهم ، وصاروا له حزبا متفقين ، وحنذاً مُطيعين ، بلا دُنْيا بَسَطها لهم ، ولا أموالٍ أفاضها
 بينهم ، ولا سلطانٍ له عليهم ، ولا مُلكٍ سَأف لآبائهم فيهم ، ولا نباهةٍ كانت له بين ظَهْرَانِيهم .
 أتقول إنه [ما] قال ذلك كَلَه إلا بوحىٍ عظيم ، وتنزيلٍ كريم ، وحكمةٍ بالغةٍ ! فإن قلت ذلك فقد
 أقررت أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسولٌ ، وتركت ما كنت تقولُ إنه لم يُدركه ولم يبلغه
 إلا بعقلٍ سَديد ، ونظرٍ بعيد ، ورفقٍ لطيف ، ورأى وثيق ، استبى به عقول الرجال ،
 وأسْتَمال عليه أفئدة العوام . فإن قلت ذلك فأنا سائلكم بالهكم الذى تعبدون ، ودينكم الذى
 تتحلون ، لَمَّا صدقتم أنفسكم وتجنبتهم الهوى عنكم : أتؤمن قلوبكم ، وتُقر عقولكم ،
 ويحتمل نظركم ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم الذى وصفتموه بكال العقل ، وبيان الفضل ،
 ورفق التديب ، كان يقول لرجال العرب ، وجماعات الأمم ، [و] دُهابة قريش : إن من
 آيات نبوتى ، ودلالات رسالتى ، وعلامات زمانى ، أن الشياطين تُرمى بنجوم السماء ، ولم تك
 تُرمى بها فيما خلا ، ثم يجعل ذلك كتاباً يُقرأ ، وقرآناً يُتلى ، وهو كاذب فيما تلا ، ومُبطل فيما
 ادعى ، إبطالا تدركه عيون الناظرين ، وكذبا يظهر لجميع العالمين ! سبحان الله ! أرايتم
 أن لو كان فيما قال من الكاذبين ، وعلى ما ادعى من الآثمين ، ثم حاول إبعاد القلوب ،
 وإتغال الصدور ، وإفكار النفوس ، وتفريق الجموع ، أكان يزيد على ذلك !

فيا أهل الكتاب لا يجلنكم الإلْف لدينكم على اللعب بتوحيدكم ! فلعمركم الله لئن
 تداركتم أنفسكم وناصحتم نظركم لتعلمن أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب
 أوراَم الإفك ، لما كان يترك جميع الأرض ، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض ،
 ويقصد للسماء المتصلة بالبصر ، البارزة للنظر ، التى لا تخفى على بشر ، ولا تغيب عن
 أحد ، فيدعى فيها كذبا ظاهراً ، وإفكا بارزاً مكشوفاً ، لا يبقى صغير ولا كبير ولا ذكر
 ولا أنثى ، إلا عرف أنه إفك وزور ، وكذب وغرور ، ولا سيما إذا كان يُلقي ذلك الى
 أقوام أكثرهم أعراب ، ليس بينهم وبين السماء حجاب ، إنما يرأعون الكواكب ويتفقدون
 الغيوم ، فأبعد عهد آخرهم بها تفقده لها ونظره إليها ، ساعة أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين .

لعمرك الله لو عثرت العرب من أمر النبي صلى الله عليه وسلم على كذب لكان أول من يوثبه به ويؤاخذ به فيه أعداؤه من قريش عامة ، وحساده من حيرته خاصة ، ونظراؤه من أهل بيته دنية الذين كانوا يستعبرونه لكل طريق ، ويقعدون له على كل سبيل ، ويتساءلون من أمره عن كل ذى حادث ، فيتعلقون بالحروف المشككة ، والآيات المشتبهة ، جدلاً وخصومة بها ، وطعناً وإلحاداً ومنازعة فيها ، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم ، وأخبر عن ذلك من أمرهم ، فقال عز وجل : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خِصْمُونَ ﴾ وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله في أمرهم إلا عن خصومة شديدة ، ومنازعة بليغة ، ومجادلة معروفة . فأحسن النظر لنفسك ، ولا تهلكن شفقة على ملكك ، فأيم الله لئن قلت إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها ، فما كان محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عارف بها غير جاهل لها ، ليقول فيها إلا حقاً ، وينتحل فيها إلا صدقاً ، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على أسسه ، ووصلت آخر قولك له بأوله ، ثبوتاً على ما ذكرت من عقده ، ولزوما لما قرطت من نظره ، ولكك لا تجد مع الإقرار بذلك بداً من التصديق برسالته ، ولا مذهبا عن الإيمان بنبوته .

ولئن زعمت أنه ادعى أمر النجوم كذباً وانتحلها باطلاً ، عارفاً كان بها أم جاهلاً ، لقد نسبته من الخطأ الذي لا يعنى عن بصره الى ما يخطئ فيه بشرًا ، فأكذبت نفسك ، وتركت قولك : إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب والجمع لشتيت القبائل ، إلا برأى سديد ، وعقل أصيل ، ورفق بالغ ، الى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجهاً تذهب اليه غيرهما ، ولا تمجلاً تضعه عليه سواهما : إما أن تقول : إنه ألفت قلوب العرب ، وفتق جموع الأمم بتزليل الوحي ، فتؤمن أنه نبي ، وإما أن تقول : فعل ذلك بجهل ، وهذا قول لا يقبل . كيف يصفه أحد من الجاحدين به المكذبين له بغاوة ، أو يرمونه بجهالة ، وهم يجوزون به حدود الأنبياء ، ويرفعونه فوق أمور العلماء ، ويتخطون به مراتب الحكماء ، ومنازل الناس

(١) كذا في الأصل .

تكثر لعلمه ، وتسديداً لعقله ، وتثبیتاً لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الألسنُ إليه ؛ حتى لقد نَحَلُوهُ فعلَ الرَّبِّ الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأَنْحاء جمّة : من ذلك أنه اذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُخبرنا بِالْغُيُوبِ قبل ظهورها ، وَيَصِفُ الأُمُورَ قبل حُلُولِها ، ويتجاوز [ما يكون] في زمانه من ذلك الى ما يكون في زماننا غيباً أطلعه الله عز وجل عليه ، أضافوا ذلك علماً اليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم ، وأبصرهم بمنازل البروج ، وأنظرهم في دقائق الحساب . كيف ولم يكن المحجاز دار نجوم ولا محل حساب ولا معدن أدب ! بل كيف والمنجم يقيس ويخطئ ، ويشك فيما يدعى ، وهو أخو صواب لا شك فيه ، وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم [علماً] بباطن أخبار النبیین ، وخَفِيَ قِصَصُ القرون الأولین ، قالوا : كان أحيا الناس قلباً ، وأوسعهم سرباً ، وأسرعهم أخذاً ، يتبع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعلمه . سبحان الله ! أولاً يعلمون أن المتعلم معروف المعلم ، متفاوتُ الحالات ، متنقلُ الطبقات ، وأنه ما أحد يُؤدّب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلا وله درجاتٌ في علمه ، وتاراتٌ في أخذه ، ومنازلٌ في تعلّمه ، تارة تلميذ ، وتارة مُتَّارِبٌ ، وأخرى حاذق ، وبكل ذلك موصوفٌ من أهله ، معروفٌ عند قومه ، ظاهرٌ لِحيرته ، مستفيضٌ في عشيرته ، لا يجهل أمره ، ولا يخفى ذكره ، ولا يُنسى عند مواضع الحاجة اليه ، وتارات الاحتجاج به عليه . ولو كان ذلك معروفًا فيهم ، أو موجوداً لديهم ، أو ظاهرًا عندهم ، لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم : لقد لَبِثْتُ فيكم عُمُرًا من قبله ، لا أتلو قرآنا ، ولا أدعي حيا ، أفلا تعقلون !

وأيم الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطاعين ، يذكر فضائح قولهم ، ومعائب أمرهم ، ومخازي أسلافهم ، وعوائر أديانهم ؛ وإنه لو كان معلمه نصرانياً لدعاه الى النصرانية ، أو يهودياً

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية . ولو لم يكن له معلم لما وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفسه ومعرفةً بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطان لما دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح في الأرض ؛ كيف [و] كان الشيطان يصدّ الناس عن سبيله ، ويُرْهِدُهُمْ فِي دِينِهِ ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويدخلهم في مساخطة ، ويملهم على معاصيه ! إنه إذا لرحيم بهم ، ناظر لهم ، شفيق عليهم ، كأنه هو المبعوث اليهم ، كلا ! ما كان ليُنقذهم من حَبَائِلِهِ ، ويخلصهم من مَصَائِدِهِ ، ويخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخُدَعِهِ وفتنته وحزبه ، إلى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حرّهم ، ويؤذوا ذريّتهم ، ولا يقول لهم : لم تعبدون نَحِيَةَ الحجارة التي جعلها الله لكم عارا ، وتَدْرُونَ عِبَادَةَ الرَّبِّ الَّذِي خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ! هيئات ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولاً تُسَكِرُهُ العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس . أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبكم والعمى والصمم ، فأَتَقَّ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بكلام لم تسمع الأذان بمثله ، ولم تقع القلوب على لُغَتِهِ ، له رَوْنَقٌ حَبَابُ الْمَاءِ ، وَزَبْرُجٌ يعلو ولا يُعَلَى ، ومجائب لا تَبَلَى ولا تَفْنَى ، وَجِدَّةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، [قالوا] : كان محمد - صلى الله عليه وسلم - أبلغهم قولاً ، وأحسنهم وصفاً . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاماً للعباد لما أقرت الأعداء من ... (١) ... بفضله ، ولا تجزّت القبائل طراً عن مثله ، وهو يناديهم في الكتاب ويتحدّاهم في الوحي ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : هَاتُوا سُورَةً مِثْلَهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخطب ، وأهل عداوة له وبغى

(١) يبايض في الأصل بمقدار كلمة .

عليه ، فتستحسر الأبصار ، وتثقل الأسماع ، وتثقل الألسن ، وتخرس الخطباء ، وتعجز
 البلغاء ، وتحرار الشعراء ، وتستسلم الكهّان . ثم لقد قايست البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق ،
 بين ما بأيدينا من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحي ، فإذا بينهما
 بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس يشبه له ولا مدان ولا قريب . وكذلك ينبغي لكلام
 الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه
 وجميع ما فيه ؛ لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان
 محمد — صلى الله عليه وسلم — يرى ماضي أسلافنا وصلح آبائنا من العجائب العظام ،
 والآيات الكبار ، ما هو جديد عندنا ، بين قلوبنا فلم يعف أثره ، ولم يدرس خبره ، ولم يتقدم
 عهدُه : من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرجعت ، ومن نحو بعير تظلم ، وذئب تكلم ،
 وأشباه ذلك كثيرة ، ونظائر له عجيبة ، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا
 حاذقا ، وساحرا ماهرا ، يُشبهه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار . كيف والجموع الكثيرة تصدر عن
 الأطمعة اليسيرة والمياه القليلة ، شباعا رواء ، أيكون ذلك والسحر سواء ! والأخذ بالعيون
 لا يجرى في البطون ! ولو كانوا ينظرون لدينهم وينصفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر
 الساحر يدور على إفك وغرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثارا قائمة ، ومنافع
 دائمة . ثم لو كانت الكهانة والسحر يبلغان مثل هذا من الأمر ، لبطلت آيات الكتب ،
 وعلامات الرسل ، ولعلت الشبهة ، وسقطت الحجّة ، وكذبت النبوة ، ولبطل ما كان [يفعله]^(١)
 عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتى . فلا يكون التقليد للرجال
 مبلغ عامك ، ولا القبول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك [أنه] إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بملتنا : كان النبي — صلى الله
 عليه وسلم — أميا لا يحسن الكتاب وحافظا لا ينسى القرآن ، وقلمما يجتمع العقل السديد
 والحفظ السريع والنسيان البطيء ، قالوا : كان أخط الناس يدا ، وأذكاهم حفظا ، كان
 يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل .

(١) زيادة يقتضها السياق .

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خفيت الصحف له ، ولا أكتُميت الدراسةُ عليه ، ولَمَّا كان يُطبق سترها عن أهله ، ولا يجابهها دون قومه . وكيف تُؤمن القلوب وتقرّ العقول أن رجلا كبيرا حمل علما كثيرا وحجما جمّاء : من آيات متشابهة ، وسور متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية ، وأخو حربٍ دائمة ، لا يبطئ لفظه ، ولا يسقط حفظه ! لولا أن الله عز وجل كفاه أن يُحرِّك به لسانه ، وصنن له جمعه وقرآنه ، فقال عز وجل : ﴿ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى ﴾ فلم يكن يسقط واوًّا ولا ألفا ، ولا ينسى كلمة ولا حرفا . ما أئين هذا وأعجبه ! وأعجب منه المنكر له .

وأما قولهم في الخط وإثكارهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أميا ليثبت حجته ، ويصدق مقالته ، ولئلا يسكّ المبطون في أمره ، ويقولون : تعلمه من غيره ، فإنه قد قال ذلك بطائن من مناقفة العرب وطوائف من كفرة العجم ، فنطقت [به] الأعداء من جبرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا] من مجادلة حقه ، ومخاصمة ربه ، كفافة لمن قرب ، ووكلاء لمن بعد ، فيما لم تكن العرب واقعةً عليه ، ولا الأمم مهتديةً إليه ، لأنهم قد أحاطوا من علم خبره ، وخفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتما . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفي عنا ولسقط علينا . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبيرا ، لعرف ذلك أتراه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من جبرته نصره ، ولا من معه من أهل بيته دنية ، الذين عليهم يورد ومن قبلهم يُصدر ، ولكان شائعا عند حشم معلمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف اليهم ، ويتأذب بين ظهرانيهم . ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكين ، ثم بلغهم وتقرر قبلهم أنه يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُّ بِبَيْمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ لخاصمه منهم من كفر ،

(١) في الأصل : « متراخية » . (٢) في الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... الخ » .

(٣) زيادة يتطلبها الكلام . (٤) في الأصل : « إلا أنهم ... » . (٥) في الأصل « ولا سقط » .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدعى ذلك قرآنا ، ويتحله وحيا ؟ أما كان يهَبُّ أن يتشرَّ
 في الأقربين ، ويخرَج إلى الأبعدين ، فتبطل حجَّته ، وتنتقض دعوته ، وتسقط نبوته ،
 وينفِر أصحابه الذين لم يَصِرُوا معه في المجاهدة أنفسهم ، ويبدلوا عند الشدائد مهجهم ،
 ويُنفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، مُنَاصِينَ لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ،
 وهم قليلون مُستضعفون عائلون جائعون ، لا طلباً لدنيا ولا طمعاً في منال ، إلا لما تعقبوا
 من قوله ، وعرفوا من صدقه . ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصر لهم ،
 فصَدَّقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر ، وصرمت العزائم ، وقويت النيات ،
 فنبشطت النفوس ، وشجعت القلوب ، وحملت الأبدان ، لما وقع لهم طمع فيه ، ولا ذهب
 لهم وهل إليه . فكن من ذلك على يقين لا يخلجه شك ، ومعرفة لا يخالطها ريب ،
 إن شاء الله .

ومن ذلك أنه اذا قال المسلمون : ما من فعَالٍ محمود ، ولا مقالٍ معروف ، ولا خُلقٍ
 كريم ، ولا أدبٍ فاضل ، إلا وقد أدب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله
 في الكتاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحض على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها
 مدخل لشبهة طاعن ، ولا معلق لجة قائل ، ولا مغمز لبصيرة عائب ، ولا موضع لخصومة
 بشر ، في وعد أو عهد ، أو حل أو عقد ، أو مقال أو فعال ، أو غير ذلك من الأمور —
 قالوا : أمور حمل عليها نفسه ، ودعاها إليها عقله ، وصبر عليها ، لما أتمل ورجا فيها .
 سبحان الله ! وما أتمل بها وأرتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أ كذبهم إداره عنها ،
 حيث أمكنته القدرة منها ، وأعثرته الحال عليها . وإن قالوا : حب الأثرة ، فقد جعل
 نفسه للمسلمين أسوة : في سبأهم وقصاصهم ، وحُدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من
 أمورهم . وإن قالوا : الملك ، فلقد كان أشد الناس لربه تواضعا ، وأعظمهم في جنبه
 تصاعرا ، ما إن أكل متكئا قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفرع لها النادم عليها ، فقال :

(١) صبر نفسه : حسبها

(٢) وهل : فرع .

”اللهم إني عبدك ورسولك“. وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيسس منه معاشاً ، وأخشن ريشاً ، وأغاظ ما كلاً ! وكيف يذوق العيش أو يجسد لذيق النعيم ، من حرم السكر والخمر ، ونهى عن الديباج والقز ، وكان أكثر دهره صاماً ، وأطول ليله قائماً ! فإن قالوا : طلب الصوت ورجب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحدٌ في حبِّ الصوت والتمس الحمد لما صبر مغاضب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، وأستهزاء قرينيه ؛ يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالحنون ، ويبهتونه بالسحر ، وليس يدرى ما يهجم به الأمر .

أم يقولون طلب تأييل الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ! أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطأهم الذل ثم القتل . لعمر الله أن لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوى رحمه ، لو كد لهم عقداً لا يُحل ، ولا بُرم لهم أمراً لا يُنقض ، ولا تُل لهم في عُنْفوان أمره ملكاً لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح أبداً فيهم ، امتثالاً لصديعكم وأخذاءً على مثالكم ؛ مع أقاويل جمّة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقهر العجم ، أو قال في أمر السلطان والنجوم بكذب .

فإن قلتم إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدّقنا به نحن وأتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحياء وأخطأت القلوب ؛ فقد يعلم أمير المؤمنين — وأتم بذلك من العالمين — أن خطأ قلوب العلماء تخطأ دائرة الرّحما ، ليست العلماء بخطئة إلا المزة والتنين ، كما لا تخطئ الرّحما إلا الحبة والحبّتين . ومثل الذي نسبتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم ، كثير لا يُحصى أحد ، ولا يبلغه عدد . وأمير المؤمنين واصف بعضه لكم ، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم . وآيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا محمداً صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي مضطربة .

(٣) في الأصل : ”ولا ينوح ...“ .

في أمر النجوم من المخطئين ، فكيف أخطأت العرب وهفت الأمم في ترك مجادلته ورفض منازعته ، وكيف لم تقل العلماء من إفانه والحكماء من حكمتهم ، توبيخاً منهم له ، وتعييراً لمن آمن معه : هذا أمر من أوضع الأكاذيب وأبطل الأباطيل ؛ فلا يثبت مع قولهم إيماناً ، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلت : فلعل ذلك قد كان ، ولكنه درج على طول الأزمان ، فكيف إذا صدقت العرب بنبوته ، ولم تكفر القبائل برسالته ، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدقٌ كان قبله ، وباطلاً لا يعصم معه حقٌ حدث بعده . وإن قلت : أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكروههم بالسيف ، فما بال القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين ، ما بالهم آمنوا وصدقوا ، وصبروا وصابروا ، وجدوا وجاهدوا ، كيف لم تنكسر عزائمهم ، وتهن بصائرهم ، ويرجعوا إلى دينهم ، ويهربوا عن توحيدهم ! كلا ! لو كان الأمر على ما تقول ، لأرفض القوم عن الرسول ، ولكان صلى الله عليه وسلم أول مقتولٍ أو مخذول . فأحسن النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . وإن جمحت الدعوى بكم ، فقاتل : فدالت به الأهواء في الباطل ، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في صحفها بينت الحكماء منها ذكراً في كتبها ، فجعلت المنقّص من الكواكب بين الأعوام ، دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام ، ولا ما هذا الاختلاق يلطّ به الجاهل للفساق . ما ان وضعت الحكماء ذلك في الكتب ، إلا ليالى ملئت السماء من الشهب . وبالله لو ادعيتم غير ذلك فكان حقاً ، وكانت القالة منكم صدقاً ، لما كانت الدعوى بناقضة لآية النجوم حجة ، ولا مدخلة على أحدٍ فيها شبهة ؛ لأن رمياً يقع فرط السنين من الكواكب ، لا يُبطل رجماً قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة ، وحجة بالغة ، ودلالة قاهرة ، وعلامة باهرة ، وأمارة ظاهرة ، وشهادة قاطعة ، وبينة عادلة ، وداعية قائمة ، تُبطل أظانين المشركين ، وتردع أقاويل المناققين ، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعظم أمرها ، ولا ليكرر في آي القرآن ذكرها ، رهبةً

(١) كذا في الأصل . (٢) في هذا الموضع اضطراب . (٣) في الأصل "دافعة ..."

لناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتبَ به اليك أمير المؤمنين من أمر النجوم وأحتج [به] عليك من ذكر الرجوم ، موقعاً لظن أو معلما بطعن أو مغمزا لقول ، لناصبوه اذا بالمجادلة ، وكاشفوه بالمنازعة ، وجاهره بالقول الذي لا يستطيع له رداً ، ولا يطيق له سجداً ، ولكنها آية ملأت الأقطار كثرةً ، وحسرت الأبصار قوة ، قد وجلت العقول ، ووهنت القلوب ، وملأت النفوس جزعا ووجعا ، وفزعاً شغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن البلاد ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حرساً ، وأحدث لها رصداً ، وخلق فيها شهباً ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعات الله عز وجل في الكتب ، بقوم نوح وعاد وممود ، وأشبايهم من مؤلفي تلك الجنود ، الذين كانوا أشدَّ بطشاً ، وأكثر جمعاً ، فانفجرت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسهم متأين عقدهم . وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروج الى قفرائهم ، قام فيهم رجل منهم ذوسن وعقل فقال :

يامعشر العرب ، لا تهلكوا أنفسكم قبل أن تهلكوا ، ولا تجرحوا من أموالكم قبل أن تجرحوا ، تفقدوا مواقع نجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى ، فإن كانت النجوم التي حدث الرمي بها والنجوم التي أخليت الأموال لها ، هي لبروج الشمس والقمر ومسالك الحيوان والشجر ، فهي جوائح الاستئصال ، المتلفة الأنفس والأموال ، وإن كانت النجوم التي حدث القذف بها ، إنما هي نجوم خلقت اليوم ، فليست المعرفة بواقعة على مبتدأها ، ولا الأبصار بلا حقة منهاها ، فأمسكوا العقد عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالعيان ، وصارت المقالة منه كوعى الآذان ، أنباك أمير المؤمنين أن أوعية الفقه من المسلمين ، الذين حملوا الينا سنن الدين ، هم

(١) كذا في الأصل . (٢) العقد : جمع عقدة وهي الضيقة أو العقار الذي اقتناه صاحبه .

أَدُّوا ذلك الينا، وأبقوه نحرًا...^(١) علينا، فما إن ينفك منهم مفتخرٌ يقول: أبونا الذي حبس على العرب الأموال والعقد، فما إن يدفع القول في ذلك من أحد. هيات ما كانت العرب لتقر عند الفخار، إلا بطولٍ هو أئين فيها من ضوء النهار. فافهم ما كتب به أمير المؤمنين في هذا اليك، ولا يكن التعلل فيها بالشبهات أوثق ما لديك؛ فإنه قل حجة إلا وإلى جنبها شبهة تخيل للعقول، وتعرض للقلوب، وتجلجل في الصدور؛ فلا يثبت مع تخيلها، ولا يُقيم لتعرضها بشر إلا من وزن الحق والباطل بميزان عادل، لا يميل الى تفریط، ولا يخطئ في تقصير. وقد جعل الله عز وجل العقول موازين للأمر، فزِنُوا ما سمعتم من حجج كلام الرب عز وجل بما تتفون به الشبهة عن الحق، ولا تُميلوا اللسان، فتخسروا الميزان. وسيعلل أمير المؤمنين إن شاء الله بما جاء عن ذكر ما كتب به اليكم من أمر النجوم والرجوم والشهب في القرآن والرواية والكتب؛ فألطفوا النظر في صحة معانيه، ونحو الهوى عن شبهة ما وقعت فيه: قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاطِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾. وإن شطب عن الحق شاطب، أو ذهب الى الباطل ذاهب، لا يعرف مذاهب كلام العرب، ولا وجوه معاني الكتب، ولا تفسير آي القرآن، فقال: إنما جعلت الكواكب والمصابيح حفظًا من الله عز وجل للسماء، ورجوما للشياطين من قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالدين.

فإن في آيات القرآن ما فيه بيان مما يبطل دعواه التي لا بينة عليها، وبكذب مقالته التي لا شهود لها؛ فقالت الجن — بفعل الله تبارك وتعالى قولها وحيا — وبه منها صدقا: ﴿وَأَنَا لِمَسْمَا السَّمَاءِ فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا﴾. ألا ترون أنها كانت الجن. لمست السماء فلم تجدها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وقعدت الشياطين منها مقاعد للسمع

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة . (٢) في الأصل « عن شبهة إنما الخ » .

فلم تجد شهباً ولا رصداً، أو لا يسمعون إلى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدقه ويشهد له من قول الله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ مع قول الجن أيام حُرست السماء ورُميت الشياطين: ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمُنُّ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾. فاذا أعمأتم في ذلك فكركم، وقلبتُم فيه نظركم، فكنتُم على برهان يقين، ونور مستبين، من استطاعة الجن للاستماع، وقدرة الشياطين على الاستراق، وإمكان السماء للعود في تلك الحال الأولى، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلاً بحق، ومنعت الشياطين أن تنزل بصدق، وأمتنعت السماء أن يصعد إليها شيطان؛ فقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَيَعُونَ إِلَّا نَسْمَعُ مِنْهُمْ لَمَّا هُمْ لَمَعُوا ﴾. قالت الجن: ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ﴾ إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان. وأين من ذلك لكم وأضح لمن عقل إن شاء الله منكم، إخبار الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظاً من كل شيطان وارد، أنهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون ويتلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان، فكان لهذا من الحافظين، وفيه من المفكرين.

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بجوعها، وتداعت القادة من صنديد الكفر باتباعها حذراً على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموال عظام، فكانت العير والنفير طائفتين: طائفة ذات عدة كثيرة وشوكة شديدة، وطائفة ذات أموال رغبة ورجال قليلة وفرصة ممكنة، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده ومن معه من المسلمين إحداهما، فكره المؤمنون جموع المشركين، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين، ويشيد بذلك أركان الدين، فلما تراءت الفئتان، وتناوشت الفرسان، وتلاقى الناس، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل:

(١) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي غير واضحة.

(سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلِّوْنَ الدُّبْرَ) قَبَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْضَةً [من تراب] حَثَّاهَا فِي وُجُوهِهِمْ ، فَلَمْ يَتَنَاهَ دُونَ مَنَاخِرِهِمْ وَعُيُونِهِمْ ، فَانصَرَفُوا مَنهَزِمِينَ بِلَا كَثِيرٍ قِتَالٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، فَأَيُّمَا آيَةٍ أَعْظَمَ حِجَّةً وَأَوْضَحَ بَيِّنَةً وَأَقْهَرَ غَلْبَةً مِنْ هَذِهِ الَّتِي لَوْ صَدَرَتْ الْأُمُورُ بِلَا تَحْقِيقِ لَهَا ، لَانْفَضَّتِ الْجَمُوعُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَفَارًا بِهَا . أُبَشِّرُكَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِإِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَهَزِيمَةِ نَفِيرِ الْمُشْرِكِينَ ، الَّتِي نَجَمَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهَا ، وَتَنَاهَتْ الْحَالُ بِهِمْ إِلَيْهَا . أَمْ قَبْضَةٌ مِنْ تَرَابٍ يَسِيرٍ ، مَا مَلَأَ الْمَنَاخِرَ مِنْ عَدَدٍ كَثِيرٍ .

فلئن قلتم : إن هذه آيات بينات ، وعلامات واضحات ، ولكنا [لا] نقدر لكم بها ولا تؤمن بقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمداً صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من الفضل إليه ، كان يخلقها كذبا من تلقاء نفسه ، ثم يدعيها حياً من عند ربه ، وهو لا يدري لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول ، فيظهر كذبه ، ويرفض تبعه . وإن تزعم أن أصحابه كانوا كثيراً أقوياء ، نشاطاً جلداء ، فكان على معرفة بقوتهم ويقين من غلبتهم ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليخبر أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدعي ذلك تنزيلاً من ربه . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تقدر به الحكماء ، ولا يحده النظر .

أَمْ تَقُولُونَ : إِنَّمَا أَرَادَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَشَارَتِهِ لَهُمْ وَإِخْبَارِهِ مَا أَخْبَرَهُمْ مِنْ هَزِيمَةِ اللَّهِ عَدُوَّهُمْ ، أَنْ يَشْجَعَ جُبْنَهُمْ وَيُقَوِّىَ ضَعْفَهُمْ ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَبْقَ لِمَا كَانَ يَرَى مِنْ كَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ وَقُوَّتِهِمْ ، وَضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ وَقِلَّتِهِمْ ، بظهور الأنبياء على خلاف قوله ، وأن محال الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ، ويقطع حجته ، ويكون له ما بعده ! وكيف إذا لم ينسب الأمر إلى نفسه ويئتي الخبر عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثبتته في كتاب

(١) في الأصل « ويزعم أن أصحابه ... » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا في الأصل .

مسطور، ورق منشور . فعَلَّ لعمر الله يدلُّ على النبوة التي كان بها وانثقا، ويهدي الى الوحي الذي كان اليه ساكنا .

وإن عَرَضَ لنظرك، أو وقع في خلدك، أن الله عز وجل عود محمدا صلى الله عليه وسلم الغلبة وأجراه على المنعة، فكان يجري على عادة قد عَرَفَها، ويسلُّك جادة قد خَبَرها، فلقد كانت الهزيمة في أول وَقَعَةٍ أوقعها الله، ثم لقد دالت الحرب فيما بعد سَجَالًا فيما بينه وبينهم: تارةً عليه لهم، وأخرى له عليهم . فَنَاصِحُوا الله عز وجل في نظركم، وقلِّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكرم . فَعَمَّرَ الله ما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول لملوك المشركين: إن الله هزَمكم برميَّةٍ من تراب وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين . فأحضر كتابي هذا فهَمَك، وأصبر له وإن خَصَمَك، فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبيِّنة عجيبة، في غلبة العرب . وأعجب من هذه وألطف، وأكثر منها وأعظم، الآية في غلبة العجم . وآسَمِع: أمر الله نبيَّه — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للمؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل قليلا مستضعفين — : إن قبائل العرب ستتحزب عليكم، وإن الله سيهزمهم لكم، وحيًا أنزله في الكتاب، فقال: ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخوف وخندق القهر وذل الحصر، سوادهم الأعم وجلهم الأعظم حفاة عرأة عالة، إخوان دير، وأصحاب وبر، لا قوَّة بهم، ولا منعة لهم، ولا أسلحة عندهم، ولا عدَّة معهم، قد أهدت العرب بعسكرهم وأحاطت القبائل بخندقهم، وسالت الأحزاب تصديقا لحتم الله عليهم، تريد أن تزلزل أقدامهم وتُهريق دماءهم، فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال، وضيق المال، وشدة الكفَّاظ، فإن الله قد وصف لهم حالهم، وأذكرهم فعلهم، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهلون، ولا ليذكرهم من أمره ما لا يعرفون، حذرًا أن تنكسر

(١) في الأصل: "فيها بعد ...". (٢) الكفَّاظ: التعب والشدة .

عزائمهم وتغير بصائرهم ، فتهزيم أفئدتهم وتموت نجاتهم ، وتختلف كلمتهم ، فقال الله عز وجل : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ . هُنَا لِكَ آتَبِلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ . فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال ، وتقسيمهم بالقداح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينبئهم به من علم الغيوب ، ويبشرهم به من أمر الفتوح : ” إن الله سينصركم على جمع الروم ويغلب لكم جنود فارس فيهزم لكم جنودهم ويورثكم قصورهم ويستخلفكم في الأرض من بعدهم ويبدلكم من بعد خوفكم أمناً“ . وَعَدَّا صَدَقَهُ الْكِتَابُ ، وَإِشَارَةٌ نَطَقَ بِهَا الْوَحْيُ ، فَقَالَ : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . فقال أقوامٌ وأناسٌ ارتابوا حين تضايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا أَيْعِدُنَا هَزِيمَةَ جَمُوعِ الْأَحْزَابِ ، وَفَتْحِ قُصُورِ الشَّامِ ، وَغَلْبَةِ جُنُودِ كَسْرَى ، وَقَدْ سَأَلَتِ الْقَبَائِلُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَحْدَقَ الْمَوْتُ بِنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَبَقِينَا فِي مَسْغَبَةٍ مِنْ الْجُوعِ ، وَجَهْدَةٍ مِنَ الْخَوْفِ ، وَضَنْكٍ مِنَ الْحَالِ ، مَقْهُورِينَ مَقْمُوعِينَ . وَقَالَتِ الْخَاصَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ عَانُوا الْجَمُوعَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَذَكَرُوا مَا خَبَّرَهُمُ اللَّهُ مِنْ تَحْزِينِهِمْ عَلَيْهِمْ وَمَسِيرِهِمْ إِلَيْهِمْ : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . فَبَيْنَمَا أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَضَائِقِ تِلْكَ الْحَالِ ، وَشِدَّةِ ذَلِكَ الْخِصَالِ ، وَعَمُومِ تِلْكَ الْبَلَايَا الْبَاهِظَةِ ، وَالْأُمُورِ الْفَادِحَةِ ، الَّتِي قَدْ أَخَذَ بِأَنْفُسِهِمْ عَمَّهَا ، وَبَلَغَ

مجهودهم كرمها ، رافعين الى الله عز وجل أيديهم ، يقبلون في السماء أعينهم ، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة ، ريحاً من الأرض وجنوداً من السماء ، ففطعت الأبنية ، وطيرت الأمتعة ، وسفت التراب في العيون ، وقذفت الرعب في القلوب ، فولوا مدبرين ، وخرجوا منهزمين ، لا يلوي والد على ولد ، ولا مولود على أحد . أمر صدق الله فيه قوله ، وأنجز به وعده ، وهزم الأحزاب وحده ، وذكر المؤمنين نعمته فيهم ، وعرفهم منته بهم ، فقال : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ ما كان الله عز وجل ليقتص على المسلمين في أنفسهم ، إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا أن هذا ما لا ينكره عقلك ولا يدفعه نظرك ، لما جادلتك بالكتاب ، ولا نازعتك بالترزيب . وإني لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي ، ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح . ولكن ليس لي أن أحاجك من آيات القرآن ، إلا بما عليه شاهد من برهان ، ومخبر من بيان ، لا يستطيع عقلك رداً له ولا قلبك جحداً له . وكيف ينسبط لسانك أو يجترئ قلبك أن يقول : إن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون ، فافتص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون ! لا ! ما يسوع لك ولا يجمل بك ، ولا يقبل منك أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه ، كيف ! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه ، وتنتقل أحواله ، وتنتقص أموره ! لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بفضل ولا ينسب الى عقل ، لما كان سائغاً لك ولا جائزاً منك ، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره ، ويفضل عليهم عقله ! وتقر أنك لم ترفي الدنيا أحداً صنع [ما صنع] وبلغ ما بلغ ! فأيتا آية فيما اقتص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بينة أعجب : أما كان يتلى على المؤمنين في الكتاب من آجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل آجتماعهم بسنين

كثيرة ، أم ما كان يُنادى به القرآن من الهزيمة لهم وينطق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ” إن الله عز وجل يؤمن خوفكم ويعز نصركم على الأمم “ وهو على تلك الحال ثم نجت الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان وجيشان متقابلان ، باتت الرياح تحوس أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها في عافية وغفلة حتى أصبحوا ؟ فأحسن النظر في أمرك ، والتثبت في دينك إن شاء الله .

وَأَعْلَمُ أَنْ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ وَأَبِينِ الدَّلَالَاتِ ، عَلَى نَبْوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّهِ ، وَأَنْ لَيْسَ يَتَقَوْلُ شَيْئًا مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِهِ ، أَنَّهُ قَالَ فِي عُنْفُونِ أَمْرِهِ : ” إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُظْهِرُ دِينِي عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ “ وَجَاءَ مَعَ ذَلِكَ بِأَثَرَةٍ عَنِ رَبِّهِ ، فِي كِتَابٍ مَخْطُوطٍ وَتَنْزِيلٍ مَحْفُوظٍ . فَأَيُّ أَمْرِيهِ لَكَ أَدَلٌّ ، أَوْ أَيُّهُمَا عِنْدَكَ أَعْجَبٌ ، إِذْ كُنْتَ بِنَبْوَتِهِ مُصَدِّقًا ، وَلِرِسَالَتِهِ مُحَقِّقًا : الْخَبْرُ الَّذِي أَخْبَرَهُ ، أَمْ الْفِعْلُ الَّذِي صَدَّقَهُ ؟ لِئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ وَقُلْتَ فِي نَفْسِكَ : كَيْفَ تَرَقَّتْ إِلَى هَذَا نَيْتُهُ وَأَرْتَفَعَتْ نَحْوَهُ هِمَّتُهُ ، أَمْ كَيْفَ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ طِنْتُهُ وَقَوِيَّتْ عَلَيْهِ رَوِيَّتُهُ ؟ بَلْ كَيْفَ دَعَتْهُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَشَجَعَهُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ ، وَدَخَلَ فِيهِ طَمَعُهُ ، وَطَاوَعَهُ فِيهِ لِسَانُهُ ، وَهُوَ يَذْكُرُ جُنُودَ كَسْرِي ، وَجَمُوعَ الرُّومِ ، وَمُلُوكَ التُّرْكِ ، وَمُلُوكَ الشُّرْكِ ، وَقِيُولَ الْيَمَنِ ، وَصِنَادِيدَ الْأُمَمِ ؟ إِنْ هَذَا لِعَجَبٌ ، وَلَا سِمْيًا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي إِرْثِ مُلْكِ قَاهِرٍ ، وَلَا كَيْفَ عَزَّ غَالِبٌ ، وَلَا مَعِينٌ عِلْمِ سَالِفٍ .

وَلِئِنْ أَعَدَّتْ النَّظَرَ وَكَرَّرَتْ ، فَقُلْتَ : كَيْفَ وَافَقَ خَبْرُهُ أَثَرَهُ ، وَكَيْفَ صَدَّقَ فِعْلُهُ قَوْلَهُ ، حَتَّى غَلَبَ الشَّرْقَ وَالغَرْبَ ! إِنْ هَذَا لِعَجَبٌ ! وَأَعْجَبٌ مِنْ هَذَا أَمْرٌ يَدُلُّكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ ، وَيَهْدِيكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَيْهِ : لَوْ قُلْتَ لِأَهْلِ مَمْلَكَتِكَ وَمَنْ قَبْلَكَ مِنْ أَمْتِكَ : هَلْ بَلَّغَكُمْ أَوْ تَقَرَّرَ قَبْلَكُمْ ، أَنَّهُ كَانَ فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، وَالْعَصْرِ الْخَالِي ، أَحَدٌ مِثْلَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَدَأَ الْأُمُورَ بِهِ مِثْلَ حَالِهِ مِنَ الْوَحْدَةِ وَالضُّعْفِ وَالذَّلَّةِ وَالْقَلَّةِ ، وَصَدَّرَتِ الْحُلَّ بِهِ كِفْعَالَهُ فِي الْعَلْبَةِ وَالْمَنْعَةِ ، وَالْقَهْرِ وَالظُّهُورِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ؟ تَقَالُوا لَا .

(١) في الأصل : « أما كان ... » . (٢) تحوس أحدهما : تغشاه وتبينه . وفي الأصل « تحوش .. » بالشين المعجمة وهو تحريف . (٣) في الأصل : « فأى أمر بذلك ... » .

ثم أنت لا تؤمن بمقاتته ، ولا تُقرّ برسالته ، إلفاً لدينك ، وضناً بملكك ، وطمعاً في قليل من الدنيا قد نَعَاه الله إليك ، ورغبةً في صُبابَةِ عَيْشٍ غيرِ باقيةٍ في يديك ، فهذا عَجَبٌ .
وأعجبٌ من هذا أمرٌ يَقْفُكُ أميرُ المؤمنين على نورِ حقّه ، ويُوضِحُ لك إن شاء الله بيانَ أمره : أصبحت العربُ طُرّاً والأُممُ جميعاً في مجدِ صلي الله عليه وسلم ثلاثةً لا رابعَ لهم ولا مخرَجَ للحق من بينهم : رجلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين ، ورجلٌ مكذِّبٌ به من الكافرين ، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين .

فأما الشاكُّ فلما قيل له : أخرجتَ نفسَك من الحق ، وأبرأتها من الصواب ، وأقررتَ عليها بالخطأ ، لقولك : لا بد أن يكون الحق في التصديق أو التكذيب ، ولست على واحدٍ منهما ، اعترل عنها .

وأما المكذِّب فلما قيل له : أنت مُنكرٌ والمنكر ليس بمدعٍ ، ومن لم يدع لم يلزمه بينةٌ ولا يسأل عن حجة ، اتبع صاحبه . وأيمُّ الله على ذلك ، لو سُئِلَ هذا المدعى عن بيّنته وكشِفَ حُجَّتُه ، فقول له : من أين عَرَفَ قلبك ، وأيقنتَ نفسك إيقاناً لا يجالجه شكٌّ ، ومعرفةً لا يشوبها ريبٌ ولا ينازعها شبهة ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول ، لمّا درى ما يقول ؛ لأنه لا يستطيع أن يتقول على الرسل ، ولا أن يتكذّب على الكتب ، فيقول : قد أخبر الله فيها أنه لا يبعث نبياً ، ولا يُنزل وحياً في كتابٍ مسطور ، بعد التوراة والإنجيل والزبور . بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخبار كتّابهم ، أن الله تبارك وتعالى يُنزل كتاباً جديداً أو كلاماً حديثاً ، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان ، ولم يُنزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصدِّق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقول له : أما أنت فقد أدّعت ، والمدعى يُسأل عن الحجة ويُقبل منه البيّنة ، فما بيّنتك ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لا يخرج من بيننا ، ولا بد أن يكون مع بعضنا ؟ قالوا بلى ! قال : فأية بيّنة أحق وأعدل ، وأي شهودٍ أركى وأفضل من شهادتكم بسقوط صاحبٍ وثبوت

الحق من بعدهما في يدي؟ قالوا : إن الأمرَ لكما تقول، ولكنَّ البيّنةَ أشفى للصدور، فأقام بينةً من الكتاب، وشهوداً من الوحي، وآياتٍ سوى ذلك عظاماً، وبيّناتٍ عوامّ، من كلامٍ لا يُقدّر عليه الخلق، وصدّقٍ لا يكون إلا من قبَل الرب، شبيهاً بما أورده أمير المؤمنين عليكم، وكتبَ به في صدر كتابه هذا اليكم، مما قد تشهد له قلوبُ الأمم، ويُزيّجهُ فعلاً العرب .

فلما أقام بينته، وثبت حجته، ووجّب حقه، وقضى به له، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك، وضاعت المقالة لك، أن تقول : إن الله لا يبعث نبياً بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحياً ينزل غير القرآن، فأبطلت الكتب المحدثّة، وأكذبت الوثيقة، ولم تترك وحياً غير القرآن، ولم يجز للنصارى أن تقول : لا نبيّ بعد عيسى عليه السلام، ولا كتاب خلف الإنجيل، وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل متنبّي بعد نبينا كذاب، فشاعت وجازت الحجّة، ووضح العذر . وأما النصارى فيجدون في أواخر كتبهم، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل، يبعث نبياً حديثاً، وينزل كتاباً جديداً، فليس لهم أن يكذبوا نبينا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردّوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط، وأما المنكر فبطل، وأما المصدق فثبت ثبوتاً ليس فيه مدخل شبهة، ولا موضع لجة، ولا معلق لمنازعة . وذلك أن المنكر لوجوب حقه، والشاك في ثبوت صدقه، لا يجد بداً من أن يُنحى الصدق عن الخلق، ويحلّ الدنيا من الحق، وهذا قول المكذبين بربهم، الشاكين في بعثهم، فأحسن النظر في معانيه ينكشف لك عما فيه، إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدلّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر إليه : أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمداً — صلى الله عليه وسلم — في التوراة والإنجيل موصوفاً مكتوباً، تجعّت العلماء منهم، وتدارست الكتب فيما بينهم، فلما نظروا

(١) في هذه الجملة غموض لم نوفق إلى كشف سببه وإن كان المراد منها واضحاً .

الى اسمه وعائنه بنعته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتنحون بذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفة حسداً من عند أنفسها ، وجمداً من بعد ما تبين لها ، وأمنت طائفة ، تصديقاً بكتابها ، وخوفاً من ربها .

فلعمّر الله لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصدقوا بأمره ، رأوا صفته عياناً ، وقبلوا نعته إيقاناً ، لما فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفهم على اسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماء بني إسرائيل ، وحملة الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . ولعمر الله إنها آية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله في كتابه ، وجعلها على العرب من بيناته ، فقال لهم : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ . يقولون : وعدنا أن يرسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقق قوله ، وصدق وعده . واحتج النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجادل ويحتج في أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيا ذكرا الله من صدق الموعود : إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، ونور مستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقول عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعى به إيمان أحياء العرب . أما كان يعلم أنه اذا قال لهم : إنه موجود في مثاني كتبهم ، وسمى على أفواه رسلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصفه مستبيناً ، أنهم سيُدبرون عنه إداراً ، ترداد به العرب تقاراً ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يخط إذاً في كتبهم حرفاً غيره ، ولم يخالف منها شيئاً سواه ، سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فأتتم إن تنكر ما يقولون لكم ، مما ليس لدى لب أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينهد اليه

(١) سمعها ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة الى خلقه ، لطفت النبوة منهم ، ووقعت الأخبار المنزلّة عليهم ، على صغائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم الى طلبها ، فهي مكررة في مثالي كتبهم ، وبطون صحفهم ، وأقويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم ، والأمر الكبير ، والذكر الحكيم ، الذي ملك آفاق الأرضين ، وأستفاض على جميع العالمين ، لم يذكروه بخير يأترون به ، ولا بشريةً يتهون عنه ؛ كلا ! ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصّف تبارك وتعالى نفسه ؛ إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعت الى قلبك ، لتقولن في نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمر الذي طلع طلوع الشمس ، وأمتد أمتداد النهار فبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسهول الآفاق وحزوتها ، حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبشرت الكتب به ، وتنبأت الرسل عليه ، ودعت النذر اليه ، ترينا له وترغيبا فيه ، وأمرأ به . ولو كان ضلالةً وجهالةً وعمايةً ، لتقدموا في التحذير منه ، والترهيد فيه ، والتثبيط عنه ؛ فيدعو ذلك الى أن تنظروا الى كتب الأنبياء وأقويل الرسل . فأيّم الله لئن طلبت لتجدن ، ولئن آجتهت لتوقن . وما الصواب بمنوع ، ولا الخير بمحذور . ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتّمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم الى أشباهه ، حسداً من عند أنفسهم وبغياً بعد ما تبين لهم . ثم لقد اقتديتم بهم وجرّيت معهم وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ، ولا قوة معكم إلا الاقتداء بالآباء والأتباع للآثار . فاتق الله في نفسك ، وآتهم الرجال على دينك ، ولا تجعل النظر الى غيرك من ذوى الشك في القلوب ، والفسخ في ... والتهم في التعطيل ، الذين لعلمهم يعرض لآرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلوع عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرع لكم من حجج الوحي شيءٌ زيد

(١) هكذا في الأصل . (٢) في الأصل «أن ينظروا...» بياء الغيبة . (٣) كذا في الأصل .

وظاهر أن كلمة بعد «في» سقطت من النسخة سبوا .

في المصاحف بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى ،
 وذاك الشاك في شهادات الرجال ، متفقه من بلدان وأمصار مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرقة ،
 ليس يدعوهم الى ماشهدوا ديناً ، ولا يجملهم على ما اتفقوا عليه دنياً ، لا يستقيم له أن يؤمن^(١)
 بما لم تدركه جوارحه وتُحيط به حواسه ؛ لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام .
 واتفق المختلفين دلالة واضحة . فهو سائلكم عن الحجّة في الإنجيل والبيّنة على التوراة ، شكاً
 في الرب وتكذيباً بالرسول ، فما كنت قائله له أو مجيبه به في كتابكم ، فأجبه بمثله في كتابنا وإن
 كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تعتدل حالاهما ،
 ويتفق أمرهما ، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافهه المسيح به
 أصحابه باللسان ، إنما كان فعلاً أثبت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعاً بعده .^(٢) وليس
 يكتب أمير المؤمنين بهذا اليكم شكاً فيه ، ولا يورده عليكم مريّة به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كتب الله عز وجل محفوظة ، وأن حججه مخزونة ، لا يُزاد
 فيها على تقادم عهد ، ولا يُنقص منها على تقارب دهر ، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من
 بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع اليه من الحواريين : ” بالوحى أكلّمكم ،
 والأمثال أضرب لكم “ . فأمثاله المضروبة كلام ، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما بال الشك
 يُنفى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندهم ، وهو على ما وصّف أمير المؤمنين لكم ،
 وسيان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، إما ما قربا من عهده ومعانينته وحيه^(٢)
 واجتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي^(٣)
 تعرفون ووقوعها بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فإن قالوا : أما طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك
 ما لا يسوغ الأقاويل فيه ، ولا تدخل الشبهة عليه ، لأنّ انتشار القرآن وامتداد الزمان ،

(١) في الأصل : « لا يستقيم له أن يؤمن له بما ... » . بزيادة ” له “ . وهي قلقة في موضعها فلعلها
 زيدت من التامخ . (٢) في هذا الموضع اضطراب في الكلمات ، والمراد واضح . (٣) كذا في الأصل .

وكثرة الحَمَلَة لآياته فيهم ، والحَفَظَة للسانهم ، ولكن الدين الذي نزل به القرآن ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة ، على أقوام [لبث] النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حِجَّةً فيهم يتلو كتابَ الله عز وجل في كل عام عليهم ، حتى حَمَلوه في صدورهم ، وحَفِظوه في قلوبهم ، وكرَّروا في آذانهم مسموعاً ، وأمرت على أبصارهم مكتوباً ، وجرى على ألسنتهم متلوّاً ، وجمعه كثيرٌ منهم محفوظاً ، ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم ، حتى أدَّوه إلينا ، وأوفوا به عندنا ، من مواضع متفاوتة ، وأصناف وأجناس متباينة ، على كلمة واحدة ! .

فإن قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنت الحال من الحمل عليه ، فليعلموا أن المؤمنين المخاصين ليسوا في الزيادة متهمين ، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين ، بعد ما حَفِظَتْهُ قلوبهم ، ووعته أسماعهم ، ثم تكتتم القدرة لهم وتُسْتَرُّ الزيادة منهم ! هذا ما لا يقدر عليه منافق ، ولا يطيقه مشرك ولا فاسق . وأيمُّ الله أن لو قَدَرَتِ اليهودُ على الزيادة في الإنجيل ، لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم ، ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين ، لبدلوا ديننا وغيروا حالنا . ولو كانوا لذلك مُقَرِّنين وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذي كتَبَ به أمير المؤمنين اليكم ، وأورده من حجج الله عليكم ، أولى ما تلقون ، ورأس ما تقرِّفون . فلا تُلقين إلى ما قاله [المصل] سمعك ، ولا تُنصِتِ الدهرَ إليه ذهنك ، فإنه آتخذ الشكَّ في كتابنا ذريعةً إلى الإخلال بكتابك ، وسُلماً إلى الشكِّ في دينك وعالمةً في الطعن على ملتك ؛ ولكن قل يا وليَّ الشيطان : أتى وقع لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول : شهدت الحيرة ، واجتمعت العشييرة ، واتفق المختلفون ، فذهب الشك ، وزال الريب ، ووقع الإيقان ، من غير العيان ؟ صدقت . فما بال الشكِّ فيما أجمعت العاقمة على القول به ، واتفقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبيِّنات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره ، وباعده

(١) في الأصل " في دينه ... " . (٢) كذا بالأصل .

عن شبهه ، فتؤمن أنه من نطفة خُلق ، ومن رَحِمٍ نَحَرَج ، فإن جحدوا بي ألا يؤمن بما لا يرى ، فقل : أرايت لو كنت سميعاً أعمى ، أكنت تؤمن بشيء مما في الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سبع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب . فاتق الله إذ كنت إماماً وقائداً لأهل ملكك ، لا تقدمهم إلى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من آيين آيات الوحي ، وأدلّ علامات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يتدع في الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم في الأمور بين يدي ربه . والله أظهر فيما أنزل من الكتاب أموراً كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديباً له ، وإخباراً لمن آمن من بعده : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُزَكِّي أَوْ يَدَّكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَا مِنْ أَسْتَعْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الْيُزَكِّي وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ شَتَّانَكَ لَقَدِ كِدْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَادَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام حين سكنت القلوب إليها ، وأنسيت النفوس بها : ﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وكانت القبلة التي صرفه الله إليها وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعة بخلاف الكافرين ، كبيرة إلا على الذين هدى الله من المؤمنين ، فإنهم قالوا : إذا اختلفت القبلتان وافتقرت الجهتان ، كانت الطاعة فيهما واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها . وكيف تختلف الطاعة من رجل بنى بأمر الله عز وجل ثم هدم بوحي الله .

(١) كذا في الأصل . (٢) في الأصل : "لمن آمن من بعده إذ يقول ... " وظاهر أن كلمة

"إذ يقول" غير مفيدة هنا . فلعلها زيدت مهوا من النسخ . (٣) في الأصل : "كثيرة ... " .

فإن قلت : إن الله حَوَّلَهُ عن أفضل القبلتين وأقوم الجهتين ، فلا سواء في الفضل
الْبَيْنِ والخير السرّ : قبلة سَأَطَّ اللهُ عليها الكافرين ولم يَمْنَعْها من الظالمين ، وقبلة مَنَعها بِجَنُودٍ
من عنده ، وَعَصَمَهَا بِغَيْرِ مَا حَوَّلَ من خَلْقِهِ ولا حَرَمَةٍ يَدْعِيها أَحَدٌ من فيها ؛ فأرسل طيراً
أبَابِيلَ تَرْمِي الأعداءَ بِجِجَارَةٍ من سِجِّيلٍ ، فجعلهم كعَصْفٍ مَأْكُولٍ . فإن تقل : هذا خبرٌ
نُسِبَهُ ، وقول لا نعرفه ؛ فبأى حديثٍ بعد هذا تؤمن ، وتشهد لله عز وجل أنه من قِبَلِهِ ،
وأتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمداً صلى الله عليه وسلم خَبَّرَهُم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، نقل :
إنه أراد أن يفرِّقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب ، ويقذفوه بالحق ،
ويصمونه بالجنون ، ويظنون به الظنون ، كلا ! ما كان نبي ولا غير نبي ليُجاهد أوقاما بخلاف
ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا ، وتكذب ما عاينوا . فلا
تكونن في هذا من الممترين ، ولا بأمر الفيل من المكذبين .

فلعمراً لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تُجِدُ أنت وقومك إليه
لما قام معه رجلا ولا آخلف فيه سيفان . وإن فيما صنَع اللهُ عز وجل بالفيل
وأتباعه ، دلالةً على قبلة الله وأنبياؤه . فأتق الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي
صلى الله عليه وسلم وكشَفَ الأغطية لك عن النور بآيات الوحي . فإن مالت الأهواءُ
بك ، وغلبت الأساقفةُ عليك ، وحضرك الرؤساءُ الذين يجعلون مع الله أهمةً أُخرى بلا حجةٍ
عندهم ، ولا سلطانٍ أتاهاهم فقل : أنبؤني عما اجتمعت عليه النَّصْرانية وذهبت إليه بهم
المعاني من تشويق الكلام وتصريف الكتب : أحروفٌ تتعسّفونها ، أم لغةٌ تعرفونها ؟
فإن قالوا : إنهم بغير لغةٍ يتكلمون ، فهم إذا قوم يلعبون . وإن قالوا : إنهم يتكلمون
بالغةٍ معروفةٍ ومعاني معلومةٍ ، فقل : أخبروني عن قولكم : أب وأبن ، أهما ما تعترف
العقول من المنطق ويقع في القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذي
(١) كذا بالأصل .

تذهب أوهام العباد إليه، ولا بالذي تقع الحقائق في الآباء والأبناء عليه، إنما هو كقول الله عز وجل في التوراة لإسرائيل: "بكرى" لا يعني ولادة الرحم؛ وكقول المسيح عليه السلام للحواريين: "أنتم إخواني" لا يعني أخوة النسب. فذلك قول لا يجدون معه بدءاً من أن ينسوا عيسى عليه السلام عبداً. وإن قالوا: بل هو ما تجرى به ألسن العباد، ويقع في قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأبوة المعلومه، فليخبرونا متى كان الأب والدا، والآبَنُ مولوداً: أقبل الولادة أم بعدها؟ فإن قالوا: قبلها، رجعوا عن القول الأول بتثيت الأبوته. إلا أن ذلك ليس بالشئ الذي تذهب إليه الأوهام، ولا بالمعنى الذي يقع في قلوب الأنام.

ولا بد إذا سقطت الولادة المعروفة وبطلت الأبوة الموجودة، أن يقولوا: إن الأب والآبَنُ آسمانٌ علَّقَا على غير معنى، ونَسَبَانِ أُضِيفَا إلى غير حق؛ فيفترون أن عيسى عليه السلام خُلِقَ مثلهم، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحدٍ منهم.

وإن قالوا: إنما كان الآبَنُ مولوداً والأب والدا بعد الولادة، فقد أقرّوا بأن الآبَنُ حَدَثٌ مخلوقٌ وعبدٌ مربوبٌ، لقولهم إنه لم يكن حتى وُلِدَ، ولم يُولد حتى خُلِقَ. وقيل لمن يقول الزور العظيم، ويقذف بالإفك المبين: أليس الأبُ أباً على حياله ولم يزل، والآبَنُ أبنا يُجِلُّ، وروحُ القدس كذلك؟ فإن قالوا: نعم، فقد أقرّوا بأنهم ثلاثة متباينة، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة، وتركوا قولهم: إنهم ثلاثة أصلهم واحد.

وإن قالوا: الأب والآبَنُ وروح القدس واحد، ولكن بعضه أبٌ وبعضه ابنٌ وبعضه روح القدس، فقد دخلوا في التحديد الذي هو عيب عندهم، وقالوا في التبعض بما هو كفرٌ قبلهم. وإن قالوا: ليس مُبعضاً، ولا مجزأً، ولا محدوداً، ولا ثلاثة متباينين، فإذا هم قوم يلعبون: يقولون: الأبُ ابنٌ، والابنُ أبٌ، والوالد مولود، والمولود والد، والكبير صغير، والصغير كبير، والقليل كثير، والكثير قليل. وهذا من أبين المحال وأخلف المقال. وليس من المنطق ما لا يوجد في لغة عرب ولا عجم، ولا لسان أمة من الأمم. وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبي بلسان قومه ليسين لهم ، فَيُضِلُّ الله الظالمين . ولولا ذلك لَمَا فَهَمَّت الأُمُّ مذاهبَ أقاويلِ الرسل ولا معانيَ أحاديثِ الكتب . فلا تُطْع الذين يلعبون بأنفسهم ، ويتكلمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثةُ واحدٌ ، والواحد ثلاثةٌ ؛ وهذا محالٌ في مجارى المقال ، ومعاني الفِعال .

لعمركم الله لئن آتته عقولُ الأساقفة على دينك ، وأهتَمَّت بالنظر في توحيدك ، لتعلمن أن الواحد لا يكون ثلاثةً وأن الثلاثة لا تكون واحداً ، إلا على وجه ماله ثابن يقول به ، ولا منه مخرجٌ تستريح إليه . فألقِ نحوَه سمعك ، وأنصت إليه فهمك ؛ فإن أمير المؤمنين وإصْفُه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين ، ولا لازماً غير المحدودين ، ولا داخلاً على رب العالمين : وهو أن يكون الشيء أصله واحد وأجزأه كثيرة ، من نحو الانسان ، وهو أصل يجعه اسم ، وله أجزاء تلزمها أسماء ؛ فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصلُ بالجزء ، ولكن الجزء بعض الأصل . فإذا أردتَ الجزء ، قلت يد الانسان وسمع الانسان . ولولا أنه محدود مخلوق مجزأ مبعوض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ؛ وكذلك الشمس : الأصل واحد ، وهي شمس ، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وضوءُ الشمس وشُعاعُ الشمس ودقيقُها وغلِيظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سميتُ كلَّ جزء من الأجزاء على حِباله إنساناً ، وكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمساً ، ونسبتَ فعلَ الأصل الى بعض أجزأه ، وتركتُ أن تُنسبَ الأصلُ فاعلاً ببعض الأجزاء ، كما تقول : بسطَ الانسانُ يديه ، ومَشَى برجله ، ونظَرَ بعينه ، ثم ضربتَ ذلك الله عز وجل مثلاً وجعلتَ الله له قياساً ، فقلت : الأصلُ واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة وهي أب وآبن وروح القدس ، وكل جزء منها إلهٌ على حِباله وربٌّ دون غيره ، لم تجدُ بدءاً أن تلحقَ اليدَ والعينَ والنفسَ بالأب والآبن وروح القدس ، فكثيراً ألهتكَ ، وتحدَّدَ ربك ، وتترك قولك : إن الله ليس محدوداً ولا مجزأً ولا مبعوضاً ؛ إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماءُ أبٌ وآبنٌ وروح القدس .

فإن كنت تقول هذا وكنت إنما تعبد أسماء، فما تجد بداً من أن تعبد الأسماء كلها وتقول : إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسمي أرحمني ، وبثان اغفر لي . فاتقوا الله يا أهل الكتاب ؛ فإن الله عز وجل ليس بأب ولا ابن ولا أسم ، ولكن له الأسماء الحسنی فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفة إلى بعض الإنسان باليد والرجل وأشبه ذلك وقالوا ليس إنساناً ، فقل لا ، ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسان بكاله . وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالعا ، فقل لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواءً وسماءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء . ولو قصدت بالإجابة لمسالك هذه الأودية ، لبطلت الحجج الداحضة وأنقطعت الأقاويل المتناقضة . وسل من قبلك من أساقف أممك وشماسة أهل ملتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرفعونه أن يكون عبداً : على أي شيء وقع اسم المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إله دون غيره ، فقد أقرروا بأن إلههم يأكل ويشرب ، ويمشي ويركب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبينا قبلهم ، موصوفاً عندهم . فإن قالوا : وقع اسم المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذا دون غيره ، والمسيح إذا مخلوق عندهم ، والإله إنساناً إذا مثلهم ، فلم يعبدون المخلوق ويدعون من خلقه وبرأه . وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعاً ، فلن يجدوا مخرجاً ولا بداً ولا محيصاً ، إذا أوقعوا الاسم عليهما ، من أن يضيفوا الأعمال إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خلقهم ، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم ، وذلك لما يجدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم وفي الإنجيل الذي قبلهم . وسل من قبلك عن الأب والآب ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر ؛ فإن قالوا : الأب أعظم والآب أصغر ، فقد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الآب ،

ولا الابن بأصغر من الأب، فقد نقض حينئذ جوابهم، وأكذب المسيح عليه السلام
 كلامهم، حيث يقول: ^(١) "لو كنتم تحبونني لفرحتم حيث أذهب الى إلهي فإن إلهي أعظم
 مني" فلم يقل أعظم مني، إلا وهو مقرباً بأنه أصغر منه. وسلّمهم عن قول المسيح: ^(٢) "أنا
 أذهب الى إلهي وإلهكم"، فقل: من هذا الإله الذي ذهب عيسى إليه صلى الله عليه
 وسلم: إله في السماء متباين منه منقطع عنه؟ فهما اذا اثنان متباينان، أم إله كان به متصلاً
 وكانا جميعاً واحداً؟ فكيف اذا يجوز له أن يقول اذاً أذهب اليه! إلا أن يقولوا: إن
 بعضه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم في صفة الرب عز وجل.

وسأل من قبلك: أخرج المسيح من بطن أمه مريم بكاله حتى كان البطن منه فارغاً
 وكان هو منه بكاله خارجاً؟ فإن قالوا: نعم، فقد أنكسر قولهم: إن الله بكل مكان.
 وإن قالوا: لم يخرج المسيح ولم يخل البطن، فقد كذبوا اذاً في قولهم: إنه قد خرج،
 وأقروا أنه قد وُلِدَ. فعلى الله عما يصفون، وتتره عما يشركون. وسلّمهم لم هبط عيسى
 الى بطن مريم، وتجسد باللحم والدم، فإن قالوا: ليمحق الخطايا من الأرض ويربط
 الشيطان عن الخلق، فقل: كيف اذاً لم يربطه عن نفسه! وكيف جلاباه من اليهود
 بصلبه! ولم سلط على أهل دينه يتبعون في كل شعب ويقتلون بكل واد!

وقل للذين يقولون: إن الخالق في كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك: أيهما
 أعظم: المحيط المشتمل، أم المحاط المشتمل عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون.
 فإن قالوا: إنما ألجم بعضه دون بعض، فقد حدوا وبعضوا وتقصوا وانتقصوا،
 وإما قالوا فلن يجدوا بداً من أن يقولوا: إن بعض المسيح الذي جعلوه ربهم، وهو إله
 عندهم، ميت بعضه جيفة، وإن بعضه حي طيب، لأنهم زعموا أنه ألجم يجسد حي فيه

(١) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ٤، آية ٢٨ ج ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢م):

«فلو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون بأني ماض الى الأب لأن الأب هو أعظم مني».

(٢) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ٢٠، آية ١٧ ج ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس): «إني صاعد الى

أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». (٣) كذا بالأصل

رُوح، فلا بدّ إذاً أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرح والعطش وأشباه ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإفكّ مبین . فاتقِ عقوبةَ الله ربك، ولا تمشِ مُكبّاً على وجهك، ولكن أطلبْ وأتمسّ وأبحثْ؛ فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل: ^(١) «مَنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَمَنْ طَلَبَ وَجَدَ وَمَنْ اسْتَفْتَحَ فَتُفْتَحَ لَهُ» .

اجمع العلماء والبصراء [الذين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قبلك، فقل: لأى شيء تَسبِّمُ المسيحَ إلهاً وجعلتموه رباً؟ ونجد الله سماءً في الكتاب ابناً، وقد تجدونه قال: «إني أذهبُ الى أبي وأبيكم، إلهي وإلهكم أيضاً». وهذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولى به، وقول لا يحتمل إلا وجهاً وهو الرُبُوبية . أم كيف تنظرون الى كلامه: «أذهب الى أبي وأبيكم». فتفردوها في نفسه وقد قالها فيه وفي غيره!

فاتقِ الله وكن من القائلين بالحق، الموحدين للرب. إن أمير المؤمنين قد ضربَ لك أمثالاً جمةً، وصرفَ اليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي قليلاً من كثير، واضحاً من تفسير، لا تمتنع العقولُ من التصديق به، ولا القلوبُ من الإقرار به .

وسيدك لك أمير المؤمنين من علامات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، ما يُكْتَفَى به، إن شاء الله، وباليسير منه؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، ومُحَجَّجَه محروسة، لا يزداد فيها ولا ينقص منها . وإذا وجدتَ فيها كلمةً تدلُّك على حق وتهديك الى رُشد، فاستِ واجداً أخرى تُصدِّقُ عنه وتشكِّكُ فيه، إذا تلى ذلك بالحق ووضع على الصدق . ولكن ضلَّت اليهود والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسير الكُتُب . وأمير المؤمنين يسأل الله العِصمة والتوفيق .

(١) الوارد في إنجيل متى (فصل ٥ آية ٤٢ ج ٣ من الكتاب المقدس): «من سألك فأعطه . ومن أَرَادَ أن يقترض منك فلا تمتنع» . والوارد في إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ج ٣ من الكتاب المقدس) . «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقترع يفتح له» .

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه في الإنجيل لكم ، إذ قال للحواريين ^(١) : "أنا أذهبُ وسيأتيكم البار قليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يُقال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شيء أعد الله لكم يخبركم به" . وترجمة البار قليط : أحمد . هذا ما لا شك ولا مرية فيه ، وهو الذي يُخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحى الحواريين فى القرآن ؛ ولستم تجدون ذلك فى التوراة ولا فى الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا النبي عليه السلام : "قيل لى : اقم بطارا ما ترى بخبرى؟ قال : ^(٢) أرى راكين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها المنحوتة" . ^(٣) ^(٤) ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا . ومن ذلك قول داود عليه السلام : "اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنهم بشر" ^(٥) يقول : كي يتبين الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنة تُنسب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نصّب سنة موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حبقوق النبي ^(٦) المتنبئ فى زمان دانيال : "جاء الله من السماء والقديس من جبال فاران ، وأملاّت السماء من تجميد أحمد وتقديسه ، ومسح الأرض بيمينه ، وملك رقاب الأمم" . ^(٧) وقال أيضا : "تضىء لنوره الأرض ، وتحمّل خيله فى البحر" . فالى من

(١) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ٢٦ وفصل ١٦ آية ١٣ ج ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدس) .

(٢) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ج ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدس) . (٣) كذا بالأصل ، ولم نوفق الى تصحيحه . (٤) فى الأصل : « المنجرة » وقد استأنسنا فى اثبات ما أثبتناه بالكتاب المقدس .

(٥) راجع سفر الزمير (فصل ٩ آية ٢١ ج ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدس) . (٦) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) . (٧) فى الأصل : "من السماء ..." .

(٨) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) .

ينحو هذا القول، وإلى أين يذهب بهذا المعنى؟ لئن ذهبَ به إلى غير الذي [تحمّل] خيله^(١) في البحر، وبدأ من جبال فاران أمره، وغلب على الأرض ومسحها، ومَلَكَ رِقَابَ الأُمَمِ كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون.

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزبور^(٢): ”صَدَّقُوا وَسَبَّحُوا الرَّبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا سَبَّحُوا الَّذِي هَلَّلَهُ الصَّالِحُونَ. ليفرح إسرائيلُ بحالقه ويتوب صهيونُ من أجل أن الله اصطفى له أُمَّته، وأعطاه النصر وسَدَّد الصَّالِحِينَ بِالكَرَامَةِ، يسبحونه على مَضَاجِعِهِمْ، ويكبرون الله بأصواتٍ عالية، بأيديهم سيوفٌ ذاتُ شَفَرَتَيْنِ، لينتقم الله من الأُمَمِ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَهُ، ثم يقيد ملوكهم بالقيود وأشرفهم بالأغلال“. فأيتما أمةٌ يكبرون الله بأصواتٍ وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شرفٍ وعند كل حرب، وأيتما أمةٌ كانت سيوفُها ذاتُ شَفَرَتَيْنِ إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

ومن ذلك قول أشعيا^(٥): ”سَبَّحُوا الرَّبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا، ويسبِّحه من آفاق الأرض فرح يكون في بني فيار“^(٦). وبنو فيار قريش أهل فاران الذي نزل فيه القرآن. وأيتما أمةٌ تسبِّح من آفاق الأرض إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. عدى أكدى^(٧).

ومن ذلك قول أشعيا^(٨): ”عبدى الذي وجب به حجبى الذى بشرت به نفسى أفيض عليه رُوحى، يوصى الأُمَمَ بالوصايا، لا يضحك ولا يُسَمِعُ صَوْتَهُ فِي الأَسْوَاقِ، ويفتح العيون العور، ويُسَمِعُ الأَذَانَ الثَّمَّ، ويُنحى القلوب الغلف، وما أعطيه لا أعطى غيره، أحمد يحمّد الله حمدًا حديثًا، تهليله يأتى من أقصى الأرض، ييجوز الماء بشدة أمواجه، ويرح وكورها، سكانها يحمّدون الله على كل شرف، ويكبرونه على كل رابية“.

(١) زيادة يدل عليها ما قبلها . (٢) فى الأصل : ”ومنها ...“ . (٣) راجع سفر المزَامِيرِ (فصل ١٤٩ آية ١ — ج ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس) . (٤) فى الأصل ”هلكه الصالحون...“ (٥) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٦) كذا فى الأصل، ولعله محرف عن «فوج» . والفوج : الجماعة من الناس . (٧) كذا بالأصل، ولم ندر لها تين الكهنتين ولا لذكرهما معنى . (٨) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١ — ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٩) كذا بالأصل .

(١) ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين ، يقول الله عز وجل
 لحمد في الزبور : ” انصبت رحمتي على شفقتك من أجل ذلك باركتك الدهر ، تقلد^(٣)
 السيف على الأمم ، أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسيء بهاك وحمدك أحمد نعل
 البر منك كلمة الحق وذلك لك الأشياء سيفك محسمة يمينك ونبالك مسمومة وسقط
 عند الأمم ” . فأى نبي كان على الأمم جبارا ولهم بإذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

(٤) ومن ذلك في آخر التوراة : ” جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير
 واستبان واستعلن من جبال فاران ، وجاء عن يمينه ربوات القديسين ” . وتفسير هذا
 أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه
 السلام في جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال
 فاران وهي بلاد مكة . وأتم تجدون ذلك في كتبكم مكررا وتعرفونه جميعا بلغتكم .

(٥) ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام « سَأَقِيمُ لَهُمْ مِنْ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ أَجْعَلُ
 كَلَامِي عَلَى فِهْمِهِ وَلَا يَتَكَلَّمْ إِلَّا بِمَا أَمَرُهُ بِهِ » . فَمَنْ إِخْوَةٌ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا بَنُو إِسْمَاعِيلَ !
 أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ لَوْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْنِي أَحَدًا مِنْهُمْ لَقَالَ لَهُمْ : أَقِيمْ لَكُمْ نَبِيًّا مِنْكُمْ ! .

فإن قاتم إنما قال من إخوتكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهب أمير المؤمنين قبل هذا
 الخلف منكم ووسع في هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة :
 ” مثل موسى في بني إسرائيل لا يقوم ” فهل تجدون من هذا مخرجا ، ومن الإيمان أن المعنى
 وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدأ .

- (١) راجع سفر المزامير (فصل ٤٤ : « وفي بعض النسخ ٤٥ » آية ٣ — ٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب
 المقدس) . (٢) في الأصل : « في خمسة وأربعين مزمورا » . (٣) في الأصل : « من
 أجل ذلك بارك الدهر . واستعنا في تصحيحها بالكتاب المقدس الذي وردت فيه الجملة هكذا : « وقد انسكبت
 النعمة على شفقتك فلذلك باركك الله الى الأبد » . أما الباقي فلم نوفق الى تصحيحه فأثبتناه كما وردت بالأصل .
 (٤) راجع سفر ثنية الاشرع (فصل ٣٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٣ : ٤٤ من الكتاب المقدس) .
 (٥) راجع سفر ثنية الاشرع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أَجْعَلُ كَلِمَتِي أَلْفًا لَا يَبْرَأُ وَلَا يَكْتَسِبُ " .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوَارِيَّهٖ أَنْ يَقُولُوا فِي صَلَوَاتِهِمْ : « يَا أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ » . كيف صار عيسى دونهم ابنا ، وصار له دونهم أباً ، وهم يقولون : يَا أَبَانَا ! أم كيف لم يُجْعَلْ سَلِيحًا بَنَ دَاوُدَ إِلهَا وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِدَاوُدَ : « يُؤَلِّدُكَ غَلَامًا يُسَمِّي لِي وَأُسَمِّي لَهُ » ! ولم لا يجعلون إسرائيلاً إلهًا وقد قال الله عز وجل له : « أَنْتَ يَكْرَهُ » ! بل لم لا يُسَمُّونَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَةً وَالْحَوَارِيَّيْنَ خَاصَةً [آلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أُنْتُمْ إِخْوَتِي ، وَقَدْ قَالَ فِي الْإِنْجِيلِ : « أُعْطِيَ كُلٌّ مِنْ آمَنَ بِي سُلْطَانًا يُدْعَى لَهُ » . وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول في مواضع جمة وأما كن كثيرة إنه ابن الانسان ! فكيف يكون ابن الانسان ابن الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابن الانسان ، لقد جعلوا مع الله إنساناً قديماً وجعلوا الله إنساناً حديثاً ، وجعلوا المسيح ابن الله لم يزل ، وابن الإنسان فيما حدث . وهذه أمور متناقضة ، وحجج داحضة ، وأقويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيح لأنه رُجِعَ إِلَى السَّمَاءِ ، فليعبدوا الملائكة فإنهم في السماء قبله ، وإدريس فقد رفعه الله وغيره . وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخْلَقْ مِنْ ذَكَرٍ ، فَأَدْمٌ وَحَوَاءٌ لَمْ يُخْلَقَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، وَلَمْ يَقَعَا مِنْ غَمِّ الرَّحْمِ وَضَيْقِ الْبَطْنِ وَحَالِ الصَّبَا فِيمَا [وَقَعَ] فِيهِ الْمَسِيحُ .

وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فما أحيا حزقيل أكثر ، وما كان من اليسع تلميذ إلياس أعجب ؛ لأنه أحيا الموتى بعد مئتين من السنين . وإن طلبتم ذلك في سِيرِ الْمَلُوكِ عِنْدَ قِصَّةِ الْيَسَعِ أَصْبَتُمُوهُ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ج ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) في الأصل : « وصار
دونه أباً ... » . (٣) لم نجد هذا في الإنجيل . (٤) حزقيل نبى بعثه الله تعالى الى بنى اسرائيل ،
وهو الذى أحيا الله . القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم
بدعوته . وهو ما يشير اليه قوله تعالى : (ألم ترالى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أبرأ والعجائب التي أرى ،
 فعجائب موسى أعجب وآياته أعظم . أين ما ذكرت لك من [عجائب] عيسى من عجائب
 موسى : من أنقلاب البحر له ، وسلوك الجيش معه ! أم أين ذلك من حجرٍ يضربه فينفجر
 بعيون الماء ، ويحمله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس
 يوشع الشمس ثلاث ساعات^(١) ! وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره
 وقضائه . فاتق الله وكن من القائلين بالحق ، الموحددين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم
 يقل ، فإنكم لا تجدونه قال لكم في شيء من كتبكم : اعبدوني فإني ربكم . تعالى الله عما يقول
 الظالمون ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك ، في أولى داريك بك وأهم شأنيك لك ،
 فدعاك الى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتتجو من النار . فإن قبلت
 حفظك أصبت ، ونفسك أحرزت ، ولك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم . وإن رددت
 نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الخط في آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح
 في عاجلتك : من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحرم بها سباءكم ، ويجعلها قواماً
 لمعاشكم ، وصلاًحاً لبلادكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأماناً لجنابكم ، وسعةً لِسُرْبِكُمْ^(٢) ، وبركةً على
 نفقاتكم ، وغنى لأهل الحاجة والفاقة والمسكنة منكم .

وان يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم ، وعموم العافية إياكم ،
 وأستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسطها على الأعداء منكم ، شيئاً إلا
 وفي قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التي كان الله أجرى نعمتها لكم على يده ،
 وفتح بركتها عليكم من قبله ، ما يدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على
 حقه فيما يقول ان شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم ،

(١) إشارة الى قصة يوشع بن نون قتي موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس ؛ فقد روى أن يوشع قاتل
 الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ،
 فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم . (٢) السرب : الطريق .

وصنّف من أصنافكم، بتلك الفدية، أموراً عظيمة البركة، واسعة المنفعة، في أمور غير واحدة :

منها : أن قادة جنودكم وساسة حربكم، كانوا بعد وقوع أمرها وأستحكام عقدها، فراغاً لمحاربة أعدائكم ومناصبية من ناوأكم، بين أن يستعجموهم في بلادهم وينزلوا عليهم في ديارهم، ولا يهربون تَعَقَّبَ بَشْرَ إِنْ سَارُوا فِي أَرْضِهِمْ، ولا يتخوّفون طَرَاداً إِنْ أَجْتَمَعُوا لِقَاتِلِهِمْ أَنْ يَقِيمُوا فِي خَفِضٍ وَدَعَةٍ، وَأَمْنٍ وَسَعَةٍ، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال، وهم اليوم يترقبون الجيوش من كل شِعْبٍ ويتخوّفون الختوف في كل وقت، لا يهدأ لهم جَاشٌ، ولا يسكن لهم فَرَجٌ، ولا ينام لهم لَيْلٌ، ولا يأمن فيهم حال، قد قَطَعَتْ^(١) الهموم دابرتهم، وأضمرت المخاوف جُنُوبَهُمْ، وأستأصلت الجنود أموالهم .

ومنها : أن أهل الحِرَاثَةِ وإخوان العارة، في بلادك وأطراف أرضك، كانوا سرعاً الى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قِوَامَ لهم ولا معاشهم إلا به، ولا بقاء لدينهم إلا معه، قد آمنوا الجيوش ومعرتهم، والجنود وبادرتهم، وأنتشروا للعارة، وأبتكروا في الزراعة، فارقوا رءوس الجبال وإقمام الغياض، وراحوا في أوساط أوطانهم وظلال محالهم، يشققون الأنهار، ويغرسون الأشجار، ويهجررون العيون، حتى نمت الأموال، وأخضرت الحال، وأخصب الجناب، وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، ولحراثة تاركين، وبغيرها مشغولين في إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال في الحصون، ورم القلاع للجلاء، وتخريش الحصون للبلاء، قد أنتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجارى المياه، الى أوشال الجبال، وأشجار الغياض، وبطون الأودية، فليس يبلغون من عمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يبلغون، ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة، قريباً مما كانوا ينالون .

(١) كذا في الأصل . (٢) في الأصل : « لا سكن لهم الخ » .

ومنها : أن إخوان التجارات ، وأصحاب الأموال وأهل الظَّفِّ والحافر ، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا ، فينتفون تجارتهم ويُغسلون بضائعهم ، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين ، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم ، فعمت البركة وسهلت المنفعة ، حتى نالت الرعاء في جبالها وافيها ، والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من ذوى العبادة والزهادة والتأله والنسك والنيات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامة من أوزار الخص على قتال الخوف ، قد نجوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها ، والأمور التي أمركم بها ، من نحو قوله : ”مَنْ لَطَمَ خَدَّكَ الْيَمِينَ فَأَمَكْنَهُ مِنَ الْإيسِرِ ، وَمَنْ آتَرَغَ قَيْصِكَ فَأَعِطَهُ كِسَاءَكَ ، وَمَنْ لَطَمَكَ فَاغْفِرْ لَهُ ، وَمَنْ شَتَمَكَ فَأَعْرِضْ عَنْهُ“ .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحي حوزتك ، قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخفض ، ودعة الحال ، وحلاوة الأمن ، ورفاهية العيش ، وسعة العافية من سبأ أزواجهم ، وهبض أولادهم ، وحطم معاشهم ، وأسر رجالهم ، وغنيمة بقرهم وغنمهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم ، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، ما لم يكن لهم رأى يعرفه ، ولا ظن يبلغه ، ولا طمع يُقاربه ، ولا أمل يذهب إليه . وما قد عرفت الخاصة من بطارتكم ، والعامّة من أهل ملتكم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفقتكم عليهم ، وأثرتكم إياهم ، وبركة ولايتكم ملكهم ، ومنفعة سياستكم أمرهم ، ما قد ازدادوا لكم به محبة ، وفي بقائكم رغبة ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقة ، وفيما نابكم نصيحة ، مع ما قد آزددتم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفضل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق النية ، ولطف الحيلة التي

(١) في الأصل : ”من بلادهم ...“ . (٢) كذا في الأصل . (٣) راجع إنجيل متى

(فصل ٥ آية ٣٩ ج ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، وحل رأيكم فيها ؛ على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قووا ، ولفقرائكم حتى استغنوا ، ولقرائكم حتى بدوا وحيو وفووا المسلمين من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، وأشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر بحر القتل ، وذل الأسر وغلبة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كيف تموهم بالصلاح ، وأستوتقم منهم بالرهن .

فإذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في القدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية ، فلا يكون لك رأى غيرها ولا أمر سواها ؛ فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة في بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه الى خلافه مما أصبحتم عليه من آنتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الجلاء والسياء والقتل ، والأسر والحصر ، شيئا آخذتكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيدا آستدرككم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجب عذرکم وأفضعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل في نقض عهده ، وآستخفافكم بحقه في حقر ذمته ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأتم تعلمون أن مواثيق العهود ونذور الأيمان الذي وضعه الله عز وجل حرماً بين ظهراني خلقه ، وأماناً أفاضه في عبادته ، لتسكن اليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وليتعالموا به فيما بينهم ، وقيموا به من دنياهم ودينهم ؛ فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح حمى الله عز وجل ، تهاونا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء . وقد رجا أمير المؤمنين أن يجرى الله نقمته منكم بأيدي المسلمين ، بعد إذ كان آعتقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغالطة ، والعهود الموكدة ، التي قد اعتقدها في رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامع بها من حولكم ، وحكم بها بطارتكم وأساقفتكم . فلا الله آتقيتم ، ولا من الناس آستحيتم ، نكثاً للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

وَحَرّاً بالأمانة، وإباحةً للحمى . فتوقّعوا العقوبة، وانتظروا الغيب، فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌّ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم، ما قد أزعج أمير المؤمنين وعزم عليه، وقذف الله في قلبه: من الإرادة والنية والرغبة في إيطاء الجيوش بلادكم، واستبءاء المقاتلة أرضكم، والتفرغ لكم من كل شغل، والإيثار لجهادكم على كل عمل، حتى تؤمنوا بالله وأتم طائعون أو كارهون، وتؤدّوا الجزية عن يدٍ وأتم صاغرون . فكونوا على عدة من الجزية، ويقين من الانتجاع الذي لا طاقة لكم إن شاء الله به، ولا صبر لكم بإذن الله عليه، فان جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة، وخزائنه عامرة وافرة، ونفسه سخية بالإنفاق، ويده مطلقة بالبذل، والمسلمون نشاط اليكم، منقلبون عليكم، قد عودهم الله في لقاءكم عادة يرجون آنتظار مثلها، وأبلاهم في قتالكم بلاء من أمثالها، إن شاء الله .

وكتب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده، ومقدمه إن شاء الله من جيوشه، إلا أن تؤدّوا الجزية عن التي دعاك أمير المؤمنين إليها، وحداك ومن قبلك عليها، رحمةً للضعفاء الذين لا ترحمهم، وتوجعاً للمساكين مما لا توجع منه لهم من الجلاء والسبأ والقتل والأسر والتهر، وقساوة من قلوبكم، وأثرة لأنفسكم، واعتصاما بنحواصكم، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة، ولا تدفعون عنهم بحيلة، ولا تراقبون في الرحمة لهم والتعطف عليهم، أدب المسيح إياكم، وقوله في الكتاب لكم: "طوبى للذين يرحمون الناس، فإن أولئك أصفياء الله ونور بني آدم".

وأيّ الله لو يعلم من قبلك من المساكين والزراعيين والفقراء والضعفاء والعلمة بأيديهم، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحذروا عليه وأقبلوا إليه، من إيوائهم، وإنزاهم الأرض الواسعة، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة، والعدل عليهم بما لا تباهه أنت ولا تقاربه، رفقاً بهم ونظراً لهم وإحساناً إليهم، مع تخلّيته إياهم وأديانهم، لا يكرههم على خلافها ولا يجبرهم على

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٥ آية ٧ ج ٣ ص ٧ من الكتاب المقدس) .

غيرها ، لأختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأنقذوا أنفسهم^(١) وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة . فاتق الله وأقبل ما عرّض عليك من الجزية ، ولا يمنعك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكتك . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليحمله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الورثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية اليهم حميةً ولا تقيصة ولا عار ، والذين يقفون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقسط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظراً لدينه وخوفاً من ربه ، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، وآتفاق الأفتدة ، والنصائح في السر والعلانية ، وما عوّده الله ممن نصب له يجاذبه ورماه بمكيدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر الممين . فأبذل من الجزية ما شئت ، وسمّ منها ماهويت . وأعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجري فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قبول المهدي — رحمه الله — الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى في المجلس الواحد مرارا أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم إذ استبان له غدركم وتفضكم ونكثكم وأستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم : إلا الاسلام أو الحرب المجلية ، ان شاء الله . ولا حول بأمر المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من أتبع الهدى .

(١) في الأصل : "ولأبتدلوا ... " . (٢) كذا في الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة "ولا يمنعك الشيطان مما فيه ... الخ" فسقط هذا أو نحوه سهواً من النسخ . (٣) كذا في الأصل .

٣ - رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشيد

أما بعد، فإني أسأل الله لأمر المؤمنين في غير أموره، أحسن ما عوّده في سالفها من السلامة التي حرسه بها من المكاره، والعز الذي قهر له به الأعداء، والنصر الذي مكّن له في البلاد، والهدى الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي أدّر له به الحلب، والاستصلاح الذي آتت له به الرعية، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مستقبل به منه، أبعده خلفائه في الخير ذكراً، وأبقاهم في العدل أثراً، وأطولهم في العمر مدّة، وأحسنهم في المعاد منقلباً.

ثم نحمد الله الذي جعل نعمته على أمير المؤمنين شواهد منه على منزلته منه ومكانه عنده، لا يحتاج معها إلى شهادات المثنيين، ولا صفات المقرّبين، ثم جعل ذكر نعمته على أمير المؤمنين ومناصحتها والمجاهدة لمن كادها فريضة أوجبها على العباد، ومحبة امتحنهم بها، وفرقنا ميزه بينهم، فمن أصبح من رعيته أكثر شغله أن يستعمل لسانه في صفته، وذكّر محاسنه وفضائله، ووجوب حقه وطاعته، فقد أصبح آثراً أولى الأمور وأحسنها مغبّة في دنياه ودينه، ومن بدل ذلك عن قدرة عليه، ودفعه بعد معرفة، فلم يدعه إلا عن خذلان حاق به، أو بدعة آسما له، كانت حجة الله لأمر المؤمنين عليه هي الكافية لمؤنته. وقد كان علماء الناس وجّهاتهم يسوّون في عام المعرفة بفضل أمير المؤمنين، فأما الخاص فلاهل الفضل فيه فضّلهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على منازل ثلاث: حاسد حجب الحسد بصره عن مواقع الصواب أن يراه، والنعمة أن يشكرها، والحق أن يؤدبه، وكانت معرفته عليه وبألا، وحسده إلى الضرر به قائداً. ^(١) أو ذو هوى قاده الهوى إلى البدعة وأخرجته الضلالة من الجماعة، فهو عرضة لسوء الأدب أو سيف النكال، لم يوحش الله أحداً بفقده، ولم يعزر أحداً بمولاته. ^(٢) وموفق معصوم استنقذه [لله]

(١) في الأصل: «الغير». (٢) في الأصل: موفق معصوم ثم استنقذه بمولاة الخ.

بموالاة أمير المؤمنين من غل الحسد ويدع الآراء وجبله على صحّة الهوى ، فهو إن نظر فبعينه
 ينظر، وإن قال فبلسانه يقول ، لا يأمن حتى يعلم أنّ أمير المؤمنين قد استوّطاً مهاداً الخفّض ،
 ولا يزال له طليعة رأي توفى على خُطة حزم وغامض فطنة ، تغلغل إلى لطيف منفعتة و [تكون]
 سهم مكيدة نحو عروة ، قد علم أنّ يوم أمير المؤمنين يومه ، وأن غده غده ، فهو وإن تعرض لأداء
 الحقّ في نصيحته ينظر لنفسه نظر من لا يأمل السلامة إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه .
 وقد رجوت بالقراءة التي جعلها الله لي به ، والواجب الذي عرفته من حقه ، والعظيم الذي حملته
 من معرفته ، ألا يكون أحد ينظر إليه بعين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهله مني ، فإن أبلغ
 الذي أردت فتوفيق الله ، وإن أقصر فعن مثل ما حاولت قصر المجتهد .

فأقول ما أنا ذا كره من فضله : أنّ الله قدم له الصنع في سابق علمه ، فجعل محتده خير
 المحاند عنصراً ، ثم اختار له أباً فأباً لا ينقله من أب إلى أب إلا تقل معه وإليه فضيلة
 العنصر الذي هو منه حتى صيره بعد فضائل آبائه إلى أفضل بدنة ، فكان خير خليف من
 خير سلف ، وأفضل ولد من أفضل أبوة ، وأرضى إمام من أزكى أئمة ، ثم اختار له مكارم
 الأخلاق ، وألبسه جمال الصورة ، فلا نعم نحن ولا أبأونا خليفة أبعد في حامه من ذلك ،
 ولا في هيئته من تجر ، ولا في شدته من عنف ، ولا في لينه من وهن ، ولا في أناته من
 غفلة ، ولا في آتصاده من مجل ، ولا في بذله من إضاعة ، ولا أرق وجهها عند لقاء ،
 ولا أحسن بشرًا عند تحية ، ولا أغزر دمعاً عند موعظة ، ولا ألين قياداً عند تذكير بالله
 منه .

(٢)
 ثم أفضت إليه الخلافة وفي المال ما فيه من القلّة ، وفي الناس ما فيهم من الإحراج ،
 فما دفع عن مال يعطيه عن قلّة ، ولا قطع عادة توسعة على رعيته ، ثم استدر الحلب برقيقه ،
 فكلمّا دّر له منه شخب فوّقه طائفة من جنده حتى سقاهم بعد التفويق رياً ، وبعد النهل

(١) في الأصل : "عورة" . (٢) الإحراج : الضيق وفي الأصل . "الاستخراج" .
 (٣) الشخب (بالضم) : ما تخرج من تحت يد الحالب عند كل غمزة وعصرة للضرع . (٤) فوّقه الشيء :
 أعطاه إياه قليلاً قليلاً .

عللاً؛ ثم ساس رعيته بألين السياسة فعفا عن مذنبها ولو شاء لعاقب، وأمن خائفها ولو
 طب لأدرَك، ودفع بالحسنة السيئة ولو كافاً لقدّر، فما برح صنع الله له يفرض جموع
 الضلالة بلا قتال، ويُعزله النصر بلا مكثرة، حتى فرغ بشغله من كان لا يفرغ من الوزراء،
 ونام بسهره من كان لا ينام من العامة، وأطمأنت بنا آتته للأسفار دار من كان لا ينال
 الخفض من الجنود حتى استوطئوا مركب الأمن فكلهم صنين بمفارقة. أما ذو النية فركب
 إلى النقص. وأما من لا يبدله ففعل ما كان يؤخذ به من الاستكراه. وأما الحشر من الجند
 والرعاغ فغلبت عليهم عادة الهوينا، حتى لو رأيناه يجذبه الأمر فما يجد له الأمر غناءً عنده
 ولا نشاطاً ولا حداً إن وكله إلى قوته، وقواه بماله.

فلما رأى ما رأى من تحاذل العامة، وتواكل الجنود، ونزور النعماء، وجمود الحباب،
 وأستكلاب العمال على الخيانة، وجرأة الرعية على منع الحق، ومال الفراغ بكثير من الناس
 عن القصد، فتحزكت الأهواء، وأستعرت نيران العصبية، وجاشت صدور الحسدة
 وأشياءهم بالأمانى، وظنوا أن لا شدة معه، وأن عفوه لا تكبير بعده، وأمير المؤمنين
 يرمقهم بعين بصيرة، وأذن مصيخة، وقلب يقظان، وقد وفر الحلم أن يخف لأول بوادر
 السفهاء، فهو ينتظر بالمُدبر أن يقبل، وبالمسائد أن يعتدل، وبالمغلوب على رأيه أن يتذكر
 فيبصر، شمر في إثرهم تسمير من قدم الروية قبل العجلة، والعفو قبل العقوبة، والتثبت
 قبل الإقدام، فاتخذ روابط أتعجها على الجسد والنشاط، ليست لهم سوابق تدعوهم إلى
 الإدلال، وتسمو بهم إلى كثير لم ينالوه، إنما همهم أن يتفاضلوا في النجدة، ويستوجبوا
 بالغناء، ثم تفرقهم على خواص خدمه، فإذا أراد أن يتناول بهم فرصة ممكنة، أو عدواً غاط،
 أوراتق قتيق قبل الساعة، يغمس يديه إلى أيهم أراد، فينفذ لأمره ولم يشركه فيه مشير،
 ولم يخرج به توقع، ولم يخص فيه عامة، ولم يطلع منه على مكيدة، فلم نعلم أننا رأينا جنداً

(١) في الأصل: « بمفا آته » . (٢) في الأصل: « إن وكله إلى قوته ولا نشاطاً ولا حداً وقواه

بماله » . (٣) غاط: دخل .

أسرع نهضةً إذا مروا ، وأحسن إجابةً إذا دُعوا ، وأفضل غناءً إذا استكفؤا من جنده .
ثم قصّد بنفسه حتى مثل بين النواحي الى أهمها له فسأداً في البيضة ، وانتقاصاً من
الأطراف ، فأتى ناحية الشام فوطئها وطأة جمع الله بها لهم شتات الفرقة ، وأحمد بها بينهم
نار الفتنة .

وأما الجزيرة فإنه ألناها وهي كالجرح النعل ، فاستأصل الله به منها شافة الداء ، وأطفأ به
عنها بوادير السفهاء ، وخير أمير المؤمنين من منزله الذي هو به منزلاً جمع من بسطته
في الموضع ، ورفاهيته في المعاش ، أنه حامل للجنود ، جامع للرافق ، فباشر أمره أمراً ،
حتى إذا استدبر له منها مبرم ، استقبل بعده جسماً منقضى ، وإذا أشخ من ثغوره نغراً
لم يرض حتى يفتح من حصون أعدائه حصنا ، وإذا قضى الله عنه حجة ، وصل خطوه
منها عزاً ، ثم رأينا ما عزم الله به عليه من ترك الصوائف مراقباً للذي كان من غموط
أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة ، فلم نتشكك في أنه توفيق من الله له وافق سُخْطاً
عليهم حتى استباحوا الحرم ، وتسافكوا الدماء ، ونقضوا ما بينهم من مبرم حبيل الإسلام .

ومن ذلك أن أرمينية كانت فيها جنود تُخرج عليهم أطاع تحمل اليها ، بعد أعرافهم
بإخراجهم الأموال من كور الشام ، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا ، فلم يتوكل على الله في أمر
فوكله الى نفسه ، ولم يكتف به في حفظ طرف أو قاصية نغراً إلا كفاه مؤنته ، وعلم أن
ما يدخل من أضعاف العافية من عوارض العلل ، إنما هو بتقدير من الله لا يمتنع بعدر ،
ولا يُستطاع دفعه بحيلة ، يصيب فيه أقواماً بالبلايا والتحصيص ، ويقسم فيه لأقوام الأجر
والجهاد والسعادة ، فرأى أن في عاجل ما يرفع عن أهل أرمينية من ضرر مؤنتهم
وغمطهم نفعاً للرعية ، وإجمالاً للفقى ، ورفقاً بالعامة مع اقتصاده في الأبواب على أكاف
سجيتها ، وفي سائر أرمينية على المقاتلة من أهلها ، ولم يزل منذ أراه الله ذلك ، يكفيه مؤونة
ذاك الثغر ، ويكف عنه بوائقه ، حتى كأنه في هدوء الأحداث عنه ، وسكون الأفتدة من

(١) الصوائف : جمع صائفة وهي الغزوة في الصيف .

رَوَعَاتِهِ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَاسِطُ الْحَمَلَةِ مَأْمُونُ النَّارِ . فَلَمَّا آغْنَمَ حَاقَانَ مَا آغْنَمَ ، وَآتَهَزَ
 الْفُرْصَةَ مُبَادِرًا ، لِمَا قَدْ اِيْتَنَ مِنْ مَعَالِجَةِ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُ ، فَكَأَنَّهُ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ إِعْظَامِهِ
 إِيَّاهُ بِسَبَبِهِ لَهُ ، وَمَا أَنْصَبَ فِيهِ مِنْ بَدَنِهِ ، وَأَسْهَرَ فِيهِ مِنْ لَيْلِهِ ، وَأَنْصَبَ فِيهِ مِنْ نَهَارِهِ ، لَمْ يَعْلَمْ
 الَّذِي يَكُونُ مِنْ أَشْتَبَاهِهِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَهُ ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ لِحُدُوثِ عَالَمٍ ، غَيْرَ أَنَّ حَمِيَّتَهُ
 لِلْإِسْلَامِ وَشَفَقَتَهُ عَلَيْهِ وَامْتِعَاضَهُ مِنْ أَنْ يُنَاوِلَ شَيْئًا مِنْ أَطْرَافِهِ ، قَدْ زَادَ ذَلِكَ عِنْدَهُ قَدْرًا
 فِي الْعِظَمِ ، وَتَفَانًا فِي الْخَطْبِ ، حَتَّى أَكْمَلَ الْبَعْثَ بِأَكْثَرِ الْعُدَدِ ، وَأَكْمَلَ الْعُدَّةَ ، وَأَسْتَقْبَلَ
 أَهْلَ الْكُورِ وَالْأَمْصَارِ ، وَنَدَبَ لَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَنْ لَمْ يَتْرِكْ بَعْدَهُ نَهَائِيَّةً فِي التَّخْيِيرِ ، وَكَانَ
 قَدْ صَرَفَ بِاللَّهِ إِلَى هَذَيْنِ الثَّغْرَيْنِ مِنَ الْخَزَرِ وَالرُّومِ ، وَإِلَى هَذَيْنِ الْعَسَدَيْنِ الْمَحَارِبَيْنِ لَهُ مِنْ
 الْمَارِقَةِ الْمُتَعَصِّبَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ اللَّهُ فِي إِحْكَامِ أَمْرِهِمَا مَا بَلَغَ ، لَمْ يَسْتَعْنِ عَنِ إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي أَمْرٍ غَيْرِهِمَا مِنْ
 نَوَاحِيهِ لِيَسْتَبْرَأَ بِهِ ، وَوَرَادَتِهِ فِي أَقْوَامٍ يُدَافِعُ ظُنُونَهُمْ بِهِ فِي أُخْرَى ، وَعَلِمَ غَيْرَهُمَا أَنَّ مَا شَمِلَ
 مِنْ بَمْدِينَةِ السَّلَامِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْفِرَاقِ نَتِيجَةٌ مَكْرُوهَةٌ ، فَشَخَّصَ عَنْهَا لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ مُؤَرَّأً
 لِأَبْغَضِ وَطَنِيهِ عَلَى أَحَبِّهِمَا وَأَحْسَنَ عَيْشِيهِ عَلَى أَلْيَنِهِمَا ؛ فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ الْعَوْرَةُ أَقْدَمَ إِقْدَامًا
 ذِي الْحُجَّةِ ، فَلَمْ يَرْمِلْهَا نَارًا حَبَّتْ ، وَسَحَابَةً أَقْشَعَتْ ، لَمْ يَسْفِكْ بِهَا دَمَ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٍ صَبْرًا ،
 وَلَمْ يَتَّكِفْ فِيهَا حُرْمَةَ مُحَرَّمٍ إِبَاحَةً .

وَذَلِكَ أَنَّهُ بَسَطَ يَدَهُ بَسْطًا مِنْ يُرِيدُ الْأَسْتِصْلَاحَ لَا مِنْ يُرِيدُ الْأَنْتِقَامَ ، فَلَمْ يَلْبَثِ الظَّالِعُ
 أَنْ رَجَعَ عَنِ ظَلْعِهِ ، وَالنَّاطِقُ أَنْ صَمَّتْ عَنِ بَدْعَتِهِ ، وَالنَّاكِثُ أَنْ رَجَعَ إِلَى قَصْدِهِ ، وَأَزْدَادُ
 الْبَرِيءِ عَلَى الْبِرَاءَةِ فَرِحُوا ، وَالسَّلَامُ بِالسَّلَامَةِ آغْتَبَاطًا ، وَلَمْ نَرِ مِثْلَهُ فِيمَا أَفْضَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ
 خِلَافَتِهِ ، وَحَمَلَهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ ؛ أَمَا لَيْلُهُ بِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ فِيهَا وَاسْتِعَانَتِهِ إِيَّاهُ عَلَيْهَا فَسَاهِرٌ ؛
 وَأَمَا نَهَارُهُ فِي حَلْبِ فِيئِهَا وَإِحْكَامِ أُمُورِهَا فَتَعَبٌ ؛ وَأَمَا صَدَقَاتُهُ عَلَى فَقَرَائِهَا وَأَهْلِ الْحَاجَةِ
 بَخَارِيَّةٌ ؛ وَأَمَا مَجْلِسُهُ مِنْ فُقَهَائِهَا وَصُلَحَائِهَا فَغَاثٌ ؛ وَأَمَا غَلْظَتُهُ عَلَى ظَالِمِهَا فَعَتِيدَةٌ ؛ وَأَمَا
 أَفْضَالُهُ لِمَظْلُومِهَا فَمَبْسُوطَةٌ ؛ وَلَئِنْ كَانَ الْحَقُّ أَلْزَمَ أَقْوَامًا اسْتَوْجَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ،

إننا لنعلم أن ما ترك أكثر، وأنه لولا ما خفف من الوطأة على أقوام لحمل الواحد منهم مثل الذي حمّله للجميع ، ولكنه رضى بالعفو، وبتخا نفساً عن الاستقصاء، فأوجب أن يبسط يداً بغلظة ويتبعها أخرى بلين؛ فكان من ذلك نظره في هذه البقايا التي هي فيء المسلمين ومال الله ، غير أن الله جعله قيمه فيه ، وفي أخذه صرفه في وجوهه ؛ فلما رأى ضراوة العمال بها ومصانعتهم دونها ، وأن قد صارت كالتسنة اللازمة لا يدعها عفيفهم تورعاً ، ولا شريفهم تزهاً ، أحبّ مع توفيره للمسلمين فيهم ، أن يحدث لهم أدباً يقطع به عنهم أهل الضراوة ، ويعرف به ذوو الاستخفاف بالأمانة ، والأمر للتبعة ؛ أن عليهم من تفقده وأدبه عيناً ترمق ، ويداً تقبض ، ولو أنه حين هم بأخذ تلك البقايا حمل على المؤسر بقدر يساره ، وأخذ المُعسر بطاعته ، كان قد أنصف ، كلاً ! ولكنه أحب أن يستبق قوة ، ولا يبلغ من المكثِر جهداً ، واقتصر بهم على العشر من ذلك ، كرمًا في القدرة حين رأى موضع الرفق ، وتجاقٍ عن العلة حين عرف مكان القدر؛ فأى نعمة أعظم ، وأى بلاء أحسن من هذه البقايا ! كانت في أيديهم جُمَامًا ، فلما أطلع طلعها ، وأخذ ما أخذ ، وترك ما ترك ، محلاً مع ما جعل الله في ذلك من [كلمات] المقصّر من العمال المؤذية التي لم تكن تعدو أفواههم ، فليس منهم أحدٌ إلا وكان منه له واعظ ألا يكسر شيئاً من الخراج تضييعاً ، أو يأخذ غلواً^(١) أو يُنْفِقه إسرافاً ، أو يتركه إرهاباً .

فلما تفرغ من علاج الداء الخوف وأستأصله ، ومن النوى المتفرق بجمعه ، ومن الأمور المعطلة فأحكّمها ، أستخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر ، ولا إضاعة عن حفظ ، ولا لين عن تشدد ، ولا يستحل الأكل عن نقض ما أبرم ، ولا مُزاولة ما أحكم ، ولا فتح ما أغلق ، ولا إغلاق ما فتح ، فلان خيرة أبويه ، وُح بِيضته ، وجوهر أرومته ، الفأيت سبباً ، اللين عدواً ، الراسخ عرقاً ، المنفجر بحراً ، المحمود أمراً ، القائل فصلاً ،

(١) الضراوة : اللهج بالشيء والإغراء به . (٢) في الأصل : « لهم » والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وضعنا هذه الكلمة لأنها تتفق والسياق ، ومكانها في الأصل بياض . (٤) الغلول : الطعام أو الشراب

الذي يدخل في الجوف .

الحاكم عدلاً، ثم أنصرف بما أفاده الله من الأجر الى جناحه الذي كان مده على من خلف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سلبلة صلبه، وثمره قلبه، أحتتكَ مع فتاء سنه عقلاً، والمأمون مع شدة شكيمة حملاً، والمحصد مع لينه وتعطفه أمراً، الشبيهه بأمر المؤمنين إن نطق نطقاً، وإن نظر لحظاً، وإن سُئِلَ جوداً، وإن اهتصر عوداً، وإن ساس رفقا، وإن غضب حملاً، وإن وصف علماً، وإن كُلم فهماً، وإن قدير عنواً، وإن لقي بشراً، وإن نازع قلباً، وإن قارع ظفراً، فكان عند ظنه به، رعايةً للحُرمة، وحرماً في المكيدة، وحلباً للنفى، وحياطةً للغائب، ومباشرةً للشاهد؛ هذا قليلاً من كثير. مما جعلك الله أهله، وإنما اقتصرْتُ عليه لاني رأيت المتكلمين من الخطباء تركوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببتُ أن يعلم أمير المؤمنين أن له في كل أمرٍ عمل به في رعيته حجة واضحة، وعذراً معروفاً، إن قام به متكلمٌ في خاصةٍ حسن موقعه، وإن قُرى به كتابٌ في عاقبة، قويته به حجته.

والحمد لله الذي جعله وذريته أولياء هذه النعم، والخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يُقيمه وإياهم للدين الذي سد بهم عورته، والحق الذي أقر بهم جادته، والعدل الذي أوضح بهم أعلامه، حتى يكونوا ورثة هذه الأمة وخلفاءها في غابر الدهر، وباقيات الأيام؛ مستقلين بالعدل، موقنين للسداد، معصومين من الشبهات، مستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المعاد. والسلام.

(١) هذه الرسالة ورسالة أبي الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور.

كتب الرشيد

١ - كتاب عهد البيعة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحبة من عقله ، وجواز من أمره ، طائعا غير مكره ، إن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده ، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعا ، وولي عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين بعدى ، برضا منى وتسلم ، طائعا غير مكره . وولاه خراسان وثغورها ، وكورها وحرابها ، وجندتها وخراجها ، وطرازها وبريدها ، وبيوت أموالها وصدقاتها ، وعشرها وعشورها ، وجميع أعمالها في حياته وبعده ، وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا منى وطيب نفس ، أن لأخى عبد الله بن هارون على الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين : من العهد والولاية والخلافة ، وأمور المسلمين جميعا بعدى ، وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها ، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعة ، أو جعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه ، أو ابتاع من الضياع والعقد ، وما أعطاه في حياته وصحته من مال ، أو حلي أو جوهر ، أو متاع أو كسوة ، أو منزى أو دواب ، أو قليل أو كثير ، فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، موقرا عليه مسأما له . وقد عرفت ذلك كله شيئا شيئا ، فإن حدثت بأمر المؤمنين حدث الموت ، وأفضت الخلافة الى محمد بن أمير المؤمنين ، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين ، في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ، ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين ، وأن يمضى عبد الله بن أمير المؤمنين الى خراسان والرى ، والكور^(٢)

(١) هذا العهد ورد في تاريخ يعقوبى (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعه ليدن) وفيه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا

عن الطبرى . (٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره، من سلطان أمير المؤمنين، وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الرى إلى أقصى عمل خراسان، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائدًا ولا مقودًا ولا رجلا واحدًا ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين؛ ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين : من ثغور خراسان وأعمالها كلها، ما بين عمل الرى مما يلي همدان إلى أقصى خراسان، وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها ولا شخضه إليه؛ ولا يفرق أحدًا من أصحابه وقواده عنه، ولا يؤلى عليه أحدًا، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره ^(١) بندارًا ولا محاسبًا ولا عاملاً، ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضررًا، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتديره، ولا يعرض لأحد من ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته، وقضاته وعماله، وكتابه وقواده، وخدمه ومواليه وجنده، بما يلمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم، ولا قراباتهم ولا مواليتهم، ولا أحد يتنسل منهم؛ ولا في دمائهم ولا في أموالهم، ولا في ضياعهم ودورهم، ورباعهم وأمتعتهم، ورقيقهم ودوابهم، شيئًا من ذلك صغيرًا ولا كبيرًا؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له في ذلك، وإدهان منه فيه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم، ولا أحد من قضاته ومن عماله، ومن كان بسبب منه، بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضاته؛ وإن نزح إليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته، وقواده وعماله وكتابه وخدمه، ومواليه وجنده، ورفض اسمه ومكتبته ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين، عاصيا له، أو مخالفا عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، بصغر له وقماء ^(٢)، حتى ينفذ فيه رأيه وأمره؛ فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين

(١) البندار: الحافظ . (٢) القماء: الذل والخضوع .

عن ولاية خراسان ، ونغورها وأعمالها ، والذي من حدّ عملها مما يلي همدان ، والكُور التي سمّاها أمير المؤمنين في كتابه هذا ، أو صرفَ أحدٍ من قواده الذين ضمّهم أمير المؤمنين إليه ، ممن قدّم قَرَمَاسين ، أو أن يَنْتَقِصَه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بجيلةٍ من الحِيل ، صَغُرَتْ أو كَبُرَتْ ، فَعَبَدَ اللهُ بن هارون أمير المؤمنين الخلافةَ بعد أمير المؤمنين ، وهو المُقَدَّم على محمد بن أمير المؤمنين ، وهو وليُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطَّاعَةُ من جميع قواد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العطاء ؛ وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيامُ معه ، والمُجَاهِدَةُ لمن خالفه ، والنَّصْرُ له والدَّبُّ عنه ، ما كانت الحياةُ في أبدانهم ، وليس لأحدٍ منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يعصيه ، ولا يخرج من طاعته ؛ ولا يطيع محمد بن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصرفِ العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو تنقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، في حياته وصحته ؛ وأشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام ، وفي هذا الكتاب ؛ وعبدُ الله بن أمير المؤمنين المصدّق في قوله ، وأتم في حلٍّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، إن نقص شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن يتقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ، ويُسَلِّمَ له الخلافةَ ؛ وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله بن أمير المؤمنين ، أن يخلعا القاسمَ بن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدّما عليه أحداً من أولادهما وقرباتهما ، ولا غيرهم من جميع البرية ؛ فإذا أفضت الخلافةُ إلى عبد الله بن أمير المؤمنين ، فالأمرُ إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرفِ ذلك عنه إلى مَنْ رَأَى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، وتصيير القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحبَّ ورأى ؛ فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ؛ وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهدُ الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذم المسلمين ، والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المُقَرَّبِينَ والنبيين والمرسلين ، وكذلك في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لَتَفَنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سَمِيَ ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بنى أمير المؤمنين بما سَمِيَ ، وكتب في كتابه هذا وأشترط عليكم ، وأقررتم به على أنفسكم ؛ فإن أتمم بدلتم من ذلك شيئا ، أو غيرتم أو نكحتم ، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، وأشترط عليكم في كتابه هذا ، فبرئت منكم ذمة الله ، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذم المؤمنين والمسلمين ، وكلُّ مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين ، وعلى كلِّ رجل منكم المشى إلى بيت الله الحرام الذى بمكة خمسين حجة ، نذرا واجبا ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك ؛ وكلُّ مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة حربا ، وكلُّ امرأة له فهي طالق ثلاثا البتة ، طلاق الحرج لا مثنوية فيها ، والله عليكم بذلك كفيلا وراع ، وكفى بالله حسيبا .

٢ - نسخة الشرط الذى كتب عبد الله بن أمير المؤمنين

بخط يده فى الكعبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، فى صحفة من عقله ، وجواز من أمره ، وصدق نية فيما كتب فى كتابه هذا ؛ ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين .

إن أمير المؤمنين هارون ولانى العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين فى سلطانه ، بعد أخى محمد بن هارون ؛ وولانى فى حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لى من الخلافة ، وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لى فى شىء مما أقطعتنى أمير المؤمنين ، وأبتاع لى من الضياع والعقد والرابع ، وأبتعت منه من ذلك ، وما أعطانى أمير المؤمنين من الأموال ، والجواهر والكساء ، والمتاع والدواب ، والرقيق وغير ذلك ؛ ولا يعرض لى ولا لأحد من

عمالى وكتّابي بسبب محاسبة، ولا يتبع لى فى ذلك، ولا لأحد منهم أبداً؛ ولا يُدخل على ولا عليهم، ولا على من كان معى؛ ومن استعنت به من جميع الناس مكرهاً فى نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير، فأجابته الى ذلك وأقر به، وكتب له كتاباً أكد فيه على نفسه، ورضى به أمير المؤمنين هارون، وقبله وعرف صدق نيته فيه؛ فشرطت لأمر المؤمنين، وجعلت له على نفسى أن أسمع ل محمد، وأطيع ولا أعصيه؛ وأنصح ولا أغشه، وأوفى ببيعته وولايته، ولا أعد ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأمره، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه فى ناحيتى؛ ما وقى لى بما شرطت لأمر المؤمنين فى أمرى، وسمى فى الكتاب الذى كتبه لأمر المؤمنين، ورضى به أمير المؤمنين، ولم يتبعنى بشيء من ذلك، ولم يتقص أمراً من الأمور التى شرطها أمير المؤمنين لى عليه؛ فإن أحتاج ل محمد بن أمير المؤمنين إلى جند، وكتب لى بأمرنى بایشخاصه إليه، أو إلى ناحية من النواحي، أو إلى عدو من أعدائه خالفه، أو أراد نقص شيء من سطاتنه أو سلطانى الذى أسنده أمير المؤمنين إلينا، وولانا إياه، فعلى أن أنفذ أمره، ولا أخالفه ولا أقصر فى شيء كتب به لى؛ وإن أراد ل محمد أن يولّى رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدى، فذلك له ما وقى لى بما جعله أمير المؤمنين لى، وأشرطه لى عليه، وشرط على نفسه فى أمرى؛ وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له به لا أنقص من ذلك ولا أغيره ولا أبدله ولا أقدم قبلاً أحداً من ولدى ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين؛ إلا أن يولّى أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدى، فيلزمنى ومحمداً الوفاء له، وجعلت لأمر المؤمنين ومحمد على الوفاء بما شرطت وسميت فى كتابى هذا، ما وقى لى ل محمد بجميع ما اشترط لى أمير المؤمنين عليه فى نفسى، وما أعطانى أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسماة فى هذا الكتاب الذى كتبه لى؛ وعلى عهد الله وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين وذمتى، وذم أبائى وذم المؤمنين؛ وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكدة التى أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن تقضها وتبديلها؛ فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت

وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عز وجل،
ومن ولايته ودينه، ومجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله يوم القيامة كافرا
مشركا؛ وكل امرأة هي لي اليوم، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتة، طلاق
الحرج؛ وكل مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلى المشي
إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذرا واجبا على في عني، حافيا راجلا لا يقبل
الله مني إلا الوفاء بذلك؛ وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة، وكل
ما جعلت لأمر المؤمنين، وشرطت في كتابي هذا لازم لي، لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره.
وشهد سليمان بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة.

٣ - نسخة كتاب الرشيد الى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله ولي أمير المؤمنين وولي ما ولاه، والحافظ لما آسترعاه، وأكرم به
من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدم وأخر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييد
في مشارق الأرض ومغاربها، والكافي والحافظ والكافي من جميع خلقه، وهو المحمود على
جميع آلائه، المسئول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمر المؤمنين وعادته الجميلة عنده،
والهام ما يرضى به ويوجب له عليه أحسن الميزان من فضله؛ وقد كان من نعمة الله
عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله
أخي أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة ومدت إليه أعناقها، وقذف الله لها
في قلوب العاقمة من المحبة والمودة والسكون اليهما والثقة بهما لإعاد دينهم وقوام أمورهم
وجمع ألفتهم وصلاح دهمائهم ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا
اليهما أزمتهما، وأعطوهما بيعتهما، وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة
عليهم؛ وأراد الله فلم يكن له مرد، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته،
ولا صرف له عن محبته ومشيتته، وما سبق في علمه منه؛ وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة

عليه وعليهما في ذلك، وعلى الأمة كافة لاعاقب لأمر الله ولا راداً لقضائه ولا معقّب لحكمه؛ ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين يُعْمَلُ فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاح لهما وللجميع الرعية؛ والجمع للكلمة، واللّم للشعث، والدفع للشئات والفرقة، والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق، والغل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها واتهازا، منهما بانتقاص حقهما، ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما، وللجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وأتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النعم، وردّ حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزم الله لأمر المؤمنين على الشُّخُوص بهما الى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمر المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره، وأكتاب الشرط على كل واحد منهما لأمر المؤمنين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود، وأغلظ الأيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما آتمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتها وموتتها وتواصلها ومؤازرتها ومكاتفتهما على حسن النظر لأنفسهما، ولرعيّة أمير المؤمنين التي آسترعاهما، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسنن نبيه صلى الله عليه وسلم، والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدوٍّ مُظْهِرٍ للعداوة ومُسرِّها، وكل منافق ومارق، وأهل الأهواء الضلالة المضلّة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، وبدحس يدحس به لهما، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء الى البدع والضلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته، وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومناصحة لله وللجميع المسلمين، ودباً عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذي حمّله إياه؛ والاجتهاد في كل ما فيه قرينة الى الله، وما ينال به رضوانه والوسيلة عنده .

فلما قَدِمَ مَكَّةَ أَظْهَرَ مُحَمَّدَ وَعَبْدَ اللَّهِ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ وَمَا نَظَرَ فِيهِ لِهَما، فَقَبِلَا كُلَّ مَادَعَاهِما
إِلَيْهِ مِنَ التَّوَكِيدِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِقَبُولِهِ ، وَكَتَبَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَطْنِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِمَخْطُوطِ
أَيْدِيهِمَا بِمَحْضَرٍ مِنْ شَهِدِ الْمَوْسِمِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوَادِهِ ، وَصَحَابَتِهِ وَقُضَاتِهِ ، وَحُجَّجَةِ
الْكَعْبَةِ وَشَهَادَاتِهِمْ عَلَيْهِمَا ، كَتَابَيْنِ آسْتَوْدَعَهُمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَجْبَّةَ ، وَأَمْرًا بِتَعْلِيْقِهِمَا فِي دَاخِلِ
الْكَعْبَةِ ؛ فَلَمَّا فَرَّغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ كَلَّمَهُ فِي دَاخِلِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَبَطْنِ الْكَعْبَةِ ؛
أَمْرَ قُضَاتِهِ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمَا وَحَضَرُوا كِتَابَهُمَا أَنْ يُعْلِمُوا جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ الْمَوْسِمَ مِنَ الْحَاجِّ
وَالْعُمَّارِ وَوَفُودِ الْأَمْصَارِ ، مَا شَهِدُوا عَلَيْهِ مِنْ شَرْطِهِمَا وَكِتَابِهِمَا وَقِرَاءَةِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، لِيُفَهِّمُوهُ
وَيَعُوهُ وَيَعْرِفُوهُ وَيَحْفَظُوهُ وَيُؤَدُّوهُ إِلَى إِخْوَانِهِمْ وَأَهْلِ بِلْدَانِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ ،
وَقُرِئَ عَلَيْهِمُ الشَّرْطَانِ جَمِيعًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ؛ فَانصَرَفُوا وَقَدْ آسْتَهَرُوا ذَلِكَ عِنْدَهُمْ ، وَأَثْبَتُوا
الشَّهَادَةَ عَلَيْهِ ، وَعَرَفُوا نَظَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِنَايَتَهُ بِصَلَاحِهِمْ ، وَحَقَّنَ دِمَائِهِمْ وَلَمْ شَعَثْهُمْ ،
وَإِطْفَاءَ جَمْرَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ ، وَأَظْهَرُوا الدُّعَاءَ
لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالشُّكْرَ لِمَا كَانَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ نَسَخَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذِيكَ الشَّرْطَيْنِ
الَّذِينَ كَتَبَهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ آبْنَاهُ مُحَمَّدُ وَعَبْدُ اللَّهِ فِي بَطْنِ الْكَعْبَةِ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ هَذَا ؛
فَأَحْمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا صَنَعَ لِمُحَمَّدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ وَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا ، وَأَشْكِرُهُ
بِبِلَائِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِنْدَ وَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَكَ وَعِنْدَ جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا ؛ وَأَقْرَأَ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْهَمَهُمْ إِيَّاهُ ،
وَقُمَّ بِهِ بَيْنَهُمْ وَأَثْبَتَهُ فِي الدِّيْوَانِ قَبْلَكَ ، وَقَبَلَ قَوَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَعِيَّتَهُ قَبْلَكَ ، وَأَكْتُبُ إِلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ ، وَبِهِ الْحَوْلُ
وَالْقُوَّةُ وَالطَّوْلُ . كَتَبَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَبْعِ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةِ
سِتِّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .

باب المنظوم

صوّرنا لك بالمجلد الأوّل حالة الشعر في صدر الدولة العباسية وذكرنا لك جملةً صالحة من شعراء ذلك العصر ووعدناك بذكر مختارات من شعرهم ، وإليك ما وعدناك به .

١ - بَشَّارُ بْنُ بُرْدِ الْعُقَيْلِيِّ (١)

سأله المهديُّ لما دخل عليه فقال له : فيمن تُعَدُّ يا بَشَّارُ؟ فقال : أَمَا اللِّسَانُ وَالزُّبِّيُّ
فَعَرَّيَّانُ ، وَأَمَا الْأَصْلُ فَعَجَّيِّيُّ ، كَمَا قُلْتُ فِي شِعْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ :
وَبَنَيْتُ قَوْمًا بِهِمْ جَنَّةٌ * يَقُولُونَ مَنْ ذَا وَكُنْتُ الْعَلَمَ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِيُّ جَاهِدًا * لِيَعْرِفَنِي أَنَا أَنْفُ الْكُرَمِ

(١) هو أبو معاذ بشار المرث بن برد ، أشعر نخضريّ الدولتين ، ورأس الشعراء المحدثين ، وممهد طريق الاختراع ، والبديع للفتننين ، وأحد البغاة المكفوفين . وأصله من فرس طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة ، ووقع ملك أويوه لبني عقيل بن كعب ، فنشأ بشار فيهم وتربى في منازلهم ، واختلف إلى الأعراب الضاريين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر . وكان أكمه مجدور الوجه ، قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخّم الجثة ، متوقد الذكاء ، صادق الحس ، لطيف الدراية ، شديد الحجب والاستخفاف بالناس ، كثير الاستهتار بالدين ، قليل المبالاة للوقوع فيه ، متهمًا بالزندقة شعوبيا ، متعصبا على العرب ، شديد التبرم بالناس ، نهاشا لأعراضهم ، لا يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرفه ، فانه إن لم يصبه في عرضه أصابه في ماله . وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، وما بلغ الحلم إلا وهو محشّي معزة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر ونقدته على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسبقهم إلى معاطاة البديع ، وطرق أبواب الحجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري والهجاء المقذع .

وأنه أوّل من جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، ووفق عن المعاني الدقيقة ، والأخيلة اللطيفة ، حتى عدّ شعره برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة . وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التي عرفت قبله وأراني عليها ، وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والخروج به عن الحدّ المألوف عند أهل زمانه ، حتى أنكزه عليه العلماء والمتورعون لما رأوا من سوء أثره في شبان البصرة . وقد نهى المهدي عن التشبيب ، فكان إذا مالت له نفسه يذكر منه ما يشاء ويقول : إن الخليفة منعه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن حرّمه الجائزة ، وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان متورعا ، فهجاهما ، فكان ذلك إلى زندقته سبب قتله . توفي سنة ١٦٧ هـ وقد نيف على التسعين . وتجد ترجمته في الأغاني (ج ٣ ص ١٩ وج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والفهرست (ص ١٥٩) .

نمت في الكرام بنى عامر * فروعى وأصلي قرئش العجم
فإني لأغنى مقام الفتى * وأصبي الفتاة فما تعصم

وكان أبو دلامة حاضراً ، فقال : كلاً ! لوجهك أقبح من ذلك ، وجهي مع وجهك ،
فقال بشار : كلاً ! والله ما رأيت رجلاً أصدق على نفسه وأكذب على جليسه منك ، والله
إني لطويل القامة ، عظيم الهامة ، تام الألواح ، أتجج الخدين ، ولرب مسترعى المزورين
لعين فيه مراد . ثم قال له المهدي : من أي العجم أصلك ؟ فقال : من أكثرها
في الفرسان وأشدّها على الأقران ، أهل طخارستان ؛ فقال بعض القوم : أولئك الصغد ،
فقال : لا ! الصغد تجار ؛ فلم يرد ذلك المهدي .

وكان بشار كثير التلون في ولائه ، شديد التشيع والتعصب للعجم ، مرة يقول يفتخر

بولائه في قيس :

أمنت مصرة الفحشاء إني * أرى قيساً تشب ولا تضار^(١)

كان الناس حين تغيب عنهم * نبات الأرض أخطاه القطار

وقد كانت تدمر خيل قيس * فكانت تدمر فيها دمار

بحي من بني عيلان شوس * يسير الموت حيث يقال ساروا

وما نلقاهم إلا صدرا * يرى منهم وهم حرار

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم * مولى العريب بخد بفضلك فانخر

مولاك أكرم من تميم كلها * أهل الفعال ومن قرئش المشعر

فارجع الى مولاك غير مدافع * سبحان مولاك الأجل الأكبر

وقال يفتخر بولاء بني عقيل :

إني من بني عقيل بن كعب * موضع السيف من طلى الأعناق

(١) تشب : تزداد وترتفع .

وولد بشار أعمى، فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره،
 فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله؛ فقليل له يوما وقد أشد قوله :
 كأن مثار التّع فوق رءوسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبهُ
 ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئا فيها؟
 فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء،
 فيتوفر حسه وتذكو قريحته؛ ثم أنشدهم قوله :

عميت جنينا والذكاء من العمى * بخت عجب الظن للعلم مؤثلا
 وغاص ضياء العين للعلم رافدا * بقلب إذا ما ضيع الناس حصلا
 وشعر كتنور الروض لاءمت بينه * بقول إذا ما أحرن الشعر أسهلا

وكان من أشد الناس تبرّما بالناس . وكان يقول : الحمد لله الذي ذهب ببصرى .
 فقليل له : ولم يا أبا معاذ؟ قال : لثلا أرى ما أبغض .

قال الأصمعي : بشار خاتمة الشعراء، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضّلتُه على كثير منهم .
 وقيل لأبي عبيدة : أمر وان أشعر أم بشار؟ فقال : حكم بشار لنفسه بالاستظهار،
 إنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد، ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية
 والإسلام هذا العدد، وما أحسبهم برزوا في مثلها، ومروان أمدح للوك .

وسئل الأصمعي عن بشار ومروان أيهما أشعر؟ فقال : بشار؛ فسئل عن السبب لذلك؛
 فقال : لأن مروان سلك طريقا أكثر من يسلكه، فلم يلحق بمن تقدّمه وشركه فيه من كان
 في عصره، وبشار سلك طريقا لم يسلكه وأحسن فيه وتفرد به، وهو أكثر تصرفا وفنون
 شعر، وأغزر وأوسع بديعا، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل .

وقيل لبشار : ليس لأحد من شعراء العرب شعرا إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب
 من ألفاظهم وشك فيه، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه؛ قال : ومن أين يأتيني الخطأ؟
 وولدت ها هنا، ونشأت في مجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عتيل ما فيهم أحد يعرف كلمة

من الخطأ، وان دخلت الى نسائهم فנסأؤهم أفصح منهم، وأُيْفَعْتُ فَأَبْدَيْتُ^(١) الى أن أدركتُ،
فمن أين يأتيني الخطأ؟ .

كان جرير بن المنذر السدوسي يفاخر بشارا، فقال فيه بشار :

أمثل بني مضرٍ وأئمل * فقصدتُك من فاجرٍ ما أجنُّ

أفي النوم هذا أبا منذرٍ * خفيرا رأيت وخيرا يُكَنُّ

رأيتُك والفخر في مثلها * كعاجنة غير ما تطحج .

كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة، فراسلها يسألها زيارته، فوعده بذلك ثم
أخلفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأته أرسل اليها ليعاتبها فأعدت بمرض
أصابها، فكتب اليها بهذه الأبيات :

يا ليلتي تزدادُ نُكْرًا * من حُبِّ من أحببتُ يكرأ

حوراء ان نظرت الي * بك سقنتك بالعينين نحرأ

وكأن رجع حديثها * قطع الرياض كسين زهرأ

وكأن تحت لسانها * هاروت ينقث فيه سحرأ

وتخال ما جمعت علي * ه شيأها ذهبأ وعطرأ

وكأنها بردُ الشرا * ب صفا وصادف منك فطرأ

حينئذ إنسيية^س * أو بين ذاك أجل أمرأ

وكفك أني لم أخط * بسكاة من أحببتُ خبرأ

إلا مقالة زائرٍ * تترت لي الأحرار تثرأ

متخشسا تحت المسوى * عشرا وتحت الموت عشرأ

وكان إسحاق الموصلي لا يعتد بشار ويقول : هو كثير التخليط في نثره، وأشعاره مختلفة

لا يشبه بعضها بعضا، أليس هو القائل :

(١) أبدت أي أخرجت الى البادية .

إِنَّمَا عَظُمُ سُلَيْمَى حَتَّى * قَصَبُ السُّكَّرِ لَا عَظْمَ الْجَلَلِ

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا * غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

لو قال : كلُّ شيءٍ جيدٌ ثم أُضيف إليه هذا لزيَّفه . وكان يُقدِّم عليه مروانٌ ويقول : هو أشدُّ استواءً شعر منه ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يعدُّ أبانواس البتَّة ولا يرى فيه خيرا .

قال الجاحظُ : كان بشارٌ خطيباً صاحب مشور ومزدوج وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ، المتفننين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه . وقال الشعر في حياة جرير وتعترض له ، وحكى أنه قال : هجوتُ جريراً فأعرض عني ، ولو هاجاني لكنتُ أشعر الناس ، وكان يدين بالرجعة ، ويكفر جميع الأئمة ، ويصوب رأى إبليس في تقديم النار على الطين ، وذَكَرَ مثل ذلك في شعره فقال :

الأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ * وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُدَّ كَانَتِ النَّارُ

وقال بعضُ الرواة لأبي عمرو : مَنْ أبدع الناس بيتاً؟ قال الذي يقول :

لَمْ يَطَّلْ لَيْلَى وَلَكِنْ لَمْ أُنِّم * وَتَفَى عَنِّي الْكِرَى طَيْفُ أَلَمِّ

وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودَى لَنَا * خَرَجْتُ بِالصَّمْتِ عَنِ لَا وَنَعَم

رَوْحِي يَا عَبْدَ عَنِّي وَأَعْلَمِي * أَنْبَى يَا عَبْدَ مَنْ لَحْمٍ وَدَمِ

إِنِّ فِي بُرْدِي جَسْمًا نَاحِلًا * لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمَ

وهذه الأبيات لبشار .

قال : فمن أمدح الناس؟ قال الذي يقول :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتغَى الْغِنَى * وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُووُ الْغِنَى * أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَقْتُ مَا عِنْدِي

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشارٌ على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأنشده قصيدةً يهجو فيها المنصورَ
ويشير عليه برأى يستعمله في أمره، فلما قُتِل إبراهيم خاف بشار، فقلب الكُنية وأظهر أنه
كان قالها في أبي مسلم، وحذف منها أبياتا، وأولها :

أبا جَعْفَرٍ ما طوُلَ عَيْشِ بَدائِمِ * ولا سَالمٌ عَمَّا قَلِيلٍ بِسَالمِ
قَلَبَ هَذَا الْبَيْتِ فَقَالَ : أبا مسلم :

على الملك الجبار يفتحهم الردى * ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج * عظيمٍ ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم * وأمسى أبو العباس أحلام نائم

يعنى الوليد بن يزيد

وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة * عليه ولا جرى النحوس الأشائم
مقيماً على اللذات حتى بت له * وجوه المنايا حاسرات العائم
وقد ترد الأيام غمراً وربما * وردن كلوحاً باديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرجا * وكان لما أجمت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادراً في طريقهم * ولا تتقى أشباه تلك النقايم
تجردت للإسلام تعفو سبيله * وتُعري مطاه^(١) ليوث الضراغم
فما زلت حتى أستنصر الدين أهله * عليك فعادوا بالسيوف الصوارم
فرم وزراً يُجيبك يا بن سلامة * فلست بناج من مضيض وضائم

جعل موضع "يا بن سلامة" "يا بن وشيكة" وهي أم أبي مسلم

لحاً الله قوما رأسوك عليهم * وما زلت مرءوسا خبيث المطاعم
أقول لبسام عليه جلالته * غدا أريجيماً عاشقاً للمكارم
من الفاطميين الدعاة الى الهدى * جهارا ومن يهديك مثل ابن فاطم

(١) مطاه : ظهره .

هذا البيتُ حذفه بشار من الأبيات :

سِرَاجٌ لَعِينٌ الْمُسْتَضِيءُ وَتَارَةٌ * يكون ظلاماً للعدو المزارح
 إذا بلغ الرأي المشورة فاستعين * رأى نصيح أو نصيحة حازم
 ولا تجعل الشورى عليك غصاصة^(١) * فإن الخوافي^(٢) قوة للقوادم^(٣)
 وما خير كف أمسك الغل أختها * وما خير سيف لم يؤيد بقاء
 وغل الهوينا للضعيف ولا تكن * نؤوما فإن الحزم ليس بنائم
 وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه * شبا الحرب خير من قبول المظالم^(٤)
 وأذن على القرني المقرب نفسه * ولا تشهد الشورى أمراً غير كاتم
 فإنك لا تستطرد بهم بالمنى * ولا تبغ العيا بغير المكارم
 إذا كنت فرداً هرك القوم مقبلاً * وإن كنت أدنى لم تغز بالعزائم
 وما قرع الأقوام مثل مشيع^(٥) * أريب ولا جلى العمى مثل عالم

قال أبو عبيدة : ميمية بشار هذه أحب إلى من ميمتي جرير وافرزدق . وقال الأصمعي لبشار : يا أبا معاذ ، إن الناس يعجبون من أبياتك في المشورة ، فقال له : يا أبا سعيد ، إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته ، أو خطأ يُشارك في مكروهه ، فقال له : أنت في قولك هذا أشعر منك في شعرك .

توفى ابن لبشار بجرع عليه ، فقيل له : أجز قدّمته ، وفرط أقرطته ، وذخر أحرزته ، فقال : ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته فانتظرتة ، والله لئن لم أجزع للنقص لا أفرح للزيادة . وقال يرثيه :

(١) الغصاصة : المنقصة . (٢) الخوافي : الريشات الصغيرة التي في جناح الطائر إذا ضمها خفيت ، وحدثها خافية ضد القوادم . (٣) الغل بالضم : الحديدة التي تجمع بين يد الأسير وعقده وتسمى الجامعة . (٤) الشبا بالفتح جمع شباة وهي من كل شيء حده . (٥) المشيع : الشجاع . (٦) (٧-٧٦)

أَجَارَتْنَا لَا تَجْزِعِي وَأَبِي * أَتَانِي مِنَ الْمَوْتِ الْمُطَّلَّ نَصِيبي
 بُحِّي عَلَى رَغْمِي وَسُخْطِي رُزْنَتُهُ * وَبُدِّلَ أَحْجَارًا وَجَالَ قَلْبِي (١)
 وَكَانَ كَرِيحَانِ الْعُرُوسِ تَخَالُهُ * ذُوِي بَعْدَ إِشْرَاقِ يَسْرٍ وَطِيبِ
 أَصْبَتْ بِهِ فِي حِينِ أَوْرَقِ غَصْنِهِ * وَأَلْقَى عَلَى الْهَمِّ كُلِّ قَرِيبِ
 عَجِبْتُ لِإِسْرَاعِ الْمَنِيَّةِ نَحْوَهُ * وَمَا كَانَ لَوْ مُلِّتَهُ بَعْجِيبِ

قيل لبشار : إنك لتجيء بالشيء المهجين المتفاوت ، قال : وما ذاك ؟ قيل : بينما تقول
 شعرا يُثير النقع وتُحلَع به القلوب مثل قولك :
 إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضْهِرِيَّةً * هَتَكَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمَطِّرَ الدَّمَ
 إِذَا مَا أَعْرَنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ * ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَ
 تقول :

رَبَابَةٌ رَبَّةُ الْبَيْتِ * نَصَبَ الْخَلِّ فِي الزَّيْتِ
 لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ * وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال : لكل وجه ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي ، وأنا لا آكل البيض من
 السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لى البيض ، فهذا عندها أحسن من
 « قفانبيك » عندك . وسألته جارية مغنية لبعض ولد سليمان بن علي ، وكانت محسنة بارعة
 الظرف ، أن يذكرها في قصيدة ولا يذكر فيها اسمها ولا اسم سيدها ويكتب بها اليها ، فانصرف
 وكتب اليها :

وَذَاتِ دَلٍّ كَأَنَّ الْبَدْرَ صَوْرُهَا * بَاتَتْ تَغْنَى عَمِيدَ الْقَلْبِ سَكْرَانَا
 « إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ * قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا »
 فَقُلْتُ أَحْسَنْتِ يَا سُؤْلِي وَيَا أَمَلِي * فَأَسْمِعِينِي جَزَاكَ اللَّهُ إِحْسَانَا
 « يَا حَبْدًا جَبَلِ الرَّيَّانِ مِنْ جَبَلِ * وَحَبْدًا سَاكِنِ الرَّيَّانِ مَنْ كَانَا »
 قَالَتْ فَهَلَّا فَدَتَكَ النَّفْسُ أَحْسَنُ مِنْ * هَذَا لِمَنْ كَانَ صَبَّ الْقَلْبِ حَيْرَانَا

« يا قوم أذني لبعض الحى عاشقةٌ * والأذنُ تعشقُ قبل العين أحياناً »
 فقلتُ أحسنتِ أنتِ الشمسُ طالعةٌ * أضرمتِ في القلبِ والأحشاء نيراناً
 فأسمعيني صوتاً مطرباً هزجاً * يزيد صاباً محباً فيك أشجاناً
 يا ليتني كنتُ تُفاحاً مفليجةً * أو كنتُ من قُضبِ الریحانِ ريحاناً
 حتى إذا وجدتُ ريحی فأعجبها * ونحنُ في خلوةٍ مثلتُ إنساناً
 فتركتُ عودها ثم أنشئتُ طرباً * تشدو به ثم لا تخفيه كئماناً
 « أصبحتُ أطوعَ خلقِ الله كلهم * لأكثر الخلقِ لى في الحبِّ عصياناً »
 فقلتُ أطربتنا يازينَ مجلسنا * فهاتِ إنك بالإحسانِ أولاناً
 لو كنتُ أعلمُ أن الحبَّ يقتلني * أعدتُ لى قبل أن ألقاك أكفاناً
 فغنتُ الشربَ صوتاً موقفاً رملاً * يذكى السرور ويبيكى العينَ ألواناً
 « لا يقتل الله من دامت مودته * واللهُ يقتل أهلَ الغدرِ أحياناً »

كان الزوار يسْمون في قديم الدهر الى أيام خالد بن برمك السُّؤال ، فقال خالد : هذا والله اسم أستثقله لطلاب الخير ، وأرفعُ قدر الكرم عن أن يُسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم ، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدباً ، ولكننا نسميهم الزوار ، فقال بشار يمدحه بذلك :

حدًا خالد في فعله حدو برمك * فمجد له مستطرف وأصيل
 وكان ذوو الآمال يدعون قبله * بلفظ على الإعدام فيه دليل
 يسْمون بالسؤال في كل موطن * وإن كان فيهم نابه وجليل
 فسماهم الزوار سترًا عليهم * فأستاره في المهتدين سدول

وقال بشار هذا الشعر في مجلس خالد في الساعة التي تكلم خالد بهذا في أمر الزوار ، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشار على عُقْبَةَ بنِ سَلَمٍ فأَنشده بعضَ مدائحه فيه ، وعنده عُقْبَةُ بنِ رُوْبَةَ يَنشده رَجَزًا يمدحُه به ، فسمِعَه بشار وجعل يستحسن ما قاله الى أن فرغ ، ثم أقبل على بشار فقال : هذا طراز لا تُحْسِنُه أنت يا أبا معاذ ، فقال بشار : ألي يقال هذا ! أنا والله أرجزُ منك ومن أبيك وجدك ؛ فقال له : عُقْبَةُ أنا وأبي فَتَحْنَا للناس بابَ الغريب وبابَ الرَّجَزِ ، وإني خَلِيقٌ أن أسدّه عليهم ؛ فقال بشار : أرحمهم رَحِمَ اللهُ ، ولما كان من عَدِّ غدا على عُقْبَةَ ابنِ سلمٍ وعنده عُقْبَةُ بنِ رُوْبَةَ ، فأَنشده أرجوزته التي مدحه فيها :

يا طَلَلِ الحَيِّ بذات الصَّمَدِ * بالله خَبَّرَ كيف كنتَ بعدى
أَوْحِشْتَ من دَعْدٍ وَتَرَبِّ دَعْدِ * سَقِيًّا لأَسْمَاءِ ابْنَةِ الأَشَدِّ
قامت تَرَأَى إذ رأيتي وحدي * كالشمس تحت الزُّبُرِجِ المنقَدِ^(١)
صَدَّتْ بِحَدِّ وَجَلَّتْ عن حَدِّ * ثم انثت كالنَّفْسِ المُرتَدِّ
عَهْدِي بها سَقِيًّا له من عَهْدِ * تُخَلِّفُ وعدا وتَفِي بوعْدِ
فنحن من جَهْدِ الهوى في جَهْدِ * وزاهر من سَبِطِ وجَعْدِ
أهدى له الدهرُ ولم يَسْتَهْدِ * أفوافَ نورِ الحِبرِ المُجَدِّ
يلقى الضحى رِيحانه بسَجْدِ * بدلتُ من ذاك بُكِّي لا يُجدي
وافق حَظًّا من سَعَى بِجَدِّ * ما ضُرَّ أهلَ النوكِ ضَعْفُ الجَدِّ
الحُرُّ يُلحَى والعصا للعبدِ * وليس للمُحِفِّ مثلُ الرَدِّ
والنَّصْفُ يكفيك من التَعَدِي * وصاحبِ كالدُّمْلِ المُمدِّ
حملته في رقعة من جِدِي * أرقبُ منه مثلُ يومِ الوَرْدِ
حتى مضى غيرَ فقيدِ الفَقْدِ * وما درى ما رغبتى من زُهْدِ
إسلم وحيَّتْ أبا المُدِّ * مفتاحَ بابِ الحدِّ المُنسدِّ
مُشْتَرَكِ النَيْلِ وَرِيِّ الزَّنْدِ * أغرَّ لِبَاسِ ثيابِ الحمدِ

(١) الزُّبُرِجُ : الزينة من ريش أو جواهر

ما كان مَنَى لكَ غَيْرُ الوَدِّ * ثم شَاءَ مِثْلُ رِيحِ الوَرْدِ
 نَسَجْتَهُ فِي مُحْكَمَاتِ النَّدِّ * فَالْبَسَ طِرَازِي غَيْرَ مُسْتَرَدِّ
 اللَّهُ أَيَامِكَ فِي مَعَدِّ * وَفِي بَنِي خَطَّانِ غَيْرَ عَدِّ
 يَوْمًا بَدَى طِخْفَةٌ عِنْدَ الحَدِّ * وَمِثْلَهُ أودَعَتِ أَرْضَ الهِنْدِ
 بِالْمُرْهَقَاتِ وَالْحَدِيدِ السَّرْدِ * وَالْمُقْرَبَاتِ المَبْعِدَاتِ الجُرْدِ^(٢)
 إِذَا الحَيَا أَكْدَى بِهَا لَا تُكْدَى * تَلْحَمُ أَمْرًا وَأُمُورًا تُسْدَى
 وَابْنَ حَكِيمٍ إِنْ أَتَاكَ يَرْدِي * أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ صَوْتَ الرِّعْدِ
 حَيِّتَهُ بِتَخْفَةِ المَعَدِّ * فَانْهَدَّ مِثْلَ الجَبَلِ المُنْهَدِّ
 كُلَّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا يُؤَدِّي * وَرَبِّ ذِي تَاجٍ كَرِيمِ الجَسَدِ
 كَالِ كَسْرِي وَكَأَلِ بُرْدِ * أَنْكَبَ جَافٍ عَنِ سَبِيلِ القِصْدِ
 * فَصَلَّتَهُ عَنِ مَالِهِ وَالْوَلْدِ *

فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلته، وقام عقبة بن ربيعة فخرج عن المجلس بخزي وهرب
 من تحت ليلته فلم يعد إليه .

قال الجاحظ : فانظر الى سوء أدب عقبة بن ربيعة وقد أجمل بشار محضره وعشرته ،
 فقابله بهذه المقابلة القبيحة ، وكان أبوه أعلم خالق الله به ، لأنه قال له وقد فآخره بشعره :
 أنت يابني ذهبان الشعر ، اذا مت مات شعرك معك ، فلم يوجد من يرويه بعدك ، فكان
 كما قال له ، ما يعرف له بيت واحد ولا خبر غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه ، الدال على
 سُخْفِهِ وَسَقُوطِهِ وَسُوءِ أَدَبِهِ .

وقال بشار في هوى له كانت بالبصرة ، ثم خرجت مع زوجها الى عمان :
 هوى صاحبي ريح الشمال اذا جرت * وأشفي لقلبي أن تهب جنوب
 وما ذاك إلا أنها حين تلتهمى * تنأهى وفيها من سيده طيب

(١) طخفة : موضع بعد النجاج وبعد إمرة في طريق البصرة الى مكة ، ومنه يوم طخفة لبني يربوع على قابوس

ابن المنذر بن ماء السماء . (٢) المقربات : الخيل التي يقرب مربطها ومعلقها لكرامتها .

عَذِيرِي مِنَ الْعُدَّالِ إِذْ يَعْدِلُونِي * سَفَاهًا وَمَا فِي الْعَاذِلِينَ لِيَب
 يَقُولُونَ لَوْ عَزَّيْتَ قَلْبَكَ لَأَرْعَى * فَقُلْتُ وَهَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبٌ
 إِذَا نَطَقَ الْقَوْمُ الْجُلُوسُ فَإِنِّي * مُكِبٌّ كَأَنِّي فِي الْجَمِيعِ غَرِيبٌ
 جَاء أَبُو الشَّمَقْمَقِ إِلَى بَشَّارٍ يَشْكُو إِلَيْهِ الضِّيقَ وَيَحْلِفُ لَهُ أَنَّهُ مَا عِنْدَهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ لَهُ
 بَشَّارٌ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا يَغْنِيكَ ، وَلَكِنْ قُمْ مَعِيَ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ سَلَمٍ ، فَقَامَ مَعَهُ ، فَذَكَرَ لَهُ
 أَبُو الشَّمَقْمَقِ وَقَالَ : هُوَ شَاعِرٌ وَلَهُ شُكْرٌ وَثَاءٌ ، فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِ مِائَةِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ لَهُ بَشَّارٌ :
 يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِي * أَمْسَى وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ
 لَوْ كَانَ مِثْلَكَ آخِرًا * مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَقِيرٌ

فَأَمَرَ لِبَشَّارٍ بِأَلْفِي دِرْهَمٍ ، فَقَالَ أَبُو الشَّمَقْمَقِ : نَفَعْتَنَا وَنَعَمْنَاكَ يَا أَبَا مَعَاذٍ ، فَجَعَلَ
 بَشَّارٌ يَضْحَكُ .

دَخَلَ زَيْدُ بْنُ مَنْصُورِ الْجَمْرِيِّ عَلَى الْمَهْدِيِّ وَبَشَّارٌ بَيْنَ يَدَيْهِ يُنْشِدُهُ قَصِيدَةً أَمْتَدَحَهُ
 بِهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ زَيْدٌ ، وَكَانَتْ فِيهِ غَفْلَةٌ ، فَقَالَ : يَا شَيْخَ ، مَا صَنَعْتُكَ ؟ فَقَالَ :
 أَتَقْبُّ اللُّؤْلُؤَ ، فَضَحَكَ الْمَهْدِيُّ ، ثُمَّ قَالَ لِبَشَّارٍ : أَعْرُبُ وَيَلِكُ ! أَتَنْتَادِرُ عَلَى خَالِي ؟
 فَقَالَ لَهُ : وَمَا أَصْنَعُ بِهِ ؟ يَرَى شَيْخًا أَعْمَى يُنْشِدُ الْخَلِيفَةَ شِعْرًا وَيَسْأَلُهُ عَنْ صِنَاعَتِهِ .

وَقَفَّ عَلَى بَشَّارٍ بَعْضَ الْحُجَّانِ ، وَهُوَ يُنْشِدُ شِعْرًا ، فَقَالَ لَهُ : آسْتَرُ شِعْرَكَ هَذَا كَمَا تَسْتَرُ
 عَوْرَتَكَ ، فَصَقَّ بَشَّارٌ بِيَدَيْهِ وَغَضِبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ وَيَلِكُ ! قَالَ : أَنَا — أَعَزَّكَ اللَّهُ —
 رَجُلٌ مِنْ بَاهِلَةَ ، وَأَخْوَالِي سُلُوكٌ ، وَأَصْهَارِي عُكْلٌ ، وَأَسْمَى كَلْبٌ ، وَمَوْلَدِي بِأَصَاخِ^(١) ،
 وَمَنْزَلِي بِظَفَرِ بِلَالٍ ، فَضَحَكَ بَشَّارٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَذْهَبُ وَيَلِكُ ! فَأَنْتَ عَتِيقٌ لَوْمِكَ ، قَدْ عَلِمَ اللَّهُ
 أَنَّكَ آسْتَرْتِ مَتَى بِمَحْصُونٍ مِنْ حَدِيدٍ .

مَرَّ بَشَّارٌ بِرَجُلٍ قَدْ رَحَّخَتْهُ بَغْلَةٌ وَهُوَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا ، فَقَالَ لَهُ : بَشَّارٌ آسْتَرِدَّهُ زَيْدُكَ .
 وَمَرَّ بِهِ قَوْمٌ يَجْلُونَ جِنَازَةً وَهُمْ يُسْرِعُونَ الْمَشَى بِهَا ، فَقَالَ : مَا لَهُمْ مُسْرِعِينَ ؟ أَتَرَاهُمْ سَرَقُوهُ
 فَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يُلْحَقُوا فَيُؤْخَذَ مِنْهُمْ .

(١) مِنْ قَرَى الْبَيْمَامَةِ لِبَنِي تَمِيمٍ .

رفع غلامٌ بشار إليه في حساب نفقته جلاءً مرآةً عشرة دراهم، فصاح به بشار وقال: والله ما في الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صدت عين الشمس حتى يبتق العالم في ظلمة ما بلغت أجره من يجلوها عشرة دراهم.

قال قدامة بن نوح: كان بشار يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التي لا حقيقة لها؛ فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه: «غنى للغريص يا بن قنان» فقيل له: من ابن قنان هذا؟ لسنا نعرفه من معنى البصرة، قال: وما عليكم منه؟ ألكم قبله دين فتطالبوه به، أو تأرتريدون أن تُدركوه، أو كفت لكم به، فإذا غاب طالبتموني بإحضاره، قالوا: ليس بيننا وبينه شيء من هذا، وإنما أردنا أن نعرفه، فقال: هو رجل يغني لي ولا يخرج من بيتي، فقالوا له: إلى متى؟ فقال: مذ يوم ولد وإلى أن يموت. وذكر أيضاً في هذه القصيدة «البردان» فقيل له: يا أبا معاذ، أين البردان هذا؟ لسنا نعرفه بالبصرة، فقال: هو بيت في بيتي سمّيته بالبردان، أفعلكم من سمّيتي داري وبيوتها شيء فتسالوني عنه؟

قالت امرأة لبشار: أي رجل أنت لو كنت أسود اللحية والرأس، قال: أما علمت أن بيض البراة أشهر من سود الغربان؟ فقالت له: أما قولك فحسن في السمع، ومن لك بأن يحسن شيبك في العين كما حسن قولك في السمع؟ فكان بشار يقول: ما أخفني قط غير هذه المرأة.

دعاه رجل إلى منزله فأكل وشرب، ولما أراد الانصراف قامت جارية للرجل وأخذت بيده، فلما صار بالصحن أو ما إليها ليقبّلها، فأرسلت يدها من يده، فجعل يجول في العرصة وخرج مولى الحارية فقال: مالك يا أبا معاذ؟ فقال: أذنبت ذنباً ولا أبرح أو أقول شعراً، فقال:

أتوبُ اليك من السيئات * وأستغفرُ الله من فعلتي

تناولت ما لم أريد نيسله * على جهل أمرى وفي سكرتي

ووالله والله ما جتته * لِعَمْدٍ وَلَا كَانَ مِنْ هِمَّتِي

وإلا فِتْنٌ إِذَا ضَاعَا * وَعَدْبِي اللَّهُ فِي مِيَّتِي

فمن نال خيراً على قُبَلَةٍ * فلا بَارِكِ اللَّهُ فِي قُبَلَتِي

لما كثر استتار نساء البصرة وشبابها بشعر بشار، وقال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار: ما شيء أدمى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى، وما زالوا يعظانه وكان وإصل بن عطاء يقول: إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى المُلحد، فلما كثر ذلك وآتته خبره إلى المهديّ نهأه عن ذكر النساء وقول التشيب، وكان المهديّ من أشد الناس غيرة، فقال في ذلك:

يَا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتَهُ * فِي وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتَهُ

بَعَثْتُ إِلَى تَسْوَمِي * ثَوْبَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ

وَاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ * مَا إِنْ غَدَرْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ

أَمْسَكْتُ عَنْكَ وَرَبَّمَا * عَرَّضَ الْبَلَاءُ وَمَا آبَتُغِيَّتُهُ

إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبَى * وَإِذَا أَبِي شَيْئًا أَبَيْتُهُ

وَمُحَضَّبٍ رَخِصَ الْبَنَاءُ * نَبِيَّ عَلِيٍّ وَمَا بَكَيْتُهُ

وَيُسْوَاقِي بَيْتَ الْحَبِيدِ * سَبَّ إِذَا آذَكَرْتُ وَأَيْنَ بَيْتُهُ

قَامَ الْخَلِيفَةُ دُونَهُ * فَصَبَرْتُ عَنْهُ وَمَا قَلَيْتُهُ

وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهَمَامَا * مُنَّ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا عَصَيْتُهُ

لَا بَلَّ وَفِيَتْ فَلَمْ أُضِعْ * عَهْدًا وَلَا رَأْيَا رَأَيْتُهُ

وَأَنَا الْمُطَّلَّ عَلَى الْعِدَا * وَإِذَا غَلَا الْحَمْدُ آشَرْتُهُ

أَصْنِفِي الْخَلِيلَ إِذَا دَنَا * وَإِذَا نَأَى عَنِّي نَأَيْتُهُ

وَأَمِيلُ فِي أُنْسِ النَّدِيدِ * سَمَّ مِنَ الْحَيَاءِ وَمَا آشَرْتُهُ

وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها:

وكان لبشار خمسة ندماء، فمات منهم أربعة وبقى واحد يقال له : البراء، فركب في زورق يريد عبور دجلة العوراء فغرق، فكان بشار يقول : ماخير في الدنيا بعد الأصدقاء، ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى ماذا يقول الإمام * في فتاة بالقلب منها أوام
 بت من حبها أوقر بالكأ * س ويهفو على فؤادي الهيام
 لم يكن بينها وبينى إلا * كتب العاشقين والأحلام
 يا بن موسى أسقني ودع عنك سلمى * إن سلمى حمى وفي أحشام
 رب كأس كالسلسيل تعلق * ت بها والعيون عنى نيام
 حبست للشراة في بيت رأس^(١) * عتقت عائسا عليها الختام
 نفجت نفحة فهزت نديمي * بنسيم وأنشق عنها الزكام^(٢)
 وكان المعلول منها إذا را * ح شج في لسانه برسام
 صدمته الشمول حتى بعينيه * له أنكسار وفي المفاصل خام^(٣)
 وهو باقى الأطراف حيث به الكأ * س وماتت أوصاله والكلام
 وفتى يشرب المدامة بالمأ * ل ويمشى يروم ما لا يرام
 أنفدت كأسه الدنانير حتى * ذهب العين وأستمر السوام
 تركته الصهباء يرو بعين * نام إنسانها وليست تنام
 جن من شربة تعل بأخرى * وبكى حين سار فيه المدام
 كان لى صاحباً فأودى به الده * سر وفارقت عليه السلام
 بقي الناس بعد هلك ندما * ي وقوعا لم يشعروا ما الكلام
 تجزور الأيسار لا كيد فيه^(٤) * ما لباغ ولا عليها سنام

(١) بيت رأس : قرية بالشأم من قرى حلب ينسب إليها الخمر . (٢) البرسام : علة يهذى فيها وهو ورم حار يعرض للجباب الذى بين الكبد والأمعاء ثم يتصل الى الدماغ . (٣) حيث بالإدغام لغة فى حى كرضى . (٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقداح .

يابن موسى فقد الحبيب على العي * بن قداة وفي الفؤاد سقام
 كيف يصفو لى النعيم وحيداً * والأخلاء في المقابر هام
 نفسهم على أم المنايا * فأنامتهم بعنف فناموا
 لا يعيض انسجام عيني عليهم * إنما غاية الحزين السجام

وقال في نهى الخليفة إياه عن ذكر النساء :

والله لولا رضا الخليفة ما * أعطيت صميماً على في شجن
 وربما خير لابن آدم في ال * كره وشق الهوى على البدن
 فاشرب على أبنية الزمان فا * تلقى زماناً صفا من الأبن
 الله يعطيك من فواضله * والمرء يعضي عيناً على الكمن^(٢)
 قد عشت بين الريحان والراح والز * هر في ظل مجلس حسن
 وقد ملأت البلاد ما بين يغب * ور الى القيروان فاليمين
 شعراً تصلى له العواتق والش * يب صلاة الغواة للوشن
 ثم نهاني المهدي أنصرفت * نفسي صنيع الموفق اللقن
 فالحمد لله لا شريك له * ليس بباقي شيء على الزمن

وأشيد المهدي قصيدته التي أولها :

تجاللت عن فهر وعن جارتى فهر * وودعت نعا بالسلام وباليسر
 وقالت سليمان فيك عنا جلادة * محلك دان والزيارة عن عفر^(٣)
 أنحى في الهوى مالى أراك جفوتنا * وقد كنت تقفونا على العسر واليسر
 تشاقلت إلا عن يد أستفيدها * وزورة أملاك أشد بها أزرى
 وأخرجني من وزر خمسين حجة * فتى هاشمي يقشع من الورز

(١) نفسهم : حسدهم . (٢) الكمن واحدا كمنة وهي جرب وجرمة تبقى في العين من رمديساء علاجه .

(٣) العفر : قبة الزيارة ، يقال : ما تأتينا الا عن عفرأى بعد قلة زيارة وطول عهد .

٢ دَفَنْتُ الهوى حَيًّا فَلَسْتُ بِزَائِرٍ * سَلِمِي وَلَا صَفْرَاءَ مَا قَرَقَرَ الْقَمْرِي
 وَمُصْفَرَّةً بِالزَعْفَرَانِ جَلُودَهَا * إِذَا أَجْتَلَيْتِ مِثْلَ الْمَفْرُطَةِ الصَّفْرَى
 فَرَبِّ ثَقَالِ الرِّدْفِ هَبَّتْ تَلُومِي * وَلَوْ شَهِدْتَ قَبْرِي لَصَلَّتْ عَلَيَّ قَبْرِي
 تَرَكْتُ لِمَهْدَى الْأَنَامِ وَصَالِهَا * وَرَاعَيْتُ عَهْدًا بَيْنَنَا لَيْسَ بِالْخَائِرِ
 وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * لَقَبَلْتُ فَاهَا أَوْ لَكَانَ بِهَا فِطْرِي
 لَعَمْرِي لَقَدْ أَوْقَرْتُ نَفْسِي خَطِيئَةً * فَمَا أَنَا بِالْمَزْدَادِ وَقُرَا عَلَيَّ وَقَرِ
 تَسَلَّى عَنِ الْأَحْبَابِ صَرَامُ خُلَّةٍ * وَوَصَّالٍ أُخْرَى مَا يُقِيمُ عَلَيَّ أَمْرِي
 وَرَكَضَ أَفْرَاسَ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى * جَرَتْ حِجَابًا ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ فَلَا تَجْرِي
 فَأَصْبَحْنَا مَا يُرَكَّبُنْ إِلَّا إِلَى الْوَعْيِ * وَأَصْبَحْتُ لَا يُزْرِي عَلَيَّ وَلَا أُرْزِي
 فَهَذَا وَإِنِّي قَدْ شَرَعْتُ مَعَ التَّقَى * وَمَاتَ هَمُومِي الطَّارِقَاتِ فَمَا تَسْرِي

ثم قال يصف السفينة :

وَعِذْرَاءٌ لَا تَجْرِي بِلَحْمٍ وَلَا دَمٍ * قَلِيلَةٌ شَكْوَى الْأَيْنِ مُلْجَمَةٌ الدُّبْرِ
 إِذَا ظَعَنْتُ فِيهَا الْفُلُولُ تَسَخَّصَتْ * بِفُرْسَانِهَا لَا فِي وَعُوثٍ وَلَا وَعَرٍ
 وَإِنْ قَصَدَتْ زَلَّتْ عَلَى مَتْنَصِبٍ * ذَلِيلَ الْقَوَى لَا شَيْءَ يَفْرِي كَمَا تَفْرِي
 تَلَاعِبُ تَيَّارِ الْبُحُورِ وَرَبْمَا ^(١) * رَأَيْتَ نَفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِيهَا تَجْرِي
 إِلَى مَلِكٍ مِنْ هَاشِمٍ فِي نُبُوءَةٍ * وَمِنْ حِمِيرٍ فِي الْمُلْكِ وَالْعَدَدِ الدُّبْرِ ^(٢)
 مِنَ الْمُشْتَرَيْنِ الْحَمْدَ تَنْدِي مِنَ النَّدَى * يَدَاهُ وَيَنْدِي عَارِضَاهُ مِنَ الْعَطْرِ
 فَأَلْزَمْتُ حَبْلِي حَبْلَ مَنْ لَا يُغْبَهُ * عَفَاةً النَّدَى مِنْ حَيْثُ يَدْرِي وَلَا يَدْرِي
 بَنِي لَكَ عَبْدُ اللَّهِ بَيْتَ خِلَافَةٍ * نَزَلَتْ بِهَا بَيْنَ الْفَرَاقِدِ وَالنَّسْرِ
 وَعِنْدَكَ عَهْدٌ مِنْ وَصَاةِ مُحَمَّدٍ * فَرَعَّتْ بِهِ الْأَمْلَاقُ مِنْ وَلَدِ النَّضْرِ

(١) كان قد قال : نينان البحور، فعابه بذلك سببويه ، فجعله تيار البحور .

(٢) الدُّبْرُ : الكفْر .

ولما أُنشِد الوليد بن يزيد قولَ بشار :

أيها السَّاقِيانِ صَبَا شَرَابِي * وَأَسْقِيَانِي مِنْ رِيْقِ بِيضَاءِ رُودِ^(١)
 إِنْ دَأَى الظَّمَا وَإِنْ دَوَأَى * شَرِبَهُ مِنْ رُضَابِ تَغْرِ بَرُودِ
 وَلَهَا مَضْحَكٌ كَغُرِّ الأَقَاحِي * وَحَدِيثٌ كَالوَشِيِّ وَشِيِّ البُرُودِ
 نَزَلْتُ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ القَدِ * سِبِّ وَنَالَتْ زِيَادَةَ المُسْتَرِيدِ
 ثُمَّ قَالَتْ نَلْقَاكَ بَعْدَ لِيَالٍ * وَاللَّيَالِي يُبْلِيْنَ كُلَّ جَدِيدِ
 عِنْدَهَا الصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي وَعِنْدِي * زَفَرَاتٌ يَأْكُلْنَ قَلْبَ الحَدِيدِ

طَرِبَ الوليدُ وَقَالَ : مِنْ لِي بِمِزْجِ كَأْسِي هَذِهِ مِنْ رِيْقِ سَلْمَى ، فَيَرُوى ظَمِي ، وَتَطْفَأُ غُلَّتِي ،
 ثُمَّ بَكَى حَتَّى مِزَجَ كَأْسَهُ بِدَمْعِهِ ، وَقَالَ : إِنْ فَاتَنَا ذَاكَ فَهَذَا .

مَدَحَ بشارُ خَالِدَ بْنَ بَرْمَكٍ فَقَالَ فِيهِ :

لِعَمْرِي لَقَدْ أَجَدَى عَلَيَّ ابْنُ بَرْمَكِ * وَمَا كُلُّ مَنْ كَانَ الغِنَى عِنْدَهُ يُجْدِي
 حَلَبْتُ بِشَعْرِي رَاحَتِيهِ فَدَرَّتَا * سَمَاحًا كَمَا دَرَّ السَّحَابُ مَعَ الرِّعْدِ
 إِذَا جِئْتَهُ لِلمَدِّ أَشْرَقَ وَجْهُهُ * إِلَيْكَ وَأَعْطَاكَ الكِرَامَةَ بِالمَدِّ
 لَهُ نِعْمٌ فِي القَوْمِ لَا يَسْتَنْبِيهَا * جَزَاءً وَكَيْلَ التَّاجِرِ المُتَدِّ بِالمُدِّ
 مُفِيدٌ وَمِثْلَافٌ سَبِيلُ تَرَاثِهِ * إِذَا مَا غَدَا أَوْ رَاحَ كَالجَزْرِ وَالمُدِّ
 أَخَالِدُ ابْنُ المَدِّ بَقِيَ لِأَهْلِهِ * جَمَالًا وَلَا تَبَقِيَ الكِنُوزُ عَلَى الكَدِّ
 فَأَطْعِمْ وَكُلْ مِنْ عَارَةٍ مُسْتَرَدَّةٍ * وَلَا تُبْقِهَا إِنْ العَوَارِي لِلرَّدِّ

فَاعطاه خَالِدٌ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُعْطِيهِ فِي كُلِّ وَفَادَةٍ خَمْسَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ،
 وَأَمْرُ خَالِدٍ أَنْ يُكْتَبَ هَذَانِ البَيْتَانِ فِي صَدْرِ مَجْلِسِهِ الَّذِي كَانَ يُجْلِسُ فِيهِ ، وَقَالَ ابْنُهُ يُحْيَى
 ابْنُ خَالِدٍ : آخِرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي العَمَلُ بِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ .

(١) الرود : الشابة الحسنة الناعمة .

وكان إسحاق الموصلى يطعن على شعر بشار ويضع منه، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضاً، فقليل له : أتقول هذا لمن يقول :

إذا كنت في كلِّ الأمور مُعَاتِبًا * صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبه
فِعِشْ واحداً أوِصِلْ أخاك فإنه * مُقَارِفٌ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
إذا أنت لم تشربِ مراراً على القَدَى * ظَمِئْتَ وأىُّ الناسِ تصفو مشاربه^(٢)

وهي من غرر قصائده، مدح بها عمر بن هبيرة، ومنها قوله :

يخاف المنيا إن ترحلت صاحبي * كأن المنيا في المقام تُتأسبه
فقلت له إن العراق مقامه * وخيم إذا هبت عليك جنائبه
لألقى بني عيلان إن فعالمهم * تزيد على كلِّ الفعال مراتبه
أولاك الألى شقوا العمى بسيفهم * عن العين حتى أبصر الحقَّ طالبه
وجيش كجح الليل يزحف بالحصا * والشوك والخطى حمراً تغالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها * تطالعا والطلُّ لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه * وتدرك من تجي الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا * وأسافنا ليل تهوى كواكبها^(٣)
بعثنا لهم موت الفجأة إنتا * بنو الموت خفاق علينا سبابه
فراحوا فريق في الإسار ومثله * قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ومنها :

إذا الملك الجبار صعر خده * مشينا إليه بالسيوف نعائبه
رويداً تصاهل بالعراق جيدنا * كأنك بالضحك قد قام ناديه
وسام لسروان ومن دونه الشجا * وهول كلج البحر جاشت غواربه

(١) مقارن ذنب : مخالفة ومرتكبه من قارف الخطيئة إذا خالطها . (٢) القذى : ما يسقط

في الشراب من ذباب أو غيره . (٣) السباب : جمع سببة ، وهي شقة من الكنان رفيقة يريد بها الأولية .

أحلت به أم المنايا بناتها * بأسيا فإنا إنا رددي من نحار به
وكنا إذا دب العدو لسخطنا * وراقبنا في ظاهر لا نراقبه
ركبنا له جهرا بكل مثقف * وأبيض تستسقى الدماء مضاربه

ومنها :

فلما تولى الحى وأعصر الثرى * لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
وطارت عصافير الشقائق وأكتسى * من الآل أمثال الحجر ناضبه
غدت عانة تسكو بأبصارها الصدى * الى الجلب إلا أنها لا تخاطبه

ومن حسن شعره :

لو كنت تلقين ما نلقى قسمت لنا * يوما نعيش به منكم ونبتهج
لا خير في العيش إن كنا كذا أبدا * ما في التلاقي ولا في قبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
أشكو إلى الله هماً ما يفارقنى * وشرعاً في فؤادى الدهر تعلبج

وقال يهجو عبيد الله بن قزعة :

خليلي من كعب أعينا أخاصا * على دهره إن الكريم معين
كأن عبيد الله لم يلق ماجدا * محافة أن يرجو نداء حزين
ولا تجحلا بحل ابن قزعة إنه * ولم يدّر أن المكرمات تكون
فقل لأبي يحيى متى تدرك العلا * وفي كل معروف عليك يمين
إذا جتته في حاجة سدّ بابه * فلم تلقه إلا وأنت كمين

وقد على خالد بن برمك فأنشده :

أخا لم أخيط إليك بذمة ^(٢) * سوى أنى عاف وأنت جواد
أخالد بين الأجر والحمد حاجتى * فأيهما تأتي فأنت عماد

(١) العانة : القطعة من الحير . والجلب : ذكرها ، ومعنى شكواها الصدى بأبصارها أن العطش قد تبين في أحداقها فغارت ، وهذا من أحسن ما وصف به الحمار والأتن . (٢) أى لم اطلب فعرفك متوسلا اليك بعهد أو قرابة .

فإن تُعْطِنِي أُفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَامِحِي * وإن تَابَ لَمْ يُضْرَبْ عَلَى سِدَادِ
 رَكَابِي عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مَشِيْعٌ * ومالِي بَارِضِ الْبَاخِلِينَ بِبِلَادِ
 إِذَا أَنْكَرْتَنِي بِلَدَّةٍ أَوْ نَكِرْتُنِي * نَخَرَجْتَ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادِ

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار في أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله،
 وآخرين يديه، وآخر خلفه، وقال: يا أبا معاذ، هل أستقل العباد؟ فلمس الأكياس ثم قال:
 أستقل والله أيها الأمير.

قال أبان بن عبد الحميد: نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس بن عيلان،
 وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشار يأتهم وينشدهم أشعاره التي يمدح بها قيسا، فيجلونه
 لذلك ويعظمونه، وكان نسأؤهم يجلسن معه ويتحدثن اليه وينشدهن أشعاره في الغزل،
 وكنت كثيرا ما أتى في ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم، فأيتهم يوما فاذا هم ارتحلوا، فحسنتُ
 إلى بشار فقلت: يا أبا معاذ: أعلمت أن القوم قد ارتحلوا؟ قال: لا، فقلت: فاعلم، قال:
 قد علمت لا علمت، ومضيتُ، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناس ينشدون:

دعا بفراق من تهوى أبان * ففاض الدمع وأحترق الحنانُ
 كأن شرارةً وقعت بقلبي * لها في مقلتي ودمي أستنان
 إذا أئسدت أو نسمت عليها * رياح الصيف هاج لها دحان

فعلمت أنها لبشار، فأيتته فقلت: يا أبا معاذ، ما ذنب ليك؟ قال: ذنب غراب الين،
 فقلت: هل ذكرتني بغير هذا؟ قال: لا، فقلت: أئسدتك الله ألا تزيد، فقال: أمض
 لشأنك فقد تركتك.

مدح بشار المهدي فلم يعطه شيئا، فقليل له: لم يستجد شعرك، فقال: والله لقد
 قلت فيه شعرا لوقيل في الدهر لم يُحسَّ صرفه على أحد، ولكننا نكذب في القول فيكذب
 في الأمل.

مدح بشار سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقياً ببحران وخرج اليه ، فأنشدته قوله
فيه :

نَأْتِكَ عَلَى طَوْلِ التَّجَاوِرِ زَيْنُ * وما شعرت أن النوى سوف تَشْعَبُ
يرى الناس ما تلقى بزَيْنِبٍ إِذْ نَأَتْ * عَجِيباً وَمَا يُحْفِي بَزَيْنِبٍ أَجْجَبُ
وقائلة لى حين جد رحيلنا * وأجفان عينها تجود وتسكبُ
أغاذ إلى حران في غير شريعة * وذلك شاو عن هواها مغربُ
فقلت لها كلفني طلب الغنى * وليس وراء ابن الخليفة مذهبُ
سيكفني قتي من سعيه حد سيفه * وكور علاقي ووجناء ذعاب^(٢)^(١)
إذا استوغرت دار عليه رعى بها * بنات الصوى منها ركوب ومصعبُ
فعددي الى يوم آرتحلت وسائلي * بزورك والرحال من جاء يضربُ
لعلك أن تستيقني أن زورقي * سليمان من سير الهواجر تعقبُ
أغر هشاخي القنائة اذا آتني * تمته بدور ليس فيهن كوكبُ
وما قصدت يوماً غيلين خيله * فتصرف إلا عن دماء تصبُ

فوصله سليمان بخمسة آلاف درهم ، وكان يخجل ، فلم يرضها وأنصرف عنه مغضباً ،
فقال :

إن أمس منقبض اليدين عن الندى * وعن العدو مخيس الشيطان
فلقد أروح على اللئام مسطاً * تليج المقييل منعم الندمان
في ظل عيش عشيرة محودة * تئدي يدي ويخاف قرط لساني
أزمان خيبي الشباب مطاوع * وإذ الأمير على من حران
ريم بأحوية العراق اذا بدا * برقت عليه أكلة المرجان
فأحفل بعبدة مقلتيك من القدى * وبوشك رؤيتها من الهملان
فلقرب من تهوى وأنت متمم * أشقى لدائك من بني مروان

(١) العلاقي : الرجل العظيم . (٢) وجناء ذعاب أى ناقة شديدة سريعة .

قدم بشار على المهديّ بالرصافة فدخل عليه في البستان، فأنشده مديحا فيه تشييب
حسن، فنهاه عن التشييب لغيره شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأما جئته أبشره * ولم أجيء راغبا ومحتابا
يزين المنبر الأشم بعطفية * به وأقواله إذا خطبا
تشم نعلاه في الندي كما * يشم ماء الرياح منتها

قال : وقد طلب منه أن ينشده شيئا من غزله :

وقائل هات شوقنا فقلت له * أنا ثم أنت يا عمرو بن سمعان
أما سمعت بما قد شاع في مضر * وفي الخلفين من بكر وقطان
قال الخليفة لا تنسب بجارية * إياك إياك أن تشقى بعصيان

وقال له المهديّ : قل في الحب شعرا ولا تطل، وأجعل الحب قاضيا بين المحبين
لا نسم أحدا، فقال :

أجعل الحب بين حبي وبينى * قاضيا إنني به اليوم راض
فاجتمعنا فقلت يا حب نفسي * إن عيني قيلة الإغماض
أنت عدتني وأنحلت جسمي * فأرحم اليوم دائم الأمراض
قال لي لا يحل حكى عليها * أنت أولى بالسقم والإعراض
قلت لما أجابني بهواها * شمّل الجور في الهوى كل قاض

فبعث إليه المهديّ : حكمت علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشار في عشق السمع :

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهدي فقلت لهم * الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
هل من دواء لمشغوف بجارية * يلقى بلقيانها روحاً وريحانا

وقال في مثل ذلك :

قالت عَقِيلُ بن كعب إذ تعلقها * قلبي فأضحى به من حبها أثرُ
أنى ولم ترها تهذى فقلت لهم * إن الفؤاد يرى مالا يرى البصرُ
أصبحتُ كالحائم الحيران مجتنباً * لم يقض وردا ولا يرجى له صدرُ

وقال :

يزهدنى في حبِّ عبدة معشر * قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما أختار وأرتضى * فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى * ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا * وألف بين العشق والعاشق الصب

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تقر * إياك أعنى وعندك الخبرُ
أذعت بعد الألى مضوا حرقاً * ما ضاع ما استودعوك إذ بكروا

وقال :

إن سَلِمَى والله يكلؤها * كالتسكر يزداد على السكر
بلغت عنها شكلا فأعجبني * والسَّمعُ يَكْفِيكَ غَيْبَةَ البَصَرِ

وقال وقد مدح المهدي فخره :

خليلى إن العسر سوف يفيق * وإن يسارا في غد نخليق
وما كنت إلا كالزمان اذا صحا * صحت وإن ماق الزمان أموق^(١)
أأدماء لا أسطبع في قلة الثرا * خروزا ووشيا والقليل محيق
خذى من يدى ما قل إن زماننا * شموس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لأرضى بأدنى معيشة * ولا تستكى بخلا على رفيق

(١) ماق : حقق في غباوة .

خليلٌ إن المال ليس بنافع * اذا لم يَنَلْ منه أخٌ وصديق
 وكنتُ اذا ضاقت عليَّ محمَّلةٌ^(١) * تيممتُ أخرى ما على تضييق
 وما خاب بين الله والناس عامل * له في التقى أو في المحامد سوق
 ولا ضاق فضلُ الله عن متعقِّفٍ * ولكن أخلاقَ الرجال تضييق

هجا بشار يعقوب بن داود وزير المهدي فقال :

بني أميَّة هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود^(٢)
 ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا * خليفة الله بين النأي والعود

فاتهمه عند المهدي بالزندقة وقال : إنه قد هجا المهدي ، فأمر ، فُضِرَبَ بالسياط حتى مات .

(١) المحلة : منزل القوم . (٢) أصله من الموالي ، وقد استوزره الخليفة المهدي وسلّمه الأمور كلها

وأشغل هو باللهو .

٢ - حمادُ عَجْرَدُ^(١)

«ولو أتى أحببت أن أشخص حمادا لوصفته قبل كل شيء بحدة الطبع، وسوء الخلق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة في القول، والملاءمة بينه وبين العمل، وبكره النفاق والانصراف عنه، لا يعنيه أَرْضَى النَّاسُ عنه أم خَطِئُوا عليه، ثم بحدة اللسان ومُضِيَّه وإقْداعه وكَلْفِه بفاحش القول وبِحِثِّه عن أَسْوِئِهِ وأَقْبَحِهِ، ثم بالسُّخْرِيَّةِ من الناس وأزْدِرائِهِم، لا على أنه يَتَّخِذُ ذلك فلسفةً وأصلاً من أصول الحياة كالوليد ومُطِيع وأبى نُؤَاس، بل على أنه يَتَّخِذُ ذلك وسيلةً من وسائل الشعراء يَخْلُصُ بها كَلِمًا ضاقت عليه المذاهب وأخِذَتْ عليه، أو دَعَتْه إلى ذلك حاجةً. لم يكن حمادٌ يَحْفِلُ بما يَحْفِلُ به النَّاسُ من الوفاء والانصراف عن التناقض، وإنما كان صديقاً مُحِاصِصاً حتى تبدوله حاجة أو تَسَنَّحَ له فرصة أو تَضَطَّرَه ضرورة، فإذا صَدَّقَتْه قد استحالت إلى عَدَاءٍ، وإذا هو ليس أَقْلُ صِدْقاً وإخلاقاً في العَدَاءِ منه في المودة والحُبِّ: فقد مدح يحيى بن زياد وأتَّخذه صديقاً ونال جَوَائِزَهُ، ثم كان الخِلافُ فَهَجَاهُ. وصادقٌ بَسَّاراً وصادقاً، ثم اختصما فلم يَعْرِفَا في الخصومة رحمة ولا رِفْقاً. وصافى مُطِيعاً وأحبَّه ومدَّحَه وأكثر في الشَّناء عليه، ثم اختصما في امرأةٍ مرَّةً وفي غلامٍ مرَّةً أخرى، فَهَجَاهُ وأقْدَعَ في هجائه. وكان على هذا كله يؤثر شرعه وضروراته على البرِّ بالناس في معاملتهم: هجا ذات يوم رجلاً يقال له حُشَيْشٌ وجعل اسمه قافيةً لهذا الشعر وأراد أن يبالغ في ذمِّه فشبهه بِحَيْشٍ، وكان بِحَيْشٍ هذا رجلاً من أهل البصرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن صعصعة. نشأ في الكوفة ثم واسط. وعاصر الدولتين، ولكنه نبغ في الدولة العباسية بعد أن نادى الوليد بن يزيد الأموي. وجاء بفساد أيام المهدي ومعه مطيع بن يباس ويحيى بن زياد، وكلهم من المهتمين في دينهم. وحماد من الشعراء المجيدين، وكان ماجنا ظريفا خليعا متهما في دينه مرصيا بالزندقة. وأدرك بشار بن برد وله معه أهاج فاحشة، ولم يكن يهاب كبيرا ولا صغيرا، عالما كان أو خليفة. توفي سنة ١٦١ هـ. ونجد ترجمته في الأغاني (ج ١٣ ص ٧٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٦٥). والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١).

(٢) من بحوث صديقي الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية

وإدعًا لا يعرف حمادًا ولا يعرفه حمادٌ، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة فعاتب حمادًا، فقال له حماد ضاحكًا معتذرًا: لا بأس عليك فإن هذا من آتام القافية ولن أعود إليه .

وكان السبب في مهاجة حماد وبشار أن حمادًا كان نديما لنافع بن عتبة، فسأله بشار تتجيز حاجة له من نافع فأبطأ عنها، فقال بشار فيه :

مَوَاعِيْدُ حَمَادٍ سَمَاءٌ مَحِيَالَةٌ * تَكْشِفُ عَنْ رَعْدٍ وَلَكِنْ سَتْبِقُ

إِذَا جِئْتَهُ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى غَدٍ * كَمَا وَعَدَ الْكَمُونَ مَا لَيْسَ يَصْدُقُ

وَفِي نَافِعٍ عَنِّي جَفَاءٌ وَإِنِّي * لِأَطْرُقُ أحيانًا وَذُو اللَّبِّ يَطْرُقُ

وَلِلنَّقَرِيِّ قَوْمٌ فَلَوْ كُنْتُ مِنْهُمْ * دُعِيتُ وَلَكِنْ دُونِي الْبَابُ مَغْلَقُ

وَمَا زِلْتُ أَسْتَأْنِيكَ حَتَّى حَسَرْتَنِي * بُوْعَدِ بَجَارِي الْآلِ يَخْفَى وَيَحْمُقُ

فغضب حمادٌ وأنشد نافعًا الشعر فمنع بشارا، فقال بشار :

أَبَا عَمْرٍ مَافِي طَلَابِينِكَ حَاجَةٌ * وَلَا فِي الذِي مَنِينَتَا ثُمَّ أَحْجَرَا

وَعَدْتِ فَلَمْ تَصْدُقِ وَقَلْتِ غَدًا غَدًا * كَمَا وَعَدَ الْكَمُونَ شَرِبًا مَوْثَرَا

فكان ذلك سبب التهاجي بين بشار وحماد . وكان بشار يرمي حمادًا بالزندقة ، وفي ذلك يقول :

إِبْنُ نَهْيٍ رَأْسٌ عَلَى تَقِيلٍ * وَأَحْتِمَالُ الرُّعُوسِ خَطْبٌ جَلِيلٌ

أُدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْأَنْبِيَاءِ * فإني بواحد مشغولٌ

يَا بَنَ نَهْيٍ بَرِّتْ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ جِهَارًا وَذَاكَ مِنِّي قَلِيلٌ

فأشاع حمادٌ هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان : « فإني بواحد مشغول » « فإني عن واحد مشغول » ليصح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبيات تدور في الناس حتى انتهت إلى بشار، فأضطرب منها وجزع وقال : أشاط ابن الفاعلة يدمي، والله ما قلت إلا « فإني بواحد مشغول » فغيرها حتى شهرت في الناس .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حماد وبشار على اتفاقٍ منهما ورِضًا بأن ينقل
إلى كل واحد منهما وعنه الشعرًا، فدخل يوماً الى بشار فقال له : إيه يا فلان ، ما قال ابن
الفاعلة؟ فأئسده :

إن ناه بشارٌ عليكم فقد * أمكنتُ بشاراً من التيه

فقال بشار : بأى شىء ويحك؟ فقال :

وذاك إذ سميتُه باسمه * ولم يكن حراً تُسميه

قال : سخنت عينه ، فبأى شىء كنتُ أعرف! إيه ، فقال :

فصار إنساناً بذكري له * ما يبتغى من بعد ذكريه!

فقال : ما صنع شيئاً، إيه ويحك! فقال :

لم أهجُ بشاراً ولكنى * هجوتُ نفسى بهجائيه

فقال : على هذا المعنى دار وحواله حام . وتمام الأبيات :

لم آت شيئاً قط فيما مضى * ولستُ فيما عشتُ آتية

أسوأ لى فى الناس أهدوثة * من خطأ أخطأته فيه

فأصبح اليوم لسبى له * أعظم شأنًا من مواليه

وقال بشارٌ لراوية حماد : ما هجانى به اليوم حماد؟ فأئسده :

ألا من مبلغ عنى ال * ندى والده بُرد

فقال : صدق ابنُ الفاعلة فما يكون؟ فقال :

إذا ما نُسبَ الناس * فلا قبل ولا بعد

فقال : كذب ، أين هذه العرصاتُ من عقيل! فما يكون؟ فقال :

وأعمى قَلطَباتٌ^(١) ما * على قاذفه حد

(١) القلطنان : الذى لا يغار.

فقال : كذب ، بل عليه ثمانونَ جِلْدَةً ، هِيَه ، فقال :

وَأَعْمَى يُشْبِهُ الْقِرْدَ * إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شبّهني بقِرْدٍ ، حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! ثم صَفَّقَ بيديه وقال :

مَا حِيَلْتِي ! يَرَانِي فَيُشَبِّهُنِي وَلَا أَرَاهُ فَأُشَبِّهُهُ . وتَمَّ الأبيات :

دَنِي لَمْ يَرْحُ يَوْمًا * إِلَى مَجْدٍ وَلَمْ يَغْدُ

وَلَمْ يَخْضُرْ مَعَ الْحُضَا * رِي خَيْرٍ وَلَمْ يَيْدُ

وَلَمْ يُحْشَ لَهُ ذَمٌّ * وَلَمْ يُرْجَ لَهُ حَمْدُ

جَرَى بِالنَّحْسِ مُدْكَانَ * وَلَمْ يَجْرِلْهُ سَعْدُ

هُوَ الْكَلْبُ إِذَا مَاتَ * فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ فَتْدُ

وقال علي بن مهدي : أجمع علماء البصرة أنه ليس في هجاء حماد تجرد لبشار إلا أربعون

بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هو الذي

هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليهما ، فسقط حماد وهتك بفضل بلاغة

بشار وجودة معانيه ، وبقي لبشار على حاله لم يسقط ، حتى عُرف مذهبه في الزندقة فقتل به .

ومن أعلظ ما هجا به حماد بشاراً :

نَهَارُهُ أَخْبِثُ مِنْ لَيْلِهِ * وَيَوْمُهُ أَخْبِثُ مِنْ أَمْسِهِ

وَلَيْسَ بِالْمُقْلَعِ عَنْ غَيْهِ * حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ

كان حماد صديقاً ليحيى بن زياد ، فأظهر يحيى تورعاً وقرآءةً ونزوعاً عما كان فيه وهجر

حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذكر عنده ثلثه وذكر تهتكه ومجونه ، فبلغ ذلك حماداً فكتب إليه :

هَلْ تَذْكُرُنَّ دَلِجِي إِلَيْهِ * بِكَ عَلَى الْمُضْمَرَةِ الْقِلَاصِ

أَيَّامَ تُعْطِينِي وَتَأْ * حُدُّ مِنْ أَبَارِيقِ الرَّصَاصِ

إِنْ كَانَ سُكُّكَ لَا يَتِي * مٌ بغير ستمى وأنتقاصي

أَوْ كُنْتَ لَسْتَ بغيرذا * كَتَمْتَ مَنزِلَةَ الْخِلَاصِ

فعليك فاشتمُ آمِنًا * كل الأمان من القصاص
 وأقعد وقم بي ما بدا * لك في الأداني والأقاصي
 فإطالما زكيتني * وأنا المقيم على المعاصي
 أيام أنت اذا ذكرك * تُمناضلُ عني مُناصي^(١)
 وأنا وأنت على أرتكا * بالمؤبقات من الحِراس
 وبنّا مواطنُ ما بنا * في البرّ أهلة العِراس

فاتصل هذا الشعرُ يحمي بن زياد ، فنسب حمادا الى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام ؛
 فقال حماد فيه :

لا مؤمن يعرفُ إيمانه * وليس يحيى بالقتى الكافر
 منافقٌ ظاهره ناسكٌ * مخالفُ الباطن للظاهر

كان حمادُ صديقاً لحريث بن أبي الصلت الثقفى ، وكان يعيبه بالبخل ، وفيه يقول :

حريثُ أبو الفضل ذو خيرة * بما يَصْلِحُ المَعَدَ الفاسده
 تتخوفُ نُجْمَةَ أضيافه * فعودهم أكلةً واحده

ومن قوله :

ألا قُلْ لعبد الله إنك واحدٌ * ومثلك في هذا الزمان كثيرٌ
 قطعت إخائي ظالمًا وهجرتي * وليس أنى من في الإخاء يجور
 أديم لأهل الودِّ وُدِّي وإني * لمن رام هجرى ظالمًا لهجور
 ولو أن بعضي رآبني لقطعته * وإني يقطع الراسين جدير
 فلا تحسبن مني لك الودَّ خالصا * لعزٍّ ولا أتى إليك فقير
 ودونك حظي منك لست أريده * طوال الليالي ما أقام تبير^(٢)

(١) مناص : مدافع ، من قولهم ناصاه مناصاة : أخذ كل بناصية صاحبه . (٢) تبير : اسم جبل .

كان حماد صديقا لحفص بن أبي بردة ، وكان حفص أعشى أفضس أعصب مقبح الوجه ، فاجتمعوا يوماً على شراب وجعلوا يتناشدون ويتحدّثون ، فأخذ حفص يطعن على مرقش ويعيب شعره ويلجئه ؛ فقال له حماد :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل * وأنف كئيل العود عما تتبع^(١)
تتبع لنا في كلام مرقش * ووجهك مبني على اللحن أجمع
فأذناك إقواء وأنفك مكفا * وعيناك إيطاء فأنت المرفع

ومن قوله :

إني أحبك فاعلمي * إن لم تكوني تعلمينا
حبا أقل قليلا * بجمع حب العالمينا

وأشيد بشار قول حماد مجرد :

أخى كف عن لومي فإنك لا تدري * بما فعل الحب المبرح في صدري
أخى أنت تلحاني وقلبك فارغ * وقلبي مشغول الجوانح بالفكر
دوائى ودائى عند من لورأيت * يقب عينيه لأقصرت عن زجري
فأقسم لو أصبحت في لوعة الهوى * لأقصرت عن لومي وأطبتت في عذري
ولكن بلائى منك أنك ناصح * وأنتك لا تدري بأنك لا تدري

فطرب بشار ثم قال : ويلكم أحسن والله ! من هذا ؟ قالوا : حماد مجرد ؛ قال : أوه وكأتمونى والله بقيّة يومى لهم طويل ، والله لا أطعم بقيّة يومى طعاما ، ولأصومنّ عمّا بما يقول النبطى مثل هذا .

قال محمد بن الفضل السلولي : لقيت حماد مجرد بواسطة وهو يمشى وأنا راكب ، فقلت له : أنطلق بنا الى المنزل ، فإنى الساعة فارغ لتحدث ، وحبست عليه الدابة ، فقطع شغل عرسى لم أقدر على تركه ، فمضيت وأنسيته ، فلما بلغت المنزل خفت شره فكتمت إليه :

(١) الثيل : وعاء قضيب البعير ، والعود : البعير .

أَبَا عَمْرٍو أَعْفِرْهَا هُدَيْتَ فَإِنِّي * قَدَ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا مَخْطِئًا غَيْرَ عَامِدٍ
فَلَا تَجِدَنَّ فِيهِ عَلَيَّ فَإِنِّي * أَقْرُبُ بِإِجْرَامِي وَلَسْتُ بِعَائِدٍ
وَهَبْهُ لَنَا تَفْدِيكَ نَفْسِي فَإِنِّي * أَرَى نِعْمَةً أَنْ كُنْتَ لَسْتَ بِوَاجِدٍ
وَعُدْ مِنْكَ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * فَإِنَّكَ ذُو فَضْلٍ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ

فأجابني عن الأبيات :

مُحَمَّدُ يَا أَبَا الْفَضْلِ يَا ذَا الْحَمَامِدِ * وَيَا بَهْجَةَ النَّادِي وَزَيْنَ الْمَشَاهِدِ
وَحَقَّقْ مَا أَذْنَبْتَ مِنْذَ عَرَفْتَنِي * عَلَيَّ خَطَأَ يَوْمًا وَلَا عَمْدَ عَامِدِ
وَلَوْ كَانَتْ مَا أَلْفَيْتَنِي مَتَسْرَعًا * إِلَيْكَ بِهِ يَوْمًا تَسْرَعُ وَإِجْدِ
وَلَوْ كَانَ ذُو فَضْلٍ يُسَمَّى لَفَضَلَهُ * بغير اسمه سُمِّيَتْ أُمُّ الْقَلَانِدِ

فبينما رقعته في يدي وأنا أقرأها إذ جاءني رسوله برقعة فيها :

قَدَ غَفَرْنَا الذَّنْبَ يَا بَنَ الْـ * فَضْلِ وَالذَّنْبُ عَظِيمٌ
وَمَسِيءٌ أَنْتَ يَا بَنَ الْـ * فَضْلِ فِي ذَاكَ مُلِيمٌ
حِينَ تَخْشَانِي عَلَى الذَّنْبِ * بِكَمَا يُخْشَى اللَّئِيمُ
لَيْسَ لِي إِنْ كَانَ مَا خَفَى * سَتَ مِنْ الْأَمْرِ حَرِيمُ
أَنَا وَاللَّهِ وَلَا أَفُ * يَخْرُ لِّلْغَيْظِ كَعُظُومِ
وَبِأَصْحَابِي وَلَا رِيْدِ * بِنَةِ بَرٍّ وَرَحِيمِ
وَبِمَا يُرِضِيهِمْ عِنْدِي * وَيُرِضِينِي عَلِيمِ

كان عثمان بن شيبة مُبْخَلًا وكان حماد يهجوهُ ، بقاء رجل كان يقول الشعر إلى حماد

فقال له :

أَعْنِي مِنْ غِنَاكَ بَيْتٌ شِعْرٍ * عَلَى فَقْرِي لِعُثْمَانَ بْنِ شَيْبَةَ

فقال :

فإنك إن رضيت به خليلاً * ملأت يديك من فقر وخيبة

(١) أي لو كان لك ذنب ما صادفتني مسرعا إليك بالمكافأة .

فقال له الرجل : جَزَاكَ اللهُ خيراً فقد عرّفتني من أخلاقه ما قطعني عن مدحه وصنت وجهي عنه .

لما مات محمد بن أبي العباس طلب محمد بن سليمان حمادَ مجرد لما كان يقوله في أخته زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مقامَ له معه بالبصرة ، فأستجار بقبر أبيه سليمان بن علي وقال فيه :

مِنْ مُقِرٍّ بِالذَّنْبِ لَمْ يُوجِبِ الدَّ * هُ عَلَيْهِ سِيَّئٍ إِفْرَارَا
 لَيْسَ إِلَّا بِفَضْلِ حَلْمِكَ يَعُ * تَدَّ بِلَاءٌ وَمَا يَعُدُّ اغْتَرَارَا
 يَا ابْنَ بِنْتِ النَّبِيِّ أَحْمَدَ لَا أَج * عَلُّ إِلَّا إِلَيْكَ مِنْكَ الْفِرَارَا
 غَيْرَ أُتِيَّ جَعَلْتُ قَبْرَ أَبِي أَيُّو * بَ لِي مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ جَارَا
 وَحَرِيٌّ مِنْ اسْتِجَارِ بِذَلِكَ الـ * قَبْرِ أَنْ يَأْمَنَ الرَّدَى وَالْعِثَارَا
 لَمْ أَجِدْ لِي مِنَ الْعِبَادِ مُجِيرَا * فَاسْتَجَرْتُ التَّرَابَ وَالْأَحْجَارَا
 لَسْتُ أَعْتَاضُ مِنْكَ فِي بُغْيَةِ الْعِزَّةِ حَقَّارَانَ * كَلِّهَا أَوْ نِزَارَا
 فَأَنَا الْيَوْمَ جَارٌ مِنْ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ * ضِ مُجِيرٌ أَعَزُّ مِنْهُ جَوَارَا
 يَا ابْنَ بِنْتِ النَّبِيِّ يَا خَيْرَ مَنْ حَطَّ * تَ إِلَيْهِ الْعَوَارِبُ الْأَكْوَارَا
 إِنْ أَكُنْ مَذْنِبًا فَأَنْتَ أَبْنُ مَنْ كَا * نَ لِمَنْ كَانَ مَذْنِبًا غَفَّارَا
 فَأَعْفُ عَنِّي فَقَدْ قَدَّرْتَ وَخَيْرُ الـ * عَفْوِ مَا قَلَّتْ : كُنْ ، فَكَانَ اقْتِدَارَا
 لَوْ يُطِيلُ الْأَعْمَارَ جَارٌ لِعِزِّ * كَانِ جَارِي يُطَوِّلُ الْأَعْمَارَا

فقال : والله لا بلبن قبر أبي من دمه ، فهرب حماد إلى بغداد ، فعاد يجعفر بن المنصور فأجاره ، وقال : لا أرضى أو تهجو محمد بن سليمان ، فقال يهجو :

قُلْ لَوْجَهُ الْخَصِيَّ ذِي الْعَارِإِنِي * سَوْفَ أَهْدِي لَزَيْنَبِ الْأَشْعَارَا
 قَدْ لَعَمْرِي فَرَزْتُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْ * فِي وَأَنْكَرْتُ صَاحِبِي نَهَارَا
 وَظَنَنْتُ الْقُبُورَ تَمْنَعُ جَارًا * فَاسْتَجَرْتُ التَّرَابَ وَالْأَحْجَارَا (١)

كُنْتُ عِنْدَ اسْتِجَارَتِي بِأَبِي آيَةَ * وَبِأَبْنِي ضَلَالَةً وَخَسَارًا
 لَمْ يُجِرْنِي وَلَمْ أُجِدْ فِيهِ حِطًّا * أَضْرَمَ اللَّهُ ذَلِكَ الْقَبْرَ نَارًا
 فَبَلَغَ هِجَاؤُهُ مُحَمَّدَ بْنَ سَلِيمَانَ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يُقَلِّتُنِي أَبَدًا ، وَإِنَّمَا يَزِدَادُ حَتْفًا بِلِسَانِهِ ! وَلَا وَاللَّهِ
 لَا أَعْفُو عَنْهُ وَلَا أَتَغَافَلُ أَبَدًا .

ومن قوله :

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَهُ * حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِمَجْهُودٍ
 وَلِبِخَيْلٍ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلٌّ * زُرُقُ الْعَيْونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سَوْدٌ
 إِذَا تَكْرَمْتَ أَنْ تُعْطَى الْقَلِيلَ وَلَمْ * تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
 أَبْرِقْ بِخَيْرِ تَرْجِيٍّ لِلنَّوَالِ فَمَا * تُرْجَى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ
 بَثُّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعُ قَلْبُهُ * فَكُلُّ مَا سَدَّ فِقْرًا فَهُوَ مَجْمُودُ

وقال أيضا :

كَمْ مِنْ أُنْجٍ لَكَ لَسْتَ تُشْكِرُهُ * مَا دَمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي يُسْرِ
 مُتَصَنِّعٌ لَكَ فِي مَوَدَّةِ * يَلْقَاكَ بِالرَّحِيبِ وَالْبِشْرِ
 يُطْرَى الْوَفَاءَ وَذَا الْوَفَاءَ وَيَدُ * سَحَى الْغَدْرِ مَجْتَهِدًا وَذَا الْغَدْرِ
 فَإِذَا عَدَا ، وَالذَّهْرُ ذُو غَيْرِ ، * دَهْرٌ عَلَيْكَ عَدَا مَعَ الدَّهْرِ
 فَارْقُضْ بِإِجْمَالٍ مَوَدَّةَ مَنْ * يَقْلِي الْمِقْلَ وَيَعْشُقُ الْمُثْرَى
 وَعَلَيْكَ مَنْ حَالَاهُ وَاحِدَةً * فِي الْعُسْرِ إِذَا كُنْتَ وَالْيُسْرِ
 لَا تَخْلِطْهُمْ بِغَيْرِهِمْ * مِنْ يَخْلِطُ الْعَقِيَانَ بِالصُّفْرِ !

وهو القائل في محمد بن طلحة :

زُرْتُ أَمْرَأَ فِي بَيْتِهِ مَرَّةً * لَهُ حَيَاءٌ وَلَهُ خَيْرُ
 يَكْرَهُ أَنْ يُنْخِمَ إِخْوَانَهُ * إِنَّ أَدَى التُّخْمَةِ مَحْذُورُ
 وَيَسْتَهْمِي أَنْ يُؤْجَرُوا عِنْدَهُ * بِالصَّوْمِ وَالصَّائِمُ مَا جُورُ
 يَا ابْنَ أَبِي شُهَدَةَ أَنْتَ أَمْرُؤُ * بِصِحَّةِ الْأَبْدَانِ مَسْرُورُ (١)

وهو القائل في محمد بن أبي العباس السَّفاح :

أرجوك بعد أبي العباس إذ بآنا * يا أكرم الناس أعرافا وأغصانا
لوحجَّ عودٌ على قوم عُصارتَه * لمجَّ عودك فينا المسك والبانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهواز ، فأقام هناك مُستترا ، وبلغ محمدا خبره فأرسل مولى له الى الأهواز ، فلم يزل يطلبه حتى ظفر به فقتله غيلة . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة ، فمر بشيراز في طريقه ، فمرض بها ، فأضطرَّ الى المقام بسبب علته ، فأشتدَّ مرضه فمات هناك ودُفن على تلعة . وكان بشارا بلغه أن حمادا عليل ، ثم نعى اليه قبل موته ، فقال بشار :

لو عاش حماد لهونا به * لكانت صار الى النار

فبلغ هذا البيت حمادا قبل أن يموت وهو في السياق ، فقال يرد عليه :

نبئتُ بشارا نعانى ولدا * مموت برأى الخالق البارى
يا ليتنى مت ولم أهجه * نعم ولو صرت الى النار
وأى نخزى هو أخزى من أن * يُقال لى ياسب بشار^(٢)

فلما قتل المهدي بشارا بالبطيحة اتفق أن حمله الى منزله ميتا ، فدُفن مع حماد على تلك التلعة ، فتر بها أبو هشام الباهلي الشاعر البصرى الذى كان يهاجى بشارا ، فوقف على قبريهما فقال :

قد تبع الأعمى قفا عجرد * فأصبحا جارين فى دار
قالت بقاع الأرض لامرحبا * بقرب حماد وبشار
تجاورا بعد تنائيهما * ما أبغض الجار الى الجار
صارا جميعا فى يدى مالك * فى النار والكافر فى النار

(١) السياق : الاحتضار . (٢) السبب : الكثير السباب .

٣ - مروان بن أبي حفصة^(١)

« لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر، ولعله لم يعد منها فناً أو فنين، فلسنا نعرف له غزلاً إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدءوا به مدائحهم، ولسنا نعرف له هجاءً إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم. على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً، فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية فيبلغ منهم ما يريد، ويهجوهم في حرية، وإنما كان السيف هو الذي أنتصر للعباسيين من بني أمية، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً! كان الدين يأباه في ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً، فالعلويون من بني هاشم وهجأهم هجاءً للعباسيين، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيون الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء أولئك الشتامين المسرفين في الشتم، ثم لا نعرف

(١) هو من الشعراء الموالي أصل جده من سبي اصطرخ، وكان غلاماً اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم، وأقام بعدئذ بالثمامة، وقد اختلفوا في حقيقة نسبه. شب مروان على كره الشيعة لأنه من موالي بني أمية وقد حارب معهم، وكان شجاعاً مجترباً، فلما نبغ في الشعر قدم بغداد ومدح المهدي ثم الرشيد، وكان يتقرب إليه بهجاء العلويين، وهو من الفحول المقدمين، أول من شهره ونوه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصيدة تونية مدحه بها، مطلعها:

معن بن زائدة الذي زيدت به * شرفاً على شرف بنو شيبان

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معن مطلعها:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم * أسود لهم في بطن خفان أشبل

فأجازه عليها بمال كثير، فكانت كلها زاده معن عطاء زاده مروان مدحا. توفي سنة ١٨١ هـ. وتجد أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ٣٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) ونزارة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والفهرست لأبن النديم (ص ١٦٠).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

لمروان مجونا ولا عبثا، فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا عبثا وإنما كان بجيلا، والبخل والعبث شيان لا يتفقان، ومن ضنَّ على نفسه باللحم وطيبات الطعام لم يستبح لنفسه حمرا ولا ما تستبعه الخمر. ثم لا نعرف لمروان نفرا وما تحسب أنه فاحر أو مال الى الفخر، فقد كان رجلا عمليا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضمن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد. لم يعرض إذن إلا لفنَّين اثنين: المدح والرثاء، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء وهذا طبعي، فهو راغب حين يمدح، يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمعقول أن يجيد وأن يبلغ من الإجادة حظا عظيما؛ أما في الرثاء فهو لا يرغب ولا يطلب مالا وإنما يفي بعهد ويشكر صنعة. ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه الى الإجادة إلا أن يكون حساسا دقيق الشعور راقى النفس، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء، وإنما كان كما قلت لك رجلا عمليا يريد المال. على أن رثاء لمعن ليس بالردى وكذلك رثاؤه للهدى، وهل نستطيع أن نعد رثاء للهدى رثاء! هو مدح لأنه عزاء للخليفة الحديد، ففيه ذكر للخليفة الراحل، والثناء على وارثه، وفيه المثوبة والعطاء. فهو الى المدح أقرب منه الى الرثاء.

أما مدح مروان فن آيات المدح العربي، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ولكنها تكفي لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح وبرع فيه، بل نحسب أنه برز في هذا الفن على غيره من المعاصرين، ولكن مدح مروان ينقسم الى قسمين متميزين: أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجه لمعن بن زائدة، فهو يفتن في وصف معن بالجوهر والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن في مدح بني شيان الذين ينتمى اليهم معن، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله، ولكنه جيد المعاني متقاهما، حسن الألفاظ صافيا.

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان يُشده الخلفاء من بني العباس، وهو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسي

الذي كان يحتاج الى مهارة وفطنة ودقة وخفة ، والذي كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن ينصر العباسيين دون أن يزدري خصومهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين لأنه آذاهم أو هجاهم فيما تعتقد ، بل لأنه كان خصما قويا عنيدا ماهرا في الخصام .

ثم هناك شيثان لا بد من الإشارة اليهما ليكمل رأينا في مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معللا إن صح هذا التعبير :

الأول : أن مروان لم يكن عراقيا ولم يرض الإقامة في العراق ولم يُطل عشرة العراقيين من أهل المُجُون والعَبَث ، وإنما كان من أهل اليمامة أقام فيها لا يبرحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنسد قصيدته وظفر بجائزته عاد الى اليمامة وأقام فيها عامه ثم أستأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ، فهو أقرب الى شعر الجاهليين والإسلاميين منه الى شعر المُحدَثين من شعراء الحضارة العباسية ، تقرأه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو أو تكاد تخلو من الدعابة والحِقة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، يمتلئ البادية تمثيلا صحيحا ؛ ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقد رضى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا في أنهم كانوا يودون لو أستطاعوا إثارة على بشار وأبي نؤاس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أنى لهم ذلك ! وقد سَاطَ اللهُ عليهم لسان بشار وأبي نؤاس فاضطروا الى أن يحابوا هذين الشاعرين ويمتلقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يُجمعون على تقديم بشار وإثاره على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا آتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يُعنى بها علماء اللغة وهي وجهة المتانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يُقاس الى مروان في هذا أحد من شعراء العراق ، أما اذا آتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا آتخذنا اختلاف الفنون التي طرَقها الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبي نؤاس بنوع خاص ؛ على أن من علماء اللغة من أستطاع أن يكون شجاعا شريفا في فنّه لا يخاف

ولا يهاب فصدَّق نفسه وصدَّق الناس، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي ختم الشعر بمروان وأبى أن يدون لأحد من المحدثين بعده، والذي كان يُنشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان، وهي:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ * أَسْوَدُ لَهَا فِي بَطْنِ خَفَّانٍ أَشْبَلُ
هُمَّ يَمْنَعُونَ الجَارِ حَتَّى كَأَمَّا * لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَائِ كَيْنِ مَنزِلُ
لَهَا مِيمٌ فِي الإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ * كَأَوْطَمِ فِي الجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ القَوْمِ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا * أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْرَلُوا
وَلَا يَسْتَطِيعُ الفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ * وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

وكان ابن الأعرابي يقول: لو أت معنًا أعطى مروان كل ما يملك بهذه الأبيات لما بلغ حقه.

الثاني: أن مروان لم يكن سريعاً في الشعر ولا متعجلاً ولا مسترسلاً مع الطبع وإنما كان بطيئاً متمهلاً. كان يجيد الشعر لأنه كان يجوده. كان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها في هذه القصائد التي يُسمونها الحوِّليات، كان يُنفق أشهراً في إنشاء القصيدة وأشهرها في إصلاحها وأشهرها في عرضها حتى إذا استقام له هذا كله أنشد قصيدته لمدوحه خليفةً كان أو وزيراً أو أميراً، فليس عجيباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يُستنكر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معاً. ولقد يُحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن يُنشده الخلفاء. ولست أُشير إلا إلى سيرته مع بشار فلها معناها. كان مروان يعرض القصيدة على بشار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيِّدة أو بأنها رديئة، بل يُقدر له قيمة القصيدة مالياً، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا... وقد صدق بشار مرتين فأظهره مروان العجب من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إني أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

(١) همام واحداً له موم، وهو العظيم الكثير الخير.

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التي كان من شأنها أن تُجزل حظ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تناقض مفهوم، كان شديد الحرص على الإجداد، فكان يشك في شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك معجبا بنفسه لا يقدم عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير . وأسمع رأيه فيهم وفي نفسه، فقد عقده شعرا ليثبت كما يقول :

ذَهَبَ الْفَرَزْدَقُ بِالْفَخَّارِ وَإِنَّمَا * حُلُو الْقَرِيضِ وَمُرُهُ لِحَرِيرِ
ولقد هجأ فأمضَ أخطلُ تغليب * وحوى اللهمى بيانه المشهور
كلُّ الثلاثة قد أجادَ فدحه * وهجاؤه قد سارَ كلَّ مسير
ولقد جرئتُ ففتُ غير مهلل * بجرأٍ لا قرِفٍ ولا مهور
إني لآنف أن أحبرَ مدحة * أبداً لغير خليفة ووزير
ما ضرتني حسدُ اللئام ولم يزل * ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

أما رأى مروان في النقد فبديع، كان ينشد الشعر لأمرئ القيس ويقول : هو أشعرُ الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو أشعر الناس، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرآهم جميعاً أشعر الناس، قال ضاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأي يمثل الشك في نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

وننتقل من ذلك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبي حفصة على المهدي بعد وفاة معن، فأثسده مديحا فيه، فقال له المهدي : ألسنت القائل :

أقمنا باليمامة بعد معن * مقاما لا نريدُ به زوالا
وقلنا أين نرحل بعد معن * وقد ذهب النوالُ فلا نوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا . فلما كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فمثل بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء — :

طَرَقْتِكَ زَائِرَةً فِي خَيَالِهَا * بِيضَاءُ تَخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَالِهَا
 قَادَتْ فُؤَادَكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلُهَا * قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَالِهَا
 فَكَأَنَّهَا طَرَقَتْ بِنَفْحَةِ رَوْضِيَّةٍ * سَحَّتْ بِهَا دِيمُ الرِّبْعِ طِلَالِهَا
 بَاتَتْ تَسْأَلُ فِي الْمَنَامِ مُعَرَّسًا * بِالْبَيْدِ أَشْعَثَ لَا يَمَلُّ سَوَالِهَا
 فِي فِتْيَةٍ هَجَعُوا غِرَارًا بَعْدَ مَا * سَمُّوا مُرَاعِشَةَ السُّرَى وَمِطَالِهَا
 فَكَأَنَّ حَشَوَ ثِيَابِهِمْ هِنْدِيَّةً * نَحَلْتُ وَأَغْفَلْتُ الْقِيُونَ صِقَالِهَا
 وَضَعُوا الْخُدُودَ لِدَى سِوَاهُمْ جُنْحٍ * تَشْكُو كَلُومَ صِفَاحِهَا وَكَلَالِهَا
 طَلَبْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاصَلْتُ * بَعْدَ السُّرَى بَغْدُودَهَا أَصَالِهَا
 نَزَعْتُ إِلَيْكَ صَوَادِيًا فَتَقَاذِفْتُ * تَطْوِي الْفِصْلَةَ حَزُونَهَا وَرَمَالِهَا
 يَتْبَعُنَ نَاجِيَةً يَهْزُ مِرَاحُهَا * بَعْدَ النُّحُولِ تَلِيلُهَا وَقَدَالِهَا
 هُوَجَاءَ تَدَّرَعَ الرُّبَا وَتَشُقُّهَا * شَقَّ الشَّمْسُ إِذَا تَرَاعَ جَلَالِهَا
 تَنْجُو إِذَا دَفَعَ الْقَطِيعُ كَمَا نَجَتْ ^(٢) * خَرَجَاءُ ^(٣) بَادَرَتْ الظَّلَامَ رِنَالِهَا ^(٤)
 كَالْقَوْسِ سَاهِمَةٌ أَنْتِ كِ وَقَدْتَرِي * كَالْبُرْجِ تَمَلَأُ رَحْلَهَا وَجِبَالِهَا

ومنها .

أَحْيَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * سُنَنَ النَّبِيِّ حَرَامِهَا وَحَلَالِهَا
 مَلِكٌ تَفَرَّعَ نَبْعَةٌ مِنْ هَاشِمٍ * مَدَّ الْإِلَهَ عَلَى الْأَنَامِ ظِلَالِهَا
 جَبَلٌ لِأَمْتِهِ تَلُودُ بَرَكْنِهِ * رَادَى جِبَالٍ عَدُوَّهَا فَأَزَالِهَا

(١) التليل : العتق . (٢) تنجو : تسرع . (٣) الخرجاء : النعام . (٤) الرنال : فراخ

النعام واحد رأل .

لم يَعْشَمها مما يَخَاف عَظِيمَةً * إلا أَجَالَ لها الأُمُورَ مُجَالَهَا
 حَتَّى يُفَرِّجَها أَغْرَ مَهْدَب * أَلْفَى أباه مُفَرِّجًا أُمثالَها
 ثَبَّتْ على زَلَلِ الحِوَادِثِ رَاكِبٌ * من صَرَفَهِنَّ لِكُلِّ حَالٍ حَالِها
 كِتابَ يَدِيكَ جَعَلْتَ فَضَلَ نِوَالِها * لِلسَّامِينِ وَلِلعَدُوِّ وَبِأَها
 وَقَعْتَ مِواقِعَها بِعَفْوِكَ أَنفَسٌ * أَذْهَبَتْ بَعْدَ مَخَافَةٍ أَوْجَالَها
 وَنَصَبْتَ نَفْسَكَ خَيْرَ نَفْسٍ دُونَها * وَجَعَلْتَ مالِكَ وِاقِيًا أُمُوالِها
 هَلْ تَعْلَمُونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ * أَجْرَى لِغايَتِهِ التي أَجْرَى لها
 طَلَعَ الدَّرُوبَ مُشَمَّرًا عَنِ ساقِهِ * بِالخَيْلِ مُنصَلِبًا يُجِدُّ نَعالِها
 قُودٌ تَرَبِّعُ إلى أَغْرٍ لَوِجِها * نُورٌ يُضِيءُ أَمامِها وَخِلالِها
 قَصُرَتْ حِمالُهُ عليه فَقالَصَتْ * وَلَقَدْ تَحَفَّظَ قَينَها فَأَطاها
 حَتَّى إِذا وَرَدَتْ أَوائِلُ خَيْلِهِ * جِيحانَ بَثَّ على العَدُوِّ رِعالِها^(١)
 أَحْمَى بِلادَ المُسَلِّمِينَ عَليهِمُ * وَأَباحَ سَهْلَ بِلادِهِمُ وَجِبالِها
 أَدَمَتْ دِوَابِرَ خَيْلِهِ وَشَكِيمَها * غاراتِهِمُ وَأَلحَقَتْ أَطاها
 لَمْ يُبَيِّقْ بَعْدَ مُغارِها وَطِرادِها * إِلا نَحائِزِها^(٢) وَإِلا آها
 رَفَعَ الخَلِيفَةُ نَاطِرِيَّ وَرَاشِنِي * بِيَدِ مِبارَكَةِ شِكرَتُ نِوَالِها
 وَحَسِدتُ حَتَّى قِيلَ أَصْبَحَ باغِيًا * فِي المِشِيِّ مُتَرَفِّ شِيبَةٍ مُخْتالِها
 وَلَقَدْ حَذِوتُ لِمَنْ أَطاعَ وَمِنَ عَصِي * نَعالا وَرِثَ عَنِ النَبِيِّ مِثالِها

فَرَحَفَ المَهْدِيُّ مِنْ صَدْرِ مُصَلَّاهِ حَتَّى صارَ على البِساطِ إِعجابًا بما سَمِعَ ، ثُمَّ قالَ :
 كَمْ هي؟ قالَ : مائةَ بَيْتٍ ، فَأَمَرَ لَه بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَكانَتْ أَوَّلَ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُعطيَها
 شاعِرٌ في أَيامِ بَنِي العِباسِ ، وَهَكَذا فَعَلَ مَعَهُ الرِّشيدُ لما أَنشَدَهُ قَصيدَتَهُ التي يَقولُ فيها :

لَعَمْرُكَ ما أَنسى غَداءَ المُحَصِّبِ * إِشارةً سَمَّيَ بالبِنانِ المُخَضَّبِ
 وَقَدْ صَدَرَ المُحْجَّاجُ إِلا أَقلَّهُمُ * مِصادرَ شِتي مَوْجِبًا بَعْدَ مَوْكِبِ

(١) الرِعالُ : القِطْعُ مِنَ الخَيْلِ واحِداها رِعالَةٌ . (٢) النَحائِزُ : الانساعُ .

قال مروان : دخلتُ على المهدي في قصر السلام، فلما سلّمت عليه وذلك يعقب سُخْطه على يعقوب بن داود، فقلت : يا أمير المؤمنين، إن يعقوب رجل رافضى، وإنه سمعنى أقول فى الوراثه :

أنى يكونُ وليس ذاك بكائِنٍ * لىنى البناتِ وراثتهُ الأعمامِ
فذلك الذى حمّله على عداوتى، ثم أنشدته :

كانتُ أمير المؤمنين محمداً * لرأفته بالناس للناس والدُّ

فقال له المهدي : والله ما أعطيك إلا من صُلبِ مالى، فاعذرنى، وأمر لى بثلاثين ألف درهم وكسانى جبةً ومُطْرَفاً، وفرض لى على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفاً أخرى .

لما قديم معن من اليمن دخل عليه مروان والمجلس غاصُّ بأهله، فأخذ بعَضادَتى الباب وأنشأ يقول :

أرى القلبَ أمسى بالأوانس مولعاً * وإن كان من عهد الصِّبا قد تمتعا
ويقول فيها :

ولما سرى الهم الغريب قريته * قرى من أزال الشكَّ عنه وأزما
عزمتُ فبعجتُ الرحيل ولم أكن * كذى لؤثة لا يطلع الهمّ مطالعا
فأمت ركابى أرض معنٍ ولم تزل * الى أرض معنٍ حيثما كان تُزعا
نجائب لولا أنها سُخِّرت لنا * أبت عِزَّةً من جهلها أن تورعا
كسونا رجال الميس منها غوارباً * تدارك فيها النى صيفاً ومرّبعاً
فما بلغتُ صنعاء حتى تواضعتُ * ذراها وزال الجهلُ عنها وأقلعا

الى أن قال :

وما الغيثُ اذ عمّ البلادَ بصوبه * على الناس من معروف معنٍ بأوسعا
تدارك معن قبة الدين بعد ما * خَشِينا على أوتادها أن تُزعا

(١) الميس : شجر عظيم يتخذ منه الرجال . (٢) النى : الشمع .

أقام على الثَّغْرِ المَخُوفِ وهاشم * تُسَاقِ سِماما بِالأسِنَّةِ مُتَمَعَا
 مُقامَ امرئٍ يَأبى سِوى الخِطَّةِ الِتي * تَكُونُ لَدَى غِيبِ الأحادِثِ أنفعا
 وما أَحجمَ الأعداءُ عَنكَ بَقِيَّةً * عَلَيكَ وَلِكنْ لَمْ يَرُوا فِيكَ مَطْمَعَا
 رَأَوْا مُخَدِّراً قَدِ جَرَّبُوهُ وَعَينُوا * لَدَى غِيبِهِ مِنْهُمُ جَجْراً وَمَضْرَعَا
 وَليسَ بَثانِيهِ إِذا شَدَّ أَنْ يَرَى * لَدَى نَحْرِهِ زُرُقَ الأَسِنَّةِ شُرَعَا
 لَهُ رَاحَتانِ العِثُّ وَالخِثْفُ فِيهِمَا * أبا الله إِلا أَنْ تُضْرأَ وَتَنْفَعَا
 لَقَدْ دَوَّخَ الأعداءُ مَعْنُ فَأَصْبَحُوا * وَأَمْنُهُمْ لا يَدْفَعُ الذَّلَّ مَدْفَعَا
 نَجِيبُ مَنْجِيبٍ وَسَيِّدُ سادَةٍ * دُرَى المَجْدِ مِنْ فَرَعَى نِزارٍ تَفْرَعَا
 لَبانَتُ خِصالِ الخِيرِ فِيهِ وَأَكَلَتْ * وما كَلَّتْ نَحْماسُ سِنُوهُ وَأَرْبَعَا
 لَقَدْ أَصْبَحَتْ فِي كُلِّ شَرِيقٍ وَمَغْرِبٍ * بِسِيفِكَ أَعناقُ المُرَيِّينِ خُضَعَا
 وَطِئَتْ خُدودُ الحَضْرَمِيِّينَ وَطائَةً * لها هُدُ رُكنٌ مِنْهُمُ فَضَعَضَعَا
 فَأَقْعَوْا عَلى الأَذْناِبِ إِقْعاءَ مَعْشِرٍ * يَرُونَ لَزومَ السَّلْمِ أبقَى وَأودَعَا
 فَلو مُدَّتْ الأيْدى إِلى الحَرْبِ كَما * لَكِنْفُوا وما مَدَّوا إِلى الحَرْبِ أَصْبَعَا

فقال له معن : احتكم ، قال : عشرة آلاف درهم ، فقال معن : ربحنا عليك تسعين ألفا ،
 قال : أقلني ، قال : لا أقال الله من يُقيلك .

لما مات المهديّ وفدت العرب على موسى الهادي يهتونه بالخلافة ويعزونه عن
 المهديّ ، فدخل مروان فأخذ بعضادتي الباب وقال :

لقد أصبحت تحتال في كل بلدة * بقبر أمير المؤمنين المقابر

ولو لم تُسكن بأبنة في مكانه * لما برحت تبكي عليه المنابر

مرض عمرو بن مسعدة فدخل عليه مروان وقد أبلّ من مرضه ، فأنشأ يقول :

صَحَّ الجِسمُ يا عَمْرُو * لك التَّحْيِصُ والأَجْرُ

ولله علينا الحمد * دُ والمِنَّةُ والشُّكْرُ

فقد كان شكا شوقاً * إليك النهى والأمر

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألف درهم ، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مزيد ، فبينما نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مزيد ، وكانت فيه دُعاة ، فقال : يا أبا علي ، أودعني مروان خمسين ومائة ألف درهم ، وهو يشتري الخبز من البقال ، فغضب يحيى ثم قال : علي بمروان ، فأُتِيَ به ، فقال له : قد أخبرني أبو خالد بما أودعته من المال وما تتباعه من البقال ، والله لَمَا يَرَى من أثر البخل عليك أضرب من الفقر لو كان بك . ويروى أنه قال له : والله للبخل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صرَّت اليه فلا تبخل . وقال عمر بن شبة قال مروان : ما فرحت بشيء قط فرحي بمائة ألف وهبها لي أمير المؤمنين المهدي ، فوزتها فزادت درهما ، فاشترت به لحما . وقال جهَّم بن خلف : أتينا اليمامة فنزلنا على مروان بن أبي حفصة فأطعمنا تمرا وأرسل غلامه بفلس وسكرجة ليشتري زيتا ، فلما جاء بالزيت قال لغلامه : خُتِنِي ، قال : من فلس ! كيف أخونك ؟ قال : أخذتَ الفَلسَ لنفسك وأستوهبت الزيت . وقال التَّوَزِي : مرَّ مروان بن أبي حفصة في بعض سفرائه وهو يريد مغنى امرأة من العرب ، فأضافته ، فقال : لله علي إن وهب لي الأمير مائة ألف أن أهب لك درهما ، فأعطاه ستين ألف درهم ، فأعطاه أربعة دنانق . وقال أبو دعامة : آشتري مروان لحما بنصف درهم فلما وضعه في القدر وكاد ينضج دعاه صديق له ، فردَّه على القصاب بنقصان دانق ، فشكاه القصاب وجعل ينادى هذا لحم مروان ، وظنَّ أنه يأنف لذلك ، فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويلك ! ما هذا ؟ فقال : أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادي فأثسده قوله فيه :

تَشَابَهَ يَوْمًا بِأَسْهٍ وَنَوَالِهِ * فَمَا أَحَدٌ يَدْرِي لَأَيِّهِمَا الْفَضْلُ

فقال له الهادي : أيما أحب اليك ؟ أثلثون ألفا معجّلة ، أم مائة ألف تدون في الدواوين ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنت تُحسِن ما هو خير من هذا ، ولكمك أنسيته ، أفأذن لي أن أذكرك ؟ قال : نعم ، قال : تُعجّل لي الثلاثين ألفا وتُدون المائة ألف في الدواوين ، فضحك وقال : بل يُعجلان جميعا ، فحُمِلَ اليه المال أجمع .

قال محمد النوفلي : آجتاز مروان برجل من بأهله من أهل اليمامة ، وهو يُنشد قوما كان
جالسا اليهم شعرا مدح به مروان بن محمد ، وأنه قُتِل قبل أن يلقاه ويُشده إياه ، أوله :

مروانُ يابن محمد أنت الذي * زيدت به شرفا بنو مروان

فأعجبته القصيدة ، فأهمل الباهلي حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه في منزله فقال له : إني سمعت
قصيدتك وأعجبتني ، ومروان قد مضى ومضى أهله ، وفاتك ما قدرت عنده . أفتبيني
القصيدة حتى أنتحلها ، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير ؟ قال : نعم ؛ قال :
بكم ؟ قال : بثلاثمائة درهم ، قال : قد آبتعتها ، فأعطاه الدراهم وحلقه بالطلاق ثلاثا وبالأيمان
المُخرجة ألا ينتحلها أبدا ، ولا يتسبها الى نفسه ولا يُشدها ، وأنصرف بها الى منزله فقير
منها أبياتا وزاد فيها وجعلها في معن ، وقال في ذلك البيت :

معنُ بن زائدة الذي زيدت به * شرفا على شرف بنو شيبان

ووفد بها الى معن حتى أثرى وآتسعتُ حاله ، فكان معن أول من رفع ذكره ونوه به .
وله فيه مدائحُ بعد ذلك شريفة ومراثٍ حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب
معن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا ، فحدثني معن باليمن أنه اضطرت لشدة الطلب الى
أن قام في الشمس حتى لَوحتُ وجهه ، وخفف عارضيه ولحيته ، وليس جبّة صوف
غليظة ، وركب جملا من الجمال الثقالة يضي الى البادية فيقيم بها ، وكان قد أبلى في حرب يزيد
أبن عمر بن هُبيرة بلاء حسنا غاظ المنصور وجَدَّ في طلبه ، قال معن : فلما خرجتُ من باب
حرب تبغني أسود متقلدا سيفي حتى اذا غبتُ عن الحرس قبض على خِطام جملي فأناخه
وقبض عليّ ، فقلت له : مالك ؟ قال : أنت طليبة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى يطلبني
أمير المؤمنين ؟ قال : معن ابن زائدة ، قلت : يا هذا ، آتق الله ، وأين أنا من معن ؟ قال :
دع هذا عنك ، فأنا والله أعرفُ بك منك ، فقلت له : فإن كانت القصّة كما تقول ، فهذا
جوهر حملته معي يفي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي ، نخذه ولا تسفك دمي ، قال :
هانه ، فأخرجته اليه ، فنظر اليه ساعة وقال : صدقت في قيمته ، ولستُ قابله حتى أسألك

عن شيء ، فإن صدقتني أطلقك ، فقلت : قل ، قال : إن الناس قد وصفوك بالجوذ فأخبرني ، هل وهبت قط مالك كله ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فثلثه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فأستحييت ، فقلت : أظن أني قد فعلت هذا ، فقال : ما أراك فعلته ، أنا والله راجل ورزق من أبي جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبته لك ، وهبتك لنفسك ولجوذك المأثور عنك بين الناس ، ولتعلم أن في الدنيا أجود منك فلا تعجبك نفسك ، ولتُحقر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة ، ثم رمى بالعقد في حجرى وخطى خطام البعير وأنصرف ، فقلت : يا هذا ، قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون علي مما فعلت ، نخذ ما دفعته اليك فإني غني عنه ، فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقامى هذا ، والله لا أخذه ولا أخذ بمعروف ثمنا أبدا ومضى ، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبدلت لمن جاءني به ما شاء ، فما عرفت له خبرا وكان الأرض أبتلغته . وكان سبب رضا المنصور عن معن أنه لم يزل مسترا حتى كان يوم اذاشمية^(١) ، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب معن وهو متأمم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسنا وذبح القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد ؛ ثم جاء والمنصور راكب على بغلة وولجأها بيد الربيع فقال له : تنح فإني أحق بالجام منك في هذا الوقت وأعظم فيه غنا ، فقال له المنصور : صدق فادفعه اليه ، فأخذه ولم يزل يقاتل حتى أنكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا طلبتكم يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، قال : قد أمنتك الله على نفسك ومالك ومثلك يُصطنع ، ثم أخذه معه وخلع عليه وجأه وزينه ، ثم دعا به يوما فقال له : إني قد أملتك لأمر فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يجب أمير المؤمنين ، قال : قد وليتكم اليمن فابسط السيف فيهم حتى يُنقَص حلف ربيعة وأيمن ، وأبلغ من ذلك ما يجب أمير المؤمنين ، فولاه اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى

(١) مدينة بناها السفاح بالكوفة وذلك أنه لما ولي الخلافة نزل بقصر ابن هبيرة واستتم بناه وجعله مدينة وسماها الهاشمية ، فكان الناس ينسبونها إلى ابن هبيرة على العادة ، فقال : ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها ، فرفضها وبني حياها مدينة سماها الهاشمية ونزلها .

أسرف . قال مروان : وقدم معن بعقب ذلك فدخل على المنصور ، فقال له بعد كلام طويل :
قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لَغَضِبَ عليك ؛ قال :
وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معنُ بنُ زائدة الذي زِيدتُ به * شرفاً على شرف بنو شيبانِ

إن عُدَّ أيامَ الفِعالِ فإنما * يوماه يومُ ندى ويومُ طعانِ

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُه ما بَلَغَكَ لهذا الشعر ، وإنما أعطيتُه لقوله :

ما زِلتَ يومَ الهاشميةِ مُعلناً * بالسيفِ دونَ خليفةِ الرحمنِ

فمنعتَ حوزتهِ وكنتَ وقاه * مِن وقعِ كلِّ مهتدٍ وسنانِ

فاستحيا المنصور وقال : إنما أعطيتُه ما أعطيتَه لهذا القول ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛
والله لولا مخافةُ الشُّعْبةِ لأمكتته من مفاتيح بيوت الأموال وأبجته إياها ؛ فقال له المنصور :
لله دَرَكٌ من أعرابي ! ما أهونُ عليك ما يعزُّ على الرجال وأهل الحزم !

وأختم هذه الترجمة بموت مروان يَقْصُهُ قاتله . روى صاحب الأغاني عن رجل

يقال له صالح بن عطية الأَصْجَمِ أنه قال :

لما قال مروان :

أني يكونُ وليس ذاكُ بكائِنِ * لبني البناتِ وراثَةُ الأعمامِ

لَزِمَتْهُ وعاهدت اللهُ أن اغتاله فأقتله أي وقتِ أمكني ، وما زلتُ الألفه وأبره ، وأكتب
أشعاره حتى خُصِصَتْ به فأنس بي جدا ، وعرفتُ ذلك بنو حفصة جميعا فأنسوا بي ،
ولم أزل أطلب غيرةً حتى مرض من حمى أصابته ، فلم أزل أظهر له الجزع عليه والأزمه
والألفه حتى خلا لي البيت يوما ، فوثبتُ عليه فأخذتُ بحلقه فما فارقه حتى مات ، فخرجتُ
وتركتُه فخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وأرتفعت الصيحة ، فحضرتُ وتباكيتُ
وأظهرت الجزع عليه حتى دُفِنَ وما فِطِنَ لما فعلتُ أحد ولا آتهمني به .

٤ - أبو دَلَامَةَ^(١)

كان أوَّل ما حُفِظَ من شعره وأُسْنِيت الجوائزُ له به ، قصيدةٌ مَدَح بها أبا جعفر المنصور
وذَكَرَ قَتْلَهُ أبا مُسْلِمٍ يَقولُ فيها :

أبا مسلم خَوَّفَتْنِي القَتْلَ فَأَنْتَحَى * عليك بما خَوَّفَتْنِي الأَسَدَ الوَرْدُ^(٢)

أبا مسلم ما غَيَّرَ اللهُ نَعْمَةً * على عبده حتى يَغَيِّرَها العَبْدُ

أَنشدها المنصورَ في مَحْفَلٍ من الناس فقال له : أَحْتَكِمُ ، فطَلَبَ عَشْرَةَ آلافِ درهم ،
فَأَمَرَ له بها ، فلما خَلَا قال له : إِيه ، أَمَا والله لو تَعَدَّيْتَهَا لَقَتَلْتِكَ .

أمر أبو جعفر أصحابه بلبس السواد وقلانسٍ طَوَالٍ تُدَعَمُ بَعِيدَانِ من داخلها ، وَأَنْ يُعَلِّقُوا
السِيفَ في المَنَاطِقِ وَيَكْتُبُوا على ظُهُورِهِمْ : (فَسَيَكْفِيكُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فقال
أبو دَلَامَةَ :

وَكَأُ تُرَجِّي من إِمَامٍ زِيَادَةً * بِفَادٍ بَطُولٍ زَادَهُ في القَلَانِسِ^(٣)

تَرَاهَا على هَامِ الرِّجَالِ كَأَنَّهَا * دِنَانٌ يَهُودٍ جَلَّتْ بِالْبِرَانِسِ

وَدَخَلَ الى المنصور مرَّةً فَأَنشده :

إِن الخَلِيطَ أَجَدَّ البَيْنَ فَانْتَجَعُوا * وَرَوَدوكَ خَبَالًا ، نِثْمًا صَنَعُوا

والله يُعَلِّمُ أَنبَ كَادَتْ لِبَيْنِهِمْ * يَوْمَ الفِرَاقِ حَصَاةُ القَلْبِ تَتَصَدَّعُ

عَجَبْتُ من صِبْيَتِي يَوْمًا وَأُمَّهِمْ * أُمَّ الدَّلَامَةَ لَمَّا هَاجَهَا الجَزَعُ

(١) هوزند بن الجون ، وسمى أبا دلامة نسبة إلى ابنه دلامة ، وهو كوفي المنشأ أسود اللون مولى لبيبي أسد ،
وكان أبوه عبدا لرجل منهم فاعتقه . أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية ، ولكنه نبغ في الدولة العباسية ، وانقطع
إلى أبي العباس السفاح والمنصور والمهدى ، وكانوا يقصدونه ويصلونه ويستطيون بحماسة ونوادره ، وفيه دعاية
وظرف ، لا يخلو حديثه من نكتة أو ملحمة ، وكان مع ذلك معدودا في جملة المهتمين بالزندقة وفساد الدين ،
وكان يشرب الخمر ولا يحضر صلاة ولا فروضا . توفي سنة ١٦١ هـ . وأخباره في الأغاني (ج ٩ ص ١٢٠) وابن
خلكان طبع بلاق (ج ١ ص ٢٦٧) والشعر والشعراء (ص ٤٨٧) والدميري (ج ١ ص ١٣٢) والمستطرف
(ج ٢ ص ٤٣) . (٢) في الشعر والشعراء : "أبا مجرم" . (٣) في الطبري ج ٢ ص ٣٧١ طبع أوربا
"فزاد الامام المصطفى" .

لا بَارِكَ اللهُ فِيهَا مِنْ مُنْبَهَةٍ * هَبَّتْ تَلُومَ عِيَالِي بَعْدَ مَا هَجَعُوا
 وَنَحْنُ مُشْتَهِيهِ الْأَلْوَانِ أَوْجُهَنَا * سُودٌ قِبَاحٌ وَفِي أَسْمَانِنَا شَسْنَعٌ
 إِذَا تَسَكَّتْ إِلَى الْجُوعِ قَلْتُ لَهَا * مَا هَاجَ جُوعَكَ إِلَّا الرَّيُّ وَالشَّبَعُ
 لَا وَالَّذِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَضَى * لَكَ الْخِلَافَةَ فِي أَسْبَابِهَا الرَّفْعُ
 مَا زِلْتُ أَخْلِصُهَا كَسْبِي فِتْنًا كُلَّهُ * دُونِي وَدُونَ عِيَالِي ثُمَّ تَضْطَجِعُ
 شَوْهَاءُ مَشْنَأَةٌ فِي بَطْنِهَا يَجْرُ^(١) * وَفِي الْمَفَاصِلِ مِنْ أَوْصَالِهَا فَدَعُ
 ذَكَرْتُهَا بِكِتَابِ اللهِ حُرْمَتِنَا * وَلَمْ تَكُنْ بِكِتَابِ اللهِ تَتَفَرِّعُ
 فَأَخْرَجْتُمْ^(٢) ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُغْضَبَةٌ * أَنْتِ تَتْلُو كِتَابَ اللهِ يَا أَلْكَعُ
 أَخْرَجْ لِي تَبَخُّ لَنَا مَالًا وَمَزْرَعَةً * كَمَا لِحَيْرَانِنَا مَالٌ وَمُزْدَرَعُ
 وَأَخَذَعُ خَلِيفَتِنَا عَنَّا بِمَسْأَلَةٍ * إِنَّ الْخَلِيفَةَ لِلسُّؤَالِ يَنْخَدِعُ
 فضحك أبو جعفر وكتب له بضبعة .

كان واقفا بين يدي السَّفَاحِ فقال له : سلني حاجتك ، قال : كلب أتصيد به ، قال :
 أعطوه إياه ، قال : ودابة أتصيد عليها ، قال : أعطوه دابة ، قال : وغلّام يصيد بالكلب
 ويقوده ، قال : أعطوه غلاما ، قال : وجارية تُصَلِّحُ لَنَا الصَّيْدَ وتُطْعَمُنَا مِنْهُ ، قال :
 أعطوه جارية ، قال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك ، فلا بد لهم من دارٍ يسكنونها ، قال :
 أعطوهم دارًا تجمعهم ، قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أعطيتك مائة
 جَرِيْبِ عَامِرَةٍ ، ومائة جَرِيْبِ غَامِرَةٍ ، قال : وما الغامرة ؟ قال ما لا نبات فيه ، فقال : قد
 أقطعتك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جَرِيْبِ غَامِرَةٍ مِنْ فَيَافِي بَنِي أَسَدٍ ، فَضَحِكَ وَقَالَ :
 اجعلوها عامرة ، قال : فأذن لي أن أقبل يدك ، قال : أما هذه فدعها ، قال : والله ما منعت
 عيالي شيئا أقل ضررا عليهم منها ، قال الجاحظ : فأنظر الى حدقه بالمسألة ولطفه فيها ، ابتداء

(١) البحر : خروج السرة وتنوؤها ونظها أصلها . والقدح : أعوجاج في الرسع من اليد أو الرجل حتى يتقلب
 الكف والقدم الى إنسيها . (٢) أي غضبت .

بكل فسَهَل القصة به وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهية
لما وصل إليه .

قال علي بن سَلام : كنت أسقى أبا دلامة والسَّدي إذ خرجت بنتُ لأبي دلامة ،
فقال فيها أبو دلامة :

فما ولدتكِ مريمُ أمُّ عيسى * ولا ربَّكِ لقمان الحكيم

أجز يا أبا عطاء ، فقال :

ولكن قد تفضُّحك أمُّ سوءٍ * الى لبَّاتها وأبُّ لئيم

فضحك لذلك ، ثم غدا أبو دلامة الى المنصور فألفاه في الرَّحبة يصلح فيها شيئاً يريد ، فأخبره
بقصة ابنته وأنشده البيتين ، ثم أندفع فأنشده بعدهما :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ * قومٌ لقيل أقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلُّهم * الى السماء فأتهم أطهرُ الناس

وقدموا القائم المنصور رأسهم * فالعين والأنف والأذنان في الراس

فاستحسنها وقال : بأى شيء تحبُّ أن أعينك على قُبْحِ أبنتك هذه ؟ فأخرج خريطة كان
قد خاطها من الليل ، فقال : تما إلى هذه دراهم ، فمأثت فوسعت أربعة آلاف درهم .

لما توفَّى أبو العباس السفاح دخل أبو دلامة على المنصور والناس عنده يعزونه ، فأنشأ

أبو دلامة يقول :

أمسيت بالأنبار يا ابن محمدٍ * لم تستطع عن عُقرها تحويلا

وويلي عليك وويل أهل كلهم * ويلاً ووعولاً في الحياة طويلا

فلتبيكين لك النساء بعبرةٍ * وليد كين لك الرجال عويلا

مات الندى إذ متَّ يا ابن محمدٍ * فجعلته لك في التراب عديلا

إني سألتُ الناس بعدك كلهم * فوجدتُ أسمع من سألتُ بجيلا

أليسقوتي أحرَّت بعدك للتي * تدعُ العزيز من الرجال ذليلا

فلأحلفنَّ يمين حقِّ برةٍ * بالله ما أعطيتُ بعدك سُولا

فأبكى الناس قوله ، فغضب المنصور غضبا شديدا وقال : لئن سمعتك تُنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مكرما ، وهو الذي جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف اليه فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فسرى عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ، ولم أقبضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار الى جماعة ممن حضر ، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجهم فقالا : صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبي أيوب الخازن وهو مغيظ : ياسليمان ، ادفعها اليه وسيده الى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن على » وقد كان خرج بناحية الشام وأظهر الخلاف ، فوثب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين إني أعينك بالله أن أخرج معهم ، فوالله انى لمشئوم ، فقال المنصور : امض ، فإن يمئى يغلب شؤمك فأخرج ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجزب ذلك منى على مثل هذا العسكر ، فإنى لا أدري أيهما يغلب ، أيمنك أم شؤمى ، إلا أنى بنفسى أوثق وأعرف وأطول تجربة ، قال : دعنى من هذا فالك من الخروج بد ، فقال : إنى أصدقك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلها هزمت وكنت سببها ، فإن شئت الآن على بصيرة أن يكون عسكرك العشرين فافعل ، فاستغرب أبو جعفر ضحكا وأمره أن يتخلف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : أتى بي المنصور أو المهدي وأنا سكران ، فحلف ليُخرجنى في بعث حرب ، فأخرجنى مع رُوح بن حاتم المهلبى لقتال الشراة ، فلما التقي الجمعان قلت لروح : أما والله لو أتت حتى فرسك ومعى سلاحك لأثرت في عدوك اليوم أثرا ترتضيه ، فضحك وقال : والله العظيم لأدفعن ذلك إليك ولأخذنك بالوفاء بشرطك ، ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إلى ودعا بغيرهما فاستبدل بهما ، فلما حصل ذلك فى يدي وزالت عنى حلاوة الطمع قلت له : أيها الأمير هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت أبياتا فاسمعهما ، قال : هات ، فأنشدته :

(١) إني أستجرتك أن أقدم في الوعى * لتطاعن وتنازل وحراب
 فهب السيف رأيها مشهورة * فتركها ومضيت في الهرب
 ماذا تقول لما يحيى وما يرى * من واردات الموت في الشباب

فقال : دَعُ عنك هذا وسَتَعَلَّمْ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة : فقال : اخرج
 اليه يا أبا دلامة، فقلت : أَنَسِدُكَ اللهُ أَيُّهَا الأَمِيرُ فِي دَمِي، قال : والله لَتَخْرُجَنَّ، فقلت :
 أَيُّهَا الأَمِيرُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الآخِرَةِ وَأَخْرُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَنَا وَاللَّهِ جَائِعٌ مَا شَبِعَتْ
 مِنِّي جَارِحَةٌ مِنَ الْجَوْعِ، فُهِرْتُ بِشَيْءٍ آكَلَهُ ثُمَّ أَخْرَجَ، فَأَمَرَ لِي بِرَغِيفَيْنِ وَدَجَاجَةٍ، فَأَخَذْتُ
 ذَلِكَ وَبَرَزْتُ عَنِ الصَّفِّ، فَلَمَّا رَأَى الشَّارِي أِقْبَلَ نَحْوِي وَعَلَيْهِ فَرُّوْ قَدْ أَصَابَهُ الْمَطَرُ فَأَبْتَلَّ
 وَأَصَابَتْهُ الشَّمْسُ فَأَنْفَعَلَ وَعَيْنَاهُ تَقْدَانُ، فَأَسْرَعَ إِلَيَّ، فقلت له : على رِسْلِكَ يَا هَذَا، كَمَا أَنْتَ،
 فوقف، فقلت : أَتَقْتُلُ مِنْ لَا يَقَاتِلُكَ؟ قال : لا، قلت : أَتَقْتُلُ رَجُلًا عَلَى دِينِكَ؟ قال :
 لا، قلت : أَفْتَسْتَحِلُّ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوَ مَنْ تَقَاتِلُهُ إِلَى دِينِكَ؟ قال : لا، فاذهب عني
 إِلَى لَعْنَةِ اللهِ، قلت : لَا أَفْعَلُ أَوْ تَسْمَعَ مِنِّي، قال : قُلْ، قلت : هَلْ كَانَتْ بَيْنَنَا قِطْعٌ عَدَاوَةٌ
 أَوْ تِرَةٌ أَوْ تَعْرِفَنِي بِحَالٍ تُحْفِظُكَ عَلَيَّ أَوْ تَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَهْلِكَ وَتَرَا، قال : لا والله، قلت :
 وَلَا أَنَا وَاللَّهِ أَضْمِرُ لَكَ إِلَّا جَمِيلَ الرَّأْيِ، وَإِنِّي لِأَهْوَاكُ وَأَتَحَلُّ مَذْهَبِكَ، وَأَدِينُ دِينَكَ، وَأُرِيدُ
 السُّوءَ لِمَنْ أَرَادَهُ لَكَ، قال : يَا هَذَا جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا فَانصِرْ، قلت : إِنْ مَعِيَ زَادًا أَحَبُّ
 أَنْ أَكُلَهُ مَعَكَ وَأَحَبُّ مَوَاكِلِكَ لَتَنَا كَدَ المُوَدَّةِ بَيْنَنَا وَيَرَى أَهْلُ العَسْكَرِ هَوَانَهُمْ عَلَيْنَا، قال :
 فَأَفْعَلُ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ حَتَّى اخْتَلَفْتُ أَعْنَاقَ دَوَابِّنَا، وَجَمَعْنَا أَرْجُلَنَا عَلَى مَعَارِفِهَا وَالنَّاسُ قَدْ غَلِبُوا
 صَحِيحًا، فَلَمَّا اسْتَوْفِينَا وَدَعْنِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : إِنْ هَذَا الجَاهِلُ إِنْ أَقَمْتَ عَلَى طَلْبِ المَبَارَزَةِ
 نَدَبْنِي إِلَيْكَ فَتُسَبِّحُنِي وَتَتَعَبُ نَفْسَكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَلَّا تَبْرُزَ اليَوْمَ فَأَفْعَلُ، قال : قَدْ فَعَلْتُ،
 ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ وَأَنْصَرَفْتُ فَقُلْتُ لِرُوحٍ : أَمَا أَنَا فَقَدْ كَفَيْتُكَ قِرْنِي، فَقُلْ لغيري أَنْ يَكْفِيكَ قِرْنَهُ
 كَمَا كَفَيْتُكَ، فَأَمْسِكْ، وَخَرَجَ آخِرُ يَدْعُو إِلَى البِرَازِ، فَقَالَ لِي : اخْرُجْ إِلَيْهِ، فقلت :

(١) الحراب بمعنى المحاربة وفي الأغاني « ضراب » . (٢) هكذا بالأصل ولعلها : افعل، من قولهم افعلت يده : تقبضت .

إِنِّي أَعُوذُ بِرُوحِ أَنْ يَقْدَمَنِي * إِلَى الْبِرَازِ فَتَخْزِي بِي بِنُو أَسَدٍ
 إِنَّ الْبِرَازَ إِلَى الْأَقْرَانِ أَعْلَمُهُ * مِمَّا يَفْتَرِقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
 قَدْ حَافَلْتِكِ الْمَنَايَا إِنْ صَدَمَتْ لَهَا * وَأَصْبَحْتَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ بِالرَّصَدِ
 إِنَّ الْمُهَلَّبَ حَبَّ الْمَوْتِ أَوْرَثَكُمْ * وَمَا وَرِثْتُ أَخْتِيَارَ الْمَوْتِ عَنْ أَحَدٍ
 لَوْ أَنَّ لِي مُهْجَةٌ أُخْرَى جَلَدْتُ بِهَا * لَكِنَّمَا خُلِقْتُ فَرْدًا فَلَمْ أَجِدْ
 فَضْحَكَ وَأَعْفَانِي .

قال أبو أيوب المورياتي لأبي جعفر وكان يشنأ أبا دلامة : إن أبا دلامة مُعْتَكِفٌ عَلَى
 الْخَمْرِ ، فَمَا يَحْضُرُ صَلَاةً وَلَا مَسْجِدًا وَقَدْ أَفْسَدَ فِتْيَانَ الْعَسْكَرِ ، فَلَوْ أَمْرَتْهُ بِالصَّلَاةِ مَعَكَ لَأُجِرْتَ
 فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ فِتْيَانِ عَسْكَرِكَ بَقَطْعِهِ عَنْهُمْ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو دَلَامَةَ قَالَ لَهُ : مَا هَذَا الْمُجُونُ
 الَّذِي يَبْلُغُنِي عَنْكَ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا وَالْمُجُونُ وَقَدْ شَارَفْتُ بَابَ قَبْرِي ! ، قَالَ :
 دَعْنِي مِنْ أَسْتِكَانَتِكَ وَتَضَرَّعِكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَفُوتَكَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فِي مَسْجِدِي ، فَلَمَّا فَاتَتْكَ
 لِأَحْسَنِ أَدْبَاكَ وَلَا تُطِيلَنَّ حَبْسَكَ ، فَوَقِعَ فِي شَرِّ وَلِزْمِ الْمَسْجِدِ أَيَّامًا ، ثُمَّ كَتَبَ قِصَّةً وَدَفَعَهَا
 إِلَى الْمَهْدِيِّ فَأَوْصَلَهَا إِلَى أَبِيهِ وَكَانَ فِيهَا :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَزَنِي ^(١) * بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصِيرِ ، مَالِي وَالْقَصِيرِ
 أَصَلِّي بِهِ الْأَوَّلَى جَمِيعًا وَعَصَرَهَا * فَوَيْلِي مِنَ الْأَوَّلَى وَوَيْلِي مِنَ الْعَصْرِ
 أَصْلِبُهُمَا بِالْكُرْهِ فِي غَيْرِ مَسْجِدِي * فَمَالِي فِي الْأَوَّلَى وَلَا الْعَصْرِ مِنْ أَجْرٍ
 لَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِي مَسَاجِدُ جَمَّةً * وَلَمْ يَنْشَرْحْ يَوْمًا لَغَشِيَانَهَا صَدْرِي
 يَكْفُلُنْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَتْ حُطَّةً * يُحِطُّ بِهَا عَنِّي الثَّقِيلُ مِنَ الْوِزْرِ
 وَمَا ضَرَّهُ وَاللَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ * لَوْ أَنَّ ذُنُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى ظَهْرِي

فَقَالَ : صَدَقَ ، مَا يَضُرُّنِي ذَلِكَ ، وَاللَّهُ لَا يَصِلُنِي هَذَا أَبَدًا ، فَدَعُوهُ يَعْمَلُ مَا يَشَاءُ .

(١) لزه بالشئ : أزمه إياه .

وقال الهيثم في خبره : قد أعفيناك من هذا الحال ، ولكن على ألا تدع القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أظلل ، فقال : أفعل ، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدنك ، فقال أبو دلامة : البلية في شهر أخف منها في طول الدهر ، سمعاً وطاعة ، فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد ، وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حرسياً يجيء به ، فشق ذلك عليه وفرع إلى الخيزران وإلى أبي عبيد الله وكل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الإعفاء من القيام ، فلم يجبهم ، فقال له أبو عبيد الله : الدال على الخير كفاعله ، فكيف شكرك ؟ قال : أتم شكر ، قال : عليك بريطة فإنه لا يخالفها ، قال : صدقت ، ثم رفع إليها رقعة يقول فيها :

أبلغا رِيطةً أتي * كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمه الله * به وأوصى بي إليها
وأراها نَسِيئتي * مثل نسيان أخيبها
جاء شهر الصوم يمشي * مُشِيَّةً ما أشتها
قائداً لي ليلةً القدر * ركائي أبتغيها
تَطَّحَ القِبلةَ شمرا * جَهتني لا تأتليها
ولقد عشتُ زمانا * في فيافي وجيها
في ليالٍ من شتاء * كنت شيخاً أصطليها
قاعدًا أوقد ناراً * لضباب أشتويها
وصبوح وغبوق * في غلاب أحسبها
ما أبالي ليلةً القدر * ر ولا تُسمِعنيها
فأطلي لي فرجاً من * مها وأجرى لك فيها

فلما قرأت الرقعة صحكمت وأرسلت إليه : أصطبر حتى تمضي ليلة القدر ، فكتب إليها : إنى لم أسألك أن تكلميه في إعفائي عما قابلا ، وإذا مضت ليلة القدر فقد فني الشهر ، وكتب تحتها أبياتا :

خَافِي إِلَهِيكَ فِي نَفْسٍ قَدْ أَحْتَضِرْت * قَامَتْ قِيَامَتُهَا بَيْنَ الْمُصَلِّينَا
 مَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ مِنْ هَمِّي فَأَطْلُبَهَا * إِنِّي أَخَافُ الْمَنَايَا قَبْلَ عَشْرِينَا
 يَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَدْ كَسَّرَتْ أَرْجَلَنَا * يَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ حَقًّا مَا تُؤَمِّنُنَا
 لَا بَارِكُ اللَّهَ فِي خَيْرِ أَوْلَادِهِ * فِي لَيْلَةٍ بَعْدَ مَا قُمْنَا ثَلَاثِينَ

فلما قرأت الرُّقعة ضحكك ودخلت الى المهديّ فشفعت له اليه وأنشدته الأبيات ، فضحك حتى استأق ودعا به ورِيطةً معه في الجملة ، فدخل ، فأخرج رأسه اليه وقال : قد شققتنا رِيطةً فيك وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم ، فقال : أما شفاعة سيدتي فيّ حتى أعفيتني فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجبنى ما فعلته إما أن تُتمّها بثلاثة آلاف فتصير عشرة أو تُنقصني منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإني لا أحسن حساب السبعة ، فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أُعيدك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت ، فعبث به المهديّ ساعة ، ثم تكلمت فيه رِيطة ، فأتمّها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلامة في بعض الحانات فسكر وأنصرف وهو يميل ، فلقية العسس ، فأخذه وقالوا له : من أنت ، وما دينك؟ فقال :

دِينِي عَلَى دِينِ بَنِي الْعَبَّاسِ * مَا خُتِمَ الطِّينُ عَلَى الْقُرْطَاسِ
 إِنِّي أَصْطَحَبْتُ أَرْبَعًا بِالْكَاسِ * فَقَدْ أَدَارَ شُرْبُهَا بَرَّاسِي
 * فَهَلْ بَمَا قُلْتُ لَكُمْ مِنْ بَاسِ *

فأخذه ومضوا وخرقوا ثيابه وسأجه ، وأتى به أبو جعفر ، وكان يُوتى بكل من أخذه العسس ، فخبسه مع الدجاج في بيت ، فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرّة وجاريته مرّة ، فلم يجبه أحد ، وبينما هو في ذلك إذ سمع صوت الدجاج وزقأ الديوك ، فلما أكرث قال له السجان : ما شأنك؟ قال : ويلك من أنت؟ وأين أنا؟ قال : في الحبس وأنا فلان

(١) الساج : الطيلسان الأخضر ، وقيل الأسود .

السَّجَّانُ ، قال : من حبَّسني ؟ قال : أمير المؤمنين ، قال : ومن خرَّقَ طَيْلساني ؟ قال :

الْحَرَسُ ، فطلب منه أن يأتيه بدواةٍ وقرطاس ، ففعل ، فكتب الى أبي جعفر :

أمير المؤمنين فدتك نفسي * علام حبستني وخرقت ساجي

أمن صفراء صافية المزاج * كأن شعاعها لهب السراج

وقد طيخت بنار الله حتى * لقد صارت من النطف النضاج

تهش لها القلوب وتستهيها * اذا برزت تفرق في الزجاج

أقاد الى السجون بغير جرم * كأني بعض عمال الخراج

ولو معهم حبست لكان سهلاً * ولكني حبست مع الدجاج ٥ ٥ ٥

فدعا به وقال : أين حبست يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدجاج ، قال : فما كنت تصنع ؟

قال : أفوق معهن حتى أصبحت ، فضحك وخلي سبيله وأمر له بجائزة ، فلما خرج قال له

الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طيخت بنار الله ، يعنى

الشمس ؟ فأمر برده ، ثم قال : يا خبيث ، شربت الخمر ؟ قال : لا ، قال : أفلم تقل : طيخت

بنار الله تعنى الشمس ؟ قال : لا والله ما عنيت إلا نار الله الموقدة التي تطلع على فؤاد

الربيع ، فضحك وقال : خذها ياربيع ولا تعاود .

صام الناس في سنة شديدة الحر على عهد المهدي ، وكان أبو دلامة يتنجز جائزة أمر

له المهدي بها ، فكتب إليه أبو دلامة رقعة يشكو فيها أذى الحر والصوم ، وهي :

أدعوك بالرحم التي قد جمعت * في القرب بين قريتنا والأبعد

إلا سمعت وأنت أكرم من مشي * من منشد يرجو جزاء المنشد

جاء الصيام فصمته متعبدا * أرجو رجاء الصائم المتعبدا

ولقيت من أمر الصيام وحره * أمرين قيسا بالعذاب المؤصد

وسجدت حتى جبهتي مشجوجة * مما يناطحني الحصا في المسجد

فأمن بتسريحى بمطك بالدى * أسلفتني من البلاء المرصد

فلما قرأ المهدي رُفَعَتْهُ غَضَبٌ وَقَالَ : أَيُّ قَرَابَةٍ بَيْنِي وَبَيْنَكَ؟ قَالَ : رَحِمُ آدَمَ وَحَوَّاءَ ،
أَتَسَيَّبَتَهُمَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَضَحِكَ وَقَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا نَسَيْتُهُمَا ، وَأَمْرٌ بِتَعْجِيلٍ مَا أَجَازَهُ بِهِ
وَزَادَ فِيهِ ، وَأَنشَدَهُ أَيضًا فِي ذِمِّ الصَّوْمِ :

هَلْ فِي الْبِلَادِ لِرِزْقِ اللَّهِ مُفْتَرِشٌ * أَمْ لَا فَنَفِي جِلْدِهِ مِنْ حُشْنَةِ بَرَشٍ^(١)
أَصْحَى الصِّيَامِ مُنِيحًا وَسَطَ عَرَصَتِنَا * لَيْتَ الصِّيَامَ بِأَرْضِ دُونِهَا جُرَشٌ
إِنْ صَمْتُ أَوْجَعَنِي بَطْنِي وَأَقْلَقَنِي * بَيْنَ الْجَوَانِحِ مَسُّ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ
وَإِنْ خَرَجْتُ بَلِيلٍ نَحْوَ مَسْجِدِهِمْ * أَضْرَنِي بَصَرَ قَدْ خَانَهُ الْعَمَشُ

دخل أبو دلامة على سعيد بن دعلج مولى بني تميم فقال :

إِذَا جِئْتَ الْأَمِيرَ فَقُلْ سَلَامٌ * عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ الرَّحِيمِ
وَأَمَّا بَعْدُ ذَاكَ فَعَلَى غَرِيمٍ * مِنَ الْأَعْرَابِ قُبْحٌ مِنْ غَرِيمِ
غَرِيمٍ لَا زَمٌّ بِفِنَاءِ بِلْتِي * لَزَوْمِ الْكَلْبِ أَصْحَابَ الرَّقِيمِ
لَهُ مِائَةٌ عَلَى وَنِصْفُ أُخْرَى * وَنِصْفُ النَّصْفِ فِي صَكِّ قَدِيمِ
دِرَاهِمٌ مَا انْتَفَعْتُ بِهَا وَلَكِنْ * وَصَلْتُ بِهَا شَيْوْخَ بَنِي تَمِيمِ
أَتَوْنِي بِالْعَشِيرَةِ يَسْأَلُونِي * وَلَمْ أَكُ فِي الْعَشِيرَةِ بِاللَّئِيمِ

فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهما وقال : ما أساء من أنصف ، وقد كافأته عن
قومك وزدتك مائة .

دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته في بغلته المشهورة :

أَتَانِي ، بِغَلْمَةٍ لَيْسَتْ أَمْنِي ، * عَرِيْقٌ فِي الْخَسَارَةِ وَالضَّلَالِ
فَقَالَ تَتَّبِعُهَا قَلْتُ أَرْتَبِطُهَا * بِجُحُكِكَ إِنْ بَيَّعِي غَيْرُ غَالِ
فَأَقْبَلَ ضَاحِكًا نَحْوِي سُرُورًا * وَقَالَ أَرَاكَ سَمِّحًا ذَا جَمَالِ
هَلُمَّ إِلَى يَخْلُو بِي خِدَاعًا * وَمَا يَدْرِي الشَّقِي لِمَنْ يُخَالِي

(١) البرش : فقط بيض في الجلد .

فقلتُ بأربعين، فقال أحسنُ * إلى فإنّ مثلك ذو سجال
فأتركُ خمسة منها لعلمي * بما فيه بصيرُ من الخبال

فقال المهدي : لقد أفلتت من بلاء عظيم ، قال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا
أتوقع صاحبها أن يردّها ، ثم أنشدّه :

فأبدلني بها يارب طرُفا * يكون جمال مرّكبه جمالي

فقال لصاحب دوابّه : خير من الإصطبل بين مركبين ، قال : يا أمير المؤمنين إن كان
الاختيار لي وقعت في شرّ من البغلة ، ولكن مرّه أن يختار لي ، فاختر له .

خاصم رجل أبا دلامة في داره فارتفعا الى عافية القاضي ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتني دهاة الرجال * وخاصمتها سنة وافية
فأدحض الله لي حجة * ولا خيب الله لي قافية
ومن خفت من جوره في القضاء * فلست أخافك يا عافية

فقال له عافية : والله لأشكوّنك الى أمير المؤمنين ، ولأعلمته أنّك هجوتني ، قال : إذا
يعزلك ، قال : ولمّه ؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء ، فبلغ ذلك المنصور فضحك
وأمر لأبي دلامة بجائزة .

دخل أبو دلامة على المهديّ وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس
ابن محمد ومحمد بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم فقال له : أنا اعطى الله عهدا
لئن لم تهجّ واحدا من في البيت لأقطعن لسانك ، فنظر اليه القوم ، فكلما نظر الى واحد منهم
غمزه بأن عليه رضاء ، قال أبو دلامة : فعلمت أنّي قد وقعت وأنها عزيمة من عزماته لا بد
منها ، فلم أر أحدا أحقّ بالهجاء مني ، ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامه * فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قردا * وخنزيرا إذا نزع العمامه

جَمَعَت دَمَامَةً وَجَمَعَت لَوْمًا * كَذَلِكَ اللُّؤْمُ تَتَّبِعُهُ الدَّمَامَةُ
 فَإِنْ تَكْ قَدْ أَصْبَهْتَ نَعِيمَ دُنْيَا * فَلَا تَفْرَحْ فَقَسِدَ دُنَيْتِ الْقِيَامَةَ
 فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازته .

خرج المهديّ وعليّ بن سليمان إلى الصيد، فسَنَحَ لَهَا قِطْعَ مِنَ الطَّيِّبِ، فَأَرْسَلَتْ
 الكلاب وأجريت الخيل، فرمى المهديّ ظبياً بسهم فصرعه، ورمى عليّ بن سليمان، فأصاب
 بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلامة :

قَدْ رَمَى المَهْدِيُّ ظُبِيًّا * شَكَّ بِالسَّهْمِ فَوَادَهُ
 وَعَلِيٌّ بِنَ سُلَيْمَانَ * نَ رَمَى كَلْبًا فَصَادَهُ
 فَهَيْئَتَا لَهَا كَلٌّ * لَأَمْرِي يَأْكُلُ زَادَهُ

فضحك المهديّ حتى كاد يسقط عن سرجه وقال : صدق والله أبو دلامة، وأمر له بجائزة
 سنّية، فلقّب عليّ بن سليمان صائد الكلب، وعلق به .

أنشد أبو دلامة المنصور يوماً :

هَاتِيكَ وَالذِّي عَجُوزٌ هَمَّةٌ^(١) * مِثْلَ البَلْبَةِ دِرْعِمًا فِي المَشْجَبِ^(٢)
 مَهْزُولَةٌ اللَّحْيَيْنِ مِنْ يَرَاهَا يُقْلِ * أَبْصَرْتُ غُولًا أَوْ خِيَالَ القَطْرِبِ^(٣)
 مَا إِنْ تَرَكْتَ لَهَا وَلَا لِابْنِ لَهَا * مَا لَا يُؤْمَلُ غَيْرَ بَكْرٍ أَجْرِبِ
 وَدَجَائِبًا نَحْمَسًا يَرْحَنُ اليَهُمُ * لَمَّا يَبْضُنَ وَغَيْرَ عَنَزٍ مَغْرِبِ^(٤)
 كَتَبُوا إِلَى صَحِيفَةٍ مَطْبُوعَةٍ * جَعَلُوا عَلَيْهَا طِينَةً كَالْعَقْرِبِ
 فَعَلِمْتَ أَنَّ الشَّرَّ عِنْدَ فِكَا كَمَا * فَفَكَكْتُمَا عِنَ مِثْلِ رِيحِ الجُورِبِ
 وَإِذَا شَبِيهِه بِالْأَفَاعِي رُقِشَتْ * يُوعِدُنِي بِتَأْمِظٍ وَتَشْوَبِ
 يَشْكُونَ أَنَّ الجُوعَ أَهْلَكَ بَعْضَهُمْ * لَرَبًّا فَهَلْ لَكَ فِي عِيَالِ لُرَبِ

(١) همة : هزيمة . (٢) المشجب : خشبات مونة منصوبة توضع عليها الثياب وتنتشر .

(٣) القطرب : ذكر الغيلان . (٤) المغرب : الأبيض من كل شيء .

لا يسألونك غيرَ طَلِّ سَحَابَةٍ * تَغْشَاهُمْ مِنْ سَيْلِكَ الْمُتَحَطِّبِ
يا باذَلْ الخِيراتِ يابْنَ بَدُوْهَها * وَأَبْنَ الكِرَامِ وَكُلَّ قَرِيمٍ مُنْجِبِ
أَتَمَّ بنو العباسِ يُعَلِّمُ أَنْكَمِ * قَدِمًا فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمِ أَشْهَبِ
أَحْلَاسِ خَيْلِ اللَّهِ وَهِيَ مُغَيَّرَةٌ * يَخْرُجَنَّ مِنْ خَلَلِ الْعُبَارِ لِأَلَّ كَهَبِ

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت الدار قريبة من قصره، فأمر أن تزداد في قصره بعد ذلك لحاجة دعتها إليها، فدخل عليه أبو دلالة فأنشده قوله :

يابن عمِّ النَّبِيِّ دَعْوَةَ شَيْخِ * قَدْ دَنَا هَدْمُ دَارِهِ وَدَمَارُهُ
فهو كالماخض التي أعتادها الطلُّ * قُفِّ ففَقَرْتُ وَمَا يَقَرُّ قَرَارُهُ
إِنْ تُحْزِ عُسْرَةٌ بِكَفِّكَ يَوْمًا * فَبِكَفِّكَ عُسْرُهُ وَيَسَارُهُ
أَوْ تَدْعُهُ فَلِلْبَوَارِ وَأَنْي * وَلِمَاذَا وَأَنْتَ حَيٌّ بَوَارُهُ
هل يخاف الهلاك شاعر قومٍ * قُدِّمْتُ فِي مَدِيحِهِمْ أَشْعَارُهُ
لكم الأرض كلها فأعبروا * شَيْخَكُمْ مَا أَحْتَوَى عَلَيْهِ جِدَارُهُ
فكأن قد مضى وخلف فيكم * مَا أَعْرَمْتُمْ وَأَقْفَرْتُمْ مِنْهُ دَارُهُ

فاستعبر المنصور وأمر بتعويضه دارا خيرا منها ووصله .

دخل على المهدي يوما وعنده مُحْرِزٌ ومُقاتِلٌ ابنا ذُوْالِ يَعْتَابِنَهُ عَلَى تَقْرِيبِهِ أَبَا دِلَامَةَ
ويعيانه عنده فقال :

ألا أيها المهدي هل أنت مُحْرِي * وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ سَائِلِي
ألم ترحم اللعين من لحيتهما * وَكَلْتَاهُمَا فِي طَوْلِهَا غَيْرِ طَائِلِ
وإن أنت لم تفعل فهل أنت مُكْرِمِي * بِحَلْقِهِمَا مِنْ مُحْرِيٍّ وَمُقَاتِلِ
فإن يأذن المهدي لي فيهما أقل * مَقَالًا كَوَقْعِ السَيْفِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِ
وإلا تدعني والهموم تتوبني * وَقَلْبِي مِنَ الْعَلَجِينَ جَمُّ الْبَلَابِلِ

(١) يقال : فلان من أحلاس الخيل ، أى من راضتها وسأستها والملازمين ظهورها .

فقال : أوأخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يفديان بهما أعراضهما منك ، قال :
ذلك الى أمير المؤمنين ، فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع اليها رُقعة قد كتبها الى الخيزران فيها :

أبلغني سيدي بالله * به يا أم عبيده

أنها أرشدها الله * به وإن كانت رشيدة

وعدتني قبل أن تخ * رج للحج وليده

فتأتيت وارساء * بت بعشرين قصيده

كلما أخلقن أخلف * بت لها أخرى جديدة

ليس في بيتي لتمهي * بد فراشي من قعيده

غير عَجْفَاءَ عَجُوزٍ * ساقها مثل القديده

وجهها أقبح من حُو * ت طرى في عصيده

ما حياة مع أنثى * مثل عرسى بسعيده

فلما قرئت عليها الأبيات ضحكت واستعادتها منه لقوله : « حوت طرى في عصيدة »

وجعلت تضحك ووهبت له جارية .

دخل يوما على المهدي فخادته ساعة وهو يضحك وقال له : هل بقي أحد من أهلي لم

يصلك ؟ قال : إن أمتني أخبرتك وإن أعفيتني فهو أحبُّ إلي ، قال : بل تُخبرني وأنت

أمن ، قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بنى العباس ، قال : ومن هو ؟ قال : عمك العباس

ابن محمد ، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : جأ عنقه ، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة :

تَحَّ يا عبدَ السُّوءِ لا تُنْحِثْ مولاكَ وتُنْكِثْهُ عهدَه وأمانَه ، فضحك المهدي وأمر الخادم

ففتح عنه ، ثم قال لأبي دلامة : ويلك ! والله عمي أبجلُّ الناس ، فقال أبو دلامة : بل

هو أنثى الناس ، فقال له المهدي : والله لو مِيت ما أعطاك شيئا ، قال : فإن أنا أتيتسه

فأجازني؟ قال: لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم، فأصرف أبو دلامة فخر للعباس
قصيدة، ثم غدا بها عليه وأنشده:

قِفْ بالديار وأى الدهر لم تَقِفْ * على المنازل بين الظَّهْرِ والنَّجَفِ
وما وقوفك في أطلال مَترلة * لولا الذى أَسْتَدْرَجْتَ من قلبك الكِفِ
ان كنت أصبحت مشغوفاً بساكنها * فلا وربك لا تُسْفِك من شَغَفِ
دَعُ ذَا وَقُلْ فى الذى قد فاز من مُضِر * بالمَكْرُمات وعِزٍّ غيرِ مُقْتَرَفِ
هذى رسالة شيخ من بنى أسد * يهْدِي السلام الى العباس فى الصُّحُفِ
تُحْطِها من جوارى المصر كاتبة * قد طالما صَرَبْتَ فى اللام والألفِ
وطالما اختلفت صَيِّفاً وشائبة * الى مُعَلِّمها باللَّوحِ والكِتِفِ^(١)
حتى اذا نهدَ التَّدْيَانِ وأمتلاً * منها وخيفت على الإسرافِ والقَرَفِ
صينت ثلاث سنين ما ترى أحدا * كما يصون تجار دُرَّة الصَّدَفِ
فبينما الشيخ يهوى نحو مجلسه * مُبَادِرًا لصلاة الصبح بالسَّدَفِ^(٢)
حانت له تحفة منها فأبصرها * مُطَلَّةً بين سِجْفِيها من العُرْفِ
نَحَرَ والله ما يدرى غَدَاتِيذِ * أحرُّ منكِشاً أم غير منكِشفِ
وجاءه الناس أفواجا بمأثم * ليَغْسِلوا الرجل المَغْشَى بالنُّطْفِ
ووسوسوا بقران فى مسامعه * نخافه الجن والإنسان لم يَخَفِ
شيئاً ولكنه من حب جارية * أمسى وأصبح موقوفاً على التَّنَفِ
قالوا لك الويل ما أبصرت قلت لهم * تطلعت من أعلى القصر ذى الشُّرْفِ
فقلت أَيْكُمْ والله يأجره * يُعِين قوته فيها على ضَعْفِ
فقام شيخ بهي من رجالهم * قد طالما خدع الأقوام بالحَلْفِ
فأبتاعها لى بالنقى درهم فأتى * بها إلى فالتقاها على كَتِفِي

(١) الكتف: عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس.

(٢) السدف: الضوء وأقبال الصبح.

فَيَنْ ذَاكَ كَذَا إِذْ جَاءَ صَاحِبُهَا * يَبْغِي الدَّرَاهِمَ بِالْمِيزَانِ ذِي الْكِفِّ
وَذِكْرُ حَقٍّ عَلَى زَنْدٍ وَصَاحِبِهِ * وَالْحَقُّ فِي طَرْفِ وَالطَّيْنِ فِي طَرْفِ
وَيَيْنَ ذَاكَ شَهْوَدٌ لَا يَضُرُّهُمْ * أَكُنْتُ مُعْتَرِفًا أَمْ غَيْرَ مُعْتَرِفِ
فَإِنْ يَكُنْ مِنْكَ شَيْءٌ فَهُوَ حَقُّهُمْ * أَوْ لَا فَإِنِّي مُدْفُوعٌ إِلَى التَّلْفِ

فضحك العباس وقال : ويحك ! أصادق أنت ؟ قال : نعم والله ، قال : يا غلام أَدْفَعْ
إِلَيْهِ أَلْفِي دَرَاهِمَ مِنْهَا ، فَأَخَذَهَا ثُمَّ دَخَلَ عَلَى الْمَهْدِيِّ فَأَخْبَرَهُ الْقِصَّةَ وَمَا آحْتَالَ لَهُ ، فَأَمَرَ لَهُ
الْمَهْدِيُّ بِسِتَّةِ آلَافِ دَرَاهِمَ ، وَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : كَيْفَ لَا يَضُرُّهُمْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لِأَنِّي مُعْدِمٌ
لَا شَيْءَ عِنْدِي .

دَخَلَ عَلَى إِسْحَاقَ الْأَزْرَقِ يَعُودُهُ ، وَكَانَ إِسْحَاقُ قَدْ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا ثُمَّ تَعَافَى مِنْهُ
وَأَفَاقَ ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ ضَعِيفًا وَعِنْدَ إِسْحَاقِ طَيْبٌ يَصِفُ لَهُ أَدْوِيَةَ تُقَوِّى بَدَنَهُ ، فَقَالَ
أَبُودَلَامَةَ لِلطَّيِّبِ : أَتَيْصِفُ هَذِهِ الْأَدْوِيَةَ لِرَجُلٍ أَضْعَفُهُ الْمَرَضُ ؟ مَا أَرَدْتَ وَاللَّهِ إِلا قِتْلَهُ ،
ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى إِسْحَاقِ فَقَالَ : اسْمَعْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مِنِّي ، قَالَ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا أَبَا دَلَامَةَ ،
فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

نَحَّ عَنْكَ الطَّيِّبُ وَأَسْمَعُ لِنَعْتِي * إِنِّي نَاصِحٌ مِنَ النَّصَاحِ
ذُو تَجَارِيِبٍ قَدْ تَقَلَّبْتُ فِي الصَّحْرِ * لَمَّةٌ دَهْرًا وَفِي السَّقَامِ الْمُنَاحِ
غَادِ هَذَا الْجَبَابَ كُلَّ صَبَاحٍ * مِنْ مُتُونِ الْفَيْتِيَةِ السَّحَّاحِ
فَإِذَا مَا عَطِشْتُمْ فَاشْرَبُوا ثَلَاثًا * مِنْ عَتِيقٍ فِي الشَّمِّ كَالْتَفْاحِ
ثُمَّ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَأَعْكُفْ عَلَى ذَا * وَعَلَى ذَا بِأَعْظَمِ الْأَفْدَاحِ
فُتَقَوِّى ذَا الضَّعْفِ مِنْكَ وَتَلْقَى * عَنِ لَيْالٍ أَصَحَّ هَذِي الصَّحَّاحِ

فضحك إسحاق وعوده وأمر لأبي دلامة بخمسة درهم ، وكان الطيب نصرانياً
فقال : أعوذ بالله من شرك يارك « يريد يارجل » وقال الطيب : أقبل مني أصلحك الله

ولا تسألني عن شيء قدامه، فقال أبو دلامة: أما وقد أخذت أجرة صفتي وقضيت الحق في نصيح صديقي فانعت له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهديّ وبين يديه سلمة الوصيف واقفا، فقال: إني أهديت اليك يا أمير المؤمنين مهراً ليس لأحد مثله، فان رأيت أن تُشرّفني بقبوله، فأمر بإدخاله إليه، فخرج وأدخل إليه دابته التي كانت تحته، فاذا برذون محطّم أعجف هيرم، فقال له المهديّ: أيّ شيء هذا؟ ألم تزعم أنه مهراً؟ قال له: أو ليس هذا سلمة الوصيف بين يديك قائماً، تسميه الوصيف وله ثمانون سنة، وهو عندك وصيف؟ فاذا كان سلمة وصيفاً فهذا مهراً، فجعل سلمةً يسمّيه والمهديّ يضحك، ثم قال المهديّ لسلمة: ويلك! إن لهذه منه أخوات، وإن أتى بها في محفل فضحك، فقال أبو دلامة: والله لأفضحنه يا أمير المؤمنين، فليس من مواليك أحد إلا وقد وصلني غيره، فاني ما شربت له الماء قط، قال: فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يدك، قال: قد فعلت على ألا يعاود، فقال له: ما ترى؟ قال: أفعّل، فلولا أنّي ما أخذت منه شيئاً قط ما فعلت معه مثل هذه، فمضى سلمة فحملها إليه .

٥ - أبان بن عبد الحميد اللاحق^(١)

ذكرنا في المجلد الأول أن أبان كان صديقاً للبرامكة متصلاً بهم أشد اتصال ، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم ، جدها وهزلها ، صعبتها وهينها . وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي ، وبالغوا في ذلك حتى جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات . فغضب الشعراء لذلك ، وكان أشدهم غضبا أبو نواس الذي كان يكره البرامكة كرها شديدا ، وكانت بينه وبين أبان مهاجاةً ذكرها صاحب الأغاني .

وكان أبان صديقا للمعدّل بن عيّلان ، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء ، فيهجوه المعدّل بالكفر وينسبه الى الشؤم . ويهجوه أبان وينسبه الى الفسّاء الذي تُهَجَّى به عبد القيس وبالقصّر ، وكان المعدّل قصيرا . فسعى في الإصلاح بينهما أبو عيينة المهلبيّ ، فقال له أخوه عبد الله وهو أسنّ منه : يا أخي إن في هذين شرّاً كثيرا ولا بد من أن يُخرجاه ، فدعهما ليكون شرهما بينهما وإلا فترقاه على الناس .

ومن قوله يهجو أبا النضير :

إذا قامت بوايك * وقد هتكن أستارك

أيتنين على قبر * لك أم يلعن أحجارك

وما تترك في الدنيا * اذا زرت غدا نارك

تري في سقر المشوى * وإبليس غدا جارك

بلى تترك بايك * ودياك وأوتارك

ونحسامن بنات اللد * مل قد ألسن أطارك

تعالى الله ما أقب * ح إذ وليت أدبارك

(١) تجد ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢٩ وقد ذكرناه هنا بمناسبة ذكر ما عثرنا عليه من منظومته لكتاب كليله ودمته . وقد أضفنا هنا ما لم نذكره في ترجمته هناك .

خرج أبان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدة مديدة لا يصل إليه ، فتوسل الى من وصل له شعرا اليه ، وقال له :

يا عزيزَ النَّدى ويا جوهراً الجو * هير من آل هاشمٍ بالبِطَاح
 إن ظننى ، وليس يُخْلِفَ ظنّى * بك فى حاجتى سبيلَ النَّجاح
 إن من دونها لمُصمَّتَ بابٍ * أنت من دون قُفله مِفْتَاحى
 تاقَت النفسُ يا خليلَ السَّماح * نحو بحر النَّدى مُجارى الرياح
 ثم فَكَّرْتُ كيف لى وأَسْتخِرْتُ الله * عند الإِمْساء والإِصباح
 وأمتدحتُ الأميرَ أصلحه الله * بشعرٍ مُشهر الأوضاح

فقال : هات مديحك ، فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُعجَب بنفسه ، مدللٌ بعلمه وأدبه ، تياه لا حد لتيه وغروره :

أنا من بغيضة الأمير وكتر * من كنوز الأمير ذو أرباح
 كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديب * ناصحٌ زائدٌ على النَّصاح
 شاعرٌ مُفلقٌ أخف من الريد * شمة مما يكون عند الجناح

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأول .

وكان أبان شديد الحرص على المال يُضحى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيده والرأى . وكان يحسد مروان بن أبى حفصة لمكانه من الرشيد ولظفره بالصلوات الضخمة والجوائز السنية ، فقد آتمى الأمر بنى العباس مع مروان بن أبى حفصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، فغاض ذلك أبان وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان ، فعاتب أبان البرامكة على تركهم إيصاله للرشيد وإيصال مديحه اليه ، فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا : إن لذلك مذهبا فى هجاء آل أبى طالبٍ وذمهم ، به يحظى وعليه يُعطى ، فأسلكه حتى تفعل ، قال : لا أستحل ذلك ، قالوا : فما تصنع ، لا يجيئ طلب الدنيا إلا بما لا يحل ! فقال أبان :

نَسَدَتْ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا * أَمَّ بِمَا قَدَّ قَلْتُهُ الْعَجَمَ وَالْعَرَبَ
 أَمَّ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً * لَدَيْهِ أُمُّ ابْنِ الْعَمِّ فِي رُبَيْبَةِ النَّسَبِ
 وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ * وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التُّرَاثِ بِمَا وَجَبَ
 فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقَّ بِتَلْكَكُمْ * وَكَانَ عَلَى بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى سَبَبِ
 فَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمْ يَرِثُونَهُ * كَمَا الْعَمُّ لِابْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجَبَ

وهي طويلة .

فقال الفضل : ما يردُّ على أمير المؤمنين اليومَ شيءٌ أعجَبُ من أبياتك . فركبَ فأنشدها
 الرشيدَ ، فأمرَ لأبانَ بعشرين ألفَ درهم . ثم اتَّصلَ مدحُه للرشيد بعد ذلك وخصَّ به .
 وكان أبانُ هجاءَ قبيح اللسان ، وكان مع هذا شريراً قاسياً يؤثر الشرَّ ويحدُّ فيه لذة .
 وقد رَوَى له أبو الفرج قصةً تمثِّلُ نصيبه من القسوة وحبَّ الشرِّ ، كما أنها تعطينا صورة
 من شعره ومن الحياة في عصره . قالوا : كان يُقيمُ بالقرب من أبان رجلٌ ثَقْفِيٌّ يقال له : محمد
 ابن خالد ، وكان عدواً لأبان ، فترجَّح محمدٌ هذا ثَقْفِيَّةً معروفةً هي عمارة بنت عبد الوهاب ،
 وكانت عمارة غنيَّة موفورة الثروة ، فاغتاط أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة التي
 بلغت عمارة فأفسدت زواجها :

لما رأيتُ البزَّ والشارَه * والفرش قد ضاقتُ به الحارَه
 واللوزَ والسُّكَّرَ يرمي به * من فوق ذى الدار وذى الدارَه
 وأحضرُوا الملهينَ لم يتركوا * طَبَّلاً ولا صاحبَ زَمَارَه
 قلتُ : لماذا قيل : أعجوبةٌ * محمدٌ زوجَ عمَّارَه
 ما ذا رأيتُ فيه وما ذا رجحتُ * وهى من النسوانِ مُختارَه
 أسودٌ كالسُّفودِ ينسى لدى التَّمُورِ بل مُحْرَاكٌ قِيَارَه ^(١)
 يُجْرَى على أولادهِ خمسَه * أرغفَه كالريش طيارَه

وأهله في الأرض من خوفه * إن أفرطوا في الأكل سيّارة
ويحك فزى واعصي ذاب به * فهذه أختك فراره
إذا غفا بالليل فاستيقظي * ثم أطفري إنك طفّارة^(١)
فصعدت نائلة سأمًا * تخاف أن تصعده الفارة
"سرور" غرثها فلا أفلحت * فإنها الخفاء غرّاره
لونت ما أبعدت من ريقها * إن لها نفثة سحّارة

فلما بلغت هذه القصيدة عمارة هربت، فخرم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات الأخيرة التي أولها * فصعدت نائلة سلما * زادها في القصيدة بعد أن هربت .
جاس أبان ليلة في قوم فثلب أباعبيدة فقال : يقدح في الأنساب ولا نسب له . فبلغ ذلك أبا عبيدة فقال في مجلسه : لقد أغفل السلطان كل شيء حين أغفل أخذ الجزية من أبان اللاحق ، وهو وأهله يهود ، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيها مصحف ، وأوضح الدلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدعي حفظ التوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصلى به . فبلغ ذلك أبان فقال :
لا تئمن عن صديق حديثا * وأستعد من تسرر النمام
وأخفيص الصوت إن نطقت بليل * وألتفت بالنهار قبل الكلام
قال عيسى بن اسماعيل : كفا في مجلس أبي زيد الأنصاري فذكروا أبان بن عبد الحميد ، فقالوا : كان كافرا ، فغضب أبو زيد وقال : كان جاري فما فقدت قراءته في ليلة قط .



وكان أبان يفوق الشعراء في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه ، فقد ابتكر في الأدب العربي فنا لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمي ، طرّق فيه فنونا مختلفة من العلم والحكمة والدين . وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليّة ودمنة» ليسهل عليهم

(١) طفر : وثب في ارتفاع .

حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصولي . وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليبة ودمنة ، فرأينا أن نثبتها هنا ، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التي رواها أبو الفرج . وها هي ذى :

هَذَا كِتَابٌ كَذِبٌ وَمِخْنَةٌ * وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَةٌ
 فِيهِ دَلَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ * وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الْمُنْدُ
 فَوَصَفُوا آدَابَ كُلِّ عَالَمٍ * حِكَايَةً عَنِ السِّنِّ الْبِهَائِمِ
 فَالْحِكْمَاءُ يَعْرِفُونَ قُضْلَهُ * وَالسَّخْفَاءُ يَسْتَهْوُونَ هَزْلَهُ
 وَهُوَ عَلَى ذَاكَ يَسِيرُ الْحَفِظُ * لَدَّى عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ اللَّفْظِ
 يَا نَفْسُ لَا تَشَارِكِي الْجَهْلَالَ * فِي حَبِّ مَذْمُومٍ كَأَنْ قَدْ زَالَ
 يَا نَفْسُ لَا تَشَقِّقِي وَلَا تَعْنِي * فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَلَا تَمْنِي
 مَا لَمْ يَنْبَلِهِ أَحَدٌ إِلَّا نَدَمٌ * إِذَا تَوَلَّى ذَاكَ عَنْهُ وَسَدِمٌ^(١)
 دُنْيَاكَ بِالْأَحْبَابِ وَالْإِخْوَانِ * كَثِيرَةَ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ
 وَهِيَ وَإِنْ نِيلَ بِهَا السَّرُورُ * آفَاتُهَا وَعَمَّتُهَا كَثِيرُ
 يَا نَفْسُ لَا يَجْمَلُكَ حَبُّ أَهْبٍ * وَلَا أَدَانِيكَ عَلَى أَنْ تَهْلِكِي
 فِي جَمْعٍ مَا يَرْضِيهِمْ فَإِنَّهُ * يَضْرِبُ مِنْ أَمْثَالِ ذَاكَ الدُّخْنَهُ^(٢)
 يِنَالِ قَوْمٍ عَرَفَهَا وَتَحْتَرَقُ * رَأَى بِهِ يَرْضَى أَخُو الرَأْيِ الْحَمَقُ
 وَجَدْتُ ذَا النَّسِكِ الَّذِي قَدْ فَكَّرَا * فَزَادَهُ تَفَكُّرُهُ تَوْقُرَا
 وَقَلَّ لَمَّا رَضِيَ أَهْتَامُهُ * وَتَمَّ مِنْ سُرُورِهِ تَمَامُهُ

(١) ندم وحنن . (٢) الدخنة : نحو يدخن به النياب أو البيت وفي الأصل : «الدجنة» بالجيم وهو تحريف .

وترك الدنيا لمن يشقى بها * ومن يقاسى الكدَّ من أنصأها
 فعندنا نجا من الشرور * ونال أقصى غاية السرور
 ثم سخَّت عن كلِّ فانٍ نفسه * فلقى السعدَ وغاب نحسه
 وأبصر الثوابَ في القيامة * فأمن الحسرة والندامة
 ومثَّل الدنيا كبرق الخلب * من يغتر منه بسقي يكذب
 وهو قياسا مثل نوم النائم * تُفرِّحه أضغاث حلم الحالم
 حتى إذا استيقظ صارهما * ما كان في النوم به ألما
 فكيف بالصبر على أيام * عما قليل هنَّ لأنصرام
 وكيف والدنيا بلاء كلِّها * لا يأمن الآفات فيها أهلها
 أشهد أن الله فردُّ واحد * أقرَّ أو أنكرَ ذاك جاحد
 ليس له كفوا ولا نداء أحد * لم يلد الله ولا له ولد
 وإنني بما عملت مرتهن * ما كان منه من قبيح وحسن

من باب الأسد والثور

وإن من كان دنيَّ النفس * يرضى من الأرفع بالأخس
 كمثَّل الكلب الشقى البائس * يفرحُ بالعظم العتيق اليابس
 وإن أهل الفضل لا يرضيهم * شيء إذا ما كان لا يعينهم
 كالأسد الذي يصيد الأرنب * ثم إلى العير^(١) المجتهد هربا
 فيرسل الأرنب من أظفاره * ويتبع العير على أدباره
 والكلب من رفته ترضيه * بلقمة تَقْذِفُها في فيه
 فمن يعيش ما عاش غير خامل * له سرور دائم ونائل
 فهو وإن كان قصير العمر * أطول عمرا من حليف فقير
 ومن يعيش في وحشة وضيق * وقالة المعروف في الصديق

(١) في الأصل "ثم للعير" والعير: الحمار.

فهو وإن عَمَّرَ طَوَلَ دَهْرِهِ * ليس بمغبوط بطولِ عمرِهِ
وقيل أيضا إنه قد ينبغى * للرجل الفاضل فيما يتبغى
أَلَا يُرَى إِلَّا مَعَ الْأَمْلَاقِ * أو يعْبُدُ اللهُ مَعَ التُّسَاكِ^(١)
كالفيل لا يصالح إلا مَرَكِبًا * لميك أو راعيًا مَسِيًّا
قال له السبع لقد سمعتُ * وكل ما تقول قد فهمتُ
لكنني لست أظن ما تظنُّ * بالثور من غشِّ بلى ظنِّي حَسَنُ^(٢)
قال له دمنه من ثم أتى * وهذه من حاله هي التي
رفعتَه حتى تعدى طوره * وكان هذا لك منه شكره
وتلك أخلاق اللئيم الفاجر * الكافر المغرور غير الشاكر
ما إن يزال ناصحا نفاعا * حتى يرى من حاله ارتفاعا
فَعِنْدَهَا يَسْمُو إِلَى مَا فَوْقَهَا * إلى التي لا تستطيع أوقها^(٣)
وربما كان هلاكُ الشجر * في حُسْنِ الغُصْنِ وطيب الثمر
وذنب الطاووس فهو زينه * كذلك أحيانا وفيه حينه
وباذل النصح لمن لم يشكره * كطارج في سبغ ما يبيدُهُ
لا خير للعاقل في ذي المنظره * إن هو لم يحمده عند المخبره
وليس في الصديق ذي الصفاء * خير إذا لم يك ذا وفاء
الرجل العاقل من لا تُسكِرُهُ * كأس سمو وأقتدار بيطره^(٤)
فالجبُلُ الثابتُ في أصوله * لا تقدرُ الریحُ على تحويله
والناقصُ العقلِ الذي لا رأى له * يطغى إذا ما نال أدنى منزله
مثلُ الحشيش أيماریح جرت * مالت به فأقبلت وأدبرت
الأهل والإخوان والأعوان * عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملاك : الملوك . (٢) كذا في الأصل ولعله : « بل الظن الحسن » .

(٣) أوقها : ثقلها . (٤) في الأصل هكذا "نظره" .

والمال هادى الرأى والمرؤه * وهو على كل الأمور قوه
 والمال فيه العز والجمال * والذل حيث لا يكون المال
 وربما دعا الفقير فقره * الى التي يَجبَطُ فيها أجره
 فيخسر الدين كما كان خسر * دنياه والخسران ما لا ينجر
 وليس من شيء يكون مدحا * لذى الغنى إلا يكون برحا
 على الفقير ويكون ذمًا * كذلك يدعى وبه يُسمى
 فإن يكن نَجْدًا يقولوا أهوج^(١) * كذلك عند الحرب لا يعرج
 وهو إذا كان جوادًا سيِّدا * سُمي للفقير مُضِعًا مُفْسِدًا
 أويك ذا حِلْمٍ يُقَلُّ ضعيف * أويك بسأما يُقَلُّ سخيف
 الرجل العاقل فيما يُسدى * مغتبطٌ بكسبه للحميد
 لأنه باع قليلًا فانيا * وأعتاض من ذاك كثيرًا باقيا
 فأغبطُ الناس الكثير نائله * ومدركُ النجح لديه سائله
 فلا تُعدن ذا غنى غنيا * حتى يكون ماجدا سريًا
 وأعلم بأن الملك المشاورا * ذا العقل فيما نابه المؤازرا
 فإنه يُعَصَّدُ بالتأييد * يَغنى به عن كثرة الجنود
 والحازم التابع أمر الحزمه * النصحاء غير أهل التهمه
 يزداد حزمًا بهم ورشدا * زيادة البحر إذا ما مُدًا
 بما يُصَبُّ فيه من أنهاره * حتى يهيج الموج من تياره
 والموت من مات كريمًا صابرا * خير من العيش ذليلًا صاغرا

ولم ينقل لنا الصولى في كتابه إلا هذه القطعة . ويعد أبا ن في هذا ناظرًا لكتاب
 معروف ، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة
 طويلة في الصوم والزكاة ، روى منها الصولى طرفا .

(١) الهوج : الحق . وفى الأصل : «هوج» باللام وهو تحريف .

فقيل لأبان بعد أن نظم كليله ودمنة : ألا تعمل شعرا في الزهد ؟ فعمل قصيدة مزدوجة في الصيام والزكاة . وترجمتها :

”قصيدة الصيام والزكاة * نقل أبان من فم الرواة“

وها هي ذى القصيدة :

هذا كتاب الصوم وهو جامع * لكل ما قامت به الشرائع

من ذلك المنزّل في القرآن * فضلا على من كان ذا بيان

ومنه ما جاء عن النبي * من عهده المتبع المرضي

صلى الإلهُ وعليه سَلَمَا * كما هدى الله به وعلما

وبعضه على اختلاف الناس * من أثرٍ ماضٍ ومن قياس

وإلجامع الذي إليه صاروا * رأى أبى يوسف مما اختاروا

قال أبو يوسف أما المفترض * فرمضانُ صومه إذا عرض

والصومُ في نقارة الأيمان * من حيث ما يجرى على اللسان

ومعه الحج وفي الظهار ^(١) * الصوم لا يُدفع بالإنكار

وخطأ القتل وحق المحرم * لرأسه فيه الصيام فأفهم

فرمضانُ شهره معروفُ * وصومه مفترضٌ موصوفُ ^(٢)

والصوم في الظهار ان لم يقدر * مظاهرٌ يوما على محرر

والقتل إن لم يك عمدا قتله * فإن ذلك في الصيام مثله

شهران في العدة كاملان * متصلان لا مفترقان

والحنت في رواية مقبولة * ثلاثة أيامها موصولة

ومثلها في عدة الأيام * للحريم الحائق في الإحرام

ثلاثة يصومها إن حلقا * لا بأس إن تابعها أو فرقا

(١) الظهار مصدر ظاهر الرجل من امرأته إذا قال لها : أنت على كظهر أمي ، فكنتي بالظاهر عن البطن تأديبا .

(٢) في الأصل : ”موظوف“ .

والصومُ في المُتعة ان لم يجِد * هَدْيًا وكان بالصيام يفتدى
صيامُ أيامِ مؤقَّتاتٍ * ثلاثة في الحج مفروضات
وبعد ما يرجع صومُ سبعة * عشرة كاملة في المتعه
أما الثلاثة التي في الحج * فكان من أدركت من محتج
أو غيره ممن يرى أن يرويه * يقول يوما قبل يوم الترويه
ويومها وصوم يوم عرفه * مؤلفات الصوم لا مختلفه
قالوا وإن أحب أن يفرقا * فذاك ما ليس عليه ضيقا
إن كان ذلك الصوم منه بعدما * يكون في عمرته قد أحما
ولو أراد الصوم في شوا * من بعد أن يوجب بالهلال
عمرته لكان ذلك مجزيا * بذاك يُقتى من أتى مستفتيا

وهي طويلة جدًا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمه على اختراع هذا الفن؛ فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهلا . وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة حينما نظم كيلة ودمنة قد أطعمته، فنظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن زياد قال: كانت في عبد الصمد بن المعدل عربة إذا سكر، فعربد يوما في مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان، وكان أيدا، فقال لهم: كلوه إلى وحدي، وأخذته وكتفه وجعله في بيت وأغلق بابه، وقال: إذا أصبحتم فأطلقوه، وأنصرف؛ فبلغه أن عبد الصمد حلف ليهجوته سنة، فقال حمدان يهجو: :

(١) أيدا: قويا .

قل لعبد الصمد الأح * سمق لا تغضب عليه
 وعلى أمك فاغضب * وأكوها في الهن كيه
 أمك العفلاء جاءت * بنى بسلمى ورقية
 وهى ساقط ليلة فا * طمة أخرى اليه
 *
 ففضينا فيهم الحق * وقلنا السوية

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيدة حمدان بن أبان بن عبد الحميد

ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة ، قال :

ما بال أهل الأدب * منا وأهل الكتب
 قد وضعوا الآدابا * وأتعبوا الكتابا
 لكل فنٍ دفترٌ * منقطٌ محرٌّ
 ففرقت أجناسا * وعلموها الناسا
 بالخيال الرقيقه * والفطن الدقيقه
 فأرشدوا الضلالا * وعلموا الجهالا
 سوى المحيين فلم^(١) * يرعوا لهم حقّ الذم
 فى علم ما قد جهلوا * وما به قد أبطلوا
 قد غلقت رهونهم * وأستعبرت عيونهم
 وحالفوا السهادا * وخالفوا الرقادا
 فليلهم طويل * ونومهم قليل
 أبدانهم نجيله * متعبه عليه
 نفوسهم خزينة * مشغوفة رزينة
 ظاهرة غمومهم * باطنة كلومهم

(١) فى الأصل : "وكم".

باكيةً عيونهم * قريحه جفونهم
 إن ظلموا لم يظلموا * وإن شكوا لم يرحموا
 أحبهم في لعب * وفي دوام الطرب
 صافية ألوانهم * ضاحكة أسنانهم
 قد سكنوا القصورا * وقارنوا السرورا
 نفرغوا للهجير * وللنوى والغدير
 بعاشق يهواهم * بالله ما أقسامهم
 وعدهم وعيد * إقرارهم بحود
 يؤسى لأهل العشق * أهل الصنا والرق
 ليس لهم وسيلة * ولا وجوه حيله
 رأيت لما خذلوا * وفي هواهم وحلوا
 أن أرشد المغفلا * الجاهل المضللا
 الى الطريق الواضح * عند البلاء الفادح
 وأبتدي كتابا * للوصف بابا بابا
 يا أيها الناس فعوا * وصيتي وأستمعوا
 ففي صفاتي تجب * وفي كتابي أدب
 قصيدتي مقومه * ألفاظها منظمه
 فيها هوى العشاق * ومنية المشتاق
 وصفت أهل العشق * ولم أمل عن حق
 فاسمع مقالا صادقا * يا من بيت عاشقا
 للحب خلتان * هما هما اللتان
 الصبر والرفق معا * يوما اذا ما اجتمعا

في عاشقٍ مهجورٍ * مباعِدٍ مغرورٍ
 قَضَى قريبا وطَرا * وبلغاهُ الوطرا
 ما الحسنُ والإحسانُ * والمملكُ والسلطانُ
 يعدلُ وصلَ الإلفِ * وكسره للطَّرفِ
 ما حسنٌ في العينِ * أحسنٌ من إلفينِ
 يوما إذا ما آتقيا * في مجلسٍ فاشتقيا
 مداومينَ للنظرِ * قد أمنا كلَّ حذرِ
 يبادران الخلوَّةَ * ويظهران الصبوةَ
 مساعدتينَ آتقيا * باتانٍ ولم يفترقا
 هواهما مخزونُ * سرهما مدفونُ
 مداريينَ أصبحا * للناسِ لم يفتضحَا
 من جربِ الحبِّ عرفَ * ما بين ملكٍ وأسفِ
 لن يبلغَ الصبُّ المنى * إلا بصبرٍ وعنَّا
 إن الهوى ضروبُ * وأمره عجيبُ
 وأهله أطوارُ * فيه لهم أوطارُ
 للعاقِلِ الشريفِ * والأحمقِ السخيفِ
 فمنهم مرزوقُ * محبٌ معشوقُ
 على اضطرابِ الخلقِ * منه وسوءِ الخلقِ
 تُقضى له الأوطارُ * وتُعملُ الأشعارُ
 مقربٌ ما يقصى * مطاوعٌ ما يعصى
 ومنهم محرومُ * محارفٌ مشيئومُ

على جمال هيئته * وحسنه وبهجته
 ومنهم من يتدا * ينال عيشاً رغداً
 من غير سعي وطلب * وغير كد ونصب
 فداك الأسعد * والبخت منه أجود
 إذ فاز باللدات * ودرك الحاجات
 ومنهم من يتعب * في حبه ويداب
 أسقمه طول الهوى * وشقه وجد الهوى
 فذاك صب قد بشق * بؤسى له ما ذا لقي
 ومنهم البصير * العاقل التحرير
 يحتمل الهجرانا * ويحمل الأحزانا
 فلا يزال مبتلى * حتى ينال أملاً
 ومنهم العميد * الجاهل البليد
 يحب بالتضجر * والجهل والتكبر
 يلقي الحبيب باهتا * فلا يزال ساكتا
 ومنهم من يهوى * بالغيب يأتي عفوا
 فيزرع الغموما * مستجلباً هموما
 فذاك حب الغيب * ليس به من عيب
 من دونه حجاب * ودونه أبواب
 فما لذاك لبث * وليس منه مكث
 حتى يرى مقهورا * في حبه محسورا
 ومنهم جبار * في حبه أزورار
 يزهى إذا ما عشقا * ورهنه قد غلقا

يلتزم الباجه * فليس يبيد الحاجة
 فذاك حب القوت * وفيه كرب الموت
 ومنهم من للنظر * يهوى ولم يعد البصر
 اذا رأى خيله * داوى به غيله
 يكتم ما يقاسى * من عين الجالس
 ومنهم من اقتصر * على الحديث والنظر
 غايته السلام * والخط والكلام
 مدافع عن حبه * يكتم وجد قلبه
 ينفي الهوى وينكره * وبالتبرى يستره
 فذاك حب العاقل * حب أديب كامل
 وبعضهم لا يقنع * إلا عمود يودعه
 قد طلب الحراما * وأتمس الأثاما
 فذاك حب التهم * الماجن المغتلم
 حق له الحرمان * والمنع والخذلان
 وبعضهم مداق * معانت ملاق
 مستعمل للكذب * محرف في الكتب
 فذاك حب الزور * يلسع كالزنبور
 وبعضهم عميد * غايه ما يريد
 خلوة من يهواه * في مشيد يلقاه
 لظنه مسارقه * ميته معانقه
 مكاتم حبه * في بعده وقربه
 فذاك حب يكمد * نيرانه لا تجمد

وممن من يهتف * بالحب حين يشغف
 اذا الحبيب صدأ * ولم ينله ودا
 تاه عليه وحرق^(١) * وصد عنه وحمق

وقال في آخرها :

قد تم مني وصف * ولم يحني الرصف
 وأنقضت القصيدة * محبوبة حميدة
 والحمد للرحمن * ذى العز والسطان
 والدم للشيطان * ذى العرم والطغيان^(٢)

(١) حرق : ضن عليه وبخل .

(٢) العرم : الشدة والشراسة . وفي الأصل : « العزم » .

٦ - منصور التَّمَرِيُّ^(١)

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسره أن يُمدح بنفى الإمامة عن علي والطعن عليه ، لما كان يراه من تقديم مروان بن أبي حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه - والشعراء يومئذ انما يطلبون الكسب - لكنه لم يصرح بالهجاء والسب كما فعل مروان ، ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أمير المؤمنين اليك خضنا * غمار الهول من بلد شطير
بجوص كالأهلة خافقات * تلين على السرى وعلى الهجير
حملن اليك أمحالا ثقالا * ومثل الصخرة الذر الثبير
فقد وقف المديح بمتناه * وغايته وصار الى المصير
الى من لا تُشير الى رسول * اذا ذكر الندى كيف المشير

وذكر في القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن نقال :

يذلل من رقاب بني علي * ومن ليس بالملق الصغير
مننت علي ابن عبد الله يحيى * وكان من الختوف على شفير

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة التمرى الربيعي ، من النهرين قاسط ، ثم من ربيعة بن زرار . شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العنابي وراو يشه ، عنه أخذ ، ومن بحره استقى ، وبمذهبه تشبه . وصفه العنابي للفضل بن يحيى بن خالد وقرظله عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ، ثم وصله بالرشيد وجرت بعد ذلك بينه وبين العنابي وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما في هلاك صاحبه ، وكان التمرى قد مدح الفضل بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العنابي اليه واسترفده له وسأله استصحابه ، فأذن له في القدوم ، فخطب عنده ، وعرف مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفى الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مغزاه في ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز ، فسلك مذهب مروان في ذلك ونحا نحوه ، ولم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأوما ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العداوة لآل أبي طالب وكان ينطق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى ولا يذر . وتجد أخباره في الأغانى (ج ١٢ ص ١٦ وج ١٧ ص ٣٢ و ١٤١) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمت فيهم * وإلا فالندامة للكفور

وإن قالوا بنو بنت فحق * وردوا ما يناسب للدُّكُور

وما لبني بناتٍ من تُراثٍ * مع الأعمام في ورق الزُّبور

ومنها :

بني حسن ورهط بنى حسين * عليكم بالسداد من الأمور

فقد ذُقم قراع بنى أبيكم * غداة الرُّوع بالبيض الذُّكور

أحين شفوكم من كل وتر * وصمَّوكم الى كنفٍ وثير

وجادوكم على ظمأ شديد * سُقيتم من نواهم الغزير

فما كان العقوق لهم جزاءً * بفعلهم وآدى للثُّور

وإنك حين تُبلغهم أذاةً * وإن ظلموا محزون الضمير

فقال له : صدقت وإلا فعلى وعلى ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأشد الرشد يوماً قصيدته التي أولها :

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع * إذا ذكرتُ شيباً با ليس يرتجع

بان الشباب وفانتى بلدته * صروف دهرٍ وأيام لها خدع

ما كنت أوفى شيباً كنهه غرته * حتى أنقضى فاذا الدنيا له تبع

فقال الرشيد : أحسن ! والله لا يتمي أحد بعيش حتى يحطّر في رداء الشباب .

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أى أمرى بات من هارون في سخط * فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إن المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث يجتمع^(١)

(١) رواية الأغاني : "تسع"

إذا رفعت أمرءاً فالله يرفعه * ومن وضعت من الأقوام متضع
نفسى فداؤك والأبطال معلمة * يوم الوغى والمنايا صابها فزع

ومن قوله يمدح الرشيد :

يامنزل الحى ذا المغانى * إنعم صباحاً على بلاكا
هارون ياخير من يرحى * لم يطع الله من عصاكا
فى خير دينٍ وخير دنيا * من أتقى الله وآتقاكا

وناهيك بقصيدته التى رفعت السيف عن ربيعة بنصيبين بعد أن جرده فيها الرشيد

وهى التى يقول فيها :

وقد علم العداون والجور والحنأ * بأنك عياف لمن مزايلى
ولو عملوا فينا بأمرك لم يكن * ينال برياً بالأذى متناول
لنا منك أرحامٌ ونعتد طاعةً * وبأسا إذا أصطك القنا والقنابل
وما يحفظ الإحسان مثلك حافظٌ * ولا يصل الأرحام مثلك واصل
جعلناك فامننا معاذاً ومفزعاً * لنا حين عصتنا الخطوب الخلائل
لأنت إذا عاذت بوجهك عودٌ * تطامن خوف وأستقرت بلايل

اجتمع جماعة من الشعراء ببغداد وفيهم منصور النمرى، وكانوا على تبيذ، فأبى منصور

أن يشرب معهم، فقالوا له : إنما تعاف الشراب لأنك رافضى، وتسمع وتصغى الى

الغناء، وليس تركك التبيذ من ورع، فقال :

خلا بين ندمائى موضع مجلسى * ولم يبق عندى للوصال نصيب
ورددت على الساقى تقيض وربما * رددت عليه الكأس وهو سليب
وأى أمرى لا يستهش إذا جرت * عليه بنان كفهون خضيب

(١) مفردة قبل بفتح فسكون ثم فتح : الطائفة من الناس .

قال النمرى : كنت واقفا على جسر بغداد أنا وعبيد الله بن هشام ، وقد وخطني الشيبُ يومئذ ، وعبد الله شابٌ حديث السن ، فاذا أنا بقصريةٍ ظريفةٍ قد وقفت ، فجعلت أنظر إليها وهي تنظر الى عبيد الله ثم انصرفت ، وقلت فيها :

لما رأيت سَوامَ الشَّيبِ منتشراً * في لِمَّتِي وعبيدَ الله لم يَشِيبِ
سَلَّتِ سَهْمِينَ من عَيْنِكَ فانتضلا * على سَيْبَةِ ذِي الأذْيَالِ والطرب
كذا الغواني نرى منهنَّ قاصدة * الى الفروع مُعرَّاةً عن الخشب
لا أَنْتِ أَصْبَحْتَ تعقدُ بيننا أرباً * ولا وعيشك ما أَصْبَحْتَ من أربى
إحدى وخمسين قد أنضيت جَدَّتْها * تحول بيني وبين اللّهُو واللَّعب
لاتحسبيني وإن أغضيت عن بَصْرِي * غَفَلْتُ عَنْكَ ولا عن شأنك العَجَب
غضب الرشيد على منصور النمرى لما أنشد قصيدته في مدح العلويين وأولها :

شاءَ من الناس راتِعٌ هاملٌ * يعللون النفوسَ بالباطل

وفيهما يقول :

ألا مَساعيرُ يغضبون لها * بسَلَّةِ البيضِ والقَنَا الذابل

فغضب من ذلك غَضَبًا شديدًا وقال للفضل بن الربيع : أحضره الساعة ، فبعث الفضل في ذلك ، فوجده قد تُوُفِّيَ ، فأمر بنهبه ليُحْرِقَهُ ، فلم يزل الفضل يُلطِّفُ له حتى كَفَّ عنه .
واليك قصيدته في مدح العلويين نقلًا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب

الأغاني أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شاءَ من الناس راتِعٌ هاملٌ * يُعلِّلون النفوسَ بالباطل
تُقَتِّلُ ذُرِّيَةَ - النَّبِيِّ وَيَرُ * جُونِ جِنَانِ الخُلُودِ للقاتلِ
وَيْلُكَ يا قاتِلَ الحَسِينِ لَقَدْ * نُوتَ بِجَمَلِ يُوؤُءٍ بالامل

(١) كذا في الأصل ولعله : * لا أنت أصبحت يعقد بيننا أرب * بتسكين الفعل يعقد للضرورة وتسكين

الفعل في الضرورة واردة منه قول امرئ القيس : فاليوم أشرب غير مستحقب * اثما من الله ولا واغل

(٢) في الشعر والشعراء "مصاليت" .

أَيِّ حِبَاءٍ حَبَّوتَ أَحْمَدَ فِي * حُفْرَتِهِ مِنْ حَرَارَةِ النَّاصِلِ كُلِّ
 بَأَى وَجْهَ تَلَقَّى النَّبِيَّ وَقَدْ * دَخَلَتْ فِي قَتْلِهِ مَعَ الدَّاهِلِ
 هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدَاً شَفَاعَتَهُ * أَوْ لَا فَرِّدْ حَوْضَهُ مَعَ النَّاهِلِ
 مَا الشُّكُّ عِنْدِي فِي حَالِ قَاتِلِهِ * لَكِنِّي أُشْكُ فِي أَلْحَاذِلِ
 نَفْسِي فِدَاءَ الْحُسَيْنِ حِينَ غَدَاً * إِلَى الْمَنَايَا غُدُوً لَا قَافِلِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ أُنْحَى بِشَفْرَتِهِ * عَلَى سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَالْكَاهِلِ
 حَتَّى مَتَّى أَنْتِ تَعْجَبِينَ أَلَا * تَنْزِلُ بِالْقَوْمِ تَقَمَّةً الْعَاجِلِ
 لَا يَعْجَلُ اللَّهُ إِنْ حَلَيْتِ وَمَا * رَبُّكَ عَمَّا يَرِيدُ بِالْغَافِلِ
 وَعَاذِلِي أَنْبَى أَحَبِّ بَنِي * أَحْمَدَ فَاتْرَبِي فِي فِيمَ الْعَاذِلِ
 قَدْ ذُقْتُ مَا دِينِكُمْ عَلَيْهِ فَمَا * وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِلِ
 دِينِكُمْ جَفْوَةَ النَّبِيِّ وَمَا أَل * جَافِي لَأَلِ النَّبِيِّ كَالْوَاوِصِلِ
 مَظْلُومَةَ وَالنَّبِيِّ وَالِدَهَا * نَذِيرُ أَرْجَاءِ مُقَلَّةٍ حَافِلِ
 أَلَا مَصَالِيْتُ يَغْضَبُونَ لَهَا * بَسَلَةَ الْبَيْضِ وَأَلْقَنَا الذَّائِلِ

وقال أيضا :

آلَ النَّبِيِّ وَمَنْ يُجِبُّهُمْ * يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ
 أَمِنُوا النَّصَارَى وَالْيَهُودَ وَهُمْ * مِنْ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فِي أَزْرِ^(١)
 وَأُشِيدَ الرَّشِيدُ هَذَا بَعْدَ مَوْتِهِ فَقَالَ : لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْبِشَهُ ثُمَّ أَحْرَقَهُ .

ومن جيد شعره قوله في الرشيد :

يَا زَائِرِينَا مِنْ آلِ حِيَامِ * حَيَّا كَمَا اللَّهُ بِالسَّلَامِ
 يُحْزِنُنِي أَنْ أَطْفَأُ بَابِي * وَلَمْ تَنَالَا سِوَى الْكَلَامِ

(١) الأزل : الضيق والشدة .

لَمْ تَطْرُقَانِي وَبِي حَرَكَ * إِلَى حَالَ لَا حَرَامِ
 هَيْهَاتَ لِلْهُوَ وَالتَّصْنَابِي * وَللغَوَانِي وَلِلدَّامِ
 أَقْصَرَ جَهْلِي وَثَابَ حِلْمِي * وَهَنَةَ الشَّيْبُ مِنْ عِرَامِي ^(١)
 عَمَّرُ أَيُّهَا لَقَدْ تَوَلَّتْ * سَالِمَةَ الْخِدْمَةِ مِنْ عِدَامِي ^(٢)
 اللَّهُ حَبِي وَتَرَبُّ حَبِي * لَيْلَةَ أَعْيَاهُمَا مَرَامِي
 آذَنْتَانِي بِطُغُولِ هَجْرِي * وَعَمَّرْتَانِي مَعَ السَّوَامِ
 وَأَنْطَوْتَانِي عَلَى مَلَامِ * وَالشَّيْبُ شَرٌّ مِنَ الْمَلَامِ
 بُورِكَ هَارُونَ مِنْ إِمَامِ * بِطَاعَةِ اللَّهِ ذِي أَعْتِمَامِ
 إِلَهِي إِلَى ذِي الْحَلَالِ قُرْبِي * لَيْسَتْ لَعْدُلٌ وَلَا إِمَامِ
 لَيْسَ سَمِي عَلَى أُمَّةٍ تَمَنَّى * أَنْ لَوْ تَقِيهِ مِنَ الْحِمَامِ
 لَوْ اسْتَطَاعَتْ لِقَا سَمْتَهُ * أَعْمَارَهَا قِسْمَةَ السَّهَامِ
 يَا خَيْرَ مَاضٍ وَخَيْرَ بَاقٍ * بَعْدَ النَّبِيِّينَ فِي الْأَنَامِ
 لِمَا اسْتُودِعَ الدِّينَ مِنْ إِمَامِ * حَامِي عَلَيْهِ كَمَا تُحَامِي
 يُؤْنَسُ مِنْ رَأْيِهِ بِرَأْيِ * أَصْدَقَ مِنْ سَلَةِ الْحَسَامِ

وقال :

أَعْمِيرُ كَيْفَ حَاجَةٌ * طَلَبْتُ إِلَى صَمِّ الصُّخُورِ
 اللَّهُ دَرُّ عِدَاتِكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى الْغُرُورِ
 أَنْ اللَّيَالِي ضَمْنِي * وَوَسَمَنِي سِمَةَ الْكَبِيرِ
 أَطْفَانَ نُورَ شَيْبَتِي * وَفَرَشَنِي كَنْفَ الْغَيُورِ
 وَلَقَدْ تَبَيَّنْتُ أَنَا مِثْلِي * يَجْنِينِ رُقَانَ النُّحُورِ

(١) العرام : الحدة . (٢) العزم الشفة كالعض بالأسنان .

٧ - السيد الحميري^(١)

« لم يكن السيد الحميري من أنصار الحسن والحسين، أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين؛ وإنما كان من الكيسانية الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من أبناء علي: محمد بن حوالة الحنفية؛ والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت وإنما تغيب عن الناس واحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بني العباس ويتقرب منهم مادام صاحبه محمد بن الحنفية لم يعد من غيبته بعد. ثم نستطيع أن نُميّز هذا الشاعر بخصلة لم نرها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم، وهي أنه كان سخيفاً ضعيف العقل شديد الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه نفسه في الرجعة، فقد أسرف في هذا المذهب كما أسرف في مدح العلويين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل وما لا يقبل؛ فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين، رضيه العقل أم لم يرضه، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، رضيه العقل أم لم يرضه، وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصاص ورواة الأساطير يروي كرامة من الكرامات يُضيفها إلى أحد العلويين حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلةً إلى ذم السلف والنعي عليه.

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري والسيد لقبه ويكنى أبا هاشم، كان شاعراً متقدماً مطبوعاً، يقال إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والاسلام ثلاثة: بشار وأبو العتاهية والسيد، فإنه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه في شعره ويستعمله في قذفهم والطعن عليهم فنحوى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تحوفاً وترقياً، وله طراز من الشعر ومذهب قلها يلحق فيه أو يقارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يخلو من مدح بني هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضد لهم. توفي سنة ١٧٣ هـ. وتجد ترجمته وأخباره في الأغاني (ج ٧ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ١ ص ١٩).

(٢) من بحوث صديقي الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية في الوقت نفسه .

وهي أنه كان يستبيح ضروبا من اللهو والمنكر، ويسرف في شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العَبَث، لا لأنه كان ييُحَدِّد الدين أو يَزيدُ به بل لأنه كان يدلُّ على صاحب الدين؛ كان يحبُّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وآله ويمتحنهم مودَّته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له في ذنوبه وآثامه لما قدَّم بين يديه من مَدحِ العلويين ونصرهم على خصومهم؛ وكان بنو هاشم وبنو عليّ خاصة يُطعمونه في ذلك ويعترفون له به، فإذا ذُكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا: وأىِّ ذَنْبٍ يعظُم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت! بل قال أحدهم: إن من أحبَّ آلَ عليٍّ لم تزلْ له قَدَمٌ إلا ثبتت له أخرى؛ وعلى هذا كان السيّد الحميريُّ يلهو آمنًا في دينه ودُنياه، يعتمد في دينه على العلويِّين، ويعتمد في دنياه على العباسيين، يقدرُّ أن العلويين سيشفعون له عند الله، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ويؤثرون مدحه على هجائه؛ وكان من مُعاصِريه من يكره ذلك ويمقتُه كلَّ المقت، ويضمّر للسيّد عداً وحقدًا لا يعِدُّها عداً ولا حقدًا؛ ومن هؤلاء سوار بن عبد الله العبّريُّ قاضي البصرة للمنصور، فقد كان العداً بينه وبين السيّد شديداً، وكان قد أجمع ألا يقبل للسيّد شهادة، وكان قد سعى بالسيّد عند المنصور غيرَ مرّة؛ وكان السيّد قد هجاه فأسرف في هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فنهاه المنصورُ عنه وأمره أن يذهب إلى القاضي فيعتذرَ إليه، وأبى القاضي أن يقبل معذرتَه، فاستأنف السيّد الهجاء وألحَّ فيه . ويقال إن سواراً أعدَّ شهوداً يشهدون على السيّد بالسرقَة ليقطع يده، فعلم السيّد ذلك فجَزِعَ وفرَّع إلى المنصور، فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيّد أو عليه، ولم يابث سوار أن مات فتبعه السيّد بعدائه وبُغْضه وهِجائه .

قال أبو جعفر الأعرَج: كان السيّد أسمر تامَّ القائمة، أشنَبَ ذا وفرة، حسن الألفاظ جميلَ الخطاب، اذا تحدَّث في مجلس قوم أعطى كلَّ رجل في المجلس نصيبه من حديثه؛

وقال الفرزدق : إن ههنا لرجلين لو أخذنا في معنى الناس لما كآا معهما في شيء : السيد الحميري وعمران بن حطان السدوسي ، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول في مذهبه ، وقال الأصمعي لما أنشد شيئاً من شعره : ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ، ولولا ما في شعره ما قدمت عليه أحداً من طبقته ، وكان أبو عبيدة يقول : أشعر المحدثين السيد الحميري وبشار .

وكان السيد يذهب مذهب الكيسانية ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، وله في ذلك شعر كثير .

وقف السيد على بشار وهو ينشد الشعر ، فأقبل عليه وقال :

أيها المادح العباد يُعطى * إن الله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم * وأرج نفع المستر العواد
لا تَقُلْ في الجواد ما ليس فيه * وتُسمى البخيل باسم الجواد

قال بشار : من هذا؟ فعرفه ، فقال : لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا ، ولو شاركتنا في مذهبنا لتعبنا .

ومن قول السيد :

أتعرف رَسْمًا بالثَوِيَيْنِ قد دَرَّ * عَمَّتْهُ أَهْاضِيبُ السَّحَابِ وَالْمَطَرُ
وَجَرَّتْ بِهِ الْأَذْيَالُ رِيحَانَ خِلْفَةٍ * صَبَاً وَدُبُورَ الْعَشِيَّاتِ وَالْبُكْرِ
مَنَازِلُ قَدْ كَانَتْ تَكُونُ بِجَوْهَا * هَضِيمُ الْحَشِيِّ رِيَاءَ الشَّوِيِّ سَحْرَهَا النَّظْرُ
قَطُوفُ الْخَطَا حِمَاةٌ بِخَيْرِيَةٍ * كَانَتْ حِمَاةً سَنَا دَارَةَ الْقَمَرِ
رَمْتِي بَعِيدٍ بَعْدَ قُرْبٍ بِهَا النَّوَى * فَبَانَتْ وَلَمَّا أَقْبَضَ مِنْ عِبْدَةِ الْوَطْرِ
وَلَمَّا رَأَيْتِي خَشِيَةَ الْبَيْتِ مُوجِعًا * أَكْفِكُفُ مَنِي أَدْمَعَا يَبِضُّهَا دُرُّ
أَشَارَتْ بِأَطْرَافٍ إِلَى وَدْمَعِهَا * كَنْظَمَ جَمَانَ خَانَهُ السَّلْكُ فَانْتَرُ
وَقَدْ كُنْتُ مِمَّا أَحْدَثَ الْبَيْنَ حَاذِرًا * فَلَمْ يُغْنِ عَنِّي مِنْهُ خَوْفِي وَالْحَذَرُ

لما استقام الأمر لبني العباس قام السيد إلى أبي العباس السفاح حين نزل عن المنبر فقال:

دُونِكُوهَا يَا بَنِي هَاشِمٍ * بَحَدُّدُوا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارِسَا

دُونِكُوهَا لَا عَلَا كَعَبٌ مَنْ * كَانَتْ عَلَيْكُمْ مُلْكُهَا نَافِسَا

دُونِكُوهَا فَالْبَسُوا تَاجَهَا * لَا تَعْدَمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَابِسَا

لَوْ خَيْرَ الْمَنْبَرِ فُرْسَانُهُ * مَا آخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسَا

قَدْ سَاسَهَا قَبْلَكُمْ سَاسَةً * لَمْ يَتْرَكُوا رَطْبًا وَلَا يَابِسَا

وَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى * مَهَبَطِ عَيْسَى فِيكُمْ آيِسَا

وبعث بهذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة:

قُلْ لِابْنِ عَبَّاسٍ مِمِّي مُحَمَّدٍ * لَا تُعْطِينَ بَنِي عَدِيِّ دَرَهْمَا

إِحْرَامِ بَنِي تَيْمٍ بِنِ مِرَّةٍ إِيْنَهُمْ * شَرَّ الْبَرِيَّةِ آخِرًا وَمُقَدِّمًا

إِنْ تُعْطَهُمْ لَنْ يَشْكُرُوا لَكَ نِعْمَةً * وَيَكْفُوكَ بَأَنْ تُؤَدِّمَ وَتُشْتَمًا

وَإِنْ أَتَمَّتْهُمْ أَوْ اسْتَعْمَلَتْهُمْ * خَانُوكَ وَاتَّخَذُوا خَرَّاجَكَ مَغْنَمًا

وَلْتَنْ مَنَعْتَهُمْ لَقَدْ بَدَأَوكُمْ * بِالْمَنْعِ إِذْ مَلَكُوا وَكَانُوا أَظْلَمًا

مَنْعُوا تُرَاثَ مُحَمَّدٍ أَعْمَامَهُ * وَبَيْنِهِ وَأَبْنَتِهِ عَدِيلَةَ مَرِيَمَا

وَتَأْمُرُوا مَنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَخْلَفُوا * وَكَفَى بِمَا فَعَلُوا هُنَالِكَ مَاثِمًا

لَمْ يَشْكُرُوا مُحَمَّدًا إِنْعَامَهُ * أَفَيَشْكُرُونَ لغيرِهِ إِنْ أَنْعَمًا

وَاللَّهُ مَنْ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ * وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الْجَنُوبَ وَأَطْعَمًا

ثُمَّ أَنْبَرُوا لَوْصِيَّتِهِ وَوَلِيَّتِهِ * بِالْمُنْكَرَاتِ بَخْرَعُوهُ الْعَلَمًا

أنشد السيد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين:

أَمْرٌ عَلَى جَدِّ الْحُسَيْنِ * مِنْ قَبْلِ لِأَعْظَمِهِ الزَّكِيَّةِ

أَعْظَمًا لَا زَيْتٍ مِنْ * وَطَفَاءَ سَاكِبَةٍ رَوِيَّةِ

وَإِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ * فَاطْلُبْ بِهِ وَقَفَ الْمُطِيَّةِ

وَأَبِكِ الْمُطَهَّرَ لُطْ * هَرِّ الْمُطَهَّرَةَ النَّقِيَّةَ
كِبْكَاءَ مُعْوَلَةٍ أَتَتْ * يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمُنِيَّةَ

فانحدرت دموعُ جعفر على خديه وارتفع الصراخُ والبكاءُ من داره حتى أمره بالإمساك
فأمسك .

ومن قول السيد في إمامة ابن الحنفية :

أَلَا يَا أَيُّهَا الْجَدِيدُ الْمَعْنَى * لَنَا مَا نَحْنُ وَيَحْكُ وَالْعَنَاءُ
أَتَبَصَّرُ مَا تَقُولُ وَأَنْتَ كَهْلٌ * تَرَكَ عَلَيْكَ مِنْ وَرَعٍ رِذَاءُ
أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ * وَوَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلَى وَالثَّلَاثَةَ مِنْ بَيْتِهِ * هُمْ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْصِيَاءُ
فَأَنَّى فِي وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ * يَكُونُ الشُّكُّ مِنَّا وَالْمِرَاءُ
بِهِمْ أَوْصَاهُمْ وَدَعَا إِلَيْهِ * جَمِيعَ الْخَلْقِ لَوْ سَمِعَ الدَّعَاءُ
فَسَبَطَ سَبَطَ إِيْمَانٍ وَحِلْمٍ * وَسَبَطَ غَيْبَتَهُ كَرَبْلَاءُ
سَقَى جَدًّا تَضَمَّنَهُ مِلْثٌ * هَتُوفَ الرَّعْدِ مِنْ بَجَزٍ رَوَاءُ
تَطَلَّ مُظَلَّةً مِنْهَا عَزَالٍ * عَلَيْهِ وَتَعْتَدِي أُخْرَى مِلَاءُ
وَسَبَطَ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى * يَقُودَ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا الْوَاءُ
مِنَ الْبَيْتِ الْحَجَّابِ فِي سُرَاةٍ * شُرَاةٍ لَفَ بَيْنَهُمُ الْإِخَاءُ
عَصَابُ لِيَسْرُدُونَ أَعْرَاجِلَ * بِمَكَّةَ قَائِمٌ لَهُمْ انْتِهَاءُ

وأشد العتبي قصيدته اللامية التي أولها :

هَلْ عِنْدَ مَنْ أَحْبَبْتَ تَنْوِيلُ * أَمْ لَا فَإِنَّ اللَّوْمَ تَضْلِيلُ
أَمْ فِي الْحَشَى مِنْكَ جَوَى بَاطِلٌ * لَيْسَ تُدَاوِيهِ الْإِبَاطِلُ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العزلاء : مصب الماء من الراوية ونحوها ، ويقال : أنزلت

السماء عزاليها إشارة الى شدة وقوع الممار على التشبيه بنزوله من أفواه المزدادات .

عَلِمْتَ يَا مَغْرُورٌ خَدَاعَةً * بِالْوَعْدِ مِنْهَا لَكَ تَحْيِيلُ
 رِيًّا رَدَّاحَ النَّوْمِ نُحْصَانُهُ * كَانَهَا أَدْمَاءَ عَطْبُولِ
 يَسْفِيكَ مِنْهَا حِينَ تَحْلُوبُهَا * صَمٌّ إِلَى النَّحْرِ وَتَقْيِيلِ
 وَذَوْقِ رِيْقٍ طَيِّبٍ طَعْمُهُ * كَأَنَّهُ بِالْمَسْكِ مَعْلُولِ
 فِي نَسْوَةٍ مِثْلَ الْمَهَا خُرْدٍ * تَضِيْقُ عَنْهُنَّ الْخَلَائِلُ

يقول فيها :

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَالْآئِنَةِ * وَالْمَرْءِ عَمَّا قَالَ مَسْئُولِ
 إِنْ عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ * عَلَى التَّقَى وَالْبِرِّ مَجْبُولِ

فقال : أحسنَ والله ما شاء ، هذا والله الشعرُ الذي يهجمُ على القلبِ بلا حجاب .
 قيل للسيد : مالك لا تستعملُ في شعرك من الغريب ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟
 قال : لأنَّ أقول شعرا قريبا من القلوب يلذّه من سمعه ، خير من أن أقول شيئا معقدا
 تضلّ فيه الأوهام .

تقدم السيد الى سوار القاضى ليشهد عنده ، فلم يرض به ، فقام مغضبا من مجلسه ،

وكتب رُقعة يقول فيها :

يَا أَمِينَ اللَّهِ يَا مِنْ * صُورُ يَا خَيْرَ الْوَلَاةِ
 إِنْ سَوَّارَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ * مِنْ شَرِّ الْقُضَاةِ
 نَعْتَلِيَّ جَمَلِيَّ * لَكُمْ غَيْرُ مَوَاتِ
 جَدُّهُ سَارِقُ عَتْرِيَّ * بَجْرَةٍ مِنْ بَجْرَاتِ
 لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْقَا * ذِفُهُ بِالْمُنْكَرَاتِ
 وَأَبْنُ مَنْ كَانَ يَبَادِي * مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ
 يَا هِنَاةُ أَخْرَجِ الْبِنَا * إِنَّا أَهْلُ هِنَاتِ
 مَدْحُنَا الْمَدْحُ وَمَنْ نَرُّ * مِ يَصْبُ بِالزُّفْرَاتِ
 فَكُفِّنِيهِ لَأَكْفَاهُ اللَّهُ * شَرَّ الطَّارِقَاتِ

قيل : فلما قرأها سوار وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ نازل بالحسرة، فسبقه السيد إليه فأنشده :

قل للإمام الذي يُنجي بطاعته * يوم القيامة من مجبوحة النار
لا تستعين وجزاك الله صالحاً * ياخير من دب في حُكم بسوار
لا تستعن بنبيث الرأي ذى صائف * جم العيوب عظيم الكبر جبار
يضحى الخصوم لديه من تجبره * لا يرفعون اليه لحظ أبصار
تيماً وكبراً ولولا ما رفعت له * من ضبعه كان عين الجائع العارى

ودخل سوار، فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستراد في الشهود؟ فما أحوجك للتعرض للسيد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصاحته .

دخل السيد على المهدي لما بايع لأبيه موسى وهارون، فأنشأ يقول :

ما بال مجرى دمك الساجم * أم من قدي بات بها لازم
أم من هوى أنت له ساهر * صباية من قلبك الهائم
آليت لا أمدح ذا نائل * من معشر غير بني هاشم
أوليتهم عندى يد المصطفى * ذى الفضل والمنّ أبى القاسم
فإنها بيضاء محمودة * جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أبى جعفر * خليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهدي ثم ابنه * موسى على ذى الإربة الحازم
وللرشيد الرابع المرتضى * مفترض من حقه اللازم
ملكهم خمسون معدودة * برغم أنف الحاسد الراغم
ليس علينا ما بقوا غيرهم * فى هذه الأمة من حاكم
حتى يردوها الى هابط * عليه عيسى منهم ناجم

ومن شعر السيد :

ما جرت خَطْرَةٌ على القلب متى * فيك إلا استترت عن أصحابي
من دموع تجرى فإن كنت وحدي * خاليا أسعدت دموعي اتحابي
إن حبي إليك قد سلَّ جسمي * ورماني بالشيب قبل الشباب
لو منحت اللقا شفى بك صبا * هائم القلب قد توى في التراب

ومما قاله في الحبس :

قف بالديار وحيها يا مريع * وأسأل وكيف يُجيب من لا يسمع
إنت الديار خلت وليس بجوها * إلا الضوايح والحمام الوقع
ولقد تكون بها أوانس كالدمي * جمل وعزة والرباب وبروع
حور نواعم لا ترى في مثلها * أمثالهن من الصيانة أربع
فعرين بعد تألف وتجمع * والدهر صاح مُشئت ما يجمع
فاسلم فإنك قد نزلت بمنزلي * عند الأمير تضر فيه وتنفع
تؤتى هواك اذا نطقت بحاجة * فيه وتشفع عنده فتشفع
قل للأمير اذا ظفرت بحلوة * منه ولم يك عنده من يسمع
هب لي الذي أحبته في أحمد * وبنيه إنك حاصد ما ترزع
يخص آل محمد بحجة * في الصدر قد طويت عليها الأضلع

وقال يهجو امرأة وارث مؤسير من خلانه ، وكانت تعذل زوجها على إسرافه :

أقول ياليت ليلى في يدي حنيق * من العداوة من أعدى أعاديها
يعلوها فوق رعين ثم يُجدرها ^(١) * في هوة فتدهدي يومها فيها
أوليتهما في غمار البحر قد عصفت * فيه الرياح فهاجت من أواذيتها ^(٢)

(١) الرعين : أنف يتقدم الجبل جمعه رعين ورعان . والجبل : الطويل ودهدى الحجر فتدهدى ، أى درجه

فتدرج . (٢) الأواذي : أمواج البحر مفردتها أذى .

أَوْلَيْتَهَا قَدَدَنْتَ يَوْمًا إِلَى فَرَسِي * قَدْ شُدَّ مِنْهُ إِلَى هَادِيهِ هَادِيهَا
 حَتَّى يَرَى لِحْمَهَا مِنْ حُضْرِهِ زَيْمًا^(١) * وَقَدْ أَتَى الْقَوْمَ بَعْدَ الْمَوْتِ نَاعِيهَا
 فَمَنْ بَكَاهَا فَلَا جَفَّتْ مَدَامُعُهُ * لَا أَسْخَنَ اللَّهُ إِلَّا عَيْنَ بَاكِهَا

وقيل : إن أحر قصيدة له هي قوله :

أَشَاقَتَكَ الْمَنَازِلُ بَعْدَ هِنْدٍ * وَتَرْبِيهَا وَذَاتِ الدَّلِّ دَعْدٍ
 مَنَازِلُ أَفْقَرَتْ مِنْهُنَّ مَحَّتْ * مَعَالِمُهُنَّ مِنْ سَيْلٍ وَرَعْدٍ
 وَرِيحٍ حَرَجَفٍ تَسْتَنُّ فِيهَا * بَسَافِي التَّرْبِ تُلْحِمُ مَا تُسَدِّي
 أَلَمْ يَبْلُغْكَ وَالْأَنْبَاءُ تَمِّي * مَقَالٌ مَجْمَدٌ فِيمَا يُؤَدِّي
 إِلَى ذِي عَالِمِهِ الْهَادِي عَلَى * وَخَوْلَةَ خَادِمٍ فِي الْبَيْتِ تَرْدِي
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ خَوْلَةَ سَوِّفَ تَأْتِي * بَوَارِي الزَّنْدِ صَافِي الْخَلِيمِ تَجْدِي
 يَفُوزُ بِكُنْيَتِي وَأَسْمَى لِأَنِّي * نَحْلُهُمَا هُوَ الْمَهْدِي بَعْدِي
 يُغَيِّبُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا * تَضَمَّنَهُ بِطِينَةِ بَطْنٍ لِحْدِ
 سَنِينَ وَأَشْهَرًا وَيَرَى بَرَضَوِي * بِشَعْبٍ بَيْنَ أَمَّارٍ وَأَسَدِ
 مَقِيمٌ بَيْنَ آرَامٍ وَعَيْنِ * وَحَفَاتٍ تَرُوحُ خِلَالِ رُبْدِ^(٢)
 تُرَاعِيهَا السَّبَاعُ وَلَيْسَ مِنْهَا * مُلَاقِيهِمْ مُفْتَرِيًا بِحَدِّ
 أَمِنْ بِهِ الرَّدَى فَرْتَعَنَ طَوْرًا * بَلَا خَوْفٍ لَدَى مَرَعِي وَوَرْدِ
 حَلَفْتُ رَبِّ مَكَّةَ وَالْمُصَلَّى * وَبَيْتِ طَاهِرِ الْأَرْكَانِ فَرْدِ
 يَطُوفُ بِهِ الْحَجِيحُ وَكُلِّ عَامٍ * يَحِلُّ لَدَيْهِ وَفَدُّ بَعْدَ وَفَدِ
 لَقَدْ كَانَ ابْنُ خَوْلَةَ غَيْرَ شَكِّ * صَفَاءَ وَوَلَايَتِي وَخُلُوصَ وَدِي
 فَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ فِيمَا * أُسِرُّ وَمَا أَبُوحُ بِهِ وَأُبْدِي
 سَوِي ذِي الْوَحْيِ أَحْمَدًا أَوْ عَلِيَّ * وَلَا أَزْكِي وَأَطِيبَ مِنْهُ عِنْدِي

(١) الزيم : المنتزق من اللحم . (٢) الحفان : صفار النعام .

وَمَنْ ذَا يَأْتِنَ خَوْلَةَ إِذْ رَمْتَنِي * بِأَسْمِهَا الْمَنِيَّةُ حِينَ وَعَدْتَنِي
 يُدَبِّبُ عَنْكُمْ وَيَسُدُّ مِمَّا * تَشَلَّمُ مِنْ حَصُونِكُمْ كَسَدْتَنِي
 وَمَالِي أَنْ أُمَّرَ بِهِ وَلَكِنْ أ * أُوْمَلُّ أَنْ يُؤَخَّرَ يَوْمَ فَقَدْتَنِي
 فَادْرِكْ دَوْلَةَ لَكَ لَسْتَ فِيهَا * بِجَبَّارٍ فَتُوصَفُ بِالْتَعْبَدْتَنِي
 عَلَى قَوْمٍ بَغَوْا فِيكُمْ عَلَيْنَا * لِتُعْبَدْتَنِي مِنْكُمْ يَا خَيْرَ مُعَدِّ
 لِتَعْلُبُنَا عَلَيْهِمْ حَيْثُ كَانُوا * بِغَوْرٍ مِنْ تَهَامَةَ أَوْ بَنَجْدِ
 إِذَا مَا سَرْتِ مِنْ بَلَدٍ حَرَامٍ * إِلَى مَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ مَعَدِّ
 وَمَاذَا عَزُّهُمْ وَالْخَيْرُ مِنْهُمْ * بِأَشْوَسَ أَعْصَلَ الْأَنْبِيَابِ وَرَدِّ
 وَأَنْتَ لِمَنْ بَغَى وَعَدَا وَأَذْكِي * عَلَيْكَ الْحَرْبَ وَأَسْتَرْدَاكَ مُرْدِ

٨ - سلم بن عمرو الخاسر^(١)

كان منقطعاً الى البرامكة والى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم ، وفيه يقول
أبو العتاهية :

إنما الفضل لسلمٍ وحده * ليس فيه لسوى سلمٍ دركٌ

وكان هذا أحد الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبي العتاهية . ولسلم يقول أبو العتاهية
وقد حجَّ مع عُتْبَةَ :

والله والله ما أبألى متى * ما متُّ يا سلمٌ بعد ذا السفرِ
أليس قد طُفَّتْ حيث طافت وقبَّ * لتُ الذي قبَّلت من الحجرِ

وله يقول أبو العتاهية وقد حُسِّسَ إبراهيمُ الموصليُّ :

سَلَمٌ يا سَلَمٌ ليس دونك سِرٌّ * حُسِّسَ الموصليُّ فالعِيشُ مُرٌّ
ما استطاب اللذاتِ ، مُدسِّكِنُ المَطِّ * سَبَقَ رأسُ اللذاتِ والله ، حُرٌّ
تَرَكَ الموصليُّ مَنْ خَلَقَ اللد * هُـ جميعاً وعيشهم مُقَشَّعِرٌّ

(١) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبي بكر الصديق ، نشأ في البصرة ، وكان شاعراً مطبوعاً متصرفاً
في فنون الشعر ، وكان مظاهراً بالخلاعة والفسوق والحجون ، وزاد شاعرية وتمرساً بالشعر على يد بشار ، لأنه كان راوياً
وتلميذه ، أخذ عنه واعتزف من بحره ونسج على منواله ، وكثيراً ما كان يأخذ أقواله فيسلخها ويمسخها كما مسخ
هذا البيت :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك الهيج

فجعله :

من راقب الناس مات غمًا * وفاز باللذة الجسور

فبلغ بينه بشاراً فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يفيدته مادام حياً ، فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضى ووبخه
وقعه بمحضرة كانت بيده . وكان صديقاً لإبراهيم الموصلي المفتي المشهور ولأبي العتاهية . وكان يمدح البرامكة
وخصوصاً الفضل بن يحيى . توفي سنة ١٨٦ هـ . وتجد ترجمته في الأغاني ج ٢١ ص ١١٠ وابن خلكان

ج ١ ص ١٩٨

لما قال بشارُ قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها :

إذا نَبَهْتُكَ صَعَابُ الْأُمُورِ * فَنَبَّهُ لَهَا عُمَرَاُ ثُمَّ نَمَّ

فَقِي لَا يَبِيْتُ عَلَى دِمْنِيَةِ^(١) * وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بَدَمَ

بعث بها مع سلم الى عمر بن العلاء، فوفاه، فأنشده إياها، فأمر لبشار بمائة ألف درهم، فقال له سلم : ان خادمك — يعني نفسه — قد قال في طريقه فيك قصيدة، قال : فإنك

لَهُنَاكَ ! قَالَ : تَسْمَعُ ثُمَّ تَحْكُمُ ؛ قَالَ : هَاتِ ، فَأَنشَدَهُ :

قَدْ عَزَّنِي الدَّاءُ فَمَا لِي دَوَاءُ * مِمَّا الْأَقَى مِنْ حِسَانِ النِّسَاءِ

قَلْبٌ صَحِيحٌ كُنْتُ أَسْطُوبُهُ * أَصْبَحَ مِنْ سَلَمَى بَدَاءِ عِيَاءِ

أَنْفَاسَهَا مِسْكٌَ وَفِي طَرْفِهَا * سِحْرٌ وَمَا لِي غَيْرُهَا مِنْ دَوَاءِ

وَعَدْتَنِي وَعَدًّا فَأَوْفِي بِهِ * هَلْ تَصْلُحُ الْخَمْرَةُ إِلَّا بِمَاءِ

ويقول فيها :

كَمْ كُرْبَةٍ قَدْ مَسَّنِي ضَرْهَا * نَادَيْتُ فِيهَا عُمَرَ بْنَ الْعَلَاءِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم، فكانت أول عطية سنية وصلت إليه .

ومن قوله يرثي بأقوت بنت المهدي :

أَوْدَى بِبِاقُوتَةَ رَبِيبُ الزَّمَانِ * مَوْئِسَةَ الْمَهْدِيِّ وَالْخَيْرَانَ

لَمْ تَنْطَوِ الْأَرْضُ عَلَى مِثْلِهَا * مَوْلُودَةٍ حَنَّ لَهَا الْوَالِدَانُ

بِأَقُوتُ يَا بِنْتَ إِمَامِ الْمَهْدِيِّ * أَصْبَحْتَ مِنْ زِينَةِ أَهْلِ الْحَنَانِ

بَكَتْ لَكَ الْأَرْضُ وَسَكَانُهَا * فِي كُلِّ أَفْقٍ بَيْنَ إِنْسٍ وَجَانِ

دخل سلم على الفضل بن يحيى في يوم نيروز والهدايا بين يديه، فأنشد :

أَمِنْ رُبْعٍ تَسْأَلُهُ * وَقَدْ أَقُوتُ مَنَازِلَهُ

بِقَلْبِي مِنْ هَوَى الْأَطْلَالِ * لِ حَبِّ مَا يَزَايِلُهُ

رَوَيْدُكُمْ عَنِ الْمَشْعُو * فِي إِنْ الْحَبَّ قَاتِلُهُ
 بَلَابِلُ صَدْرِهِ تَسْرِي * وَقَدْ نَامَتْ عَوَاذُهُ
 أَحَقُّ النَّاسِ بِالْتَفْضِي * لِمَنْ مِنْ تُرْجِي فَوَاضِلُهُ
 رَأَيْتُ مَكَارِمَ الْأَخْلَا * قِ مَا ضَمَّتْ حَمَائِلُهُ
 فَلَسْتُ أَرَى قَتِي فِي النَّاسِ * سِ إِلَّا الْفَضْلُ فَاضِلُهُ
 يَقُولُ لِسَانُهُ خَيْرًا * فَتَفْعَلُهُ أَنَامِلُهُ
 وَمَهْمَا يُرْجَ مِنْ خَيْرٍ * فَإِنَّ الْفَضْلَ فَاعِلُهُ

وكان ابراهيم الموصلي وابنه إسحاق حاضرين، فقال لإبراهيم: كيف ترى وتسمع؟ قال: أحسن مرئي ومسموع، وفضل الأمير أكثر منه؛ فقال: خذوا جميع ما أهدى إلى اليوم فاقسموه بينكم أثلاثاً إلا ذلك التمثال، فإني أريد أن أهديه اليوم إلى دنانير؛ ثم قال: لا والله ما هكذا تفعل الأحرار، يقوم ويدفع اليهم ثمته ثم شهديه، فقوم بألفي دينار، فحملها إلى القوم من بيت ماله وأقسموا جميع الهدايا بينهم.

كان المهدي يعطى مروان وساماً الخاسر عطية واحدة، فكان سلم يأتي باب المهدي على البرذون الفار، قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولحام مفضضين، ولباسه الخنز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه، ويحيى مروان بن أبي حفصة عليه فروجك^(١) وقميص كرايس وعمامة كرايس^(٢) وخفأكل^(٣) وكساء غليظ، وهو من الثياب الرائحة، وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم إليه بخلاً، فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله، فقال له قائل: أراك لا تأكل إلا الرأس، قال: نعم أعرف سعره فأمّن خيانة الغلام ولا أشتري لحماً فيطبخه فيأكل منه، والرأس أكل منه ألوانا: آكل من عينيه لوناً ومن غلظته لوناً ومن دماغه لوناً.

(١) قصير . (٢) الكرايس : جمع كرابس وهو القطن . (٣) أي خفأ فرو كثير الصوف

غليظه . (٤) الغلظة : أصل اللسان . (٥) أي خفأ فرو كثير الصوف

كان سلم قد بُليَ بالكيمياء، فكان يذهب بكل شيء له باطلاً، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عرف أن بباب الشام صاحب كيمياء عجيباً، وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً، فسأل عنه، فدُلَّوه عليه . قال : فدخلت إليه الى موضع معور، فدفقتُ البابَ فخرج إلى، فقال : من أنت عافاك الله؟ فقلت : رجل معجبٌ بهذا العلم، قال : فلا تشهرني فيني رجل مستورٌ إنما أعمل القوت، قلت : إني لا أشهرك إنما أفتبس منك، قال : فاكتم ذلك، وبين يديه كوزٌ شبه صغير، فقال لي : اقلع عروته، فقلعتمها، فقال : اسبكها في البوتقة^(١)، فسبكتمها، فأخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال : دُرَّه عليه، ففعلت، فقال : أفرغه، فأفرغته، فقال : دعه معك، فاذا أصبحت فأخرج فيعه وعد إلى؛ فأخرجته الى باب الشام فبعثُ المثقال بأحد وعشرين درهماً ورجعتُ إليه فأخبرته، فقال : اطلب الآن ما شئت، قلت : تُفيدني؟ قال : بخمسةائة درهمٍ على ألا تُعلمه أحداً، فأعطيته وكتب لي صفةً فامتحنتها فاذا هي باطلة، فعدتُ إليه، فقيل لي : قد تحوّل وإذا عروة الكوزِ الشبه من ذهبٍ مركبةٌ عليه، والكوز شبه، ولذلك كان يدخلُ إليه من يطلبه ليلاً ليخفي عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بي خيراً وأن هذا كله باطلٌ .

قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سلم واذا بين يديه قراطيس فيها أشعارٌ يرثي بعضها أم جعفر، وبعضها جارية غير مسمّاة، وبعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية؛ فقلت له : ويحك ما هذا؟ فقال : تحدث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد، فنعدهم هذا قبل كونه، فمتى حدث حادثٌ أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت .

دخل سلم على الرشيد فأنشده : * حَيَّ الأَحَبَّةَ بِالسَّلامِ * فقال الرشيد : حياهم الله بِالسَّلامِ؛ فقال سلم : * أَعَلَى وَدَاعِ أُمِّ مَقَامٍ * فقال الرشيد : حياهم الله على أيّ ذلك كان، فأنشده :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ وَمِنْهُمْ * غَيْرُ الْجُلُودِ عَلَى الْعِظَامِ

(١) معور : مخوف . (٢) الشبه : النحاس الأصفر . (٣) البوتقة : الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ .

فقال له الرشيد : بَلْ مِنْكَ ، وأمر بإخراجه ، وتطيّر منه ومن قوله ، فلم يسمع منه باقى الشعر
ولا أتابه بشيء .

استوهب اسحاق الموصلي من الرشيد تركة سلم ، وكان قد مات عن غير وارث ، فوهبها
له قبل أن يتسلمها صاحب الموارث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار ، وروى أنه
رُفِعَ الى الرشيد أن سلما قد توفى وخلف مما أخذه منه خاصةً ومن زُبيدة ألف ألف
وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلفه من عقارٍ وغيره مما اعتقده قديماً ، فقبضه الرشيد وتظلم
اليه مواليه من آل أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، فقال : هذا خادى ونديمى ، والذي
خلفه من مالى فأنا أحقُّ به ، فلم يُعْطِهِمْ إلا شيئاً يسيراً من قديم أملاكه .

(١) امتلكه .

٩ - رُبَيْعَةُ الرَّقِيقِ^(١)

كان مُنْقَطِعًا عن الحضارة ، بعيدًا عن مجالسة الخلفاء ، فأُخْمِلَ ذِكْرُهُ بسبب ذلك ؛ لكنهم كانوا يستقدمونه اليهم . وأوّل من فعل ذلك المهديّ ، فدّحه ونال جوائزَه ؛ وكان ابنُ المُعْتَرِي رُبَيْعَةَ أشعرَ غَزَلًا من أبي نُؤاس ، لأن في غَزَلِ أبي نُؤاس بردًا كثيرًا ، وغَزَلُ هذا سليمٌ عُدْب سهل ، ولذلك فإن شهرته بلغت إلى بلاط الخليفة . وكان يمدح غير الخلفاء وينالُ جوائزهم ويعود إلى بلده ، وإن قصر أحدٌ في إعطائه هجاء ، وله في ذلك حديثٌ مع العباس بن محمد بن علي من أمراء بني العباس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المهلب ويهجو يزيد بن أسيد السلمي :

حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ^(٢) * يَمِينِ أَمْرِي أَلَىٰ بِهَا غَيْرِ أَيْتِمِ
لَشَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى * يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَالْأَعْرَبِ ابْنَ حَاتِمِ
يَزِيدُ سُلَيْمٍ سَالِمِ الْمَالِ ، وَالْفَتَى * أَخُو الْأَزْدِ لِلْأَمْوَالِ غَيْرِ مُسَالِمِ
فَهَمُّ الْفَتَى الْأَزْدِيَّ اتِّلَافُ مَالِهِ * وَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيَّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّمُ أَتَىٰ هَجْوَتَهُ * وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

قال رجلٌ لرُبَيْعَةَ : يا أبا أسامة ، ما حملك على أن هجوت رجلاً من قومك وفضلت عليه رجلاً من الأزد؟ فقال : أخبرك ، أملتُ فلم يبق لي إلا داري ، فرهنتها على خمسمائة درهم ، ورحلتُ إليه إلى أرمينية ، فأعلمته بمكاني ومدحتُه ، وأقمتُ عنده حولا ، فوهبَ لي

(١) هو أبو أسامة رُبَيْعَةَ بن ثابت من موالى سليم ، ويكنى أبا شباية ، وكان ينزل الرقة ، وبها مولده ومنشؤه ، فأشخصه المهدي إليه ، فدّحه بعدة قصائد وأثابه عليها ثوابا كبيرا ، وهو من المكثرين المجيدين ، وكان ضريرا وانما أخجل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ومع ذلك فاعدم مفضلا مقدما له . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٨) وخزانة الأدب للبغدادى (ج ٣ ص ٥٥) .

(٢) أى لا استثناء فيها .

(٣) هو يزيد بن أسيد (بضم الهمزة) من بهتة بن سليم ، وأخو الأزدي هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب .

نحسائة درهم ، فتحملت وصرت بها الى منزلي ، فلم يبق معي كبير شيء ، فزلت في دار بيكراء ، فقلت : لو أتيت يزيد بن حاتم ، ثم قلت : هذا ابن عمي فعل بي هذا الفعل فكيف بغيره ! ثم حملت نفسي على أن آتيه ، فأعلم بمكاني ، فتركني أشهرا حتى صخرت ، فأكرت نفسي من الحمالين . وكتبت بيتاً في رقعة فألقيته في دهليزه ، والبيت :

أراني ولا كُفْرانَ لله راجعاً * بحفي حنينٍ من يزيد بن حاتم

فوقعت الرقعة في يد حاجبه ، فأوصلها اليه من غير علمي ولا أمرى ، فبعث خلفي ، فلما دخلت عليه قال : هيه أُنشدني ما قلت ، فتمنعت ، فقال : والله لئن شددتني ، فأنشدته ، فقال : والله لا ترجع كذلك ، ثم قال : أنزعوا حُفَيه ، فَنزِعَا حُشَاهُمَا دنانيرَ وأمر لي بعلمانٍ وجوارٍ وكسبي ، ألا ترى لي أن أمدح هذا وأهجو ذاك ؟ قلت : بلى والله ، وسار شعري حتى بلغ المهدي ، فكان سبب دخولي اليه .

قيل لأبي زيد النحوي : إن الأصمعي قال : لا يقال شتان ما بينهما ، وإنما يقال : شتان ما هما ، وأنشد قول الأعشى : * شتان ما يوحى على كورها * فقال : كذب الأصمعي ، يقال : شتان ما هما وشتان ما بينهما ، وأنشد لربيعة الرقي : « لشتان ما بين اليزيديين » وفي آستشهاد مثل أبي زيد على دفع قول مثل الأصمعي بشعر ربيعة كفاية له في تفضيله .
• أمتدح ربيعة العباس بن محمد بن علي بقصيدة لم يسبق إليها حسناً ، وهي طويلة ، يقول فيها :

لو قيل للعباس يابن محمد * قل « لا » وأنت محلد ما قالها

ما إن أعد من المكارم خصلة * إلا وجدتك عمها أو خالها

وإذا الملوک تسايروا في بلدة * كانوا كواكبها وكنت هالها

إن المكارم لم تزل معقولة * حتى حلت براحتك عقالها

فبعث اليه بدينارين ، وكان يقدر فيه ألفين ، فلما نظر الى الدينارين كاد يحن غيظاً وقال للرسول : خذ هذين الدينارين فهما لك على أن ترد الرقعة الي من حيث لا يدري العباس ، ففعل الرسول ذلك ، فأخذها ربيعة وأمر من كتب في ظهرها :

مدحتك مدحة السيف المحلّي * لتجري في الكرام كما جريت
 فهبها مدحة ذهب ضياعاً * كذبت عليك فيها وأقريت
 فأنت المرء ليس له وفاء * كأني إن مدحتك قد زنت

ثم دفعها الى الرسول وقال : ضعتها في الموضع الذي أخذتها منه ، فردّها الرسول ؛ فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها ، فلما قرأ الأبيات غضب وقام من وقته فركب إلى الرشيد ، وكان أثيراً عنده يبجله ويقدمه ، وكان قد هم أن يحطب إليه ابنته ، فرأى الكراهة في وجهه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال : هجاني ربعة الرقي ، فأحضر ، فقال له الرشيد : تهجو عمي وآثر الخلق عندي ؟ لقد هممت أن أضرب عنقك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مدحته بقصيدة ما قال مثلها أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء ، ولقد بالغت في الثناء وأكثرت في الوصف ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمره بإحضارها ! فلما سمع الرشيد ذلك منه سكن غضبه وأحب أن ينظر الى القصيدة ، فأمر العباس بإحضار الرقعة ، فتلكأ عليه العباس ، فقال له الرشيد : سألتك بحق أمير المؤمنين إلا أمرت بإحضارها ، فعلم العباس أنه قد أخطأ وغلط ، فأمر بإحضارها ، فأحضرت ، فأخذها الرشيد وإذا فيها القصيدة بعينها ، فاستحسنها واستجدها وأعجب بها وقال : والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها ، لقد صدق ربعة وبراً ، ثم قال للعباس : بم أثبتت عليها ؟ فسكت العباس وتغير لونه وجرض بريقه ، فقال ربعة : أثابني عليها يا أمير المؤمنين بدينارين ، فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من الموجدة على العباس ، فقال : بحياتي يا رقي بكم أثابك ؟ قال : وحياتك يا أمير المؤمنين ما أثابني عليها إلا بدينارين ، فغضب الرشيد غضباً شديداً ونظر في وجه العباس وقال : سوءة لك ! أي حالٍ قعدت بك عن إثابته ؟ الأموال ؟ فوالله لقد مؤلتك جهدي ، أم آتقناع المادّة عنك ؟ فوالله ما آتقعت ، أم أصلك ؟ فهو الأصل لا يُدانيه شيء ، أم نفسك فعلت ذلك بك حتى فصحت آباءك وأجدادك وفضحتني

(١) أثيراً : مكرماً . (٢) جرض بريقه : ابتلعه بالجهد على هم وحزن .

وَنَفْسِكَ؟ فَكَسَّ الْعَبَّاسُ رَأْسَهُ وَلَمْ يَنْطِقْ، فَقَالَ الرَّشِيدُ: يَا غَلَامُ، أُعْطِيَ رِبْعَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ وَخِيعَةً وَأَحْمَلَهُ عَلَى بَغْلَةٍ؛ فَلَمَّا حَمَلَ الْمَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالرَّيْسَ الْخَالِعَةَ قَالَ: بِحِيَاتِي يَارِقِي لَا تَذْكُرِي فِي شِعْرِكَ لَا تَعْرِضِي وَلَا تَصْرِيحِي، وَقَتَرَ الرَّشِيدُ عَمَّا كَانَ هَمُّ بِهِ أَنْ يَتَرَوَّجَ إِلَيْهِ، وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَفَاءً كَثِيرًا وَأَطْرَاحَ لَهُ .

قال أبو بشر: كنتُ حاضراً ربِيعَةَ الرِّقِيِّ يَوْمًا وَجَاءَتْهُ أَمْرَأَةٌ فَمَاتَتْ: تقول لك فلانة إن بُنِيَ مَوْلَايَ مَجْمُومَةً فَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ لَهَا عَوْدَةً فَأَفْعَلْ^(١)، فقال أكتب لها أبا بشر هذه العوذة:

ثِقُوا ثِقُوا بِأَسْمِ إلهِي الَّذِي * لَا يَعْزِضُ السُّتَمَّ لِمَنْ قَدْ شَفَى
أَعْيَدُ مَوْلَاتِي وَمَوْلَاتَهَا * وَأَبْتَهَا بِعَوْدَةِ الْمُصْطَفَى
مَنْ شَرَّمَا يَعْزِضُ مِنْ عَلَّةٍ * فِي الصَّبْحِ وَاللَّيْلِ إِذَا أَسْدَفَا

فقلتُ له: يا أبا ثابت، لستُ أُحْسِنُ أَنْ أَكْتُبَ ثِقُوا ثِقُوا، فكيف أكتبها؟ قال أَنْضَحَ الْمِدَادَ مِنْ رَأْسِ الْقَلَمِ فِي مَوْضِعَيْنِ حَتَّى يَكُونَ كَالنَّفْثِ^(٢)، وَأَدْفَعُ الْعَوْدَةَ إِلَيْهَا فَإِنَّهَا نَافِعَةٌ، فَفَعَلْتُ وَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْ الْجَارِيَةُ وَهِيَ لَا تَتَمَالَكُ صَحَّكَأً، فَقَالَتْ لَهُ: يَا مَجْنُونُ مَا فَعَلْتَ بِنَا! كِدْنَا نَفْتَضِحُ بِمَا صَنَعْتَ! قال: فما أصنع! أشاعرُ أنا أم صاحبُ تعاويد! .

وَأَتَّفَقَ لِلرِّقِيِّ أَيْضًا مِثْلُ ذَلِكَ مَعَ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ، وَقَدْ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ قَدَمَاتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ، فَدَحَاهُ، فَلَمْ يَهَشَّ لَهُ، فَهَجَّاهُ بِقَصِيدَةٍ مَطْلُوعِهَا:

مَعْنُ يَا مَعْنُ يَا بَنَ زَائِدَةَ الْكَلْبِ الَّذِي فِي الدَّرَاعِ لَا فِي الْبِنَانِ
لَا تُفَاخِرْ إِذَا نَفَخَتْ بَابَا * نِكَ وَأَنْفَرَ بَعْمَكَ الْخَوْفَانِ^(٣)

(١) العوذة: الرقية - يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون أو مرض . (٢) النفث البصاق اليسير ينثفه الراقى في العقدة عند الرقية .

(٣) الخوفان هو الحارث بن شريك الشيباني، سمي بذلك لأن قيس بن عاصم التميمي حفزه بالرح حين خاف أن يفوته، وقد نخر بذلك سوار بن حبان المنقري فقال:

ونحن حفزنا الخوفان بطعنة * سقته نجيعا من دم الجوف أشكلا

ومن غزله أبياتٌ يعنى بها، وهى :

وتزعم أتى قد تبدلت خُلة^(١) * سواها وهذا الباطل المتقوّل

لما لله من باع الصديق بغيره * فقالت نعم حاشاك إن تكُ تفعل

ستصيرمُ إنسانا إذا ما صرمتنى * بحبك فأنظر بعده من تبدّل

(١) الخلة : الخلية .

١٠ - الرقاشي^(١)

كان سهّل الشعر مطبوعاً ، وكان مُنْقَطِعاً إلى آل بَرَمَك ، مُسْتَعْنِياً بهم عن سواهم ، وكانوا يَصُولون به على الشعراء ، ويُرَوِّون أولادهم أشعاره ، ويُدَوِّنونها القليل والكثير منها ، تَعْصَباً له ، وَحِفْظاً لخدمته ، وَتَنْوِيهاً باسمه ، وَتَحْرِيكاً لانشاطه ، فَحَفِظَ ذلك لهم . فلما نُكِبوا صار إليهم في حَسَبهم ، فأقام معهم مُدَّةَ أيامهم يُنْشِدُهم وَيُسامِرهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم فأكثر من رثاهم ، فمن ذلك قوله في جعفر :

كَمْ هَاتِفٍ بِكَ مِنْ بَاكِ وَبَاكِئَةٍ * يَا طِيبَ اللَّضِيفِ إِذْ تُدْعَى وَالجَّارِ
إِنْ يُعَدُّمُ القَطْرُ كُنْتَ المُنْزَنَ بَارِقَهُ * لَمَعُ الدنانيرِ لا ما خَيْلَ السَّارِ

وقوله :

لَعَمْرُكَ ما بالموتِ عَارٌّ على الفتي * إِذَا لَمْ تُصِبْهُ في الحِياةِ المَعَارِ^(٢)
وما أَحَدٌ حَيٌّ وَإِنْ كانَ سَالِماً * بِأَسْلَمَ مِمَّا غَيَّبَتْهُ المَقَابِرُ
وَمَنْ كانَ مِمَّا يُحَدِّثُ الدَّهْرُ جازِعاً * فلا بَدَّ يوماً أَنْ يَرى وَهُوَ صابِرُ
وليس لذي عَيْشٍ عن الموتِ مُقَصِّرٌ * وليس على الأيامِ والدَّهْرِ غابِرُ
وكلُّ شِبابٍ أو جَدِيدٍ إلى البلى * وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا إلى اللهِ صابِرُ
فلا يُبْعِدُكَ اللهُ عَنِّي جَعْفَرًا * بِرُوحِي ولو دَارَتْ عَلى الدَّوَابِرُ
فأَلَيْتُ لا أَنْفُكَ أَبْجِيكِ ما دَعَتْ * على فَنَنِ وَرِقاءٍ أو طارِ طابِرُ

ومن ذلك قوله لما صُلبَ الفضل بن يحيى وأجتاز به الرقاشي ، وهو مصلوبٌ على

الجِدْع ، فوقف يبكي ثم قال :

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش ، وهو من أهل البصرة . توفى سنة ٢٠٠ هـ . وتجدر ترجمته

في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٥) ووفيات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .

(٢) المعابر : المعايير .

أما والله لولا خَوْفُ وَاشٍ * وَعَيْنٌ لِلخَلِيفَةِ لَا تَتَّامُ
 أَطْفَنًا حَوْلَ جِذْعِكَ وَأَسْتَلَمْنَا * كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ أَسْتَلَامُ
 فَمَا أَبْصَرْتُ قَبْلَكَ يَا بَنَ يَحْيَى * حُسَامًا حَفَفَهُ السِّيفُ الْحُسَامُ
 عَلَى اللَّذَاتِ وَالدُّنْيَا جَمِيعًا * وَدَوْلَةَ آلِ بَرْمَكٍ السَّلَامُ

فكتب أهل الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحضره فقال: ما حملك على ما قلت؟ فقال:
 يا أمير المؤمنين كان إلى محسنًا، فلما رأيته على الحال التي هو عليها حررتني إحسانه فما ملكت
 نفسي حتى قلت الذي قلته؛ قال: ولم كان يُجرى عليك؟ قال: ألف دينار في كل سنة،
 قال: إنا قد أضعفناها لك.

ومن قوله يَصِفُ جَارِيَةً:

صِفَاتٌ وَحُسْنُ أَوْرَثَا الْقَلْبَ لَوْعَةً * تَضَرَّمُ فِي أَحْشَاءِ قَلْبٍ مَتِيمٍ
 مُثَلِّمًا نَفْسِي أَمِينِي فَأَنْتَنِي * عَلَيْهَا بَطْرَفُ النَّظَرِ الْمُتَتِيمِ
 يَجْمَلُنِي حَبِي لَهَا فَوْقَ طَاقَتِي * مِنْ الشُّوقِ دَابَّ الْحَاوِرِ الْمُتَقَسِّمِ

قاله في شرحه:

(١) قوله: «عَيْنٌ لِلخَلِيفَةِ لَا تَتَّامُ» أي: عين لا تكتمل، أي: لا تكتمل عين الخليفة إلا بالخوف والرهبة.

(٢) قوله: «كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ أَسْتَلَامُ» أي: كما للناس بالحجر استسلام، أي: كما يستسلمون للحجر.

(٣) قوله: «دَوْلَةَ آلِ بَرْمَكٍ السَّلَامُ»

١١ - أبو العتاهية^(١)

قال أحمد بن زهير: سمعت مصعب بن عبد الله يقول: أبو العتاهية أشعر الناس،
فقلت له: بأى شيء أستحق ذلك عندك؟ فقال بقوله:

تعلقتُ بآمالٍ * طِوَالِ أَىِّ آمَالٍ
وأقبلتُ على الدنيا * مُلِحًّا أَىِّ إِقْبَالٍ
أيا هذا تَجَهَّزًا * فِرَاقِ الأَهْلِ والمَالِ
فلا بد من الموت * على حال من الحال

ثم قال مصعب: هذا كلام سهل حق لا حشو فيه ولا نقصان، يعرفه العاقل ويقربه
الجاهل. وكان الأصمعي يستحسن قوله:

(١) هو أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم بن سويد، أطلع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولاً وأسهلهم لفظاً،
وأمرهم بديهة وأرتجالاً، وأول من فتح للشعراء باب الوعظ والترهيد في الدنيا والنهي عن الاغترار بها، وأكثر
من الحكمة.

ولد بعين التمر سنة ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة في عمل أهله. وكانوا باعة جزار، إلا أنه رباً بنفسه عن عمله وقال
الشعر في صباه وامترج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لوشئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت»
فذاع صيته وسلك طريق خلفاء الكوفة. ثم قدم بغداد ومدح المهدي وتعرف ببعض خدام قصر الخلافة
وجواريه فتعشق منهن فتاة تدعى عتبة، ولما بُس منها لها عنها بعض الشيء، ودرس كثيراً من مذاهب المتكلمين
والشيعية والجبرية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينتقل عنه إلى الآخر حتى اختار له من كل ذلك
عقيدة مختلطة أفضت به إلى العبادة والزهد في الدنيا قولاً ومعيشة على إفراط منه في حب المال واجمع له
واليلخل به على الأهل والولد والخدم.

ولم يأت عصر الرشيد حتى أصرب عن الغزل وقصر قوله على الزهد في الدنيا والتذكير بالموت وأحواله، وهو في خلال
ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة ويأخذ جواريهم، ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة حتى حبسه الرشيد
لعدم تليته ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طلبه، وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه وترك الغزل
والهجاء، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون. توفي سنة ٢١١ هـ.

وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ وتجدد أخباره في الأغاني ج ٣ ص ١٢٦ وج ٦ ص ١٨٦
وج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والفهرست ص ١٦٠.

أنت ما أستغنيت عن صا * حيك الدهر أخوه
فاذا أحتجت إليه * ساعةً بجمك فوه

وأشده سلم الخاسر :

سكن يبق له سكن * ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار يخبونا * بيلاها ناطق ليس
دار سوء لم يدم فرح * لأمرىء فيها ولا حزن
في سبيل الله أنفُسنا * كلنا بالموت مُرتهن
كل نفس عند ميتتها * حظها من مالها الكفن
إن مال المرء ليس له * منه إلا ذكره الحسن

وقال عبد الله بن عبد العزيز العمري : أشعرُ الناس أبو العتاهية حيث يقول :

ما ضرَّ من جعلَ الترابَ مهاده * ألا ينام على الحرير إذا قنع

وقيل لأبي العتاهية : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردته قط إلا مثل لي ، فأقول
ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئت أن أجعل كلامي شعرا كله لفعلت .

حمَّ الرشيد فصار أبو العتاهية الى الفضل بن الربيع برقة فيها :

لو علم الناس كيف أنت لهم * ماتوا اذا ما أتت أجمعهم
خليفة الله أنت ترشح بالنا * س اذا ما وزنت أنت وهم
قد علم الناس أن وجهك يغ * نى اذا ما رآه معدمهم

فأنشدها الفضل بن الربيع الرشيد ، فأمر بإحضار أبي العتاهية ، فما زال يُسامره ويحدثه
الى أن برى ، ووصل اليه بذلك السبب مأل جليل . وقد حدث ابن الأعرابي بهذا
الحديث ، فقال له رجل بالمجلس : ما هذا الشعر بمستحق لما قلت ؛ قال : ولم ؟ قال :
لأنه ضعيف ؛ فقال ابن الأعرابي ، وكان أحد الناس ، الضعيف والله عقلك لا شعر

أبي العتاهية، الأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيتُ شاعراً قطُّ أطبعَ
ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبَه إلا ضرباً من السَّحر؛ ثم أنشد له :

قَطَّعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَمَالِ * وَحَطَّطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطَى رِحَالِي
وَيَلَسْتُ أَنْ أَبْقَى لشيءٍ نِلْتُ مِمَّ * يَا فَيْكَ يَا دُنْيَا وَأَنْ يَبْقَى لِي
فَوَجَدْتُ بَرْدَ الْيَأْسِ بَيْنَ جَوَانِحِي * وَأَرَحْتُ مِنْ حَلٍّ وَمِنْ تَرَحَالِ
يَأْمِيهَا الْبَطْرُ الَّذِي هُوَ مِنْ غَدٍ * فِي قَبْرِهِ مَتَمَزَّقَ الْأَوْصَالِ
حَدَفَ الْمُنَى عَنْهُ الْمُشَمَّرُ فِي الْهَدَى * وَأَرَى مِنْكَ طَوِيلَةَ الْأَذْيَالِ
حَيْلُ ابْنِ آدَمَ فِي الْأُمُورِ كَثِيرَةٌ * وَالْمَوْتُ يَقْطَعُ حَيْلَةَ الْمُحْتَالِ
مَالِي أَرَاكَ لِحَرْ وَجْهَكَ مُخْلَقًا * أَخْلَقْتَ يَا دُنْيَا وَجُوهَ رِجَالِ
قَسَيْتُ السُّؤَالَ فَكَانَ أَعْظَمَ قِيَمَةً * مِنْ كُلِّ عَارِفَةٍ جَرَتْ بِسُؤَالِ
فَإِذَا أَبْتُلَيْتَ بِبَدَلِ وَجْهِكَ سَائِلًا * فَايْذُلُهُ لِلتَّكْرَمِ الْمِفْضَالِ
وَإِذَا خَشِيتَ تَعَدُّرًا فِي بَلَدَةٍ * فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِعَاجِلِ التَّرْحَالِ
وَأَصْبِرْ عَلَى غَيْرِ الزَّمَانِ فَإِنَّمَا * فَرَجُ الشَّدَائِدِ مِثْلُ حَلِّ عَقَالِ

• ثم قال للرجل : هل تعرف أحداً يُحسِنُ أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل :
يا أبا عبد الله، جعلني الله فداءك، إني لم أَرُدُّ عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهبُ
أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد؛ فقال: أفليس الذي يقول في المديح:

وَهَارُونَ مَاءُ الْمَزْنِ يَشْفِي مِنَ الصَّدَى * إِذَا مَا الصَّدَى بِالرِّيقِ غَصَّتْ حَنَاجِرُهُ
وَأَوْسَطُ بَيْتٍ فِي قَرِيشٍ لَبِيَّتُهُ * وَأَوَّلُ عَمْرٍ فِي قَرِيشٍ وَآخِرُهُ
وَرَحْفٌ لَهُ تَحْكِي الْبُرُوقِ سَيُوفُهُ * وَتَحْكِي الرُّعُودَ الْقَاصِيفَاتِ حَوَافِرُهُ
إِذَا حَمِيَتْ شَمْسُ النَّهَارِ تَضَا حَكَّتْ * إِلَى الشَّمْسِ فِيهِ بَيْضُهُ وَمَعَا فِرُهُ
إِذَا نَبِكَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ * فَهَارُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ نَائِرُهُ
وَمَنْ ذَابِقُوتِ الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ مُدْرِكُ * كَذَا لَمْ يَفْتِ هَارُونَ ضِدُّ يَنَافِرُهُ

فتخاَصَّ الرجل من شرِّ ابن الأعرابي بأن قال له : القولُ كما قلتَ ، وما كنتُ سمعتُ له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال مُمامة بن أشرس أنشدني أبو العتاهية :

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المال نفسه * تملكه المأل الذي هو مالكه
ألا إنما مالى الذي أنا مُنْفِقٌ * وليس لي المأل الذي أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذي * يَحِقُّ وإلا آستهلكته مهالكه

فقلت له : من أين قضيتَ بهذا؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما لك من مالك ما أكلتَ فأفريتَ أو لبستَ فأبليتَ أو تصدقتَ فأمضيتَ" . فقلت له : أتؤمن . بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق؟ قال : نعم ، قلت : فلم تحبس عندك سبعا وعشرين بدرّة في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي ولا تقدمها ذنرا ليوم فقرك وفاقبتك؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ما قلتَ لهو الحق ، ولكني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس ، فقلت : ويم تريد حال من أفقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد؟ فترك جواب كلامي كله ، ثم قال لي : والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحما وتوابعه وما يتبعه بخمسة دراهم ، فلما قال هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

زار مرة عمرو بن مسعدة فحجّب عنه ، فلزم منزله ، فاستبطأه عمرو ، فكتب إليه :

كسّلتى اليأس عنك فما أُر * فَع طرْفى إليك من كسَل
إني إذا لم يكن أنحى ثِقَّة * قطعتُ منه حَبائل الأمل

وكتب إليه مرة أخرى :

مالك قد حُلتَ عن إخائك وآس * تَبَدَّأتْ يا عمرو شِيمَةً كَدَره
إني إذا الباب تاه حاجِبُه * لم يك عندى في هَجْره نَظْره^(١)

(١) النظرة : التأخير والإمهال .

لستم تُرَجَوْنَ للحساب ولا * يوم تكون السماء مُنْفَطِرَةً
 لكن لَدُنِيَا كَالظِّلِّ بِهَيْجَتِهَا * سَرِيعَةَ الْإِنْقِضَاءِ مُذْشَمِرَةً
 قَدْ كَانَ وَجْهِي لَدَيْكَ مَعْرِفَةً * فَالْيَوْمِ أَضْحَى حَرْفًا مِنَ النَّكْرَةِ

جاس المهدي للشعراء يوما فأذن لهم، وفيهم بشار وأشجع، وكان أشجع يأخذ عن بشار
 ويعظمه، وكان في القوم غير هذين أبو العتاهية، قال أشجع: فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية
 قال: يا أخا سليم، أهدا ذلك الكوفي الملقب؟ قلت: نعم، قال: لا جرى الله خيرا من
 جمعنا معه؛ ثم قال له المهدي: أنشد، فقال: ويحك! أو يُستشد أيضا قبلنا؟ فقلت:
 قد ترى، فأشيد:

أَلَا مَا لِسَيِّدِي مَا لَهَا * أَدَلًّا فَاحْمِلْ إِدْلَاهَا
 وَإِلَّا فَفَيْمٍ تَجَنَّتْ وَمَا * جَنَيْتُ سَقَى اللَّهِ أَطْلَاهَا
 أَلَا إِنَّ جَارِيَةً لِلِإِمَا * مِ قَدْ أُسْكِنَ الْحَسَنُ سُرْبَاهَا
 مَشَتْ بَيْنَ حُورٍ قِصَارِ الْخَطَا * تُجَادِبُ فِي الْمَشَى أَكْفَالَهَا
 وَقَدْ أَعَبَ اللَّهُ نَفْسِي بِهَا * وَأَتَعَبَ بِاللَّوْمِ عُدْلَاهَا

فقال بشار لأشجع: ويحك يا أخا سليم! ما أدري من أي أمرية أعجب، أمن ضعف شعره
 أم من تشبيهه بجارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأذنه؟ حتى أتى على قوله:

أَنْتَ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةٌ * إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَاهَا
 فَلَمْ تَكِ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ * وَلَمْ يَكِ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
 وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ * لَزُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا
 وَلَوْ لَمْ تَطْعَمْهُ بَنَاتُ الْقُلُوبِ * لَمَّا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا
 وَإِنْ الْخِلَافَةُ مِنْ بَعْضِ "لَا" * إِلَيْهِ لِيُبْعِضُ مَنْ قَالَهَا

فقال بشار لأشجع وقد آهترطربا: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطرح فراشه
 طربا لما يأتي به هذا الكوفي!

ولما آتته منصور بن عمار بالزندقة، لأنه لا يذكر في شعره الجنة والنار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا وَاَعْظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحَتْ مَتَّهَمًا * إِذِ عَمِتَ مِنْهُمْ أَمْوَرًا أَنْتَ تَأْتِيهَا
كَلِّمِ الشُّبَّانَ مِنْ عُرَى وَعَوْرَتِهِ * لِلنَّاسِ بَادِيَةٌ مَا إِنَّ يَوَارِيهَا
فَاعْظُمِ الْإِثْمَ بَعْدَ الشُّرْكِ نَعْلَمُهُ * فِي كُلِّ نَفْسٍ عَمَّاها عَنْ مَسَاوِيهَا
عَرَفَانَهَا بَعِيُوبِ النَّاسِ تُبْصِرُهَا * مِنْهُمْ وَلَا تَبْصُرُ الْعَيْبَ الَّذِي فِيهَا

وقيل له : زعم الناس أنك زنديق، فقال : والله ما ديني إلا التوحيد ، ف قيل له قل شيئاً يتحدث به عنك ، فقال :

أَلَا إِنَّا كُنَّا بَائِدٌ * وَأَيُّ بَنِي آدَمِ خَالِدٌ
وَبَدْوُهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ * وَكُلُّ إِلَى رَبِّهِ عَائِدٌ
فِي عَجَبًا كَيْفَ يَعِضِي الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ * تُدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وسمع الجاحظ مرة من ينشد أرجوزة أبي العتاهية التي سماها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

بالشباب المرح التصابي * روائح الجنة في الشباب

فقال للنشد : قف، ثم قال : أنظروا الى قوله : «روائح الجنة في الشباب» فإن له معنى كمنعى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله :

حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوْتُ * مَا أَكْثَرَ الْقُوْتَ لِمَنْ يَمُوتُ
الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكَفَافَا * مِنْ أَسْقَى اللَّهَ رَجَاً وَخَافَا
هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلَمْ تُنِ أَوْ فَدَّرَ * إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَأَ الْقَدَّرُ

لِكُلِّ مَا يُؤْدِي وَإِنْ قَلَّ أَلَمٌ * مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمِ
مَا أَنْتَفَعَ الْمَرْءُ بِمَثَلِ عَقْلِهِ * وَخَيْرُ ذُنُوحِ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
إِنَّ الْفَسَادَ ضِدَّهُ الصَّلَاحُ * وَرَبُّ جِدِّ جَرِّهِ الْمُزَاحُ
مَنْ جَعَلَ التَّمَامَ عَيْنًا هَلَكًا * مُبْلِغُكَ الشَّرَّ بَكَاغِيهِ لَكَ
إِنَّ الشَّبَابَ وَالْقِرَاعَ وَالْجِدَّةَ * مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَىَّ مَفْسَدَةٍ
يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرْكُهُ * يَتَمَيَّنُ الرَّأْيَ الْأَصِيلَ شَكُّهُ
مَا عَيْشٌ مِنْ آفَتِهِ بَقَاؤُهُ * نَقَصَ عَيْشًا كَلَّهُ فَنَاؤُهُ
يَأْرُبُ مَنْ أَسْخَطَنَا بِجَهْدِهِ * قَدْ سَرَّنَا اللَّهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ
مَا تَطَّلَعَ الشَّمْسُ وَلَا تَغَيْبُ * إِلَّا لِأَمْرٍ شَأْنُهُ عَجِيبُ
لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْدِنٌ وَجَوْهَرٌ * وَأَوْسَطُ وَأَصْغَرُ وَأَكْبَرُ
مَنْ لَكَ بِالْحَمِضِ وَكُلُّ مُتَرَجِّحٍ * وَسَاوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنْهُ تَعْتَلِجُ
وَكُلُّ شَيْءٍ لَاحِقٌ بِجَوْهَرِهِ * أَصْغَرُهُ مُتَّصِلٌ بِأَكْبَرِهِ
مَا زَالَتِ الدُّنْيَا لَنَا دَارَ أَدَى * مَمْزُوجَةَ الصَّفْوِ بِأَلْوَانِ الْقَدَى
الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِهَا أَزْوَاجُ * لَذَا نِتَاجٌ وَلَذَا نِتَاجُ
مَنْ لَكَ بِالْحَمِضِ وَبِالْحَمِضِ * يَحِبُّ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضُ
لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَبِيعَتَانِ * خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَّانِ
إِنَّكَ لَوْ تَسْتَشِيقُ الشَّحِيحَا * وَجَدْتَهُ أَنْشَأَ شَيْءَ رِيحَا
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِذَا مَا عُدَا * بَيْنَهُمَا بَوْنٌ بَعِيدٌ جَدَا
عَجِبْتُ حَتَّى تَعْمَى السُّكُوتُ * صِرْتُ كَأَنِّي حَائِرٌ مَبْهُوتُ
كَذَا قَضَى اللَّهُ فَكَيْفَ أَصْنَعُ * الصَّمْتُ إِنْ صَاقَ الْكَلَامُ أَوْسَعُ

ومن قول أبي العتاهية في الوحدة والتبرم بالناس :

بَرِمْتُ بالناس وأخلاقِهِمْ * فَصَرْتُ أَسْتَأْنِسُ بِالْوَحْدَةِ
مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لِعَمْرِي وَمَا * أَقْلَهُمْ فِي حَاصِلِ الْعِدَّةِ

قال الأصمعيّ : شِعْرُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ كَسَاحَةِ الْمَلُوكِ ، يَقَعُ فِيهَا الْجَوْهَرُ وَالذَّهَبُ وَالتَّرَابُ
وَالخَزْفُ وَالتَّنَوُّي .

كان أبو العتاهية لا يفارق الرشيد في سَفَرٍ وَلَا حَضَرَ إِلَّا فِي طَرِيقِ الحِجِّ ، وَكَانَ يُجْرِي
عَلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ سِوَى الْجَوَائِزِ وَالْمَعَاوِنِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الرَّشِيدُ الرَّقَّةَ لَيْسَ
أَبُو الْعَتَاهِيَةِ الصُّوفَ وَتَرْتَهْدُ ، وَتَرَكَ حَضُورَ الْمُنَادِمَةِ وَالْقَوْلَ فِي الْغَزْلِ ، وَأَمَرَ الرَّشِيدُ بِجَبْسِهِ
خُبَيْسٍ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مِنْ وَقْتِهِ :

أَنَا الْيَوْمَ لِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَشْهَرُ * يَرُوحُ عَلَيَّ الْهَمُّ مِنْكُمْ وَيَبْكُرُ
تَذَكَّرَ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي * وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّينِي كَذَلِكَ يَذْكُرُ
لِيَالِي تُدْنِي مِنْكَ بِالْقُرْبِ مَجْلِسِي * وَوَجْهُكَ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَةِ يَقَطُرُ
فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً * إِلَىٰ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

فَلَمَّا قَرَأَ الرَّشِيدُ الْأَبْيَاتَ قَالَ : قُولُوا لَهُ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ؛ فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَرِقْتُ وَطَارَ عَنِ عَيْنِي النَّعَاسُ * وَنَامَ السَّامِرُونَ وَلَمْ يُؤَاسُوا
أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ خَيْرُ أَمْرٍ * عَلَيْكَ مِنَ التَّقَىٰ فِيهِ لِبَاسُ
نُسَاسٌ مِنَ الْعَمَاءِ بِكُلِّ بَرٍّ * وَأَنْتَ بِهِ تَسْوَسُ كَمَا تُسَاسُ
كَأَنَّ الْخَلْقَ رَكَّبَ فِيهِ رُوحَهُ * لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَاسُ
أَمِينَ اللَّهِ إِنْ الْحَبْسُ بَاسٌ * وَقَدْ أُرْسَلْتَ : لَيْسَ عَلَيْكَ بَاسٌ

وكتب إليه أيضا في الحبس :

وَكَلَّفْتَنِي مَا حُمِّلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ * وَقَلْتُ سَأَبْنِي مَا تُرِيدُ وَمَا تَهْوَىٰ
فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانُ كَلَّفْتُ وَاحِدًا * هَوَاكَ وَكَلَّفْتُ الْخَلْقَ لِمَا يَهْوَىٰ

فأمر باطلاقه .

كان الهادي واجدا على أبي العتاهية ملازمته أخاه هارون في خلافة المهدي، فلما ولي

موسى الخلافة قال أبو العتاهية بمدحه :

يَضْرِبُ الخَوْفُ والرَّجَاءُ إِذَا * حَرَّكَ موسى القَضِيبَ أَوْ فَكَرَهُ
 مَا أَيْبِنَ الفِضْلَ فِي مَغِيبٍ وَمَا * أَوْرَدَ مِنْ رَأْيِهِ وَمَا أُضْدَرَ
 فَكَمْ تَرَى عَزَّ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ * مَعْشَرِ قَوْمٍ وَذَلَّ مِنْ مَعْشَرٍ
 يُؤْمَرُ مِنْ مَسِّهِ القَضِيبُ وَلَوْ * يَمْسُهُ غَيْرُهُ لَمَا أُمِّرَ
 مِنْ مِثْلِ موسى وَمِثْلِ والدهِ الـ * مَهْدِيِّ أَوْ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرِ

فرضى عنه . فلما دخل عليه أنشده :

لَهْفِي عَلَى الزَّمَنِ القَصِيرِ * بَيْنَ الخَوْرِقِ والسَّيْرِ
 إِذْ نَجْنُ فِي غُرْفِ الحِنَا * نِ نَعُومِ فِي بَحْرِ السَّرُورِ
 فِي فِتْيَةٍ مَلَكُوا عِنَا * نَ الدَّهْرِ أَمْثَالِ الصُّقُورِ
 مَا مِنْهُمْ إِلَّا الجَسُورُ * رُ عَلَى الهَوَى غَيْرِ الحُصُورِ
 يَتَعَاوَرُونَ مُدَامَةً * صَهْبَاءَ مِنْ حَلَبِ العَصِيرِ
 عِذْرَاءَ رَبَّهَا شُعَا * عِ الشَّمْسِ فِي حَرِّ المَجِيرِ
 لَمْ تَدْنِ مِنْ نَارٍ وَلَمْ * يَغْلِقْ بِهَا وَضْرُ القُدُورِ
 وَمُقَرَّبَقِي يَمْشِي أَمَا * مِ القَوْمِ كَالرَّشَاءِ الغَيْرِ
 بِزَجَاجَةٍ تَسْتَخْرِجُ الـ * سِرَّ الدِّينِ مِنَ الضَّمِيرِ
 زَهْرَاءَ مِثْلِ الكَوْكَبِ الـ * دَرِّي فِي كَفِّ المُنِيرِ
 تَدَعُ الكَرِيمَ وَليْسَ يَدِ * رِي مَا قَيْسَلُ مِنْ دَبِيرِ
 وَمُحْصَرَاتٍ زُرْتَنَا * بَعْدَ الهَدُوقِ مِنَ الخُدُورِ
 رِيَا رَوَادِفِهِنَّ يَدِ * بَسْنِ الخَوَاتِمِ فِي الخُصُورِ
 عُرَّ الوُجُوهِ مُحْجَبَا * تِ قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ حُورِ

مُتَعَمَّاتٌ فِي النَّعْمِ * يَمِ مَضْمَخَاتٌ بِالْعَبِيرِ
 يَرْفُلُنَ فِي حُلِّ الْمَحَا * سَنَ وَالْمَجَاسِدِ وَالْحَرِيرِ
 مَا إِنْ يَرَيْنَ الشَّمْسَ إِلَّا * الْقُرْطُ مِنْ خَلِّ السُّتُورِ
 وَإِلَى أَمِينِ اللَّهِ مَهَّ * رَبُّنَا مِنَ الدَّهْرِ الْعَثُورِ
 وَإِلَيْهِ أَتَعَبْنَا الْمَطَا * يَا بِالرَّوَّاحِ وَالْبُكُورِ
 صُغَرَ الْخُدُودِ كَأَنَّمَا * جُنْحُنَ أَجْنَحَةَ النُّسُورِ
 مُتَسَرِّبَاتٍ بِالظُّلَا * مَ عَلَى السُّهُولَةِ وَالْوُوعُورِ
 حَتَّى وَصَلْنَ بِنَا إِلَى * رَبِّ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ
 مَا زَالَ قَبْلَ فِطَامِهِ * فِي سِنِّ مُكْتَهَلٍ كَبِيرِ

استنشده المأمون أحسن ما قال في الموت فأنشده :

أُنْسَاكَ مَحْيَاكَ الْمَمَاتَا * فَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا الثَّبَاتَا
 أَوْثَقْتَ بِالدُّنْيَا وَأَذ * تَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَاتَا
 وَعَزَمْتَ مِنْكَ عَلَى الْحَيَا * ةَ وَطَوَّلَهَا عَزْمًا بَتَاتَا
 يَا مَنْ رَأَى أَبُوَيْهِ فِي * حَنْ قَدْ رَأَى كَانَا فَمَاتَا
 هَلْ فِيهِمَا لَكَ عِبْرَةٌ * أَمْ خِلْتَ أَنَّ لَكَ أَنْفِلَاتَا
 وَمَنْ الَّذِي طَلَبَ التَّفَقُّدَ * تَ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَفَاتَا
 كُلُّ نَصَبٍ مِّنْهُ * يُؤْتِيهِ أَوْ تَبِيَّتِهِ بَيَاتَا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا * إِذَا أَطَاعَ اللَّهُ مَنْ نَالَهَا
 مَنْ لَمْ يُؤَاسِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهَا * عَرَّضَ لِلْإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ، فأما الثاني فما صنعت فيه شيئا ، الدنيا تُدْرِعُ عَمَّنْ
 وَاسَى مِنْهَا أَوْضَقَّ بِهَا ، وَإِنَّمَا تُوجِبُ السَّمَاحَةَ بِهَا الْأَجْرَ وَالضَّنَّ بِهَا الْوِزْرَ ، فقال : صدقت

يا أمير المؤمنين ، أهل الفضل أولى بالفضل وأهل التقص أولى بالتقص ، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كَمْ غَافِلٍ أودى به الموتُ * لم يأخذ الأُهْبَةَ للقوتِ
من لم تُزل نعمته قبله * زال عن النعمة بالموت

فقال له : أحسنت ، طيبت المعنى ، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يُحج كل سنة ، فاذا قدم أهدى الى المأمون بُرداً ومُطرفاً ونعلاً سوداء ومساويك أراك ، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم ، فأهدى مرة له كما كان يهدى كل سنة إذا قدم ، فلم يُثبته ولا بعث اليه بالوظيفة ، فكتب اليه أبو العتاهية :

خبروني أن من ضرب السنّة * جُددًا بيضا وصُفرا حسنه
أحدثت لكنني لم أرها * مثل ما كنت أرى كل سنه

فأمر المأمون بجمل العشرين الألف وقال : أغفلناه حتى ذكرنا .

أنشد المأمون بيت أبي العتاهية يخاطب سالماً الخاسر :

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أدل الحرص أعناق الرجال

فقال المأمون : إن الحرص مُفسد للدين والمرءة ، والله ما عرفت من رجلٍ قط حرصاً ولا شرها فوجدت فيه مُصطنعاً ، فبلغ ذلك سالماً فقال : ويلى على الحرار الزنديق جمع الأموال وكرّرها وعبأ البدور في بيته ثم ترهد مرءاة ونفاقا ، فأخذ يهتف بي اذا تصدّيت للطلب .

كان الرشيدُ مما يعجبه غناء الملاحين في الزلازل اذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء : يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقيل : ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس ، فوجه اليه الرشيدُ : قل شعرا حتى أسمعهم منهم ، ولم يأمر بإطلاقه ، فغاطه ذلك وقال : والله لأقولن شعرا يُحزنه ولا يُسرّبه ، فعمل شعرا ودفعه الى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحرقاة سمعه وهو :

خَانَكَ الطَّرْفُ الطَّمُوحُ * أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَمُوحُ
 لدواعي الخير والشـ * دُنُوُّ وَنُزُوحُ
 هل لمطلوبٍ بذنبٍ * توبَةٌ مِنْهُ نَصُوحُ
 كيف إصلاحُ قلوبٍ * إِنَّمَا هُنَّ قُرُوحُ
 أحسن الله بنا * إِنَّا الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ
 فإذا المستورُ مِنَّا * بَيْنَ تَوْبَتِهِ فَضُوحُ
 كم رأينا من عزيزٍ * طُوِّبَتْ عَنْهُ الْكُشُوحُ
 صَاحَ مِنْهُ بِرَحِيلٍ * صَاحُ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ
 موتُ بعضِ الناسِ في الأُر * ضَ عَلَى قَوْمِ قُفُوحُ
 سيصير المرءُ يوماً * جَسَداً مَا فِيهِ رُوحُ
 بينَ عَيْنَيَّ كُلِّ حَيٍّ * عَلمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ
 كلُّنا في غفلةٍ والـ * مَوْتُ يَغْدُو وَيُروِحُ
 لبني الدنيا من الدنـ * يَا غَبُوقَ وَصَبُوحُ
 رُحْنٌ فِي الوَشْيِ وَأَصْبَحُ * مِنْ عَلِيهِنَّ الْمُسُوحُ
 كلُّ نَطَّاحٍ مِنَ الدَّهـ * مَرَلَهُ يَوْمًا نَطُوحُ
 نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسـ * كَيْفَ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
 لَيَسُوتَنَّ وَإِنْ عَمَّ * مَرَّتْ مَا عَمَّرُ نُوحُ

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي ويتعجب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً
 في وقت الموعظة ، وأشدَّهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة ؛ فلما رأى الفضل بن الربيع
 كثرة بكائه أوماً الى الملاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عَنْ الرَّبِيعِ الْحَمِيلِ قَعُودِي * إِلَى ذِي زُحُوفٍ جَمَّةٍ وَجُنُودِي
 وَرَاعٍ يُرَاعِي اللَّيْلَ فِي حَفْظِ أُمَّةٍ * يَدَافِعُ عَنْهَا الشَّرَّ غَيْرَ رُقُودِي

بِأَلْوِيَةِ جَبْرِيلُ يَقْدُمُ أَهْلَهَا * وِرَايَاتٍ نَصَرَ حَوْلَهُ وَبَنُوهُ

تَجَانَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَيُّقِنُ أَنَّهَا * مُفَارِقَةٌ لَيْسَتْ بَدَارُ خُلُودِ

وَشَدَّ عُرَى الإِسْلَامِ مِنْهُ بِقَتِيَّةٍ * ثَلَاثَةَ أَمْلَاكٍ وَوَلَاةَ عُهُودِ

هُمْ خَيْرُ أَوْلَادِهِمْ خَيْرُ وَالِدٍ * لَهُ خَيْرُ آبَاءٍ مَضَتْ وَجُدُودِ

بَنُو المِصْطَفَى هَارُونَ حَوْلَ سَرِيرِهِ * نَخِيرُ قِيَامِ حَوْلَهُ وَقَعُودِ

تَقَلَّبَ أَحْلَاطُ المِهَابَةِ بَيْنَهُمْ * عِيُونَ ظَبَاءٍ فِي قُلُوبِ أُسُودِ

جُدُودِهِمْ شَمْسٌ أَتَتْ فِي أَهْلَةٍ * تَبَدَّتْ لِرَاءِ فِي نَجُومِ سَعُودِ

فوصله الرشيد بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط .

١٢ - مُسْلِمُ^(١) بن الوليد

أحد الشعراء المفلّحين والبلغاء المبدعين

قال الشعر في صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفياً بما يناله من قليل العطاء، وينفقه على ملاذّه مع إخوانه من خلّعاء الشعراء، ثم أقطع الى يزيد بن مزيد الشيباني قائد الرشيد، ثم أتصل بالخليفة هارون الرشيد وعُدّ من شعرائه، ومدّحه ومدّح البرامكة وحسن رأيهم فيه . ولما أصبح الخلل والعقد بيد ذى الرّياستين الفضل بن سهل وزير المأمون في أوّل خلافته قرّبه وأدناه : لأنه كان من خاصّته قبل وزارته، وولاه أعمالاً بجرّجان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزم منزله الى أن أنفقها في اللذات ، وعاد الى الفضل فقلّده الضياع بأصبهان فاكتسب منها ألف ألف أيضاً . ولما قُتِل الفضل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحداً الى أن مات بجرّجان .

ومسلمٌ أوّل من تكلف البديع في شعره وأستكثر منه في قوله ، وسبّقه بشار الى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأو مسلم فيه . وقد عدّ العلماء هذا التصنع والتكلف إفساداً للشعر، إذ قد تبعه في ذلك الشعراء مثل البحتري وأبي تمام وابن المعتز وغيرهم .

(١) هو مسلم بن الوليد مولى الأنصار يلقب صريع الغواني ، شاعر متقدّم من شعراء الدولة العباسية ، منشؤه ومولده الكوفة . وهو فيما زعموا أوّل من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائي ، فانه جعل شعره كله مذهبا واحداً فيه ، ومسلم كان متفنتا متصرفا في شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعرا حسن النبط ، جيد القول في الشراب ، وكثير من الرواة يقرّنه بأبي نواس في هذا المعنى ، وهو أوّل من عقد هذه المعاني الطريقة واستخرجها . وقال القاسم بن مهرويه : أوّل من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذي سماه الناس البديع ثم جاء الطائي بعده ففتن فيه . توفي بجرّجان سنة ٢٠٨ هـ وله ديوان مطبوع في ليدن سنة ١٨٧٥ م . وتجده أخباره في الأغاني (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمّنه المعاني اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظريفة ، فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين .

لقى مسلم أبا نؤاس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سقط ، قال له : فما تحفظ من ذلك ؟ قال : قل أنت ماشئت حتى أريك سقطك فيه ، فأئسد :

ذَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُحْرَةِ فَرَاتِحَا * وَأَمَلَهُ دَيْكُ الصَّبَاحِ صِيَاحَا

فقال له مسلم : فلم أمله وهو الذي أذكره وبه آرتاح ؟ فقال أبو نؤاس : فأئسدني شيئا من شعرك ليس فيه خلل ، فأئسده مسلم :

عَاصَى الشَّابَّ فَرَّاحَ غَيْرِ مُفَنَّدٍ * وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَدُّدٍ

فقال له أبو نؤاس : قد جعلته رائحا مقيا في حالة واحدة وبيت واحد ، فتشأبنا وتسابا ساعة . وكلا البيتين صحيح المعنى .

اجتمع أصحاب المأمون عنده يوما ، فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثى رجلا :

أَرَادُوا لِيُخَفُّوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّهِ * فَطِيبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلٌّ عَلَى الْقَبْرِ

وحيث مدح رجلا بالشجاعة فقال :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا * وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

وهما رجلا بفتح الوجه والأخلاق فقال :

قُبِّحَتْ مَنَاطِرُهُ فَمِنْ خَبْرَتِهِ * حَسُنَتْ مَنَاطِرُهُ لِقُبْحِ الْحَبْرِ

وتغازل فقال :

هَوَى يَجِدُ وَحَيْبٌ يَلْعَبُ * أَنْتَ لَقِيَ بَيْنَهُمَا مَعْدَبُ

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم في ذكره .

قال يزيد بن مزيد : أرسل الى الرشيد يوما في وقت لا يرسل فيه الى مثل ، فأتيته
لابساً سلاحى مستعداً لأمر إن أراده منى ، فلما رآنى ضحك الى ثم قال : يا يزيد ، خبرنى
من الذى يقول فيك :

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على مجل

ضافى العنان طموح العين همته * فك العناة وأسر الغاتك الخطل

فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال : سوء لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا
الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد !
فانصرفت فدعوت به ووصلته ووليته .

وروى أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد ، من الذى يقول فيك :

لا يعبق الطيب خديه ومفرقه * ولا يمسخ عينيه من الكحل

إذا أنتضى سيفه كانت مسالكه * مسالك الموت فى الأبدان والأقل

وإن خلت بحديث النفس فكرته * حى الرجاء ومات الخوف من وجل

كأليل إن هجته فالموت راحته * لا يستريح الى الأيام والدؤل

فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثل هذا الشعر
ولا تعرف قائله ! فخرج من عنده تجلاً ، فلما صار الى منزله دعا حاجبه فقال له : من
بالباب من الشعراء ؟ قال : مسلم بن الوليد ، قال : وكيف حجبت عني ، فلم أعلمنى بمكانه !
فقال : أخبرته أنك مضيق ، وأنه ليس فى يدك شىء تعطيه إياه ، وسألته الإمساك والمقام
أياماً الى أن تتسع ، فأنكر ذلك وقال : أدخله ، فأدخله اليه ، فأنشده قوله فيه :

أجررت^(١) حبل خلع فى الصبا غزير * وشممرت همم العذال فى عدلى

هاج البكاء على العين الطموح هوى * مفترق^(٢) بين توديع ومحتمل

كيف السلو لقلب راح محتبلاً * يهذى بصاحب قلب غير محتبل

(١) أجررت فلانا رسته : تركته وشأنه ، والخلع : الذى خلع عذاره فى الصبا .

(٢) الطموح :

المرتفعة فى النظر الى الأجرة . ومفرق : مقسم .

عَاصِي العِزَاءَ غَدَاةَ البَيْنِ مُنْهَمِلٌ * من الدموع جرى في إثر منْهَمِلِ
لولا مُدَارَاةَ دمع العين لَانْكَشَفْتُ * مَنِّي سِرَائِرٌ لَمْ تَظْهَرِ وَلَمْ تُخْلِ
(١)
أَمَا كَفَى البَيْنَ أَنْ أُرْمَى بِأَمْهَمِهِ * حَقِي رَمَانِي بِلِحْظِ الأَعْيُنِ التُّجَلِ
مَمَا جَنَى لِي وَإِنْ كَانَتْ مَنِّي صَدَقَتْ * صَبَابَةٌ خَلَسَ التَّسْلِيمَ بِالمَقْلِ
مَاذَا عَلَي الدَّهْرُ لَوْلَا نَتَّ عَرِيكُتُهُ * وَرَدَّ فِي الرَّأْسِ مَنِّي سَكْرَةُ الغَزَلِ
جُرْمُ الحَوَادِثِ عِنْدِي أَنهَا اخْتَلَسَتْ * مَنِّي بِنَاتِ غِذَاءِ الكَرَمِ وَالكِلالِ
(٢)
وَرُبَّ يَوْمٍ مِنَ اللَّدَاتِ مُحْتَضِرٌ * قَصْرَتُهُ بِلِقَاءِ الرَّاحِ وَالحَلَلِ
وَلَيْلَةٌ خَلَسَتْ لِلْعَيْنِ مِنْ سِنَةِ * هَتَكَتْ فِيهَا الصَّبَا عَنْ بَيْضَةِ المَجَلِ
قَدْ كَانَ دَهْرِي وَمَا بِي اليَوْمَ مِنْ كَبَرٍ * شُرِبَ المِدَامُ وَعَزَفَ القَيْنَةَ العُطْلِ
إِذَا شَكَّوْتُ إِلَيْهَا الحَبَّ خَفَّرَهَا * شَكْوَايَ فَاحْمَرَّتْ خَدَاهَا مِنَ المَجَلِ
(٣)
كَمْ قَدْ قَطَعْتُ وَعَيْنُ الدَّهْرِ رَاقِدَةٌ * أَيَامَهُ بِالصَّبَا وَاللَّهُوِ وَالحَذَلِ
وَطِيبِ الفِرْعِ أَصْفَانِي مَوَدَّتَهُ * كَأَفَاتِهِ بِمَدِيحٍ فِيهِ مُتَخَلِّ
(٤)
وَبِلَدَةِ لِمَطَايَا الرِّكَبِ مُنْضِيَّةٌ * أَنْضِيَّتَهَا بِوَجِيفِ الأَيْنِقِ الدُّلِّ
فِيمَ المَقَامِ وَهَذَا النِّجْمِ مُعْتَرِضًا * دَنَا النِّجَاءُ وَحَانَ السَّيْرِ فَارْتَحِلِ
(٥)
يَا مَائِلَ الرَّأْسِ إِنْ اللِّيثُ مُقْتَرَسٌ * مِيَلَ الجَمَاحِ وَالأَعْنَاقِ فَاعْتَدِلِ
حَذَارٍ مِنْ أَسَدٍ ضِرْغَامِيَّةٍ بَطَّلِ * لَا يُولِغُ السَّيْفُ إِلَّا مَهْجَةَ البَطَّلِ
لَوْلَا يَزِيدٌ لِأَضْحَى المُلْكِ مُطْرَدًا * أَوْ مَائِلَ السَّمَكِ أَوْ مُسْتَرْتَحِي الطَّوَلِ
(٦)
سَلَّ الخَلِيفَةُ سَيْفًا مِنْ بَنِي مَطَرٍ * أَقَامَ قَائِمُهُ مِنْ كَانَ ذَا مَيْلِ
كَمْ صَائِلٌ فِي دَرَا تَمْهَيْدِ مَمْلَكَةٍ * لَوْلَا يَزِيدُ بَنِي شَيْبَانَ لَمْ يَصُلِّ

(١) أى لم تقن بي . (٢) يريد الخمر والجواري . (٣) محتضر، أى حضرته اللذات . والخلال :

جمع خلة وهى الصدفة . (٤) خفرها ، أى ولد عليها الخفر وهو شدة الحياة . (٥) أى مختار .

(٦) منضية : متعبة . والوجيف : ضرب من السير . والدلل : الضاحرات . (٧) يريد بالنجم :

الثرىا . ومعترضا : متصبا . (٨) مطردا ، أى مخذولا . وضرب السمك والطول مثلا .

ناب الإمام الذي يفتّر عنه اذا * ما أفتّرت الحرب عن أنيابها العُصَل
 من كان يَحْتَمِل قِرْنَا عند موقفه * فإن قِرْن يزيد غير مُحْتَمِل
 سَدّ الثغور يزيد بعد ما أنفَرَجَتْ * بقائم السيف لا بالخَلْتِ والحِجَل
 كم قد أذاق حِمَامَ الموت من بَطَل * حامى الحقيقة لا يُؤْتَى من الوَهَل
 أغرَّ أبيض يُغشى البيض أبيض لا * يرضى لمولاه يوم الرّوع بالفشَل
 يغشى الوغى وشهاب الموت في يده * يرمى الفوارس والأبطال بالشُعَل
 يفتّر عند أفتّار الحرب مبهتِماً * اذا تغير وجه الفارس البطل
 مؤفّ على مَهْج واليوم ذو رَهْج * كأنه أجَلٌ يسعى الى أمل
 ينال بالرّفق ما يعيا الرجال به * كالموت مستعجلاً يأتي على مهل
 لا يُلْقِحُ الحربَ إلا ريثَ يَنْتَجِها * من هالك وأسير غير مُحْتَمِل
 إن شيم بارقُه حالت خلائقُه * بين العطيّة والإمساك والعليل
 يُغشى المنايا المنايا ثم يَفْرُجُها * عن النفوس مُطَلّات على الهبل^(١)
 لا يرحل الناس إلا نحو حجّرتِه * كالبيت يضحى إليه مُلتقى السبل^(٢)
 يقرى المنيّة أرواح الكفاة كما * يقرى الضيوف سُحُوم الكُوم والبرزل^(٣)
 يكسو السيوف دماء الناكثين به * ويجعل الهام تيجان القنا الذُّبَل
 يغدو فتغدو المنايا في أسنته * شوارعا تتحدّى الناس بالأجل
 إذا طَغَتْ فئنة عن غبّ طاعتها * عبي لها الموت بين البيض والأسل
 قد عود الطير عادات وثقن بها * فهنّ يدبّعه في كلّ مرّ تحل
 تراه في الأمن في درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل
 ضافي العنان طموح العين همته * فكّ العنائة وأسر الفاتك الخطل^(٤)
 لا يعبق الطيب خديّه ومفرقه * ولا يمسح عينيه من الكحل

(١) الهبل : الفقدان . (٢) معنى البيت الحرام . (٣) الكوم : العظام الأسنّة واحدا كوما .
 والبرزل : جمع بازل وهو ماله تسعة أعوام . (٤) جمع عان وهو الأسير . والخطل : ذو الخطل وهو خطأ .

إذا أنتضى سيفه كانت مسالكه * مسالك الموت في الأبدان والقائل
 وإن خلت بحديث النفس فكرته * حتى الرجاء ومات الخوف من وجل
 كالليث إن هجته فالموت راحته * لا يستريح إلى الأيام والدول
 إن الحوادث لما رمن هضبه^(١) * أزعمن عن جار شيان بمثقل
 فالدهر يعط أولاه أوأخره * إذ لم يكن كان في أعصاره الأول
 إذا الشريك لم يفخر على أحد * تكلم الفخر عنه غير متحمل
 لا تكذب إن الحلم معدنه * ورأته في بني شيان لم تزل
 سلوا السيوف فأغشوا من يحاربهم * خبطا بها غير ما نكلي ولا وئلي
 الزائديون قوم في رماحهم * خوف الخيف وأمن الخائف الوجلي
 كبيرهم لا تقوم الراسيات له * حاما وطفلهم في هدى مكتمل
 أسلم يزيد فما في الدين من أود * إذا سلمت وما في الملك من خلل
 أثبت سوق بني الإسلام فاطادت^(٢) * يوم الخليج وقد قامت على زلل
 لولا دفاعك بأس الروم إذ بكرت * عن عترة الدين لم تأمن من الشكل^(٤)
 ويوسف البرم قد صبحت عسكره * بعسكر يلفظ الأقدار ذى زجل
 غافسته يوم عبر التهر مهلته^(٦) * وكان محتجزا في الحرب بالمهل
 والمارق ابن طريف قد دلفت له^(٧) * بعسكر للنايا مسيل هطل
 لما راك مجدا في منيته * وأن دفعك لا يسطاع بالحيل
 شام التزال فأبرقت اللقاء له * مقدم الخطو فيها غير متكل
 ماتوا وأنت غليل في صدورهم * وكان سيفك يستشفى من الغلل

(١) هذا مثل ، يريد لما رامت الحوادث من استجاره . (٢) نسبة إلى شريك ، وهو أحد أجداد يزيد .
 (٣) هكذا في الأصل . وعندنا أن الكلمة محرفة عن (اتطلت) أي ثبتت . وهي وزان افتعل من وطل .
 وكانت او تطل ثم قلبت فاه الافتعال تاء وأدغم المثل في المثل . (٤) عترة الدين : جماعة الاسلام .
 (٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) غافسه : فاجاه على غرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشاري .

لو أن غير شريكٍ أطاف به * فاز الوليدُ يقدح الناضل الخِصَل^(١)
 وقتَ بالدين يوم الرِّس^(٢) فأعدت * منه قوائمٌ قد أوفت على ميل
 ما كان جمعهم لما لقيتهم * إلا كمثل نعام ريع مُتجفَل
 تابوا ولو لم يتوبوا من ذنوبهم * لآب جيشك بالأسرى والتفَل
 كم آمن لك نأى الدار مُمتنع * أخرجته من حصون الملك والخول
 يابى لك الدّم في يوميك إن ذكرا * عَضِبُ حُسامٌ وعرض غير مُبتدل
 وما رقيق غزاةٍ من بيوتهم * لا ينكحون ولا يؤتون من نكَل
 خلقت أجسادهم والطير عاكفة * فيها وأفقتهم هاما مع القفل
 فافخر فاك في شيان من مثل * كذلك ما لبني شيان من مثل
 كم مشهد لك لا تحصى ماثره * قسّمت فيه كرزق الإنس والخبَل
 لله من هاشم في أرضه جبل * وأنت وأبنك رُكنا ذلك الجبل
 قد أعظموك فما تدعى لهينة * إلا المعضلة تسن^(٣) بالعضل
 ياربّ مكرمة أصبحت واحدا * أعيت صناديد راموها فلم تتل
 تساغل الناس بالدينا وزحفها * وأنت من بذلك المعروف في شغل
 أقسمت ما ذبّ عن جدّوك طالبها * ولا دفعت أعتام الحد بالهزل
 يابى لسانك منع الجود سائله * فما يلجج بين الجود والبخل
 صدقت ظني وصدقت الظنون به * وحطّ جودك عقده الرّحل عن جملي

فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها وأعذر ، فخرج الحاجب فقال
 لمسلم : قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : خمسون ألفا منها لك
 وخمسون ألفا لتفقتة ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد
 بمائتي ألف درهم وقال : إقبض الخمسين ألفا التي أخذها الشاعر وزده مثلها ، وحذّ

(١) الناضل : المصيب . والخصل مثله . (٢) الرس : وادي أذربيجان . (٣) تسن بالعضل :

تتابع بالعسر . والمعضلة : الداهية .

مائة ألف لنفقتك، فافتك صيغته وأعطى مسالما خمسين ألفا أخرى . ولما أنشده :
« لا يعبق الطيب » البيت . قال بلخاريتيه : حرم علينا مسلم الطيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبي يجلس للشعراء في السنة مجلسا واحدا ، فيقصصونه
لذلك اليوم وينشدونه ، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته التي أولها : « لا تدع بي الشوق »
فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقه بعقب خروجهم عنه ، فتقدم الى الحاجب وحسّر
لثامه عن وجهه ، ثم قال له : أستاذن لي على الأمير ، قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ،
قال : قد آنصرم وقتك وأنصرف الشعراء وهو على القيام ، فقال له : ويحك ! إني قد وفدت
على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدب يفهم به ما يسمع ، فقال :
هات حتى أسمع ، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه ، فأنشده بعض القصيدة ، فسمع
شيئا يقصر عنه الوصف ، فدخل على داود فقال له : قدم على الأمير شاعر بشعر ما قيل
فيك مثله ، فقال : أدخل قائله ، فلما مثل بين يديه سلم وقال : قدمت على الأمير
— أعزه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدمي على غيري ممن أمتدحه ، فقال : هات ، فلما
أفتتح القصيدة وقال : « لا تدع بي الشوق » استوى جالسا وأطرق حتى أتى الرجل على
آخر الشعر ، ثم رفع رأسه إليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير ، قال : في كم
قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر أبالك الله ، قال : لو قلته في ثمانية أشهر لكنت محسنا ،
وقد أتممتك ، لجودة شعرك ونحول ذكرك ، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة
أشهر في مثله ، وأمرت بالإجراء عليك ، فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف
درهم وإلا حرمتك ، فقال : أو الإقالة أعز الله الأمير ، قال : قد أقتلك ، قال : الشعر
لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره ، فقال : أنا ابن حاتم ، إنك لما أفتحت
شعره فقلت : « لا تدع بي الشوق إني غير معمود » سمعت كلام مسلم يناديني ، فأجبت ندائه
وأستويت جالسا ، ثم قال : يا غلام ، أعطه عشرة آلاف درهم ، وأحمل الساعة الى مسلم
مائة ألف درهم . وهذه هي القصيدة :

(١) لا تَدْعُ بِي الشَّوْقَ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودٍ * نَهَى النَّهْيَ عَنِ هَوَى الْهَيْفِ الرَّعَادِيدِ
 لَوْ شِئْتُ لَأَشِئْتُ رَاجِعَتُ الصَّبَا وَمَشَّتْ * فِي الْعِيُونِ وَفَانْتَنِي بِجَحْلُودِ (٢)
 سَلْ لَيْلَةَ الْخَيْفِ هَلْ أَمْضَيْتُ آخِرَهَا * بِالرَّاحِ تَحْتَ نَسِيمِ الْخُرْدِ الْغَيْدِ
 شَجَّجْتُهَا بِلُعَابِ الْمُزْنِ فَاغْتَرَلْتُ * نَسْجِينَ مِنْ بَيْنِ مَحْلُولٍ وَمَعْقُودِ (٣)
 كَلَّا الْجَدِيدِينَ قَدْ أَطْعِمْتُ حَبْرَتَهُ * لَوَالَ حَى إِلَى عُمَيْرٍ وَتَخْلِيدِ (٤)
 أَهْلًا بَوَافِدَةَ لِلشَّيْبِ وَاحِدَةً * وَإِنْ تَرَأَتْ بِشَخْصٍ غَيْرِ مَوْدُودِ
 لَا أَجْمَعُ الْحَلْمَ وَالصَّبَاءَ قَدْ سَكَنْتُ * نَفْسِي إِلَى الْمَاءِ عَنِ مَاءِ الْعَنَاقِيدِ
 لَمْ يَنْهَيْ فَنَدُّ عَنْهَا وَلَا كِبَرُ * لَكِنْ صَحُوتُ وَغَضَنِي غَيْرَ مَخْضُودِ (٥)
 أَوْفَى بِي الْحَلْمُ وَأَقْتَادُ النَّهْيِ طَلَقًا * شَأْوَى وَعِفْتُ الصَّبَا مِنْ غَيْرِ تَفْنِيدِ
 إِذَا تَجَافَتْ بِي إِلَهَاتٍ عَنْ بَلَدِ * نَازَعَتْ أَرْضًا وَلَمْ أَحْفِلْ بِتَهْمِيدِ
 لَا تَطَّيْنِي الْمُنَى عَنِ جَهْدِ مُطَلَبِ (٦) * وَلَا أَحُولَ لِشَيْءٍ غَيْرِ مَوْجُودِ
 وَمَجْهَلٍ كَأَطْرَادِ السَّيْفِ مُحْتَجِزِ * عَنِ الْأِدْلَاءِ مَسْجُورِ الصَّيَاحِيدِ
 تَمْشِي الرِّيَاحُ بِهِ حَسْرَى مُؤَهَّةً * حَيْرَى تَلُوذُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ
 مُوقِفِ الْمَتْنِ لَا تَمْضِي السَّبِيلُ بِهِ * إِلَّا التَّخْلُلَ رَيْثًا بَعْدَ تَجْهِيدِ
 قَرِيئَتِهِ الْوَحْدَ مِنْ خَطَّارَةِ سَرِحِ (٧) * تَفْرَى الْفَلَاةَ بِأَرْقَالٍ وَتَوْخِيدِ
 إِلَيْكَ بَادَرْتُ إِسْفَارَ الصَّبَاحِ بِهَا * مِنْ جُنْحِ لَيْلِ رَحِيْبِ الْبَاعِ مَمْدُودِ
 وَبِلَدَةٍ ذَاتِ غَوْلٍ لَا سَبِيلَ بِهَا * إِلَّا الظَّنُونُ وَإِلَّا مَسْرَحِ السَّيِّدِ
 كَأَنَّ أَعْلَامَهَا وَالْأَلَّ يَرْكَبُهَا * بَدَنٌ تَوَافَى بِهَا نَدْرٌ إِلَى عَيْدِ

(١) لا تدع بي الشوق، أى لا تدعنى مشتاقا . وسأله دعبيل عن معنى ذلك فقال : لا تدعنى صريع الغواني فلست كذلك ، وكان لهذا اللقب كارها . ومعمود : عاشق . والهيف : الضامرات الخصور . (٢) أى ذهبت بجحلى . (٣) اغترلت : اختلطت ، ويريد بالنسجين : ما ولى الماء من الخمر أسرع فيه الماء فله ، وما ولى منها القاع بقى على حاله لم يحله الماء بعد . (٤) الخبرة : النعيم . (٥) الفند : اللوم . والمخضود : الواهن . (٦) أى لا تدعونى الى نفسها . (٧) الخطارة : النافقة تحرك ذنبها . والسرح : الخفيفة .

كَلَّفْتُ أَهْوَالَهَا عَيْنًا مُؤَرَّقَةً * اليك لولاك لم تُكْحَلْ بِتَسْهِيدِ
 حَتَّى أَتَيْتَ بِي الْأَمَالَ مُطْلِعًا * لليسر عندك في سِرْبَالِ مَحْسُودِ
 مِنْ بَعْدِ مَا أَقْبَتِ الْأَيَّامُ لِي عَرَضًا * مُلْقَى رَهِينٍ لِحَدِّ السَّيْفِ مَضْفُودِ^(١)
 وَسَاوَرَتْنِي بِنَاتُ الدَّهْرِ فَاثْمَحَنْتُ * رَبْعِي بِمُحَلَّةٍ شَهْبَاءِ جَارُودِ^(٢)
 إِلَى بَنِي حَاتِمٍ أَدَى رِكَائِبِنَا * خَوْضُ الدَّجَى وَسُرَى الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ
 تَطْوِي النَّهَارَ فَإِنَّ لَيْلًا تَحْمَطُهَا^(٣) * بَاتَتْ تَحْمَطُهَا مَاتِ الْقَرَادِيدِ
 مِثْلَ السَّمَامِ بَعِيدَاتِ الْمَقِيلِ إِذَا * أَلْقَى الْهَجِيرُ يَدًا فِي كَلِّ صَيْخُودِ
 حَلَّتْ يَدَاوُدَ فَاثْمَحَتْ وَأَعْجَلَهَا * حَذُو النَّعَالِ عَلَى أَيْنٍ وَتَحْرِيدِ^(٤)
 أَعْطَى فَأَفْنَى الْمُنَى أَدْنَى عَطِيَّتِهِ * وَأَرْهَقَ الْوَعْدَ نُجْحًا غَيْرَ مَنْكُودِ
 وَاللَّهُ أَطْفَأَ نَارَ الْحَرْبِ إِذْ سُعِرَتْ * شَرْقًا بِمُوقِدِهَا فِي الْغَرْبِ دَاوُدِ
 لَمْ يَأْتِ أَمْرًا وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى حَدَثٍ * إِلَّا أَعِينَ بِتَوْفِيقٍ وَتَسْهِيدِ
 مُوَحَّدُ الرَّأْيِ تَنْشَقُّ الظُّنُونُ لَهُ * عَنْ كُلِّ مُلْتَبِسٍ مِنْهَا وَمَعْقُودِ
 تُمْنَى الْأُمُورِ لَهُ مِنْ نَحْوِ أَوْجُهِهَا * وَإِنْ سَلَكَنَّ سَبِيلًا غَيْرَ مَوْرُودِ
 إِذَا أَبَا حَتَّى قَوْمٍ عَقُوبَتُهُ * غَادَى لَهُ الْعَفْوُ قَوْمًا بِالْمَرَاصِيدِ
 كَاللَيْثِ بِلِ مِثْلِهِ اللَّيْثُ الْهَضُورِ إِذَا * غَنَى الْحَدِيدُ غِنَاءً غَيْرَ تَغْرِيدِ
 يَلْقَى الْمُنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتِهَا * كَالسَّيْلِ يَقْدِفُ جَاهُودًا بِجَاهُودِ
 إِنْ قَصَرَ الرَّحْمُ لَمْ يَمْسِ الْخُطَا عُدْدًا * أَوْ عَرَّدَ السَّيْفُ لَمْ يَهْمَمْ بِتَغْرِيدِ
 إِذَا رَعَى بِلْدَانًا مَنَاهِلَهُ * وَإِنْ بَيْنَ عَلَى شَحْطٍ وَتَبْعِيدِ
 جَرَى فَأَدْرَكَ لَمْ يَعْنَفْ مِمَّهَلْتَهُ * وَأَسْتَوْدَعُ الْبَهْرَ أَنْفَاسَ الْمَجَاوِيدِ^(٥)

(١) الرهين : الأسير . والمصفود : الموثق بالحديد . (٢) المنحلة : السنة الجدية . والجارود :

المنجردة من النبات . (٣) تحمطها : سال بها . والقراديد : جمع قردد ، وهو المرتفع من الجبال .

(٤) السمام : طائر يشبه القطا . والصيخود : شدة الحر . (٥) التحريد من الخرد ، وهو داء يصيب الإبل

في قوائمها . والأين : التعب . (٦) البهر : هو ما يعتري الإنسان عند العدو من اللهث وتتابع النفس .

أَلْ مُهَابٍ قَوْمٌ لَا يَزَالُ لَهُمْ * رِقِّ الصَّرِيحِ وَأَسْلَابُ الْمَدَاوِرِ ^(١)
 مُظْفَرُونَ تُصِيبُ الْحَرْبُ أَنْفُسَهُمْ * إِذَا الْفِرَارُ تَمَطَّى بِالْمَحَايِيدِ ^(٢)
 نَجَلٌ مَنَاجِيِبَ لَمْ يَعْدَمِ تِلَادُهُمْ * فَتَى يَرْجَى لِنَقِضِ أَوْ لِنُوكِيدِ
 قَوْمٌ إِذَا هَدَاةٌ شَامَتْ سَيُوفَهُمْ ^(٣) * فَإِنَّهَا عُقْلُ الْكُومِ الْمَقَاحِيدِ
 نَفْسِي فِدَاؤُكَ يَا دَاوُدَ إِذْ عَلِقْتَ * أَيْدِي الرَّدَى بِنَوَاصِي الضَّمَرِ الْقُودِ
 دَاوَيْتَ مِنْ دَائِهَا كَرْمَانَ وَأَنْتَصَفْتَ * بِكَ الْمُنُونِ لِأَقْوَامٍ مَجَاهِيدِ
 مَلَأْتَهَا فَرْعًا أَخْلَى مَعَاقِلَهَا * مِنْ كُلِّ أَبْلَغٍ سَامَى الطَّرْفِ صِنْدِيدِ ^(٤)
 لَمَّا نَزَلْتَ عَلَى أَدْنَى بِلَادِهِمْ * أَلْقَى إِلَيْكَ الْأَقَاصِي بِالْمَقَالِيدِ
 لَمَسْتَهُمْ بِيَدٍ لِلْعَفْوِ مُتَّصِلِ * بِهَا التَّرْدَى بَيْنَ تَلْيِينِ وَتَشْدِيدِ
 أَتَيْتَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْأَمْنِ مُطَّلِعًا * بِالْخَيْلِ تَرْدَى بِأَبْطَالٍ مَنَاجِيدِ
 وَطَارْفِي إِثْرَ مَنْ طَارَ الْفِرَارُ بِهِ * خَوْفٌ يِعَارِضُهُ فِي كُلِّ أَخْدُودِ
 فَاتُوا الرَّدَى وَظُبَاتُ الْمَوْتِ تَنْشُدُهُمْ * وَأَنْتَ نَصَبَ الْمَنَايَا غَيْرُ مَنَشُودِ
 وَلَوْ تَلَبَّثَ دِيَانَ لَهَا رَوَيْتُ ^(٥) * مِنْهُ وَلَكِنْ شَاهَا عَدُوٌّ مَرْءُودِ
 أَحْرَزَهُ أَجَلٌ مَا كَادَ يُحْرِزُهُ * فَمَرَّ يَطْوِي عَلَى أَحْشَاءِ مَقُودِ ^(٦)
 وَرَأْسُ مِهْرَانَ قَدْ رَكَّبْتَ قُلْتَهُ * لَدَنَا كَفَاهُ مَكَانَ اللَّيْتِ وَالْحِيدِ
 قَدْ كَانَ فِي مَعَزِلٍ حَتَّى بَعَثْتَ لَهُ * أُمَّ الْمَنِيَّةِ فِي أَبْنَائِهَا الصَّيْدِ
 أَجْنٌ أُمَّ أَسْلَمْتَهُ الْفَاضِحَاتِ إِلَى * حَدٍّ مِنَ السَّيْفِ مِنْ يِعْلَقُ بِهِ يُودِ
 الْحَقَّتَهُ صَاحِييَهُ فَاسْتَمَرَّ بِهِمْ * ضَرْبٌ يَفْشِقُ ضَبَاتِ الْقَهَاحِيدِ ^(٧)

(١) رِق الصريح، أى استعباد الحر . والمداويد : الانجاد واحده مذود . (٢) المحاييد : الجبناء .

جمع محياد . (٣) الهدأة : الفترة . (٤) الأبلغ : المتكبر .

(٥) شأها : سبقها . وخرءود : مرعوب . (٦) المنشود : الذى أصيب فؤاده . (٧) الضبات :

أوصال الرأس . والقهاحيد : جمع قحودة وهى العظم الناقى فى مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس .

- (١) أعذر من قر من حرب صبرت لها * يوم الحصين شعار غير مجحود
 يوم استصبت بجستان طوائفها (٢) * عليك من طالب وترا ومحمود
 ناهضتهم ذائد الإسلام تفرعهم * عنه ثلاث ومثنى بالمواجد
 تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود
 تلك الأزارق إذ ضلّ الدليل بها * لم يخطها القصد من أسيف داود
 كان الحصين يرجي أن يفوز بها * حتى أخذت عليه بالأخايد
 ما زال يعنف بالنعى ويغمطها * حتى استقل به عود على عود
 وضعته حيث تراب الرياح به (٣) * وتحسد الطير فيه أضع اليد
 تغدو الضواري فترميها بأعينها * تستشق الحو أنقاساً بتصعيد
 يتبعن أفياءه طورا وموقعا (٤) * يلغن في علق منه وتجسد
 فكان فارط قوم حان مكرهم (٥) * بأرض زادان شقي في المواريد
 يوم جراشة إذ شيبان موجفة * يجنون منك ليلو منه مقودود
 زاحفته بابن سفيان فكان له * شاء يوم بظهر الغيب مشهود
 نجا قليلا ووافي زجر عائفه * بيومه طير منحوس ومسعود
 ولي وقد جرعت منه القنا جرجا * حتى المخافة ميتا غير مودود (٦)
 زالت حشاشته عن صدر معتدل * داني الكعوب بعيد الصدر أملود
 إذا السيوف أصابته تقطع في * سرادق بحوامي الخيل ممدود
 يقدي بما تحلته من خلافته * حشاشة الركض من جرداء قيدود (٧)
 حل اللواء وخال الحدر عائده * فعاذ بالخدر ترب الكعاب الرود

(١) أعذر: جاء بما يعذر عليه . (٢) أي أغرت طوائفها . (٣) تراب: أي تستنكر .

(٤) الأفياء: جمع في، وهو الظل آخر النهار . والجسد: الدم . (٥) موجفة: سريعة .

(٦) أملود: أملس . (٧) الجرداء: قصيرة الشعر . والقيدود: الناقة الطويلة الظهر .

(١) وإن يكن شَبَّها حرباً وقد نَحَدت * ففنائياً حيث لا هَيْدٍ ولا هَيْدِ
 كُلُّ مَثَلٍ به في مثل خُطَّته * قَتَلا وأُجِعتَه في غير مَلْحود
 عافوا رِضاك فعاقتهم بعقوتهم (٢) * عن الحياة مَنياهم لِمَوْعود
 وأنت بالسَّند اذ هاج الصَّريحُ بها * وأستفدتُ حربها كيدَ المكايدِ
 وأسغزرت القوم كأساً من دماءهم (٣) * وأحدق الموت بالكرار والحيدِ
 رددت أهملها القصوى مخبئة * وشمت بالبيض عورات المراسيدِ
 كنت المهلب حتى شك عالمهم * ثم انفردت ولم تُسبق بتسويدِ
 لم تقبل السَّلم إلا بعد مقدرة * ولا تألفت إلا بعد تبديدِ
 حتى أجابوك من مستأمن حذر * راج ومتظير حفا ومثمودِ
 أهدي اليك على الشحنة ألفتهم * موت تفرق في شتى عباديدِ
 وفي يديك بقايا من سراتهم * هم لديك على وعد وتوعيدِ
 إن تعف عنهم فأهل العفو أنت وإن * تمض العقاب فأمر غير مردودِ
 اسمع فإنك قد هيجت ملحمة * وفدت منها بأرواح الصناديدِ
 أقذف أبا مالك فيها يكك بها * ويسع فيها بجده منك محدودِ
 يمضى بعزمك أو يجرى بشأوك أو * يقرى بجذك كل غير محدودِ
 لا يعدمنك حتى الإسلام من ملك * أقت قُلتَه من بعد تأويدِ
 كفيت في الملك حتى لم يقف أحد * على ضياع ولم يحزن لمفقودِ
 أعطيتهم منك نصحا لا كفاء له * وأيدوك بركن غير مهدودِ
 لم يبعث الدهر يوماً بعد ليلته * إلا أنبعثت له بالبأس والجودِ
 أجرى لك الله أيام الحينة على * فعل حميد وجد غير منكودِ

(١) كلمتان يزجرهما الإبل . (٢) بعقوتهم ، أى بفنائهم . (٣) الأهمال : جمع همل ، وهو

الشيء المسبب ، ويراد به الصعب . ومخبئة : مذلة .

لا يفقد الدين خيالا أنت قائدها * يُعْهَدَنَّ في كل ثغر غير معهود
مَحَلَّاتٍ إذا آتَتْ غنائمَهَا * ومُقَدَّماتٍ على نصر وتأييد
هناك أنك مَغْدَى كَلِّ مَلْتِمِسٍ * جُودا وأُنك ماوى كل مطرود
تستأنف الحمد في دهر أوائله * موسومة بفعال منك محمود
إذا عزمَت على أمر بطشت به * وإن أثلت فنيلا غير تصريد
عودت نفسك عادات خلقت لها * صدق الحديث وإنجاز المواعيد

دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعرا، فقال له : أيها الكهل ، إني أجلك
عن الشعر فسل حاجتك ؛ قال : بل تستتم اليد عندي بأن تسمع ، فأنشده :

دموعها من حذار البين تنسكب * وقلبها مغرم من حرها يجب
جد الرحيل به عنها فقارقتها * لبينه اللهو واللذات والطرب
يهوى المسير إلى مرو ويحزنه * فراقها فهو ذو نفسين يرتقب

فقال له الفضل : إني لأجلك عن الشعر ؛ قال : فأعنى بما أحببت من عملك ، فولاه
البريد بجرجان^(١) .

• هجا مسلم قريشا ونخر بالأنصار بشعر يمثل لك ناحية من نواحي العصبية بين القبائل
وهو يعتبر، الى حد ما ، من الشعر السياسي ، فقال :

قل لمن تاه إذ بنا عز جهلا * ليس بالتيه يفخر الأحرار
فتناهوا وأقصرُوا فلقد جا * رت عن القصد منكم الأبصار
أيكم حاط ذبا جوارٍ بعز * قبل أن تحتويه منا الدار
أورجا أن يفوت قوما بوتر * لم تنزل تمتطيم الأوتار
لم يكن ذاك فيكم فدعوا الفخ * ربما لا يسوغ فيه أفتخار
ونزارا ففانحروا تفضلوهم * ودعوا من له عبيد نزار

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين الى الجنوب الشرق منه .

فبنا عزّ منكمُ الذلّ والده. * سرّ عليكم برينه كزار
 حادروا دولة الزمان عليكم * إنه بين أهله أطوار
 فَتُرَدُّوا ونحن للحالة الأو * لى وللاؤحد الأذلّ الصغار
 فاخرتنا لما بسطنا لها الفخ * رقریش ونخرها مستعار
 ذكرت عزّها وما كان فيها * قبل أن تستجيرنا مُستجار
 إنما كان عزّها في جبال * ترتقيها كما ترتقى السوبار
 أيها الفاخرون بالعز والعد * زلقوم سواهم والفضار
 أخبرونا من الأعزّ ألمند * صورحتى آعتلى أم الأنصار
 فلنا العز قبل عزّ قريش * وقريشٌ تلك الدهور تجار

فانبرى له ابن قنبر يحميه فقال :

ألا أمثل أمير المؤمنين بمسلم * وأقلق به الأحشاء من كل مجرم
 ولا ترجعن عن قتله باستنابة * فما هو عن شتم النبيّ بمجرم
 ولا عن مساواة له ولقومه * قريشا بأصداءٍ لعادٍ وجرهم
 ويفخر بالأنصار جهلا على الذى * بنصرته فازوا بحظّ ومغنم
 وسموا به الأنصار لا عزّ قائل * أراد قريشا بالمقام المدمم
 ومنهم رسول الله أذى من أنتى * الى نسبٍ زاكٍ ومجد مقدم
 وما كانت الأنصار قبل اعتصامها * بنصر قريش في المحلّ المعظم
 ولا بالألى يُعلون أقدار قومهم * صداءٍ وخولانٍ ونخمٍ وسيلهم
 ولكنهم بالله عاذوا ونصرهم * قريشا ومن يستعصم الله يعصم
 فعزّوا وقد كانوا ووطيون فيهم * من الذل في باب من العزم مبهم
 يسومهم الفطيون مالا يسامه * كريم ومن لا ينكر الظلم يظلم
 وإن قريشا بالماثر فضلت * على الخلق طرا من فصيح وأعجم

فما بال هذا العِلج ضلّ ضلاله * يمد اليهم كف أجذم أعسم
 يسامى قریشا مسلم وهم هم * بمولى يمانى وبيت مهدم
 اذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم * مقام به من لؤم مبنى ومدعم
 جعاسيس^(١) أشباه القروذ لو أنهم * يباعون ما أبتعوا جميعا بدرهم
 وما مسلم من هؤلاء ولا ألى * ولكنه من نسل عالج ملکم
 تولى زمانا غيرهم ثم ادعى * اليهم فلم يكرم ولما يكرم
 فإن يك منهم فالتضير ولفهم * مواليه لا من يدعى بالترعم
 وإن تدعه الأنصار مولى أسمهم * بقافية تستكره الجلد بالدم
 عقابا لهم فى إفكهم وادعائهم * لأقلف منقوش الذراع مؤشم
 فلا تدعوه وآنتموه منه تساموا * بنقيكوه من مقال وماثم
 وإلا فغضوا الطرف وآنظروا الردى * اذا آختلفت فىكم صوارد أسهمى
 ولم تجردوا عنها مجنا يحنكم * اذا أطلعت من كل فيج ومعلم
 وأنتم بنو أذنان من أنتم له * ولستم بأبناء السنام المقدم
 ولا يبنى الرأس الرفيع محله * فيسمو بكم مولى مسام ويتسمى
 فكيف رضيتم أن يسامى نبيكم * بيتكم الرث القصير المهدم
 ساحطم من سامى النبي تطاولا * عليه وأكوى منتهاه بميسمى
 أيعدل بيت يثربى بكعبة * ثوبها قریش فى المكان المحترم
 قریش خيار الله والله خصمهم * بذلك فاتعس أيها العالج وأرغم
 ومن تدعى منه الولاء مؤخر * اذا قيل للجارى الى المجد أقدم

وكان مسلم قال قصيدته فى قریش وكتبتها ، فوعدت إلى ابن قنبر وأجابه عنها ، فاستعلى
 عليه وهتكه وأغرى به السلطان ، فلم يكن عند مسلم فى هذا جواب أكثر من الانتفاء منها .

(١) الجعاسيس : اللام فى الخلق والخلق .

ونسبتها الى ابن قنبر والادعاء عليه أنه ألصقها به ونسبها اليه ليعرضه للسلطان وخافه ، فقال
ينتفى من هذه القصيدة :

دعوت أمير المؤمنين ولم تكن * هناك ولكن من يحف يتجشم
وإناك إذ تدعو الخليفة ناصرا * لكلمترق في السماء بسلم
كذلك الصدى تدعوه من حيث لا ترى * وإن توهمه تمت في التوهم
هجوت قريشا عامدا وتحلتني * رؤيدك يظهر ما تقول فيعلم
إذا كان مثلي في قبلي فإنه * على ابن لوى قصرة غير منهم
سيكشفك التعديل عما قدفتني * به فتأخر عارفا أو تقدم
فإن قريشا لا يغادر ودها * ولا يستمال عهدا بالترحم
مضى سلف منهم وصلى بعقبهم * لنا سلف في الأوقال المتقدم
جروا بغيرنا سابقين بسبقهم * كما أتبع كف نواشر معضم
وإن الذي يسعى ليقطع بيننا * كتمس اليربوع في حجر أرقم
أضلك قرع الآبدات طريقها * فأصحت من عميائها في تهم
وخاتك عند الجرى لما أتبعها * تم فحاولت العلاء بالتقحم
فأصحت ترميني بسهمي وتنتقي * يدي يدي أصليت نارك فاضرم

ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها :

قل لعبد النضير مسلم الوغد * مد الدين اللئيم سنخ النصاب
أخس يا كلب إذ نجت فإني * لست ممن يجب نبج الكلاب
أفأرضي ومنصبي منصب العز * وبيتي في ذروة الأحساب
أن أخط الرفيع من سمك بيتي * بمهاجاة أوشب الاوشاب
من إذا سبيل من أبوه بدا منه * به حياء يجنيه رجع الجواب

وإذا قيل حين يُقِيل من أذ * ست ومن تعتريه في الأنساب

قلت هايجي ابن قنبر فتسر بد * ست بذكري نخرأ لدي النسب

وهي قصيدة طويلة فلم يجبه عنها مسلم بشيء فقال فيه ابن قنبر أيضا :

لست أنفيك إن سواي نفاكا * عن أبيك الذي له ممتاكا

ولماذا أنفيك يا ابن الوليد * من أب إن ذكرته أخراكا

ولو آنى طلبت الأم منه * لم أجده إن لم تكن أنت ذاكا

لو سواه أبوك كان جعلنا * ه إذا الناس طأوعونا أباكا

حاك دهرًا بغير حدق لبرد * وتُحوك الأشعار أنت كذاكا

ثم هجاه بشعر أقدع فيه ، فمضى إليه قوم من مشايخ الأنصار وأستعانوا بمشيخة من قراء تميم وذوى الفضل والعلم ، فمشوا معهم إليه ، فقالوا : ألا تستحي من أن تهجو من لا يحييك ! أنت بدأت الرجل فأجابك ، ثم عدت فكف ، وتجاوزت ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميها ويذب عنها ويصونها لغير حال أحلت ذلك منهم ، فما زالوا به يعظونه ويقولون له كل قول حتى أمسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

وإني وإسماعيل يوم وداعه * لكالغمد يوم الرّوع فارقه التّصل

أما والحبالات المترات بيننا * وسائل أدتها المودة والوصل

لما خنت عهدا من إخاء ولا نأى * بذكرك نأى عن ضميري ولا شغل

وإني في مالي وأهلي كأني * لنايك لا مال لدى ولا أهل

يذكرنيك الدين والفضل والمجا * وقيل الحنا وألحم وألعم والجهل

فألفاك عن مذمومها متنزها * وألقالك في محمودها ولك الفضل

وأحمد من أخلاقك البخل إنه * بعرضك لا بالمال حاشا لك البخل

أمتيها مروا بأثقال هممة * دغ الثقل وأحمل حاجة ما لها ثقل

ثناء كَعْرِفِ الطَّيِّبِ يُهْدِي لِأَهْلِهِ * وليس له إلا بَنِي خَالِدِ أَهْلِ
فَإِنْ أَعْشَى قَوْمًا بَعْدَهُمْ أَوْ أَزُورَهُمْ * فَكَالْوَحْشِ يَسْتَدْنِيهِ لِلْقَنْصِ الْحَلِّ

وله يرثي يزيد بن مزيد :

أَحَقُّ إِنَّهُ أَوْدَى يَزِيدَ * تَأَقَّلْ أَيُّهَا النَّاعِي الْمَشِيدُ
أَتَدْرِي مِنْ نَعِيَّتِ فَكَيْفِ فَاهِتْ * بِهِ شَفَاتِكَ كَانَ بِهِ الصَّعِيدُ
أَحْيَى الْمَجِيدِ وَالْإِسْلَامِ أَوْدَى * فَمَا لِلْأَرْضِ وَيْحَكَ لَا تَمِيدُ
تَأْمَلْ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ * دَعَاؤُهُ وَهَلْ شَابَ الْوَلِيدُ
وَهَلْ سَمِيَتْ سَيُوفُ بَنِي نَزَارِ * وَهَلْ وُضِعَتْ عَنِ الْخَيْلِ اللَّبُودُ
وَهَلْ تَسْقَى الْبِلَادَ عَشَارُ مَزْنِ * بِدِرَّتِهَا وَهَلْ يَخْضَرُّ عُودُ
أَمَا هُدَّتْ لِمَصْرَعِهِ نَزَارِ * بَلَى وَتَقْوُضُ الْمَجْدَ الْمَشِيدُ
وَحَلَّ ضَرِيحَهُ إِذْ حَلَّ فِيهِ * طَرِيفُ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ التَّلِيدُ
أَمَا وَاللَّهِ مَا تَنَفَّكَ عَيْنِي * عَلَيْكَ بَدْمَعُهَا أَبَدًا تَجُودُ
فَإِنَّ تَجْمُدَ دَمِوعِ لَيْثِمِ قَوْمِ * فَلَيْسَ لِدَمْعِ ذِي حَسَبٍ جَمُودُ
أَبْعَدُ يَزِيدَ تَخْتَرِنِ الْبُؤَاكِي * دَمُوعًا أَوْ تُصَانُ لَهَا خُدُودُ
لِتَبْكِكَ قُبَّةُ الْإِسْلَامِ لِمَا * وَهَتْ أَطْنَابُهَا وَوَهَى الْعَمُودُ
وَيَبْكُكَ شَاعِرٌ لَمْ يُبْقِ دَهْرٌ * لَهُ نَسَبًا وَقَدْ كَسَدَ الْقَصِيدُ
فَمَنْ يَدْعُو الْإِمَامَ لِكُلِّ خَطْبٍ * يَنْوِبُ وَكُلِّ مُعْضَلَةٍ تُؤَدُّ
وَمَنْ يَجِيءُ الْخَمِيسَ إِذَا تَعَايَا * بِجَيْلَةٍ نَفْسُهُ الْبَطْلُ النَّجِيدُ
فَإِنْ تَهَلَّكَ يَزِيدٌ فَكَلِّ حَى * فَرَيْسٌ لِلنِّيَّةِ أَوْ طَرِيدُ
أَلَمْ تَعْجَبْ لَهُ أَنْ الْمَنَايَا * فَتَكُنْ بِهِ وَهَنْ لَهْ جَنُودُ
لَقَدْ عَزَى رُبْعَةً أَنْ يَوْمًا * عَلَيْهَا مِثْلُ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

١٣ - العباس بن الأحنف^(١)

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله ممن اذا تكلم لم يجب سماعه أن يسكت ، وكان فصيحاً جميلاً ظريف اللسان ، لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب نحرّاسان ومنشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من محدثين ، ولا تزال قد ترى له الشيء البارع جداً حتى تلحقه بالمحسين .

وقال الجاحظ : لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم ، وأوسعهم كلاماً وخطاراً ، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما نعلم شاعراً لزم فناً واحداً لزومه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحرّامزيّ للعباس بن الأحنف :

لا جزيّ الله دمع عيني خيراً * وجزيّ الله كلّ خير لساني
تمّ دمي فليس يكتم شيئاً * ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طيئ * فاستدلوا عليه بالعنوان

ثم قال : هذا والله طراز يطلب الشعراء مثله فلا يقدرّون عليه .

(١) كان العباس شاعراً غزلاً مطبوعاً من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولدياجة شعره رقيق ، ولمعانيه عدوية ولفظ ، ولم يكن يجاوز الغزل إلى مدح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني . وقدمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطلب في وصفه ، وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدّمونه ، قال : وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلقاء ، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوكيّ المذهب شديد التطرف ، وذلك بين في شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولاً غزلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً . وله ديوان طبع مع ديوان ابن مطروح بالآستانة سنة ١٢٩٨ هـ ويجد أخباره وأشعاره في الأغانى (ج ٨ ص ١٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٦) والشعر والشعراء (ص ٥٣٥) .

وكان أبو الهذيل العلاف يُغضه ويلعنه لقوله :

إذا أردتُ سلواً كان ناصركم * قلبي وما أنا من قلبي بمنتصر

فأكثرُوا أو أقلوا من إساءتكم * فكل ذلك محمولٌ على القدر

فكان أبو الهذيل يلعنه ويقول : يعقِد الكفرَ والفجورَ في شعره، فقال العباس — وقال

محمد بن يحيى : وأظن أنه يهجو به أبا الهذيل وما سمعتُ للعباس هجاءً غيره — :

يامن يكذب أخبار الرسول لقد * أخطأت في كل ما أتى وما تدر

كذبت بالقدر الجارى عليك فقد * أذاك منى بما لا تشهى القدر

قيل للأصمعي : ما أحسن ما تحفظ للمحدثين؟ قال : قول العباس بن الأحنف :

لو كنت عاتبة لسكن روعتي * أملي رضاك وزرت غير مراقب

لكن مللت فلم تكن لي حيلة * صد الملول خلاف صد العاتب

ومما أنشده له إبراهيم بن العباس :

قالت ظلوم سمية الظلم * مالى رأيتك ناحل الجسم

يامن رمى قلبي فأقصده * أنت العليم بموضع السهم

ولشعره الغزلي وقع في النفس ، فانهم كانوا يغنون كثيرا منه كقوله :

لو كنت عاتبة لسكن روعتي * أملي رضاك وزرت غير مراقب

لكن مللت فلم تكن لي حيلة * صد الملول خلاف صد العاتب

وأنشده الأصمعي :

أتأذنون لصب في زيارتكم * فعندكم شهوات السمع والبصر

لأيضير السوء إن طال الجلوس به * عف الضمير ولكن فاسق النظر

فقال : ما زال هذا الفتى يدخل يده في جرابه فلا يخرج شيئاً حتى أدخلها فأخرج هذا ،

ومن أدمن طلب شيء ظفر ببعضه .

وقال سَعِيدُ بنُ جُنَيْدٍ : ما أَعْرَفَ أَحْسَنَ من شَعْرِ العَبَّاسِ في إِخْفَاءِ أَمْرِهِ حَيْثُ يَقُولُ :

أُرِيدُكَ بِالسَّلَامِ فَأَتَقِيمُهُم * فَأَعْمِدُ بِالسَّلَامِ إِلَى سِوَاكَ
وَأَكْثَرُ فِيهِمْ ضَحْكَى لِيَخْفَى * فَسِنِّي ضَاكُ وَالْقَلْبُ بَاكُ

ومما تَمَثَّلَ به الوائِقُ في شَرَّكَانِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَعْضِ جِوَارِيهِ :

عَدَلٌ مِنَ اللَّهِ أَبْكَانِي وَأَضْحَكُهَا * فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَلٌ كُلُّ مَا صَنَعَا
الْيَوْمَ أَيْبَى عَلَى قَلْبِي وَأَنْدَبُهُ * قَلْبٌ أَلْحَ عَلَيْهِ الْحُبُّ فَانْصَدَعَا

ومما تَمَثَّلَ به أَيضاً في مِثْلِ ذَلِكَ :

أَمَا تَحْسَبِنِي أَرَى العَاشِقِينَ * بَلَى ثُمَّ لَسْتُ أَرَى لِي نَظِيراً
لِعَلَّ الَّذِي بِيَدِيهِ الأُمُورُ * سَيَجْعَلُ في الكَرْهِ خَيْراً كَثِيراً

وقال الزُّبَيْرُ : ابْنُ الأَحْنَفِ أَشْعَرُ النَّاسِ في قَوْلِهِ :

تَعْتَلُّ بِالشُّغْلِ عَنَّا مَا تَكَلَّمْنَا * الشُّغْلُ لِلْقَلْبِ لَيْسَ الشُّغْلُ لِلبَدَنِ

ويقول : لا أَعْلَمُ شَيْئاً من أُمُورِ الدُّنْيَا خَيْرَها وَشَرَّها إِلا وَهُوَ يَصْلُحُ أَنْ يَتَمَثَّلَ فِيهِ بِهَذَا النِّصْفِ الأَخِيرِ .

وقال إِسْحَاقُ : لَقَدْ ظَرَّفَ ابْنُ الأَحْنَفِ في قَوْلِهِ — يَصِفُ طَوْلَ عَهْدِهِ بِالنُّومِ — :

قِفَا خَبْرَانِي أَيُّهَا الرِّجَالُ * عَنِ النَّوْمِ إِنْ المَهْجَرُ عَنْهُ نَهَانِي

وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ * صِفَا النَّوْمَ لِي إِنْ كُنْتُمْ تَصِفَانِ

على قِلةِ إِعْجَابِهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الأَشْعَارِ .

قال أَحْمَدُ بنُ إِبراهيمَ : رَأَيْتُ سَامَةَ بنَ عاصِمِ وَمَعَهُ شَعْرُ العَبَّاسِ بنِ الأَحْنَفِ ، وَقَلْتُ

مِثْلَكَ أَعَزَّكَ اللهُ يَجْمَلُ هَذَا ! فَقَالَ : أَلَا أَحْمِلُ شَعْرَ مَنْ يَقُولُ :

أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ * وَالْحَزْمُ سَوْءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

يُقَلِّعُنِي الشُّوقُ فَاتِيكُمْ * وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ اليَاسِ

وقال أحمد بن إبراهيم: أتاني أعرابي فصيحٌ ظريفٌ، فجعلتُ أكتب عنه أشياءً حسناً،
ثم قال: أنشدني لأصحابكم الحَضْرِيَّينَ، فأنشدته للعباس بن الأحنف:
ذَكَرْتُكَ بِالتَّفَاحِ لِمَا شَمَّمْتَهُ * وبالرَّاحِ لِمَا قَابَلَتْ أَوْجَهَ الشَّرِيبِ
تَذَكَّرْتُ بِالتَّفَاحِ مِنْكَ سَوَالِفًا * وبالرَّاحِ طَعْمًا مِنْ مَقْبَلِكِ العَدْبِ
فقال: هذا عندك وأنت تكتب عني! لا أنشدك حرفاً بعد هذا.

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل: ما أعرف في العراق أحسن من قول ابن الأحنف:
سَبَّحَانَ رَبِّ العِلا مَا كَانَ أَغْفَلَنِي * عَمَّا رَمَتْنِي بِهِ الأيَّامُ وَالزَّمَنُ
مَنْ لَمْ يَدُقْ فِرْقَةَ الأَحْبَابِ ثُمَّ يَرَى * آثَارَهُمْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَدِرْ مَا الحَزَنُ
قال حُسَيْن بن الضحَّاك: لوجاء العباس بقول ماقاله في بيتين في أبياتٍ لعَدْرِ، وهو قوله:
لَعَمْرُكَ مَا يَسْتَرِيحُ المَحَبُّ * حَتَّى يَبُوحَ بِأَسْرَارِهِ
فَقَدْ يَكْتُمُ المَرْءُ أَسْرَارَهُ * فَتَظْهَرُ فِي بَعْضِ أَسْعَارِهِ
ثم قال: أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدمه فيه أحد فهو:

الحُبُّ أَمَلُكَ لِلنُّوَادِ بِقَهْرِهِ * مَنْ أَنْ يَرَى لِلسَّتْرِ فِيهِ نَصِيبُ
وَإِذَا بَدَأَ سُرَّ اللَّيْبُ فَإِنَّهُ * لَمْ يَسُدُّ إِلَّا وَالْفَتَى مَغْلُوبُ

وقال أبو العتاهية: ما حسدتُ أحداً إلا العباس بن الأحنف في قوله:
إِذَا امْتَنَعَ القَرِيبُ فَلَمْ تَنَلْهُ * عَلَى قَرَبٍ فَذَلِكَ هُوَ البَعِيدُ

وقال الكِنْدِيُّ: العباس بن الأحنف مَلِيحٌ ظَرِيفٌ حَكِيمٌ جَزَلٌ فِي شَعْرِهِ، وَكَانَ قَلِيلًا
مَا يُرِضِنِي الشَّعْرَ، فَكَانَ يُنْشِدُهُ كَثِيرًا:

أَلَا تَعْجَبُونَ كَمَا أُعْجِبُ * حَبِيبٌ يُسِيءُ وَلَا يُعْتَبُ
وَأَبْنَى رِضَاةٍ عَلَى سُخْطِهِ * فَيَأْتِي عَلَى وَيَسْتَصْعَبُ
فِيالِيتِ حَظِّي إِذَا مَا أَسَأَ * تَأْتِيكَ تَرْضَى وَلَا تَغْضَبُ

وكان ابراهيم الموصلي مشغولاً بشعر العباس فيغني في كثير من شعره، فما غني فيه :
 وقد ملئت ماء الشباب كأنها * قضيب من الریحان ريان أخضر
 هم كتموني سيرهم حين أزمعوا * وقالوا اتعدنا للروح وبكروا
 ومنه :

تمني رجال ما أحبوا وإنما * تمنيت أن أشكو اليك وتسمعا
 أرى كل معشوقين غيري وغيرها * قد استعذبا طول الهوى وتمتعا
 ومنه :

يكت عيني لأنواع * من الحزن وأوجاع
 وإني كل يوم عندكم يحطى بي الساعي
 أعيش الدهر إن عشت * بقلب منك مرتاع
 وإن حل بي البعد * سينعاني لك الناعي

وقال الواثق جلسائه : أريد أن أصنع لحناً في شعر معناه أن الإنسان كأنما من كان
 لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون في هذا شيئاً؟ فأشدهه ضرباً من الأشعار،
 فقال : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الأحنف :

قلبي الى ما ضرني داعي * يكثر أسقامي وأوجاعي
 كيف احتراسي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي
 أسلمني للحب أشياعي * لما سعى بي عندها الساعي
 لقلما أبق على كل ذا * يوشك أن ينعاني الناعي
 ومما غني فيه من شعره :

أبي الذين أذاقوني موتهم * حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا
 وقال ابراهيم بن العباس : ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل في رقة ، ولا أصعب في سهولة ،
 ولا أبلغ في إيجاز ، من قول العباس بن الأحنف :

تعالى نجدد دارس العهد بيننا * كلانا على طول الحفاء ملوم

وأشُدَّ إبراهيم بن العباس للأحنف :

إن قال لم يفعل وإن سئل لم * يبذل وإن عوتب لم يعتب
صبَّ بعضياني ولو قال لي * لا تشرب البارد لم أشرب
إليك أشكو ربَّ ما حلَّ بي * من صدَّ هذا المذنب المُغضب

ثم قال : هذا والله الكلامُ الحسنُ المعنى ، السَّهْلُ المورِدُ ، القريبُ المتناولُ ، المليحُ اللفظُ ، العذبُ المستمعُ .

ومما غنَّى فيه من شعره :

نام من أهدى لي الأرقا * مستريحاً سامني قلقاً
لو يبيت الناس كلهم * بسهادي بيض الحدقا
كان لي قلب أعيش به * فاصطلي بالحبِّ فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم * إنما للعبد ما رزقا

وقال ابن المعتز : لو قيل : ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس بن الأحنف :

قد سبَّ الناس أذبال الظنون بنا * وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فكاذبٌ قد رمى بالحبِّ غيركم * وصادقٌ ليس يدري أنه صدقا

ومما تمثَّل به الفضل بن الربيع في أمرٍ كان بينه وبين إحدى جواريه :

تحمل عظيم الذنب ممن تحبُّه * وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالمٌ
فإنك إلا تغفر الذنب في الهوى * يفارقك من تهوى وأنفك راغمٌ

أشُدَّ محمد الموصلي قصيدته التي يقول فيها :

كلُّ شيء أقوى عليه ولكن * ليس لي بالفراق منك يدان

بفعل يستحسنه ويردده ، فقال له عبد الله بن ربيعة الرقي : أنت الفداء لمن ابتدأ هذا

المعنى فأحسن فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتني من السرور ثياباً * وكستني من الهموم ثياباً
كلما أغلقت من الوصل باباً * فتحت لي الى المنية باباً
عدتني بكل شيء سوى الصدف فما ذقت كالأصدود عذاباً

قال الرياشي — وقد ذكر عنده العباس بن الأحنف — : والله لو لم يقل من الشعر
إلا هذين البيتين لكفياً :

أحرم منكم بما أقول وقد * نال به العاشقون من عشقوا
صرت كأتى ذبالة نصبت * تضيء للناس وهي تحترق

ألف الرشيد العباس بن الأحنف ، فلما خرج الى خراسان طال مقامه بها ، ثم خرج الى
أرمينية والعباس معه ، فاشتاق الى بغداد ، فعارضه في طريقه ، فأثسده :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خراساناً
ما أقدر الله أن يدني على شحط * سكان دجلة من سكان جیحاناً
مضى الذي كنت أرجوه وأمله * أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت * وعدت بصنوف الهجر ألوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عباس ، وأذنت لك خاصة ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وقال مصعب الزبيري : العباس بن الأحنف وعمر بن أبي ربيعة ما ابتدلا شعرهما
في رغبة ولا رهبة ، ولكن فيما أحبا ، فلزما فناً واحداً لولمه غيرهما ممن
لضعف فيه .

١٤ - ابن مناذر^(١)

كان يَحْوِ نَحْوَ عَدِيَّ بن زَيْدٍ في شِعْرِهِ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَقْدِمُهُ، وَقَدْ مَدَحَ آلَ بَرْمَكٍ وَغَيْرِهِمْ . وَلَمَّا نُبِكَتِ الْبَرَامِكَةُ وَأَلَّتِ الْوِزَارَةَ إِلَى عَدُوِّهِمُ الْفَضْلِ بنِ الرَّبِيعِ أَصْبَحَ شِعْرَاءُ الْبَرَامِكَةِ فِي خَطَرٍ، فَأَرَادَ ابْنُ مَنَازِرٍ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى الرَّشِيدِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ، فَأَعْتَمَ ذَهَابَهُ إِلَى الْحَجِّ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ بِقَصِيدَةٍ، فَالاحِ الْبِشْرُ فِي وَجْهِ الرَّشِيدِ؛ فَقَالَ الْفَضْلُ بنِ الرَّبِيعِ لِلرَّشِيدِ : هَذَا شَاعِرُ الْبَرَامِكَةِ ! فَعَبَسَ الرَّشِيدُ؛ فَقَالَ الْفَضْلُ : مُرْهُ أَنْ يُنْشِدَكَ قَوْلَهُ فِيهِمْ : أَنَا نَا بَنُو الْأَمْلَاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ بِأَمْرِهِ، فَاعْتَذَرَ، فَالَحَ عَلَيْهِ، فَأَنْشَدَهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الَّتِي يُطَارَى بِهَا الْبَرَامِكَةُ :

أَنَا نَا بَنُو الْأَمْلَاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ * فَيَاطِبَ أَخْبَارٍ وَيَا حَسَنَ مَنظَرٍ
 إِذَا وَرَدُوا بِطَحَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ * بِيحْيَى وَبِالْفَضْلِ بنِ يَحْيَى وَجَعْفَرَ
 فَتَظَلِمُ بَغْدَادٌ وَيَجْلُو لَنَا الدُّجَى * بِمَكَّةَ مَا حَجَّجُوا ثَلَاثَةَ أَفْئَرٍ
 فَمَا صَلَّحَتْ إِلَّا الْجُودُ أَكْفُهُمْ * وَأَرْجُلُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادٍ مُنْبَرٍ
 إِذَا رَاضَ بِحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ * وَحَسْبُكَ مِنْ رَاحٍ لَهُ وَمُدَبَّرٍ
 تَرَى النَّاسَ إِجْلَالًا لَهُ وَكَانَهُمْ * غَرَانِيقَ مَاءٍ تَحْتَ بَازٍ مُصْرِصِرٍ^(٢)^(٣)

ولما فرغ منها أتبع ذلك قوله : « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين لما مدحتهم » فأمر الرشيد أن يلطمه، فلطموه، وأمر أن يسحب، فسحبوه وخرج لا يلوي على شيء؛ فلقبه

(١) هو محمد بن مناذر، مولى ليني يربوع، ويكنى أبا جعفر، شاعر فصيح، مقدم في العلم باللغة وإمام فيها، حتى أخذ عنه أكابر أهلها. وكان في أول أمره يتعبد ثم عدل عن ذلك، فهجا الناس وتمتلك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى نفى عنها إلى الحجاز، فأت هناك سنة ١٩٨ هـ. وتعد أخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٥٣). (٢) الغرانيق: جمع غرنوق، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض يشبه الكركي. (٣) مصرصر: صائح بشدة.

أبو نواس فدفع إليه صرّةً فيها ثلاثمائة دينار ، وقال له : استعن بهذه وأعدزني . ولم يعد
أبن مناذر يرى خيراً بعد البرامكة .

قال الحسن بن علي كما عند باب سفیان بن عيينة وقد هرب منا وعنده الحسن بن علي
التختاخ ورجل من أصحاب الرشيد ، نخلا بهم وليس يأذن لنا ، بجاء أبن مناذر فقرب من
الباب ثم رفع صوته فقال :

بِعَمْرٍو وَبِالرُّهْمِيِّ وَالسَّلْفِ الْأَلِيِّ * بِهِم تَبَتَّ رِجْلَاكَ عِنْدَ الْمُقَادِمِ
جَعَلْتَ طَوَالَ الدَّهْرِ يَوْمًا لِصَالِحٍ * وَيَوْمًا لِصَبَّاحٍ وَيَوْمًا لِحَاتِمِ
وَلِحَسَنِ التَّخْتَاخِ يَوْمًا وَدُونِهِمْ * خَصَصْتَ حَسِينًا دُونَ أَهْلِ الْمَوَاسِمِ
نَظَرْتُ وَطَالَ الْفِكْرُ فَيْكَ فَلَمْ أَجِدْ * رَحَاكَ جَرَتْ إِلَّا لِأَخْذِ الدَّرَاهِمِ

نفرج سفیان وفي يده عصا وصاح : خذوا الفاسق ، فهرب أبن مناذر منه وأذن لنا فدخلنا .
كان الرشيد قد وصل أبن مناذر مراتٍ صلواتٍ سنيةً ، فلما مات الرشيد رثاه بقوله :

مَنْ كَانَ يَبْكِي لِلْعُلَا * مَلِكًا وَلِلْهِمَمِ الشَّرِيفِ
فَيْبِكِ هَارُونَ الْخَلِيدِ * فَنَفَةَ لِلْخَلِيفَةِ لِلْخَلِيفِ

قال علي بن محمد النوفلي : رأيت أبن مناذر في الحج سنة ثمان وتسعين ومائة وهو قد كُفَّ
بصره تقوده جويرية حرة وهو واقف يشتري ماء قربة ، فرأيتُه وسمع الثوب والبدن ، فلما
صرنا الى البصرة أنتنا وفاته في تلك الأيام .

كان يحيى بن زياد يرمي بالزندقة ، وكان من أظرف الناس وأنظفهم ، فكان يقال :
أظرف من الزنديق ، وكان الحاركي ، واسمه محمد بن زياد ، يُظهر الزندقة تطارفاً ، فقال فيه
أبن مناذر :

يَا أبنَ زِيَادٍ يَا أَبَا جَعْفَرٍ * أَظْهَرْتَ دِينَا غَيْرَ مَا تُخْفِي
مُزْنَدِقُ الظَّاهِرِ بِاللَّفْظِ فِي * بَاطِنِ إِسْلَامٍ فَتَى عَفَّ
لَسْتَ زِنْدِيقِي وَلِكِنَّمَا * أَرَدْتَ أَنْ تُوسَمَ بِالظَّرْفِ

ومن قوله يرى سفيان بن عيينة :

يَجْنِي مِنَ الْحِكْمَةِ نُوَارَهَا * مَا تَشْتَهَى الْأَنْفُسُ أَلْوَانَا
 يَا وَاحِدَ الْأُمَّةِ فِي عَالَمِهِ * لَقِيتَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ عُفْرَانَا
 رَاحُوا بِسُفْيَانَ عَلَى نَعْشِهِ * وَالْعِلْمُ مَكْسُورٌ أَكْفَانَا
 إِنْ الَّذِي عُودِرَ بِالْمُنْحَى * هَدَّ مِنَ الْإِسْلَامِ أَرْكَانَا
 لَا يُبْعِدُنكَ اللَّهُ مِنْ مَيِّتٍ * وَرَثَا عِلْمًا وَأَحْزَانَا

خطب أبو أمية امرأة من ثقيف فرد عنها، وتصدى للقاضي أن يضمه مالا من أموال

اليتامى فلم يجبه الى ذلك ولم يثق به؛ فقال فيه ابن منذر :

أَبَا أُمَيَّةَ لَا تَغْضَبْ عَلَيَّ فَا * جَزَاءُ مَا كَانَ فِيمَا بَيْنَنَا الْغَضَبُ
 إِنْ كَانَ رَدَّكَ قَوْمٌ عَنْ فَتَاهُمْ * فِي كَثِيرٍ مِنَ الْخَطَابِ قَدْ رَغِبُوا
 قَالُوا عَلَيْكَ دِيُونٌَ مَا تَقَوْمُ بِهَا * فِي كُلِّ عَامٍ بِهَا تُسْتَحَدُّ الْكُتُبُ
 وَقَدْ تَقَحَّمْ مِنْ نَحْسِينَ غَايَتَهَا * مَعَ أَنَّهُ ذُو عِيَالٍ بَعْدُ مَا أَتَّسَعَبُوا
 وَفِي الَّتِي فَعَلَ الْقَاضِي فَلَا تَجِدُنُ * فَلَيْسَ فِي تِلْكَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبُ
 أَرَدْتَ أَمْوَالَ أَيْتَامٍ تُضَمُّهَا * وَمَا يُضَمُّ إِلَّا مَنْ لَهُ نَسَبُ

قال له جعفر بن يحيى قُلْ فِي وَفِي الرِّشِيدِ شِعْرًا تَصِفُ فِيهِ الْأَلْفَةَ بَيْنَنَا، فَقَالَ :

قَدْ تُقَطِّعُ الرَّحْمُ الْقَرِيبُ وَتُكْفِرُ الذُّ * عَمَى وَلَا كَتَقَارِبِ الْقَابِئِينَ
 يُدْنِي الْهَوَى هَذَا وَيُدْنِي ذَا الْهَوَى * فَإِذَا هُمَا نَفْسٌ تَرَى نَفْسَيْنِ

١٥ - صالح بن عبد القدوس^(١)

كان متهما بالزندقة ، فبلغ الى المهديّ خبرُ زندقته ، فبعث اليه يستقدمه من دمشق ، وكان قد رحل اليها وهو شيخ طاعن في السن ، فلما جاء بغداد ومثّل بين يدي المهديّ قال له المهديّ : ألسنت القائل :

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يُورَى في ثرى رمسه

قال : بلى يا أمير المؤمنين ! قال : وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت ، فأمر به ، فقتل وصلب على جسر بغداد سنة ١٦٧ هـ . وأكثر شعره في الحكم الفلسفية .

ومن أحسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت ، وهو يقول فيها :

لا يبلغ الأعداء من جاهل * ما يبلغ الجاهل من نفسه

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يُورَى في ثرى رمسه

إذا أرعوى عاد الى جهله * كذى الضنا عاد الى نكسه

وإن من أدبته في الصبا * كالعود يُسقى الماء في غرسه

حتى تراه مورقا ناضرا * بعد الذي أبصرت من نيسه

وقوله :

لا يعجبك من يصبون ثيابه * حذر الغبار وعرضه مبدول

ولربما أفقر الفتى فرأيتته * دنس الثياب وعرضه مغسول

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس ، من حكماء الشعراء ، متهم بالزندقة ، قوى الحجّة ، له منزلة سامية عند أهل مذهبه . نشأ في البصرة ، وكان يقص على الناس و بعضهم . توفي سنة ١٦٧ هـ . وتجد أكثر أخباره في فوات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدميري (ج ١ ص ٢٦) .

وكان فيه ميل الى العزلة والانتقاطع عن الناس شأن الفلاسفة، ومن ذلك قوله :

أَنْسَتْ بَوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْتِي * فَتَمَّ الْعَزْلَى وَمَا السَّرُورُ
وَأَدَّبَنِي الزَّمَانُ فَلَيْتَ أَنِّي * هَجَرْتُ فَلَا أَرَا وَلَا أَرُورُ
وَلَسْتُ بِقَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا * أَقَامَ الْجُنْدُ أَمْ نَزَلَ الْأَمِيرُ

وهو القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

وله قصيدة حكيمة أخلاقية بدیعة، وهي التي يقول فيها :

الْمَرْءُ يَجْمَعُ وَالزَّمَانُ يُفْتَرِقُ * وَيُظَلُّ يَرْقِعُ وَالخُطُوبُ تُمَزِّقُ
وَلَأَنْ يُعَادِيَ عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ * مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَقُ
فَارْبًا بِنَفْسِكَ أَنْ تَصَادِقَ أَحْمَقًا * إِنَّ الصَّدِيقَ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ
وَزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا * يُبْدِي عَقُولَ ذَوِي الْعُقُولِ الْمَنْطِقُ
وَمَنْ الرِّجَالُ إِذَا آسَتُوا أَخْلَاقُهُمْ * مِنْ يُسْتَشَارُ إِذَا اسْتَشِيرَ فَيُطْرِقُ
حَتَّى يُحِلَّ بِكُلِّ وَادٍ قَلْبُهُ * فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ فَيَنْطِقُ
لَا أَلْفِينَتِكَ ثَاوِيَا فِي غَرْبَةٍ * إِنَّ الْغَرِيبَ بِكُلِّ سَهْمٍ يُرْشِقُ

وله منها :

مَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَانِ فَعَامِلٌ * قَدَمَاتٍ مِنْ عَطَشٍ وَآخِرٌ يَغْرِقُ
وَالنَّاسُ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ وَإِنَّمَا * بِالْجَدِّ يُرْزَقُ مِنْهُمْ مَنْ يُرْزَقُ
لَوْ يُرْزَقُونَ النَّاسُ حَسَبَ عَقُولِهِمْ * أَلْفَيْتَ أَكْثَرَ مَنْ تَرَى يَتَصَدَّقُ
لِكُنْهُ فَضْلُ الْمَلِكِ عَلَيْهِمْ * هَذَا عَلَيْهِ مُوسِعٌ وَمُضِيقُ
وَإِذَا الْجَنَازَةُ وَالْعَرُوسُ تَلَاقِيَا * وَرَأَيْتَ دَمْعَ نَوَاحٍ يَتَرَقَّرُ
سَكَتَ الَّذِي تَبِعَ الْعَرُوسَ مُبَهَّتًا * وَرَأَيْتَ مَنْ تَبَعَ الْجَنَازَةَ يَنْطِقُ
بَقِيَ الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَكْذِبُوا * وَمَضَى الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَصْدُقُوا

وله من قصيدته المعروفة بالزينية :

- وَأَبْدَأُ عَدُوَّكَ بِالتَّحِيمةِ وَتَمَكُّنُ * منه زَمَانُكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ
وَأَحْدَرُهُ إِن لَّا قِيَّتَهُ مُتَبَسِّمًا * فاللِثَّ يَبْدُو نَابُهُ إِذ يَغْضَبُ
إِن العَدُوَّ وَإِن تَقَادَمَ عَهْدُهُ * فَالحِقْدُ بَاقٍ فِي الصَّدُورِ مُغِيبُ
وَإِذَا الصَّدِيقُ لَقِيْتَهُ مُتَمَلِّقًا * فهو العَدُوُّ وَحَقُّهُ يُعْتَجَبُ
لَا خَيْرَ فِي وُدِّ أَمْرِي مُتَمَلِّقٍ * حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَائْتِقْ * وَإِذَا تَوَارَى عَنكَ فهو العَقْرَبُ
يُعْطِيكَ مِن طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةَ * وَيُرْوَعُ مِنْكَ كَمَا يُرْوَعُ الثَّعْلَبُ
وَصِلِ الكِرَامَ وَإِن رَمَوَكَ بِجَفْوَةٍ * فَالصَّفْحُ عَنْهُمْ وَالتَّجَاوُزُ أَصُوبُ
وَآخِرَ قَرِينِكَ وَاصْطَفِيهِ تَفَانِحًا * إِن القَرِينِ إِلَى المُقَارِنِ يُنْسَبُ
إِن العَفَى مِنَ الرِّجَالِ مُكْرَمٌ * وَتَرَاهُ يُرَجَى مَا لَدَيْهِ وَيُرْهَبُ
وَيَبْشُرُ بِالتَّرْحِيبِ عِنْدَ قُدُومِهِ * وَيُقَامُ عِنْدَ سَلَامِهِ وَيُقَرَّبُ
وَالفَقْرُ شَيْنٌ لِلرِّجَالِ فَإِنَهُ * حَقًّا يَهُونُ بِهِ الشَّرِيفُ الأَنْسَبُ
وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلأَقَارِبِ كُلِّهِمْ * بِتَدْلِيلٍ وَأَسْمَحْ لَهُمْ إِن أَدْنَبُوا
وَدَعْ الكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا * إِن الكَذُوبَ يَشِينُ حَرًّا يَصْحَبُ
وَزِنِ الكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ * ثَرَاةً فِي كُلِّ نَادٍ تَحْطُبُ
وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِزْ مِن لَفْظِهِ * فَالمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيَعْطَبُ
وَالسَّرُّ فَكُنْهُمُ وَلَا تَنْطِقْ بِهِ * إِن الرُّجَاةَ كَسَرَهَا لَا يُشْعَبُ
وَكَذَلِكَ سَرُّ المَرْءِ إِن لَمْ يَطْوِهِ * نَشْرَتُهُ أَلْسِنَةً تَزِيدُ وَتَكْذِبُ
لَا تَحْرِصَنَّ فَالحَرِصُ لَيْسَ بِزَانِدٍ * فِي الرِّزْقِ بَلْ يُشْقِي الحَرِيصَ وَيُتَعِبُ

وَأَرَعَ الْأَمَانَةَ وَالْحَيَانَةَ فَاجْتَنِبْ * وَأَعْدِلْ وَلَا تَظَلِّمْ يَطْبُكَ لَكَ مَكْسَبٌ
 وَإِذَا أَصَابَكَ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا * مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسَالِمًا لَا يُنْكَبُ
 وَإِذَا رُمِيتَ مِنَ الزَّمَانِ بِرِيْسِيَّةٍ * أَوْ نَالَكَ الْأَمْرُ الْأَشَقَّ الْأَضْعَبُ
 فَاضْرَعْ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَدْنَى لِمَنْ * يَدْعُوهُ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ وَأَقْرَبُ
 وَأَحَدَرُ مَصَاحِبَةَ اللَّئِيمِ فَإِنَّهُ * يُعِدِّي كَمَا يُعِدِّي الصَّحِيحَ الْأَجْرَبُ
 وَأَحَدَرُ مِنَ الْمَظْلُومِ سَهْمًا صَابِئًا * وَأَعْلَمُ بِأَنْ دُعَاةَ لَا يُحْجَبُ
 وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي * وَالنَّصِيحَ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

١٦ - سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ (١)

كان شاعراً مطبوعاً ومات في أيام المأمون، وأكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمدح، وكان متهغوفاً بالغلمان والشراب، ثم تنسك وتاب ورجح راجلاً على قدميه ومات على توبة وإقلاع ومذهبي جميل، ومات وأبو العتاهية حي وكان صديقه فرثاه .

أخبر علي بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد قال : حدثت عن بعض أصحاب أبي العتاهية قال : جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده، فسأره في شيء، فبكى أبو العتاهية، فقلنا له : ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسحاق فأبكاك؟ فقال - وهو يتحدثنا لا يريد أن يقول شعرا - :

قال لي مات سعيد بن وهب * رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عيني * يا أبا عثمان أوجعت قلبي

قال : فعجبنا من طبعه، وإنه يحدث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سعيد بن وهب الشاعر البصري مولى بني سامة قد تاب وتزهد وترك قول الشعر، وكان له عشرة من البنين وعشر من البنات، فكان إذا وجد شيئاً من شعره خرقه وأحرقه، وكان أمراً صدق، كثير الصلاة، يزكي في كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه ليزكي عن فضة كانت على امرأته .

وكان سعيد بن وهب يتعشق غلاماً يتشطر يقال له سعيد، فبلغه أنه توعد أن يجرحه، فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بني سامة بن لؤي بن نصر، مولده ومنشؤه بالبصرة ثم صار إلى بغداد فأقام بها . وكانت الكتابة صناعته، فنصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدم عندهم . وتجد أخباره في الأغاني (ج ٢١ ص ١٠٤) .

مَنْ عَدِيرِي مِنْ سَمِي * مَنْ عَدِيرِي مِنْ سَعِيدِ
أَنَا بِاللَّحْمِ أَجَاهُ * وَيَجَانِي بِالْحَدِيدِ^(١)

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كُتَّاب السلطان في أحوال جميلة، فأثنأ يقول :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ * فَتَجُنُّ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا
نَوْمُهَا مِنْ كَثْبِ حَسْرَةٍ * كَأَنَّهَا لَفَظٌ بِلَا مَعْنَى
يَعْلُو بِهَا النَّاسُ وَأَيُّمُنَا * تَذْهَبُ فِي الْأَرْدَلِ وَالْأَدْنَى

وحدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيد بن وهب لي صديقاً، وكان له ابن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجهاً وأدباً، فكان لا يكاد يفارقه في كل حال، لشدة شغفه به ورقته عليه، فمات وله عشر سنين، فخرج عليه جزعاً شديداً وأنقطع عن لذاته، فدخلت إليه يوماً لأعاتبه على ذلك وأستعطفه، فحين رأى ذلك في وجهي فاضت دموعه، ثم أتتحت حتى رحمته، وأنشدني :

عَيْنِ جُودِي عَلَى أَبِي الْخَطَابِ * إِذْ تَوَلَّى غَضًّا بِمَاءِ الشَّبَابِ
لَمْ يُقَارَبْ ذَنْبًا وَلَمْ يَبْلُغِ الْحَدَّ * سَتَ مُرَجِّي مُطَهَّرِ الْأَثْوَابِ
فَقَدَّتْهُ عَيْنِي إِذَا مَا سَعَى آتَهُ * رَابَهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْأَتْرَابِ
إِنْ غَدَا مُوَحِّشًا لِدَارِي فَقَدْ أَصَدَّ * سَبَّحَ أُنْسَ التَّرَى وَزَيْنَ التَّرَابِ
أَحْمَدُ اللَّهُ يَا حَبِيبِي فَإِنِّي * بَكَ رَاحٍ مِنْهُ عَظِيمِ الثَّوَابِ

ثم ناشدني ألا أذاكره بشيء مما جئتُ إليه، فقممتُ ولم أخاطبه بحرف .

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى في يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق، فقال له : أيها الوزير، إنني ما كنت أستعددتُ لهذه الحال، ولا تقدمتُ لها عندي مقدمة فأعير فيها،

(١) وجاء بوجهه ويجاه : ضربه باليد أو بالسكين . وخففت الهمزة ها هنا للشعر .

ولكن قد حضرني بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة؛ فقال : هاتهما ، فربّ قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِالْعَالِي * فَعَسَا عَنْ مَدِيحِنَا بِالْمَقَالِ
أَمْرُونِي بِمَدْحِهِ قَلْتُ كَلًّا * كَبُرَ الْفَضْلُ عَنْ مَدِيحِ الرِّجَالِ

قال : فطرب الفضل وقال له : أحسنت والله وأجذت ، ولئن قلّ القول ونزّر ، لقد أتسع المعنى وكثُر ، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كلّ من أنشده مديحا يومئذ ، وقال : لا خير فيما يحيى بعد بيتك ، وقام من المجلس ، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما .

وحدث الحرّميّ قال : كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفرا وينافسه جعفر ، وكان أنس بن أبي شيخ خاصا بجعفر ، ينادمه ويأنس به في خلّواته ، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل ، فدخلت يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدثه وأنشده وتادّره ، وحكى عن المتنادرين وأتى بكلّ ما يسرّ ويُطرب ويضحك ، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك ، فلما خرج سعيد من عنده تجاهلت عليه وقلت له : من هذا الرجل الكثير الهديان ؟ قال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا ؛ قال : هذا سعيد بن وهب صديق أخي أبي العباس وخُصّانته وعشيقه ؛ قلت : وأيّ شيء رأى فيه ؟ قال : لا شيء والله إلا القدر والبرد والغثاءة ، ثم دخلت بعد ذلك إلى الفضل ، ودخل أنس بن أبي شيخ فحدث ونذر وحكى عن المضحكين وأتى بكلّ طريفة ، فكانت قصة الفضل معه قصة جعفر مع سعيد ، فقلت له بعد أن خرج من حضرته : من هذا المبرّم ؟ قال : أو لا تعرفه ؟ قلت : لا ؛ قال : هذا أنس بن أبي شيخ صديق أخي الفضل وعشيقه وخاصته ، قلت : وأيّ شيء أعجبه فيه ؟ قال : لأدري والله إلا القدر والبرد وسوء الاختبار ؛ قال : وأنا والله أعرف بسعيد وأنس من الناس جميعا ، ولكنني تجاهلت عليهما وساعدتهما على هواهما .

وحدث عمرو بن بانه قال : كان في جوارى رجل من البرامكة ، وكانت له جارية شاعرة طريفة يقال لها حسناء ، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني ، فتأتي بكل

مُسْتَحْسِنٍ مِنَ الْجَوَابِ ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ يَوْمًا وَجَلَسَ إِلَيْهَا فَخَادَتْهَا طَوِيلًا
ثُمَّ قَالَ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ :

حَاجِيَّتِكَ يَا حَسَنًا * ءُ فِي جِنْسٍ مِنَ الشَّعْرِ
وَفِيمَا طُولُهُ شِبْرٌ * وَقَدْ يُوفِي عَلَى الشَّيْبِ
لَهُ فِي رَأْسِهِ شَقٌّ * نَطُوفٌ بِالنَّدَى يَجْرِي
إِذَا مَا جَفَّ لَمْ يَجْرِ * لَدَى بَرٍّ وَلَا بَحْرِ
وَإِنْ بُلَّ أَتَى بِالْعَدِ * حَبِيبِ الْعَاجِبِ وَالسَّحْرِ
أَجِيبِي لَمْ أُرِدْ فُحْشًا * وَرَبَّ الشَّفْعِ وَالْوَيْتِ
وَلَكِنْ صُغْتُ أَيْبَاتًا * لَهَا حَظٌّ مِنَ الزَّجْرِ

قال : فغضب مولاهما وتغير لونه وقال : أتفحش على جاريتي تخاطبها بالحنى؟ فقالت
له : خفّض عليك ، فما ذهب إلى ما ظننت وإني أعني القلم ، فسرى عنه ، وضحك سعيد
وقال : هي أعلم منك بما سمعت .

١٧ - الحسن بن وهب

حدّث ميمون بن هارون : قال : كما عند الحسن بن وهب فقال لِينَانَ : غَنِينِي :
 مُتَأَذِنُونَ لَصَبِّ فِي زِيَارَتِكُمْ * فعندكم شهواتُ السَّمْعِ والبَصِيرِ
 لَا يُضْمِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ * عَفَّ الضَّمِيرِ وَلَكِنْ فَاسَقُ النُّظْرُ
 قال فضحكت ، ثم قالت : فأىّ خير فيه إن كان كذا أو أىّ معنى ؟ فنجّل الحسن من
 بادرتها عليه ، وعجّبنا من حدّة جوابها وفطنتها .

وحدّث محمد بن عيسى قال : جاء عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن
 ابن وهب ، وعنده بنان جارية محمد بن حمّاد ، وهى نائمة سكرى وهو يبكي عندها ، فقال له :
 مالّك ؟ قال : قد كنتُ نائمًا فجاءتني فأنبهتني وقالت : اجلس حتى تشرب بخلستُ ،
 فوالله ما غنّتُ عشرة أصوات حتى نامت ، وما شربت إلا قليلا ، فتذكّرت قول أشعر
 الناس وأظرفهم العباس بن الأحنف :

أبكي الذين أدأقوني موتهم * حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
 فانا أبكى وأنشد هذا البيت .

وحدّث محمد بن موسى بن حمّاد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال
 له : اركب وأجيئك عشيا فلا تنتظرنى بالغداة ، فأبطأ عليه ، وأسرع الحسن فى شربه فسكّر
 ونام ، وجاء إبراهيم فراه على تلك الحال ، فدعا بدواة وكتب :
 رُحْنَا إِلَيْكَ وَقَدْ رَاحَتْ بِكَ الرَّاحُ * وأسرعت فيك أوتارٌ وأفراح

وحدّث أيضا محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو
 مخمور فقال له :

عينك قد حَكَمًا مَيِّد * تَكْ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ كَانَا
 ولربّ عينٍ قد أرت * مَكْ مَيِّتَ صَاحِبَهَا عَيْنَانَا

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتاً وطالبه بمثلها ، فكتب إليه أربعة أبيات وطالبه بأربعين بيتاً . وأبيات إبراهيم :

أأبا عليٍّ خيرُ قوالِك ما * حصلت أنجمه ومختصره
 ما عندنا في البيع من غبنٍ * للمستقلِّ بواحد عشره
 أنا أهلُ ذلك غيرُ محتشمٍ * أرضى القديم وأقننى أثره
 ها نحن وفيناك أربعةً * والأربعون لديك منتظره

وقال عبيد الله بن سليمان : لعمري ما في الكتاب أشعر من أبي إسحاق وأبي عليٍّ (يعني عمه الحسن بن وهب) .

حدث علي بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وقد جرى ذكر أحمد بن يحيى المكي ، : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكي مملوكاً كم كان يساوي؟ فقال : أخبرك عن ذلك ، انصرفت ليلةً من دار الواثق ، فاجترتُ بدار الحسن بن وهب فدخلت إليه ، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لي الحسن بن وهب : وم يساوي أحمد لو كان مملوكاً؟ قلت : يساوي عشرين ألف دينار . قال : ثم رجعتُ فغني صوتاً ، فقال لي الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أضعفها . قال : ثم تغني صوتاً آخر ، فقلت للحسن : يا أبا عليٍّ أضعفها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غني :

لولا الحياءُ وأن السير من خلقي * إذا قعدتُ اليك الدهر لم أقم
 أليس عندك سُكْرٌ لتي جعلت * ما أبيض من قدمات الرأس كالحمم

فغناه أحمد بن يحيى المكي فأحسن فيه كل الإحسان ، فلما قمتُ للانصراف قلت للحسن : يا أبا عليٍّ ، أضعف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذي أسمعك تقولانه ولست أدري ما معناه؟ قال نحن نبيعك ونشتريك منذ الليلة وأنت لا تدري .

وحدث محمد بن موسى قال : كان أبو تمام يعشق غلاماً نحريراً للحسن بن وهب ، وكان الحسن يتعشق غلاماً رومياً لأبي تمام ، فرآه أبو تمام يوماً يعبتُ بغلامه ، فقال له :

(١) والله لئن أعتقت إلى الروم لنزكضن إلى الخزر؛ فقال له الحسن: لو شئت حكمتنا واحتكمتنا؛ فقال له أبو تمام: أنا أشبهك بداود عليه السلام وأشبهه نفسي بخصمه؛ فقال الحسن: لو كان هذا منظوما خفناه، فأما وهو مشهور فلا، لأنه عارض لا حقيقة له؛ فقال أبو تمام:

(٢)
 أبا على بصرف الدهر والغدير * وبالحوادث والأيام فاعتبر
 أذ كرني أمر داود وكنت فتى * مصرف القلب في الأهواء والفكر
 أعندك الشمس لم يحظ المغيب بها * وأنت مضطرب الأحشاء للقمير
 إن أنت لم تترك السير الحثيث إلى * جاذر الروم أعقنا إلى الخزر
 إن القطوب له مني محل هوى * يحل مني محل السمع والبصر
 ورب أمنع منه جانباً وحمي * أمسى وتكته مني على خطر
 جردت فيه جنود العزم فأنكشفت * عنه غيابه عن بقره هدير
 سبجان من سبخته كل جارحة * ما فيك من طمجان العين بالنظر
 أنت المقيم فما تغدر راحله * وفعله أبداً منه على سفر

وحدث وهب بن سعيد قال: جاء دُعيل إلى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت

أبي تمام، فقال له رجل في المجلس: يا أبا على، أنت الذي تطعن على من يقول:

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى * ومحت كما تحت وشائع من برد

وأنجدتم من بعد إتهام دارم * فيادمع أنجدني على ساكني نجد

فصاح دُعيل: أحسن والله! وجعل يردد:

* فيادمع أنجدني على ساكني نجد *

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت: إنه أشعر الناس.

(١) أعتقت: أسرعت. (٢) وردت هذه الأبيات في الأغاني وفيها بعض ألفاظ تحل بالأدب،

فأثبتناها هنا كما وردت في ديوان أبي تمام.

وحدّث أحمد بن عبيد الله بن ناصح قال : قلت لدعبل وقد عرض عليّ قصيدة له
يمدح بها الحسن بن وهب أوها :

* أعاذلتني ليس الهوى من هوانيا *

فقلت له : ويحك أتقول فيه هذا بعد قولك :

أين محلّ الحى يا حادى * خبر سقاك الريح الغادى

وبعد قولك :

قالت سلامة أين المال قلت لها * المال ويحك لاني الحمد فأصطجبا

وبعد قولك :

فعلى أيماننا يجرى الندى * وعلى أسيافنا تجرى المهج

والله إنى أراك لو أنشدته إياها لأمر لك بصفع، فقال : صدقت والله، ولقد نهتني
وحدّرتني، ثم مزّقها .

وحدّث محمد بن موسى قال : أنشدنى الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا

يرثي بها سكرانة أمّ ابنه عمر، وجعل الحسن يتعجب من جودتها ويقول :

يقول لى الخللان لو زرت قبرها * فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فأجهل قدرها * ولم أبلغ السنّ التي معها الصبر

وحدّث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ«سُرْمَن رَأَى»، فتأخر الحسن بن وهب

عن محمد بن عبد الملك الزيات، وهو يومئذ وزير والحسن يكتب له، فاستبطأه محمد،

فكتب إليه الحسن يقول :

أوجب العذر في تراخي اللقاء * ما توالى من هذه الأنواء

لست أدري ماذا أقول وأشكو * من سماء تعوفني عن سماء

غير أنى أدعو على تلك بالشك * ل وأدعو لهذه بالبقاء

فسلام الإله أهديه غضا * لك منى ياسيد الوزراء

وحدث محمد بن موسى قال : اغتسل الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياماً كثيرة، فلم يأته رسوله، ولا تعرف خبره، فكتب إليه الحسن قوله :

أيُّ هذا الوزيرُ أيُّدكَ الله * به وأبقاك لي بقاءً طويلاً
 أجميلاً تراه يا أكرم الناس * سٍ لكما أراه أيضاً جميلاً
 إنني قد أفتت عشرًا عيلاً * ما تُرى مُرسلاً إلى رسولاً
 إن يكن موجبُ التعمدِ في الصل * حجةً منّا على منكَ طويلاً
 فهو أولى يأسيد الناسِ برأ * وافتقاداً لمن يكونُ عيلاً
 فلماذا تركتني عرضةً الظن * من الحاسدين جيلاً بجيلاً
 الذنبي؟ فاعلمت سوى الشك * ير قريباً لنتي ودخيلاً
 أم مَلالٍ؟ فما علمتُك للصل * حب مثلي على الزمان ملولاً
 قد أتى الله بالشفاء فما أع * رِف مما أنكرت إلا قليلاً
 وأكلتُ الدَّرَج وهو غداء * أفلت علقى عليه أفولاً
 بعد ما كنت قد حملتُ من الع * لمة عباً على الطباع ثقيلاً
 ولعلني قدمتُ قبلك آتياً * لك غدا إن وجدتُ فيه سبيلاً

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دفع الله عنك نائبة الده * ر وحاشاك أن تكون عيلاً
 أشهد الله ما علمتُ وما ذا * لك من العذر جائزاً مقبولاً
 ولعمري أن لو علمتُ فلازم * تنك حولاً لكان عندي قليلاً
 إنني أرتجى وإن لم يكن ما * كان مما تقمت إلا جليلاً
 أن أكون الذي إذا أضمر الإخ * ملاص لم يلمس عليه كفيلاً
 ثم لا يبذلُ المودة حتى * يجعل الجهد دونها مبدولاً
 فإذا قال كان ما قال إذ كا * ن بعيداً من طبعه أن يقولاً

فاجعلنى لى إلى التعاقب بالعد * رسيلا إن لم أجد لى سبيلا
فقد يما ما جاد بالصفح والعف * ووما سآح الخليل الخيلا

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهد ولا خبر * ما ذا تراه دهاه قلت أيلول
شهر تجد حبال الوصل فيه فما * عقد من الوصل إلا وهو محلول

وكان محمد قد نذبه لأن يخرج في أمر مهم فأجابه الحسن فقال :

إنى بجول أمرى أعليت رتبته * فخطه منك تعظيم وتيجيل
وأنت عدته فى نيل همته * وأنت فى كل ما يهواه مأمول
ما غالى عنك أيلول بلذته * وطيبه ولنعم الشهر أيلول
الليل لا قصر فيه ولا طول * والجو صاف وظهر الكأس مرحول
والعود مستنطق عن كل معجبة * يضحى بها كل قلب وهو متبول
لكن توقع وشك البين عن بلد * تحله فوكاء العين محلول
مالى إذا شمرت بى عنك مبتكرا * دهم البغال أو الهوج المراسيل
إلا رعاياتك اللاتى يعود بها * حد الحوادث عنى وهو مقلول

وكان الحسن بن وهب يسير محمدا على مسنة^(١)، فعدل عن المسنة لئلا يضيق لمحمد

الطريق، فظن محمد أنه أشفق على نفسه من المسنة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه،
وظن بنفسه أن يصيبها ما يصيبه، فقال له محمد :

قد رأيناك إذ تركت المسنة * وحاذيتنى يسار الطريق
ولعمري ما ذاك منك وقد جد * بك الحد من فعال الشفيق

فقال له الحسن :

إن يكن خوفى الختوف أرانى * أن ترانى مشبها بالعقوق
فلقد جارت الظنون على المشد * ففق والظن مولع بالشفيق

(١) المسنة : ما يبنى فى وجه السيل .

عَدَّرَ السَّيِّدَ الْأَجَلَ وَقَدَّ سَا * رَعَى الْخَوْفَ مِنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ
فَأَخَذَتْ الشَّمَالَ بَقِيًّا عَلَى السَّيِّدِ * إِذْ هَالَنِي سُلُوكُ الْمِضْبِقِ
إِنْ عِنْدِي مَوَدَّةٌ لَكَ حَازَتْ * مَا حَوَى عَاشِقٌ مِنَ الْمَعشُوقِ
طَوْدٌ عِزٌّ خُصِّصَتْ مِنْهُ بَرٌّ * صَارَ قَدْرِي بِهِ مَعَ الْعَيْشِوقِ
وَبِنَفْسِي وَإِخْوَتِي وَأَبِي الْبَرِّ * وَعَمِّي وَأَسْرَقِي وَصَدِيقِي
مَنْ إِذَا مَا رُوِّعَتْ أَمَّنَ رُوِّعِي * وَإِذَا مَا شَرِقَتْ سَسُوقَ رِيْقِي

وحدَّث المبرِّد قال : استسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم وهو مع المعتصم ، فسقاه وكتب إليه :

لَمْ تَلْقُ مِثْلِي صَاحِبًا * أَنْدَى يَدًا وَأَعَمَّ جُودًا
يَسْقَى النَّدِيمَ بِقَفْرَةٍ * لَمْ يَسْقِ فِيهَا الْمَاءُ عُودًا
صَفْرَاءَ صَافِيَةٍ كَأَنَّ * بَكَاسِهَا دُرًّا نَضِيدًا
وَأَجُودٌ حِينَ أَجُودُ لَا * حَصْرًا بِذَلِكَ وَلَا بَلِيدًا
وَإِذَا اسْتَقَلَّ بِشِكْرِهَا * أَوْجِبْتُ بِالشُّكْرِ الْمَزِيدًا
خُذْهَا إِلَيْكَ كَأَنَّ * كُسَيْتَ زُجَاجَتِهَا عَقُودًا
وَأَجْعَلْ عَلَيْكَ بَأْنَ تَقُو * مَ بِشِكْرِهَا أَبَدًا عُهُودًا

ومن جيد شعره قوله :

بَأْبِي كَرِهْتُ النَّارَ لَمَّا أُوقِدْتُ * فَعَرَفْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي إِبْعَادِهَا
هِيَ ضَرَّةٌ لِكَ بِالتَّمَاعِ ضِيَائِهَا * وَبِحَسَنِ صُورَتِهَا لَدَى إِيقَادِهَا
وَأَرَى صَنِيعَكَ بِالتَّقْلُوبِ صَنِيعَهَا * بِسَيِّئِهَا وَأَرَاكِهَا وَعَرَادِهَا
شَرِيكَكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِحَسَنِهَا * وَضِيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَفَسَادِهَا

ومات الحسن بن وهب فرثاه أخوه سليمان بن وهب :

مَضَى مِذْمُضِي عِزُّ الْمَعَالِي وَأَصْبَحَتْ * لِأَلِي الْحِجَا وَالْقَوْلِ لَيْسَ لَهَا نَظْمُ
وَأَضْحَى نَجْمُ الْفِكْرِ بَعْدَ فِرَاقِهِ * إِذَا هَمَّ بِالْإِفْصَاحِ مَنَظْمُهُ كَظْمُ

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَفَعْتَهُ إِلَيْهَا ، أَوْ ثَرَوَةٍ أَقْدَرْتَهُ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ شُكْرِي لَكَ عَلَى مُهْجَةٍ
أَحْيَيْتَهَا ، وَحُشَّاشَةٍ أَبْقَيْتَهَا ، وَرَمَقٍ أَمْسَكْتَ بِهِ ، وَقَمَتٍ بَيْنَ التَّلْفِ وَبَيْنَهُ ، فَلِكُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ
نِعْمِ الدُّنْيَا حُدٌّ تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَمَدَى يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَغَايَةٌ مِنَ الشُّكْرِ يَسْمُو إِلَيْهَا الطَّرْفُ ، خِلا
هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَاقَتْ الوَصْفَ ، وَأَطَالَتِ الشُّكْرَ وَتَجَاوَزَتْ قَدْرَهُ ، وَأَتَتْ مِنْ وِرَاءِ كُلِّ غَايَةٍ ،
رَدَدَتْ عَنَّا كَيْدَ العَدُوِّ ، وَأَرْغَمَتْ أَنْفَ الحَسُودِ ، فَنَحْنُ نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ ، وَكَنْفِ
كَرِيمٍ ، فَكَيْفَ يَشْكُرُ الشَّاكِرُ ، وَأَيْنَ يَبْلُغُ جُهْدَهُ المَجْتَهِدُ ، - .

١٨ - أشجع السلمي^(١)

كان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله في يحيى بن خالد وكان قد غاب:

قد غاب يحيى فما أرى أحدا * يأتس إلا بذكره الحسن
أوحشت الأرض حين فارقها * من الأيادي العظام والمنين
لولا رجاء الإياب لأصدعت * قلوبنا بعده من الحزن

وقال أيضا:

رأيت بغاة الخير في كل وجهة * لغيبة يحيى مستكين خضعا
فإن يمس من في الرقتين مؤملا * لأوبة يحيى نحوها متطلعا
فما وجه يحيى وحده غاب عنهم * ولكن يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال فيه أيضا:

إذا غاب يحيى عن بلاد تغيرت * وتشرق إن يحتلها فتطيب
وإن فعّال الخير في كل بلدة * إذا لم يكن يحيى بها لغريب

وقال فيه حين أعتل:

لقد قرعت شكاة أبي علي * قلوب معاشر كانت صحاحا
فإن يدفع لنا الرحمن عنه * صروف الدهر والأجل المتاحا

(١) هو أشجع بن عمرو بن ولد الشريد بن مطرود السلمي، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامي عباسي، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عتد من الفحول؛ وكان الشعر يومئذ في ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر، فلما نجم أشجع وقال الشعر اخترت به قيس. وأتقطع إلى البرامكة ومدحهم وأختص بجعفر فأصفاه مدحه، فأعجب به جعفر ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله في أيامه، وتقدم عنده، وله فيه المدائح المختارة، والقصائد السائرة. وتجد أشعاره وأخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء

فقد أمسى صلاح أبي علي * لأهل الأرض كلهم صلاحاً
إذا ما الموت أخطأه فلَسْنَا * نبأ الموت حيث غدا وراحاً

وهو القائل ،

ليس للحاجات إلا * من له وجه وقَّاحٌ
ولسان طرمدار^(١) * وغدو ورواح
إن أكن أبطأ بالحا * جة عني فاللَّاح
فعلى الجهد فيها * وعلى الله النجاح

ويستجاده في مدح الرشيد :

وصلت يدك السيف يوم تقطعت * أيدى الرجال وزلت الأقدام
وعلى عدوك يا ابن عم محمد * رعدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته وإذا غفا * سلَّت عليه سيوفك الأحلام

ويستجاده أيضاً قوله :

غداً يتفرق أهل الهوى * ويكثر بالك ومسترجع
وتختلف الأرض بالطاعنين * وجوهاً تُشد ولا تُجمع^(٢)
وتفنى الطلول ويبقى الهوى * ويصنع ذو الشوق ما يصنع
وأنت تُبكي وهم جيرة * فكيف يكون اذا ودعوا
أتطمع في العيش بعد الفراق * فبئس لعمرُك ما تطمع

وفيها يقول في جعفر بن يحيى :

بديهته مثل تدبيره * متى هتته فهو مستجمع
إذا هم بالأمر لم يئنه * هجوع ولا شادن أفرع
ففي كفه للغنى مطب * وللسر في صدره موضع

(١) الطرمدار: المتكبر بما لا يفعل . (٢) تفرق .

وكم قائل إذ رأى بهجتي * وما في فُضُوبِ الغنى أصنعُ
غدا في ظلالِ ندى جعفر * يُجْرِيَابَ الغنى أشجعُ
وما خلفه لأمرئٍ مطمعٌ * ولا دونه لأمرئٍ مقنعُ

وهو القائل في محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنعى فتى الجودِ الى الجودِ * ما مثلُ من أنعى بوجودِ
أنعى فتى أصبح معروفه * منتشراً في البيض والسودِ
أنعى فتى مصّ الثرى بعده * بقية الماء من العودِ
قد تلم الدهرُ به ثلمةً * جانها ليس بمسدودِ
أنعى فتى كان ومعه * يملأ ما بين ذرى اليدِ
فأصبحا بعد تساميهما * قد جمعا في بطن ملحودِ
الآن نخشى عثراتِ الندى * وعدوة البخل على الجودِ

ويستجاد له قوله في إبراهيم بن عثمان بن نهبك وكان صاحب شرط الرشيد وكان

جبارا عبوسا :

في سيف إبراهيم خوف واقع * بذوى النفاق وفيه أمن المسلم
ويبيت يكلأ والعيون هواجع * مال المضيع ومهجة المستسلم
جعل الخطام بأنف كل مخالف * حتى آستقام له الذى لم يحظم
لا يصلح السلطان إلا شدة * تغشى البرى بفضل ذنب المجرم
ومن الولاة مقحم لا يتقى * والسيف تقطر شفرتها من الدم
منعت مهابتك النفوس حديثها * بالأمر تكفه وإن لم تعلم

وقال لأخيه :

أبت غفلات قلبك أن تروحا * وكأس لا تزالها صبوحا
كأنك لا ترى حسنا جميلا * بعينك يا أحنى إلا قبيحا

ويستجاد له قوله في الرشيد :

لا زلت تشتر أعياداً وتطويها * تمضي بها لك أيام وتثنيها
مستقبلاً جدّة الدنيا وبهجتها * أيامها لك نظم في لياليها
العيد والعيد والأيام بينهما * موصولة لك لا تفني وتثنيها
وليّينك النصر والأيام مقبلة * إليك بالفتح معقوداً نواصيها

ويستجاد له قوله يمدح اسماعيل بن صبيح :

له نظراً لا يعمض الأمر دونه * تكاد ستور الغيب عنه تمرق

وهو القائل :

وما ترك المدّاح فيك مقالة * ولا قال إلا دون ما فيك قائل

وقال أيضاً :

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق * ولا مغرب إلا له فيه مادح
وما كنت أدري ما فواضل كفه * على الناس حتى غيبتهم الصفايح^(١)
فأصبح في لحد من الأرض ميتاً * وكانت به حياً تضيق الصّباح^(٢)
سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تعض * فحسبك مني ما تُجِنُّ الجوايح^(٣)
فما أنا من رزء وإن جل جازع * ولا بسرورٍ بغد موتك فارح
كأن لم يمت حتى سواك ولم يقم * على أحدٍ إلا عليك النوايح
لئن حسنت فيك المراثي وذكرها * لقد حسنت من قبل فيك المدائح

(١) الصفايح : أجمار عراض تغطي بها القبور . (٢) الصّباح : جمع صحصح : وهي الأرض

الجرداء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجوايح : الضلوع .

١٩ - علي بن الجهم^(١)

كان علي بن الجهم قد هجا بختيشوع، فسبّه عند المتوكل فحبسه المتوكل . فقال علي بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى خراسان . فقال أول ما حبس قصيدة كتب بها الى أخيه، أولها قوله :

توكلنا على رب السماء * وسأنا لأسباب القضاء
ووطننا على غير الليالي * نفوسا ساحت بعد الإباء
وأفنية الملوك محجبات * وباب الله مبدول الفناء
هي الأيام تكلمنا وتأسو * وتأتي بالسعادة والشقاء
وما يُجدي التراء على غني * إذا ما كان محظور العطاء
حلبنا الدهر أشطره ومرت * بنا عقب الشدائد والرخاء
وجربنا وجرب أولونا * فلا شيء أعز من آلوفاء
ولم ندع الحياء لمس ضرر * وبعض الضر يذهب بالحياء
ولم نحزن على دنيا تولت * ولم نسبق الى حسن العزاء
توق الناس يابن أبي وأمي * فهم تبع الخفاة والرجاء

(١) هو عربي قرشي شاعر فصيح مطبوع، وقد خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية اليه بندمائه فكان اذا خلا به عرفه أنهم يعيونه ويثلبونه، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه الى خراسان بعد أن حبسه مدة . وكان مذهبه في الشعر مذهب مروان بن أبي حفصة في هجاء آل أبي طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة كقوله :

ورافضة تقول بشعب رضوى * إمام، خاب ذلك من إمام

إمام من له عشرون ألفا * من الأتراك مشرعة السهام

وله أحوال في الغزل والعتاب وفي الوصف، توفي سنة ٢٤٩ هـ . وتجد أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ١٠٤)

وابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٧) .

ولا يغررك من وغدٍ إخاء * لأمرٍ ما غدا حسن الإخاء
 ألم تر مظهرين على عتبا * وهم بالأمس إخوان الصفاء
 فلما أن بليت غدوا وراحوا * على أشد أسباب البلاء
 أبت أخطارهم أن ينصروني * بمالٍ أو بجاه أو ثراء
 وخافوا أن يقال لهم خذتم * صديقا فادعوا قدم الخفاء
 تطافرت الروافض والنصارى * وأهل الاعتزال على هجائي
 وعابوني وما ذنب إليهم * سوى علمي بأولاد الزناء
 فبخيتشوع يشهد لأبن عمرو * وعزون لهارون المراني
 وما أجدماء بنت أبي سمير * يجذماء اللسان على الخناء
 إذا ما عدتكم رجالا * فما فضل الرجال على النساء
 عليكم لعنة الله ابتداء * وعودا في الصباح وفي المساء
 إذا سئمت للناس قالوا * أولئك شر من تحت السماء
 أنا المتوكلي هوى ورأيا * وما بالواقية من خفاء
 وما حبس الخليفة لي بعار * وليس بمؤيسى منه التنائى

كان سبب حبس المتوكل على بن الجهم أن جماعة من الجلساء سَعَوْا به إليه وقالوا له :
 إنه يمحش الخدم ويغمزهم ، وإنه كثير الطعن عليك والعيب لك والإزراء على أخلاقك ،
 ولم يزالوا به يُوعرون صدره عليه حتى حبسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاء ، فنجاه الى خراسان
 وكتب بأن يُصلب إذا وردها يوماً الى الليل ، فلما وصل الى الشاذيخ حبسه طاهر بن
 عبد الله بن طاهر بها ، ثم أخرج فُصلب يوماً الى الليل مجزدا ثم أنزل ، فقال في ذلك :

لم ينصبوا بالشاذيخ عشيّة الإثنين * مسبوقا ولا مجهولا
 نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم * شرفا وملء صدورهم تجيلا
 ما أزداد إلا رفعة بنكوله * وأزدادت الأعداء عنه نكولا

هل كان إلا الليثَ فارقَ غِيْلَه * فرأيتَه في مجملٍ محمولاً
 لا يأمنُ الأعداءُ من شدَّاته * شدًّا يفصلُ هامهم تفصيلاً
 ما عابه أنْ بُزَّعنه لبأسه * فالسيفُ أهولُ ما يرى مسلولاً
 إن يُبتدلَ فالبدْرُ لا يُزرى به * إن كان ليلته تمه مبذولاً
 أو يسلبوه المالَ يُحزنُ فقده * ضيفاً ألمٌ وطارقاً ونزولاً
 أو يحبسوه فليس يُحبسُ سائرُ * من شعره يدعُ العزيرَ ذليلاً
 إن المصائبُ ما تعدتُ دينه * نعم وإن صعبتُ عليه قليلاً
 والله ليس بغافلٍ عن أمره * وكفى بربك ناصرًا ووكيلاً
 ولتعمنَ إذا القلوبُ تكشفت * عنها الأكنةُ من أضلِّ سبيلاً

وكتب المتوكل إلى طاهر بن عبد الله بإطلاق علي بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهرُ إني عن خراسانٍ راحلُ * ومستخبرٌ عنها فما أنا قائلُ
 أصدقُ أم أكني عن الصدقِ أيما * تحيرتُ أدته اليك المحافلُ
 وسارت به الركبُانُ وأصطفقتُ به * أكفُ قيانٍ وأجبتته القبائلُ
 وإني بعالي الحمد والذمِّ عالمُ * بما فيهما نامى الرمية ناضلُ
 وحقاً أقولُ الصدقَ إني لمائلُ * اليك وإن لم يحظَ بالودِّ مائلُ
 ألا حرمةٌ تُرعى إلا عقدُ ذمَّةٍ * لجارٍ إلا فعلٌ لقولٍ مُشاكلُ
 ألا منصفٌ إن لم نجدُ متفضلاً * علينا إلا قاضٍ من الناسِ عادلُ
 فلا تقطنَ غيظاً عليّ أنا ملاً * فقبلك ما عُصتُ عليّ الأناملُ
 أطاهرُ إن نُحسِنَ فإني محسنُ * إليك وإن تجحَلْ فإني باخلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً، فإني لا أفعل بك إلا ما تحب، فوصله وحمله

وقال علي بن الجهم للتوكل :

عفا الله عنك! ألا حرمته * تجود بعفوك أن أبعدا
 لأن جَلَّ ذنبٌ ولم أعتد * لأنت أجلُّ وأعلى يدا
 ألم تر عبداً عدَا طوره * ومولى عفا ورشيداً هدى
 ومُفسِدَ أمرٍ تَلَا فَيْتَه * فعاد فأصلح ما أفسدا
 أَقْلَنِي أَقَالِكِ مَنْ لَمْ يَزَلْ * يَقِيكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى

وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها :

قالوا حُبِسْتَ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي * حَبْسِي وَأَيُّ مَهْنَدٍ لَا يُغَمِّدُ
 أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيَالَهُ * كِبْرًا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَرُدُّهُ
 وَالشَّمْسُ لَوْلَا أَنَّهَا مَحْجُوبَةٌ * عَنْ نَاطِرِيكَ لَمَّا أَضَاءَ الْفَرْقَدُ
 وَالْبَدْرُ يُدْرِكُهُ السَّرَّارُ فَتَنْجِلِي * أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مَتَجَدَّدُ
 وَالغَيْثُ يَحْضُرُهُ الْغَمَامُ فَا يَرِي * إِلَّا وَرَيْقَهُ يِرَاعُ وَيُرْعَدُ
 وَالزَّاعِيَّةُ لَا يُقِيمُ كَعُوبَهَا * إِلَّا التَّقَافُ وَجَدْوَةٌ تُتَوَقَّدُ
 وَالنَّارُ فِي أَجْجَارِهَا نَجْبُوءَةٌ * لَا تُصْطَلِي إِنْ لَمْ تُثْرَهَا الْأَزْنُدُ
 وَالْحَبْسُ مَا لَمْ تَغْشَهُ لَدُنْيَةٌ * شَنْعَاءُ نَعْمِ الْمَنْزَلِ الْمُتَوَدَّدُ
 بَيْتٌ يَجِدُّ لِلْكَرِيمِ كَرَامَةً * وَيَزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحْمَدُ
 لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَبْسِ إِلَّا أَنَّهُ * لَا يَسْتَدْلِكُ بِالْحِجَابِ الْأَعْبُدُ
 كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى * فَنِجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ
 يَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ إِنَّمَا * تُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ يَا أَحْمَدُ
 أَبْلُغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَهُ * خَوْضُ الرَّدَى وَمُخَاوِفٌ لَا تَنْفَدُ
 أَتَمَّ بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ * أَوْلَى بِمَا شَرَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ
 مَا كَانَ مِنْ كَرِيمٍ فَأَتَمَّ أَهْلُهُ * كَرَمَتْ مَغَارِسُكُمْ وَطَابَ الْحَمْدُ

أَمِنَ السَّوِيَّةِ يابن عم محمد * خَصْمٌ تَقَرَّبَهُ وَآخِرُ تَبَعِدِ
 إن الذين سَعَوْا اليك باطل * حَسَادُ نِعْمَتِكَ التِّي لَا تُجْحَدُ
 شَهِدُوا وَغَبْنَا عَنْهُمْ فَتَحَكَّمُوا * فِينَا، وَلَيْسَ كَغَائِبٍ مِنْ يَشْهَدُ
 لو يجمع الخُصَمَاءَ عِنْدَكَ مَجْلَسٌ * يَوْمَا لَبَانَ لَكَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَدُ
 فَبَأَى جُرْمٍ أَصْبَحَتْ أَعْرَاضُنَا * نَهَا تَقَسَّمَهَا اللَّئِيمُ الْأَوْغَدُ

خرج على بن الجهم إلى الشام في قافلة فخرجت عليهم الأعراب في خُسَافٍ، فهرب من
 كان في القافلة من المُقَاتِلَةِ وَتَبَّتْ عَلَى بَنِ الْجَهْمِ، فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا وَثَابَ النَّاسُ إِلَيْهِ
 فَدَفَعَهُمْ وَلَمْ يَحْظُوا بِشَيْءٍ . فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

صَبَرْتُ وَمِثْلِي صَبْرُهُ لَيْسَ يُنْكَرُ * وَلَيْسَ عَلَيَّ تَرْكُ التَّقَحُّمِ يَعْذَرُ
 غَرِيضَةٌ حَرًّا لَا آخْتَلَقُ تَكْلُفٌ * إِذَا خَامَ فِي يَوْمِ الْوَعْيِ الْمُتَصَبِّرِ^(٢)
 وَلَمَا رَأَيْتَ الْمَوْتَ تَهْوُو بِنُودِهِ * وَبَانَتْ عَلَامَاتُ لَهُ لَيْسَ تَتَكَرَّرُ
 وَأَقْبَلْتَ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَثَارَ عَجَّاجٌ أَسْوَدُ اللَّوْنِ أَكْذَرُ
 بِكُلِّ مُشِيحٍ مُسْتَمِيَةٍ مُشْمَرٍ * يَحْوِلُ بِهِ طَرْفُ أَقْبُ مُشْمَرِ^(٣)
 بَارِضٍ خُسَافٍ حِينَ لَمْ يَكْ دَافِعٌ * وَلَا مَانِعٌ إِلَّا الصَّفِيحُ الْمَذْكَرُ
 فَقَلَّ فِي عَيْنِي عَظِيمَ جَمُوعِهِمْ * عَزِيمَةٌ قَلْبٍ فِيهِ مَا جَلَّ يَصْفَرُ
 بَعَثَرِكُ فِيهِ الْمَنَايَا حَوَاسِرُ * وَنَارُ الْوَعْيِ بِالْمَشْرِيفَةِ تُسْعَرُ
 فَمَا صُنْتُ وَجْهِي عَنْ ظُبَاتِ سِيَوْفِهِمْ * وَلَا أَنْحَزْتُ عَنْهُمْ وَالْقَنَا تَنْكَسَرُ
 وَلَمْ أَكْ فِي حَرِّ الْكَرِيهَةِ مُحْجَمًا * إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَرْبِ لِلْوَرْدِ مَصْدَرُ
 إِذَا سَاعَدَ الطَّرْفُ النَّقِيَّ وَجَنَانُهُ * وَأَسْمَرُ خَطِيٌّ وَأَبْيَضُ مِبْتَرُ
 فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ الْكَرِيمُ بِنَفْسِهِ * إِذَا أَصْطَلَتْ الْأَبْطَالُ فِي النَّقْعِ عَسْكَرُ

(١) برية بين بالس وحلب . (٢) خام : نكص وجبن .

(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره . والأقب من الخيل : الدقيق الخصر الضامر البطن .

منعهم من أن ينالوا قلاماً * وكنت شجاهم والأسنة تقطُر
 وتلك سجايانا قديماً وحادثاً * بها عُرف الماضي وعزّ المؤخّر
 أبت لي قروم أنجبتني أن أرى * وإن جلّ خطبٌ خاشعاً أتضجر
 أولئك آل الله فهربن مالك * بهم يُجبر العظم الكسير ويكسر
 هم المنكب العالی على كل منكب * سيوفهم تُفني وتغني وتفقّر

كان علي بن الجهم يعاشر جماعة من فتيان بغداد لما أطلق من حبسه ورد من النفي،
 وكانوا يتقانون ببغداد ويلزمون منزل مغن بالكرخ يقال له المفضل، فقال فيه علي بن الجهم:

نزلنا باب الكرخ أطيّب منزل * على مُحسناتٍ من قِيانِ المفضل
 فلا بن سريخ والغريض ومعبّد * بدائع في أسماعنا لم تبدل
 أو انس ما للضيف منهنّ حشمة * ولا رهبنّ بالجليمل المبعجل
 بسّر إذا ما الضيف قلّ حياؤه * ويغفل عنه وهو غير مغفل
 ويكثر من ذم الوقار وأهله * إذا الضيف لم يأنس ولم يتبدل
 ولا يدفع الأيدي المريبة غيره * إذا نال حظاً من لبوسٍ وما كل
 ويطرق إطراق الشجاع مهابة * ليطلق طرف الناظر المتأمل
 أشربيد وأعجم بطرف ولا تحف * رقيباً إذا ما كنت غير مبخل
 وأعرض عن المصباح وألحج بمثله * فإن نحمد المصباح فادن وقبل
 وسل غير ممنوع وقل غير مسكت * وتم غير مذعور وقم غير معجل
 لك البيت ما دامت هداياك جمّة * وكنت ملياً بالنبيد المعسل
 فبادر بأيام الشباب فإنها * تقضى وتفني والغواية تجلي
 ودع عنك قول الناس أتلّف ماله * فلان فأضحى مدبراً غير مقبل
 هل الدهر إلا ليلة طرحت بنا * أوخرها في يوم لهو معجل
 سقى الله باب الكرخ من منزله * الى قصر وضاح فبركة زلزل

مَسَاحِبِ أَذْيَالِ الْقِيَانِ وَمَسْرَحِ الْ * حَسَانٍ وَمَثْوَى كُلِّ خَرِقٍ مُعَدَّلٍ
 لَوْ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ يَجْلَاهَا * لِأَقْصَرَ عَنْ ذِكْرِ الدَّخُولِ وَحَوْمَلٍ
 إِذَا لَرَأَى أَنْ يَمْنَحَ الْوَدَّ شَادِنَا * مُقْصِرِ أَذْيَالِ الْقِنَا غَيْرِ مُسْبِلِ
 إِذَا اللَّيْلُ أَدْنَى مَضْجَعِي مِنْهُ لَمْ أَقُلْ * "عَقَّرَتْ بَعِيرِي يَا أَمْرًا الْقَيْسِ فَأَنْزِلِ"

دخل على بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر في غداة من غدوات الربيع وفي السماء
 غيم رقيق، والمطريجيء قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبح فغاضبته
 حَظِيَّةُ لَهُ، فتنغص عليه عزمه وفتّر، فخبّر على بن الجهم بالخبر وقيل له: قل في هذا المعنى
 لعله ينشط للصبح، فدخل عليه فأنشده:

أَمَّا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحْلَى شِمَائِلَهُ * صَخْوٌ وَغَيْمٌ وَإِبْرَاقٌ وَإِرْعَادُ
 كَأَنَّهُ أَنْتَ يَا مَهْنُ لَا شَبِيهَ لَهُ * وَصَلُّ وَهَجْرٌ وَتَغْرِيْبٌ وَإِبْعَادُ
 فَبَاكِرِ الرَّاحِ وَأَشْرَبِهَا مُعْتَقَةً * لَمْ يَدْنُرْ مِثْلَهَا كِسْرَى وَلَا عَادُ
 وَأَشْرَبَ عَلَى الرُّوضِ إِذْ لَاحَتْ زَخَارِفُهُ * زَهْرٌ وَنُورٌ وَأُورَاقٌ وَأُورَادُ
 كَأَنَّمَا يَوْمُنَا فَعَلَّ الْحَبِيبُ بِنَا * بَدَلٌ وَبُخْلٌ وَإِبْعَادُ وَمِيعَادُ
 وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنِّي كُلُّ فِعَالِكُمْ * عَنِّي وَرُشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثة دنانير وحمله وخلع عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر على بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذياخ مدة، فخرجوا
 يوما الى الصيد . واتفق لهم مَرَجٌ كَثِيرٌ الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا
 صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال على بن الجهم يصف ذلك:

وَطِئْنَا رِيَاضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ * عَلَيْنَا الْبُرْأَةُ الْبَيْضُ حَمْرَ الدَّرَارِجِ ^(١)
 وَلَمْ تَحْمِهَا الْأَدْعَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا * أَبْجَنَّا حِمَاهَا بِالْكَلَابِ الْبَوَارِجِ
 بِمَسْتَرِوْحَاتٍ سَابِحَاتٍ بِطُونُهَا * عَلَى الْأَرْضِ أَمْثَالِ السَّهَامِ الْزَوَالِجِ ^(٢)

(١) واحده دراج (بضم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلقة القطا إلا أنه أطف .

(٢) الزالج من السهام: الذي يمشى على وجه الأرض ثم يمضى .

ومستشرفات بالهوادي كأنها * وما عَقِفْتُ منها رؤوس الصَّوَابِجِ
ومن دالعاتِ السُّنَا فكَأَنَّهَا * لِحَى من رجال خاضعين كَوَاسِجِ
فَلَيْنَا بها الغِيْطَانُ فَلَيْبَا كَأَنَّهَا * أَنَامِلُ إحدَى الغَانِيَاتِ الحَوَاجِجِ
فقل لبُغَاةِ الصَّيْدِ هل من مُفَاحِرٍ * بصيْدٍ وهل من وَاصفِ أَوْ مَخَارِجِ
قَرْنَا بُزَاةً بِالصَّقُورِ وَحَوِّمَتْ * شَوَاهِينَا من بعد صيد الرواجِجِ (١)

لما فُلِحَ ابنُ أبي دُوَادٍ شِمْتُ بهِ عَلِيٌّ بنُ الجَهْمِ وَأَظْهَرَ ذَلِكَ لَهُ وَقَالَ فِيهِ :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى حَيَالِكَ لَامِعًا * فَوْقَ الفِرَاشِ مَهْمَدًا بِيَسَادِ
فَرِحْتَ بِمَصْرَعِكَ البَرِيَّةِ كُلِّهَا * مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِنًا بِمَعَادِ
كَمْ مَجْلَسَ لَهِ قَدِ عَطَّاتِهِ * كَيْ لَا يُحَدِّثَ فِيهِ بِالإِسْنَادِ
وَلَكُم مَصَابِيحُ لَنَا أَطْفَاءَتَهَا * حَتَّى نَزُولَ عَنِ الطَّرِيقِ أَلْهَادِي
وَلَكُم كَرِيمَةٌ مَعَشِرٍ أَرْمَلَتَهَا * وَمَحَدَّثَ أَوْثَقَتْ فِي الأَقْيَادِ
إِنِ الأَسَارَى فِي السَّجُونِ تَفَرَّجُوا * لَمَّا أَنْتَ مَوَاسِكُ العَوَادِ
وَعَدَا لِمَصْرَعِكَ الطَّيِّبُ فَلَمْ يَجِدْ * شَيْئًا لِدَائِكَ حِمْلَةَ الأَمْرَادِ
فَدُقِ الهَوَانَ مَعْجَلًا وَمُؤَجَّلًا * وَاللَّهِ رَبَّ العَرْشِ بِالمَرْصَادِ
لَا زَالَ فَالْحُكَّ الَّذِي بَكَ دَائِبًا * وَجِئْتَ قَبْلَ المَوْتِ بِالأَوْلَادِ

ومن جيد شعره قوله :

نَطَقَ الهَوَى بِجَوَى هُوَ الحَقُّ * وَمَلَكْتَنِي فَلَئِنَّكَ الرِّقُّ
رِفْقًا بِقَلْبِي يَا مَعَدَّ بِهِ * رِفْقًا وَلَيْسَ لظالم رِفْقُ
وَإِذَا رَأَيْتَكَ لَا تُكَلِّمْنِي * ضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ وَالأُفُقُ

وله أيضا :

يَا رَحْمَةً للغَرِيبِ بِالبَلَدِ النَّا * زَجَّ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا
فَارَقَّ أَحِبَّابَهُ فَمَا أَتَنَفَعُوا * بِالعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَمَا أَتَنَفَعَا

(١) الراج : الملواح الذي يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير .

٢٠ - علي بن جبلة^(١)

قال المأمون يوماً لبعض جلسائه: أقسم علي من حضر ممن يحفظ قصيدة علي بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها؛ فقال له بعض الجلساء: قد أقسم أمير المؤمنين ولا بد من إبرار قسمه، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندي؛ قال: قم فغنني بها، فمضى وأتاه بها وأنشده إياها، وهي:

ذادِ رَدَّ الغَيِّ عن صَدْرِهِ * وأرَعَوَى واللَّهُو من وَطْرِهِ
وَأَبَتْ إِلا البِكَاءَ له * ضَحِكَاتُ الشَّيْبِ في شَعْرِهِ
ندِمِي أن الشَّبَابَ مَضَى * لم أبلِّغْهُ مَدَى أَشْرِهِ
وَأَنْقَضَتْ أَيامُهُ سَالِمًا * لم أَجدْ حَوْلًا على غَيْرِهِ
حَسْرَتٌ عَنِّي بِشَاشَتِهِ * وذَوَى المَحْمُودُ من ثَمَرِهِ
ودِمٍ أَهدَرْتُ من رَشَاءٍ * لم يُردْ عَقْلًا على هَدْرِهِ
فَأَتَتْ دُونَ الصَّبَا هَنَّةٌ * قَلِبْتُ فُوقِي على وَتَرِهِ
جَارَتَا لَيْسَ الشَّبَابُ لِمَن * راحَ مَحْنِيًّا على كِبَرِهِ
ذَهَبَتْ أَشْيَاءُ كُنْتُ لَهَا * صَارَهَا حَلْمِي إلى صُورِهِ^(٢)

(١) هو علي بن جبلة الأنباري والعكوك لقبه، وهو من الموالي أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد، ولد في الحربية منها ونشأ فيها، وكان ضريرا منذ ولادته مثل بشار بن برد، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ جزله، لطيف المعاني، مداح حسن التصرف، وقد استنفذ شعره في مدح أبي دلف العجلي وأبي غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي، وزاد في تفضيلهما وتفضل أبي دلف خاصة حتى فضل ربيعة على مضر، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها العكوك في أبي دلف منها:

كل من في الأرض من عرب * بين يديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة * يكتسبها يوم مفتخره

توفي سنة ٢١٣ هـ. وتجد أكثر أخباره في الأغاني (ج ١٨ ص ١٠٠) وابن خلكان طبع بولاق (ج ١ ص ٤٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠) (٢) صارها: أمالها.

دَعَّ جَدَا حَطَّانَ أَوْ مُضِرَّ * فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِّهِ
 وَامْتَدَّحَ مِنْ وَائِلٍ رَجُلًا * عَصْرُ الْآفَاقِ فِي عَصْرِهِ
 الْمَنَايَا فِي مَنَاقِبِهِ * وَالْعَطَايَا فِي ذَرَا حَجْرِهِ
 مَلِكٌ تَسَدَّى أَنَامِلُهُ * كَانِبِلَاجِ النَّوَى عَنْ مَطَرِهِ
 مُسْتَهْلٌ عَنْ مَوَاهِبِهِ * كَابْتِسَامِ الرُّوْضِ عَنْ زَهْرِهِ
 جَبَلٌ عَزَّتْ مَنَاصِبُهُ * أَمِنَتْ عَدَنَانُ فِي ثَغْرِهِ
 إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ * بَيْنَ مَبْدَأِهِ وَحُضْرِهِ
 فَإِذَا وَوَيْ أَبُو دَلْفٍ * وَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
 لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ لَهُ * غَيْرَ أَنَّ الْأَرْضَ فِي حَقَرِهِ
 يَادُوَاءُ الْأَرْضِ إِنْ فَسَدَتْ * وَمِدِيلُ الْيُسْرِ مِنْ عُسْرِهِ
 كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ بَادِيَةِ إِلَى حَضَرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةٌ * يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَحَرِهِ

وفيها يقول :

وَزُحُوفٍ فِي صَوَاهِلِهِ * كَصِيَاحِ الْحَشْرِ فِي أَثَرِهِ
 قُدَّتْهُ وَالْمَوْتُ مَكْتَمٌ * فِي مَذَاكِيهِ وَمُسْتَجْرِهِ
 فَرَمَتْ حَقْوِيهِ مِنْهُ يَدٌ * طَوَّتِ الْمَنْشُورَ مِنْ نَظَرِهِ
 زَرْتَهُ وَالخَيْلُ عَابِسَةٌ * تَحْمِلُ الْبُؤْسَى عَلَى عُنُقَرِهِ
 خَارِجَاتٍ تَحْتَ رَايَتِهَا * تَخْرُجُ الطَّيْرُ مِنْ وَكْرِهِ
 وَعَلَى النِّعْمَانِ نُجَّتْ بِهِ * عَوَجَةٌ ذَادَتْهُ عَنْ صَدْرِهِ
 غَمَطَ النِّعْمَانُ صَفْوَتَهَا * فَرَدَدَتْ الصَّفْوَةَ فِي كَدْرِهِ
 وَلَقَرَقُورٌ أَدْرَتْ رَحًا * لَمْ تَكُنْ تَرْتَدُّ فِي فِكْرِهِ

قَدْ تَأْتَيْتَ الْبَقَاءَ لَهُ * فَأَبَى الْمَحْتَمُومُ مِنْ قَدَرِهِ
وَوَطَّنِي حَتَّى رَفَعْتَ لَهُ * خُطَّةَ شَنْعَاءَ مِنْ ذِكْرِهِ
فَغَضِبَ الْمَأْمُونُ وَأَعْتَظَ، وَقَالَ : لَسْتُ لِأَبِي إِنْ لَمْ أَقْطَعْ لِسَانَهُ أَوْ أَسْفِكَ دَمَهُ .

وَكَانَ يَمْدَحُ حَمِيدَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، فَلَمَّا سَمِعَ حَمِيدٌ هَذَا فِي أَبِي دَلَفَ قَالَ : أَى شَيْءٍ
بَقَّيْتُ لَنَا بَعْدَ هَذَا مِنْ مَدْحِكَ؟ فَقَالَ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا حَمِيدٌ * وَأَيَادِيهِ الْجِسَامُ

فَإِذَا وَلَّى حَمِيدٌ * فَعَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ

وهو القائل في حميد :

دِجْلَةٌ تَسْقِي وَأَبُو غَانِمٍ * يُطْعِمُ مَنْ تَسْقَى مِنَ النَّاسِ

وَالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامٌ الْهَدْيُ * رَأْسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّاسِ

وقال للمحسن بن سهل :

أَعْطَيْتَنِي يَا وَلِيَّ الْحَقِّ مَبْتَدَأًا * عَطِيَّةً كَافَأَتْ مَدْحِي وَلَمْ تَرِنِي

مَا شِمْتُ بِرَقِّكَ حَتَّى نَلْتُ رَيْقَهُ * كَأَنَّمَا كُنْتُ بِالْحَدَوَى تَبَادَرْنِي

وهو القائل في حميد :

إِلَى أَكْرَمِ خَطَّانٍ * وَصَلْنَا السَّهْبَ بِالسَّهْبِ

إِلَى مَجْتَمَعِ النَّيْلِ * وَمُلِقَ أَرْحُلِ الرِّكْبِ

حَمِيدٌ مَفْرَعُ الْأَمَّةِ * لَمَّةٌ فِي الشَّرْقِ وَفِي الْغَرْبِ

كَأَنَّ النَّاسَ جِسْمٌ وَهَدٌّ * وَ مِنْهُ مَوْضِعَ الْقَلْبِ

إِذَا سَأَلَمَ أَرْضًا غَدًا * نَبِيَّتُ أَمْنَةِ السَّرْبِ

وَإِنِ حَارِبَهَا حَلَّتْ * بِهَا رَاغِبَةُ السَّقْبِ

إِذَا لَاقَى رَعِيْلَ الْمَوْتِ * تِ بِالشُّطْبَةِ وَالشُّطْبِ

وَبِالْمَازِيَةِ الْخُضْرِ * وَبِالْهِنْدِيَّةِ الْقُضْبِ

غداً مجتمع القلب * له جندٌ من الرعب

فيافوز الذي وإلى * ويابؤسى أخى الذنب

أيا ذا الجود فاسلم ما * جرت حُقُبُ إلى حُقُبِ

فأنت الغيثُ في السلم * وأنت الموتُ في الحرب

وأنت الجامعُ الفار * قُ بين البعد والقرب

بك الله تلافى لنا * س بعد العثر والنكب

وردَ البيضُ والبيض * إلى الأغمادِ والحجب

بإقدامك في الحرب * وإطعامك في اللزب

فكم أمنتَ من خوفٍ * وكم أشغبتَ من شغب

وكم أصلحتَ من خطبٍ * وكم أيّمتَ من خطب

وما تمهّـرها إلا * دراك الطعن والضرب

تاهتُ بك قحطانٌ * إلى الغاية والحسب

ففاتتُ شرفَ الأحياء * ء فوّتَ الرأسَ للعجب^(١)

ومما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفر قوله في أبي دلف :

أنت الذي تُنزل الأيامَ منزلها * وتثقل الدهرَ من حالٍ إلى حال

وما مددتَ مدى طرفٍ إلى أحدٍ * إلا قضيتَ بأرزاقٍ وأجال

تزوّرُ سخطاً فتمسى البيضُ راضيةً * وتستهيلُ فتبكي أوجهُ المال

وقال فيها :

كأنّ خيلك في أثناءِ عمّرتها * أرسلالُ قَطِرِ تهايمى فوقَ أرسلال

يخرجن من غمرات الموتِ ساميةً * نَشْرُ الأناملِ من ذى القِرّةِ الصالى

(١) العجب : أصل الذنب .

وقال أيضا :

جلاء مشيب نزل * وأئس شباب رحل
 طوى صاحب صاحبًا * كذاك اختلاف الدول
 أعادلتني أفصري * كفاك المشيب العذل
 بدا بدلًا بالشبا * ب ليت الشباب البدل
 جلال ولكنه * تحاماه حور المقل

وقد كان حميد ركب يوم عيد في جيش عظيم لم ير مثله ، فقال علي بن جبلة يصف ذلك :

غدا بأمر المؤمنين ويمنه * أبو غانم غدو الندى والسحاب
 وضافت فجاج الأرض عن كل موكب * أحاط به مستعليًا للمواكب
 كأن سمنو النقع والبيض فوقهم * سماوة ليل قرنت بالكواكب
 فكان لأهل العيد عيد بنسكهم * وكان حميد عيدهم بالمواهب
 ولولا حميد لم تبلى عن الندى * يمين ولم يدرك غني كسب كاسب
 ولو ملك الدنيا لما كان سائل * ولا أعتام فيها صاحب فضل صاحب
 له ضحكة تستغرق المال بالندى * على عبسة تشجي القنا بالترائب
 ذهبت بأيام العلاء فاردًا بها * وصرمت عن مسعك شأو المطالب
 وعدلت ميل الأرض حتى تعدلت * فلم ينأ منها جانب فوق جانب
 بلغت بأدنى الحزم أبعده قورها * كأنك منها شاهد كل غائب

شخص علي بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان ، وقد مدحه فأجزل صلته ، واستأذنه في الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان بره يتصل عنده ، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنسده :

زاعه الشيب إذ نزل * وكفاه من العذل
 وأتقضت مدة الصبا * وانقضى اللهو والغزل

قد لعمرى دَمَلْتَهُ * بِخِضَابٍ فَمَا أَدْمَلُ
 فَايَكِ لِلشَّيْبِ إِذْ بَدَأَ * لَا عَلَى الرَّبْعِ وَالطَّلَلُ
 وَصَلُ اللَّهُ لِلْأُمِي * بِرِ عُمَرَى الْمَلِكِ فَاتَّصَلُ
 مَلِكٌ عَزَمُهُ الزَّمَا * نُبُّ وَأَفْعَالُهُ الدُّوَلُ
 كِكْسَرُوِيٌّ، يَجِدُهُ * يَضْرِبُ الضَّارِبُ الْمَثَلُ
 وَإِلَى ظَلِّ عَزَّة * يَلْجَأُ الْخَائِفُ الْوَجَلُ
 كُلُّ خَلْقٍ سِوَى الْإِمَا * مِمَّ لِإِنْعَامِهِ خَوَلُ
 لَيْتَهُ حِينَ جَادَلِي * بِالْغِنَى جَادَ بِالْقَفَلُ

فضحك وقال : أَيْبَتَ إِلَّا أَنْ تُوحِشَنَا، وَأَجْزَلَ صِلَتَهُ وَأَذْنَ لَهُ .

دخل على بن جبلة العكوك على حميد الطوسي في أول يوم من شهر رمضان، فأنشده:

جَعَلَ اللَّهُ مَدْخَلَ الصُّومِ فَوْزًا * مُحْمِدٍ وَمُتَعَةً فِي الْبَقَاءِ
 فَهُوَ شَهْرُ الرَّبِيعِ لِلْقُرَاءِ * وَفِرَاقُ النَّدْمَانِ وَالصَّهْبَاءِ
 وَأَنَا الضَّامِنُ الْمَلِيٌّ لِمَنْ عَا * قَرَّهَا مُفْطِرًا بِطَوْلِ الظَّهَاءِ
 وَكَأَنِّي أَرَى النَّدَامَى عَلَى الْخَسَاءِ * نَفَّ يَرْجُونَ صَبْحَهُمْ بِالْمَسَاءِ
 قَدْ طَوَى بَعْضُهُمْ زِيَارَةَ بَعْضِ * وَاسْتَعَاذُوا مَصَاحِفًا بِالْغِنَاءِ

وفيها يقول :

بِجُمَيْدٍ — وَأَيْنَ مِثْلُ حَمِيدٍ — * نَفَخَتْ طِيَّءٌ عَلَى الْأَحْيَاءِ
 جُودُهُ أَظْهَرَ السَّاحَةَ فِي الْأَرْضِ * ضِ وَأَغْنَى الْمُقْوَى عَنِ الْإِقْوَاءِ
 مَلِكٌ يَأْمُلُ الْعِبَادُ نَدَاهُ * مِثْلَ مَا يَأْمُلُونَ قَطْرَ السَّمَاءِ
 صَاغَهُ اللَّهُ مُطْعِمَ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ * ضِ وَصَاغَ السَّحَابَ لِلِاسْتِغَاءِ

فأمر له بخمسة آلاف درهم، وقال : استعن بهذه على نفقة صومك، ثم دخل إليه ثانياً

شوال فأنشده :

عللاني بصفو ما في الدنان * وأترك ما يقوله العاذلان
 وآسيفا فاجع المنيّة بالعيد * يش فكل على الحديدن فاني
 عللاني بشربة تذهب اله * م وتنفى طوارق الأخران
 والقيآ في مسامع سدها الصو * م رقي الموصلي أودحمان
 قد أنانا شوال فاقبل العيد * ش وأعدى قسراً على رمضان
 نعم عون الفتى على نوب الدهر * بر سماع القيان والعيدان
 وكؤوس تجرى بماء كروم * ومطى الكؤوس أيدى القيان
 من عنار تميم كل احتشام * وتسر الندمان بالندمان
 وكان المزاج يقدح منها * شرراً في سبائك العقيان
 فاشرب الراح وأعص من لأم فيها * إنها نعم عدة الفتيان
 وأصحب الدهر بارتحال وحل * لا تحف ما يجره الحادنان
 حسب مستظهر على الدهر ركنا * بجميد ردها من الحدنان
 ملك يقتنى المكارم كنزاً * وتراه من أكرم الفتيان
 خلقت راحتاه للجود والبأ * س وأمواله لشكر اللسان
 ملكته على العباد معدد * وأقرت له بنو قحطان
 أريحي النداء جميل الحيا * يده والسماح معتقدان
 وجهه مشرق الى معتفيه * ويداه بالغيث تنفجران
 جعل الدهر بين يومية قسمة * بن بعرف جزل وحر طعان
 فاذا سار بالخمس لحرب * كل عن نص جيه الخافقان
 واذا ما هزنته لنوال * ضاق عن رحب صدره الأفقان
 غيث جذب إذا أقام ربيع * يتغشى بالسسيب كل مكان
 يا أبا غانم بقيت على الدهر * بر وحللت ما جرى العصران

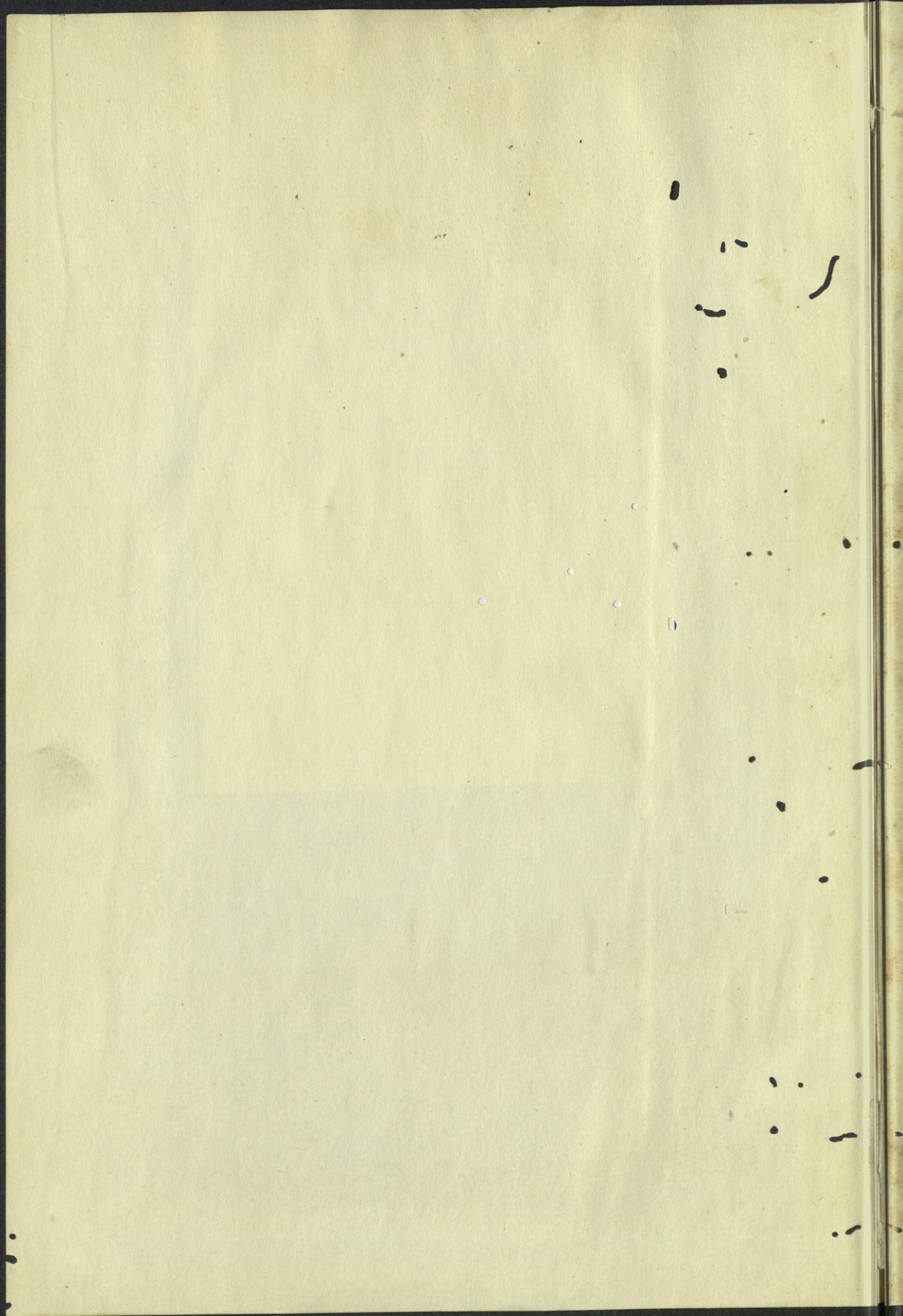
ما نُبَالِي إِذَا عَدَّتْكَ الْمَنِيَا * مَن أَصَابَتْ بِكَ كَلِّ وَجِرَانِ
 قَدْ جَعَلْنَا لِيكَ بَعَثَ الْمَطَايَا * هَرَبًا مِنْ زَمَانَتَا الْخَوَانِ
 وَحَمَلْنَا الْحَاجَاتِ فَوْقَ عِتَاقِ * ضَامِنَاتِ حَوَائِجِ الرِّجَالِ
 لَيْسَ جُودٌ وَوَلَدٌ حَا دِكْ يُنْتَا * بٌ وَلَا يَعْتَنِي لَغَيْرِكَ عَانِي
 فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوم نخفت وخففنا، وهذه للفطر
 فقد زدتنا وزدناك .

ولما مات حميد الطوسي رثاه بقصيدته العينية المشهورة التي نعت من نادر الشعر
 وبديعه، وهي :



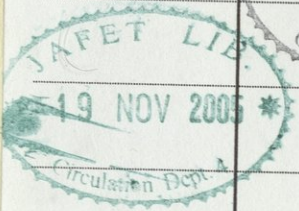


أَلَدَّهِرٍ تَبْكِي أُمَ عَلَى الدَّهْرِ تَجْزَعُ * وَمَا صَاحِبُ الْإِيَّامِ إِلَّا مُفْجَعُ
 وَلَوْ سَهَّلْتَ عَنكَ الْأَسَى كَانَ فِي الْأَسَى * عِزًّا مَعَزًّا لِلْيَبِّ وَمَقْنَعُ
 تَعَزَّ بِمَا عَزَّيْتَ غَيْرَكَ إِنَّمَا * سِهَامُ الْمَنِيَا حَامَاتٌ وَوَقْعُ
 أُهْمُنَا بِيَوْمٍ فِي حَمِيدٍ لَوْ أَنَّهُ * أَصَابَ عَرُوشَ الدَّهْرِ ظَلَّتْ تَضَعُّعُ
 وَأَدْبَنَا مَا أَدَبَ النَّاسَ قَبْلَنَا * وَلِيَكُنْهُ لَمْ يَبِيقَ لِلصَّبْرِ مَوْضِعُ
 أَلَمْ تَرِ لِلْإِيَّامِ كَيْفَ تَصَرَّمَتْ * بِهِ ، وَبِهِ كَانَتْ تُذَادُ وَتُدْفَعُ
 وَكَيْفَ اتَّقَى مَثْوَى مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقُ * عَلَى جِبَلٍ كَانَتْ بِهِ الْأَرْضُ تُنْمَعُ
 وَلَمَا أَنْقَضَتْ أَيَّامَهُ أَنْقَضَتْ الْعَلَا * وَأَضْحَى بِهِ أَنْفُ النَّدَى وَهُوَ أَجْدَعُ
 وَرَاحَ عَدُو الدَّيْنِ جَدْلَانِ يَتَّحِي * أَمَانِي كَانَتْ فِي حَشَاةٍ تَقَطُّعُ
 وَكَانَ حَمِيدٌ مَعْقِلًا رَكَعَتْ بِهِ * قَوَاعِدُ مَا كَانَتْ عَلَى الضَّمِيمِ تَرْكَعُ
 وَكَنْتُ أَرَاهُ كَالرِّزَايَا رُزْنَتُهَا * وَلَمْ أَدْرَأَنَّ الْخَلْقَ تَبْكِيهِ أَجْمَعُ
 حِمَامٌ رَمَاهُ مِنْ مَوَاضِعِ أَمْنِهِ * كَمَا أَنَّ الْخَطْبَ بِالْخَطْبِ يُقْدَعُ
 وَلَيْسَ بَغْرًا أَنْ تُصِيبَ مَنِيَّةً * حَمِي أَخْتَهَا أَوْ أَنْ يَنْدَلَ الْمُنْعُ
 لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِينَا الْمَنِيَا بِثَارِهَا * وَحَلَّتْ بِخَطْبٍ وَهَيْسَهُ لَيْسَ يَرْفَعُ

نَعَاءٌ حَمِيدًا لِلسَّرَايَا إِذَا غَدَتْ * تَذَادُ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَتُوزَعُ
 وَلِلرُّهَقِ الْمَكْرُوبِ ضَاقَتْ بِأَمْرِهِ * فَلَمْ يَدْرِ فِي حَوَامَتِهَا كَيْفَ يَصْنَعُ
 وَالْبَيْضُ خَلَّتْهَا الْبَعُولُ وَلَمْ يَدْعُ * لَهَا غَيْرَهُ دَاعِيَ الصَّبَاحِ الْمَفْرَعُ
 كَانَتْ حَمِيدًا لَمْ يَقُدْ جَيْشَ عَسْكَرٍ * إِلَى عَسْكَرِ أَشْيَأُ لَهُ لَا تَرْوَعُ
 وَلَمْ يَبْعَثْ الْخَيْلَ الْمَغِيرَةَ بِالضَّحَى * مِرَاحًا وَلَمْ يَرْجِعْ بِهَا وَهِيَ ظَلَعُ
 رَوَاجِعَ يَحْمِلُنَ النَّهَابَ وَلَمْ تَكُنْ * كَتَائِبُهُ إِلَّا عَلَى النَّهْبِ تَرْجِعُ
 هُوَى جِبَلِ الدُّنْيَا الْمُنِيعُ وَغَيْثُهَا الْ * مَرِيْعُ وَحَامِيهَا الْكَمِيُّ الْمَشِيْعُ
 وَسَيْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرُحْمُهُ * وَمِفْتَاحُ بَابِ الْخُطْبِ وَالْخُطْبُ أَفْطَعُ
 فَأَفْنَعُهُ مِنْ مُلْكِهِ وَرِبَاعِهِ * وَنَائِلُهُ قَفَرٌ مِنَ الْأَرْضِ بَلَقَعُ
 عَلَى أَى شَجْوٍ تَشْتَكِي النَّفْسُ بَعْدَهُ * إِلَى شَجْوِهِ أَوْ يَذْخُرُ الدَّمْعَ مَدَمَعُ
 أَلَمْ تَرَ أَلَّ الشَّمْسِ حَالَ ضِيَاؤِهَا * عَلَيْهِ وَأُضْحَى لَوْنُهَا وَهُوَ أَسْفَعُ
 وَأَوْحَشَتِ الدُّنْيَا وَأَوْدَى بِهَاؤِهَا * وَأَجْدَبَ مَرَعَاهَا الَّذِي كَانَ يَمْرَعُ
 وَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ مَطْمَئِنَّةً * فَقَدْ جَعَلَتْ أَوْتَادُهَا نَتَقْلَعُ
 بَكَى فَقَدَهُ رُوحَ الْحَيَاةِ كَمَا بَكَى * نَدَاهُ النَّدَى وَأَبْنُ السَّبِيلِ الْمُدْفَعُ
 وَفَارَقَتِ الْبَيْضُ الْخُدُورَ وَأَبْرَزَتْ * عَوَاطِلَ حَسْرَتِي بَعْدَهُ لَا تَقْنَعُ
 وَأَيُّقُظُ أَجْفَانًا وَكَانَ لَهَا الْكَرَى * وَنَامَتْ عَيُونٌ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَهْجِعُ
 وَلَكِنَّهُ مَقْدَارُ يَوْمٍ ثَوَى بِهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُ نِهَالٌ وَمَشْرَعُ
 وَقَدْ رَأَى اللَّهُ الْمَلَأَ بِمُحَمَّدٍ * وَبِالْأَصْلِ يَتَمَى فَرَعُهُ الْمَتَفَرَعُ
 أَعْرَمَ، عَلَى أَسْيَافِهِ وَرِمَاحِهِ * تَقْسَمُ أَنْفَالُ الْخَمِيْسِ وَتُجْمَعُ
 حَوَى عَنْ أَبِيهِ بَدَلًا رَحِمَتِهِ النَّدَى * وَطَعَنَ الْكُلَى وَالزَّاعِيَةَ شَرَعُ

(مطبعة دارالكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٣١٥٠)



DATE DUE

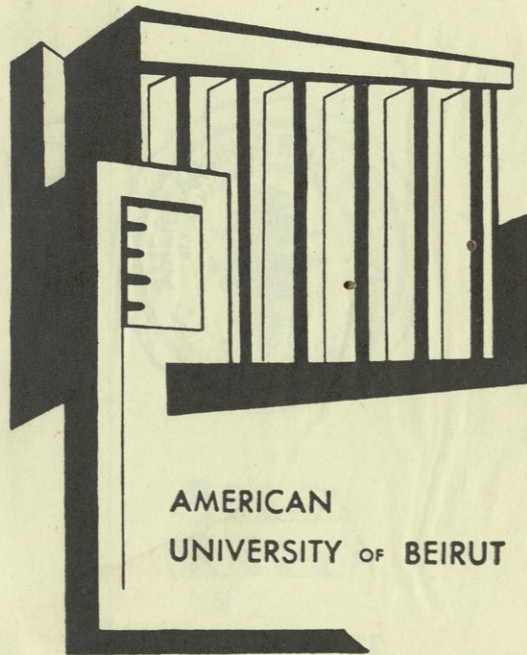
[Redacted]

رفاعي، احمد فريد
عصر المأمون

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011074



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

297.09
R56a2A
v.2